أشعة من شمس محمد (٦)

قلوب مع محمد

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: http://noursalam.free.fr/
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

دار الكتاب الحديث – القاهرة –

للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٠)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا ﴾ (الإسراء: ١٠٧، ١٠٨)

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٢، ٥٣)

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

١ ــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، فقد اهتممنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، و لم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

٢ ــ أنا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ــ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء ــ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ــ في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين.. والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبها الفني.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

٤ ــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكنا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

في الليلة السادسة من زيارة البابا لي، أصابني أرق شديد حال بيني وبين النوم، فخرجت خارج غرفتي ـــ كعادتي في مثل هذه المواقف ـــ لأنشغل بعد النجوم والنظر في أشكال تجمعاتها.. فلم يكن يجلب النوم لعيني مثل النجوم.

بينما أنا كذلك، إذا بي أسمع صوتا عذبا يصدر من غرفة البابا.. وكأنه لحن من ألحان السماء.. فاقتربت أسترق السمع، فإذا بي أسمع البابا، وهو ينشد بصوت خاشع، ممتلئ بحشرجة الدموع، قول الشاعر الصالح، وهو يبث أشواقه لرسول الله ﷺ:

كيف لا تسكب الدموعَ عيوني وهي من قبل أن تراك سجام
كيف لا تذهل العقول وتفنى أنفسُ العاشقين وهي كرامُ
يا رسول الإله إني محبّ لك والله شائق مستهامُ
يا رسول الإله في كل حينٍ لك مني تحية وسلام
يا رسول الإله شوقي عظيم زائد والغرام فيك غرام
يا رسول الإله إني نزيل ونزيل الكرام ليس يُضام

سقطت دموع حارة من عيني.. وأنا أكاد أرى ذلك الشاعر الصالح، وهو بين يدي رسول الله ﷺ يخبره بما امتلأ قلبه به من محبته والشوق إليه.

وفي تلك اللحظات خطر على قلبي أجيال من المؤمنين من الذين ملأ حب رسول الله ﷺ عليهم كيانهم، فلم يرضوا لعروش قلوبهم المقدسة شمسا غير شمسه:

منهم ذلك الصحابي الجليل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ممتلئا حزنا، فقال له النبي ﷺ:« يا فلان مالي أراك محزوناً ؟» فقال:« يا نبي اللّه شيء فكرت فيه »، فقال:« ما هو؟ » قال:« نحن نغدوا ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك»[1]

ومنهم ذلك الرجل العظيم الذي جاء إلى النبي ﷺ، فقال:« يا رسول اللّه! إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلتّ الجنة رفعتَ مع النبيّن، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا

---

(١) روي هذا الأثر مرسلا عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشَّعْبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، قال ابن كثير: وهو من أحسنها سندًا. (تفسير ابن كثير:٢/٣٥٤)

أراك»[1]

ومنهم ثوبان مولى رسول الله ﷺ.. فقد كان ــ كما يذكر الرواة ــ شديد الحب له ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له:« يا ثوبان ما غير لونك ؟» فقال:« يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في مترلة هي أدنى من مترلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا »

وقد رسم الشاعر الصالح هذه المشاعر الصادقة، فقال:

شهود طلعة طه نعمة عظمت ... قدراً وشاناً وكانت أفضل النعم

وكان ثوبان ذا وجه له شغف ... بحبه دمعه يجري بمنسجم

قال الرسول له: مالي أراك كذا ... فقال: شوقا لوجه منك مبتسم

إني ذكرتك في سري وفي علني ... ففاض دمعي وحبي غير مكتتم

فهل أراك بجنات الخلود أجب ... نعم يكون بفضل الله ذي الكرم

وعلى هؤلاء جميعا، وعلى جميع أجيال الأمة التي أحزنها ما أحزنهم نزلت هذه الآية:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩).. فلم يفرح الصحابة ولا الأجيال الكثيرة من الأمة بشيء فرحهم بهذه البشرى[2].

ساد صمت لذيذ على ذلك الجو الذي عبقت فيه أنفاس محبة النبي ﷺ سمعت خلاله البابا، وهو ينشد بنغم خاشع قول الشاعر:

يحن الجذع من شوق إليك ... و يذرف دمعه حزناً عليك

و يجهش بالبكاءوبالنحيب ... لفقد حديثكموكذا يديك

فمالي لا يحن إليك قلبي ... و حلمي أن أقبل مقلتيك

و أن ألقاك في يوم المعاد ... و ينعم ناظري من وجنتيك

فداك قرابتيوجميع مالي ... و أبذل مهجتي دوماً فداك

(١) رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة)، من طريق الطبراني، عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدي، به، ثم قال: لا أرى بإسناده بأسا، ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٣٠٨) وقال: غريب من حديث فضيل ومنصور تفرد به العابدي، قال الهيثمي في المجمع (٧/٧): "رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة.

(٢) روى ذلك البخاري ومسلم.

تـــــــدوم ســــــــعادتيونعيم روحــــــــي إذا بـــــــذلت حيـــــــاتي في رضـــــــاك

حبيــــــب القلـــــب عـــــذر لا تلمـــــني فحـــــــبي لا يحـــــــق في سمـــــــاك

ذنــــــــوبي أقعـــــــدتني عــــــن علــــــو و أطمـــــح أن أُقـــــرب مـــــن عــــلاك

لعـــــــل محـــــــبتي تســـــــمو بروحـــــــي فتجـــــبر مـــــا تصـــــدع مـــــن هـــــواك

فتذكرت الجذع كيف حن شوقا إلى رسول الله ﷺ.. فرددت بيني وبين نفسي قول الحسن البصري:(يا معشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه)

قاطعتني ألحان البابا العذبة، وهي تردد قول الشاعر:

جـــــاءت إليـــــك حمامــــــة مشـــــتاقة تشـــكو إليـــك بقلـــب صـــب واجـــف

مـــــن أخـــــبر الورقـــــاء أن مقـــــامكم حرموأنـــــــــك مـــــــــترل للخـــــــــائف

فتذكرت تلك الحمامة العاقلة العاشقة التي حدث حديثها عبد الله بن مسعود، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناهما، قال فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تصيح فقال النبي ﷺ:« من فجع هذه بفرخيها؟» قال: فقلنا: نحن قال:« فردوهما »[1]

قاطعتني ألحان البابا مرددة:

لا تلومـــــــــوا أُحـــــــــداً لاضـــــــــطراب إذ عـــــــــــــلاه فالوجـــــــــــــد داءُ

أُحـــــــد لا يـــــــلام فهـــــــو محـــــــبٌ ولكـــــــم أطـــــــرب المحـــــــب لقـــــــاءُ

فتذكرت تلك المحبة المتبادلة بين رسول الله ﷺ وجبل أحد، والتي عبر عنها ﷺ في قوله:« هذا جبل يحبنا ونحبه »[2]

ردد البابا بشوق قصيدة أحمد شوقي المشهورة التي استهلها بفرح الأكوان بمحمد:

ولـــــــد الهـــــــدى فالكائنـــــــات ضـــــــياء وفـــــــم الزمـــــــان تبســـــــموثناء

الروحـــــــوالملأ الملائـــــــك حولـــــــه للدينوالـــــــدنيا بـــــــه بشـــــــراء

و الـــــوحي يقطـــــر سلســـــلاً مـــــن سلســـــل و اللوحـــــــوالقلم البـــــــديع رواء

يـــــوم يتيـــــه علـــــى الزمـــــان صـــــباحه و مســـــــاءه بمحمـــــــد وضـــــــاء

بـــــك بشـــــر الله الســـــماء فزينـــــت و تضـــــوعت مســـــكاً بـــــك الغـــــبراء

يـــا مـــن لـــه الأخـــلاق مـــا تهـــو العـــلا منــــــهاوما يتعشـــــــق الكـــــــبراء

---

(١) رواه أبو داود والحاكموقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(٢) رواه البخاري.

فشعرت بذلك الفرح العظيم الذي سرى في قلوب الأمة عندما جاءها الحبيب، فراحت تحتضنه بكل مشاعرها حتى نسيت في حبه النفس والأهل والمال.

في ذلك الحين تذكرت زيد بن الدثنة.. وما أدراك ما زيد بن الدثنة !؟

لقد أخرجه أعداؤه من أهل مكة من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان:« أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك لضرب عنقه وإنّك في أهلك؟ » فقال زيد:« والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإنّي جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان:« ما رأيت الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمدا»[1]

وذكرت تلك الأنصارية التي قتل أبوها وأخوها وزوجها، فأخبروها بذلك، فقالت:« ما فعل الله برسول الله؟ » قالوا:« بحمد الله كما تحبين »، قالت:« أرونيه حتى أنظره »، فلما رأته قالت:« كل مصيبة بعدك جلل»[2]

وذكرت ذلك الرجل الصالح الذي ادخر لآخرته أعظم زاد يمكن أن يدخره مؤمن.. فعن أنس بن مالك قال:« بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ:« ما أعددت لها ؟» قال:« ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله »، قال:« فأنت مع من أحببت »[3]

وذكرت تلك الأمنية العزيزة التي كانت تتردد في نفس ربيعة بن كعب الأسلمي.. فلما واتته الفرصة راحة يطلبها من رسول الله ﷺ.. قال يحدث عن نفسه: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي:« سل » فقلت:« يا رسول اللّه أسألك مرافقتك في الجنة »، فقال:« أو غير ذلك؟ » قلت:« هو ذاك »، قال:« فأعني على نفسك بكثرة السجود »[4]

وذكرت قول أنس بن مالك.. وهو يبين الأثر العظيم الذي أحدثه غياب رسول الله ﷺ.. لقد قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)[5]

***

لم يخطر على بالي أولئك الأصحاب الأجلاء فقط في تلك اللحظات اللذيذة.. فقد كانوا بعضا من

(١) رواه ابن اسحاق وابن سعد.
(٢) رواه ابن اسحاق.
(٣) رواه الطبراني في الكبير.
(٤) رواه أبو داود والترمذي.
(٥) رواه الترمذي.

آلاف.. بل من عشرات الآلاف.. بل من ملايين المسلمين عبر أجيال المسلمين الطويلة..

كلهم كانوا على قلب رجل واحد يمتلئون محبة وتعظيما لرسول الله.. يجتمعون به وبحبه وبالشوق إليه، ويفترقون على ذلك.

وكانت المعاني النبيلة التي أشرقت عليهم من شمس محمد ﷺ تملؤهم بالسعادة والسكينة.. وتحول قلوبهم إلى قلب رجل واحد، فهم إخوة في الله، لهم شمس واحدة يستنيرون بنورها، ويستدفئون بدفئها.

لكن مرارة الحسرة عادت، فكدرت ذلك الشوق اللذيذ..

لقد اختلط ذلك الشوق اللذيذ لتلك الأجيال السامية بحسرة وألم على أجيالنا التي امتلأت قلوبها بالأهواء، فراحت تبحث في القمامات والمزابل والمستنقعات عن حب تملأ به قلوبها، فلم تجد في المزابل إلا الجرذان والخنافس.

***

التفت البابا، فرآني، فقام من مجلسه، ودعاني أن أدخل عليه.

دخلت، وحييته معتذرا عن تنصتي عليه، فقال: لا بأس عليك.. ربما لا يصلح لحديثنا الذي وعدتك به أمس إلا هذا المجلس.. وفي هذا الوقت من الليل الذي يفترش فيه المحبون أقدامهم ليتنعموا بحرارة الأشواق الرفيعة.

قلت: لقد سمعتك تنشد أبياتا ممتلئة حبا ساميا، وأشواقا طاهرة.

قال: تلك بعض نفثات قلوب المحبين التي امتلأت بحرارة الإيمان والمحبة والشوق.

قلت: أيام جميلة هي تلك الأيام التي عاصرها أولئك الشعراء.

قال: وتلك الأيام لن تنقضي.. إن القلوب التي عبرت لرسول الله ﷺ عن محبتها وأشواقها لا تزال حية تنبض بالحياة.

قلت: أين ذلك.. وقد ملأ الإعلام المنحرف قلوب الناس بالأشواق المدنسة، والهمم المنحطة.. لقد صار الحب بين الناس ــ في ظل هذه الحضارة المتعفنة ــ مرادفا للانحراف والفساد والرذيلة.. وصارت أشواق المحبين الرفيعة سلعة رخيصة تباع في سوق النخاسة.. وصار الأبطال في هذا الزمان هم كل راقص ومطبل ومزمر وناعق.

قال: ذلك سراب سرعان ما يفطن له الناس.. وذلك ضباب سرعان ما تشرق عليه الشمس لينقشع عن الحقيقة.

قلت: إلى متى !؟

قال: ذلك ليس بعيدا.. بل كل شيء يقرب إليه.

نظر من كوة النافذة إلى السماء المزينة بزينة النجوم، ثم قال: لقد عرفت في حياتي الطويلة كثيرا من الناس لاحظت في عيونهم ووجوههم وقلوبهم حرارة الشوق العظيم إلى محمد ﷺ.. لقد تشرفت بلقائهم والحديث

إليهم..

قاطعته قائلا: فهل ستحدثني عنهم؟

قال: أجل.. لقد وعدتك بذلك.. فسأحدثك اليوم عن القلوب التي امتلأت بحب محمد ﷺ.. أو شعرت في لحظة من لحظات الصدق بتعظيمها لرسول الله ﷺ ولما جاء به.

قلت: في أي بقعة من بقع العالم ظفرت بهذه القلوب؟

قال: في كل بقاع العالم التي زرتها.. ليس هناك محل في الأرض إلا وفيه من يلهج لسانه بذكر محمد، ويلهج قلبه بالشوق إلى محمد.

قال ذلك، ثم قام إلى محفظته، وأخرج دفترا هو أشبه بالسفر، وقد كتب عليه هذا العنوان (قلوب مع محمد)، ثم سلمنيه، قلت: ما هذا؟

قال: في هذا الدفتر الذي صحبني طيلة فترات حياتي لم أسجل إلا نفحات الصدق التي فاهت بها الألسن في لحظات تقدسها.

فتحت الدفتر، فرأيت فيه أسماء كثيرة.. فسألت: ما هذه الأسماء؟

قال: هذه أسماء من قدر الله لي أن ألقاهم، وأتنعم بالحديث معهم عن رسول الله ﷺ، وقد كان كل فرد منهم شعاعا من الأشعة التي اهتديت بها إلى شمس محمد ﷺ.

رحت أقلب الكتاب فهالتني كثرة الأسماء.. فرحت أسأل: أكل هؤلاء التقيتهم؟

قال: أجل.. كلهم قيض الله أن يكونوا سببا من أسباب هدايتي.

قلت: فهلا أذنت لي، فوضعت فهرسا ييسر عليك الاطلاع عليهم؟

قال: لقد فعلت.. لقد صنفت من رأيتهم إلى عشرة أصناف، يشملون أكثر أنواع الناس.. ففيهم: العامة والخاصة.. وفيهم الأدباء والفنانون.. وفيهم العلماء والأولياء.. وفيهم الأحبار والمفكرون.. وفيهم الأصدقاء والأعداء.

قلت:.. والأعداء !؟

قال: أجل.. حتى الأعداء لم يملكوا ــ في لحظة من لحظات الصدق، أو لحظة من لحظات عودة الوعي ــ إلا أن يعبروا عن تقديرهم الشديد لرسول الله ﷺ.

قلت: فستقص علي قصة كل اسم من هذه الأسماء.

قال: لا يفي العمر جميعا ببعض ذلك.. فلي مع كل اسم قصة من القصص.

قلت: فستحدثني عن بعضها..

قال: سأحدثك عن أفراد من كل صنف.. وأنت تستدل بمن ذكرت على من لم أذكر..

قلت: ألم تلق معلمي (معلم السلام) في بداية هذا النوع من الأشعة، كما تعودت أن تلقه !؟

قال: بلى.. لقد لقيته.. وقد كان سببا في أن أتخذ هذا الدفتر..

قلت: فحدثني عنه، فما أعظم شوقي إليه.

قال: كان يوما من أيام الشتاء الباردة.. وكان الثلج يتساقط.. ونحن في مقبرة نشيع جثمان بطل من أبطال ألمانيا..

قلت: من هو؟

قال: أعفني من هذا السؤال.. فلو عرف أهل عصرنا هذا من هو لاتهموني أو اتهموا أخي بما لا طاقة لنا به.

قلت: فكيف التقيت معلم السلام في ذلك الموقف.. هل كان أحد المشيعين؟

قال: لست أدري.. فجأة استدرت، فرأيته خلفي، وهو ينظر باستغراق لأفواه المتحدثين، وهم يرسلون مراثيهم تصحبها دموعهم.

كنت أحسبه متأثرا كالجمع الحاضر.. ولكن وجهه الواجم لم يبد لي أي أثر أو أي تأثر.

بعد انتهاء حفل التأبين، اقتربت منه، وقلت: لا شك أنك حزين لفقد هذا البطل العظيم الذي امتلأت قلوب الدنيا حزنا عليه.

قال: ويوشك أن تمتلئ بغضا له.

قلت: أخفض من صوتك.. ما الذي تقول؟

قال: أقول الحقيقة.. لقد كنت أطالع وجوه المتحدثين.. فلم أر فيها أي نسمة من نسمات الصدق.. وكنت أحلل تلك الدموع، فلم أرها غير دموع التماسيح.. وكنت أحلل تلك الكلمات، فلم أرها غير أكاذيب المنافقين..

قلت: فكيف عرفت بارتداد القلوب عنه؟

قال: لأن القلوب لا يمكن أن تظل على النفاق.. والأعين لا يمكن أن تظل ترسل دموع التماسيح.

قلت: كل الناس يحصل لهم هذا.. يمدحون، ثم يهجون.. ويشكرون ثم يكفرون.

قاطعني، وقال: إلا الصادقون.. فالقلوب لا تزداد لهم إلا محبة.. والأعين لا تزداد لهم إلا شوقا.. والأفواه لا تزداد لهم إلا مدحا.

قلت: فمن هؤلاء !؟

قال: أنا أبحث عنهم.. لقد اتخذت دفترا أسجل فيه منحنيات الحب والبغض..

قلت: هذه أول مرة أسمع بهذا النوع من المنحنيات.

قال: لأن البشر انشغلوا بمنحنيات العمران عن منحنيات الإنسان.

قلت: عرفت قيمة منحنيات العمران.. فما قيمة منحنيات الإنسان؟

قال: لقد جعل الله في قلوب البشر جواذب نحو الحقيقة.. قد يشردون عنها، ولكنهم سرعان ما يعودون إليها.. هي كإبرة البوصلة.. تحركها ذات اليمين، وذات الشمال، ولكنها تأبى إلا أن تعود إلى المحل الذي تنجذب إليه.

قلت: عرفت قيمة إبرة البوصلة.. فبها نميز الشمال من الجنوب.. وبها نهتدي في طريق البر والبحر.

قال: وببوصلة القلوب نعرف الصادقين من الكاذبين.. ونهتدي إلى أهل الحقائق، وأهل الدجل.

قلت: لقد ذكرتني بما قالت لي العذراء في ذلك الحلم الجميل.. لقد قالت في وصف تلك الشمس المقدسة:« وامتلأت القلوب حبا لها، وشوقا إليها»[1]

قال: لقد ذكرت لك العذراء مقياسا من مقاييس الحقيقة.. فابحث عنه.. فكل من بحث وصل.

قلت: أين !؟

قال: سر في أرض الله.. واتخذ لنفسك دفترا.. وابحث عن نبرات الصدق الحقيقي التي تنطلق من القلوب.. ففي تلك النبرات ما يدلك على تلك الشمس المقدسة.

قلت: لكل شخص وجهة هو موليها.

قال: ولكن الناس يفترقون في كل شيء إلا عند الشمس، فإنهم يجتمعون.. يجتمع الجميع.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كنا نشيع ذلك البطل الهمام في نظرنا.. وفي نظر أهل بلدنا!؟

قلت: أجل..

قال: ولكن قلوب الآلاف.. بل عشرات الآلاف.. بل الملايين.. تلعن هذا النعش الذي كنا نسمع تأبينه.

قلت: أجل.. وهم أحرار فيما يحبون، وفيما يبغضون.

قال: بل هم مجبرون على ذلك.. فلولا ما فعل بهم ما أبغضوه.

قلت: ولكن هؤلاء الذين أحبوه فعل لهم.. فلذلك أحبوه.

قال: وهذا مقياس آخر.

قلت: لم أفهم.

قال: هذا البطل الهمام أرضى هؤلاء على حساب أولئك.. فلذلك أبغضوه.. وسيبغضه هؤلاء أيضا.. لأن القلوب لا بد أن تعود إلى لحظات الصدق لترى الإجرام إجراما والعدل عدلا.

قلت: فأين الذي تجتمع عليه كل القلوب؟

قال: ذاك ما أبحث عنه.. فمن ظفر به ظفر بالإكسير الذي يجعله إنسانا.

قلت: فسلمني دفتر قلوبك لأنطلق مما وصلت إليه في بحثي.

قال: لا تسلم لك الحقائق إلا بالمعاناة.. فسر، وسل القلوب، وابحث.. فما وصل إلا من سار.

قال ذلك، ثم انصرف.

في ذلك المساء اشتريت دفترا.. وصرت أبحث عن كل نفحة صدق تفوح بها الألسن في لحظة تقدسها.

وهذا هو الدفتر.. وهذه قصته.

---

(١) انظر الرسالة الأولى من هذه السلسلة.

أولا ــ العامة

فتحت دفتر البابا على فصله الأول، فوجدت عنوانه (العامة)، فقلت: من تقصد بالعامة؟

قال: أقصد بهم أولئك البسطاء الذين لم تسجل أسماؤهم في دفاتير المؤرخين مع أنهم هم الذين صنعوا التاريخ.

قلت: لقد كان هذا الصنف من الناس أكثر من اتبع الرسل.

قال: لأنه لم يكن لديهم من السلطان ما يخافون عليه، فلذلك لم ينحجبوا بما انحجب به غيرهم.

كان أول اسم سجله البابا في هذا الفصل اسم (الراعي)، فسألته عنه، فقال: هذا (الراعي).. وهو أول من رأيت حرارة الصدق في كلماتهم.. فلذلك كان أول من سجلت اسمه في هذا الدفتر.. والذي كان في ذلك الحين خاليا من أي عنوان.

قلت: فحدثني حديثه.

قال: في ذلك اليوم من أيام الربيع.. وفي بلدي الذي ولدت فيه.. وبعد لقياي لمعلم السلام وإقناعه لي بتخصيص دفتر للكلمات الصادقة الصادرة عن القلوب المخلصة، خرجت إلى الحقول المجاورة لأتنسم عطر الهواء الذي لم يدنس بالمداخن، ولألتقي بالبشر الذين لم تخرجهم الحضارة عن فطرتهم.

وفي ذلك الحقل، التقيت ذلك الراعي الصادق الذي كان يمتلئ شوقا لمحمد.

لقد وجدته جالسا بجنب نعجاته من غير أن يراه أحد، أو يسمعه أحد، وهو ينشدها بصوت عذب قول الشاعر:

يـــــا حبيبـــــاً علـــــم الوجـــــد هـــــواه	يـــــاتراني بعـــــد صـــــبر هـــــل أراه؟
يـــــا جمـــــيلا لـــــيس خلـــــق في البرايـــــا	قـــــط مثـــــل أو قريـــــب مـــــن بهـــــاهُ
بـــــان في الأفـــــلاك بـــــدر أو هـــــلال	يســـــلب الألبـــــاب بعـــــض مـــــن ســـــناه
لـــــيس حســـــن في البرايـــــا أو جمـــــال	أو بـــــديع مـــــن جمـــــال مـــــا عـــــداه
يـــــا حبيبـــــا لســـــت أدري كيـــــف أوفي	قـــــدره العـــــالي وفيضـــــا مـــــن عطـــــاه
ذاك قلـــــبي هـــــام وجـــــداً يـــــا حبـــــيبي	والهـــــوى في وجـــــدكم حقـــــا ســـــباه
يـــــا دموعـــــا ذارفـــــات في الليـــــالي	هـــــل لقـــــاءُ في تعـــــيم منتـــــهاه
يـــــا لســـــعدي ســـــاعة اللقيـــــا بحـــــبي	يـــــا حبيبـــــا حـــــق ســـــعدي في حمـــــاه!
كيـــــف أســـــلو يـــــا حبيبـــــا في فـــــؤادي	جـــــاوز الأحبـــــاب عشـــــقا فـــــاكتواه
كيـــــف أســـــلو والحنايـــــا لم تـــــزل	ترقـــــب الوصـــــل ووصـــــلي لا أراهُ!

يـــا ليـــال ذبـــت فيهـــا مـــن هـــواكم والتيـــاعي يـــا حبـــيي مـــن شِـــفاه؟
طـــال بعـــدي بـــت ليلـــي مـــن هـــواكم ضـــج قلـــبي هائمـــا دمعـــي ذراه
مـــال قلـــبي نحـــو حـــب لـــيس فيـــه غضـــة للقلـــب رقـــراق نقـــاهُ!
كلمـــا همـــت وزاد الحـــب فـــيكم زاد ســـعدي بالغـــاً بي منتـــهاهُ
كيـــف لا والوعـــد مـــنكم يـــا حبـــيي أن ينـــال محـــبكم حقـــا منـــاه

اقتربت منه، وقد هزني إنشاده، فقلت: أنت عربي.. لاشك في ذلك.

قال: لا.. بل أنا ألماني.. نبتت شجرتي في هذه البلاد.

قلت: ولكن أشجار هذه البلاد لا تتقن العربية.

قال: لقد شوقني في العربية حبيبي الذي همت به.. فضبطت لساني على موجات لسانه، كما ضبطت قلبي على ترددات محبته.

قلت: عهدي بالمحبين في بلادنا يتلاقون بمحبوبيهم كما يشتهون.. ولا يقتنعون بما تقتنع به من ترديد الأشعار.

قال: ومن قال لك بأن حبي قد غاب عني.. إنه معي.

قلت: ولكني لا أراه.

قال: فأنت إذن لا تبصر.

قلت: بل أبصر.. وأنا لا أرى أمامك إلا نعجاتك.

قال: لو نظرت إلى إنسان عيني لرأتيه، ولو حدقت في سويداء قلبي لوجدته مستويا على عرشه.

قلت: لا طاقة لي بفك ألغازك، فحدثني عن حقيقة أمرك.. أخبرني عن حبيبك الذي ملكته قلبك وعقلك وروحك.

قال: محمد هو حبيبي الذي ملك علي عقلي وقلبي وروحي وجميع كياني.

قلت متعجبا: محمد !؟

قال: أجل.. محمد..

ثم راح ينشد بصوت عذب قصيدة البوصيري:

محمـــد أشـــرف الأعـــراب والعجـــم محمـــد خـــير مـــن يمشـــي علـــى قـــدم
محمـــد باســـط المعـــروف جامعـــه محمـــد صـــاحب الإحســـان والكـــرم
محمـــد تـــاج رســـل الله قاطبـــة محمـــد صـــادق الأقـــوال والكلـــم

محمد ثابت الميثاق حافظه　　محمد طيب الأخلاق والشيم
محمد رويت بالنور طينته　　محمد لم يزل نورا من القدم
محمد حاكم بالعدل ذو شرف　　محمد معدن الإنعام والحكم
محمد خير خلق الله من مضر　　محمد خير رسل الله كلهم
محمد دينه حق ندين به　　محمد مجملا حقا على علم
محمد ذكره روح لأنفسنا　　محمد شكره فرض على الأمم
محمد زينة الدنيا وبهجتها　　محمد كاشف الغمات والظلم
محمد سيد طابت مناقبه　　محمد صاغه الرحمن بالنعم
محمد صفوة الباري وخيرته　　محمد طاهر من سائر التهم
محمد ضاحك للضيف مكرمه　　محمد جاره والله لم يضم
محمد طابت الدنيا ببعثته　　محمد جاء بالآيات والحكم
محمد يوم بعث الناس شافعنا　　محمد نوره الهادي من الظلم
محمد قائم لله ذو همم　　محمد خاتم للرسل كلهم

قلت: فكيف اهتديت إلى محمد، وأنت من هذه البلاد التي لا تعرف محمدا.

غضب، وقال: كل البلاد تعرف محمدا.. بل كل الأشجار والحجارة والتربة تعرف محمدا.

قلت: أحدثك عن البشر.. لا عن الأشجار والحجارة.. فأخبرني خبرك.

قال: قصتي طويلة..

قلت: فقصها علي.

قال: سأقص عليك منها ما تحتاجه.. وأرغب بك عما لا تحتاجه.

قلت: كلي آذان صاغية لك.

قال: لقد وقعت في عز شبابي ضحية لشباك الحب المدنس..

قلت: ما الحب المدنس؟

قال: ذلك الحب الذي يتغنى به قومنا.. فيملؤون عروش قلوبهم بالمستنقعات الأسنة.

قلت: فكيف نجوت منه.. عهدي بمن يقع فيه يلم به ما ألم بالمجنون من الجنون، أو ما ألم بعروة ةإخوانه من الموت.

قال: تلك قصتي مع حبيبي محمد.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أذاقتني محبوبتي التي أسلمتها روحي من ألوان الهوان ما امتلأت به مرارة، فبعت لأجلها كل ما أملك، وأرضيتها بكل ما أطقت أن أرضيها به، فلما نفذ ما عندي من مال ومتاع هجرتني.. بل باعتني لمن يملك ما لا أملك، ويقدر على ما لا أقدر.

قلت: فكيف نجوت من خنادق الهوى الوعرة؟

قال: بمحمد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: في تلك الأيام ظهر لي أن أسافر إلى اليمن.. ولست أدري كيف لاح لي ذلك الخاطر.. وقد كانت تلك الأيام تزدهي بميلاد محمد ﷺ.. فكانت الأفراح في كل جانب، وكانت القصائد العذبة تمتلئ بها الحناجر والأسماع.. وكنت أرى الفرحة تمتلئ بها القلوب غير شاعرة بتلك الفاقة التي تصيح بها الأجساد.

لقد أثرت في تلك المشاهد مع كوني لم أكن أعرف من العربية إلا ما أحتاجه في معاملاتي الضرورية.

قلت: فكيف فهمت ما يقولون؟

قال: حرارة الصدق والإخلاص جعلتني أستوعب كل ما يذكرونه، بل أعيه وعيا تاما.

قلت: أكان ذلك وحده هو الذي أنقذك من شباك الحب المدنس؟

قال: كان ذلك هو الباب.. وكانت تلك هي البداية.. لقد كان الإخلاص والصدق هو الذي جعلني أنضم إلى تلك المجالس، وأجلس معها، وأحاول أن أستشعر المشاعر المقدسة التي تستشعرها..

لقد كان كل كل هدفي أن أنسى من جرعتني السموم.. ولم أكن أعلم أن الله الرحيم الرحمن يدخر لي كل ذلك الفضل.

قلت: لم أفهم.

قال: في مجلس من تلك المجالس لاحت أنوار عظيمة غسلت جميع أدران قلبي، ومحت جميع ظلماته.. لقد كانت أنوارا لذيذة وجميلة لا يمكن وصفها.

قلت: أنوار من تلك؟

قال: أنوار الشمس التي لا تغيب..

قلت: لم أفهم..

قال: لم يكن دليلي إلى محمد إلا محمد.

قلت: لا زلت لا أفهم.

قال: أنا لست فيلسوفا، ولا لي قدرة على الجدل، ولا على البحث المضني.. ولكن مع ذلك لي قدرة على تلمس الصدق والإخلاص.. وقد رأيت في محمد منهما كل ما يملأ القلب بالمحبة السامية.

قلت: والمسيح !؟.. ألم تكن مسيحيا؟

قال: بلى.. ولا أرى أن حبي للمسيح يغني عن حبي لمحمد.. ذلك أني لم أصل للمسيح إلا بعد أن وصلت

لمحمد.

قلت: كيف تقول ذلك، ومحمد جاء بعد المسيح.

قال: لقد عرض للمسيح قطاع طرق كثيرون شوهوه.. ولم يعد للمسيح جماله ولا كماله غير محمد.

قلت: فكيف تعلمت العربية.. وعلى من تعلمتها؟

قال: علمتني المحبة.. لقد جعلتني تلك العيون الصادقة أتعلم من غير معلم.

قلت: لقد رأيتك تردد أشعارا بليغة.

قال: تلك الأشعار من تلك المجالس.. لقد كنت جالسا في أحد تلك المجالس الآن.

قلت: أنت هنا الآن.

قال: أنا لم أخرج من هناك.. ويستحيل على قلبي أن يفارق مواطن الأحبة.

قلت: ونعجاتك؟

قال: هي لا تشغلني.. بل لو اجتمع الخلق جميعا على أن يشغلوني فلن يشغلوني.

قال ذلك، ثم انصرف إلى نعجاته، وهو يشدو بقول الشاعر:

دارُ الحبيـــــــبِ أحـــــــقُّ أن تهواهـــــــا وتَحِـــــنُّ مـــــن طـــــربٍ إلى ذِكراهـــــا
وعلـــــى الجفـــــونِ إذا هممـــــتَ بـــــزورَةٍ يـــــا ابـــــن الكـــــرامِ عليـــــك أن تغشـــــاها
فلأنـــــتَ أنـــــتَ إذا حللـــــت بطيبـــــةٍ وظللـــــتَ ترتـــــعُ في ظِـــــلال رُباهـــــا
مغـــــنى الجمـــــال مـــــن الخـــــواطرِ والـــــتي ســـــلبت ْ قلـــــوبَ العاشـــــقين حلاهـــــا
لا تحســـــبِ المِســـــكَ الـــــذَكيّ كتُربها هيهـــــاتَ أيـــــن المســـــكُ مـــــن رياهـــــا
طابـــــت فـــــان تبغـــــي لطيـــــبٍ يـــــا فـــــتى فـــــأدم علـــــى الســـــاعات لـــــثم ثراهـــــا
وابشـــــر ففـــــي الخـــــبر الصـــــحيح تقـــــررا إن الإلـــــــــه بطيبـــــــــة سماهـــــــــا
واختصـــــــها بـــــــالطيبين لطيبـــــــها واختارهـــــــا ودعـــــــا إلى ســـــــكناها
لا كالمدينـــــةِ مـــــنزلٌ وكفـــــى بها شَـــــرفاً حلـــــول محمـــــدٍ بفِناهـــــا
خُصـــــت بهجـــــرةِ خـــــيرِ مـــــن وطـــــئ الثـــــرى وأجلـــــهم قـــــدراً وأعظـــــمِ جاهـــــا
كُـــــل الـــــبلادِ إذا ذُكـــــرنَ كـــــأحرفٍ في إســـــم المدينـــــةِ لا خَـــــلا مَعناهـــــا
حاشـــــا مُســـــمى القـــــدسِ فهـــــي قريبـــــةٌ منـــــها ومكـــــة إنهـــــا إياهـــــا
لا فـــــرقَ إلا أن ثَـــــمَّ لطيفـــــةً مهمـــــا بـــــدت يجلـــــو الظـــــلام سَـــــناها

جَزمَ الجميعُ بأن خير الأراضِي ما | قد حاز ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بِساكِنِها عَلَتْ | كالنفسِ حينَ زَكَت زكا مأواها
وبهذه ظهرت مزيةٌ طيبةٍ | فغدت وكل الفضل في معناها
حتى لقد خُصت بهجرة حِبِّهِ | الله شرفها بِهِ وحَباها
ما بين قبرٍ للنبي ومنبرٍ | حيا الإلهُ رسولَه وسقاها
هذي محاسِنها فهل من عاشقٍ | كَلِفٍ شَجِيٍّ ناحلٍ بنواها
إني لأرهبُ من توقع بينها | فيظل قلبي مُجعاً أواها
ولقلما أبصرتُ حال مودعٍ | إلا رثت نفسي لَهُ وشَجاها
فلكم أراكم قافلين جماعةً | في إثر أُخرى طالبين سِواها
قَسَماً لقد أكسى فؤادي بينكم | جَزعاً وفجرَ مُقلتي مِياها
إن كان يُزعجكم طِلابُ فضيلةٍ | فالخير أجمعُهُ لَدى مَثواها
أو خِفتموا ضُراً بِها فتأملوا | بركاتِ بُقعتها فما أزكاها
أُفٍ لمن يبغي الكثيرَ لشهوةٍ | ورفاهةٍ لم يدرِ ما عقباها
فالعيشُ ما يكفي وليس الذي | يُطغِي النفوسَ إلى خَسيس مُناها
يا رب أسأل مِنك فضلَ قناعةٍ | بيسيرِها وتحصنها بِجِماها
ورضاكَ عني دائماً ولُزومها | حتى تُوافي مُهجتي أُخراها
فأنا الذي أعطيتُ نفسي سُؤلها | فقبلتُ دعواها فيا بُشراها
بجِوارِ أوفى العالمين بذمةٍ | وأعز من بالقرب منه يُباهى
من جاء بالآيات والنورِ الذي | داوى القلوب من العَمى فَشفاها
أولى الأنامِ بخطة الشرفِ التي | تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
إنسانُ عين الكونِ شرفِ التي | تدعى الوسيلة خير من يُعطاها
إنسانُ عين الكونِ شرفَ جود | يس أكسيرُ المحامِدِ طاها
حسبي فلستُ أفي ببعضِ صِفاته | لو أن لي عدد الورى أفواها

كثـــــرت محاســـــنه فـــــأعجز حصـــــرها فغـــــدت ومـــــا تلقـــــى لهـــــا أشـــــباها

سالت دموع حارة من عيني البابا، وهو يحدثني عن قصة هذا الراعي، فقلت: أرى أن هذا الراعي قد أثر فيك أيما تأثير؟

قال: أجل.. في ذلك المساء سطرت في هذا الكراس أول اسم من أسماء الصدق.. وفي ذلك اليوم عنونت هذا الدفتر بهذا العنوان، وقد كنت أحسب أني سأضع دفاتر أخرى لشخصيات أخرى.. ولكني كلما هممت بذلك انصرفت إلى محمد.

قلت: أراك وضعت في هذا الفصل أسماء كثيرة؟

قال: كل هؤلاء من العامة البسطاء الذين أتيح لي أن ألتقي بهم، وأحادثهم عن سر إقبالهم على محمد ودين محمد.

قلت: كيف أتيح لك ذلك؟

قال: لقد لاحظت مراكز الدراسات المختلفة ــ والتي تزود الفاتيكان بما يحتاجه من معلومات ــ الإقبال الشديد على الإسلام رغم التشويهات الكثيرة التي تناله من وسائل الإعلام، وقد دفع ذلك الكنيسة إلى تكليفي بالبحث عن هؤلاء المسلمين الجدد والتحاور معهم لنعرف سر الإقبال الشديد على الإسلام.

قلت: لقد أتيحت لك فرصة عظيمة إذن؟

قال: أجل.. لقد كانت هذه فرصة لا تعوض.. فقد أتيح لي أن ألتقي بأكبر عدد من المسلمين الجدد، والذين فتحوا لي قلوبهم، وحدثوني بكل إخلاص عن رحلتهم إلى الإسلام [1].

قلت: في أي بلد تمكنت من لقائهم؟

قال: في بلاد كثيرة .. فأنت تعلم سخاء الكنيسة.

قلت: فقد استغللت سخاء الكنيسة إذن؟

قال: لا.. لقد كنت صادقا معها.. ولكن صدقي مع الحق كان أعظم من صدقي معها، فلذلك انشغلت بالبحث عن أسرار الصدق عن البحث الذي طلبته مني الكنيسة، وأحسبني قد عملت بإخلاص، و لم أتقاض على ذلك إلا ما هو حق لي.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أريد من تلك الأموال التي صرفت على رحلاتي أن أسمع الحقائق من أهلها، وأنقلها بكل صدق وموضوعية، وأحسبني لم أفعل إلا ذلك.

الفتى عماد:

قلبت دفتر البابا في هذا الفصل، فرأيت اسم (الفتى عماد)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: قصة هذا الفتى مع

---

(١) من أهم مراجعي في أخبار المسلمين الجدد كتاب: رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، إعداد: عبـــدالرحمن محمـــود، وموقع: http://www.newmuslims.tk/

(٢) نقلا عن كتاب: قصة الفتى النصراني الذي اهتدى.. (بتصرف)

الإسلام طويلة، ولا يمكنني في هذا المجلس أن أحدثك عنها جميعا، ولهذا سأكتفي باختصارها لك أو ذكر ما تمس إليه الحاجة فقط منها.

قلت: فمن حدثك بها؟

قال: الشاب عماد نفسه.. لقد أتيحت لي فرصة قدمت له فيها ـــ بفضل الله ـــ بعض الخدمات، وقد ارتاح إلي، وأخبرني عن قصته بتفاصيلها.

قلت: فحدثني بما وعدتني منها.

قال: لقد بدأ هذا الشاب الطيب الذي أنار الإسلام عقله وقلبه حديثه بحمد الله على نعمة الإسلام، ثم الصلاة على النبي ﷺ الذي جعله الله واسطة لتلك النعمة، ثم أخذ يحدثني عن أسرته قبل الإسلام وبعد الإسلام، فقال: كانت أسرتي تتكون مني وأختي وأمي وأبي.. أربعة أفراد فقط وكانت أسرة نصرانية متدينة تواظب على دروس الكنيسة وتؤدي العبادات النصرانية بانتظام، وكنت أختلف إلى دروس الكنيسة مع أسرتي وكنت أواظب على أداء الصلوات، وكان والدي يعمل في تجارة الحبوب، وكنت منذ صباي ألازمه في متجر الحبوب الذي كان ملكًا للعائلة الكبيرة التي تتكون من الجد والجدة والأعمام والعمات، وكانت لي مكانة مميزة لدى الجد والجدة برغم وجود أبناء العائلة وأولاد الأعمام، وكنت الأثير لديهم، وكنت سعيدًا بهذه المكانة التي ميزتني عن أفراد العائلة وأبناء العم حتى إن الجد كان يفاخر دائما أبناء العم بذكائي ومهارتي في التجارة برغم حداثة سني حينذاك مما كان يغيظ أبناء أعمامي جدًا، وحتى عمي الذي لم يرزق أولادًا كان يبدي إعجابه بي ويقول: (إنني أعتبرك مثل ابني، وأنا على يقين بأن والدك لا يعرف قيمتك مثلي)

والحمد لله رب العالمين كنت ماهرًا في التجارة ماهرًا في التعامل مع الناس حتى اشتهرت بالدقة في الميزان وحسن التعامل مع المشترين، الأمر الذي حببهم في متجرنا وكان لي أسلوبي اللطيف الطيب في المعاملة مما فطرت به ونشأت عليه، والحمد لله كنت بأسلوبي ذلك متمشيًا مع أدب الإسلام الذي جعل الدين المعاملة والكلمة الطيبة صدقة والابتسامة في وجوه الناس صدقة، وكنت سعيدًا بهذا التقدير أيما سعادة..

وقد كان أول ما هداني الله به إلى الإسلام أمي.

قلت: أكانت أمه مسلمة؟

قال: لا.. ولكنها كانت سبب دخوله الإسلام.. لقد ذكر لي هذا الشاب الفاضل أنه شعر بتوجه أمه نحو الإسلام وميلها إليه، وقد اكتشف ذلك من خلال تعلقها بدرس التفسير الأسبوعي للشيخ محمد متولي الشعراوي – رحمه الله – فيقول:(لاحظت أن لحديث الشيخ الشعراوي الأسبوعي أثرًا أشبه بالرعد في آذان المتعصبين من النصارى، وساعة الحديث الأسبوعي ساعة نحس عندهم، وتمثل عبئًا نفسيًا ومعاناة لهم، بيد أن الأمر كان مختلفًا مع أمي كل الاختلاف حيث كنت أراها تفتح التلفاز وتشاهد درس الشيخ الشعراوي الأسبوعي يوم الجمعة فأسألها دهشا: ماذا تصنعين ؟! فتجيب قائلة: أتابع هذا الشيخ لأنظر ماذا يقول؟ وأسمعه

ربما يخرف!.. و لم أكن أدري أن ردها عليّ وقتها كان من باب التمويه حتى لا أخبر أبي[1]!

وهناك برنامج آخر كانت تتابعه أمي، وهو برنامج (ندوة للرأي) أراها تشاهده، فلما أنكر عليها ذلك مستفسرًا ترد قائلة: أشاهد وأسمع لأرى ما يقوله هؤلاء العلماء عن النصرانية والنصارى!فأسمع جوابها دون تعليق.. وأواصل مراقبتها، وكانت أمي سمحة المعاملة لطيفة المعشر، وكادت في معاملتها تبدو أقرب للإسلام والمسلمين، حتى أن أحد القساوسة سبّها ذات مرة، لأنها قالت أمامه: (والنبي) على طريقة العامة من المسلمين في مصر، فسبّها القس ونهرها قائلاً لها: أي نبي ذلك الذي تقصدين ؟! وعنفها حتى سالت الدموع من عينها.

ولما فكرت أمي في الإسلام، استدعتني ذات مرة وقالت لي: تعال يا عماد أنت ابني الوحيد ولن أجد أحدًا يسترني غيرك! فقلت لها خيرًا يا أمي، فقالت: أنت ابني الكبير وأنا مهما كانت الأمور وفي كل الأحوال أمك.. ومن المستحيل أن تتخلى عني أو ترميني في التهلكة، فقلت لها: نعم يا أمي. فقالت: ماذا تفعل لو أن أهلك قالوا عني كلامًا سيئًا ورموني بتهم باطلة ؟! فقلت لها: و لم يفعلون ذلك وهم جميعا يحبونك. قالت: ماذا تفعل لو حاولوا قتلي والتخلص مني؟فقلت لها: كيف ذلك؟و لم يحاولون قتلك وهم يحبونك ؟! قالت: ماذا تفعل لو صرت مسلمة؟هل ستحاربني مثلما الحال مع أبيك وأعمامك وأخوالك وأقاربك ؟! فكانت إجابتي لها: الأم هي الأم، وأنت أمي في كل الأحوال.

قلت ذلك.. ولكن نفسي كانت ممتلئة بالمخاوف عليها، وقوّى ذلك لدي كثرة مشاجرتها مع أبي في شأن رغبتها في اعتناق الإسلام.. وكان أبي يغضب من تهديدها بترك النصرانية ويتحداها أن تعتنق الإسلام.

وذات يوم عدت إلى المترل قادمًا من المدرسة، فلم أجد أمي، فأخذت أسأل عنها في كل مكان يمكن أن تذهب إليه ... وكانت الصدمة أني وجدت أنها أعلنت إسلامها أمام الجهات المسؤولة، وأنها لن تعود إلى البيت أبدًا..

لقد جن جنون العائلة كلها وفقدت توازنها وصارت تقول في الإسلام والمسلمين كل ما يمكن أن يقال من ألفاظ السباب واللعن والتهديد والوعيد وصار الجميع من أخوال وأعمام فضلاً عن الأب في حالة عصبية انفعالية في الكلام والسلوك فهم غاضبون من كل شئ ومن أي شئ ...

وكنت أستمع إلى الشتائم توجه إلى أمي من الأقارب والأخوال والأعمام، فمن قائل: إنها كانت تشبه المسلمين في كذا وكذا، وهذا الخال يوجه كلامه إلي قائلاً:« انظر كيف تركتكم، وتخلت عنك وعن أختك ؟! انظروا من سوف يرعاكم ويقوم على تربيتكم ؟! ».. أما العم فقد كان يقول كلامًا مشابهاً ويقول موجهاً كلامه لي ولأختي:« ترى لو ذهبت أنت وأختك إليها وتوسلتما إليها وبكيتما بين يديها.. هل ترجع إليكم؟! »

وكان العم يذهب إليها في الجهات المختصة ليوقع الإقرار تلو الإقرار بعدم التعرض لها.. وأحيانًا كان

---

(١) ورد في النصوص ما يدل على جواز اللجوء إلى الكذب في مثل هذه الأحوال من باب الضرورة، فقد جاء في حديث الغلام والراهب والساحر قول الراهب:« إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر » الحديث رواه مسلم.

يلقاها ويستعطفها كي تعود إلى ولديها لشدة حاجتهما إليها، ولكن أمي رفضت بشدة بعدما ذاقت حلاوة الإسلام والإيمان وأسلمت لله رب العالمين وتركتنا وديعة عند من لا تضيع عنده الودائع سبحانه هو خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين، وأيقنت أن الله سوف يحرسنا بعينه ويرعانا برعايته[1].

قال البابا: ثم أخبرني هذا الفتى عن بعض البلاء الذي تعرض له بسبب إسلام أمه، ثم كيف بدأ يتلقى أنوار الإسلام، فقال: أخذت العنوان وقفلت راجعًا إلى مترلنا أفكر في الأمر، وبعد يومين أو ثلاثة عزمتُ على زيارة أمي على عنوانها الجديد في موعد يسبق يوم الثلاثاء اللاحق لموقف القس السابق في درس الكنيسة، وبلغت مسكن الوالدة وشاء الله أن يكون ذلك مع أذان المغرب.. يا سبحان الله.. وأستمع إلى أذان المغرب وكأني أسمعه لأول مرة برغم سماعي له آلاف المرات ولكن الأذان هذه المرة وقع مغاير تمامًا لما ألفته من قبل.

وتستقبلني أمي أثناء الأذان مرحبةً بي، وأراها وأسمعها تردد الأذان وهي لا تكاد تنتبه لحديثي إليها، وبعد الأذان ذهبت فتطهرت وتوضأت ثم دخلت في صلاتها وجعلت تتلو القرآن في الصلاة بصوت مسموع فكنت لأول مرة أسمع القرآن من أمي، إنها تتلو سورة الإخلاص، وكان لذلك وقع لا يوصف في قلبي وأثر ساحر في نفسي.

إن مشاعري في تلك اللحظة لا أقوى على وصفها، فقد شملني نورٌ ربانيٌّ وتملكني شعور غريب تمنيت معه في تلك اللحظة لو جثوت على ركبي وقبلت قدم أمي وهي تصلي، شعرت بشيء ما يغسل قلبي، وداخلني صفاءٌ ونقاءٌ لم أشعر بهما من قبل، أجل إن شعوري في ذلك اليوم لا يمكن وصفه أو التعبير عنه.. إنه روح جديدة تسري في جسدي وعروقي، أحسست بمدى الظلم الذي وقع على أمي من ذلك القس[2] في درس الثلاثاء الماضي، تمنيت لو خنقته لافترائه على أمي دون وجه حق، لماذا يشوه سيرتها؟! أهذا عدل؟ وهل المسيح أمر بذلك ؟!

ولكن الأمر كان عند القوم مختلفًا إن لديهم قاعدة تقول:(ابحث عن الخروف الضال قبل أن تبحث عن أحد الغرباء ليدخل الكنيسة) والمعنى أنه يجب أن تبحث عن النصراني الذي ابتعد عن عبادة المسيح قبل أن تبحث عن أحد تغريه بعبادة المسيح، ويواصل الفتى تساؤله: لماذا يفتري ذلك القس على أمي؟ويشنع عليها؟ودخلت في صراع مع نفسي، وبعد الصلاة جاءت أمي بالطعام، وعرضت علي أن أتناول الطعام معها، وقالت: هيا لتأكل معي أم أنك تخشى أن تأكل معي ؟! وأنظر بعينين تفيضان بالشوق إليها والإكبار لها، وأطالع في وجهها نوراً ونضارةً لم أعهدهما من قبل، إنها أم جديدة غير التي ألفتها من قبل، إنها مختلفةٌ تمامًا.. ماهذه الوضاءة التي تنور وجهها ؟!! مالذي حدث ؟!.. ماذا حدث لأمي.. لقد عشت معها عمري.. ما الذي

---

(١) هذا الموقف مع ما فيه من الصدق والإخلاص إلا أن الداخل للإسلام لا ينبغي أن يفرط في أي شيء يرتبط بحياته وبمسؤولياته، بل إن اعتناقه للإسلام لا ينبغي أن يزيده إلا حرصا على هذه المسؤوليات.

وفي الأحكام الفقهية من التيسير في هذا الباب ما يرفع الحرج عن الداخلة إلى الإسلام من النساء من البقاء في بيت الزوجية، ولو ظل زوجها على كفره. انظر المسألة بتفاصيلها في (الضوابط الشرعية لحماية الزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) للمؤلف.

(٢) ذكر هذا الشاب في كلام حذفناه أن قسا من القسس اتهم أمه في عرضها، وأنها سجنت من طرف شرطة الآداب.

جد عليها ؟! ما هذا النور الذي يفيض به وجهها ؟!

وبرغم مشاعري المتناقضة وقتذاك من مشاعر حب الأم وكراهيتها لأنها خانت المسيح بتركها المسيحية.. إلا أني أرى أمي مختلفةً تمامًا أرى في وجهها نورًا وبياضًا وجمالاً لم أعهده في وجهها من قبل.. هل هي نضارة الإسلام؟أم هو نور الإسلام؟... وتناولت معها الطعام وكنا وحدنا لم يشهد هذا اللقاء أحد من أهلي.. ثم ودعت أمي متوجها إلى البيت أعود لأستلقي على سريري وأسترجع أحداث زيارتي لأمي كأنها حلم جميل.. لا أكاد أصدق أن هذا حدث.. ويقترب موعد درس الثلاثاء التالي وأذهب إلى الكنيسة للاستماع إلى محاضرة القس الأسبوعية في يوم الثلاثاء التالي للثلاثاء الذي تعرض فيه لأمي بالتشهير والشتم.

وأعود إلى الكنيسة للاستماع إلى المحاضرة الأسبوعية وفي هذه المرة وخلال المحاضرة تجاوز القس كل الحدود في الإساءة لأمي والتعريض بها وسبها وإهانتها بأقذر الأساليب وبأشنع الافتراءات للدرجة التي زعم فيها أنه تحدث معها في السجن وقد زارها فيه[1]، فأعجبُ لمستوى الكذب والزور والبهتان الذي بلغه القس، وأدهش لمستوى التدني الذي انحدر إليه، وبرغم ما يتمتع به ذلك القس وأمثاله من مكانة روحية كبيرة في نفوس أتباع الكنيسة إلا أني وجدت نفسي لا أحتمل السكوت عليه وعلى وقاحته فاندفعت أصيح في وجهه قائلاً: كفى إلى هذا الحد من فضلك.

وهذا أمر جلل أن يوقف فتى في سن المراهقة مثلي القس المحاضر في الجمهور وهو الأب الروحي للكنيسة وروادها، ويقاطعه فتى بهذه الجرأة وبهذا الأسلوب الغاضب المهين، ويواصل الفتى كلامه الغاضب للقس قائلاً: انتظر من فضلك.. كفى إلى هذا الحد، توقف!أنت كذاب.

ثم توجهت إلى جمهور الحاضرين قائلاً: يا جماعة، أنا كنت عند أمي (وأقسمت لهم بقسم المسيح عندهم) أني كنت عندها وعندما سمعت أمي الأذان قامت فتطهرت وتوضأت وصلت، منتهى النقاء، والله رأيت في وجهها نضارة..

عندما قلت ذلك لاحظت وجوههم اسودت وكشروا عن أنيابهم عندما سمعوني أتحدث عن أمي بهذه الطريقة وواصلت الحديث قائلاً لهم: والله إن القس لكذاب وأمي ليست في السجن كما يزعم القس، وهاكم العنوان لمن يرغب بزيارتها.. أمي بفضل الله رب العالمين حين سمعتها تقرأ القرآن أمامي كانت تغسلني وتطهرني، فقاطعني القس قائلاً: اسكت يا ولد وإلا سأطردك خارج الكنيسة.

ثم حدثني الفتى عن لجوئه إلى الإنجيل ليبحث فيه عن السكينة والهداية والهدوء فيكتشف أنه محرف، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله حقًا، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال: فالإنجيل عندما طالعته وجدته كتابًا كأي كتاب يؤلف في سيرة شخص أو عظيم حيث تطالعك أخبار عن المسيح الذي يأكل والمسيح الذي يشرب والمسيح الذي يموت والمسيح الذي يقوم من الذي يتحدث بهذه الأخبار؟ هل هو الله؟أم هو المسيح ؟!

---

(١) بالرغم من عدم وثوقنا التام بما ذكر هنا إلا أن مثل هذا النوع من الكذب الفاضح مما تمتلئ به المواقع التبشيرية، فهم يفترون على علماء الأمة وصالحيها بل على رسولها من الأكاذيب ما لا يمكن تصوره.

إن الإنجيل كتاب كأي كتاب يحكي قصة شخص أكل وشرب ونام، وفعل كذا من المعجزات أو له كذا من المعجزات والخوارق، من المتحدث في كل هذا؟أو من الذي كتب هذه الأخبار بعد وفاة المسيح؟ ولماذا تتعدد الروايات وتختلف وتتناقض أحياناً بتعدد الأناجيل واختلافها، حتى والمسيح على الصليب – كما يزعمون – ينادي: (إيلي إيلي لماذا؟ شبقتني !)

أي: إلهي إلهي لماذا تركتني وخذلتني ؟! لماذا؟ينادي مَنْ؟وهو من؟وكيف يتخلى الأب عن ابنه وهو يستصرخه ويستنصره ويستنجد بــه ؟! أهذا منطق؟! أسئلة كثيرة رَسمتْ أمامي علامات استفهام كبيرة.

وقد أصاب الفتى الملل من قراءة الإنجيل ــ كما يحكي ــ لأن قراءته الإنجيل ضاعفت من حيرته و لم تجب عن أسئلته، ويمضي الفتى قائلاً: ولكن حرصي على الوصول للحقيقة دفعني لمزيد من المراجعة ومعاودة قراءة الإنجيل مرة أخرى حتى انتهيتُ من قراءته لأصل إلى الاطمئنان النفسي والعقلي والروحي فما وجدت إلا المزيد من الإبهام والغموض، فاشتدت حيرتي حتى طالعت في الإنجيل قول السيد المسيح: (الحق الحق أقول لكم: إن من يتبع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية)

الله أكبر. الله أكبر إذاً جاءت صريحة وعلى لسان المسيح عبارته تلك التي تؤكد أنه رسول من عند الله، فقوله: (الحق. الحق) قسم وقوله: (إن من يتبع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني) تأكيد على أنه رسول من عند الله وقوله: (فله حياة أبدية) أي له الجنة والحياة الخالدة في الجنة.

قلت للبابا: فقد أسلم الفتى بعد هذا إذن؟

قال: أجل.. لقد أسلم.. وأسلمت بعد ذلك عائلته بعد عناء شديد تعرض له، ولكن الله أنقذه بفضله وكرمه كما ينقذ كل صادق ومخلص.

الفتاة سناء:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سناء)[1]، فسألت البابا عنها، فقال: هذه فتاة هداها الله للإسلام، وقد التقيت بها في مصر، وكان مما ذكرته لي قولها: نشأت كأي فتاة نصرانية مصرية على التعصب للدين النصراني، وحرص والداي على اصطحابي معهما إلى الكنيسة صباح كل يوم أحد لأقبل يد القس، وأتلو خلفه التراتيل الكنسية، وأستمع إليه وهو يخاطب الجمع ملقنا إياهم عقيدة التثليث، ومؤكدا عليهم بأغلظ الأيمان أن غير المسيحيين مهما فعلوا من خير فهم مغضوب عليهم من الرب، لأنهم ــ حسب زعمه ــ كفرة ملاحدة.

كنت أستمع إلى أقوال القس دون أن أستوعبها، شأني شأن غيري من الأطفال، وحينما أخرج من الكنيسة أهرع إلى صديقتي المسلمة لألعب معها، فالطفولة لا تعرف الحقد الذي يزرعه القسيس في قلوب الناس.

كبرت قليلا، ودخلت المدرسة، وبدأت بتكوين صداقات مع زميلاتي في مدرستي الكائنة بمحافظة

---

(١) انظر: كتاب (العائدون إلى الله) للشيخ محمد بن عبد العزيز المسند.

السويس.. وفي المدرسة بدأت عيناي تتفتحان على الخصال الطيبة التي تتحلى بها زميلاتي المسلمات، فهن يعاملنني معاملة الأخت، ولا ينظرن إلى اختلاف ديني عن دينهن ـــ وقد فهمت فيما بعد أن القرآن الكريم حث على معاملة الكفار غير المحاربين معاملة طيبة طمعا في إسلامهم وإنقاذهم من الكفر، كما قال ﷻ:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)

إحدى زميلاتي المسلمات ربطتني بها على وجه الخصوص صداقة متينة، فكنت لا أفارقها إلا في حصص التربية الدينية، إذ كنت ـــ كما جرى النظام أدرس مع طالبات المدرسة النصرانيات مبادئ الدين النصراني على يد معلمة نصرانية ـــ كنت أريد أن أسأل معلمتي كيف يمكن أن يكون المسلمون ـــ حسب افتراضات المسيحيين ـــ غير مؤمنين، وهم على مثل هذا الخلق الكريم وطيب المعشر؟ لكني لم أجرؤ على السؤال خشية إغضاب المعلمة حتى تجرأت يوما وسألت، فجاء سؤالي مفاجأة للمعلمة التي حاولت كظم غيظها، وافتعلت ابتسامة صفراء رسمتها على شفتيها وخاطبتني قائلة:« إنك ما زلت صغيرة ولم تفهمي الدنيا بعد، فلا تجعلي هذه المظاهر البسيطة تخدعك عن حقيقة المسلمين كما نعرفها نحن الكبار »

صمت على مضض على الرغم من رفضي لإجابتها غير الموضوعية، وغير المنطقية.

وتنتقل أسرة أعز صديقاتي إلى القاهرة، ويومها بكينا لألم الفراق، وتبادلنا الهدايا والتذكارات، ولم تجد صديقتي المسلمة هدية تعبر بها عن عمق وقوة صداقتها لي سوى مصحف شريف في علبة قطيفة أنيقة صغيرة، قدمتها لي قائلة:« لقد فكرت في هدية غالية لأعطيك إياها ذكرى صداقة وعمر عشناه سويا فلم أجد إلاهذا المصحف الشريف الذي يحتوي على كلام الله ».. تقبلت هدية صديقتي المسلمة شاكرة فرحة، وحرصت على إخفائها عن أعين أسرتي التي ما كانت لتقبل أن تحمل ابنتهم المصحف الشريف.

وبعد أن رحلت صديقتي المسلمة، كنت كلما تناهى إلي صوت المؤذن، مناديا للصلاة، وداعيا المسلمين إلى المساجد، أعمد إلى إخراج هدية صديقتي وأقبلها وأنا أنظر حولي متوجسة أن يفاجأني أحد أفراد الأسرة، فيحدث لي مالا تحمد عقباه.

ومرت الأيام وتزوجت من شماس كنيسة العذراء مريم، ومع متعلقاتي الشخصية، حملت هدية صديقتي المسلمة (المصحف الشريف)، وأخفيته بعيدا عن عيني زوجي، الذي عشت معه كأي امرأة شرقية وفية ومخلصة وأنجبت منه ثلاثة أطفال، وتوظفت في ديوان عام المحافظة، وهناك التقيت بزميلات مسلمات متحجبات، ذكرنني بصديقتي الأثيرة، وكنت كلما علا صوت الأذان من المسجد المجاور، يتملكني إحساس خفي يخفق له قلبي، دون أن أدري لذلك سببا محددا، إذ كنت لا أزال غير مسلمة، ومتزوجة من شخص ينتمي إلى الكنيسة بوظيفة يقتات منها، ومن مالها يطعم أسرته.

وبمرور الوقت، وبمحاورة زميلات وجارات مسلمات على دين وخلق بدأت أفكر في حقيقة الإسلام والمسيحية، وأوازن بين ما أسمعه في الكنيسة عن الإسلام والمسلمين، وبين ما أراه وألمسه بنفسي، وهو ما يتناقض مع أقوال القسس والمتعصبين النصارى.

بدأت أحاول التعرف على حقيقة الإسلام، وأنتهز فرصة غياب زوجي لأستمع إلى أحاديث المشايخ عبر الإذاعة والتلفاز، لعلي أجد الجواب الشافي لما يعتمل في صدري من تساؤلات حيرى، وجذبتني تلاوة الشيخ محمد رفعت، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد للقرآن الكريم، وأحسست وأنا أستمع إلى تسجيلاتهم عبر المذياع أن ما يرتلانه لا يمكن أن يكون كلام بشر، بل هو وحي إلهي.

وعمدت يوما أثناء وجود زوجي في الكنيسة إلى دولابي، وبيد مرتعشة أخرجت كتري الغالي (المصحف الشريف) وفتحته وأنا مرتبكة، فوقعت عيناي على قوله ﷻ:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩) ارتعشت يدي أكثر وصببت وجهي عرقا، وسرت في جسمي قشعريرة، وتعجبت لأني سبق أن استمعت إلى القرآن كثيرا في الشارع والتلفاز والإذاعة، وعند صديقات المسلمات، لكني لم أشعر بمثل هذه القشعريرة التي شعرت بها وأنا أقرأ من المصحف الشريف مباشرة بنفسي.

هممت أن أواصل القراءة إلا أن صوت أزيز مفاتح زوجي، وهو يفتح باب الشقة حال دون ذلك، فأسرعت وأخفيت المصحف الشريف في مكانه الأمين، وهرعت لأستقبل زوجي.

وفي اليوم التالي لهذه الحادثة ذهبت إلى عملي، وفي رأسي ألف سؤال حائر، إذ كانت الآية الكريمة التي قرأتها قد وضعت الحد الفاصل لما كان يؤرقني حول طبيعة عيسى عليه السلام، أهو ابن الله كما يزعم القسيس ـــ تعالى الله عما يقولون ـــ أم أنه نبي كريم كما يقول القرآن؟ فجاءت الآية لتقطع الشك باليقين، معلنة أن عيسى، عليه السلام، من صلب آدم، فهو إذن ليس ابن الله، فالله تعالى ﴿ :﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(الاخلاص)

تساءلت في نفسي عن الحل وقد عرفت الحقيقة الخالدة، حقيقة أن (لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) أيمكن أن أشهر إسلامي؟ وما موقف أهلي مني، بل ما موقف زوجي ومصير أبنائي؟ طافت بي كل هذه التساؤلات وغيرها وأنا جالسة على مكتبي أحاول أن أؤدي عملي لكني لم أستطع، فالتفكير كاد يقتلني، واتخاذ الخطوة الأولى أرى أنها ستعرضني لأخطار جمة أقلها قتلي بواسطة الأهل أو الزوج والكنيسة.

ولأسابيع ظللت مع نفسي بين دهشة زميلاتي اللاتي لم يصارحنني بشيء، إذ تعودنني عاملة نشيطة، لكنني من ذلك اليوم لم أعد أستطيع أن أنجز عملا إلا بشق الأنفس.

وجاء اليوم الموعود، اليوم الذي تخلصت فيه من كل شك وخوف وانتقلت فيه من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فبينما كنت جالسة ساهمة الفكر، شاردة الذهن، أفكر فيما عقدت العزم عليه، تناهي إلى سمعي صوت الأذان من المسجد القريب داعيا المسلمين إلى لقاء ربهم وأداء صلاة الظهر، تغلغل صوت الأذان داخل نفسي، فشعرت بالراحة النفسية التي أبحث عنها، وأحسست بضخامة ذنبي لبقائي على الكفر على الرغم من عظمة نداء الإيمان الذي كان يسري في كل جوانحي، فوقفت بلا مقدمات لأهتف بصوت عال بين ذهول زميلاتي: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله)، فاقبل علي زميلاتي وقد تحيرن من ذهولهن، مهنئات باكيات بكاء الفرح، وانخرطت أنا أيضا معهن في البكاء، سائلة الله أن يغفر لي ما مضى من حياتي، وأن يرضى عني في حياتي الجديدة.

كان طبيعيا أن ينتشر خبر إسلامي في ديوان المحافظة، وأن يصل إلى أسماع زملائي وزميلاتي النصارى، اللواتي تكفلن ــ بسبب سخطهن ــ بسرعة إيصاله إلى أسرتي وزوجي، وبدأن يرددن عني مدعين أن وراء القرار أسباب لا تخفى.

لم آبه لأقوالهن الحاقدة، فالأمر الأكثر أهمية عندي من تلك التخرصات: أن أشهر إسلامي بصورة رسمية، كي يصبح إسلامي علنا، وبالفعل توجهت إلى مديرية الأمن حيث أنهيت الإجراءات اللازمة لإشهار إسلامي.

وعدت إلى بيتي لأكتشف أن زوجي ما إن علم بالخبر حتى جاء بأقاربه وأحرق جميع ملابسي، واستولى على ما كان لدي من مجوهرات ومال وأثاث، فلم يؤلمني ذلك، وإنما تألمت لخطف أطفالي من قبل زوجي ليتخذ منهم وسيلة للضغط علي للعودة إلى ظلام الكفر.. آلمني مصير أولادي، وخفت عليهم أن يتربوا بين جدران الكنائس على عقيدة التثليث، ويكون مصيرهم كأبيهم في سقر.. رفعت ما اعتمل في نفسي بالدعاء إلى الله أن يعيد إلي أبنائي لتربيتهم تربية إسلامية، فاستجاب الله دعائي، إذ تطوع عدد من المسلمين بإرشادي للحصول على حكم قضائي بحضانة الأطفال باعتبارهم مسلمين، فذهبت إلى المحكمة ومعي شهادة إشهار إسلامي، فوقفت المحكمة مع الحق، فخيرت زوجي بين الدخول في الإسلام أو التفريق بينه وبيني، فقد أصبحت بدخولي في الإسلام لا أحل لغير مسلم، فأبى واستكبر أن يدخل في دين الحق، فحكمت المحكمة بالتفريق بيني وبينه، وقضت بحقي في حضانة أطفالي باعتبارهم مسلمين، لكونهم لم يبلغوا الحلم، ومن ثم يلحقون بالمسلم من الوالدين.

حسبتُ أن مشكلاتي قد انتهت عند هذا الحد، لكني فوجئت بمطاردة زوجي وأهلي أيضا، بالإشاعات والأقاويل بهدف تحطيم معنويات ونفسيتي، وقاطعتني الأسر النصرانية التي كنت أعرفها، وزادت على ذلك بأن سعت هذه الأسر إلى بث الإشاعات حولي بهدف تلويث سمعتي، وتخويف الأسر المسلمة من مساعدتي لقطع صلتهن بي.

وبالرغم من كل المضايقات ظللت قوية متماسكة، مستمسكة بإيماني، رافضة كل المحاولات الرامية إلى ردتي عن دين الحق، ورفعت يدي بالدعاء إلى مالك الأرض والسماء، أن يمنحني القوة لأصمد في وجه كل ما يشاع حولي، وأن يفرج كربي، فاستجاب الله دعائي وهو القريب المجيب، وجاءني الفرج من خلال أرملة مسلمة، فقيرة المال، غنية النفس، لها أربع بنات يتامى وابن وحيد بعد وفاة زوجها، تأثرت هذه الأرملة المسلمة للظروف النفسية التي أحياها، وتملكها الإعجاب والإكبار لصمودي، فعرضت علي أن تزوجني بابنها الوحيد (محمد) لأعيش وأطفالي معها ومع بناتها الأربع، وبعد تفكير لم يدم طويلا وافقت، وتزوجت محمدا ابن الأرملة المسلمة الطيبة.

وأنا الآن أعيش مع زوجي المسلم (محمد) وأولادي، وأهل الزوج في سعادة ورضا وراحة بال، على الرغم مما نعانيه من شظف العيش، وما نلاقيه من حقد زوجي السابق، ومعاملة أسرتي المسيحية، ولا أزال بالرغم مما فعلته عائلتي معي أدعو الله أن يهديهم إلى دين الحق ويشملهم برحمته مثلما هداني وشملني برحمته، وما ذلك علي الله ــ سبحانه وتعالى ــ بعزيز.

سوسن هندي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سوسن هندي)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيتها مع سناء.. وقد حدثتني عن قصة إسلامها، فقالت: نشأت في أسرة مسيحية وكنت الابنة الوحيدة بين أربعة أشقاء من الذكور، ولذا كنت مدللة للغاية، وتعلقت بالإسلام منذ الصغر قبل أن أصل لمرحلة التفكير، ففي المرحلة الابتدائية كنت المسيحية الوحيدة في الفصل إلى جانب مسيحي آخر، وكنت أحرص على حضور درس الدين الإسلامي مع زميلاتي، وكان مدرس اللغة العربية بأسلوبه المحبب إلينا وشرحه المبسط يأسرني بما يرويه عن الإسلام.

وفي المرحلة الإعدادية كنت أحرص على استعارة كتاب الدين الإسلامي المقرر، وبي شغف شديد لاستيعاب كل ما فيه، كذلك كان حالي في المرحلة الثانوية، وكان كتاب (عبقرية عمر) للأستاذ محمود العقاد الذي كان مقرراً علينا في المرحلة الثانوية، نقطة تحول في تفكيري.

سكتت قليلا، ثم قالت: رغم تشبث أبي بمسيحيته وتردده على الكنيسة إلا أن مكتبته الخاصة بمترلنا بها عدد كبير من الكتب الإسلامية، وكنت أتسلل إلى المكتبة في غيبته لأشبع نهمي للاطلاع المجرد بلا هدف، وبالتدريج تكونت لدي الرغبة في المزيد من البحث عن المجهول بالنسبة لي من أجل العلم والمعرفة.

في هذه المرحلة كنت مسيحية شديدة التعصب مواظبة على التردد على الكنيسة، وكنت أشعر بالغيرة على عقيدتي، وهي تتضاءل أمام الإسلام، وكنت أتمنى أن أرى ــ وقتها ــ في عقيدتي المسيحية من القيم والمبادئ القويمة في العقيدة والشريعة والسلوك ما هو موجود في الإسلام، وكان كل همي أن أستوعب (عبقرية عمر) المقرر علينا رغبة في الحصول على درجة كبيرة في اللغة العربية التي أعشقها، وحتى يتسنى لي الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، ولم أكن أدري أن هذا القسم لا يلتحق به إلا المسلم أو المسلمة، وشخصية عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ أذهلتني، وقد كان عليٌّ ــ رضي الله عنه ــ محقاً عندما قال:« عقمت الأمهات أن يلدن مثل عمر »

لقد أرسى أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ الدولة المسلمة سياسياً لكن عمر أرساها سياسياً وفكرياً معاً.

لم تكن أسرتي تشعر بشيء، بل كان والدي لا يرى مانعاً من مطالعتي للكتب الإسلامية لزيادة المعلومات لا أكثر، وكان هناك إنسان واحد يحس بي وبحيرتي، قس شاب متفتح حر التفكير، كان يقول لي:(أنت ملزمة بما ترين، ولست بملزمة بنصوص الإنجيل التي تقلقك، إني أراك باحثة عن الحقيقة)

وعندما علم بحزني لعدم التحاقي بقسم اللغة العربية، أشار علي بقسم التاريخ، وقال لي:(ستجدين في التاريخ ما تبحثين عنه)، وكان هذا القس يحمل ليسانس آداب قسم تاريخ.

توفي القس، وكم حزنت على وفاته، فلم أشك لحظة واحدة في أنه مؤمن يكتم إيمانه، وزاد حزني أن القس الذي حل محله، كان على عكسه تماماً، وكان يضيق بمحاورتي له، وما أكثر ما قال لي: إنك تفسدين زميلاتك الشابات في الكنيسة.

فقدت الثقة في الإنجيل وعندما التحقت بالجامعة.. حملت معي فكراً قلقاً بالنسبة لمسيحيتي وفقدت الثقة في الأناجيل وشروحها الكثيرة، ولكنها على طرفي نقيض، ولكن لا أكتمك سراً حين أقول: إن الإنجيل كان عاملاً مساعداً لي على إشهار إسلامي وطالما وضعته أمام القرآن الكريم في إطار المقارنة فأحسست بأن لا وجه للمقارنة.

كان الحوار بيني وبين الشباب المسلم داخل الجامعة على أشده ولكن بروح سمحة، وما أن ينتهي الحوار حتى نعود أصدقاء، وفي السنة الأخيرة قررت أن يكون حواري مع أستاذ بالكلية، هذا الأستاذ كان على بينة من دينه في غير تعصب.

وقبل امتحان السنة النهائية، فاجأت الأستاذ بعزمي على الدخول في الإسلام عن اقتناع تام، ودهشت عندما طلب مني أن أتريث حتى أنتهي من الامتحان، لكني أصررت على موقفي.

وغادرت منزلي لأعيش في ضيافة أسرة إحدى زميلاتي حتى استطعت إشهار إسلامي، حينها جن جنون أسرتي التي فقدت كل أمل في أن أعود إليها، وأبلغوا عني أنني مخطوفة، ولكنني ذهبت إلى الأجهزة المختصة وكتبت إقراراً بأنني لست مختطفة.

بعدها تزوجت شاباً مسلماً ملتزماً من الذين كنت أحاورهم في الجامعة و لم تتعد أو تتجاوز علاقتي به حدود الحوار، ولكن ما إن علم بإعلان إسلامي حتى بادر بالتقدم لخطبتي وقبلت على الفور، وكنت أعرف فيه دماثة الخلق وهدوء الطبع بالإضافة إلى استقامته والتزامه بدينه، قد رحبت أسرته بي ترحيباً شديداً وأحسست بأنني في أمان بين هذه الأسرة المؤمنة، وحاولت وكنت أود أن تكون هناك صلة بيني وبين أسرتي.. فالله سبحانه وتعالـــى يقول في محكم التنزيل:﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (لقمان:١٥)

حاولت أن أكون على هذا المثال ولكن بلا جدوى،وقد رأى زوجي أن أبدأهما بالزيارة، وبالفعل قمت بزيارة أبي إلا أنه رفض هذه الزيارة، ونصحني بعدم زيارة أمي وأخوتي.

وأخيراً أقول: الحمد لله.. أنا الآن ربة بيت أبحث عن عمل يليق بي حيث أعيش مع زوجي وابنتيّ أسماء وإسراء، وأكتب في بعض المجلات والصحف الدينية، وشغلي الشاغل حالياً أن يظهر أول كتاب لي وهو (قصتي مع الإسلام)

إيفا ماريا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إيفا ماريا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة ألمانية، وقد التقيت بها في بلدي ألمانيا، وقد حدثتني عن قصة دخولها الإسلام، فقالت: لقد وجدت بادىء الأمر أن صورة المعبود عند النصارى قريبة جداً منا معشر البشر، وقد أضيفت عليها صفات الإنسان لدرجة لا تجعلها تنطبق على خالق كل شيء، كما أن صورة السيد المسيح عليه السلام التي يجمع فيها بين الإنسان وصفة الخالق، هذه الصورة لا يمكن تصديقها أبداً.

إلى جانب ذلك، فقد ورد بخاطرى أن المسيحية ليست إلا علاقة بين الإنسان وربه، ولاشأن لها بأى حال

من الأحوال بشئون الناس الاعتيادية كالشئون المالية مثلا أو العمالة أو أى نوع من أنواع التقنين لحياة الناس، أضف إلى ذلك التوجيهات العامة، التى وجدت أنها عسيرة التطبيق، ومن ذلك مبدأ المحبة، محبة الإنسان لأخيه الإنسان، هذا المبدأ لا يمكن أن تطبقه جماهير الناس فى ظل العقيدة النصرانية.

هذه الأفكار التى كانت بخاطرى وقعت إبان الفترة التى تسمى فترة تمرد الطلاب على الرأسمالية، فعندما بحثت هذه القضايا مع زميل مسلم ــ أصبح فيما بعد زوجاً لى ــ وجدت أن الإسلام قد وضع فى اعتباره كل هذه المشكلات، واهتم بها أعظم الاهتمام كمشكلة الاستغلال أو القوانين العامة الديقراطية وغير الديمقراطية ومشكلة المال والإقتصاد وغيرها.. فقد أوجد الإسلام الحلول المناسبة لكافة هذه المشكلات الدنيوية.

وكم كان تأثرى عظيماً حينما علمت أن الإسلام يعترف بالإنسان باعتباره مخلوقاً له روح وجسد فى آن واحد، كما أحببت مبدأ الاتصال المباشر بين الإنسان وخالقه دون أية وساطة من أى نوع بينهما، فقد شعرت أن من اللائق جداً للإنسان أن يخضع لخالقه فقط لا لأى أحد من خلقه.

كذلك شرح لى زميلى المسلم بأنه لا يوجد فى الإسلام أى فصل بين الدين والدولة، فاقتنعت بذلك تماماً، حيث وجدت من الضرورى أن لا يقتصر الإيمان والاعتقاد الدينى على الشئون الشخصية فحسب، بل لابد أن يشمل كافة جوانب الحياة الإنسانية.. وهذه صفة مميزة وخاصية فريدة للدين الإسلامى الحنيف، فهو لا يرفع شعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، بل على العكس من ذلك تماماً إذ أن العبادة فى الإسلام لا تقتصر على المساجد، بل تمتد لتشمل الحياة البشرية بأسرها.

سكتت قليلا تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: عندما كنت أمر فى هذه المرحلة من تجميع المعلومات والقيام بدراسات دينية صادفت بعض المصاعب والعقبات، وكان عسيراً على نفسى أن أتقبل القيود التى يفرضها الإسلام على المرأة، والتى ظننت خطأ حينذاك أنها تحد من حريتها الشخصية، وهذه على كل حال هى نفس الحرية والتسيب الذى أعتدت أن انتقده فى ديانتى السابقة، وهى حرية يساء فهمها واستخدامها فقد اكتشفت أن الفهم النظرى شىء والتطبيق العلمى شىء آخر تماماً، وأذكر هنا اللباس الإسلامى للمرأة، فقد كان فى البداية مشكلة كبرى بالنسبة لى، وأظن أن هذا ينطبق على معظم السيدات الألمانيات المسلمات، فإلى جانب الإحساس بعدم الارتياح والشعور بالحر الشديد والمرأة فى لباس كامل فى الصيف، فقد كان من العسير على أن أصمد أمام اسئلة التهكم والاحتقار التى كانت توجه لى، وقد استمر ذلك حتى وفقنى الله إلى الرد بإجابات كريمة وردت لى اعتبارى أمام نفسى وأمام الناس، دون أن أحس بأننى قد أوذيت أو أخدش حيائى.

ثم تعرفت على مجموعة من الشابات المسلمات، فكم كان تأثرى عظيماً لما لمسته بين أفرادها من حب وجو أخوى يسود بين الجميع، وهو جو يختلف تماماً عما هو سائد بين أى جماعة عرفتها من قبل، فقد منحنى الانضمام إلى هذه الجماعة الإسلامية إحساساً بالسعادة واليقظة، وهكذا اقتنعت أننى اتخذت القرار الصحيح حين أصبحت مسلمة، وقد كان ذلك الإحساس بمثابة تعويض مناسب لكل ما لقيته من عقبات نتيجة لهذا القرار، ولدينا الآن اجتماع أسبوعى للمرأة المسلمة مع أطفالنا حيث نتعلم المزيد عن ديننا الإسلامى الجديد.

كايسي ستاربك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كايسي ستاربك)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة أمريكية، وقد حدثتني عن نفسها، فقالت: إدراكي الأوَّليِّ حول فكرة الخلاص المسيحيَّة جاء بعد تعميدي وأنا في سنٍّ مبكِّرٍ في إحدى الكنائس المعمدانيَّة الجنوبيَّة، فقد عُلِّمْتُ في مدرسة الأحد: (إذا لم تكوني مُعمَّدة، فإنَّك ستذهبين إلى جهنَّم)

حصل تعميدي لأنِّي كنت أُريد إرضاء النَّاس، فقد سألتُ أمِّي عن التعميد ـــ حين جاءت إلى غرفتي في إحدى الأُمسيات ـــ فشجَّعتني لكي أفعل ذلك، وهكذا قرَّرت في يوم الأحد التالي أن أذهب إلى مُقدِّمة القاعة الكنسيَّة، وخلال التراتيل النِّهائيَّة للموعظة، توجَّهتُ سائرةً إلى الأمام لأُقابل الرَّاهب الشاب.. كانت هناك ابتسامةٌ على وجهة، فحيَّاني، وقعد بجانبي على المقعد الطويل. سألني: لماذا تريدين أن تفعلي هذا؟.. انتظرت بُرهةً ثمَّ قلت: لأنِّي أُحبُّ المسيح، وأنا أعرف أنَّه يحبُّني. وبعد انتهاء هذا التصريح، جاء إليَّ أعضاء الكنيسة وعانقوني.. على أن تكون مراسم الغمر في الماء بعد بضعة أسابيع.

خلال سنيِّ عمري المبكِّرة في الكنيسة ـــ وحتى في صفِّ الرَّوضة ـــ أذكر أنِّي كنت مُشاركةً في الإيقاع الصَّوتيِّ أثناء دروس مدرسة الأحد. فيما بعد ـــ أثناء سنيِّ مراهقتي الأولى ـــ كنت عضواً في مجموعة البنات الفتيَّات، والَّتي التقت في الكنيسة من أجل النَّشاطات الأسبوعيَّة، وقامت بالتَّخييم سنويَّاً من أجل الرياضة الروحيَّة. وفي صباي حضرت مخيَّماً مع أعضاءٍ أكبر منِّي سنَّاً من المجموعة الشبابيَّة. وعلى الرغم من أنِّي لم أقض الكثير من الوقت معهم في السابق، إلَّا أنَّهم كانوا يعرفونني كإبنة المنسِّق للشبيبة، أو الفتاة الَّتي تعزف البيانو في المناسبات الكنسيَّة الخاصَّة.

وفي إحدى أُمسيات هذا المخيَّم كان هناك رجلٌ يتحدَّث عن زواجه. تحدَّث عن قصَّة لقائه بزوجه. لقد ترعرع في الولايات المتحدَّة الأمريكيَّة حيث تُعتبر المُواعدة أمراً طبيعيَّاً، ولكن ـــ في تقاليد تلك الفتاة ـــ كان بإمكانه فقط أن يلتقي بها برفقة حارسٍ معهما، وبما أنَّه كان مُعجباً بها فقد قرَّر أن يستمرَّ في لقاءها. وكان هناك شرطٌ آخر، وهو أنَّهما لم يكن بإمكانهما أن يلمس أحدهما الآخر حتى يعقدا الخطبة[1].وبعد أن تقدَّم لطلب يدها، سُمح لهما بإمساك الأيدي. كان هذا ممَّا حيَّرني، وما زال يُشعرني بالرَّهبة. فقد كان من الجميل أن أُفكِّر بأنَّ مثل هذا الاكتشاف عن شخصٍ آخر كان يمكن أن يظلَّ سرَّاً حتى تمَّ هذا الاعتراف. ومع أنَّ القصَّة أمتعتني، إلَّا أنِّي لم أكن أظنُّ أبداً أنَّها يمكن أن تتكرَّر.

بعد بضع سنوات، تطلَّق والداي، وتغيَّر دور الدِّين في حياتي. فقد كنت دائماً أنظر إلى عائلتي من خلال عيون طفلة، فكانوا بذلك مِثاليِّيْن. فقد كان والدي شمَّاسا في الكنيسة وذو إحترامٍ كبير، وكان معروفاً من الجميع. وكانت والدتي نشطةً في مجموعات الشبيبة.

عندما غادرت أُمِّي البيت، أخذت دور العناية بأبي وأخويَّ الاثنين. واستمرَّ ذهابنا إلى الكنيسة، ولكن بسبب زيارتنا لأُمِّي في عُطَلِ نهاية الأسبوع، أصبحت زياراتنا للكنيسة أقل. عندما كنَّا في بيت والدي، كنَّا نتجمَّع ليلاً ـــ وفي كلِّ ليلةٍ ـــ لقراءة الرسالة الأولى إلى مؤمني كورونثوس (١-١٣) والَّتي تتحدَّث عن المحبَّة

---

(١) المراد هنا عقد الزواج لا مجرد الخطبة كما هو معلوم.

والإحسان. وقد كرَّرت القراءة معهم مرَّاتٍ كثيرةٍ جدًّاً حتى حفظتها عن ظهر قلب. فقد كانت تمثِّل نوعاً من الدَّعم المعنويِّ لأبي، على الرغم من أنِّي لم أكن أفهم لماذا.

وفي فترة ثلاث سنواتٍ متتاليةٍ انتقل أخي الأكبر، ثمَّ أخي الأصغر، ثمَّ أنا إلى بيت والدتي. وفي ذلك الوقت لم تعد أُمِّي تذهب إلى الكنيسة، وهكذا وجد أخواي أنَّ الذّهاب إلى الكنيسة ليس ضروريًّاً. وبانتقالي إلى بيت أُمِّي ـــ خلال السَّنة قبل الأخيرة من مرحلة الدِّراسة الثانويَّة ـــ أنشأت صداقاتٍ جديدةٍ، واكتشفت طريقةً مختلفةً في الحياة. ففي يومي الدِّراسيِّ الأوَّل تعرَّفت إلى فتاةٍ كانت غايةً في اللطف. وفي اليوم الدِّراسيِّ التالي دعتني لزيارتها في بيتها خلال عطلة نهاية الأسبوع، لأقابل عائلتها وأزور كنيستها. تقبَّلتني عائلتها على الفور كفتاةٍ طيِّبةٍ وقُدوةٍ حسنةٍ لها. وأيضاً صدمتني المفاجأة من جماعة المصلِّين الَّذين حضروا إلى كنيستها، فعلى الرغم من أنِّي كنت غريبةً عنهم إلَّا أنَّ كلَّ النِّساء والرِّجال حيُّوني بالعناق والقُبَل وجعلوني أشعر بأنِّي في موضع ترحيب.

بعد قضائي المستمرِّ للوقت مع هذه العائلة، وذهابي إلى كنيستهم في عُطَل نهاية الأسبوع، بدأوا يحدِّثونني عن معتقداتهم الخاصَّة في كنيستهم ـــ كنيسة المسيح ـــ فهذه الطَّائفة تسير على العهد الجديد (أو التطبيق الحرفيِّ لكتابات بولس). فلم يكن لديهم آلاتٌ موسيقيَّةٌ في الكنيسة أثناء الصَّلاة، بل الغناء الصَّوتيُّ فقط؛ و لم يكن هناك وُعَّاظٌ مدفوعي الأجر، بل كان بعض كبار السنِّ يقودون الصَّلاة. و لم يكن يُسمح للنِّساء بالحديث في الكنيسة. ولا يحتفلون بعيد الميلاد، والفصح، وباقي الأعياد. وكان النبيذ والخبز غير المخمَّر يُقدَّمان بالمشاركة كلَّ يوم أحد. وكان التعميد يتمُّ فوراً، وفي اللحظة الَّتي يقرِّر فيها الآثم بأن يصبح مؤمناً. وعلى الرغم من أنِّي كنت أُعتبر مسيحيَّة، إلَّا أنَّ أعضاء كنيسة المسيح كانوا يعتقدون بأنِّي سأذهب إلى جهنَّم إذا لم أتعمَّد مُجدَّداً في كنيستهم وعلى طريقتهم. فكان هذا أوَّل انفجارٍ رئيسيٍّ في نظامي العقائديّ. فهل أنا ترعرت في كنيسةٍ كان كلُّ ما فيها يُعمل بطريقةٍ خاطئة؟! وهل كان يتوجَّب عليَّ حقَّاً أن أتعمَّد مرَّةً أخرى؟!

عند هذه النقطة كان لي نقاشٌ مع أُمِّي حول العقيدة. حدَّثتها عن ارتباكي، وأنَّني فقط أحتاج إلى من يوضح لي الأمور. وأصبحت ناقدةً للطُّقوس الدِّينيَّة في كلِّ الكنائس، لأنَّ الوعَّاظ يحكون لنا القصص فقط، ولا يُركِّزون على الإنجيل. و لم يكن باستطاعتي أن أفهم: إذا كان الإنجيل مهمَّاً جدًّاً، فلماذا لا يُقرأ لوحده في الصَّلاة الكنسيَّة؟

ومع أنِّي فكَّرت بالتعميد كلَّ يوم أحد، ولفترةٍ تُقارب السنتين، إلَّا أنَّني لم أستطع أن أتقدَّم للتعميد. كنت أُصلِّي لله تعالى ليدفعني للأمام إن كان فعل ذلك صائباً، ولكنَّ هذا لم يحدث أبداً.

في السَّنة التالية، ذهبت إلى الكليَّة وأصبحت منفصلةً عن كلِّ الكنائس، كإنسانٍ يبدأ من جديد. في بعض أيَّام الآحاد كنت أزور بعض الكنائس مع الأصدقاء، فقط لأشعر بلحظات نقدٍ للطُّقوس الدينيَّة. حاولت الانضمام إلى الجمعيَّة الطَّلابيَّة المعمدانيَّة، ولكنِّي شعرت بأنَّ الأشياء خاطئةٌ هناك أيضاً. فقد جئت إلى الكليَّة مُعتقدةً بأنِّي سأجد شيئاً يشبه كنيسة المسيح، ولكنَّ مثل ذلك لم يوجد. وعندما كان يصادف وأعود إلى منزل والدتي أيَّام العُطَل الأسبوعيَّة، كنت أزور الكنيسة لكي أحصل على شعورٍ فوريٍّ بالمشاركة الاجتماعيَّة

والترحيب.

في سنتي الثانية في الكليَّة أمضيت أيَّام الآحاد بالغناء في الجَوْقة الموسيقيَّة لكنيسة (ويك فوريست)، لأنِّي كنت أكسب مبلغاً جيِّداً من المال. ومع أنِّي لم أكن أُومن بمعتقدات الكنيسة، إلَّا أنِّي كنت أحتمل الطُّقوس الدينيَّة لأجني المال.

وفي شهر تشرين الأول من هذه السَّنة قابلت مسلماً كان يسكن في سكن الطلَّاب الَّذي كنت أسكن فيه. كان شخصاً لطيفاً، وكان دائماً يبدو مُتأمِّلاً أو غارقاً في تفكيرٍ عميق.

وفي إحدى الأمسيات قضيت كلَّ الأمسية سائلةً إيَّاه بعضَ الأسئلة الفلسفيَّة حول الإيمان والدِّين. فتحدَّث عن إيمانه كمسلمٍ شيعيٍّ إماميٍّ إسماعيليّ، وعلى الرغم من أنَّ أفكاره لم تمثِّل تماماً طائفته الإسلاميَّة (حيث أنَّه كان أيضاً مُرتبكاً وباحثاً عن بعض الإجابات)، إلَّا أنَّ تصريحاته الأساسيَّة جعلتني أتساءل عن معتقداتي الخاصَّة: فهل نحن لأنَّنا وُلدنا في هذا الدِّين، فإنَّ ذلك يتضمَّن بأنَّه هو الدِّين الصَّحيح؟ ويوماً بعد يوم كنت ألقاه وأسأله الكثير من الأسئلة -راغبةً في نفس المستوى من التعامل معه، كما حصل حين التقينا لأوَّل مرَّة- ولكنَّه لم يعد يجيب على أسئلتي، أو يوافق الاحتياجات الروحيَّة الَّتي كانت لديّ.

في الصَّيف التالي، عملت في إحدى المكتبات، وكنت ألتهم أيَّ كتابٍ استطعت إيجاده عن الإسلام. ثم قدَّمت نفسي لمسلمٍ آخر في الحرم الجامعيِّ، وبدأت أسأله عن الإسلام. وبدل أن يجيبني على أسئلتي وجَّهني لقراءة القرآن الكريم. وفي أيِّ وقتٍ كان لديَّ أسئلةٌ عامَّةٌ عن الإسلام، كان يجيبني عليها. ذهبت إلى المسجد المحليِّ مرَّتين خلال تلك السَّنة، وكنت سعيدةً لشعوري بنوعٍ من المشاركة الاجتماعيَّة مُجدَّداً.

وبعد قراءتي عن الإسلام خلال الصَّيف، أصبحت أكثر حساسيةً تجاه التصريحات الَّتي تُدلى عن المسلمين. وعندما كنت آخذ مادَّةً تمهيديَّةً عن الإسلام في منتصف الفصل الدِّراسيّ، كنت أشعر بالإحباط حين يقوم الأستاذ بإلقاء تعليقاتٍ خاطئة، ولكنِّي لم أكُن أعرف كيف أُصحِّحه. وفي نشاطٍ خارجٍ عن دراستي الجامعيَّة، أصبحت عاملةً نشطةً وداعمةً لمنظَّمةٍ حديثة النشأة في حرمنا الجامعيِّ هي منظَّمة الوعي الإسلاميّ وحيث إنَّني كنت العضو الأنثوي الوحيد، كنت أُقدَّم للآخرين على أنِّي مسيحيَّة المجموعة. وفي كلِّ مرَّةٍ كان فيها أحد المسلمين يقول ذلك كنت أنظر إليه بحيرة، لأنِّي كنت أظنُّ بأنِّي كنت أفعل كلَّ ما كانوا يفعلون، وأنِّي بذلك كنت مسلمةً أيضاً. فقد امتنعت عن أكل لحم الخنزير واصبحت نباتيَّة، ولم أكن أبداً أُحبُّ الخمر، وبدأت الصَّوم في شهر رمضان المبارك، ولكن كان لا يزال هناك اختلافٌ ما.

في نهاية تلك السَّنة قبل النهائيَّة حصلت بعض التغييرات، فقد قرَّرت أن أُغطِّي شعري، لأُخفيه عن أعين النَّاس. ومرَّةً أخرى فكَّرت بذلك كشيءٍ جميل، وكانت لديَّ فكرةٌ بأنَّ زوجي فقط سيكون بإمكانه أن يرى شعري. حتى أنَّه لم يحدِّثني أحدٌ عن الحجاب.. حيث إنَّ الكثير من الأخوات في المسجد لم يكنَّ يلبسنه.

في ذلك الصَّيف، كنت أجلس في المدرسة أتصفَّح الإنترنت، باحثةً عن مواقع عن الإسلام. كنت أريد العثور على عناوين إلكترونيَّةٍ لأُناسٍ مسلمين، ولكنِّي لم أُوفَّق. وأخيراً غامرت بالدُّخول إلى صفحةٍ كانت رابطةً للزَّواج. قرأت بعض الإعلانات، وحاولت أن أجد أُناساً في مثل سنِّي لأكتب لهم عن الإسلام. وقدَّمت

لرسائلي بعبارة: (إنِّي لا أبحث عن الزَّواج، أنا فقط أريد أن أتعلَّم عن الإسلام) بعد بضعة أيَّامٍ وصلتني ثلاثة ردود من ثلاثةٍ من المسلمين: رسالةٌ من باكستانيٍّ كان يدرس في الولايات المتحدة، وأخرى من مسلمٍ هنديٍّ كان يدرس في انجلترا، والأخيرة من مسلمٍ يعيش في دولة الإمارات العربيَّة. قدَّم لي كلٌّ أخٍ منهم المساعدة بطريقةٍ فريدة، ولكنِّي بدأت المراسلة مع المسلم الباكستانيِّ الَّذي يعيش في الولايات المتحدة، لتواجده في نفس النطاق الزمنيِّ لمنطقتي. كنت أُرسل إليه الأسئلة، وكان هو بدوره يقوم بإرسال إجاباتٍ شاملةٍ ومنطقيَّة. وعند هذه النقطة عرفت بأنَّ الإسلام هو دين الحقّ، فكلٌّ النَّاس سواسيةٌ بغضِّ النَّظر عن اللون أو العمر أو الجنس أو العرق، وبالرُّجوع إلى القرآن الكريم تلقَّيت إجاباتٍ على أسئلةٍ مُعقَّدةٍ. فأصبحت أشعر بالرِّباط الاجتماعيِّ النوعيِّ مع المسلمين، فأصبحت لديَّ حاجةٌ قويةٌ غامرةٌ لإعلاني الشهادتين في المسجد. و لم يعد لديَّ الخوف المسيحيُّ من إنكار المسيح كإله، فقد آمنت بأنَّ هناك إلهاً واحداً فقط، وأنَّه لا يمكن أن يكون له شريك. وفي مساء أحد أيَّام الخميس من شهر تموز لعام ١٩٩٧ تحدَّثت هاتفيًّا مع الأخ الباكستانيِّ، وسألت المزيد من الأسئلة، وتلقَّيت المزيد من الإجابات الموثوقة والمنطقيَّة، فقرَّرت الذِّهاب إلى المسجد في اليوم التالي.

ذهبت إلى المسجد مع أخٍ مسلمٍ من (ويك فوريست) وأخته غير المسلمة، ولكنِّي لم أُخبره بنيَّتي. ذكرت فقط بأنِّي أريد أن أتحدَّث مع الإمام بعد خطبة الجمعة. وبعد أن أنهى الإمام خطبته، وصلَّى بالمسلمين، جاء للحديث معي. فسألته عمَّا هو ضروريٌّ لكي أصبح مسلمة. فأجابني بأنَّ هناك أركاناً رئيسيَّةً للإسلام بالإضافة إلى الشَّهادتين. فقلت له بأنِّي درست الإسلام لأكثر من عام، وأنِّي جاهزةٌ لأصبح مسلمة. فردَّدت أمامه بأنِّي أشهد أنَّ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّداً رسول الله.

وهكذا أصبحت مسلمةً في الثاني عشر من شهر تموز لعام ١٩٩٧، والحمد لله.. كانت هذه هي الخطوة الأولى والكبرى، ثمَّ فُتحت بعد ذلك أمامي الكثير من الأبواب، وما زالت تُفتح بنعمةٍ من الله سبحانه وتعالى. بدأت أوَّلاً بتعلُّم الصَّلاة، ثمَّ زرت مسجداً آخراً في وينستون-سالم، وبدأت بلبس الحجاب بعد ذلك بأسبوعين...

أثناء عملي في الصَّيف تكون لديَّ مشكلةٌ بخصوص الحجاب. فمدراء العمل لا يحبونه، ويدعونني أذهب مبكِّراً. فهم يعتقدون بأنِّي لا يمكنني أن أقوم بعملي في بيع الحقائب المدرسيَّة بطريقةٍ حسنة، لأنَّ ملابسي تُعيق حركتي. ولكنِّي وجدت أنَّ في لبس الحجاب عمليَّة تحرُّرٍ كبيرة. وأنا أقابل المسلمين وهم يتسوَّقون.. كلَّ يوم ألتقي بأُناسٍ جُدُد، والحمد لله.

في السَّنة الدِّراسيَّة النِّهائيَّة، أخذت زمام القيادة في منظَّمة الوعي الإسلاميِّ الجامعيَّة، لأنِّي وجدت بأنَّ إخواني لم يكونوا نشطاء كما ينبغي. وحيث إنِّي كنت دوماً أدفعهم للقيام ببعض الأمور، وأقوم بتذكيرهم ببعض الأحداث، أطلقوا عليَّ لقب الأُم كايسي.

وخلال الفصل الثاني من السَّنة النِّهائيَّة أخذت مباحثَ دراسيَّة اختياريَّة عن الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة. وكانت كلُّها جيِّدةً، لأنِّي كنت أُمثِّل الأقليَّة (المسلمة) في كلٍّ منها. ما شاء الله، كم كان جميلاً أن أُمثِّل الإسلام، وأن أقول للنَّاس الحقيقة عن المسلمين، وعن الله سبحانه وتعالى.

ايريس صفوت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إيريس صفوت)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لسيدة ألمانية أسلمت، وقد التقيت بها وحدثتني عن قصة إسلامها، ومما ذكرته لي قولها: نشأت في أسرة مسيحية علمانية ابتعدت عن الكنيسة، وعندما كنت في سن العاشرة شعرت بأن شيئا ينقصني في حياتي، وفطرتي دائما تشتد نحو الدين وأخذت أبحث لي عن دين، وكنت في ذلك الوقت أقرأ في الكتب عن الإسلام.. ووقتها شعرت بشيء يشدني بقوة إلى الإسلام كدين سماوي يرفع من كيان الانسان ويحمل جميع الفضائل والاخلاق الفاضلة وأخذت اهتم بهذا الدين وتحدثت الى زميلاتي في المدرسة وعن الإسلام وأنني أحب هذا الدين، وحينئذ كنت بلغت الثانية عشرة من عمري، وبالفعل أسلمت وكتمت إسلامي لأن زميلاتي وصفنني بالجنون.

قلت: أسلمت في ذلك السن.. فما كان موقف أسرتك؟

قالت: في البداية اعتبرت أسرتي أنني أمر بمرحلة اضطراب وتقلب في المزاج.. لكن عندنا في الغرب حرية، واذا بلغ الابناء سن الثالثة عشرة فمن حقهم أن يتصرفوا كيفما شاءوا، ومن حقهم أيضا أن يتركوا أهلهم، ولهذا تركوا لي حرية الديانة.

وعندما وصلت للثانوية العامة، وكان عمري حيئذ ثلاثة عشرة سنة، وذلك عام ١٩٦٧ وكنت في رحلة الى لندن، ذهبت الى المركز الإسلامي هناك والتقيت بالشيخ محمد الجيوشي (عميد كلية الدعوة الاسبق بجامعة الازهر) وكان اماما للمركز، وقلت له: إنني اريد ان اعلن إسلامي، وأذهب إلى الازهر وأدرس الدين الإسلامي واللغة العربية، كما التقيت بالشيخ أحمد حسن الباقوري (وزير الاوقاف المصري الاسبق) في ذلك الحين، ووعدني بالدراسة في الازهر، واعلنت اسلامي أمام الشيخين ونطقت بكلمة التوحيد، وفي عام ١٩٦٩ سافرت الى مصر، وتعلمت اللغة العربية، ثم عدت الى المانيا لدراسة الماجستير في جامعة كيسين، وفي اثناء دراستي للماجستير تعرفت على شاب مصري كان يدرس في مرحلة الدكتوراه، وتزوجنا وسافرنا عام ١٩٧٥ إلى مصر وواصلت دراستي للغة العربية، وزادت معرفتي بالإسلام.

قلت لها: لقد مر أكثر من ثلاثين عاما منذ اعتناقك الإسلام.. فهل استطعت إيصال الإسلام إلى أهلك؟

قالت: منذ اللحظة الاولى لاسلامي، وأنا انتمي لهذا الدين وادعو اليه والحمد لله استطعت ان اقنع اثنين من اقاربي بأن يسلما هم جدتي ورجل آخر من أقاربي، والذين لم يسلموا كنت أعطي لهم فكرة عن الإسلام، وهم عندما يسمعونني كانوا يحترمون الإسلام.

قلت: فعلاقتك بأسرتك جيدة إذن؟

قالت: علاقتي بأسرتي في ألمانيا جيدة منذ أعلنت إسلامي، لأن في المانيا تسامح واحترام لحرية العقيدة، ويعتبرون الدين مسألة شخصية.

---

(١) انظر: صحيفة الشرق الأوسط ٤-١٠-٢٠٠٢.

سألتها عن أكبر ما جذبها للاسلام، فقالت: قبل ان أعلن اسلامي كنت اقرأ عن شخصية الرسول ﷺ وسيرته فأحببت هذه الشخصية كثيرا لما تتميز به من خصال لا توجد في بشر على وجه الارض.

ليلى أوغان رمزي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليلى أوغان رمزي)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة أمريكية الجنسية، وقد أعلنت إسلامها في مصر وقد حدثتني عن طريقها إلى الإسلام، فقالت: أنا محبة للاطلاع والاستزادة من العلم والمعرفة، فبعد أن حصلت على شهادتي الجامعية في الإعلام من أميركا، ومع شغفي الشديد في استمرارية طلب العلم، وجدت لدي رغبة ملحة في التعلم في الشرق الأوسط، رغم ظروفي المادية الصعبة، وفقري الشديد، ولكن فضل الله واسع حيث أنعم علي بمنحة قدرها عشرة آلاف دولار.

جئت إلى مصر لأدرس العلوم السياسية، وفي مكتبة الجامعة وقع بصري على مصحف شريف مترجم المعاني إلى اللغة الانجليزية.. عندما فتحته شعرت بقوة خفية تهزني من الأعماق.. قرأت وقرأت.. وكلما تعمقت عرفت شيئاً وأدركت أشياء.

أمضيت ستة أشهر أفكر في الأمر خاصة، وأنني عضو في الكنيسة الكاثوليكية، ووالدي رجل دين، ثم بدأت أسأل نفسي كيف أعتنق الإسلام؟ وما هي الجهة المسؤولة عن هذه الأمور، لا سيما وأنا غريبة هنا.. وبغير تفكير وجدتني أذهب إلى أحد المساجد، وهناك التقيت بشيخ المسجد، فقلت له: أريد أن اشهر إسلامي فماذا أفعل؟ فدلني على الطريق، وتم المراد، ودخلت في الدين الحنيف.

وفي مصر التقيت بالداعية الإسلامية الكبيرة بعلمها وسلوكها الدكتورة زهيرة عابدين أستاذة ورئيسة قسم الأطفال بكلية طب القاهرة سابقاً، وعميدة كلية دبي الطبية للبنات حالياً، حيث نصحتني بالذهاب إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف، فاستجبت لنصيحتها.

وأما الشخصية الثانية التي التقيتها، وتأثرت بها، فهو الشيخ أحمد فرحات إمام مسجد الحسين، الذي غمرني بعطفه وحنوه حتى كنت أناديه بالوالد، فقد ساعدني في معرفة أصول الدين الإسلامي وفرائضه، كما شجعني على أداء فريضة الحج عام ١٩٨٢م.

بعد إشهار إسلامي مكثت أتردد على بيوت الله كثيراً، وفي أحد المساجد التقيت بزوجي الدكتور يس (من المحلة الكبرى ــ إحدى مدن مصر)، فتقدم إلي ليخطبني، ولكنني اشترطت عليه موافقة أهلي أولاً على الاقتران به، ومن ثم كتب إليهم ليخطبني منهم، فوافقوا، وتم الزواج عام ١٩٨٤، وفي عام ١٩٨٦ التحقت بهيئة التدريس في المعهد الأزهري للفتيات بالمحلة الكبرى، بعد أن أصبحت أجيد اللغة العربية تماماً.

وقد ختمت حديثها لي برغبتها في أن تصبح داعية إلى الله، فقالت: منذ أن هداني الله إلى طريق الحق والرشاد، وفتح بصري على ما في كتاب الله من آيات بينات، وكشف عن بصيرتي لأعرف قبساً من نور اليقين، وأنا عازمة على المضي قدماً في مجال الدعوة إلى الدين الإسلامي، وأملي كبير في أن يساعدني الأزهر

---

(١) انظر: مجلة الضياء / العدد ١٩٩٣/٣١.

الشريف لاستكمال دراستي العليا في العلوم الإسلامية حتى يتسنى لي أن أعمل في سبيل خدمة الإسلام، وإعلاء كلمة الحق تحت راية التوحيد في كل مكان.

وقد حدثتني عن الأخطاء التي يقع فيها بعض الدعاة حين يتركون الأسلوب المتبصر الذي دعا إليه الإسلام، فقالت: إن الدعاة المسلمين لا يزال أغلبهم بعيدين عن روح الإسلام الحقيقية التي فهمتها من خلال دراستي للدين الإسلامي والسيرة العطرة، ولأساليب السلف الصالح، فالدين يسر لا عسر، وسماحة لا غلظة أو فظاظة أو تنفير.

ومن ثم يجب على الداعية إلى الله أن يكون على بصيرة بأمر الأمانة التي يحملها سواء كان مبشراً أو منذراً، وأن يتحلى بكل مكارم الدين الإسلامي من سماحة ويسر ورحمة.

إحسان جيم تشوا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إحسان جيم تشوا)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من سنغافورة، وهو من عائلة تتبع الدِّيانة الطاويَّة، وقد أخبرني أنه آمن بالمسيحيَّة حين كان في التاسعة من عمره، وبعد ذلك، وفي سنيِّ مراهقته المبكِّرة اتَّبع تعاليم بوذا، ثم وجد طريقه لدخول الإسلام.

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن قصة إسلامه، فقال: أنت تعلم أن والديَّ طاويَّان، وهكذا أُنشئت على الدِّيانة الطاويَّة منذ ولادتي، وخلال سنيِّ طفولتي، آمنت وقبلت الطاويَّة، حتى ولو لم أكن أعرف شيئاً عنها، فقط وفي سنيِّ مراهقتي اكتشفت بأنَّ الطاويَّة هي دين عبادة السَّلَف، حتى أنَّ والديّ ــ كغيرهما من الكثير من الطاويِّين ــ لم يكلِّفا نفسيهما معرفة تاريخ هذه الدِّيانة، فأنا لم أُعلَّم تاريخ التعاليم الطاويَّة، بل مارست هذه الدِّيانة فقط تبعاً لما قُدِّم لي دون أدنى شك.

حين كنت في التاسعة من عمري، حدَّثني وبعض زملائي معلِّم المدرسة بأنَّنا كلُّنا يجب أن نصبح مسيحيِّين، وأخبرنا بأنَّنا إن لم نصبح مسيحيِّين، فإنَّه بالضَّرورة سيصيبنا الموت كعقوبةٍ لنا على عدم كوننا كذلك.. بتُّ خائفاً جدًّا من هذا التهديد، ومنذئذٍ أصبحت مؤمناً بديانتين، الطاويَّة (بسبب عائلتي) والمسيحيَّة (بسبب التهديد)، وحين كبرت، لم أستطع أن أقرِّر بأيِّ دينٍ عليَّ الالتزام.

خلال سنيَّ الثالثة والرابعة في المدرسة الثانويَّة، اخترت دراسة البوذيَّة كموضوعٍ في العلوم الدينيَّة، لأنَّها كانت معروفةً على أنَّها الموضوع الأسهل للدراسة.

تأثَّرت بالعقيدة البوذيَّة لأنَّها منطقيَّة جدّاً وعمليَّة، ومفهوم الصدقة في البوذيَّة أصاب وتراً في قلبي، فاتَّبعت التعاليم البوذيَّة قدر ما استطعت، لكنِّي لم أُصبح بوذيّاً، فقد وجدت أنَّ البوذيَّة وعلى الرغم من أنَّها تقوم على مبادئ وتطبيقاتٍ جيِّدة إلَّا أنَّها مع ذلك ينقصها وجود القوَّة العليا (الله سبحانه وتعالى)

حين انضممت إلى كليَّة سانت أندروز يونيور، وهي مدرسةٌ تبشيريَّة، كان إلزاميّاً على كلِّ الطلاب ــ عدا المسلمين منهم ــ حضور صلاة الأحد المدرسيَّة.

---

(١) نُشرت قصَّة إحسان في مجلة (القارئ المسلم) عدد تشرين أول-كانون أول، والَّتي تصدر عن جمعيَّة مُعتنقي الإســـلام في سنغافورة.

خلال الصلاة كنَّا ننشد ونستمع إلى الطقوس. في نهاية بعض الصلوات، كنَّا نُسأل إن كان أحدٌ منَّا يرغب في دخول المسيحيَّة، وقد كنت متأثِّرا بأحد الرُّهبان على وجه الخصوص، لأنِّي اعتبرته قويّاً في وعظه. فقد كان يستخدم النبوءات من الإنجيل ليثبت بشكلٍ فعَّال الحقيقة الموجودة في العهد القديم وعلاقتها مع تلك الموجودة في العهد الجديد.

وتأثَّرت بشكلٍ خاصٍّ حين كان يتكلَّم عن النبوءات الَّتي كانت في العهد القديم وتحقَّقت في العهد الجديد[1]، وزاد اهتمامي حين تكلَّم عن اليوم الآخر، وقد قام أيضاً بربط تجارب متنوِّعةٍ مرَّ خلالها بعض المسيحيِّين.

أحد الأمثلة كان عن سيِّدةٍ مسيحيَّةٍ كانت قد أُعلن موتها. وفي موتها مرَّت خلال محنة جرٍّ لها من رِجلَيْها إلى جهنَّم؛ وبطريقةٍ ما تحرَّرت وعادت إلى الحياة. وبعد عودتها من الموت أكَّدت على وجود الله، والحياة بعد الموت، ووجود جهنَّم كما هو مذكورٌ في الإنجيل، وهكذا بدأ انجذابي نحو الدِّيانة الأرثوذكسيَّة الأنجليكانيَّة. حينئذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

لكنِّي مع ذلك لم أستطع أن أستقرَّ في طائفةٍ واحدةٍ من الطوائف المسيحيَّة، فقد كنت دائم التنقُّل من كنيسةٍ إلى أُخرى، كنت ما أزال أبحث عن السَّكينة الداخليَّة، ولم أستطع اتِّخاذ قراري إلى أيِّ كنيسةٍ كان عليَّ الذَّهاب.

حين كنت في السَّنة الأخيرة في الجيش، قابلت صديقاً قادني إلى كنيسته (سانت جون سانت مارجريت)، فشعرت أخيراً بأنِّي في بيتي في هذه الكنيسة. وأصبحت فاعلاً في النَّشاطات الكنسيَّة. كنت المسؤول في مُهمّتين تبشيريَّتين، إحداهما كانت تتعلَّق بالعمل مع الأولاد، في حين كانت الأخرى تتعلَّق بنشاطٍ رياضيّ. وكنت مُشاركاً في التخطيط التعليميِّ للأولاد. قُدِّم من خلال هذا النشاط التعليم المجانيُّ لأولاد المدارس، في نفس الوقت الَّذي كانت فيه رسالة المسيحيَّة تُنشر ببطءٍ وبشكلٍ مهذَّب. كان الأولاد من مستوىً ابتدائيٍّ، وأُوكل إليَّ الاهتمام باثنين منهم، وقبل أيِّ تعليمٍ كانت هناك جلسةٌ للعبادة؛ كنَّا ننشد الأناشيد، وكانت لدينا جلسات سردٍ للقصص، حيث كنت أحكي للأولاد قصصاً من الإنجيل.

وعملت أيضاً باجتهادٍ مع المجموعة الرياضيَّة للكنيسة، فكنَّا نقوم بالعمل التبشيريِّ بسؤال الناس الانضمام إلينا في اللعب، وكنت المسؤول عن فريق كرَة السلَّة، وفي كلِّ أُسبوعٍ كنَّا نستأجر قاعةً نمارس فيها اللعبة. وكنا ندعو الدُّخلاء ونحاول قيادتهم للمسيحيَّة بأن نكون مثلاً لهم، فكنَّا نقوم بالتركيز على روح التعاون والاهتمام، فحاولنا التعبير عن هذه الفضائل قدر ما استطعنا. وخلال ذلك، وبعد التمارين، كنَّا نحاول تلقين المسيحيَّة لأولئك الشباب، والَّذين كانت غالبيتهم من المراهقين اليافعين.

مفهوم النشاط الرياضيِّ عمليٌّ إلى درجةٍ كبيرة، ليس فقط في سنغافورة بل وفي بلدانٍ أُخرى أيضاً. كانت كنيستي هي الأولى في سنغافورة الَّتي تُقدِّم مفهوم الرعاية والاهتمام.

عندما كنت لا أزال نشيطاً في الكنيسة، تعرَّفت إلى مسلمةٍ فحاولت أن أُحدِّثها عن المسيحيَّة، ولكنَّها

---

(١) انظر ما يستدل به المسيحيون من هذا الباب في (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

كانت على درجةٍ عاليةٍ من اليقين حول الحقِّ في دينها، مع أنَّها لم تكن تعرف كيف تشرح لي هذه الحقيقة. ولم تكن هناك أيُّ وسيلةٍ أستطيع بها إقناعها بالمسيحيَّة. والَّذي كان يدهشني دوماً هو أنَّ الكثير من المسلمين، حتى أُولئك الَّذين يُدمنون المخدِّرات، كلُّهم مُتأكِّدون حتى الموت بأنَّ الإسلام هو الدِّين الحق. فقرَّرت سؤال صديقتي المسلمة عمَّا هو حقٌّ جداً بخصوص دينها ممَّا يدفع مُعتنقيه إلى التمسُّك به وعدم تركه. لكنَّها لم تكن تعرف كيف تشرح لي هذا الأمر، وبدلاً من ذلك أخبرتني بأن أحصل على ما أُريد من المعلومات عن الإسلام من دار الأرقم، وهي جمعيَّة مُعتنقي الإسلام في سنغافورة. وافقت على اقتراحها على الرغم من أنِّي كنت أعتبر الإسلام دين الإرهاب، وعلى أنَّه دينٌ لا منطقيَّة فيه. فقد كان فهمي يملي عليَّ بأنَّه إذا كان الدِّين صالحاً فإنَّ مُعتنقيه سيكونوا صالحين. وفي حالة المسلمين، الَّذين كنت أعرف القليل منهم، كان أُولئك الَّذين كنت أعرفهم مسلمين غير صالحين.

أذكر أنِّي كنت أعرف مسلمةً واحدةً صالحةً فقط، وذلك خلال سنيِّ دراستي في الكليَّة ولكنَّها لم تقم ولا بأيِّ مُحاولةٍ لنقل رسالة الإسلام لي. في ذلك الوقت، كان هناك بعض المسلمين الَّذين كانوا يحاولون نشر الرسالة الإسلاميَّة لي. وكانت عائلتي ضدَّ الإسلام بسبب ما كان دائم الحدوث في الشرق الأوسط؛ كما حدث أيضاً أن كان كلُّ العمَّال الملاويّين الَّذين وظَّفهم والدي من الكُسالى وسيِّئي السُّلوك.

وحيث إنِّي وافقت على زيارة دار الأرقم، ذهبت من فوري إلى تلك الجمعيَّة. في زيارتي الأولى حضرت درس التوجيه، وقُدِّمْت إلى الأخ ريماي. وقد صُدِمْت وأُثير اهتمامي بأمريْن حدَّثني بهما، أوَّلهما: أنَّه أشار لي بأنَّ الإسلام لا يقوم على الهوى، عكس المسيحيَّة. تأمَّلت في هذه الكلمات وكنت مندهشاً من ردَّة فعلي عليها. وثانيهما: أنَّه قال: لا تتحوَّل إلى الإسلام بطريقةٍ عاجلة، حتى تسأل قدر ما تستطيع من الأسئلة، وعندما لا يتبقّى لديك ما تسأل، فقط عندها تحوَّل إلى الإسلام.

ففي المسيحيَّة أنت لا تستطيع طرح الأسئلة، لأنَّك إن سألت أكثر أصبحت مُشوَّشاً أكثر. وبعد أن أوضح هاتين النقطتين، أوصى الأخ ريماي الصفَّ التوجيهيَّ بقراءة كتاب (الإسلام في بؤرة التركيز)

صُدمت بما وجدته في هذا الكتاب، فبعض المواضيع الَّتي كنت أعتقدها غير منطقيَّة في المسيحيَّة، ولم تكن هناك طريقةٌ لفهمها، وجدت الإجابة عليها في هذا الكتاب. وصُدمت أيضاً بأنِّي وجدت في الكتاب ما كنت أُومن به، وكما وجدت أنَّ بعض المعتقدات البوذيَّة هي في الحقيقة مفاهيم إسلاميَّة، فهناك العديد من المبادئ البوذيَّة المشابهة لبعض المفاهيم الإسلاميَّة.

في الأسبوع التالي عدت إلى دار الأرقم لحضور صف المبتدئين، وكان الصفُّ قد قطع نصف الطريق خلال أركان الإسلام. فوجدت الدرس مملاً، فحضرت حصَّة أو حصَّتين فقط ثم تركت الصف. بعدئذٍ اشتريت كتابيْن آخريْن عن الإسلام ـــ (الخيار، الإسلام والمسيحيَّة) للشيخ أحمد ديدات و(أساس عقيدة المسلم) لجاري ميللر. وقد تأثَّرت بهما حقّاً.

قابلت الأخ ريماي مرَّةً أخرى فقدَّمني للأستاذ ذو الكفل، والَّذي ناقش معي الإسلام لبضعة أسابيع. أيُّ أسئلةٍ كانت تُشكِّل مُعضلةً بالنسبة لي عن المسيحيَّة، والَّتي لم يكن باستطاعتي التعامل معها، كنت أضعها في

قائمةٍ وأعرضها على كنيستي وعلى الكليَّة الإنجيليَّة في سنغافورة. وقد جعلني ذلك في وضعٍ صعبٍ للغاية، لأنِّي لم أستطع قبول ردودهم على تلك الأسئلة، لا من الكنيسة ولا من الكليَّة الإنجيليَّة. فقد كنت أعتبر بأنَّ قبولي منطق ردودهم وكأنَّه تلويثٌ لله (سبحانه وتعالى). فعلى سبيل المثال، عندما حاولت نقاش التناقضات في الإنجيل كان كلّ ما استطاعوا قوله لي بأنَّ هذه تناقضات صغيرة، أو أخطاء صغيرة، أو خطأ طباعيّ، فكان عليَّ أن أقوم ببحثي الخاص للردِّ على تلك الأسئلة الَّتي وُجِّهت إليَّ في دار الأرقم.

الجزء الأكثر تدميراً في بحثي كان تاريخ الكنيسة، فتاريخ الكنيسة نفسه يُلقي الضَّوْء على حقيقة أنَّ مفهوم الثالوث قُدِّم في سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، أي بعد ٣٢٥ من موت المسيح (عليه الصَّلاة والسَّلام). وقبل ذلك كانت هناك تعاليمٌ كلُّها مختلفة عن بعضها بعضاً.

وحيث إنِّي حصلت على الكثير من المعلومات عن المسيحيَّة من مصادر إسلاميَّة، فلم أكن مقتنعاً، فما وجدته حول المسيحيَّة من المصادر الإسلاميَّة حاولت التثبُّت منه من موسوعاتٍ متنوِّعةٍ ومن مصادر أخرى، فوجدت بأنَّ كلَّ المعلومات الَّتي حصلت عليها من المصادر الإسلاميَّة كانت حقائق دامغة. وحين نظرت عن قُرب ــ أقرب من أيِّ وقتٍ مضى ــ إلى النبوءة الَّتي تقول: (سيأتي روح الحقِّ وسيقود الناس إلى كلِّ الحقّ) استطعت أن أرى بوضوح بأنَّ تلك النبوءة كانت تشير إلى النبيِّ محمَّدٍ ﷺ وإلى رسالته. فهذه النبوءة لم تُشر إلى عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، لأنَّ المسيحيِّين الأوائل لم يستطيعوا التقرير بخصوص شخصيَّته. وحتى هذا اليوم ما يزالون يتجادلون بخصوص ذلك.

خلال دراستي للإسلام، حاولت أيضاً أن أتعلَّم شيئاً عنه من الكتب المسيحيَّة فوجدتها خبيثة، فمع المعرفة الَّتي كانت لديَّ عن الإسلام كنت أستطيع دحض كلِّ الادِّعاءات الزائفة الَّتي لفَّقها المسيحيُّون.

أحد الأمثلة هو الادِّعاء الَّذي لفَّقوه عن الله (سبحانه وتعالى) في الإسلام ــ بأنَّه يبدو بعيداً جدّاً، وأنَّه لا يمكنه التواصل مع مخلوقاته (سبحانه وتعالى عمَّا يصفون). كنت أعرف أنَّ هذا ليس صحيحاً لأنَّ الله تعالى في الإسلام أقرب إلى مخلوقاته من حبل الوريد:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦)

وادَّعى المسيحيُّون أيضاً بأنَّ الله تعالى تنقصه معاني الحب. لا أدري كيف يمكن للمسيحيِّين ادِّعاء مثل ذلك في حين أنَّ قول (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم) هو روتينٌ يوميٌّ عند المسلم. بالإضافة إلى ذلك فإنَّ هناك ٩٩ اسماً لله تعالى تُلْقي الضَّوء على أسمى معاني الحب والرعاية الإلهيَّة في الإسلام. فكان يتوجَّب عليَّ رفض كلِّ الادِّعاءات الَّتي صنعها المسيحيُّون عن الإسلام، لأنَّه كان يتوجَّب عليَّ أن أكون عادلاً مع نفسي. فكلُّها كانت من وجهة النظر الكنسيَّة، وكان يتوجَّب عليَّ أن أعتبرها كذباً.

بعدئذٍ قرأت كتاب (محمَّدٌ في الإنجيل) وكتاب (إنجيل توما) حتى الآن كنت قد تلقَّيْت الكثير من الصَّدمات. أمَّا (مخطوطات البحر الميِّت) فقد كانت هي الصدمة الأخيرة الَّتي حطَّمت عقيدتي المسيحيَّة. لقد حاولت ولكنِّي لم أجد سبباً للبقاء على المسيحيَّة. فقد رأيت كلَّ الزَّيف الَّذي لم أكن أتوقع رؤيته فيها. لقد تفحَّصت بعنايةٍ وبكلِّ الطُّرق لأتأكَّد، فلعلِّي كنت مخطئاً، حتى لم يتبقّ لي ما أتأكَّد منه.

واصلت تعلُّمي عن الإسلام، من القرآن الكريم ومن كتبٍ أُخرى، ومن معلّمين مسلمين كافحوا لإرشادي إلى طريق الحق.

وفي أحد الأيَّام سألني الأستاذ ذو الكفل: أما آن لك أن تدخل الإسلام؟ فلم أستطع أن أتفوَّه ببنت شفة. فكَّرت في ذلك مراراً وتكراراً، لكنِّي لم أجد سبباً واحداً يمنعني من دخول الإسلام، وعندها قرَّرت إعلان الإسلام، دين الحق.

في البداية لم تأخذ عائلتي تحوُّلي هذا على محملٍ من الجِدّ، فقد ظنُّوا أنِّي أعلنت إسلامي اسميّاً فقط وأنِّي سأُواصل حياتي كغير مسلم وآكل لحم الخنزير. فيما بعد، عندما وجَدَت عائلتي أنِّي أصبحت مسلماً ملتزماً حدثت فوضى عارمة. وأصبحت الأمور أكثر فوضويَّة حين بدأتُ صيام شهر رمضان. لقد كنت على وشك أن أُطرد من البيت. واستمرَّت هذه الحال من التوتر لبضعة شهورٍ تلت. لم أكن خلالها أتناول طعامي في بيتي. واتُّهمت بأنِّي لم أعد أُحبُّ عائلتي. وكانت هناك مشاحناتٌ مستمرَّةٌ بيني وبين أفراد عائلتي. حاولت أن أشرح لهم الإسلام ولكنَّهم لم يفهموه.

وتشكَّل لديَّ خوفٌ من العودة إلى البيت، فكنت أبقى حتى وقت متأخِّرٍ من الليل خارجه. وفي أحد الأيَّام جاءت إليَّ أُمِّي ورجتني بألَّا أتأخَّر ليلاً. وقالت بأنَّ أبي قد عبَّر عن قلقه حيال ذلك. واقْتَرَحَتْ بأن أشتري طعامي الخاص وأنَّها ستُعِدُّه لي بشكل مستقلّ. أمَّا الآن فإنَّ معظم أفراد عائلتي يأكلون الطعام الحلال في البيت، لأنَّ من المناسب أكثر لأُمِّي أن تُعِدَّ الأطباق الَّتي يمكن أن يأكلها ليس فقط معظم أفراد العائلة بل وابنها المسلم كذلك. تحسَّنت الأوضاع في بيتي، إلَّا من بعض الإزعاج العرضي وغير المؤذي من عائلتي.

عبدالرحمن محمود داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالرحمن محمود داود)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل ينحدر من أسرة هندية برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قاموا مع طلائع الاستعمار، وكان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان جوابه هو انتماؤه للإسلام، وقد ذكر ذلك في بعض تصريحاته لمن سألوه، فقال: (تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبّر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرآت الآيات (٣٠ــ٣٩) من سورة البقرة.. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق)

وقال:(إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة)

---

(١) رجال ونساء أسلموا، ٧ / ١١٦ – ١١٨.

وقال:(بفضل دراستي الحرّة البعيدة عن كل تعصّب مقيت أصبح إيماني بهذا الدين [الإسلام] قويًا راسخًا، لقد آمنت برسالة القرآن، وأحسست أن الإسلام هو دين الفطرة والكمال، أنزله الله على قلب آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.. لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أي نوع. من أجل ذلك كان هذا الدين متمشيًا مع الفطرة البشرية)

وقال:(إن الإسلام يخاطب الإنسان الكامل. وهكذا أيقنت أن هذا الدين هو خير الأديان جميعًا. لقد شرعت في التحدث عن معتقداتي الجديدة، حول الإسلام والنصرانية وصارحت بها العديد من العلماء المرموقين والقسس المعروفين، وكنت صريحًا وصادقًا في مناقشاتي معهم. لقد سألت القسس لماذا يخدعون الناس بإخفاء الحقيقة ولا يخبرونهم بوضوح وصدق أن محمدًا ﷺ هو رسول الله؟ ولما سمعوا مني ذلك غضبوا ولكنهم لم يستطيعوا أن يحيروا جوابًا)

ثانيا ـــ الخاصة

فتحت دفتر البابا على فصله الثاني، فوجدت عنوانه (الخاصة)، فقلت: من تقصد بالخاصة؟

قال: أولئك الذين تعلقوا من الدنيا بحبلها المتين، فراحت الأبصار تحنو عليهم، وراحت القلوب تحن إلى كراسيهم.

قلت: ما أصعب أن يبصر هؤلاء الحق.

قال: أجل.. لقد خالطت بعض هؤلاء، فوجدهم صنفان، بعضهم ائتم بالنجاشي، والآخر اهتم بهرقل.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: أما النجاشي، فقد عرف الحق وآمن به، و لم يمنعه منصبه الرفيع من ذلك الإيمان.. وأما هرقل، فقد عرف الحق، ولكنه حجب عنه، وكان منصبه هو الحجاب الأكبر بينه وبينه.

قلت: فحدثني حديثهما قبل أن تحدثني عن أصحابك.

قال: أما النجاشي، فقد حدثتنا بحديثه أم سلمة بنت أبي أمية ـــ رضي الله عنها ـــ فقد قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدما كثيرة، و لم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم. ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشي فنحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، و لم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم و لم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: و لم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم قال: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله أيم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوما

جاوروني نزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ماذا يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهم ورددتهم إلى قومهم إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فجاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه قال: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم. قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام.

ثم قال: وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى: فعبدنا الله تعالى وحده و لم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا إلا نظلم عندك إيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به من شيء، فقال له جعفر: نعم؟

فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم غدا عيبهم عندهم، ثم أستاصل به خضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا، لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه؟قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه. قالت: و لم يترل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم، ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم

بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرا ذهبا وإني آذيت رجلا منكم - والدبر بلسان الحبشة الجبل - ردوا عليهم هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاء ا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

وفي رواية: أن النجاشي قال للمسلمين: أيؤذيكم أحد؟قالوا: نعم.

فأمر مناديا ينادي: من آذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم.

ثم قال: أيكفيكم؟قلنا: لا.

قال: فأضعفوها.

وعند موسى بن عقبة: من نظر إلى هؤلاء نظرة تؤذيهم فقد غرم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به.

ثم إن الحبشة اجتمعت فقالت للنجاشي: إنك فارقت ديننا ــ وخرجوا عليه ــ فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا حيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له صفين فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟قالوا: خير سيرة؟قال: فما لكم؟قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد، هو ابن الله.

فقال النجاشي ــ ووضع يده على صدره على قبائه ــ: هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا عنه وانصرفوا.

قالت أم سلمة: فو الله إنا على ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما حزنا قط حزنا كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.

وسار إليه وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل ينطلق حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟فقال الزبير بن العوام: أنا.

قالوا: فأنت.

وكان من أحدث القوم سنا.

فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليهم حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها يلتقي القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

وقالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده.

قالت: فو الله إنا على ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى فلمع بثوبه وهو يقول: أبشروا فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه.

قالت: فو الله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها.

ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة، وكنا عنده في خير منزل [1].

قلت: هذا النجاشي، وهو إمام المهتدين من الخاصة، وقد علمت أن رسول الله ﷺ صلى عليه الجنازة لما مات.. فحدثني خبر هرقل.

قال: أما هرقل، فقد حجب المسكين بملكه عن الإسلام، وقد حدث بخبره أبو سفيان بن حرب ــ الذي كان زعيم أعداء رسول الله ﷺ ــ فذكر أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشأم، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: و لم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه [2].

قال: ماذا يأمركم؟قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا

---

(١) روى القصة ابن إسحق وابن سعد وغيرهما.

(٢) وقد كذب في هذه أيضا، فقد انتصر رسول الله ﷺ في كل الحروب التي خاضها مع المشركين أو غيرهم حتى غزوة أحد.. هي نصر عظيم للمسلمين لا يقل عن أي نصر آخر.. لأن قصد المشركين كان القضاء على الإسلام وعلى الأعمدة التي يقوم عليها الإسلام، و لم يتحقق لهم ذلك، وسنرى تفاصيل أوفى عن هذا في الأجزاء التالية.

بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.. وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(آل عمران: من الآية٦٤)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفا على نصارى الشأم، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوما خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟

قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: أذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى

أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

قلت: لقد عرفت خبر هؤلاء.. فهل ستحدثني عن أصحاب هرقل أم عن أصحاب النجاشي؟

قال: بل سأكتفي بالحديث عن أصحاب النجاشي.

قلت: وأصحاب هرقل.. ألم تلتق بهم؟

قال: بلى.. وما أكثرهم.. ولكني لو كتبت أخبارهم، فسيملؤون الدنيا ضجيجا، ويصادرون كل ما تكتبه حرصا على مصالحهم.

اللورد جلال الدين برانتون:

من أول الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللورد جلال الدين برانتون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم.. وقد كان باروناً إنجليزيًّا، ورجلاً ذا شعبيَّةٍ كبيرةٍ وسمعةٍ عريضة.. وقد أتمَّ دراسته في جامعة أكسفورد.. وقد حدثني حديثه الثقة الفاضل محمد كامل عبدالصمد[2]، فقال: ولد ونشأ بين أبوين مسيحيين.. وولع بدراسة اللاهوت وهو في سن مبكرة، وارتبط بالكنيسة الإنجليزية، وأعطى أعمال التبشير كل اهتمامه.

وحدث ذات يوم أن زاره صديق هندي مسلم تحدث معه في موضوع العقائد المسيحية ومقارنتها بالعقيدة الإسلامية، وانتهت الزيارة، إلا أنها لم تنته في نفسه، فقد أثارت إنفعالاً شديداً في ضميره وعقله، وصار يتدبر كل ما قيل فيها من جدال، مما دفعه إلى إعادة النظر في العقائد المسيحية.

وقد عبر عن ذلك، فقال: عندئذ قررت أن أبحث بنفسي، متجاهلاً عقائد الناس، بعد أن أيقنت بضرورة البحث عن الحقيقة مهما طال المدى في هذا السبيل، ومهما كان الجهد، حتى أصل لمزيد من المعرفة بعد أن قيل إن الإنجيل وتعاليم المسيح قد أصابها التحريف..

فعدت ثانياً إلى الإنجيل أوليه دراسة دقيقة، فشعرت أن هناك نقصاً لم أستطع تحديده.. عندئذ ملك عليّ نفسي رغبة أن أُفرغ كل وقتي لدراسة الإسلام.. وبالفعل كرست كل وقتي وجهدي له، ومن ذلك دراسة سيرة النبي محمد ﷺ، ولم أكن أعلم إلا القليل النادر عنه، برغم أن المسيحيين أجمعوا على إنكار هذا النبي العظيم الذي ظهر في الجزيرة العربية.

ولم يمض بي وقت طويل حتى أدركت أنه من المستحيل أن يتطرق الشك إلى جدية وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر: كتاب (الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء) لمحمد كامل عبد الصمد.

ثم أخذ يكرر هذا المعنى، وهو يقول:« نعم شعرت أنه لا خطيئة أكبر من إنكار هذا الرجل الرباني بعد أن درست ما قدمه للإنسانية، وجعل من المسلمين أقوى مجتمع رفيع يعاف الدنايا.. إني غير مستطيع أن أحصي ما قدمه هذا الرسول من جليل الأعمال »

بعدها تساءل في ألم ووجوم قائلاً:« أمام كل هذا الفضل وهذا الصفاء.. أليس من المحزن الأليم حقاً أن يقدح في شأنه المسيحيون وغيرهم !؟ »

وقد حانت لي فرصة للاستماع إليه في جمع كان قد دعي إليه، وكان من أقواله في ذلك الجمع: أشعر بعميق الامتنان على إتاحة هذه الفرصة لي لأُعبِّر فيها ببعض الكلمات عمَّا دفعني لإعلان إسلامي، لقد تربَّيْت تحت تأثير أبويْن مسيحيَّيْن. وأصبحت في سنوات عمري المبكِّرة مهتمًّا بعلم اللاهوت. فشاركت بنفسي في الكنيسة الإنجليزيَّة، واهتممت بالعمل التبشيريِّ دون أن يكون لي فيه مشاركةً فعليَّة.

وقبل بضع سنواتٍ مضت انصبَّ اهتمامي على عقيدة (العذاب الأبدي)[1]لكلِّ البشريَّة عدا بعض المختارين، وأصبح الأمر بالنِّسبة لي مقيتاً جداً بحيث صار يغلب عَلَيَّ الشكُّ، فقد فكَّرت منطقيّاً بأنَّ ذاك الإله الَّذي يمكن أن يستخدم قدرته لخلق الكائنات البشريَّة الَّتي يجب أن تكون ــ في سابق علمه وتقديره ــ مُعذَّبةً للأبد، لابدَّ أنَّه ليس حكيماً، أو مُحِبّاً ــ سبحانه وتعالى عمَّا يصفون علوّاً كبيراً ــ فمستواه لابدَّ وأن يكون أقلَّ من الكثير من البَشَر، ومع ذلك واصلت الاعتقاد بوجود الله تعالى، ولكنِّي لم أكن راغباً بقبول الفهم السائد للتعاليم الَّتي تقول بالوحي الإلهيِّ للرِّجال، فحوَّلت اهتمامي للتَّحقيق في الأديان الأخرى، ممَّا أشعرني بالحيرة فقط.

وكَبُرَت في داخلي رغبةٌ جديَّةٌ للخضوع للإله الحق وعبادته، ومع أنَّ المذاهب المسيحيَّة تدَّعي أنَّها أُسِّسْت على الإنجيل إلَّا أنَّني وجدتها متناقضة، فهل من الممكن أنَّ الإنجيل وتعليم السيِّد المسيح ــ عليه الصَّلاة والسَّلام ــ كانا مُحرَّفيْن؟!

لذلك صببت اهتمامي ــ وللمرَّة الثانية ــ على الإنجيل، وصمَّمت أن تكون الدِّراسة عميقة، وشعرت بأنَّه كان هناك شيء ناقص وصمَّمت على فعل ذلك لنفسي، بغضِّ النظر عن مذاهب البشر، فبدأت أتعلَّم بأنَّ النَّاس يمتلكون الرُّوح، وقوَّةً ما غير مرئيَّةٍ، وهي خالدة، وأنَّ الآثام سيُعاقَب عليها في هذا العالم وفي العالم الآخر، وأنَّ الله تعالى برحمته وإحسانه يمكنه دوماً أن يغفر ذنوبنا إذا ما تبنا إليه حقّاً.

ولإدراكي أهميَّة البحث العميق والعيش على مستوى الحق، ولكي أجد الجوهرة الثمينة، كرَّست وقتي مرَّةً أخرى لدراسة الإسلام. كان هناك شيئٌ في الإسلام شدَّني في ذلك الوقت.

وفي زاويةٍ مغمورةٍ -بالكاد معروفة- من قرية (إتشرا) كنت مكرِّساً وقتي وعبادتي لله العظيم بين أدنى طبقات المجتمع مع رغبةٍ صادقةٍ لرفعهم إلى مستوى معرفة الإله الحقِّ والواحد، ولغرس الشعور بالأخوَّة والطَّهارة.

---

(١) في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف توضيحات كثيرة حول هذه الناحية، وهي كافيه ــ بفضل الله ــ في رد جميع الشبهات المثارة حول هذا الموضوع.

ليس في نيَّتي أن أحدِّثكم كيف عملت بين هؤلاء الناس، ولا ما هي التضحيات الَّتي قدَّمتها، ولا المصاعب الجمَّة الَّتي مررت بها، فقد واصلت العمل ببساطةٍ من أجل هدفٍ واحدٍ، وهو أن أخدم هذه الطبقات ماديّاً ومعنويّاً.

وأخيراً بدأت بدراسة حياة النبيِّ محمَّد ﷺ كنت أعرف القليل عمَّا فعله، ولكنِّي كنت أعرف وأشعر بأنَّ المسيحيِّين ــ وبصوتٍ واحدٍ ــ أدانوا مجد النبيِّ العربيِّ ﷺ وأردت حينها أن أنظر في المسألة دون تعصُّب وحقد، وبعد القليل من الوقت وجدت أنَّه من غير الممكن وجود شكٍّ في جديَّة بحثه ﷺ عن الحقِّ وعن الله تعالى.

فأدركت بأنَّه من الخطأ ــ في نهاية الأمر ــ إدانة هذا الرجل المقدَّس بعد قراءتي عن الإنجازات الَّتي حقَّقها للبشريَّة.

فالنَّاس الَّذين كانوا في الجاهليَّة يعبدون الأصنام، ويعيشون على الجريمة، وفي القذارة والعُري، علَّمهم ﷺ كيف يلبسون، واستُبدلت القذارة بالطهارة، واكتسبوا كرامةً شخصيّةً واحتراماً ذاتيّاً، وأصبح كرم الضِّيافة واجباً دينيّاً، وحُطِّمت أصنامهم، وبدأوا يعبدون الله تعالى الإله الحق، وأصبحت الأمَّة الإسلاميَّة هي المجتمع الشَّامل القويُّ والأكثر منعةً في العالم. وأُنجزت الكثير من الأعمال الخيِّرة والَّتي هي من الكثرة بحيث لا يمكننا ذكرها هنا[1]، فكم من المحزن -أمام كلِّ هذا، وأمام صفاء عقله ﷺ حين نفكِّر كيف استطاع المسيحيُّون أن يحطُّوا من شخصه الكريم، واستحوذني تفكيرٌ عميق.

وخلال لحظات تأمُّلاتي زارني سيِّدٌ هنديٌّ اسمه (معن أمير الدِّين)، وكان من الغريب حقّاً أنَّه هو الَّذي أعطى النار الَّتي في حياتي الهواء لتزداد اشتعالاً، فتأمَّلت في المسألة بشكلٍ عميق؛ وقدَّمت الحجَّة تلو الأخرى مُتحاملاً على الدِّين المسيحيِّ المعاصر، ومستنتجاً كلَّ شيءٍ لصالح الإسلام، وشاعراً بالاقتناع أنَّه دين الحقِّ، واليُسْرِ، والتَّسامحِ، والإخلاص، والأُخوَّة.

وقد ختم كلماته العذبة الصادقة بقوله:« لم يعد لي الآن سوى القليل من الزَّمن لأعيش على هذه الأرض، وأريد أن أكرِّس كلَّ ما بقي لي في خدمة الإسلام »

الدكتور روبرت كرين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور روبرت كرين)، فسألت البابا عنه، فقال: هو أحد كبار الخبراء السياسيين في أمريكا، وهو المؤسس والمنشيء لمركز الحضارة والتجديد في أمريكا، وبعد حصوله على شهادة الماجستير في الأنظمة القانونيّة المقارنة من جامعة هارفارد، وبعد تأسيسه لصحيفة (هارفارد) للقانون الدوليّ وتسلّمه منصب الرئيس الأوّل لجمعيّة هارفارد للقانون الدوليّ عمل لمدّة عقد من الزمن فيما يسمّى بـــ (المراكز الاستشاريّة لصنّاع السياسة في واشنطن)

وفي عام ١٩٦٢م شارك في تأسيس مركز الدراسات الاستراتيجيّة الدوليّة، وفي عام ١٩٦٣م وحتّى عام

---

(١) انظر الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)

١٩٦٨م كان أكبر مستشاري الرئيس السابق ريتشارد نيكسون في السياسة الخارجيّة.. وفي عام ١٩٦٩م عيّنه نيكسون نائباً لمدير مجلس الأمن القوميّ في البيت الأبيض.. وفي عام ١٩٨١م عيّنه رونالد ريغان سفيراً للولايات المتّحدة في الامارات العربيّة.

وقد اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠م، وصار اسمه بعد إسلامه (فاروق عبد الحق)، وبعد إسلامه، عمل كمدير للقسم القانوني للمجلس الإسلامي الأمريكي، وهو الرئيس المؤسس لرابطة المحامين الأمريكيين المسلمين، وهو حاصل على دكتوراه في القانون عام ١٩٥٩م.

وقد نشر عشرة كتب وخمسين مقالة اختصاصيّة حول الأنظمة القانونيّة المقارنة والاستراتيجيّة العالميّة وإدارة المعلومات.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فسألته عن سر إسلامه، فكان مما أجابني قوله: في عام ١٩٨٠م، وعلى أثر انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، ازداد اهتمام الناس في الغرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم اعجاباً به، وانّما اعتبروه تهديداً لهم، لذلك نادى العديد من صنّاع الفكر الى عقد الندوات والمؤتمرات، حول هذا الموضوع.

وقد حضرت أحد المؤتمرات كي أرى ماهيّة هذه الدراسات والاطروحات المقدّمة، (في خريف ١٩٨٠م)، وكان مشاركاً في المؤتمر الكثير من قادة الفكر الإسلاميّ، ومنهم الدكتور حسن الترابيّ الذي تكلّم عدّة مرّات، وشرح الإسلام تماماً، كما كنتُ أبحث عنه، فادركتُ أنّه متقدّم في أفكاره، ثمّ رأيته وهو يصلّي ويسجد، وكنتُ ضدّ مسألة السجود، لأنّ الانسان في نظري لا يجب أن يسجد لأحد، ففي هذا إهانة له ولانسانيّته.

ولكنني أدركتُ أنّ الشيخ حسن الترابي ينحني لله ويسجد له، فالأولى أن أنحني وأسجد أيضاً، وهكذا فعلتُ ودخلتُ الإسلام، من يومها، على يد الدكتور حسن الترابيّ.

وقد حدثني عن الهواجس التي كانت تملأ عليه نفسه، ولم يجد إجابة لها إلا في الإسلام، فقال: كان والدي يعمل استاذاً في جامعة هارفارد، وقد علّمني أن أهتم وادافع عمّا هو صواب، وأن احاول تجنّب الخطأ، وقد قضيتُ معظم وقتي في التحرّي عن العدل والعدالة قبل أن أصبح مسلماً.

وفي الندوة التي جمعتني مع البروفسور (روجيه غارودي) في دمشق سمعته يتحدث ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوعياً، وكلانا كان لديه نفس الهدف، وهو أن يدعم العدالة، وكلانا كان ضدّ التركيز على الثروة، لأنّ الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدل.

لقد اتّبع غارودي المبدأ الماركسي الذي يسعى لتحطيم الملكيّة[1]، في حين أنّي كنتُ أعتبر الملكيّة مفتاحاً للحريّة، لكن كلانا كان يرى أن الملكيّة تؤدّي في النهاية الى الظلم وعدم انتشار العدل، وكلانا كان يدعو الى نظام يدعو الى إنتاج واعطاء العدالة للجميع.. لذلك وجدنا أنّ الإسلام هو الحلّ الوحيد، فهو الذي يحمل العدالة في مقاصد الشريعة وفي الكليّات والجزئيّات والضروريّات، وأنا كمحام كنتُ أسعى الى مبادىء ليست من وضع البشر.

انطلاقا من هذه القناعات بدأتُ أسعى واُفتش عن العدالة، والمفارقة أنّي عندما ذهبتُ إلى جامعة هارفارد

---

(١) وقد أسلم بعد ذلك، وسنتحدث عنه في فصل (مفكرون)

وحصلتُ على شهادتي في القانون، مكثتُ هناك ثلاث سنوات لم أسمع خلالها كلمة العدل ولا مرّة واحدة.

قلت: كيف اختاروك لذلك المنصب الخطير؟

قال: تقصد (مستشاراً للشؤون الخارجيّة الأميركيّة)

قلت: أجل.. وغيرها من المناصب الخطيرة.

قال: لقد كان ذلك في عام ١٩٦٣م، وذلك بعد أن كتبتُ مقالة طويلة عن الصّراع بين روسيا وأميركا، وقد قرأ الرئيس نيكسون هذه المقالة وهو في الطائرة.

واستدعاني بعدها، وكلّفني بوضع كتاب حول السياسة الخارجيّة الأمريكية، وحول الشيوعيّة، ثمّ عملت مستشاراً للشؤون الخارجيّة منذ عام ١٩٦٨م.

وكنتيجة لهذا الكتاب عُينتُ نائباً للرئيس نيكسون للأمن القوميّ في البيت الأبيض، وكان هناك أربعة نوّاب للرئيس كنتُ أحدهم.

وفي عام ١٩٦٩م عندما استلم هنري كيسنجر وزارة الخارجية أنهى عملي بسبب ٢٥ ورقة كانت في كتابي تضمّنت موضوع فلسطين، وقد اقترحتُ يومها تشكيل دولتين: يهوديّة وفلسطينية، وقد بُحِثَ هذا الموضوع لسنوات عديدة على أعلى المستويات في دوائر الولايات المتحدة وفي البيت الأبيض. ولكنّ كيسنجر كان ضدّ كل إنسان يبحث في هذا الموضوع.

ووقف كيسنجر ضدّي في كلّ مجال دخلتُ أو عملتُ فيه، ثمّ عينني نيكسون نائباً لإدارة شؤون احدى الولايات في البيت الأبيض، كما عملتُ في مسألة (ووترغيت).

بعد فضيحة (ووتر غيت) وجدتُ أنّني لا أستطيع أن أؤثّر على سياسة الولايات المتحدة بشكل فعّال من داخل الدولة، ورأيتُ أنّ الحلّ الوحيد لإزالة الظلم هو إنشاء حركة فكريّة تعود للمثاليّات في أمريكا، وتنادي باستعادة التراث الأمريكي الذي كاد أن يضيع.

وهذا التراث الذي ضاع، وتلك المثل العُليا لم تعد موجودة في أمريكا، لكنّي وجدتها في الإسلام، لذلك أرى أنّ الطريق إلى إنعاش التراث الأمريكي سيكون عن طريق الإسلام، وهذا ما أقوم بالعمل عليه منذ إسلامي عام ١٩٨٠م.

وقد أخبرني بأنّ الحاجة قائمة الى صناع فكر إسلامي لكي يشرحوا للأمريكيين كيف يجب على أمريكا أن تدير سياستها الخارجيّة، وأن يبيّنوا أنّ العدل هو الطريق الطويل الذي يجب أن تسلكه أمريكا.

وفي الوقت الذي لا يبدي فيه د. فاروق قلقاً على بقاء الإسلام في أمريكا، غير أنّه يحب التركيز على بناء فكر عال للمفهوم الإسلامي بين الشباب بشكل خاص، وقد قال في ذلك:« يجب أن يفهموا العالم الحديث، ويجدوا ردوداً اسلاميّة لكل المشاكل المطروحة في المجتمع، ومن جانب آخر يجب أن ننمّي ونطوّر قيادة فكريّة بين المسلمين وفي كلّ حقول المعرفة، ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة في العالم.. وهذا يجعل الإسلام قوّة إيجابيّة من أجل الخير في العالم، وهذه الأولويّات تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم الإسلاميّ »

وقد قرأت عليه بعد ذلك آراء وتصوّرات عميقة في أمّهات القضايا والتحدّيات التي تواجه المسلمين في عالم اليوم، وهو حين يوجّه النقد الى الغرب لنظرته المنحازة والقاصرة تجاه الإسلام، فانّه لا ينسى توجيه اللّوم الى بعض المسلمين في الشّرق أو الغرب ممّن لا يفهمون التعاليم الإسلامية، ومن الصّعب ـــ كما يقول ـــ أن تفهم الغربيين حقيقة الإسلام لأنّ الكثير من المسلمين الذين يعيشون في الغرب لا يمارسون ولا يعيشون حسب تعاليم الإسلام.

ديفد كيربا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ديفد كيربا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل تبوأ أعظم منصب يمكن أن يتبوأه امرؤ في بلده.. هذا الرجل كان رئيسا لجمهورية جامبيا.

قلت متعجبا: رئيس جمهورية!؟

قال: أجل.. ولا تكمن الغرابة في كونه رئيساً لجمهورية، وإنما لأن هذا الرئيس ولد مسلماً ثم أبحر للغرب، وتشرب من فكره وقيمه وعقيدته، ودخل عالم السياسة، فدانت له، واستهوته شهوة المناصب التي وصل إلى أقصاها، ولكن حين اقترب من القصر السياسي أكتشف أنه قد نسي شيئاً مهماً.. نسي فطرته، فعاد إليها مسرعاً، وقد عبر عن ذلك بقوله: (كنت أشعر دائماً أن لي قلبين في جوفي.. قلب لي وقلب علي.. أما القلب الذي لي، فكان يدفعني إلى الدراسة والسياسة وخوض معركة الحياة.. وأما القلب الذي علي، فكان ما يفتأ يلقي على عقلي وقلبي سؤالاً لم يبرحه قط، هو: من أنت ؟... وما بين القلبين مضت بي الرحلة الطويلة استطعت معها ومن خلالها أن أحقق كل ما أصبو إليه، تحرير وطن أفريقي أسود، ووضعه على خريطة الدنيا كدولة ذات سيادة)

واستطرد قائلاً:(وكان هذا نصراً منتزعاً من فم الأسد، يكفي لأن يدير الرؤوس، ويصيب الشبان الحالمين من أمثالنا في هذا الوقت بدوار السلطة.. كانت تلك معركة كبرى سلخت من أعمارنا نصف قرن من الزمان مع الحرب والنضال، والمفاوضات وتكوين الأحزاب، وخسارة المعارك والفوز بها أيضاً، وما كان أسعدنا حينئذ ونحن ننشل وطننا من وهده الاحتلال والتخلف والضياع الفكري والاقتصادي.. ولم يكن هذا الفوز سوى لإرضاء النفس وغرورها، أما فطرة النفس فأخذت تحضني على خوض المعركة الكبرى.. لقد كسبت معركتك مع الحياة فاكسب معركتك مع نفسك، عد إلى ذاتك، اكتشف المعدن الثمين الذي بداخلك.. أزح ما عليه من هذا الركام من التغريب والعلمانية والدراسة في مدارس اللاهوت.

كان الصوت يخرج من داخلي يقول لي: عد إلى الطفل البريء الذي كان يجلس بين أيدي شيوخه ومعلميه يتلو القرآن ويسعى للصلاة.. وهنا أحسست أن قلبي يصدقني وأن لا شيء في الدنيا يعادل أن يخسر الإنسان نفسه، أن أعود لإسلامي الذي ضاع مني وأنا في خضم في الحياة ومشاغلها ومباهجها، أستشعر الآن أني قد كسبت نفسي وتعلمت درساً لا يتعلمه إلا من كان في قلبه حس نابض، وعقل واع)

لقد عاد هذا الرئيس إلى فطرته الصحيحة وأعاد اسمه إلى (داود جاوارا) بعد أن كان اسمه (ديفد كيربا)

مستر وليم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مستر وليم)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل كان مدير دريم بارك الأمريكي في مصر، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى مصر، وقد سألته عن علاقته بالإسلام، فقال: عندما جئت إلى مصر لم أكن متعودًا كما هو الحال في الغرب أن أرى الناس عندما يسمعون الآذان يتجمعون ويصلون، فكان هذا غريبًا عليّ في بداية الأمر، كما أن هناك مهندسين وزملاء آخرين مصريين بدأوا يكلمونني عن الإسلام، وبدأت أحس أن بداخلهم طمأنينة وراحة نفسية معينة لم أحسها من قبل هي سبب تمسكهم بهذا الدين، مما جعلني أبدأ في التفكير في الإسلام وأقرأ عنه وأقارنه بالمسيحية، ومن خلال قراءاتي والخبرة الواقعية حولي عن طريق زملائي المسلمين اعتنقت هذا الدين، ومن أهم الكتب التي قرأتها عن الإسلام [تفسير معاني القرآن الكريم] باللغة الإنجليزية.. وكتاب دين الحق، الزواج في القانون الإسلامي وكتب أخرى كثيرة تشرح ما يحويه الإسلام، كما أنني أحمل مصحفًا معي دائمًا، وأحاول تعلم اللغة العربية حتى أستطيع قراءة القرآن الكريم.

قلت: ما هي المعاني الإسلامية التي جذبتك إلى الإسلام؟

قال: لا يمكنني أن أحصر لك تلك المعاني في هذا المجلس، ولكني أقول لك بأني في البداية سمعت عن الإسلام قبل أن أعتنقه لكن ليس بالقدر الكافي، وبدأت بالفعل في القراءة عنه، وأخبرني زملائي المسلمون أن أهم شيء في معرفة الإسلام معناه البسيط بداية، وليس شرطًا أن أعرف قواعده وقوانينه في بداية الأمر، فقد تكون صعبة ومعقدة بعض الشيء بالنسبة إلى وسأستطيع معرفتها بعد ذلك، وقد أشهرت إسلامي، و لم أغير اسمي، ولكن أضفت إليه اسم [يوسف] فأنا معجب بشخصية سيدنا يوسف عليه السلام فقد قرأت عنه قبل وبعد اعتناق الإسلام فاحترمته وأحببت اسمه، ولكن في نفس الوقت لم أغير اسمي لأنه لقب والدي وعمومًا فأنا أعتز بالإسمين معًا.

قلت: ألم تعترض أسرتك على إسلامك؟

قال: والدي ووالدتي متمسكان بدينهما وملتزمان بتعاليم المسيحية، وكانا يحبانني، ولذلك عندما أخبرتهما أنني سأعتنق الإسلام سألا عن هذا الدين وذهبا إلى القسيس في الكنيسة وطرحا عليه عددًا من الأسئلة حول الإسلام فهما لم يكونا يعرفان عنه شيئًا، وقالا لي طالما ستظل كما أنت أبيض القلب وطيب النفس، وأن هذا الدين لن يغير فيك ذلك، فليس هناك مانع.

أما أصحابي فربما لم يفهموا موقفي، ولكنهم يعرفونني جيدًا، وهم متأكدون أنني لن أتحول عن ديني إلى دين آخر إلا إذا كان هذا الدين سيحسن من نفسي وسيزيد إيماني وسيجعلني أحس بشعور أفضل، ولذلك تقبلوا الموقف ولكن لم يفهموه بالضبط.

قلت: هل واجهتك ضغوط للحيلولة دون اعتناقك للإسلام؟

قال: لم تواجهني أي ضغوط عندما قررت اعتناق الإسلام، بل إن من حولي تقبلوا الأمر، ولكن لم يكونوا قد تفهموه بعد، خاصة أن الغرب لا يرانا مثلاً ونحن نصلي بل يرون جانب التعصب في المسلمين، فوسائل الإعلام تنقل إليهم صورة غير حقيقية، ولا تنقل إليهم صورة الإسلام الحقيقية، فالتعصب ليس من الإسلام في

شيء، ولكن الغرب للأسف لا يرى سوى ذلك، وبالنسبة إلي لم أجد مشاكل في أمريكا بسبب إسلامي ولكن أقابل أناسًا لا يفهمون موقفي.

قلت: فكيف تعلمت إقامة شعائر الدين الجديد مع أنك لا تتقن العربية[1]؟

قال: للأسف لم أتعلم اللغة العربية بعد، ولكن قالوا لي ليس هناك مشكلة الآن طالما أنك تصلي وتقف أمام الله بقلب سليم وتعرف كيف تصح صلاتك وعندما أقول (الله أكبر) أحس أنني قريب من الله وصلاتي ستقبل كما أخبرني بذلك علماء من الأزهر، وأن الأمر يأتي خطوة خطوة، وزملائي المسلمون يصلون بي دائمًا، والفرصة المتاحة لي هي أن أتعلم العربية ممن حولي، فليس عندي وقت كثير فأنا أعمل من ١٢ إلى ١٦ ساعة يوميًا، وبالنسبة لصيام شهر رمضان فلم تكن عندي مشكلة في الامتناع عن الطعام فأنا متعود على ذلك في العمل، ولكن عانيت بعض الشيء أولاً، ثم اعتدت ــ بحمد لله ــ على ذلك، وأنا أنوي الحج إلى بيت الله برفقة زوجتي [منى] التي ارتبطت بها بعد اعتناقي الإسلام.

قلت: هل ترى أي فروق بين الإسلام والمسيحية؟

قال: الإسلام منحني الأمان والسلام، وهو دين لم يتغير ولم يتبدل ولم يطرأ عليه أي تغيير، أما المسيحية، فقد حدث فيها تغيير وتحريف من قبل القساوسة والكهنة، فمنهم من يؤمن بأن عيسى عليه السلام هو الله، وهذا خطأ فعيسى هو عبد الله ورسوله، ونحن ــ المسلمين ــ نؤمن بجميع الرسالات، وأن المسيح هو رسول من رسل الله، ونؤمن بالدين الذي جاء به، وهنا يقف المسيحيون عند الإيمان بالمسيحية فقط، فلم يؤمنوا بأي شيء بعدها أما نحن فقد آمنا بمحمد ﷺ ودينه، وهذا هو الفرق.

قلت: ما الجديد في حياتكم إثر تحولكم إلى الإسلام؟

قال: منحني الإسلام شيئًا جديدًا وقوة وجعلني لا أخشى أحدًا إلا الله، بل أنا لا أهتم بأي مشكلة مهما كانت طالما أنها مشكلة دنيوية، ولا تتعلق بالآخرة، ولا تمس حياتنا بعد الموت، وهذا ما لاحظته في تعاملي مع بعض الزملاء، فمثلاً توفيت أختي الصغيرة بعد إسلامي بفترة، فتقبلت الأمر لأنه من الله، وعليّ أن أؤمن بالقضاء والقدر، ولو حدث ذلك قبل إسلامي لكان من الممكن أن أعترض وأتساءل لماذا يحدث ذلك.

قلت: هل طرأ تغير على تعامل المحيطين بك بعد اعتناقك الإسلام؟

قال: إن زملائي المسلمين سعدوا جدًا بإسلامي لدرجة الانبهار، وقالوا لي: (مبارك)، وهم يعاملونني جيدًا حتى قبل أن أسلم أو أخبرهم أنني أفكر في الإسلام، ومعاملتهم لي لم تجعلني أشهر إسلامي، ولكن جعلتني أفكر بإيجابية في اعتناق هذا الدين، وأعتقد أنه لو كانت سيئة ربما لم أعتنق الإسلام، لأنه طالما أن هؤلاء المسلمين معاملتهم سيئة وتصرفاتهم خاطئة، فلماذا أكون على دينهم؟

قلت: هل حاولت أن تدعو أحدًا من الشعب الأمريكي إلى الإسلام؟

قال: لقد تحدثت مع أصدقائي عن الإسلام والجديد فيه، ولكني أعتقد أن المهم هو تصرفاتي وأفعالي، فهي أفضل دعوة صريحة للتأثير في الآخرين، وحثهم على تقليدي واعتناقهم الإسلام.

---

(١) قد ذكرنا عدم اشتراط تعلم العربية لمن يريد الإسلام، بل يمكنه أداء شعائر الإسلام جميعا بلغته الأصلية.

وللأسف هناك كثير من الناس، لا يعرفون أي شيء عن الإسلام ومعلوماتهم بشأنه تكاد تكن منعدمة حتى أن أصدقائي لم يستطيعوا أن يسألوني سؤالاً محددًا، فكانت استفساراتهم ما هو الإسلام؟ فهم لا يعرفون أن الإسلام دين يدعو للتسامح مع كل الأديان وأن سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والمشكلة تكمن في أن الغرب لا يعرف الكثير عن الإسلام، فالصلة التي تربطه بالشرق تتركز في النواحي السياسية.

قلت: من وجهة نظرك ما هي رؤية الأمريكيين للإسلام؟

قال: الناس في الولايات المتحدة يتقبلون الأديان، ولذلك تجد مزيجًا من الأديان في دول الغرب، وليس هناك مشكلة أن تكون مسلمًا، ولكن للأسف هناك من يسيئون لصورة الإسلام.

د.مراد هوفمان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مراد هوفمان)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم، وقد كان سفير ألمانيا في المغرب وفي مصر، وقد نال شهادة دكتوراه في القانون من جامعة هارفرد.

وبعد إسلامه ابتدأ د.هوفمان مسيرة التأليف، ومن مؤلفاته: كتاب (يوميات مسلم ألماني)، و(الإسلام عام ألفين) و(الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسلام كبديل) الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا.

ولما أشهر إسلامه حاربته الصحافة الألمانية محاربة ضارية، وحتى أمه لما أرسل إليها رسالة أشاحت عنها، وقالت:« ليبق عند العرب »

ولكن هوفمان لم يكترث بكل هذا، بل قال:« عندما تعرضت لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إسلامي، لم يستطع بعض أصدقائي أن يفهموا عدم اكتراثي بهذه الحملة، وكان يمكن لهم العثور على التفسير في هذه الآية:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)

وقد التقيته مرات عديدة حدثني خلالها عن سر إسلامه.. وسأعرض لك بعض ما دار بيننا لتعلم سر انجذاب مثله إلى الإسلام[1].

لقد ذكر لي في أول لقاء لي به أن الله ﷻ بكرمه وفضله من عليه بأن يعيش ثلاثة أحداث كبرى كان لها تأثيرها الكبير في توجيهه للإسلام، وهي ذات طبيعة انسانية، وجمالية فنية، وفلسفية.

أما الحدث الأول فيرتبط بالجزائر، قال: في أثناء عملي بالجزائر في عامي ١٩٦٢/٦١، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم اثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو (منظمة الجيش السري)، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنودا متمردين، و لم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر.

وغالبا ما كانوا يقتلون رميا بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، و لم يكن لذلك من سبب، إلا

(١) انظر كتابه (الطريق الى مكة)

كونهم عربا، أو لأنهم مع استقلال الجزائر[1]، وكنت عند سماعي صوت سلاح آلي، أتصل تليفونيا بزوجتي الاميركية لتسرع إلى شراء ما تحتاج اليه، لان الهجوم التالي في المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهماتي هي إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الالمان الفارين الى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية، وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات في العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السري قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثم وجدوا انفسهم بين نارين. كما أن فرص نجاتهم من الموت كانت ضئيلة جدا. وكنت، بصفتي ممثلا للقنصلية العامة الالمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى في المستشفيات، أحمل سلاحي معدا للاستخدام. وكنت أدقق النظر في وجه من يقابلني، بل وفي يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يبتعد عن الآخر عائدا الى الخلف، طلبا للامان، وفي بعض الأحيان كانت زوجتي المذعورة تصر على حماية ظهري، فكانت تسير خلفي على مسافة عدة خطوات حاملة في كم ثوبها سكينا حادة.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: ما تزال بعض ذكريات تلك الايام تثير كآبة في نفسي حتى الآن، فعندما كنت في طريقي إلى مقر إذاعة فرنسا ٥، حيث كان من المقرر أن ألقي، تنفيذا لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن (وضع الرقص المسرحي) في ألمانيا، تعطلت مضخة البترين في سيارتي في شارع ايزلي الضيق، كثير المنحنيات، وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتي، مطلقة اصوات النفير، وفي تلك الاثناء، كان امامي رجل يعبر الشارع، واطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحا أمام رفرف سيارتي الايسر، واذا بالمهاجم يشير لي بسلاحه آمرا ان اواصل سيري، كي اخلي ساحة اطلاق الرصاص.

ولم اكن ارغب في ذلك، بل ولم اكن استطيعه ايضا، وأخيرا، تقدم الشخص الذي يحمل السلاح من الرجل المصاب وأطلق عليه رصاصة اخرى أردته قتيلا، ثم اختفى في زحام البشر في تؤدة وعلى مهل، ولقد استأت كثيرا ايضا، عندما رأيت مضطرا اعضاء منظمة الجيش السري، وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفا ببراميل من الوقود، ويدفعونها من فوق منحدر الى حي يسكنه العرب، ولا بد للمرء من ان يتوقع ان يكون على قائمة القتلى، اذا ما اصبح شاهدا غير مرغوب فيه.

وكان حلاقي في الابيار يدرك ذلك جيدا، فحين هاجمت قوات (منظمة الجيش السري) مكتب التلغراف المقابل لمحله في شارع جاليني، ادار مقعده حتى لا يكون شاهدا على ما يجري. ولم يكن تصرفه اقل غرابة من تصرف احد افراد الشرطة الذي عرض عليّ في مايو (ايار) عام ١٩٦٢ ان يحرس سيارتي، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره في مكتبه بالابيار.

عندما توصل الرئيس الفرنسي شارل ديجول، في ايفيان في مارس (اذار) عام ١٩٦٢، الى اتفاق مع

---

(١) اهتممنا بسياق هذا الكلام هنا بحروفه لنبين من هو الأسبق للإرهاب، أو من علم الإرهابين ما يمارسونه من أساليب الإرهاب التي يبرأ منها الإسلام.

الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطني الجزائري على وقف اطلاق النار في يوليو (تموز) التالي، صعدت منظمة الجيش السري من اعمالها الارهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق، فبدأ أفرادها في تصفية النشء الاكاديمي الجزائري، وراحوا يقتلون، رميا بالرصاص، النساء اللاتي يرتدين الحجاب.

وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل، اطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائري جائل في الابيار، فأردوه قتيلا أمام مكتبي مباشرة، وكان هذا البائع قد عاش ينادي على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأي إنسان كائنا من كان، وفي الشارع الذي كنت اقطنه، كان جيراني من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المنتصرين بكل ما لا يبخلون به.

قلت: فقد عرفت المسلمين إذن انطلاقا من هذه المشاهد المأساوية؟

قال: أجل.. لقد شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالاسلام المعيش، وقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الانساني، وسط ما يعانون من آلام. وكنت ادرك ان لدينهم دورا في كل هذا.

ولقد أدركت إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للاجهاض تحت تأثير الاحداث الجارية آنذاك، فقد بدأت تترف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الاسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار (القتل دون سابق انذار) المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، ادركت وانا اطل من نافذة مسكني في الطابق الرابع، ان سيارة الاسعاف لا تستطيع العثور علينا، لان منظمة الجيش السري كانت قد غيرت في تلك الليلة اسماء كل شوارع الحي الذي اقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع (سالان) وشارع (يهود) وشارع (منظمة الجيش السري)

بعد تأخير طال كثيرا، كنا في طريقنا متجهين الى عيادة الدكتور شمعون (قبل ان تنسفها منظمة الجيش السري بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للامن، وعلى الرغم من صفير البوق الذي كان السائق يطلقه، فانه لم يكن باستطاعته ان يشق طريقه الا ببطء شديد، وكانت زوجتي تعتقد، في تلك الاثناء، انها ستفقد وعيها. ولذا، وتحسبا للطوارئ، راحت تخبرني ان فصيلة دمها هي O ذات RH سالب. وكان السائق الجزائري يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها. ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

ولكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الاصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ كتابهم (القرآن) في ترجمته الفرنسية لــPesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن، وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن الا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في ميزاب جنوب الجزائر، حيث يحفظه اطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيرا. وفيما بعد ادركت ان حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

وقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته في بار فندق ترانس ميدترانيان في غرداية، عن قراءتي للقرآن، اذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح، وجود ترجمات له، واعتبر محاولة

ترجمة كلام الله الى لغة اخرى بمثابة تجديف.

و لم استغرق وقتا طويلا قبل ان استوعب رد فعله. فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه. فالمفردات التي تشير الى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على امر حدث في الماضي ايضا. ناهيك عن ان اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي ان يفهمه تلميحا. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن ذات المعنى في لغتين لا تتطابق في ما يختص بتداعي الخواطر الا نادرا. ومن ثم، فان كل ترجمة للقرآن ان هي الا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه. وهكذا كان الرجل في البار على حق.

لم تشأ هذه الجزائر، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني لحالي، وانما تبعتني كالقدر، فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام ١٩٦٦، كان عليّ أن أعمل من السفارة الالمانية في برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون الى الجزائر، يمر من خلالي اسبوعيا.

وبعد ٢٥ عاما من عملي بالجزائر لأول مرة، عدت اليها سفيرا في عام ١٩٨٧، ومنذ اعتمدت سفيرا في المغرب، المجاور للجزائر، في عام ١٩٩٠، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلاما مأساوية، فهل يمكن ان يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

قلت: فحدثني عن الجانب الثاني الذي تعرفت من خلاله على الإسلام، وهو الجانب الجمالي الفني.

قال: لذلك قصة.. وهي تتلخص في أنني كنت منذ صباي معجبا بالجانب الشكلي للجمال، وأرغب في الغوص في أعماقه حتى عندما كانت حماتي الاميركية تقول ــ استنادا الى المنهج البيوريتاني ــ إن الجمال مجرد أمر سطحي، وانه ليس الا خداعا على السطح.

وعندما تلقيت في عام ١٩٥١ الدفعة الاولى من منحة التفوق، التي تمنحها وزارة الثقافة في بافاريا للموهبين جدا، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان (الفتاة وثمار المانجو)، وبما أنني لم اكن ممن يقطنون حي Maximilianeum الواقع على اليمين من نهر ايزار، وانما كنت اقيم في المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمان، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها، فقد نقلت لوحة جوجان التي اشتريتها الى مسكني هناك، ورحت أحللها، و لم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن ــ الرسم والنحت والعمارة والخط والاعمال الفنية الصغيرة ــ مدين بالفضل في تأثيره الجمالي للحركة المجمدة، ومن ثم، فانه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد احساسنا بجمال الفن التشكيلي كلما ازدادت قدرته على الايحاء بالحركة. وهذا ما يفسر انبهاري الشديد بالرقص الذي دفعني الى مشاهدة عروض الباليه كافة في مسرح بريترجنتن في ميونخ، ومنذ ذلك الحين ازداد اهتمامي بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت اقضي كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة في صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل، وحصلت على تمارين للباليه، لكي أتعلم ــ ولو على نحو متخلف ــ رقص الباليه الكلاسيكي، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه.

وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجرد الذي يجسد الموسيقى، كنت في الواقع أبحث عن الأسباب التي ترغمنا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها. ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة في احدى الغابات البافارية باحثا في أسس علم جمال الحركة.

وهناك تبين لي أننا كبشر لا نملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه. وهو ما ينطبق ايضا علينا كمحللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع.

يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور في ذات الاتجاه الذي نكتب فيه، وتبين لي أخيرا أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر. وتبين لي آخرا أننا نعجب بحركات الطرد المركزي، لاننا نستطيع ان نتخيلها ممتدة في ما لا نهاية.

عبر هذا الطريق، صار الفن الاسلامي بالنسبة لي تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة، ألا يماثل في سكونه تماما ما أسعدني في حركات الباليه، التجريدية: القدرة الانسانية، والحركة الداخلية، والامتداد في ما لا نهاية؟ وذلك كله في اطار الروحانية التي يتسم بها الاسلام.

وألهمتني أعمال معمارية، مثل الحمراء في غرناطة والمسجد الكبير في قرطبة، اليقين بأنها افراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبت جيدا ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة، اذ كتب: (تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسيحية، إنني اقرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتا يستوعبني بقوة طاغية، واندفع بداخله كما تندفع الريح في الارغن)

وصار الفن الاسلامي لي وطنا جماليا، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبل، وأصبحت ارى الاعمال الفنية للعصور: الاغريقي والروماني والقوطي، ولعصر النهضة والروكوكو مثيرة، وعريقة، واصيلة، بل وعبقرية، ولكنها لا تنفذ الى داخلي، ولا تحرك عواطفي ولا مشاعري.

سكت قليلا، ثم قال: إنني أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن افضل من ذي قبل، حيث انني محاط في المترل الآن بفن تجريدي، ومن ثم بفن اسلامي فقط. وأدركها أيضا عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزا عن مجرد تعريف الفن الاسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الاسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والارابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيرا في أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديمقراطي، وفي بناء القصور الاسلامية، الذي يوحي بحركة متجهة الى الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي ــ الوظيفي المبهر للمدن الاسلامية القديمة (المدينة) الذي يهتم بالمعيشة المتجاورة تماما كما يهتم بابراز موقع السوق وبالمواءمة او التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السوق ومنطقة السكن. وان من يعرف واحدا من هذه الاسواق ــ وليكن في دمشق، او اسطنبول او القاهرة او تونس او فاس ــ يعرف الجميع، فهي جميعا، كبرت ام صغرت، منظمات اسلامية من ذات الطراز الوظيفي. فما اكثر ما تجولت في سوق مدينة سالي المؤاخية للرباط لكي استعيد حيويتي، إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل انسان مكانا له، شيخا كان ام شابا، صحيحا كان ام مريضاً، فقيرا ام غنيا، ابيض ام اسود، ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق

وقت، ولا مبالغة في تقييم الذات، ولا خمور ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـــ (دردشة)، وحيث تغلق الحوانيت ابوابها وقت الصلاة.

كان ما احسست منذ البداية أنه إسلامي وباعث على السعادة هو في واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامي، وللإحساس بالحياة والمكان الاسلاميين على العقل والروح. وهذا ما احسست به في متحف جولبينكيان الاسلامي في لشبونة، مثلما أحسست به في المسجد الاموي بدمشق، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفي مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمي في درنة.

وقبل أن يقودني الدرب الفلسفي إلى الاسلام، الذي قادني بدوره الى تجربة اساسية ثالثة في حياتي، كنت قد حصلت، وانا بعد في سن المراهقة في مدينة اشفنبرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويتي، من خلال عضويتي لجمعية Congregatio Mariana وهي المقابل لحركة (المانيا الجديدة) المتمركزة في الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسي، بهذه المنظمة إلى فترة حكم النازي، وذلك لان الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سرا. ولم يكن حتى ابي المشتت الفكر يعلم بعضويتي لهذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعيا مع أحد القساوسة الجيزويت في احدى المقابر، في ظل اجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة (شبيبة هتلر)، أي أننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازي، ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب ٨٠ فردا، بعد أن انقضت الحرب، عدنا الى الاستمتاع بحياة واساليب منظمات الشباب التي كانت سائدة في عشرينات هذا القرن.

ونظرا لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل، ولكنني في الوقت ذاته، كنت قد بدأت اضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك. كنت أنا و Carl Jacob Burckherdt نتساءل دوما عما اذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الاديان مسيحيي الديانة.

وبالرغم من اعجابي بفلسفة Ludwig Wittgenstein فإني كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفي وجود الله، وكنت شديد التمسك بالرأي القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفي وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد، وقد حسمت هذا باعتقادي في وجود الله.

وبعد ذلك، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله الانسان، وقد كنت شديد الاقتناع بامكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الامور.

ويرتكز اقتناعي هذا على دراستي ودرايتي بتاريخ الانسانية والعلوم والحق، التي استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وبالله. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها ان الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة؟! كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقيني بامكانية، بل بضرورة، الوحي والدين، ولكن اي دين؟ واي عقيدة؟ هل هي اليهودية، او المسيحية او الاسلام

؟!

وهنا تداركني الله بلطفه، فجاءتني الإجابة من خلال تجربتي الثالثة التي تتلخص في قراءتي المتكررة للآية ٣٨ من سورة النجم:﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾(لنجم:٣٨)، ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد في المسيحية مأخذ الجد، لانه يدعو في ظاهر الامر إلى النقيض. ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ اخلاقي، وانما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوهرا لفكر ديني، هما:

١ ــ انها تنفي وتنكر وراثة الخطيئة.

٢ ــ انها تستبعد، بل وتلغي تماما، إمكانية تدخل فرد بين الانسان وربه، وتحمل الوزر عنه.

وهذه المقولة الثانية تهدد، بل وتنسف مكانة القساوسة وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذي يرتكز على وساطتهم بين الانسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم. والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفي وراثة الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لي أهمية قصوى، لانه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، التجسيد، الثالوث، والموت على سبيل التضحية. وبدا لي ان تصور فشل الله في خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك الا بانجاب ابن والتضحية به ــ أي أن الله يتعذب من أجل الإنسانية ــ أمر فظيع ومروع، بل وتجديف وإهانة بالغة.

وبدت لي المسيحية وكأنها تعود لترتكز في أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة، وتبين لي جليا الدور الخطير والشرير الذي لعبه بولس الرسول.. لقد قام بولس، والذي لم يعرف المسيح ابدا ولم يصاحبه في حياته، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية ــ المسيحية والتي ترى في المسيح أحد رسل الله وأنبيائه. وتيقنت ان المجلس الملي، الذي انعقد في نيقيا (عام ٣٢٥)، قد ضل طريقه تماما، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الاصلية، عندما اعلن ان المسيح هو الله، واليوم، اي بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول انني بدأت انظر الى الاسلام كما هو، بوصفه العقيدة الاساسية الحقة التي لم تتعرض لأي تشويه او تزوير.. عقيدة تؤمن بالله الواحد الاحد الذي:﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(الاخلاص)

رأيت في الإسلام عقيدة التوحيد الاولى، التي لم تتعرض لما في اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الاولى، عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما أنها لا تؤله أحد انبياء اليهود.

لقد وجدت في الاسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمي، ولقد بدت لي مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الاخلاقية منطقية جدا حتى أنه لم تعد تساورني أدنى شكوك في نبوة محمد.

ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقي الاسلام مقولة أن التحول من دين الى دين آخر ليس له أي أهمية، حيث أن الاديان كلها تؤمن في آخر الامر بإله واحد، وتدعو الى الاخلاقيات والقيم ذاتها، وأن السلوكيات والاخلاق

الحميدة، بالاضافة الى الايمان بالله في قلب الانسان، وان يتوجه الانسان الى الله سرا، لأهم من الصلاة خمسا، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج، كم من مرة اضطررت الى الاستماع الى هذه المقولات من مسلمين أتراك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك.

إن إلها خاصا سريا ليس بإله، وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية، اذا ما تيقنت ان الله يتحدث الينا في قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من ان يكون مسلما بأعمق معاني هذه الكلمة.

سكت قليلا يسترجع أفكاره التي ربطته بالإسلام.. ثم قال: لقد كنت قريبا من الاسلام بأفكاري قبل أن اشهر إسلامي في عام ١٩٨٠، بنطق الشهادتين متطهرا كما ينبغي، وإن لم اكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية.

لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية او الذهنية، ولكني لم اكن كذلك بعد من الناحية العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم ان يتغير الآن جذريا. فلا ينبغي ان اكون مسلما في تفكيري فقط، وانما لا بد أن اصير مسلما أيضا في سلوكياتي.

اذا كان الدين يعني رباطا يربط الانسان بربه، واذا كان الاسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كانت أهم واجباتي، كمسلم حديث عهد بالاسلام، في الخمسينات من العمر، أن أتعلم صلاة الاسلام. وليس من الضروري ان يكون المرء خبيرا في الحاسب الآلي ليدرك أن الامر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

ومن المؤكد، على اي حال، انه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر اكثر من انقطاع صلته بربه، من ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول انه يؤمن بالله.

وبناء على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من وجهة نظري[1]، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون ان تكون لديه رغبة في التحدث اليها تليفونيا أو في الكتابة اليها، ودون ان يلقي نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم، ليس محبا لها في حقيقة الامر.

وهذا ما ينطبق تماما على الصلاة، فمن يعي ويدرك حقا المعنى الحقيقي لوجود الله، ستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه الى الله كثيرا. وبذلك فقط، يصير ما يردده المسلم كثيرا وهو يقرأ سورة الفاتحة:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) حقيقة واقعة.

وكنت حتى تلك اللحظات أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية، ومن ثم كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص. وقبل أن امعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الالمانية للصلاة الاسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة، طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة، والركوع والسجود، والجلوس على الأرض مستندا على القدم اليسرى، ورفع

---

(١) بل هو كذلك من حيث الأدلة الشرعية، فالكثير منها يعتبر الصلاة مظهرا لا يستغنى عنه لإثبات الإيمان، وقد ورد في الحديث الصحيح (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر)

الذراعين، واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهرا، ومتى يقرأ سرا مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الامام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخرا الى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد، إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك.

وتبدأ الصلاة الاسلامية، وإن بدا ذلك امرا غريبا، في الحمام أو عند مصدر المياه في الفناء الامامي للمسجد بالوضوء، وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيف يغسل المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين، كل شيء وضع وحدد على نحو دقيق تماما. وحينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين الى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة، فانه ينفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

وينبغي أن يتعلم المرء ايضا عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وان يعرف مواقيتها، وما ينبغي على المسافر ان يراعيه من احكام الصلاة.

وتعلمت أخيرا كيفية الوقوف في صلاة الجماعة، حيث ينبغي ان يصطف المسلمون في صف مستقيم تتلاصق فيه الاقدام وتسد الفرج، وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لي اكثر من مجرد ضم صفوف. انه يرمز الى التضامن على نحو يؤثر فيّ مجددا كل مرة. ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية (السلام عليكم) التي ينطقها المصلي وهو يلتفت يمينا ثم يسارا، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه اعلانا عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه الى جاره في الصلاة مصافحا ومتمنيا أن يتقبل الله صلاته (تقبل الله صلاتك)

وروى لي عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام لوزارة الخارجية الجزائرية، انه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلا، فقد بدا له انه من الاقرب الى المنطق ان يقول (السلام عليك)، وكانت نتيجة ذلك انه تلقى تأنيبا من والده الذي علمه أن المسلم يقول دائما: (السلام عليكم)، لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية، تشمل الملائكة وتشمل الصراصير.

قلت: لقد كنت أسمع بحبك للخمر، وهو شيء طبيعي بين قومنا وأهل بلدنا، فكيف استطعت أن تتخلص منها، أو كيف لم تقف الخمر حجابا بينك وبين الإسلام؟

قال: لقد ظننت في بادئ الأمر انني لن استطيع النوم جيدا دون جرعة من الخمر في دمي، ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماما، فنظرا لأن جسمي لم يعد بحاجة الى التخلص من الكحول، أصبح نبضي أثناء نومي اهدأ من ذي قبل.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: كنت في جاهليتي الشخصية قبل اعتناقي الاسلام خبيرا بالخمور حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني.

لقد وجدت مع ذلك ان التحريم القرآني للخمر والمخدرات ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وانما هو ايضا منفعة شخصية للفرد، اذ يمكنه ان يكون متيقظا صافي الذهن دائما، ومن ثم، انهيت هذه المرحلة من حياتي مرة واحدة، وإلى الابد، فان الانسان، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه اعظم المخلوقات. فنحن البشر نستطيع ان نمعن التفكير في العالم من حولنا وفي احوالنا، وان نتصرف بحكمة، وهذه الصفات التي ترقى

بنا، هي ذات الصفات التي ندمرها على نحو منتظم بتعاطي الخمور والمخدرات، ونحن بذلك نمتهن انفسنا ونحط من قدرتنا داخل المنظومة الكونية، وننحدر بالتالي الى مكانة ادنى من مكانة الحيوانات، التي لا يغيب عنها وعيها ابدا. فادمان تعاطي الخمور والمخدرات نوع من التشويه الذهني الذاتي. وكانت مديرة منزلي الصربية في بلغراد مثالا منذرا لي، اذ كانت تعود دائما الى ادمان الخمر، حتى بعد علاج لفترات طويلة.

إن مشهد مدمني تعاطي الخمر مشهد مهين، يبعث على الاكتئاب، ويثير الشفقة، وكثيرا ما يقدم هؤلاء على الانتحار، وهم يعلمون حقيقة حالهم، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه، لان الخمر سلبتهم العزيمة والارادة والقدرة على اتخاذ القرار. من النادر ان تجد عدد مدمني الخمر في المجتمع الاحدث في المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم في المانيا. فهم يمسكون ــ من وقت الظهيرة ــ بكأس الراكيا في يد، وبالسيجارة في اليد الاخرى، مبرهنين بذلك على انهم لم يعودوا سادة انفسهم، وهم من الناحية الدينية، يمارسون بذلك نوعا من الشرك بالله، لأن الخمر ونيكوتين الدخان اهم عندهم من كل ما عداهما في العالم بمن في ذلك ربهم الذي خلقهم. فهم يستطيعون ــ في ظنهم ــ ان يعيشوا بدونه، ولكن ليس بدون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر الى منع البدء في تعاطيها، حيث لا يبدو ضارا في حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما ان تصبح كؤوسا عديدة، ومن المعتاد الا يرى المدمن انه معرض للخطر، وان يقدم ما لا حصر له من الاعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين او احتساء الخمر، في هذا الوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء او تعساء، يعانون من ضغط العمل او في اجازة منه، جماعة او فرادى، مرضى او اصحاء، جوعى او شبعى.

لقد واجهت كرئيس مسؤول هذه المشكلة، فكنت، عندما انبه احد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت اعد معتديا على حقه في ان يعبر عن شخصيته بحرية (واواجه بذلك مشكلة مع مستشار شؤون العاملين). ومع ذلك، كان مستشار شؤون العاملين نفسه يستطيع ان يتأكد في اليوم التالي ان الموظف المعني صار في واقع الامر مدمنا للخمر. ومن ثم، فانه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بادمان الخمر.

قلت: ألا ترى تحريم الخمر سببا حائلا بين قومنا، وبين الإسلام؟

قال: هذا صحيح.. فالألماني قد ينادي بحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ولكنه من الصعب أن يتنازل عن الخمر.

قلت: ألا ترى الإسلام قاسيا بهذا النوع من التشريع؟.. أو أنه لم يلاحظ في هذا التشريع خصوصيات المناطق المختلفة التي قد تستدعي القول بإباحة الخمر؟

قال: إن ما تطرحه خطير جدا.. فالخمر هي الخمر.. فما يزال النساء والاطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر.. بل تسقط الطائرات اليوم تحت تأثيره، وقد تسبب قائد احدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع اسوأ كارثة بيئية حتى الآن.

وعلى الرغم من توفر احصاءات عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فانه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب ادمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية،

تتجاور أقسام علاج الادمان واقسام علاج الامراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من انذار، ان عاجلا او آجلا، هذا اذا ما دمر العقل قبل ان يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحدا من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر، ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكتادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة الاميركية بطريقة الاوتوستوب (اي ايقاف السيارات والانتقال بها مجانا من موقع الى آخر). وفي اثناء هذه الجولة، تعرضت يوم ٢٨ من يوليو (تموز) عام ١٩٥١ لحادث سيئ بالقرب من هول سبرنجز بولاية مسيسيبي، فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من اتلانتا بولاية جورجيا الى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر امامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح، ولا اتذكر شيئا عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت في ما بعد ان هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر في تنيسي، التي تسمح باحتسائه اثناء القيادة، قبل ان يتوجها الى مسيسيبي التي تمنع احتساءه اثناءها.

وقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت اضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر، ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلا: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل، وأضاف قائلا:« إن مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئا خاصا جدا »

وقد كنت أفكر في هذا الامر، وانا اتجول في هول سبرنجز بذراع مربوطة وضمادة تحيط بالذقن وفم مخيط، وكنت أفكر في ما أرفه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين، ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام او الشراب، او التنزه، او الاجابة عن الاسئلة، وأخيرا ذهبت لأقص شعري، فهذا على الاقل لا يؤ لم، و لم أدرك المغزى الحقيقي لنجاتي وبقائي على قيد الحياة الا بعد ثلاثين سنة، عندما اشهرت اعتناقي للاسلام.

مالكولم إكس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مالكولم إكس)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل زعيم الملوّنين الأمريكيين، وكان يُلقَّب قبل إسلامه بالشيطان و(أحمر دويترويت) إذ كان زعيما عنصريا متطرفا في عداوته للبيض، ولكنه عدل عن هذا النهج بعد إسلامه.

قلت: فهل التقيته؟

قال: لا.. لم أتشرف بلقائه، ولكني ــ عندما كنت في أمريكا ــ قرأت رسالة له كانت أهم عندي وأعظم أثرا من أي لقاء.

قلت: فما كتب في تلك الرسالة؟

قال: بعد رحلته للحج أرسل إلى أتباعه من مكة رسالة يقول فيها:(ما رأيت قط كرماً أصيلاً، ولا روحاً غامرة من الأخوة كهذه التي تسود هنا بين الناس من كل لون وجنس، في هذه الأرض المقدسة، وطن إبراهيم ومحمد ... فها هنا عشرات الألوف من الحجاج قدموا من كل أنحاء العالم، ليؤدّوا المناسك نفسها بروح من

الوحدة والأخوة، ما كنت أظن – بحكم خبراتي في أمريكا – أنها يمكن أن تنشأ بين البيض والسود ...

وإن أمريكا في حاجة إلى أن تفهم الإسلام، لأنه هو الدين الوحيد الذي يمكن أن يمحو المشكلة العنصرية في مجتمعها ... لقد تقابلت مع مسلمين بيض وتحدثت معهم، بل تناولت الطعام معهم!ولكن النزعة العنصرية محاها من أذهانهم دين الإسلام..

إننا هنا نصلي لإله واحد، مع أخوة مسلمين لهم أعين زرقاء كأصفى ما تكون الزرقة، ولهم بشرة بيضاء كأنصع ما يكون البياض)

اللورد هدلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللورد هدلي)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل سليل الأسرة المالكة في بريطانيا، وهو من أغنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة في كامبردج، وقد أسلم وأصدر مجلة (The Islamic Renew)، وأصدر كتاب (إيقاظ العرب للإسلام)وكتاب (رجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام)، وقد تسمى بعد إسلامه باسم (رحمة الله فاروق)

قلت: فحدثني عنه.

قال: سأحدثك بما حدثني به بعض من لقيه وعرفه خير معرفة، فقد ذكر لي أنه رغم مولده في بيت مسيحي عريق، لم يشعر يوماً في قرارة نفسه بإيمان صادق نحو المسيحية، بل طالما راودته الشكوك في صحة التعاليم التي تروج لها الكنيسة، والطقوس التي يمارسها آباء الكنيسة في صلواتهم وأقداسهم، وطالما توقف بفكره عن أسرار الكنيسة السبعة.

إذ لم يستطع ــ وهو المثقف الواعي ــ أن يهضم فكرة أكل جسد المسيح أو شرب دمه، و لم يقتنع بفكرة الفداء التي هي من أسس عقيدة الكنيسة...

وشاء قَدَرُ الله أن يسافر إلى منطقة كشمير التي يدين أهلها بالإسلام، وذلك من أجل مشروعات هندسية، حيث كان يعمل ضابطاً في الجيش البريطاني ومهندساً...

وهناك أهدى إليه صديق ضابط بالجيش نسخة من المصحف الشريف حين لمس انبهاره بسلوكيات المسلمين، وكان هذا الإهداء بداية تعرفه الحقيقي على الإسلام، إذْ وجد في كتاب الله ما يوافق طبيعة نفسه ويلائم روحه...

لقد وجد أن مفهوم الألوهية ــ كما جاء في القرآن الكريم ــ يتوافق مع المنطق والفطرة، ويتميز ببساطة شديدة، كما لمس في الدين الإسلامي سمة التسامح، وهي السمة التي لم ير لها وجوداً بين أهله من النصارى الذين عُرِفُوا بتعصبهم ضد الديانات الأخرى، بل ضد بعضهم بعضاً، فالكاثوليك يتعصبون ضد البروتستانت، وهؤلاء بدورهم يتعصبون ضد الأرثوذكس، الذين لا يقلون عن الطائفتين السابقتين تعصباً ضدهما، فكل فريق يزعم أن مذهبه هو الحق وما عداه باطل، ويسوق في سبيل ذلك من الحجج أسفاراً يناقض بعضُها بعضاً.

و لم يكن بوسع اللورد هدلي إلا أن يميل للإسلام بعد اطلاعه على ترجمة معاني القرآن الكريم، وما قرأه عن العقيدة الإسلامية، وأبطال الإسلام الأوائل الذين استطاعوا أن يصيروا أعظم قواد العالم، وبقوة عقيدتهم أسسوا

حضارة عظيمة ازدهرت لقرون طويلة، في وقت كانت أوربُا ترزح تحت وطأة الجهل وطُغيان البابوات والكرادلة.

كما وجد اللورد هدلي في الشريعة الإسلامية وسيرة الرسول محمد ﷺ وصحابته ومن تلاهم من التابعين القدوة الحسنة التي تروّى روحه العطشى للحق.

وبرغم اقتناع اللورد هدلي بالإسلام فقد ظل قرابة عشرين عاماً يكتم إسلامه لأسباب عائلية، حتى كتب له الله أن يعلنه على الملأ في حفل للجمعية الإسلامية في لندن..

ففي ذلك المحل صاح بصوت مرتفع قائلا: إنني بإعلاني إسلامي الآن لم أحِدْ مطلقاً عمَّا اعتقدته منذ عشرين سنة، ولّما دعتني الجمعية الإسلامية لوليمتها سُرِرْتُ جداً، لأتمكن من الذهاب إليهم وإخبارهم بالتصاقي الشديد بدينهم، وأنا لم أهتم بعمل أي شيء لإظهار نبذي لعلاقتي بالكنيسة الإنجليزية التي نشأت في حجرها، كما أني لم أحفل بالرسميات في إعلان إسلامي، وإن كان هو الدين الذي أتمسك به الآن.

سكت قليلا، ثم قال: إن عدم تسامح المتمسكين بالمسيحية كان أكبر سبب في خروجي عن جامعتهم، فإنك لا تسمع أحداً من المسلمين يذم أحداً من أتباع الأديان الأخرى، كما نسمع ذلك من النصارى بعضهم في بعض.

نظر إلى الجمع الملتف به، والمشدوه لذلك الإعلان الخطير، ثم قال: إن طهارة الإسلام وسهولته وبُعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته ــ كانت كل هذه الأمور أكبر من أثَّرَ في نفسي، وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بدينهم والإخلاص له ما لم أرَ مثله بين النصارى، فإن المسيحي يحترم دينه ــ عادة ــ يوم الأحد، حتى إذا ما مضى يوم الأحد نسي دينه طول الأسبوع... وأما المسلم فبعكس ذلك، يحب دينه دائماً، سواء عنده أكان هو الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكير في كل عمل يكون فيه عبادة الله.

قلت: إن رجلا بهذا المحل من أهل بلده لا بد أن يكون لإسلامه تأثيرا كبيرا.

قال: أجل.. لقد كان لإسلامه أكبر الأثر في تقوية نشاط المسلمين في بريطانيا، إذْ لم تكد تمر أشهر قليلة على إعلان إسلامه حتى اقتفى أثره أكثر من أربعمائة بريطاني وبريطانية، بعد ما استرعى انتباههم ما تَحَدَّثَ به عن محاسن الإسلام، فأقبلوا على قراءة الكتب الإسلامية، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

قلت: ألم يصبه ما يصيب المسلمين الجدد من الأذى؟

قال: بلى.. لقد كان لإشهار إسلامه صَدىً واسعا في بريطانيا للَّقَب الكبير الذي يحمله، ولكونه سياسياً بارزاً، وعضواً قيادياً في مجَلسِ اللوردات، فقد انتقدته الصحف البريطانية، واتهمته في صدق دينه مُحاوِلةً تفسير موضوع إشهار إسلامه بأنه لتحقيق مكسب رخيص، وهو أن يصبح ممثل المسلمين في مجالس اللوردات وزعيماً لهم.

وقد دفعته هذه التهمة إلى الرد عليها بمقال عنوانه (لماذا أسلمت؟) قال فيه: نحن ــ البريطانيين ــ تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصاف والعدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم ــ كما يفعل أكثرنا ــ بفساد الإسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام !؟

وقال فيه:(من المحتمل أن بعض أصدقائي يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا فيَّ، ولكن هذا الوهم لا حقيقة له، فإن اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيتُ فيه عدة سنين... ولا حاجة بي إلى القول بأني مُلِئْتُ سروراً حينما وجدتُ نظرياتي ونتائجي متفقة تمام الاتفاق مع الدين الإسلامي)

ومن ردوده على هؤلاء ما نشرته مجلة (إسلاميك رفيو) حيث قال:(إن كل هذه المحاولات العقيمة والوسائل الدنيئة التي يقوم بها الْمُنَصَّرُونَ لتحقير شريعة النبي العظيم ﷺ، بالبذاءة وبالسفاسف لا تمسه بأذىً، ولا تغيّر عقيدة تابعيه قَيْدَ أنملة)

ورد على المبشرين قائلاً:(لا عَجَبَ أن يكذب المنصرون وقد افتروا على الله كذباً، فكم تظاهر اللص بالأمانة والداعر بالاستقامة والزنديق بالتدين، ولكن لا عجَبَ، فقد غاض من وجههم ماء الحياء، وقد قال نبي الإسلام ﷺ:« إذَا لَمْ تَسْتَحِ فاصنع ما شِئْتَ ».. فلو كانوا يستحيون من أنفسهم ــ أو على الأقل من الناس ــ لما أقدموا على هذا الادعاء الباطل، والافتراء الواضح)

سكت البابا قليلا، ثم قال: لقد حفظت من كلامه جواهر من الحكم سأعرضها عليك لتكتشف من خلالها سر اعتناقه للإسلام، وإخلاصه له:

لقد قال معبرا عن ساعة اعتناقه الإسلام: (لا ريب إن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي جاهرت فيه على رؤوس الأشهاد بأنني اتخذت الإسلام ديناً.. فإذا كنت قد ولدت مسيحياً، فهذا لا يحتم عليّ أن أبقى كذلك طوال حياتي، فقد كنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ القائل: إذا لم تأكل جسد المسيح، وتشرب دمه، فلن تنجو من عذاب جهنم الأبدي!

ويقول:(إنني بإسلامي أعتبر نفسي أقرب إلى المسيحية الحقة مما كنت من قبل، ومن يعادي المسيحية الحقة فلا أمل فيه ...)

ويقول:(لم أولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ولا أحب أن أكون مع الخاطئين)

ويقول:(لقد تملك الإسلام لبي حقا، وأقنعني نقاؤه، فأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، اذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل)

ويقول:(بما أننا نحتاج إلى نموذج كامل ليفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي تسد تلك الحاجة، فهي كمرآة نقية تعكس علينا الأخلاق التي تكون الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة..

خذ أي وجه من وجوه الآداب، تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياة الرسول ﷺ)

ويقول:(الإسلام هو الدين الذي يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة مدى الحياة!لا في أيام الآحاد فقط ... أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تنيره شمس النهار، وأخذ يستنشق هواء البحر النقي الخالص)

اللادي ايفلين كوبولد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللادي ايفلين كوبولد)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام، وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وقد كتبت مذكراتها عن

رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة)، والذي ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله)

قلت: فهل التقيت بها لتسألها عن سر إسلامها؟

قال: لا.. لم أتشرف بذلك.. ولكني قرأت كتابها الذي ذكرت فيه رحلتها إلى الله، وتعرفها على الإسلام، وفيه يتجلى سر إسلامها.

قلت: فما الذي جذبها إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبها إليه القرآن الكريم .. فقد قالت في بيان تأثيره في الحضارة الإسلامية:(إن أثر القرآن في كل هذا التقدم الحضاري الإسلامي لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانًا وحضارة)[1]

وذكرت موقف القرآن من العلم، وما في القرآن من سبق علمي، فقالت: (وذكرتُ أيضًا ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة)[2]

وذكرت تأثرها بأسلوب القرآن في مواضع عديدة، فقالت:(الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفًا ولا تعريفًا، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعرًا، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطبًا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يردد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس)[3]

وقالت: (أشار الدكتور ماردیل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال: (أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي يصدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًا. والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتيابًا وشكًا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحدّ الذي جعل أجانب المبشرين يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن. ذلك أن هذا الأسلوب.. الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس. كان له الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله

(١) البحث عن الله، ص ٥١.
(٢) البحث عن الله، ص ٤٥.
(٣) البحث عن الله، ص ١١١.

بلغة أخرى)[1]

وقالت: (الواقع أن للقرآن أسلوبًا عجيبًا يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فَحُسنُ تأليفه، والتئام كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ أن تجد فيها غريبًا، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تُحِسُّ فيها لفظًا نابيًا عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سموّ معانيه أدركت بلاغته وإعجازه)[2]

بالإضافة إلى هذا، فقد ذكرت الثمرات العظيمة التي أنجزها محمد ﷺ والتي تبرهن على صدق الإسلام، وكونه من عند الله، فقالت: (كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثًا جديدًا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً)[3]

وقالت: (هذه هي مدينة الرسول.. تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوحدانية الإلهية)[4]

وقالت: (لعمري، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول روعة ما يستطيع لها تفسيرًا، وهي روعة تملأ النفس اضطرابًا وذهولاً ورجاء وخوفًا وأملاً، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم.. إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية)[5]

وقالت: (لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، لَمّا تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام وقبول الوحدانية الإلهية.. لقد وفّق إلى خلق العرب خلقًا جديدًا ونقلهم من الظلمات إلى النور)[6]

وقالت: (مع أن محمدًا كان سيد الجزيرة العربية.. فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفيًا بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريمًا بارًا كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحايين قليلاً لا يكاد يكفيه)[7]

---

(١) البحث عن الله، ص ١١٢.
(٢) البحث عن الله، ص ١١٣.
(٣) البحث عن الله، ص ٥١.
(٤) البحث عن الله، ص ٣٩.
(٥) البحث عن الله، ص ٥٢.
(٦) البحث عن الله، ص ٦٦.
(٧) البحث عن الله، ص ٦٧.

بالإضافة إلى هذا ذكرت إعجابها الشديد بالمنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والسلوك، واعتبرته من الأسباب الأولى لإسلامها، فقالت: (سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي فارتضيت الإسلام دينًا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه و لم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)[1]

وقالت: (الإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضًا، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفاقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلهية، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع والتصاقه اللصوق كله بما في الحياة من أمور عملية.. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبدًا)[2]

وقالت: (من فوائد الحج أنه يوطد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث فيما بينهم.. فالحج والحالة هذه ليس فرضًا دينيًا فحسب، وإنما هو إلى ذلك كله، جمعية أمم عظمى. ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك هيروغرنجه المستشرق الهولندي فقال: (لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلاً، ولعمري إن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يخجل الجماعات الأخرى التي لم تفطن لها ولا دعت إليها)[3]

وقالت: (من المعلوم أنه لا كهنوت في الإسلام، وليس هناك واسطة بين المسلم وربّه)[4]

وقالت: (إذا لم يكن في الإسلام إلا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة وجعلت من الإنسانية شخصًا واحدًا لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح، لكفى ولكان الإسلام خير الأديان وأقربها إلى الله وأرفعها درجات. ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنكليزي، إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعمّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه ويفصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أن الإسلام يقف وحيدًا في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات)[5]

وقالت: (إن الإسلام دين حي، حي في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقوي أمره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره

---

(١) البحث عن الله، ص ٩.
(٢) البحث عن الله، ص ١٢.
(٣) البحث عن الله، ص ١٣.
(٤) البحث عن الله، ص ١٣.
(٥) البحث عن الله، ص ١٣.

وحب أتباعه له)[1]

وقالت: (إن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهي أبدًا تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله في العالم الحاضر)[2]

وقالت: (الحق أقول: إن الحب عندنا وكما يفهمه الغربيون ما يزال قريبًا من الغريزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة.. فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها، أما الحب بمعناه الإنساني السامي.. الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقي النفسي إلى عالم الخير والجمال والحق فهذا ما لا يفكر به أحد أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام، منطوٍ في هذه الأخوة الإسلامية التي تجعل من الفرد عبدًا يعمل لخير المجموع وفردًا قصارى همه أن يعمل للإحسان والإحسان أبدًا)[3]

وذكرت إعجابها بالتسامح الإسلامي، فقالت: (إن الإسلام لا يعرض لمعتنقي الأديان الأخرى بسوء وهو لا يحملهم على قبول دينه والنزول تحت شرعته.. كما أنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقهم وتعذيبهم كما فعل غيره وسواه، وآية القرآن الكريم ظاهرة بينة:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦)[4]

وقالت: (هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل بيت المقدس فاتحًا ظافرًا.. أدركته الصلاة وكان في داخل كنيسة القيامة، فخرج منها وصلى خارجها. ولما سأله البطريرك عن سبب ذلك قال له: أخشى أن يتخذ المسلمون بعدي من صلاتي هذه في الكنيسة حجة لقلبها إلى مسجد فيخرقون المعاهدة بذلك.. وبذلك حفظ الفاروق للمسيحية كنيستهم الأولى)[5]

وقالت: (لما استرجع السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة، وطرد الصليبيين من البلاد أظهر في حروبه ومعاركه كل ألوان الرفق والرحمة والعطف والعفو عند المقدرة، وقد حفظ له كثير من كتاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا من المجاهرة بها والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء وأطهر الفاتحين)[6]

وقالت: (مما يجدر ذكره أن صلاح الدين لما افتتح القدس وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع والبصر، وأبى أن يعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا وأحرقوا ودمروا وزاد ندى فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة تحت رعاية رجاله ومحافظة قواده)[7]

وذكرت إعجابها الشديد بالحضارة الإسلامية المبنية على القيم التي نشرها الإسلام بمصادره الأصلية،

---

(١) البحث عن الله، ص ١٣.
(٢) البحث عن الله، ص ١٣.
(٣) البحث عن الله، ص ٢٨.
(٤) البحث عن الله، ص ٩٣.
(٥) البحث عن الله، ص ٩٤.
(٦) البحث عن الله، ص ٩٥.
(٧) البحث عن الله، ص ٩٦.

فقالت: (ليس من يجهل خدمات العرب للعلم والمعرفة في أيام حضارتهم وعزّهم وكيف أنهم أنشأوا المدارس وعنوا بالمستشفيات، وعززوا المعارف وأجازوا أهل العلم والعرفان، وعملوا على نشر الكتب وترجمة المؤلفات في كل الأقطار التي امتدت حضارتهم إليها واستقام حكمهم فيها حتى أصبحت بغداد في عصرها الزاهر مدينة العلم والفلسفة، وأوروبا لا تزال حتى يومنا هذا مدينة للإسلام بهذه الشعلة العلمية التي حملها العرب في أيام حضارتهم وحافظوا عليها كل المحافظة حتى أخذتها أوروبا منهم)[1]

وقالت: (جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا أن نبكي مصرع الأندلس لأن مصرعها كان ضربة على الحضارة الحديثة والعمران القديم)[2]

وقالت: (أصيب العالم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سلطانهم بخسارة لا تعوض)[3]

وقالت: (اطلبوا العلم ولو في الصين) هذه كلمة النبي العربي إلى المؤمنين، أوجب عليهم فيها طلب العلم من أقصى الأرض إلى أقصاها وهي كلمة ألقاها وأمر بها منذ مئات السنين.. ولكن العلم الأوروبي لم يتفهم خطورتها ولا اتبعها حتى القرن الثالث عشر وبعد سبعة قرون من صدورها)[4]

وقالت: (إن الإسلام كان يقف شعلة للمعرفة والعلوم.. ولقد عرف كلومبوس في جامعات إسبانيا الإسلامية أن الأرض مدورة.. وكانت هذه الجامعات ترحب بطلاب المعرفة من اليهود والنصارى.. الذين انتظموا فيها ونالوا شهاداتها وتلقوا معارفها)[5]

قلت: ألم يصرفها عن الإسلام تلك الشبهات الكثيرة التي تثار حول موقف الإسلام من المرأة؟

قال: لقد كانت هذه المرأة الفاضلة صادقة في بحثها عن الله، فلذلك هداها الله إلى التعرف عن كتب على حقيقة موقف الإسلام والمسلمين من المرأة، ومما ذكرته في هذا قولها: (لم تكن النساء المسلمات متأخرات عن الرجال في ميدان العلوم والمعارف فقد نشأ منهن عالمات في الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكل ألوان الحياة)[6]

وقالت: (لما جاء الإسلام ردّ للمرأة حرّياتها، فإذا هي قسيمة الرجل لها من الحق ما له وعليها ما عليه ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد، واتساع الحيلة، فيلي رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوّته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما في السّرّاء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله ﷻ:﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن الله سبحانه بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهما في حسن التوبة وادخار الأجر وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل

---

(١) البحث عن الله، ص ٥٠.
(٢) البحث عن الله، ص ٥١.
(٣) البحث عن الله، ص ٥١.
(٤) البحث عن الله، ص ٩١.
(٥) البحث عن الله، ص ٩٢.
(٦) البحث عن الله، ص ٥١.

مشقات الحياة، ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدّم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجه فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها وأحسنت القيام في شأن دارها)[1]

وقالت: (كتبت اللادى ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنكليزي في تركيا إلى شقيقتها تقول: (يزعمون أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأنني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك سبيل، وإني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيتها في الأستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية، ثم إنهن يعشن في مقصورات جميلات ويستقبلن من يرد من الناس)[2]

وقالت: (إن جهل النساء في الإسلام أمرٌ لا يتفق وأوامر الرسول الكريم، فقد أمر رسول الله النساء بطلب العلم وحظر الإسلام الجهل على المؤمنين به وشدّد في ذلك بما لا يدعو مجالاً للشبهة والتأويل)[3]

---

(١) البحث عن الله، ص ٨١.
(٢) البحث عن الله، ص ٨٥.
(٣) البحث عن الله، ص ٨٦.

ثالثا ــــ الأدباء

فتحت دفتر البابا على فصله الثالث، فوجدت عنوانه (الأدباء)، فقلت: من تقصد بالأدباء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم خزائن الكلام، ونبعت لهم من منابع المشاعر عيون عبروا بها عما لم يطق غيرهم التعبير عنه.

قلت: فما الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم؟

قال: هؤلاء هم لسان البشر الذي يعبر عنهم.

قلت: ولكنهم قد يتيهون في أودية الأماني، كما قال ﷻ:﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤– ٢٢٥)، وقد روي في الحديث عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْج، إذ عَرَض شاعر يُنشد، فقال النبي ﷺ:« خذوا الشيطان –أو امسكوا الشيطان –لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا »[1]

قال: وقد يصدقون، فيمتلئ غيرهم صدقا، وقد استثنى الله تعالى المؤمنين، فقال:﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) رواه أحمد.. فهم البعض هذه النصوص فهما خاطئا، فراحوا يذمون الشعر ذما مطلقا، حتى حكي عن بعض الزهاد أنه كان لا يتمثل ببيت شعر، ولما سئل عن ذلك قال: لا أحب أن أرى في صحيفتي يوم القيامة بيت شعر!

وهم يستدلون لهذا بأحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ منها (مَنْ قرض بيت شعر بعد العشاء لم تُقْبَلْ له صلاة تلك الليلة)، وقد قال ابن كثير في تخريجه: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يَرْوِهِ أحد من أصحاب الكتب الستة.

أما الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ في ذم الشعر: (لأن يمتلئ جوفَ أحدكم قيحا يريه خير له من أن يمتلئ شعرا) رواه البخاري في باب الأدب، ومسلم في باب الشعر.

فقد حمل على الشعر المشتمل على الفحش، أو على الوعيد على ما إذا غَلَبَ عليه الشعر، وملك نفسه؛ حتى اشتغل به عن القرآن والفقه في الدين ونحوهما؛ ولذلك ذكر الامتلاء.

ويدل لهذا ما ذكره من لفظ (الامتلاء) الذي يعني أن يشغل المالئ بشيء جميع أجزائه؛ حتى لا يكون فيها فضل لغيره.

وأورد مصطفى صادق الرافعي –رحمه الله– في كتابه (إعجاز القرآن) قولا نسبه للرسول ﷺ وهو: لما نشأت.. بُغِّضَتْ إِلَيَّ الأوثان، وبُغِّضَ إِلَيَّ الشعر..

وهو قول لا أصل له، ولا سند بدليل ماورد من سماع النبي ﷺ للشعر ومحبته له في مواضع كثيرة، فقد أخرج البخاري في (الأدب المفرد) عن عمر بن الشريد عن أبيه أنه قال: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت، فأنشدته؛ حتى أنشدته مائة قافية.

وذكر ابن كثير في تفسيره أن بعض الصحابة أنشد النبي ﷺ مائة بيت، فكان ﷺ يقول عقب كل بيت:« هيه » يستزيده، فيزيده.

وقد قالت عائشة –رضي الله عنها–:« الشعر كلام.. فحسنه حسن، ورديئه رديء، فخذ الحسن، واترك الرديء »

وقد ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ثلاثة وجوه لذم الشعر؛ وهي:

الأول: أن يُذَمَّ الشعر من حيث المضمون. أي: من حيث ما يتضمنه من فُحش ونُبوٍّ عما تقتضيه الأخلاق.

الثاني: أن يُذَمَّ من حيث الوزن والقافية. وهذه ناحية صناعية.

الثالث: أن يُذَمَّ لاعتبارات تتصل بالشاعر.

ونحن في هذا الفصل كما في سائر الرسائل لا نعتبر إلا الأول، باعتبار الثاني يرجع إلى الصناعة، والثاني يرجع إلى شخصية الشاعر، لا إلى ما قاله، والمؤمن يستفيد الحكمة ولا يهمه من أي وعاء خرجت.

الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء:٢٢٧)، وقد ورد في الحديث أنه لما نزلت:﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ:﴿ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ثم قال:« أنتم » ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قال:« أنتم ﴾، ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قال:« أنتم»[1]

وقد روي عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله، عز وجل، قد أنزل في الشعّر ما أنزل، فقال ﷺ:« إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل »[2]

قلت: أما إن قلت هذا، فقد كان في الإسلام شعراء كثيرون يمتلئون صدقا، وقد قدموا للإسلام أعظم ما يقدمه مسلم ناصح.

قال: ولذلك تراني قد بدأت بهم في هذا الدفتر.

١ــ شعراء من الصحابة:

قلت: قد رأيت ذلك، وتعجبت منه، فكيف التقيت بابن رواحة، أو بحسان.

قال: لقد التقيت بشعرهم، وأعجبت به، ولاحظت فيه من الصدق ما لم ألحظه في جميع أشعار الدنيا، فليس هناك من هو أحق بالمدح من رسول الله ﷺ.

عبد الله بن رواحة:

قلت: فلنبدأ بعبد الله بن رواحة، فإني أراه يستهل قائمة الشعراء في دفترك هذا.

قال: أجل.. فلي محبة خاصة لهذا الشاعر المحب الصادق.

قلت: وكيف لا تحبه، وهو صحابي جليل حضر بيعتي العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق.

قال: وفوق ذلك كان أحد شعراء النبي الثلاثة، وكان بين يدي النبي ﷺ في عمرة القضاء، وكان يقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عَنْ سَبيلِهِ نَضْرِبْكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
ضَرْبًا يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيـــله

فنادى عليه عمر وقال له: في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول هذا الشعر؟ فقال له النبي ﷺ:« خَلِّ عنه يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وَقْعِ النبل»[3]

وقد أنشد ذات يوم من شعره بين يدي النبي ﷺ قوله:

إِنِّــــي تَفَرَّسْـــــتُ فِيـــــكَ الخَيْــــرَ أَعْرِفُـــــهُ وَاللهُ يَعْـــــرِفُ أنْ مـــــا خَـــــانَني الخَبَـــــرُ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، وقد شكك في صحة هذه الرواية باعتبار السورة مكية، وهؤلاء كانوا في المدينة، ومنهم من تأخر إسلامه، ولكن هذا ومثله لا يحمل على سبب الترول وإنما يحمل على التفسير، فهؤلاء الصحابة الشعراء طبقوا على أنفسهم المعنى السلبي للآيات، فصحح لهم رسول الله ﷺ ذلك.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أبو يعلي.

أَنْتَ النبي وَمَنْ يُحْرَمْ شَفَاعَتُهُ   يَوْمَ الحِسَابِ لَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ
فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حُسْنٍ   تَثْبِيتَ مَوسَى وَنَصْرًا كَالذي نصَروا

فدعا له الرسول ﷺ قائلا:« وإياك فثَّبَتَكَ الله »[1]

وكما نصر عبد الله الإسلام في ميدان الكلمة، فقد نصره باقتدار في ميدان الحرب والجهاد بشجاعته وفروسيته.

وفي شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، علم الرسول ﷺ أن الروم قد حشدوا جيوشهم استعدادًا للهجوم على المسلمين، فأرسل النبي ﷺ جيشًا إلى حدود الشام عدده ثلاثة آلاف مقاتل؛ ليؤمِّن الحدود الإسلامية من أطماع الروم، وجعل زيد بن حارثة أميرًا على الجيش، وقال لهم:« إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رَواحة »

فلما وصل جيش المسلمين إلي حدود الشام، علموا أن عدد جيش الروم مائتا ألف فارس، فقالوا: نكتب إلى النبي ليرسل إلينا مددًا من الرجال، أو يأمرنا أن نرجع أو أي أمر آخر، فقال لهم ابن رواحة:« يا قوم، والله إن التي تكرهون هي التي خرجتم تطلبون، إنها الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة »

فكبر المسلمون وواصلوا مسيرتهم حتى نزلوا قرية بالشام تسمى مؤتة، وفيها دارت الحرب، وقاتل المسلمون أعداءهم قتالاً شديدًا، وأخذ زيد بن حارثة يقاتل ومعه راية المسلمين، فاستشهد زيد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وراح يقاتل في شجاعة حتى استشهد، فأخذ عبد الله الراية، فأحس في نفسه بعض التردد، ولكنه سرعان ما تشجع، وراح يقاتل في شجاعة ويقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّه   طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهِنَّه
فَطَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّة   مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّةْ
يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِى تَمُوتِي   وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيت
إِنْ تَفْعَلِى فَعْلَهُمَا هُدِيتِ   وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شُقِيتِ

ونال عبد الله الشهادة، ولحق بصاحبيه زيد وجعفر.

وقد كان فوق هذا مثال المسلم الصادق، وقد أرسله النبي ﷺ إلى يهود خيبر؛ ليأخذ الخراج والجزية مما في أراضيهم، فحاولوا إعطاءه رشوة؛ ليخفف عنهم الخراج، فقال لهم: يا أعداء الله، تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم.

حسان بن ثابت:

---

(١) رواه ابن سعد.

كان الاسم الثاني في دفتر البابا في هذا الفصل هو اسم الشاعر المشهور (حسان بن ثابت) فطلبت من البابا أن يحدثني عنه، فقال:

هو شاعر الرسول بلا منازع، وقد أخبرت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أن النبي ﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:« إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»[1]

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: مر عمر بحسان في المسجد وهو ينشد فلحظ إليه فقال: كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت النبي ﷺ يقول:« أجب عني اللهم أيده بروح القدس »[2]

ومن قصائده التي رثى بها رسول الله ﷺ [3]:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان يترل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهدآيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرا بها واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى ... لها محصيا نفسي فنفسي تبلد
مفجعة قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره ... ولكن لنفسي بعد ما قد توجد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين ... عليه وقد غارت بذلك أسعد

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) هذه القصيدة والقصائد التالية من رواية ابن إسحق في سيرة ابن هشام.

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة   عشية علوه الثرى لا يوسد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم   وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكي السموات يومه   ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وهل عدلت يوما رزية هالك   رزية يوم مات فيه محمد ؟

تقطع فيه منزل الوحي عنهم   وقد كان ذا نور يغور وينجد

يدل على الرحمن من يقتدي به   وينقذ من هول الخزايا ويرشد

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا   معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات يقبل عذرهم   وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله   فمن عنده تيسير ما يتشدد

فبينا هم في نعمة الله بينهم   دليل به نهج الطريقة يقصد

عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

عطوف عليهم لا يثني جناحه   إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

فبينا هم في ذلك النور إذ غدا   إلى نورهم سهم من الموت مقصد

فأصبح محمودا إلى الله راجعا   يبكيه حق المرسلات ويحمد

وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها   لغيبة ما كانت من الوحي تعهد

قفارا سوى معمورة اللحد ضافها   فقيد يبكينه بلاط وغرقد

ومسجده فالموحشات لفقده   خلاء له فيه مقام ومقعد

وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت   ديار وعرصات وربع ومولد

فبكي رسول الله يا عين عبرة   ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد

ومالك لا تبكين ذا النعمة التي   على الناس منها سابغ يتغمد

فجودي عليه بالدموع وأعولي   لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد

وما فقد الماضون مثل محمد   ولا مثله حتى القيامة يفقد

أعف وأوفى ذمة بعد ذمة   وأقرب منه نائلا لا ينكد

وأبـــــذل منـــــه للطريـــــف وتالـــــد إذا ضـــــن معطـــاء بمـــا كـــان يتلـــد
وأكـــرم صـــيتا في البيـــوت إذا انتمـــى وأكـــرم جـــدا أبطحيـــا يســـود
وأمنـــــع ذروات وأثبـــــت في العـــــلا دعـــــائم عـــــز شـــــاهقات تشـــيد
وأثبـــت فرعـــا في الفـــروع ومنبتـــا وعـــودا غـــذاه المـــزن فـــالعود أغيـــد
ربـــاه وليـــدا فاســـتتم تمامـــه علـــى أكـــرم الخـــيرات رب ممجـــد
تناهـــت وصـــاة المســـلمين بكفـــه فـــلا العلـــم محبـــوس ولا الـــرأي يفنـــد
أقـــول ولا يلقـــى لقـــولي عائـــب مـــن النـــاس إلا عـــازب العقـــل مبعـــد
ولـــيس هـــواي نازعـــا عـــن ثنائـــه لعلـــي بـــه في جنـــة الخلـــد أخلـــد
مـــع المصـــطفى أرجـــو بـــذاك جـــواره وفي نيـــل ذاك اليـــوم أســـعى وأجهـــد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

مـــا بـــال عينـــك لا تنـــام كأنمـــا كحلـــت مآقيهـــا بكحـــل الأرمـــد
جزعـــا علـــى المهـــدي أصـــبح ثاويـــا يـــا خـــير مـــن وطـــئ الحصـــى لا تبعـــد
وجهـــي يقيـــك الـــترب لهفـــي ليـــتني غيبـــت قبلـــك في بقيـــع الغرقـــد
بـــأبي وأمـــي مـــن شـــهدت وفاتـــه في يـــوم الاثـــنين الـــنبي المهتـــدي
فظللـــت بعـــد وفاتـــه متبلـــدا متلـــددا يـــا ليـــتني لم أولـــد
أأقـــيم بعـــدك بالمدينـــة بينـــهم يـــا ليـــتني صـــبحت ســـم الأســـود
أو حـــل أمـــر الله فينـــا عـــاجلا في روحـــة مـــن يومنـــا أو مـــن غـــد
محضـــا ضـــرائبه كـــريم المحتـــد
يـــا بكـــر آمنـــة المبـــارك بكرهـــا ولدتـــه محصـــنة بســـعد الأســـعد
نـــورا أضـــاء علـــى البريـــة كلـــها مـــن يهـــد للنـــور المبـــارك يهتـــدي
يـــا رب فاجمعنـــا معـــا ونبينـــا في جنـــة تـــثني عيـــون الحســـد
في جنـــة الفـــردوس فاكتبـــها لنـــا يـــا ذا الجـــلال وذا العـــلا والســـودد
والله أسمـــع مـــا بقيـــت بهالـــك إلا بكيـــت علـــى الـــنبي محمـــد

يا ويح أنصار النبي ورهطه   بعد المغيب في سواء الملحد

ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا   سودا وجوههم كلون الإثمد

ولقد ولدناه وفينا قبره   وفضول نعمته بنا لم نجحد

والله أكرمنا به وهدى به   أنصاره في كل ساعة مشهد

صلى الإله ومن يحف بعرشه   والطيبون على المبارك أحمد

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

نب المساكين أن الخير فارقهم   مع النبي تولى عنهم سحرا

من ذا الذي عنده رحلي وراحلتي   ورزق أهلي إذا لم يؤنسوا المطرا

أم من نعاتب لا نخشى جنادعه   إذا اللسان عتا في القول أو عثرا

كان الضياء وكان النور نتبعه   بعد الإله وكان السمع والبصرا

فليتنا يوم واروه بملحده   وغيبوه وألقوا فوقه المدرا

لم يترك الله منا بعده أحدا   ولم يعش بعده أنثى ولا ذكرا

ذلت رقاب بني النجار كلهم   وكان أمرا من امر الله قد قدرا

واقتسم الفيء دون الناس كلهم   وبددوه جهارا بينهم هدرا

ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

آليت ما في جميع الناس مجتهدا   مني ألية بر غير إفناد

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت   مثل الرسول نبي الأمة الهادي

ولا برا الله خلقا من بريته   أوفى بذمة جار أو بميعاد

من الذي كان فينا يستضاء به   مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما   يضربن فوق قفا ستر بأوتاد

مثل الرواهب يلبسن المباذل قد   أيقن بالبؤس بعد النعمة البادي

يا أفضل الناس إني كنت في نهر   أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

كعب بن زهير:

من أسماء الصحابة الشعراء التي رأيتها في دفتر البابا اسم (كعب بن زهير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

كعب بن زهير، كان شاعرا فحلاً مجيداً، وهو صاحب البردة المعروفة، والتي يقول فيها:

بانَتْ سُعَادُ فقَلْبي اليومَ مَتبُولُ   مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لم يُجزَ مَكبُولُ

وما سُعادَ غَداةَ البَيْنِ إذ عَرَضَتْ   إلاَّ أغَنُّ غَضِيضُ الطَّرفِ مَكْحُولُ

وما تَدُومُ على العَهْدِ الذِي زَعَمَتْ   كما تَلَوَّنُ في أثْوَابِها الغُولُ

ولا تَمَسَّكُ بالوُدِّ الذي زَعَمَتْ   إلاَّ كما تُمْسِكُ الماءَ الغَرَابيلُ

كانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لها مَثَلاً   وما مَوَاعِيدُه إلاَّ الأباطيلُ

نُبِّئْتُ أنَّ رَسُولَ اللهِ أوْعَدَنِي   والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مَبْذُولُ

مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعْطَاكَ نافلَةَ الْ   قُرْآنَ فيها مَوَاعِيظٌ وتَفْصِيلُ

لا تأْخُذَنِّي بأقْوَالِ الوُشَاةِ و لم   أُذْنِبْ ولَوْ كَثُرَتٍ فِيَّ الأقاويلُ

فلما بلغ قوله:

إنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به   وصارمٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

في عُصْبَة مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ   بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أسْلَمُوا زُولُوا

زَالُوا فما زالَ أنْكَاسٌ ولا كُشُفُ   يَوْمَ اللِّقَاءِ ولا سُودٌ مَعَازِيلُ

نظر رسول الله ﷺ إلى من عنده من قريشٍ، كأنه يومي إليهم أن يسمعوا، حتى قال:

يَمْشُونَ مَشْيَ الجمال البُهْمِ يَعْصِمُهُمْ   ضَرْبٌ إذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابيلُ

يعرض بالأنصار، لغلظتهم عليه، فأنكرت قريشٌ عليه وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم، فقال:

مَنْ سَرَّهُ شَرَفُ الحَيَاةِ فلا يَزَلْ   في مِقْنَب من صالِحِي الأنْصَار

ألبَاذِلِينَ نُفُوسَهم لِنَبِيِّهِمْ   يَوْمَ الهَيَاجِ وسَطْوَةِ الجَبَّار

يَتَطَهَّرُونَ كأنَّهُ نُسُكٌ لهم   بدِماءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ

فكساه النبي ﷺ بردةً..

٢ ــ شعراء البردة:

قلت: لقد ذكرتني بالبردة..

قال: بردة البوصيري !؟

قلت: أجل.. فالصبيان عندنا لا يزالون يحفظونها ويرددونها.

قال: بوركت تلك البردة، وبورك قائلها.. لقد فتحت في سماء الشعر المحب لرسول الله ﷺ فتوحا عظيمة.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد سن البوصيري في الشعر سنة حميدة لا زلنا نحيا آثارها إلى اليوم، فقد وجه الشعر الذي تاه فيه الكثير في أودية الأماني نحو قبلة رسول الله ﷺ.

قلت: صدقت.. فلا زال للبردة ومن نهج نهجها آثار طيبة إلى اليوم.

البوصيري:

قال: فلذلك تراني وضعت البوصيري في قمة المادحين للنبي ﷺ.

قلت: لقد كان شاعرا فحلا.

قال: لم يكن شاعرا فقط، بل كان أمير شعراء المديح النبوي بلا منازع.. فقد وقف شعره على مدح النبي ﷺ[1]، وكان من ثمار مدائحه النبوية (بائياته الثلاث)، التي بدأ إحداها بلمحات تفيض عذوبة ورقة استهلها بقوله:

وافاكَ بالذنب العظيم المذنبُ خجلا يُعنفُ نفسَه ويُؤنِّبُ

ويستهل الثانية بقوله:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ وتُغتفرُ الخطايا والذنوبُ

أما الثالثة، وهي أجودها جميعًا، فيبدؤها بقوله:

أزمعوا البين وشدوا الركابا فاطلب الصبر وخلِّ العتابا

وله عدد آخر من المدائح النبوية الجيدة، من أروعها قصيدته (الحائية)، التي يقول فيها مناجيا الله عز وجل:

يا من خزائن ملكه مملوءة كرمًا وبابُ عطائه مفتوح

ندعوك عن فقر إليك وحاجة ومجال فضلك للعباد فسيح

فاصفحْ عن العبد المسيء تكرُّمًا إن الكريم عن المسيء صفوح

وقصيدته الدالية التي يبدؤها بقوله:

---

(١) ترك البوصيري عددًا كبيرًا من القصائد والأشعار ضمّها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاني، وطُبع بالقاهرة سنة (١٣٧٤ هـ= ١٩٥٥م)، وقصيدته الشهيرة البردة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (المضرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (الخمرية)، وقصيدة (ذخر المعاد)، ولامية في الرد على اليهود والنصارى بعنوان: (المخرج والمردود على النصارى واليهود)، وقد نشرها الشيخ أحمد فهمي محمد بالقاهرة سنة (١٣٧٢ هـ= ١٩٥٣م)، وله أيضا (تهذيب الألفاظ العامية)، وقد طبع كذلك بالقاهرة.

وقد تُوفِّي البوصيري بالإسكندرية سنة (٦٩٥ هـ= ١٢٩٥م) عن عمر بلغ ٨٧ عامًا.

إلهـــي علـــى كـــل الأمـــور لـــك الحمـــد   فلـــيس لمـــا أوليـــتَ مـــن نعـــمٍ حـــدُّ
لـــك الأمـــر مـــن قبـــل الزمـــان وبعـــده   ومـــا لـــك قبـــل كالزمـــان ولا بعـــدُ
وحكمُـــك مـــاضٍ في الخلائـــق نافـــذ   إذا شـــئتَ أمـــرًا لـــيس مـــن كونـــه بُـــدُّ

وله قصيدة أخرى على وزن (بانت سعاد)، ومطلعها:

إلى مـــتى أنـــت باللـــذات مشـــغولُ   وأنـــت عـــن كـــل مـــا قـــدمتَ مسـئولُ؟!

قلت: ولكن تظل قصيدته التي يقول فيها:

أَمِـــنْ تـــذكّر جـــيرانٍ بـــذي ســـلم   مزجـــتَ دمعًـــا جـــرى مـــن مقلـــة بـــدمْ؟
أم هبـــت الـــريحُ مـــن تلقـــاء كاظمـــةٍ   وأومـــضَ الـــبرقُ في الظلمـــاء مـــن إِضَـــمْ؟
فمـــا لعينيـــك إن قلـــت اكففـــا همتـــا؟   ومـــا لقلبـــك إن قلـــت اســـتفق يهـــمْ؟

والتي سماها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والمعروفة باسم (البردة) تظل من عيون شعره، بل من عيون الشعر العربي، ومن أروع قصائد المدائح النبوية.

وقد زاد في جمالها أنها قصيدة طويلة تقع في ١٦٠ بيتًا، كل بيت منها يمتلئ محبة وشوقا لرسول الله ﷺ، ويدل على الصدق العظيم الذي كانت تمتلئ به نفس صاحبها.

قال: ومن دلائل هذا الصدق أنه لم تلق قصيدة في الدنيا ذلك الاهتمام الذي لقيته البردة حيث ولدت شعرا كثيرا في مدح النبي ﷺ لا يزال مادة هامة للفن الإسلامي الرفيع.. فقد شطرت وخمست وسدست وسبعت:

فممن شطرها الإمام أحمد بن شرقاوى، كما في قوله:

(أكـــرم بخلـــق نـــبى زانـــه خلـــق)   مـــولاه عظمـــه في أفصـــح الكلـــم
و خصـــنا بـــنبى طـــاب محتـــده   (بالحســـن مشـــتمل بالبشـــر متســـم)

وممن خمسها الإمام شمس الدين الفيومى، كما في قوله:

كأنـــه البـــدر بـــاد وســـط هالتـــه   كأنـــه الغيـــث يرجـــى حســـن حالتـــه
كأنـــه الليـــث يخشـــى مـــن بســـالته   (كـــأنهوهو فـــرد مـــن جلالتـــه)

(في عسكر حين تلقاه وفى حشم)

وممن سدسها الأستاذ عباس الديب، كما في قوله:

يـــا رب بالمصـــطفى عشـــنا نصـــائحه   كيمـــا يطهـــرذو شـــوق جوارحـــه

مــــذ جئـــت للســـاح صـــبا كـــى أصـــالحه　　أصـــــبحت في الحبوالأحبـــاب صـــــادحه

(ومنـــــذ ألزمـــــت أفكــــارى مدائحـــــه　　وجدتـــــه لخلاصـــــى خـــــير ملتـــــزم)

وممن سبعها الإمام القاضى البيضاوى صاحب التفسير، كما في قوله:

الله منـــــه إلينـــــا الخـــــير مســـــتبق　　علـــى لســـان نـــبى وجهـــه طلـــق

فالشـــمس مـــن نـــوره والبـــدر والفلـــق　　والمســـك مـــن ريحـــه فى الأفـــق يعتبـــق

والجـــود مـــن كفـــه فى الخلـــق منـــدفق　　(أكـــرم بخلـــق نـــبى زانـــه خلـــق)

(بالحســـــــن مشـــــتمل بالبشـــــر متســـــم)

قلت: أفلا نتبرك بروايتها والاستماع إليها؟

قال: لا ينبغي أن نقصر في ذلك.. وقد وفقني الله فحفظتها عن ظهر قلب.

قلت: لقد بدأها بذكر حبه..

قال: أجل.. فقد قال في بدايتها:

أمِـــنْ تَـــذَكُّرِ جـــيرانٍ بـــذي سَـــلَمِ　　مَزَجْـــتَ دَمعـــا جـــرى مِـــن مُقلَـــةٍ بِـــدَمِ

أَم هَبَّـــتِ الـــريحُ مِـــن تلقـــاءِ كاظِمَـــةٍ　　وأومَـــضَ الـــبرقُ في الظَّلمـــاءِ مِـــن إضَـــمِ

فمـــا لِعَينيـــك إن قُلـــتَ اكْفُفَـــا هَمَتَـــا　　ومـــا لقلبِـــكَ إن قلـــتَ اســـتَفِقْ يَهِـــمِ

أيَحســـب الصَـــبُّ أنَّ الحـــبَّ مُنكَـــتِمٌ　　مـــا بـــينَ منسَـــجِمٍ منـــه ومُضْـــطَرِمِ

لـــولا الهـــوى لم تُـــرِقْ دمعـــا علـــى طَلِـــلِ　　ولا أرِقْـــتَ لِـــذِكْرِ البـــانِ والعَلَـــمِ

فكيـــفَ تُنْكِـــرُ حبـــا بعـــدما شَـــهِدَت　　بـــه عليـــك عُـــدولُ الـــدمعِ والسَّـــقَمِ

وأثبَـــتَ الوَجْـــدُ خَطَّـــي عَبْـــرَةٍ وضَـــنَى　　مثـــلَ البَهَـــارِ علـــى خَـــدَّيك والعَـــنَمِ

نَعَـــم ســـرى طيـــفُ مَـــن أهـــوى فـــأرَّقَني　　والحُـــبُّ يعتَـــرِضُ اللـــذاتِ بـــالألَمِ

يـــا لائِمـــي في الهـــوى العُـــذْرِيِّ مَعـــذرَةً　　مِنِّـــي اليـــك ولَـــو أنْصَـــفْتَ لَـــم تَلُـــمِ

عَـــدَتْكَ حـــالي لا سِـــرِّي بمُسْـــتَتِرٍ　　عـــن الوُشـــاةِ ولا دائـــي بمُنحَسِـــمِ

مَحَّضْـــتَني النُّصْـــحَ لكِـــنْ لَســـتُ أسمَعُـــهُ　　إنَّ المُحِـــبَّ عَـــنِ العُـــذَّالِ في صَـــمَمِ

قلت: لطالما سمعت هذه الأبيات وتعجبت منها.

قال: تتعجب من حديثه عن الحب في بداية قصيدة يريد منها مدح نبيه ﷺ.

قلت: أجل.. وقد فعل مثل ذلك كعب بن زهير.. وقد قرأت تبريرات لذلك لم أستسغها.

قال: أما أنا.. فقد فتح الله علي من الفهم في ذلك ما عرفت به سر ذلك.

قلت: فبشرني به.

قال: لقد رأيت ــ من خلال صحبتي الطويلة للمسلمين ــ أنهم صنفان:

أما أولهما.. فيمتلئون رقة وعذوبة.. وتمتلئ قلوبهم من المشاعر والمواجيد ما لا طاقة لهم بحبسه.

وأما ثانيهما.. فقد يمتلئون عقلا وحكمة.. ولكن عيونهم جامدة، وقلوبهم لا يكاد يحركها شيء.

قلت: لا أرى هذا خاصا بالمسلمين وحدهم.. فجميع البشر يدخلون ضمن هذين الصنفين.

قال: ولذلك ترى هؤلاء الشعراء يبدأون بذكر المحبة ليغلقوا الأبواب أمام الجامدين، وكأنهم يقولون لهم: هذه الكلمات لا يمكنكم أن تفهموها.. لأنكم لم تذوقوا ما ذقنا.. فدعونا وشأننا.

ابتسمت، وقلت: لقد تنبأ البوصيري بما لاقت بردته من الإنكار إذن؟

قال: ألا تعلم أن الشاعر لم يسم شاعرا إلا بعد أن نال من الحس المرهف ما جعله يرى ما لا يرى غيره؟

قلت: صدقت في هذا.. ولكني لم أزل حائرا في هذا المحبوب الذي بدأ البوصيري يتغنى به.

قال: وهل هناك إلا محمد.. البوصيري لا يتحدث إلا عن رسول الله ﷺ ؟

قلت: البعض اعتبرها غزلا لا يختلف عن غزل المجنون.

قال: ولكن البوصيري عاقل وليس مجنونا.. وما كان للعاقل أن يقع في شباك الحب المدنس.

قلت: إن هؤلاء يدافعون على أنها من الغزل المرتبط بالنساء..

قال: فلفهموا ما يشاءون.. ولكن أخبرني أيهما أقوم قيلا: من سمع هذه الأبيات فحركت قلبه شوقا لرسول الله ﷺ.. أو من سمع لهذه الأبيات، فراح يتصور الشاعر يناجي معشوقته ويشكو آلامه لها.

قلت: لاشك أن الفريق الأول أعقل بكثير من الفريق الثاني.

قال: فلا ترغب عن العقلاء إلى غيرهم.

قلت: بعد ذكر البوصيري لمواجيده راح يتحدث عن النفس..

قاطعني البابا، وقال: لأن النفس هي الحجاب الأعظم بين الأنا ومحمد.. اسمع ما يقول في هذا:

إِنِّـــي اتَّهَمْـــتُ نصـــيحَ الشَّـــيْبِ فِـــي عَـــذَلِي   والشَّـــيْبُ أبعَـــدُ في نُصْـــحٍ عَـــنِ الـــتُّهَمِ

فـــانَّ أمَّـــارَتِي بالســـوءِ مـــا اتَّعَظَـــت   مِـــن جهلِهَـــا بنـــذير الشَّـــيْبِ والهَـــرَمِ

ولا أعَـــدَّتْ مِـــنَ الفِعـــلِ الجميـــلِ قِـــرَى   ضَـــيفٍ أَلَـــمَّ برأســـي غـــيرَ مُحتشِـــمِ

لـــو كنـــتُ أعلـــمُ أنِّـــي مـــا أُوَقِّـــرُهُ   كتمـــتُ سِـــرًّا بَـــدَا لي منـــه بـــالكَتَمِ

مَـــن لي بِــــرَدِّ جمَــــاح مِـــن غَوَايتِهَـــا كمـــا يُــــرَدُّ جمَــــاَحُ الخيــــلِ بــــاللُّجُمِ
فـــلا تَـــرُمْ بالمعاصــــي كَسْــــرَ شــــهوَهَا إنَّ الطعــــامَ يُقــــوِّي شــــهوةَ الـــنَّهِمِ
والـــنَّفسُ كَالطِّفـــلِ إِنْ تُهمِلْـــه ُشَـــبَّ عَلَـــى حُـــبِّ الرّضَــــاع وَإنْ تَفْطِمْــــهُ يَــــنفَطِمِ
فاصْـــرِف هواهـــا وحــــاذِر أن تُوَلِّيَـــهُ إنَّ الهـــوى مـــا تَـــوَلَّى يُصْـــمِ أو يَصِـــمِ
وراعِهَـــا وهْـــيَ في الأعمـــال ســـائِمَةٌ وإنْ هِـــيَ اســـتَحْلَتِ المَرعـــى فـــلا تُسِـــمِ
كَـــم حسَّـــنَتْ لَـــذَّةً للمـــرءِ قاتِلَـــةً مِـــن حيـــثُ لم يَـــدْرِ أنَّ السُّـــمَّ في الدَّسَـــمِ
واخْـــشَ الدَّسَـــائِسَ مِـــن جـــوعٍ ومِـــن شِـــبَعٍ فَـــرُبَّ مَخمَصَـــةٍ شَـــرٌّ مِـــنَ الـــتُّخَمِ
واســـتَفرِغِ الـــدمعَ مِـــن عـــينٍ قَـــدِ امْـــتَلأتْ مِـــن المَحَـــارِمِ والْـــزَمْ حِميَـــةَ النَّـــدَمِ
وخـــالِفِ الـــنفسَ والشـــيطانَ واعصِـــهِمَا وإنْ همـــا مَحَّضَـــاكَ النُّصـــحَ فـــاتَّهِمِ
ولا تُطِـــعْ منـــهما خصـــمًا ولا حكَمَـــا فأنـــت تعـــرفُ كيـــدَ الخَصـــمِ والحَكَـــمِ

قلت: إن هذه الابيات تمتلئ توجيهات تربوية راقية؟

قال: أجل.. فالنفس التي تحب محمدا ﷺ ينبغي أن يكون لها من الطهارة ما تنال به شرف هذه الصحبة.

قلت: لست أدري لم عقب الشاعر ذكره لمحبوبه بذكر النفس..

قال: لأن الحب هو أعظم الدوافع السلوكية.

قلت: لم أفهم..

قال: من امتلأ قلبه بمحمد ﷺ سيمتلئ قلبه بحب الطهارة.. فإذا أحب الطهار اندفع للسلوك إليها.

قلت: الحب يفعل هذا.

قال: يفعل أكثر من هذا.. فالمحب لا يكل عن طاعة محبوبه.

قلت: بعد ذلك دخل الشاعر حضرة الحبيب..

قال: أجل.. بعد أن طهر أرض القلب بالحب.. وطهر أرض النفس بالدموع دخل على الحبيب..

قلت: لم كل هذا؟

قال: لأنه لا يمكن أن تدخل حضرة الحبيب.. وفي قلبك الأهواء المدنسة، وفي نفسك المستنقعات والمزابل.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت من خلال الواقع خطره.

قال: وما خطره؟

قلت: رأيت أقواما من الناس.. عقولهم جامدة.. وقلوبهم خامدة.. ونفوسهم تمتلئ بالأوباء.. ثم يدخلون

إلى سنة رسول الله ﷺ.. فلا يرون منها إلا ما يشوه جمال من استنوا بسنته.

قال: فأرشد هؤلاء إلى البوصيري وأحفاد البوصيري.

قلت: كيف أرشدهم إليه.. وهم يحملون سيوفهم عليه.

قال: فأنبئهم أن سنة رسول الله ﷺ تبدأ من الداخل.. فمن لم يزين باطنه بسنة الرحمة واللطف والمودة لم يظهر على ظاهره إلا الخراب.

قلت: صدقت.. وقد بلينا بالخراب الذي تتحدث عنه.. عد بنا إلى البردة.. وعد بنا إلى أجمل أبياتها.

قال: أجمل أبياتها هي الأبيات التي مدح فيها الحبيب ﷺ.. لقد قال في ذلك:

ظَلمــــتُ سُــــنَّةَ مَــــن أحيــا الظـــلامَ الى ... أنِ اشـــتَكَتْ قـــدمَاهُ الضُّــرَّ مِــن وَرَمِ
وشَــدَّ مِــن سَــغَبٍ أحشــاءَهُ وطَــوَى ... تحــتَ الحجــارةِ كَشْــحَاً مُتْــرَفَ الأَدَمِ
وراوَدَتْــهُ الجبــالُ الشُّــمُّ مِــن ذَهَــبٍ ... عــن نفســه فأراهــا أيَّمَــا شَــمَمِ
وأكَّــدَت زُهــدَهُ فيهــا ضــرورَتُهُ ... اِنَّ الضــرورةَ لا تعــدُو علــى العِصَــمِ
محمــدٌّ ســيدُ الكــونينِ والثقَلَــيْنِ ... والفــريقين مِــن عُــربٍ ومِــن عَجَــمِ
نَبِيُّنَــا الآمِــرُ النَّــاهِي فــلا أحَــدٌ ... أبَــرُّ في قَــولِ لا منــه ولا نَعَــمِ
هُــو الحبيــبُ الــذي تُرجَــى شــفاعَتُهُ ... لكُــلِّ هَــولٍ مِــن الأهــوالِ مُقــتَحَمِ
دَعَــا الى اللهِ فالمُستَمسِــكُون بِــهِ ... مُستَمسِــكُونَ بحبــلٍ غــيرِ مُنفَصِــمِ
فــاقَ النَّبــيينَ في خَلْــقٍ وفي خُلُــقٍ ... ولم يُــدَانُوهُ في عِلــمٍ ولا كَــرَمِ
وكُلُّهُــم مِــن رســولِ اللهِ مُلــتَمِسٌ ... غَرْفَــا مِــنَ البحــرِ أو رَشــفَاً مِــنَ الــدِّيَمِ
وواقِفُــونَ لَدَيــهِ عنــدَ حَــدِّهِمِ ... مِــن نُقطَــةِ العلــمِ أو مِــن شَــكْلَةِ الحِكَــمِ
فَهْــوَ الــذي تَــمَّ معنــاهُ وصــورَتُهُ ... ثم اصــطفاهُ حبيبــاً بــارِيءُ النَّسَــمِ
مُنَــزَّهٌ عــن شــريكٍ في محاسِــنِهِ ... فجــوهر الحُســنِ فيــه غــيرُ منقَسِــمِ
دَع مــا ادَّعَتــهُ النصــارى في نَبِــيِّهِمِ ... واحكُــم بمــا شــئتَ مَــدحَاً فيــه واحــتَكِمِ
وانسُــبْ إلى ذاتِــهِ مــا شــئتَ مــن شــرف ... وانسُــب الى قَــدْرِهِ مــا شــئتَ مِــن عِظَــمِ
فَــاِنَّ فَضــلَ رســولِ اللهِ لــيس لــه ... حَــدٌّ فَيُعــرِبَ عنــهُ نــاطِقٌ بِفَــمِ
لــو ناسَــبَتْ قَــدْرَهُ آياتُــهُ عِظَمَــاً ... أحيــا اسمُــهُ حــين يُــدعَى دارِسَ الــرِّمَمِ

لم يمتَحِنَّا بما تَعيَا العقولُ بهِ   حِرصًا علينا فلم نرتَبْ و لم نَهِمِ
أعيا الورى فَهْمُ معناهُ فليسَ يُرَى   في القُرْبِ والبُعدِ فيه غيرُ مُنفَحِمِ
كالشمسِ تظهَرُ للعينَيْنِ مِن بُعُدٍ   صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ
وكيفَ يُدرِكُ في الدنيا حقيقَتَهُ   قَومٌ نِيَامٌ تَسَلَّوا عنه بالحُلُمِ
فمَبْلَغُ العِلمِ فيه أنه بَشَرٌ   وأنَّهُ خيرُ خلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ
وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بهَا   فإنما اتصَلَتْ مِن نورِهِ بِهِمِ
فإنَّهُ شمسُ فَضْلٍ هُم كواكِبُهَا   يُظهِرْنَ أنوارَهَا للناسِ في الظُّلَمِ
أكرِمْ بخَلْقِ نبيٍّ زانَهُ خُلُقٌ   بالحُسنِ مشتَمِلٌ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ
كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبدرِ في شَرَفٍ   والبحرِ في كَرَمٍ والدهرِ في هِمَمِ
كأنَّهُ وهْوَ فَرْدٌ مِن جلالَتِهِ   في عسكَرٍ حينَ تلقاهُ وفي حَشَمِ
كأنَّمَا اللؤلُؤُ المَكنُونُ في صَدَفٍ   مِن مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منه ومبتَسَمِ
لا طيبَ يَعدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أعظُمَهُ   طوبى لمُنتَشِقٍ منه وملتَثِمِ
أبانَ مولِدُهُ عن طِيبِ عنصُرِهِ   يا طِيبَ مُبتَدَإٍ منه ومُختَتَمِ
يَومٌ تَفَرَّسَ فيه الفُرسُ أنَّهُمُ   قد أُنذِرُوا بحُلُولِ البُؤسِ والنِّقَمِ
وباتَ إيوَانُ كِسرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ   كَشَملِ أصحابِ كِسرَى غيرَ مُلتَئِمِ
والنارُ خامِدَةُ الأنفاسِ مِن أسَفٍ   عليه والنهرُ ساهي العَيْنِ مِن سَدَمِ
وساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيرَتُهَا   ورُدَّ واردُهَا بالغَيْظِ حينَ ظَمِي
كأنَّ بالنارِ ما بالماءِ مِن بَلَلٍ   حُزْنًا وبالماءِ ما بالنارِ مِن ضَرَمِ
والجِنُّ تَهتِفُ والأنوارُ ساطِعَةٌ   والحقُّ يظهَرُ مِن معنًى ومِن كَلِمِ
عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشائِرِ لم   تُسمَعْ وبارِقَةُ الإنذارِ لم تُشَمِ
مِن بعدِ ما أخبَرَ الأقوامَ كاهِنُهُم   بأنَّ دينَهُمُ المُعوَجَّ لم يَقُمِ
وبعد ما عاينُوا في الأُفقِ مِن شُهُبٍ   مُنقَضَّةٍ وَفقَ ما في الأرضِ مِن صَنَمِ
حتى غَدا عن طريقِ الوَحيِ مُنهَزِمٌ   مِن الشياطينِ يقفُو إثْرَ مُنهَزِمِ

كأنَّهُم هَرَبَا أبطالُ أبْرَهَةٍ	أو عَسكَرٌ بالحَصَى مِن راحَتَيْهِ رُمِي
نَبْذًا بِهِ بَعدَ تسبيحٍ ببَطنِهِمَا	نَبْذَ المُسَبِّحِ مِن أحشاءِ ملتَقِمِ
جاءت لِدَعوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً	تمشِي إليهِ على ساقٍ بلا قَدَمِ
كأنَّمَا سَطَرَتْ سطرا لِمَا كَتَبَتْ	فُرُوعُهَا مِن بديعِ الخَطِّ في اللَّقَمِ
مثلَ الغمامَةِ أنَّى سارَ سائِرَةً	تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ للهَجِيرِ حَمِي
وما حوى الغارُ مِن خيرٍ ومِن كَرَمِ	وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكفارِ عنه عَمِي
فالصدقُ في الغارِ والصدِّيقُ لم يَرِمَا	وهُم يقولون ما بالغارِ مِن أرِمِ
ظنُّوا الحمامَةَ وظنُّوا العنكبوتَ على	خيرِ البَرِّيَّةِ لم تَنسُجْ ولم تَحُمِ
وِقَايَةُ اللهِ أغنَتْ عَن مُضَاعَفَةٍ	مِنَ الدُّرُوعِ وعن عالٍ مِنَ الأُطُمِ
ما سامَنِي الدَّهرُ ضيماً واستَجَرتُ بِهِ	إلا ونِلتُ جِوَاراً منه لم يُضَمِ
ولا التَمستُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ	إلا استَلَمتُ النَّدَى مِن خيرِ مُستَلَمِ
لا تُنكِرِ الوَحْيَ مِن رُؤيَاهُ إنَّ لَهُ	قَلْباً إذا نامَتِ العينانِ لم يَنَمِ
وذاكَ حينَ بُلُوغٍ مِن نُبُوَّتِهِ	فليسَ يُنكَرُ فيهِ حالُ مُحتَلِمِ
تبارَكَ اللهُ ما وَحيٌ بمُكتَسَبٍ	ولا نبيٌّ على غيبٍ بمُتَّهَمِ
كَم أبْرَأَتْ وَصِباً باللمسِ راحَتُهُ	وأطلَقَتْ أرِبَاً مِن ربقَةِ اللمَمِ
وأحيَتِ السَنَةَ الشَّهباءَ دَعوَتُهُ	حتى حَكَتْ غُرَّةً في الأعصُرِ الدُّهُمِ
بعارِضٍ جادَ أو خِلْتَ البِطَاحَ بها	سَيْبٌ مِنَ اليمِّ أو سَيْلٌ مِنَ العَرِمِ
دَعنِي وَوَصفِيَ آياتٍ لهُ ظهَرَتْ	ظهُورَ نارِ القِرَى ليلا على عَلَمِ
فالدُّرُّ يزدادُ حُسناً وَهْوَ مُنتَظِمٌ	وليس يَنقُصُ قَدراً غيرَ مُنتَظِمِ
فمَا تطَاوُلُ آمالِ المديحِ الى	ما فيهِ مِن كَرَمِ الأخلاقِ والشِّيَمِ
آياتُ حَقٍّ مِنَ الرحمنِ مُحدَثَةٌ	قديمَةٌ صِفَةُ الموصوفِ بالقِدَمِ
لم تَقتَرِن بزمانٍ وَهْيَ تُخبِرُنا	عَنِ المَعَادِ وعَن عادٍ وعَن إرَمِ
دامَتْ لدينا ففاقَتْ كُلَّ مُعجِزَةٍ	مِنَ النَّبِيينَ إذ جاءَتْ ولَم تَدُمِ

مُحَكَّمَاتٌ فما تُبقِينَ مِن شُبَهٍ … لذي شِقَاقٍ وما تَبغِينَ مِن حِكَمِ

ما حُورِبَت قَطُّ الا عادَ مِن حَرَبٍ … أَعدَى الأعادِي اليها مُلقِيَ السَّلَمِ

رَدَّتْ بلاغَتُهَا دَعوى مُعارِضِهَا … رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجاني عَن الحُرَمِ

لها مَعَانٍ كَمَوْجِ البحرِ في مَدَدٍ … وفَوقَ جَوهَرِهِ في الحُسنِ والقِيَمِ

فَمَا تُعَدُّ ولا تُحصَى عجائِبُهَا … ولا تُسَامُ على الإكثارِ بالسَّأَمِ

قَرَّتْ بَها عينُ قارِيها فقُلتُ لهُ … لقد ظَفِرتَ بحَبْلِ اللهِ فاعتَصِمِ

كأنَّها الحوضُ تَبيَضُّ الوُجُوهُ بِهِ … مِنَ العُصَاةِ وقد جاؤُوهُ كالحُمَمِ

وكالصِّراطِ وكالميزانِ مَعدَلَةً … فالقِسطُ مِن غيرِهَا في الناسِ لم يَقُمِ

لا تَعجَبَنْ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُهَا … تجاهُلا وَهْوَ عَينُ الحاذِقِ الفَهِمِ

قد تُنكِرُ العينُ ضَوْءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ … ويُنكِرُ الفَمَ طعمَ الماءِ مِن سَقَمِ

يا خيرَ مَن يَمَّمَ العافُونَ ساحَتَهُ … سعيًا وفَوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

ومَن هُوَ الآيةُ الكُبرَى لِمُعتَبِرٍ … ومَن هُوَ النِّعمَةُ العُظمَى لِمُغتَنِمِ

سَرَيتَ مِن حَرَمٍ ليلا الى حَرَمِ … كما سَرَى البَدرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وبِتَّ ترقَى الى أن نِلتَ مَنزِلَةً … مِن قابَ قوسَيْنِ لم تُدرَكْ ولَم تُرَمِ

وقَدَّمَتْكَ جميعُ الأنبياءِ بها … والرُّسْلِ تقديمَ مخدومٍ على خَدَمِ

وأنتَ تَختَرِقُ السبعَ الطِّبَاقَ بهم … في مَوكِبٍ كُنتَ فيه صاحِبَ العَلَمِ

حتى اذا لم تَدَعْ شَأْوًا لِمُستَبِقٍ … مِنَ الدُّنُوِّ ولا مَرقًى لِمُستَنِمِ

خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بالاضافَةِ إذ … نُودِيتَ بالرَّفعِ مثلَ المُفرَدِ العَلَمِ

كيما تَفُوزَ بِوَصْلٍ أيِّ مُستَتِرٍ … عَنِ العُيونِ وسِرٍّ أيِّ مُكتَتِمِ

فَحُزتَ كُلَّ فَخَارٍ غيرَ مُشتَرَكٍ … وجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غيرَ مُزدَحَمِ

وجَلَّ مِقدَارُ ما وُلِّيتَ مِن رُتَبٍ … وعَزَّ إدراكُ ما أُولِيتَ مِن نِعَمِ

بُشرَى لنا مَعشَرَ الاسلامِ إنَّ لنا … مِنَ العِنَايَةِ رُكنًا غيرَ منهَدِمِ

لَمَّا دَعَى اللهُ داعينا لطاعَتِهِ … بأكرمِ الرُّسْلِ كُنَّا أكرَمَ الأُمَمِ

راعَتْ قلوبَ العِدَا أنباءُ بعثَتِهِ   كَنبأةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلا مِنَ الغَنَمِ

ما زالَ يلقاهُمُ في كُلِّ مُعتَرَكٍ   حتى حَكَوْا بالقَنَا لَحمًا على وَضَمِ

وَدُّوا الفِرَارَ فكادُوا يَغبِطُونَ بهِ   أشلاءَ شالَتْ مَعَ العُقبَانِ والرَّخَمِ

تَمضِي الليالي ولا يَدرُونَ عِدَّتَهَا   ما لم تَكُن مِن ليالِي الأُشهُرِ الحُرُمِ

كأنَّمَا الدِّينُ ضَيفٌ حَلَّ ساحَتَهُم   بكُلِّ قَرْمٍ الى لَحمِ العِدَا قَرِمِ

يَجُرُّ بحرَ خميسٍ فَوقَ سابِحَةٍ   يرمي بمَوجٍ مِنَ الأبطالِ ملتَطِمِ

مِن كُلِّ منتَدِبٍ لله مُحتَسِبٍ   يَسطُو بمُستَأصِلٍ للكُفرِ مُصطَلِمِ

حتى غَدَتْ مِلَّةُ الاسلامِ وَهْيَ بهم   مِن بَعدِ غُربَتِهَا موصولَةَ الرَّحِمِ

مَكفولَةً أبدًا منهم بخَيرِ أبٍ   وخيرِ بَعلٍ فلم تَيْتَمْ ولم تَئِمِ

هُمُ الجبالُ فَسَلْ عنهُم مُصَادِمَهُم   ماذا لَقِي منهم في كُلِّ مُصطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا   فُصولُ حَتْفٍ لَهم أدهى مِنَ الوَخَمِ

المُصدِرِي البِيضِ حُمرًا بعد ما وَرَدَتْ   مِنَ العِدَا كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

والكاتِبينَ بسُمرِ الخَطِّ ما تَرَكَتْ   أقلامُهُمْ حَرْفَ جِسمٍ غيرَ مُنعَجِمِ

شاكِي السلاحِ لهم سِيمَى تُمَيِّزُهُم   والوَرْدُ يمتازُ بالسِّيمَى عَنِ السَّلَمِ

تُهدِي اليكَ رياحُ النَّصرِ نَشْرَهُمُ   فتَحسِبُ الزَّهرَ في الأكمامِ كُلَّ كَمِي

كأنَّهُم في ظُهورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبًا   مِن شَدَّةِ الحَزْمِ لا مِن شَدَّةِ الحُزُمِ

طارَتْ قلوبُ العِدَا مِن بأسِهِم فَرَقًا   فما تُفَرِّقُ بين البَهْمِ والبُهَمِ

ومَن تَكُن برسولِ اللهِ نُصرَتُهُ   اِن تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِهَا تَجِمِ

ولَن تَرى مِن وَلِيٍّ غيرَ منتَصِرٍ   بهِ ولا مِن عَدُوٍّ غيرَ مُنعَجِمِ

أَحَلَّ أُمَّتَهُ في حِرْزِ مِلَّتِهِ   كالليْثِ حَلَّ مَعَ الأشبالِ فِي أجَمِ

كَم جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِن جَدَلٍ   فيه وكم خَصَمَ البُرهانُ مِن خَصِمِ

كفاكَ بالعلمِ في الأُمِّيِّ مُعجِزَةً   في الجاهليةِ والتأديبَ في اليُتُمِ

قلت: إن هذه الأبيات تختزن محبة عظيمة لرسول الله ﷺ..

قال: لقد رأى صاحبها الناس يتهافتون على حفظ المتون التي تملؤهم فقها ونحوا وبلاغة.. فوضع لهم متنا يملؤهم محبة وتقديرا وأشواقا.

قلت: ولكن هناك من يجادل في كثير مما ذكرت.. فيعتبر هذا الثناء العطر على رسول الله ﷺ شركا..

قال: أين الشرك؟

قلت: إن البوصيري يقول ــ مثلا ــ:

وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شرف   وانسُب الى قَدْرِهِ ما شئتَ مِن عِظَمِ

فَإنَّ فَضلَ رسولِ اللهِ ليس له   حَدٌّ فيُعرِبَ عنهُ ناطِقٌ بفَمِ

لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَماً   أحيا اسْمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ

قال: هذه أبيات رقيقة، تمتلئ تقديرا لرسول الله ﷺ.

قلت: لقد ذكروا أن الله ﷻ هو المحيي المميت.. واعتبار اسم محمد محييا ــ ولو من باب الافتراض ــ شرك.

قال: ألم يقرأ هؤلاء ما قاله ﷻ في حق رسول الله ﷺ.. فقد قال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)(لأنفال: من الآية٢٤)

قلت: لكأني أسمع هذه الآية أول مرة.. لقد اعتبر رسول الله ﷺ محييا.. كيف غربت عنهم هذه الآية.

قال: لأنهم مهووسون بالشرك .. هم يتصورون الله كما يتصور ملوكهم رعيتهم.. فالملك يقبح صورة كل من مدحه الناس، أو توجهت له القلوب، خشية على كرسيه أن يسلب منه.

قلت: صدقت.. بل إنهم يرسمون لله صورة لا تختلف عن صورة الملوك والأمراء.

قال: لا تذكر لي أحاديث هؤلاء.. ودعنا في حضرة محمد ﷺ.. فلا ينبغي لمن أنعم الله عليه بالدخول إلى حضرته أن يزيغ بصره أو أن يطغى.

قلت: فأكمل لي ذكر ما بقي من أبيات البردة.

قال: في باقي أبيات البردة جلس الشاعر أمام الحبيب، وراح يشكو إليه همومه وآلامه.. وحينها راحت تتنازعه حاجات شتى عبر عنها بقوله:

خَدَمْتُهُ بمديحٍ أستَقِيلِ بِهِ   ذُنوبَ عُمْر مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ

اِذ قَلَّدانِيَ ما تُخشَى عواقِبُهُ   كأنني بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

أَطَعتُ غَيَّ الصِّبَا في الحالَتيْنِ وما   حَصَلتُ الا على الآثامِ والنَّدَمِ

فيا خَسَارَةَ نَفْسٍ في تِجَارَتِهَا   لَم تَشتَرِ الدِّينَ بالدنيا و لم تَسُمِ

ومَـــــن يَبِـــــعْ آجِـــــلا منـــــه بعاجِلِـــــهِ   بِـــــينَ لَـــــه الغَـــــبْنُ في بَيْـــــعٍ وفي سَـــــلَمِ
إنْ آتِ ذَنْبَـــــاً فمـــــا عَهـــــدِي بمُنـــــتَقِضٍ   مِـــــنَ النَّبِـــــيِّ ولا حَبلِـــــي بمُنصَـــــرِمِ
فـــــإنَّ لي ذِمَّـــــةً منـــــه بتَســـــمِيَتِي   مُحمَّـــــداً وهُـــــوَ أوفَـــــى الخلـــــقِ بالـــــذِّمَمِ
إنْ لم يكُـــــن في مَعَـــــادِي آخِـــــذاً بيَـــــدِي   فَضْـــــلا والا فَقُـــــلْ يـــــا زَلَّـــــةَ القَـــــدَمِ
حاشـــــاهُ أنْ يَحْـــــرِمَ الرَّاجِـــــي مَكَارِمَـــــهُ   أو يَرجِـــــعَ الجـــــارُ منـــــه غـــــيرَ مُحتَـــــرَمِ
ومُنـــــذُ ألزَمْـــــتُ أفكَـــــارِي مَدَائِحَـــــهُ   وجَدْتُـــــهُ لخَلاصِـــــي خـــــيرَ مُلتَـــــزِمِ
ولَـــــن يَفُـــــوتَ الغِنَـــــى منـــــه يَـــــداً تَرِبَـــــتْ   إنَّ الحَيَـــــا يُنْبِـــــتُ الأزهـــــارَ في الأكَـــــمِ
ولَـــــم أُرِدْ زَهـــــرَةَ الـــــدنيا الـــــتي اقتَطَفَـــــتْ   يَـــــدَا زُهَيْـــــرٍ بمـــــا أثنَـــــى علـــــى هَـــــرِمِ
يـــــا أكـــــرَمَ الخلـــــقِ مـــــا لي مَـــــن ألـــــوذُ بـــــه   سِـــــوَاكَ عِنـــــدَ حُلـــــولِ الحـــــادِثِ العَمِـــــمِ
ولَـــــن يَضِـــــيقَ رســـــولَ الله جاهُـــــكَ بي   اذا الكـــــرِيمُ تَجَلَّـــــى باســـــمِ مُنـــــتَقِمِ
يـــــا نَفْـــــسُ لا تَقنَطِـــــي مِـــــن زَلَّـــــةٍ عَظُمَـــــتْ   إنَّ الكَبَـــــائِرَ في الغُفـــــرَانِ كـــــاللَّمَمِ
لعَـــــلَّ رَحمَـــــةَ رَبِّـــــي حـــــينَ يَقسِـــــمُهَا   تَـــــأتِي علـــــى حَسَـــــبِ العِصـــــيَانِ في القِسَـــــمِ
يـــــا رَبِّ واجعَـــــلْ رجـــــائِي غـــــيرَ مُـــــنعَكِسٍ   لَـــــدَيْكَ واجعـــــلْ حِسَـــــابِي غـــــيرَ مُنخَـــــرِمِ
والطُـــــفْ بعَبـــــدِكَ في الـــــدَّارَينِ إنَّ لَـــــهُ   صَـــــبراً مَتَـــــى تَدعُـــــهُ الأهـــــوالُ ينـــــهَزِمِ
وائـــــذَنْ لِسُـــــحْبِ صـــــلاةٍ منـــــك دائِمَـــــةٍ   علـــــى النبِـــــيِّ بِمُنْهَـــــلٍّ ومُنسَـــــجِمِ
مـــــا رَنَّحَـــــتْ عَـــــذَبَاتِ البَـــــانِ رَيـــــحُ صَـــــبَا   وأطـــــرَبَ العِـــــيسَ حـــــادِي العِـــــيسِ بـــــالنَّغَمِ
ثُـــــمَّ الرِّضَـــــا عَـــــن أبي بَكـــــرٍ وعَـــــن عُمَـــــرَ   وعَـــــن عَلِـــــيٍّ وعَـــــن عثمـــــانَ ذِي الكَـــــرَمِ
والآلِ والصَّـــــحبِ ثُـــــمَّ التَّـــــابِعِينَ فَهُـــــمْ   أهـــــلُ التُّقَـــــى والنَّقَـــــى والحِلْـــــمِ والكَـــــرَمِ

قلت: هذه أبيات تنم عن حب عظيم لرسول الله ﷺ وتقدير عظيم له.

قال: ذلك لا يستغرب من الصالحين.. فلن يصير الصالح صالحا حتى يملأ عليه رسول الله ﷺ شغاف قلبه.

قلت: ولكن المجادلين يجادلون في أبيات كثيرة مما ذكرت.. فهم ــ مثلا ــ يجادلون في قوله:

إنْ لم يكُـــــن في مَعَـــــادِي آخِـــــذاً بيَـــــدِي   فَضْـــــلا والا فَقُـــــلْ يـــــا زَلَّـــــةَ القَـــــدَمِ

ابتسم، وقال: ويعتبرون ذلك شركا !؟

قلت: أجل.. أليس ذلك شركا؟

قال: ما يقول هؤلاء في منكر الشفاعة؟

قلت: هم يبدعونه.. بل قد يكفرونه.

قال: ففي الشفاعة لا يأخذ رسول الله ﷺ بيد الشاعر فقط.. بل يأخذ بيد البشر جميعا[1]، فيسأل الله ﷻ في الموقف الذي يقف فيه الكل .. وهو يأخذ بعد ذلك بيد كل محب لينال من بركات محبته ما لم يكن يحلم به[2].

ابن جابر الأندلسي:

سكت البابا قليلا، فقلت: لقد تحدثنا عن صاحب البردة الشريفة.. فلنتحدث عمن نهج نهجها.

قال: كثيرون هم..

قلت: سمعت أن من بينهم ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠هـ.

قال: أجل.. فله قصيدة رائعة يقول فيها:

بِطَيْبَةَ انزِلْ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ   وَانشُرْ لَهُ المَدحَ وَانثُرْ أطيَبَ الكَلِمِ

وَابذُلْ دُموعَكَ واعذُلْ كُلَّ مُصطَبِرٍ   وَالحَق بِمَن سارَ وَالحَظ ما عَلى العَلَمِ

سَنا نَبِيٍّ أَبى أن يُضَيِّعَنا   سَليلِ مَجدٍ سَليمِ العِرضِ مُحتَرَمِ

جَميلِ خَلقٍ عَلى حَقٍّ جَزيلِ نَدىً   هَدى وَفاضَ نَدى كَفَّيهِ كالدِّيَمِ

كَفَّ العُداةَ وَكَدَّ الحادِثاتِ كَفى   فَكَم جَرى مِن جَدا كَفَّيهِ مِن نِعَمِ

وَكَم حَبا وَعَلى المُستَضعَفينَ حَنا   وَكَم صَفا وَضَفا جوداً لِجَبرِهِمِ

ما فاهَ في فَضحِهِ مَن فاءَ لَيسَ سِوى   عَذلٍ بِعَدلٍ وَنُصحٍ غَيرِ مُتَّهَمِ

حانٍ عَلى كُلِّ جانٍ حابٍ إن قَصَدوا   حامٍ شَفى مِن شَقا جَهلٍ وَمِن عَدَمِ

لَيثُ الشَّرى إذ سَرى مَولاهُ صارَ لَهُ   جاراً فَجازَ وَنَيلاً مِنهُ لَم يَرُمِ

كافي الأَرامِلِ وَالأَيتامِ كافِلُهُم   وافي النَدى لِمُوافي ذَلِكَ الحَرَمِ

أجارَ مِن كُلِّ مَن قَد جارَ حِينَ أتى   حَتّى أتاحَ لَنا عِزّاً فَلَم نُضَمِ

وَعامَ بَدرٍ أَعامَ الخَيلَ في دَمِهِم   حَتّى أباتَ أبا جَهلٍ عَلى نَدَمِ

وَحاقَ إذ جَحَدوا حَقَّ الرَّسولِ بِهِم   كَبيرُ هَمٍّ أَراهُم نَزعَ هامِهِمِ

---

(١) هذا في الشفاعة العظمى.

(٢) ذكرنا أسرار الشفاعة، وعلاقتها بالتوحيد والعدالة والحكمة في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام)

فَهدَّ آطامَ مَن قَد هادَ إذ طَمِعوا   في شَتِّهِ فَرَماهُم في شَتاتِهِم

وَجَلَّ عَن فَضحِ مَن أخفى فَجامَلَهُم   ما رَدَّ رائِدَ رِفدٍ مِن جُناتِهِم

مَن زارَهُ يَقِهِ أوزارَهُ وَنَوى   لَهُ نَوافِلَ بَذلٍ غَيرِ مُنصَرِمِ

كالغَيثِ فاضَ إذ المَحلُ اِستَفاضَ تَلا   أنفالَ جودٍ تَلافى تالِفَ النَّسَمِ

سَل مِنهُمُ صِلَةً لِلصَّبِّ واصِلَةً   والثَم أنامِلَ أقوامٍ أنا بِهِم

أقِم إلى قَصدِهِم سَوقَ السُرى   وَأقِم بِدارِ عِزٍّ وَسَوقَ الأينُقِ التَثِمِ

عُج بي عَلَيهِم فَعُجبي مِن جَفاءِ فَتىً   جازَ الدِّيارَ وَلَم يُلمِم بِرَبعِهِم

دَع عَنكَ سَلمى وَسَل ما بِالعَقيق جَرى   وَأُمَّ سَلعاً وَسَل عَن أهلِهِ القُدُمِ

مَن لي بِدارِ كِرامٍ في البِدارِ لَها   عِزٌّ فَمَن قَد لَها عَن ذاكَ يُهتَضَمِ

بانوا فَهانَ دَمي وَجداً فَها نَدَمي   فَقَد أراقَ دَمي فيما أرى قَدَمي

يُولونَ ما لَهُمُ مَن قَد لَجا لَهُمُ   فاشدُد يَداً بِهِمِ وانزِل بِبابِهِمِ

يا بَردَ قَلبي إذا بُردُ الوِصالِ ضَفا   وَيا لَهيبَ فُؤادي بَعدَ بُعدِهِمِ

ما كانَ مَنعُ دَمي بُخلاً بِهِ لَهُمُ   لَكِن تَخَوَّفتُ قَبلَ القُربِ مِن عَدَمِ

أهلاً بِها مِن دِماءٍ فيهِم بُذِلَت   وَحَبَّذا وِردُ ماءٍ مِن مِياهِهِم

مَن نالَهُ جاهُهُم مِنّا لَهُ ثِقَةٌ   أن لا يُصابَ بِضَيمٍ تَحتَ جاهِهِم

بِدارِ وَالحَقِ بِدارِ الهاشِميِّ بِنا   قَبلَ المَماتِ وَمَهما اِسطَعتَ فاغتَنِمِ

جَزمي لَئِن سارَ رَكبٌ لا أُرافِقُهُ   فَلا أُفارِقُ مَزجي أدمُعي بِدَمي

فَأيُّ كَربٍ لِرَكبٍ يُبصِرونَ سَنا   بَرقٍ لِقَبرٍ مَتى تَبلُغهُ تُحتَرَمِ

مَتى أحُلُّ حِمى قَومٍ يُحِبُّهُمُ   قَلبي وَكَم هائِمٍ قَبلي بِحُبِّهِم

جارَ الزَمانُ فَكَفّوا جَورَهُ وَكَفوا   وَهَل أُضامُ لَدى عُربٍ عَلى إضَمِ

وَحَقِّهِم ما نَسينا عَهدَ حُبِّهِمِ   وَلا طَلَبنا سِواهُم لا وَحَقِّهِمِ

لا يَنقَضي أَلَمي حَتّى أرى بَلَداً   فيهِ الَّذي ريقُهُ يَشفي مِنَ الأَلَمِ

وَقَد تَشَمَّرَ ثَوبُ النَقعِ عَن أُمَمٍ   شَتّى يَؤمّونَ طُرّاً سَيِّدَ الأُمَمِ

مَتى أُرى جارَ قَومٍ عَزَّ جارُهُم عَهدٌ عَلَيَّ السُرى حِفظاً لِعَهدِهِمِ

صَبٌّ الدُموعِ كَأَمثالِ العَقيقِ عَلى وادي العَقيقِ اشتياقاً حَقُّ صَبِّهِمِ

أَبحَتُ فيهِم دَمي لِلشَوقِ يَمزُجُهُ بِماءِ دَمعي عَلى خَدّي وَقُلتُ دُمِ

وَلَيسَ يَكثُرُ إِن آثَرتُ نَضخَ دَمي حَيثُ المُلوكُ تَغُضُّ الطَّرفَ كالخَدمِ

مِن سائِلِ الدَّمعِ سالٍ عَن مَعاهِدِهِ نَعيمُهُ أَن يُرى يَسري مَعَ النّعَمِ

لِلسَّيرِ مُبتَدِرٍ كالسَّيلِ مُحتَفِرٍ كالطَّيرِ مُشتَمِلٍ بالليلِ مُلتَئِمِ

قَصداً لِمُرتَقِبٍ لِلَّهِ مُنتَصِرٍ في الحَقِّ مُجتَهِدٍ لِلرُّسلِ مُختَتِمِ

مَن لي بِمُستَسلِمٍ لِلبيدِ مُعتَصِمٍ بِالعيسِ لا مُسئِمٍ يَوماً وَلا سَئِمِ

لِلبَرِّ مُقتَحِمٍ لِلبِرِّ مُلتَزِمٍ لِلقُربِ مُغتَنِمٍ لِلتُّربِ مُلتَثِمِ

يَسري إِلى بَلَدٍ ما ضاقَ عَن أَحَدٍ كَم حَلَّ مِن كَرَمٍ في ذَلِكَ الحَرَمِ

دارٌ شَفيعُ الوَرى فيها لِمُعتَصِمٍ جارٌ رَفيعُ الذّرا ناءٍ لِمُجتَرِمِ

فَهَجرُ رَبعي لِذاكَ الرَّبعِ مُغتَنَمي وَنَثرُ جَمعي لِذاكَ الجَمعِ مُعتَصَمي

وَمَيلُ سَمعي لِنَيلِ القُربِ مِن شِيَمي وَسَيلُ دَمعي بِذَيلِ التُّربِ كالدِّيَمِ

يَقولُ صَحبي وَسُفنُ العيسِ خائِضَةٌ بَحرَ السَّرابِ وَعَينُ القَيظِ لَم تَنَمِ

يَمِّم بِنا البَحرَ إِنَّ الرَكبَ في ظَمَأٍ فَقُلتُ سيروا فَهَذا البَحرُ مِن أَمَمِ

وافٍ كَريمٌ رَحيمٌ قَد وَفى وَوَقى وَعَمَّ نَفعاً فَكَم ضُرٍّ شَفى وَكَمِ

فَقُم بِنا فَلَكَم فَقرٍ كَفى كَرَماً وَجودُ تِلكَ الأَيادي قَد صَفا فَقُمِ

ذو مِرَّةٍ فاِستَوى حَتّى دَنا فَرأى وَقيلَ سَل تُعطَ قَد خُيِّرتَ فاِحتَكِمِ

وَكانَ آدَمُ إِذ كانَت نُبُوَّتُه ما بَينَ ماءٍ وَطينٍ غَيرِ مُلتَئِمِ

صافح ثَراهُ وَقُل إِن جِئتَ مُستَلِماً إِنّا مُحَيّوكَ مِن رَبعٍ لِمُستَلِمِ

قَد أَقسَمَ اللَّهُ في الذِّكرِ الحَكيمِ بِهِ فَقالَ وَالنَجمِ هَذا أَوفَرُ القَسَمِ

ما بَينَ مِنبَرِهِ السّامي وَحُجرَتِهِ رَوضٌ مِنَ الخُلدِ نَقلٌ غَيرُ مُتَّهَمِ

مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللَّهِ سُلَّ عَلى عِداهُ نورٌ بِهِ إِرشادُ كُلِّ عَمِ

إِنَّ الَّذي قالَ يُستَسقى الغَمامُ بِهِ   لَو عاشَ أَبصَرَ ما قَد عَدَّ مِن شِيَمِ
تَلوحُ تَحتَ رِداءِ النَّقعِ غُرَّتُهُ   كَأَنَّ يُوشَعَ رَدَّ الشَّمسَ في الظُّلَمِ
وَتَقرَعُ السَّمعَ عَن حَقٍّ زَواجِرُهُ   قَرعَ الرِّماحِ بِبَدرٍ ظَهرَ مُنهَزِمِ
قالَت عِداهُ لَنا ذِكرٌ فَقُلتُ عَلى   لِسانِ داودَ ذِكرٌ غَيرُ مُنصَرِمِ
إِنّي لأَرجو بِنَظمي في مَدائِحِهِ   رَجاءَ كَعبٍ وَمَن يَمدَحهُ لَم يُضَمِ

وفيها يقول:

فَلُذ بِبَرٍّ رَحيمٍ بالبَرِيَّةِ إن   عَقَّتكَ شِدَّةُ دَهرٍ عاقَ واِعتَصِمِ
يُروى حَديثُ النَّدى وَالبِشرِ عَن يَدِهِ   وَوَجهُهُ بَينَ مُنهَلٍّ وَمُبتَسِمِ
تَبكي ظُباهُ دَماً وَالسَّيفُ مُبتَسِمٌ   يَخُطُّ كالنونِ بَينَ اللامِ وَاللِّمَمِ
دَمعٌ بِلا مُقَلٍ ضِحكٌ بِغَيرِ فَمٍ   كَتبٌ بِغَيرِ يَدٍ خَطٌّ بِلا قَلَمِ
جاوِرهُ يَمنَع وَلُذ يَشفَع وَسَلهُ يَهَب   وَعُد يَعُد واِستَزِد يَفعَل وَدُم يَدُمِ
لَم يَخشَ قِرناً وَيَخشى القِرنُ صَولَتَهُ   فَهوَ المَنيعُ المُبيحُ الأُسدَ لِلرَّخَمِ
وَالشَّمسُ رُدَّت وَبَدرُ الأُفقِ شُقَّ لَهُ   والنَّجمُ أَينَعَ مِنهُ كُلٌّ مُنحَطِمِ
سَقاهُمُ الغَيثُ ماءً إِذ سَقى ذَهَباً   فَغَيرُ كَفَّيهِ إِن أَمحَلتَ لا تَشِمِ
قَد أَفصَحَ الضَّبُّ تَصديقاً لِبِعثَتِهِ   إِفصاحَ قُسٍّ وَسَمعُ القَومِ لَم يَهِمِ
الهاشِمُ الأُسدَ هَشمَ الزّادِ تَبذُلُهُ   بَنانُ هاشِمٍ الوَهّابِ لِلطُّعُمِ
كَأَنَّما الشَّمسُ تَحتَ الغَيمِ غُرَّتُهُ   في النَّقعِ حَيثُ وجوهُ الأُسدِ كالحُمَمِ
إِذا تَبَسَّمَ في حَربٍ وَصاحَ بِهِم   يُبكي الأُسودَ وَيَرمي اللُّسنَ بِالبَكَمِ
قَلّوا بِبَدرٍ فَفَلُّوا غَربَ شانِئِهِم بِهِ   وَما قَلَّ جَمعٌ بِالرَّسولِ حَمِي
فابيَضَّ بَعدَ سَوادٍ قَلبُ مُنتَصِرٍ   واسوَدَّ بَعدَ بَياضٍ وَجهُ مُنهَزِمِ
فاِتبَع رِجالَ السُّرى في البيدِ واسرِ لَهُ   سُرى الرِّجالِ ذَوي الأَلبابِ وَالهِمَمِ
خَيرُ اللَّيالي لَيالي الخَيرِ في إِضَمٍ   وَالقَومُ قَد بَلَغوا أَقصى مُرادِهِمِ
بِعَزمِهِم بَلَغوا خَيرَ الأَنامِ فَقَد   فازوا وَما بَلَغوا إِلّا بِعَزمِهِمِ

يَقومُ بِالأَلفِ صاعٌ حينَ يُطعِمُهُم   وَالصّاعُ مِن غَيرِهِ بِاثنَينِ لَم يَقُمِ

مَنِ الغَزالَةُ قَد رُدَّت لِطاعَتِهِ   لَو رامَ أَن لا تَزورَ الجَديَ لَم تَرُمِ

داني القُطوفِ جَميلُ العَفوِ مُقتَدِرٌ   ما ضاقَ مِنهُ لِجانٍ واسِعُ الكَرَمِ

لا يَرفَعُ العَينَ لِلرّاجينَ يَمنَحُهُم   بَل يَخفِضُ الرّاسَ قَولاً هاكَ فاحتَكِمِ

يا قاطِعَ البيدِ يَسريها عَلى قَدَمٍ   شَوقاً إِلَيهِ لَقَد أَصبَحتَ ذا قَدَمِ

قَدِ اعتَصَمتَ بِأَقوامٍ جُفونُهُمُ   لا تَعرِفُ السَّيفَ خِلواً مِن خِضابِ دَمِ

جَوازِمُ الصَّبرِ عَن فِعلِ الجَوى مُنِعَت   وَرَفعُهُ حالَ إِلّا حالَ قُربِهِمِ

في القَلبِ وَالطَّرفِ مِن أَهلِ الحِمى قَمَرٌ   مَن يَعتَصِم بِحِماهُ الرَّحبِ يُحتَرِمِ

يا مُتهِمينَ عَسى أَن تُنجِدوا رَجُلاً   لَم يَسلُ عَنكُم وَلَم يُصبِح بِمُتَّهَمِ

أَغارَ دَهرٌ رَمى بِالبُعدِ نازِحَنا   فَأَنجِدوا يا كِرامَ الذّاتِ وَالشِيَمِ

إِنَّ الغَضى لَستُ أَنسى أَهلَهُ فَهُمُ   شَبّوهُ بَينَ ضُلوعِي يَومَ بَينِهِمِ

جَرى العَقيقُ بِقَلبي بَعدَما رَحَلوا   وَلَو جَرى مِن دُموعِ العَينِ لَم أُلَمِ

حَيثُ الَّذي إِن بَدا في قَومِهِ وَحَبا   عُفاتَهُ وَرَمى الأَعداءَ بِالنِّقَمِ

فالبَدرُ في شُهبِهِ وَالغَيثُ جادَ لِذي   مَحلٍ وَلَيثُ الشَّرى قَد صالَ في الغَنَمِ

وَإِن عَلا النَّقعُ في يَومِ الوَغى فَدَعا   أَنصارَهُ وَأَجالَ الخَيلَ في اللُّجُمِ

تَرى الثُّرَيا تَقودُ الشُّهبَ يُرسِلُها لَيثٌ   هَدى الأُسدَ خَوضَ البَحرِ في الظُّلَمِ

أَخفَوا في الإِنجيلِ وَالتَّوراةِ بِعثَتَهُ   فَأَظهَرَ اللَّهُ ما أَخفَوا بِرَغمِهِمِ

قَد أَحرَزَ البَأسَ وَالإِحسانَ في نَسَقٍ   وَالعِلمَ وَالحِلمَ قَبلَ الدَّركِ لِلحُلُمِ

لا يَستَوي الغَيثُ مَع كَفَّيهِ نائِلُ ذا   ماءٍ وَنائِلُ ذا مالٍ فَلا تَهِمِ

غَيثانِ أَمّا الَّذي مِن فَيضِ أَنمُلِهِ   فَدائِمٌ وَالَّذي لِلمُزنِ لَم يَدُمِ

جَلا قُلوباً وَأَحيا أَنفُساً وَهَدى   عُمياً وَأَسمَعَ آذاناً ذَوي صَمَمِ

يُريكَ بِاليَومِ مِثلَ الأَمسِ مِن كَرَمٍ   وَلَيسَ في غَدِهِ هَذا بِمُنعَدِمِ

فَلُذ بِمَن كَفُّهُ وَالبَحرُ ما افتَرَقا   إِلّا بِكَفٍّ وَبَحرٍ في كَلامِهِم

وَالمـــالُ وَالمـــاءُ مِـــن كَفَّيـــهِ قَـــد جَرَيـــا هَـــذا لِـــراجٍ وَذا لِلجَـــيشِ حـــينَ ظمِـــي
فـــازَ الُمجـــدّانِ دانٍ أَو مُـــديمُ سُـــرىً فَـــذاكَ نـــاجٍ وَذا راجٍ لجـــودِهم
مِـــن وَجـــهِ أَحمَـــدَ لي بَـــدرٌ وَمِـــن يَـــدِهِ بَحـــرٌ وَمِـــن فَمِـــهِ دُرٌّ لِمُنـــتَظِمِ
كَـــم قُلـــتُ يـــا نَفـــس مـــا أَنصَـــفتِ أَن رَحَلـــوا وَمـــا رَحَلـــتِ وَقـــاموا ثُـــمَّ لَـــم تَقُـــمِ
يَمِّـــم نَبِيّـــاً تُبـــاري الـــرِّيحَ أَنمُلُـــهُ وَالُمـــزنَ مِـــن كُـــلِّ هـــامِي الـــوَدقِ مُـــرتَكِمِ
لَـــو قابَـــلَ الشُّـــهبَ لَـــيلاً في مطالِعِهـــا خَـــرَّت حَيـــاءً وَأَبـــدَت بِـــرَّ مُحتَـــرِمِ
تَكـــادُ تَشـــهَدُ أَنَّ اللَّـــهَ أَرسَـــلَهُ إِلى الـــوَرى نُطَـــفُ الأَبنـــاءِ في الـــرَّحِمِ
لَـــو عامَـــتِ الفُلـــكُ فيمـــا فـــاضَ مِـــن يَـــدِهِ لَـــم تَلـــقَ أَعظَـــمَ بَحـــراً مِنـــهُ إِن تَعُـــمِ
تُحـــيطُ كَفّـــاهُ بِـــالبَحرِ الُمحـــيطِ فَلُـــذ بِـــهِ وَدَع كُـــلَّ طـــامي الَمـــوجِ مُلـــتَطِمِ
لَـــو لَـــم تُحِـــط كَفُّـــهُ بِـــالبَحرِ مـــا شَـــمِلَت كُـــلَّ الأَنـــامِ وَأَروَت قَلـــبَ كُـــلِّ ظَمِـــي
لَـــم تَـــبرُقِ السُّـــحبُ إِلّـــا أَنَّهـــا فَرِحَـــت إِذ ظَلَّلَتـــهُ فَأَبـــدَت وَجـــهَ مُبتَسِـــمِ
وَالمـــاءُ لَـــو لَـــم يَفِـــض مِـــن بَـــينِ أَنمُلِـــهِ مـــا كـــانَ رِيُّ الظَّمـــا في وِردِهِ الشَّـــبِمِ
يَستَحسِـــنُ الفَقـــرَ ذو الـــدُّنيا لِيَســـأَلَهُ فَيـــأمَنَ الفَقـــرَ مِمّـــا نـــالَ مِـــن نِعَـــمِ
وَالبَـــدرُ أَبقـــى بِمَـــرآهُ لِيُعلِمَنـــا بالانشِـــقاقِ لَـــهُ آثـــارَ مُنـــثَلِمِ
أَزالَ ضُـــرَّ الـــبَعيرِ الُمســـتَجيرِ كَمـــا بِـــهِ الغَزالَـــةُ قَـــد لاذَت فَلَـــم تُضَـــمِ

صفي الدين الحلي:

قلت: وسمعت أن من بين هؤلاء رجل يقال (صفي الدين الحلي)

قال: أجل.. هذا الرجل من أكبر الشعراء المهتمين بالبديع.. حتى أنه لقب بأبي البديع، حيث كان علم البديع مهجورا قبله..

قلت: لا يستغرب حب بديع اللغة ممن أحب بديع البشر.

قال: وميزة هذا الشاعر أنه جمع في هذه القصيدة بين علم البديع ومدح الحبيب.

قلت: تقصد أن القصيدة متن في البديع؟

قال: أجل.. وهي من أشهر المتون العلمية، حيث جمعت بين مديح المصطفى ﷺ، وبين ذكر جميع شواهد علم البلاغة، وهي (الكافية البديعية)

قلت: لقد شوقتني إليها.. فاروها لي.

قال: يقول هذا الشاعر الفاضل في هذه القصيدة:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذي سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم و لم أستطع مع ذاك منع دمي
أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في إضم لحم على وضم
من شانه حمل أعباء الهوى كمدا إذا همى شانه بالدمع لم يلم
من لي بكل غرير من ظبائهم عزيز حسن يداوي الكلم بالكلم
بكل قد نضير لا نظير له ما ينقضي أملي منه ولا ألمي
وكل لحظ أتى باسم ابن ذي يزن في فتكه بالمعنى أو أبي هرم
قد طال ليلي وأجفاني به قصرت عن الرقاد فلم أصبح و لم أنم
كأن آناء ليلي في تطاولها تسويف كاذب آمالي بقربهم
هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة فكيف يحسن منها حال منفطم
كان الرضا بدنوي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارهم
وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي منهم عليهم إليهم فيهم بهم
لله لذت عيش بالحبيب مضت فلم تدم لي وغير الله لم يدم
وعاذل رام بالتعنيف يرشدني عدمت رشدك هل أسمعت ذا صمم
أقصر أطل أعزر أعذل سل خل أعن خن هن عن ترفق لج كف لم
أشبعت نفسك من ذمي فهاضك ما تلقى وأكثر موت الناس بالتخم
أنا المفرط أطلعت العدو على سري وأودعت نفسي كل مخترم
فمي يحدث عن سري فما ظهرت سرائر القلب إلا من حديث فمي
لأنت عندي أخص الناس مترلة إذ كنت أقدرهم عندي على السلم
محضتني النصح إحسانا إلي بلا غش وقلدتني الإنعام فاحتكم
ليت المنية حالت دون نصحك لي فيستريح كلانا من أذى التهم

حسبي بذكرك لي ذما ومنقصة	فيما نطقت فلا تنقص ولا تذم
سالمت في الحب عذالي فما نصحوا	وهبه كان فما نفعي بنصحهم
عدمت صحة جسمي مذ وثقت بهم	فما حصلت على شيء سوى الندم
قالوا سلوت لبعد الإلف قلت لهم	سلوت عن صحتي والبرء من سقمي
ما كنت قبل الظبا الألحاظ قط أرى	سيفا أراق دمي إلا على قدمي
قالوا اصطبر قلت صبري غير متسع	قالوا اسلهم قلت ودي غير منصرم
وإنني سوف أسلوهم إذا عدمت	روحي وأحييت بعد الموت والعدم
فالله يكلأ عذالي ويلهمهم	عذلي فقد فروجي كربي بذكرهم
قالوا ألم تدر أن الحب غايته	سلب الخواطر والألباب قلت لم
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم	أن الظباء تحل الصيد في الحرم
رجوت أن يرجعوا يوما وقد رجعوا	عند العتاب ولكن عن وفى ذمم
فكل ما سر قلبي واستراح به	إلا الدموع عصاني بعد بعدهم
فلو رأيت مصابي عندما رحلوا	رثيت لي من عذابي يوم بينهم
يا غائبين لقد أضنى الهوى جسدي	والغصن يزوي لفقد الوابل الردم
يا ليت شعري أسحرا كان حبكم	أزال عقلي أم ضربا من اللمم
رجوتكم نصحاء في الشدائد لي	لضعف رشدي واستسمنت ذا ورم
وكم بذلت تليدي والطريف لكم	طوعا وأرضيت عنكم كل مختصم
من كان يعلم أن الشهد مطلبه	فلا يخاف للدغ النحل من ألم
خلت الفضائل بين الناس ترفعني	بالابتداء فكانت أحرف القسم
لا لقبتني المعالي بابن بجدتها	يوم الفخار ولا برت تقى قسمي
إن لم أحث مطايا العزم مثقلة	من القوافي تؤم المجد عن أمم
تجار لفظ إلى سوق القبول بها	من لجة الفكر تهدي جوهر الكلم
من كل معربة الألفاظ معجمة	يزينها مدح خير العرب والعجم

ثم مدح النبي ﷺ بقوله:

محمـــد المصـــطفى الهـــادي الـــنبي أجـــل المرســـلين بـــن عبـــدالله ذي الكـــرم
الطـــاهر الشـــيم بـــن الطـــاهر الشـــيم بـــن الطـــاهر الشـــيم بـــن الطـــاهر الشـــيم
خـــير النبـــيين والبرهـــان متضـــح في الحجـــر نقـــلا وعقـــلا واضـــح اللقـــم
كـــم بـــين مـــن أقســـم الله العلـــي بـــه وبـــين مـــن جـــاء بســـم الله في القســـم
أمـــي خـــط أبـــان الله معجـــزه بطاعـــة الماضـــيين الســـيف والقلـــم
مؤيـــد العـــزم والأبطـــال في قلـــق مؤمـــل الصـــفح والهيجـــاء في ضـــرم
نفـــس مؤيـــدة بـــالحق تعضـــدها عنايـــة صـــدرت عـــن بـــارئ النســـم
أبـــدى العجائـــب فـــالأعمى بنفثتـــه غـــدا بصـــيرا وفي الحـــرب البصـــير عمـــي
لـــه الســـلام مـــن الله الســـلام وفي دار الســـلام تـــراه شـــافع الأمـــم
كـــم قـــد جلـــت جـــنح نقـــع الليـــل طلعتـــه والشـــهب أحلـــك ألونـــا مـــن الـــدهم
في معـــرك لا تـــثير الخيـــل عـــثيره ممـــا تـــروي المواضـــي تربـــه بـــدمي
عزيـــز جـــار لـــو الليـــل اســـتجار بـــه مـــن الصـــباح لعـــاش النـــاس في الظلـــم
كـــأن مـــرآه بـــدر غـــير مســـتتر وطيـــب ريـــاه مســـك غـــير مكتـــتم
لا يهـــدم المـــن منـــه عمـــر مكرمـــة ولا يســـوء أذاه نفـــس متـــهم
يـــولي المـــوالين مـــن جـــدوى شـــفاعته ملكـــا كـــبيرا عـــدا مـــا في نفوســـهم
كأنمـــا قلـــب معـــن مـــلء فيـــه فلـــم يقـــل لســـائله يومـــا ســـوى نعـــم
إن حـــل أرض أنـــاس شـــد أزرهـــم بمـــا أتـــاح لهـــم مـــن حـــط وزرهـــم
آراءه وعطايـــاه ونقمتـــه وعفـــوه رحمـــة للنـــاس كلـــهم
فجـــود كفيـــه لم تقلـــع ســـحائبه عـــن العبـــاد وجـــود الســـحب لم يقـــم
أفـــنى جيـــوش العـــدا غـــزوا فلســـت تـــرى ســـوى قتيـــل ومأســـور ومنـــهزم
ســـناه كـــالنور يجلـــوا كـــل مظلمـــة والبـــأس كالنـــار يفـــني كـــل مجتـــرم
أبـــادهم فلبيـــت المـــال مـــا جمعـــوا والـــروح للســـيف والأجســـاد للـــرخم

مـــــن مفـــــرد بغــــرار الســــيف منتشـــر ومـــــزوج بســـــنان الـــــرمح منـــــتظم
واســــتخدم المـــــوت ينـــــهاه ويــــأمره بعـــــزم مغتـــــنم في زي مغتــــــرم
يجـــــزي إســــاءة بــــاغيهم بســــيئة و لم يكـــــن عاديــــا منـــــهم علـــــى إرم
كأنمـــــا حلـــــق الســــعدي منتثـــرا علـــى الثـــرى بـــين مـــنفض ومنفصـــم
حـــروف خـــط علـــى طـــرس مقطعـــة جـــاءت بهـــا يـــد غمـــر غـــير مفتـــهم
لم يلـــق مرحـــب منـــه مرحبـــا ورأى ضـــد اسمـــه عنـــد هـــد الحصـــن والأطـــم
لاقـــاهم بكمـــاة عنـــد كـــرهم علـــى الجســـوم دروع مـــن قلـــوبهم
بكـــل منتصـــر للفـــتح منتظـــر وكـــل معتـــزم للحـــق ملتـــزم
مـــن حاســـر بغـــرار العضـــب ملتحـــف أو ســـافر بغبـــار الحـــرب ملتـــثم
مســـتقتل قاتـــل مسترســـل عجـــل مستأصـــل صـــائل مســـتفحل خصـــم
ببـــارق خـــدم في مـــارق أمـــم أو ســـابق عـــرم في شـــاهق علـــم
فعـــال منـــتظم الأهـــواء مقـــتحم ال أهـــوال ملتـــزم بـــالله معتصـــم
ســـهل خلائقـــه صـــعب عرائكـــه جـــم عجائبـــه في الحكـــم والحكـــم
فـــالحق في أفـــق والشـــرك في نفـــق والكفـــر في فـــرق والـــدين في حـــرم
فـــالجيش والنقـــع تحـــت الجـــون مـــرتكم في ظـــل مـــرتكم في ظـــل مـــرتكم
بفتيـــة أســـكنوا أطـــراف سمـــرهم مـــن المكـــاة مقـــر الضـــغن والأضـــم
كـــل طويـــل نجـــاد الســـيف يطربـــه وقـــع الصـــوارم كالأوتـــار والـــنغم
مـــن كـــل مبتـــدر للمـــوت مقـــتحم في مـــأزق بغبـــار الحـــرب ملـــتحم
تهـــوى الرقـــاب مواضـــيهم فتحســـبها حديـــدها كـــان أغـــلالا مـــن القـــدم
شـــوس تـــرى منـــهم في كـــل معتـــرك أســـد العـــرين إذا حـــر الـــوطيس حمـــي
صـــالوا فنـــالوا الأمـــاني مـــن عـــداهم ببـــارق في ســـوى الهيجـــاء لم يشـــم
كالنـــار منـــه ريـــاح المـــوت إن عصـــفت روى ثـــرى مـــاءه أرضـــى الـــوغى بـــدمي
حـــران ينقـــع حـــر الكـــر غلتـــه حـــتى إذا ضـــمه بـــرد المقيـــل ظمـــي

قـــادوا الشـــواذب كالأجبـــال حاملـــة أمثالهـــا ثبتـــة في كـــل مصـــدم
مـــن سـبق لا يـرى سـوط لهـا ثمـلا ولا جديـد مـن الأرصـان واللجـم
كـــادت حوافرهـــا تـــدمي جحافلـــها حـــتى تشـــابهت الأحجـــال بـــالرثم
خاضـــوا عبـــاب الـــوغى والخيـــل ســـابحة في بحـــر حـــرب بمـــوج المـــوت ملـــتطم
حـــتى إذا صـــدروا والخيـــل صـــائمة مـــن بعـــد مـــا صـــلت الأســـياف في القمـــم
تلاعبـــوا تحـــت ظـــل الســـمر مـــن مـــرح كمـــا تلاعبـــت الأشـــبال في الأجـــم
في ظـــل منصـــور اللـــواء لـــه عـــدل يؤلـــف بـــين الـــذئب والغـــنم
ســـهل الخلائـــق سمـــح الكـــف باســـطها مـــتره لفظـــه عـــن لا ولـــن و لم
أغـــر لا يمنـــع الـــراجين مـــا طلبـــوا ويمنـــع الجـــار مـــن ضـــيم ومـــن حـــرم
شـــخص هـــو العـــالم الكلـــي في شـــرف ونفســـه الجـــوهر القدســـي في عظـــم
ومـــن لـــه حـــاور الجـــزع اليبـــيس ومـــن بكفـــه أورقـــت عجـــراء مـــن ســـلم
والعاقـــب الحـــبر في نجـــران لاح لـــه يـــوم اجتبـــاه لعقـــبى زلـــة القـــدم
والـــذئب ســـلم والجـــني أســـلم والـــث عبـــان كلـــم والأمـــوات في الـــرجم
ومـــن أتـــى ســـاجدا لله ســـاعته و لم يكـــن ســـاجدا في العمـــر للصـــنم
ومـــن غـــدا اســـم أمـــه نعتـــا لأمتـــه فتلـــك آمنـــة مـــن ســـائر الـــنقم
مـــن مثلـــه وذراع الشـــاة حدثـــه عـــن سمـــه بلســـان صـــادق الـــرنم
هـــل مـــن يـــنم بحـــب مـــن يـــنم لـــه بمـــا رمـــوه كمـــن لم يـــدري كيـــف رمـــي
هـــو الـــنبي الـــذي آياتـــه ظهـــرت مـــن قبـــل مظهـــره للنـــاس في القـــدم
محمـــد المصـــطفى المختـــار مـــن ختمـــت بمجـــده مرســـلوا الـــرحمن للأمـــم
فـــذكره قـــد أتـــى في هـــل أتـــى وســـبا وفضـــله ظـــاهر في نـــون والقلـــم
إذا رآه الأعـــادي قـــال حـــازمهم حتـــام نحـــن نســـار الـــنجم في الظلـــم

محمود سامي البارودي:

سكت البابا، فقلت: عد بنا إلى عصرنا.. فقد سمعت أن شعراء كثيرين عارضوا البردة.

قال: أجل.. فحب رسول الله ﷺ لا يخلو منه عصر من العصور.. ولا مكان من الأماكن.. ألا تعلم أن رسول الله ﷺ أمان لأمته.

قلت: لقد ذكر الله ﷻ ذلك، فقال:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (لأنفال:٣٣).. ولكن رسول الله ﷺ فلم يبق لنا إلا الاستغفار.

قال: الاستغفار لا ينفع وحده ما لم يمتلئ القلب بمحبة سيد المستغفرين.. فلذلك إن ذهب جسد رسول الله ﷺ.. فإن روحه لا زالت تعمر القلوب والأرواح.

قلت: لقد سمعت بأن الوزير محمود سامى البارودى عارضها في قصيدة عصماء من ٤٥٠ بيتا.

قال: أجل.. وقد سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة)

قلت: فاروها لي.

قال: سأقتصر لك منه ما يتعلق بالحبيب [1].. اسمع:

مُحَمَّدٌ خاتَمُ الرُسلِ الَّذي خَضَعَت ... لَهُ البَرِيَّةُ مِن عُربٍ وَمِن عَجَمِ
سَميرُ وَحيٍ وَمَجنى حِكمَةٍ وَنَدى ... سَماحَةٍ وَقِرى عافٍ وَرِيُّ ظَمِ
قَد أَبلَغَ الوَحيُ عَنهُ قَبلَ بعثَتِهِ ... مَسامِعَ الرُسلِ قَولاً غَيرَ مُنكَتِمِ
فَذاكَ دَعوَةُ إِبراهيمَ خالِقَهُ ... وَسِرُّ ما قالَهُ عِيسى مِنَ القِدَمِ
أَكرِم بِهِ وَبِآباءٍ مُحَجَّلَةٍ ... جاءَت بِهِ غُرَّةً في الأَعصُرِ الدُّهُمِ
قَد كانَ في مَلَكوتِ اللَهِ مُدَّخراً ... لِدَعوَةٍ كانَ فيها صاحِبَ العَلَمِ
نُورٌ تَنَقَّلَ في الأَكوانِ ساطِعُهُ ... تَنَقُّلَ البَدرِ مِن صُلبٍ إِلى رَحِمِ
حَتّى اِستَقَرَّ بِعَبدِ اللَهِ فَانبَلَجَت ... أَنوارُ غُرَّتِهِ كَالبَدرِ في البُهُمِ
وَاِختارَ آمِنَةَ العَذراءَ صاحِبَةً ... لِفَضلِها بَينَ أَهلِ الحِلِّ وَالحَرَمِ
كِلاهُما في العُلا كُفءٌ لِصاحِبِهِ ... وَالكُفءُ في المَجدِ لا يُستامُ بِالقِيَمِ
فَأَصبَحَت عِندَهُ في بَيتِ مَكرُمَةٍ ... شِيدَت دَعائِمُهُ في مَنصِبٍ سَنِمِ
وَحِينَما حَمَلَت بِالمُصطَفى وَضَعَت ... يَدُ المَشيئَةِ عَنها كُلفَةَ الوَجَمِ
وَلاحَ مِن جِسمِها نُورٌ أَضاءَ لَها ... قُصُورَ بُصرى بِأَرضِ الشَّأمِ مِن أَمَمِ

---

(١) ننقل القصيدة هنا بتصرف.

وَمُنذ أتى الوَضعُ وَهوَ الرَّفعُ مَنزِلَةً ... جاءَت بِرُوحٍ بِنُورِ اللَهِ مُتَّسِمِ
ضاءَت بِهِ غُرَّةُ الإثنَينِ وَابتَسَمَت ... عَن حُسنِهِ في رَبيعٍ رَوضَةُ الحَرَمِ
وَأَرضَعَتهُ وَلَم تَيأَس حَليمَةُ مِن ... قَولِ المَراضِعِ إنَّ البُؤسَ في اليَتَمِ
فَفاضَ بالدرِّ ثَدياها وَقَد غَنِيَت ... لَياليا وَهيَ لَم تطعَم وَلَم تَنَمِ
وَانهَلَّ بَعدَ انقِطاعٍ رِسلُ شارِفِها ... حَتّى غَدَت مِن رَفِيهِ العَيشِ في طُعَمِ
فَيَمَّمَت أهلَها مَملُوءَةً فَرَحاً ... بِما أُتيحَ لَها مِن أوفَرِ النِّعَمِ
وَقَلَّصَ الجَدبُ عَنها فَهيَ طاعِمَةٌ ... مِن خَيرِ ما رَفَدَتها ثَلَّةُ الغَنَمِ
وَكَيفَ تمحَلُ أرضٌ حَلَّ ساحَتَها ... مُحَمَّدٌ وَهوَ غَيثُ الجُودِ وَالكَرَمِ
فَلَم يَزَل عِندَها يَنمُو وَتَكلَؤُهُ ... رِعايَةُ اللَهِ مِن سُوءٍ وَمِن وَصَمِ
حَتّى إذا تَمَّ مِيقاتُ الرَّضاعِ لَهُ ... حَولَينِ أصبَحَ ذا أيدٍ عَلى الفُطُمِ
وَجاءَ كَالغُصنِ مَجدُولاً تَرِفُّ عَلى ... جَبِينِهِ لَمحاتُ المَجدِ وَالفَهَمِ
قَد تَمَّ عَقلاً وَما تَمَّت رَضاعَتُهُ ... وَفاضَ حِلماً وَلَم يَبلُغ مَدى الحُلُمِ
فَبَينَما هُوَ يَرعى البَهمَ طافَ بِهِ ... شَخصانِ مِن مَلَكُوتِ اللَهِ ذي العِظَمِ
فَأَضجَعاهُ وَشَقّا صَدرَهُ بِيَدٍ ... رَفِيقَةٍ لَم يَبِت مِنها عَلى أَلَمِ
وَبَعدَ ما قَضَيا مِن قَلبِهِ وَطَراً ... تَوَلَّيا غَسلَهُ بِالسَّلسَلِ الشَّبِمِ
ما عالَجا قَلبَهُ إلّا لِيَخلُصَ مِن ... شَوبِ الهَوى وَيَعِي قُدسِيَّةَ الحِكَمِ
فَيا لَها نعمَةً لِلّهِ خَصَّ بِها ... حَبِيبَهُ وَهوَ طِفلٌ غَيرُ مُحتَلِمِ
وَقالَ عَنهُ بُحَيرا حِينَ أبصَرَهُ ... بِأَرضِ بُصرى مَقالاً غَيرَ مُتَّهَمِ
إذ ظَلَّلَتهُ الغَمامُ الغُرُّ وَانهَصَرَت ... عَطفاً عَلَيهِ فُرُوعُ الضّالِ وَالسَّلَمِ
بِأَنَّهُ خاتَمُ الرُّسلِ الكِرامِ وَمَن ... بِهِ تَزُولُ صُرُوفُ البُؤسِ وَالنِّقَمِ
هَذا وَكَم آيَةٍ سارَت لَهُ فَمَحَت ... بِنُورِها ظُلمَةَ الأهوالِ وَالقُحَمِ
ما مَرَّ يَومٌ لَهُ إلّا وَقَلَّدَهُ ... صَنائِعاً لَم تَزَل فِي الدَّهرِ كَالعَلَمِ
حَتّى استَتَمَّ وَلا نُقصانَ يَلحَقُهُ ... خَمساً وَعِشرِينَ سِنُّ البارِعِ الفَهِمِ

وَلَقَّبَتـــــــهُ قُـــــرَيشٌ بِـــــالأَمينِ عَلـــــى صِـــــدقِ الأَمانَـــــةِ وَالإِيفـــــاءِ بِالـــــذِّمَمِ
وَدَّت خَديجَـــــةُ أَن يَرعـــــى تِجارَتَهـــــا وِدادَ مُنتَهِـــــزٍ لِلخَـــــيرِ مُغتَـــــنِمِ
فَشَـــــدَّ عَزمَتَهـــــا مِنـــــهُ بِمُقتَـــــدِرٍ ماضِـــي الجِنـــانِ إِذا مـــا هَـــمَّ لَـــم يَخِـــمِ
وَســـــارَ مُعتَزِمـــــاً لِلشَّـــــأمِ يَصـــــحَبُهُ فِي السَّـــيرِ مَيسُـــرَةُ المَرضِـــيُّ فِـــي الحَشَـــمِ
فَمـــا أَنـــاخَ بِهـــا حَتّـــى قَضـــى وَطَـــراً مِـــن كُـــلِّ مـــا رامَـــهُ في البَيـــعِ وَالسَّـــلَمِ
وَكَيـــفَ يَخسَـــرُ مَـــن لَـــولاهُ مـــا رَبِحَـــت تِجـــارَةُ الـــدِّينِ في سَـــهلٍ وَفِـــي عَلَـــمِ
فَقَـــــصَّ مَيسُـــــرَةُ المَـــــأمونُ قِصَّـــــتَهُ عَلَـــى خَديجَـــةَ سَـــرداً غَـــيرَ مُـــنعَجِمِ
وَمـــــا رَواهُ لَـــــهُ كَهـــــلٌ بِصَـــــومَعَةٍ مِـــنَ الرَّهـــابِينِ عَـــن أَســـلافِهِ القُـــدُمِ
في دَوحَـــةٍ عـــاجَ خَـــيرُ المُرسَـــلينَ بِهـــا مِـــن قَبـــلِ بِعثَتِـــهِ لِلعُـــربِ وَالعَجَـــمِ
هَـــذا نَبِـــيٌّ وَلَـــم يَـــنزِل بِســـاحَتِها إِلّـــا نَـــبِيٌّ كَـــريمُ الـــنَّفسِ وَالشِّـــيَمِ
وَسِـــيرَةَ المَلَكَـــينِ الحـــائِمَينِ عَلـــى جَبينِـــهِ لِيُظِلّـــاهُ مِـــنَ الـــتَّهَمِ
فَكـــانَ مـــا قَصَّـــهُ أَصـــلاً لِمـــا وَصَـــلَت بِـــهِ إِلى الخَـــيرِ مِـــن قَصـــدٍ وَمُعتَـــزَمِ
أَحسِـــن بِهـــا وُصـــلَةً فِي اللَّـــهِ قَـــد أَخَـــذَت بِهـــا عَلـــى الـــدَّهرِ عَقـــداً غَـــيرَ مُنفَصِـــمِ
فَأَصـــبَحا في صَـــفاءٍ غَـــيرِ مُنقَطِـــعٍ عَلـــى الزَّمـــانِ وَوِدٍّ غَـــيرِ مُنصَـــرِمِ
وَحِينَمـــا أَجمَعَـــت أَمـــراً قُـــرَيشُ عَلـــى بِنايَـــةِ البَيـــتِ ذي الحُجّـــابِ وَالخَـــدَمِ
تَجَمَّعَـــت فِـــرَقُ الأَحـــلافِ وَاِقتَسَـــمَت بِنـــاءَهُ عَـــن تَـــراضٍ خَـــيرَ مُقتَسَـــمِ
حَتّـــى إِذا بَلَـــغَ البُنيـــانُ غايَتَـــهُ مِـــن مَوضِـــعِ الـــرُّكنِ بَعـــدَ الكَـــدِّ وَالجَشَـــمِ
تَســـابَقوا طَلَبـــاً لِلأَجـــرِ وَاِختَصَـــمُوا فِـــيمَن يَشُـــدُّ بِنـــاهُ كُـــلُّ مُختَصَـــمِ
وَأَقسَـــمَ القَـــومُ أَن لا صُـــلحَ يَعصِـــمُهُم مِـــنِ اِقتِحـــامِ المَنايـــا أَيَّمـــا قَسَـــمِ
وَأَدخَلـــوا حِـــينَ جَـــدَّ الأَمـــرُ أَيـــدِيَهُم لِلشَّـــرِّ في جَفنَـــةٍ مَملُـــوءَةٍ بِـــدَمِ
فَقـــالَ ذُو رَأيِهِـــم لا تَعجَلُـــوا وَخُـــذُوا بِـــالحَزمِ فَهـــوَ الَّـــذي يَشـــفِي مِـــنَ الحَـــزَمِ
لِيَـــرضَ كُـــلُّ امـــرِئٍ مِنّـــا بِـــأَوَّلِ مَـــن يَـــأتي فَيَقسِـــطُ فِينـــا قِســـطَ مُحـــتَكِمِ
فَكـــانَ أَوَّلَ آتٍ بَعـــــدَما اِتَّفَقُـــــوا مُحَمَّـــدٌ وَهـــوَ فِي الخَـــيراتِ ذُو قَـــدَمِ

فَقالَ كُلٌّ رَضينا بِالأَمينِ عَلَى   عِلمٍ فَأَكرِم بِهِ مِن عادِلٍ حَكَمِ
فَأَعلَمُوهُ بِما قَد كانَ وَاِحتَكَمُوا   إِلَيهِ في حَلِّ هَذا المُشكِلِ العَمَمِ
فَمَدَّ ثَوباً وَحَطَّ الرُّكنَ في وَسَطٍ   مِنهُ وَقالَ اِرفَعُوهُ جانِبَ الرَّضَمِ
فَنالَ كُلُّ امرِئٍ حَظّاً بِما حَمَلَت   يَداهُ مِنهُ وَلَم يَعتِب عَلى القِسَمِ
حَتّى إِذا اِقتَرَبوا تِلقاءَ مَوضِعِهِ   مِن جانِبِ البَيتِ ذي الأَركانِ وَالدِّعَمِ
مَدَّ الرَّسُولُ يَداً مِنهُ مُبارَكَةً   بَنَتهُ في صَدَفٍ مِن باذِخٍ سَنِمِ
فَليَزدَدِ الرُّكنُ تِيهاً حَيثُ نالَ بِهِ   فَخراً أَقامَ لَهُ الدُّنيا عَلى قَدَمِ
لَو لَم تَكُن يَدُهُ مَسَّتهُ حِينَ بَنَى   ما كانَ أَصبَحَ مَلثُوماً بِكُلِّ فَمِ
يا لَيتَني وَالأَماني رُبَّما صَدَقَت   أَحظى بِمُعتَنَقٍ مِنهُ وَمُلتَزَمِ
يا حَبَّذا صِبغَةٌ مِن حُسنِهِ أَخَذَت   مِنها الشَّبِيبَةُ لَونَ العُذرِ وَاللمَمِ
كَالخالِ في وَجنَةٍ زِيدَت مَحاسِنُها   بِنُقطَةٍ مِنهُ أَضعافاً مِنَ القِيَمِ
وَكَيفَ لا يَفخَرُ البَيتُ العَتِيقُ بِهِ   وَقَد بَنَتهُ يَدٌ فَيّاضَةُ النِّعَمِ
أَكرِم بِهِ وازِعاً لَولا هِدايَتُهُ   لَم يَظهَرِ العَدلُ في أَرضٍ وَلَم يَقُمِ
هَذا الَّذي عَصَمَ اللَّهُ الأَنامَ بِهِ   مِن كُلِّ هَولٍ مِنَ الأَهوالِ مُختَرِمِ
وَحِينَ أَدرَكَ سِنَّ الأَربَعِينَ وَما   مِن قَبلِهِ مَبلَغٌ لِلعِلمِ وَالحِكَمِ
حَباهُ ذُو العَرشِ بُرهاناً أَراهُ بِهِ   آياتِ حِكمَتِهِ في عالَمِ الحُلُمِ
فَكانَ يَمضي لِيَرعَى أُنسَ وَحشَتِهِ   في شاسِعٍ ما بِهِ لِلخَلقِ مِن أَرَمِ
فَما يَمُرُّ عَلى صَخرٍ وَلا شَجَرٍ   إِلّا وَحَيّاهُ بِالتَّسليمِ مِن أَمَمِ
حَتّى إِذا حانَ أَمرُ الغَيبِ وَاِنحَسَرَت   أَستارُهُ عَن ضَميرِ اللَوحِ وَالقَلَمِ
نادى بِدَعوَتِهِ جَهراً فَأَسمَعَها   في كُلِّ ناحِيَةٍ مَن كانَ ذا صَمَمِ
فَكانَ أَوَّلُ مَن في الدِّينِ تابَعَهُ   خَدِيجَةٌ وَعَلِيٌّ ثابِتُ القَدَمِ
ثُمَّ اِستَجابَت رِجالٌ دُونَ أُسرَتِهِ   وَفي الأَباعِدِ ما يُغني عَنِ الرَّحِمِ
وَمَن أَرادَ بِهِ الرَّحمنُ مَكرُمَةً   هَداهُ لِلرُّشدِ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

ثُمَّ اِستَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ مُعتَزِماً   يَدعُو إلى رَبِّهِ فِي كُلِّ مُلتَأَمِ
وَالنّاسُ مِنهُم رَشِيدٌ يَستَجِيبُ لَهُ   طَوعاً وَمِنهُم غَوِيٌّ غَيرُ مُحتَشِمِ
حَتّى اِستَرابَت قُرَيشٌ وَاِستَبَدَّ بِها   جَهلٌ تَرَدَّت بِهِ فِي مارِجٍ ضَرِمِ
وَعَذَّبوا أَهلَ دِينِ اللَّهِ وَاِنتَهَكوا   مَحارِماً أَعقَبَتهُم لَهفَةَ النَّدَمِ
وَقامَ يَدعُو أَبو جَهلٍ عَشِيرَتَهُ   إِلى الضَّلالِ وَلَم يَجنَح إِلى سَلَمِ
يُبدِي خِداعاً وَيُخفِي ما تَضَمَّنَهُ   ضَمِيرُهُ مِن غَراةِ الحِقدِ وَالسَّدَمِ
لا يَسلَمُ القَلبُ مِن غِلٍّ أَلَمَّ بِهِ   يَنقى الأَدِيمُ وَيَبقى مَوضِعُ الحَلَمِ
وَالحِقدُ كَالنّارِ إِن أَخفَيتَهُ ظَهَرَت   مِنهُ عَلائِمُ فَوقَ الوَجهِ كَالحُمَمِ
لا يُبصِرُ الحَقَّ مَن جَهلٌ أَحاطَ بِهِ   وَكَيفَ يُبصِرُ نُورَ الحَقِّ وَهوَ عَمِ
كُلُّ امرِئٍ واجِدٌ ما قَدَّمَت يَدُهُ   إِذا اِستَوى قائِماً مِن هُوَّةِ الأَدَمِ
وَالخَيرُ وَالشَّرُّ فِي الدُّنيا مُكافَأَةٌ   وَالنَّفسُ مَسؤولَةٌ عَن كُلِّ مُجتَرَمِ
فَلا يَنَم ظالِمٌ عَمّا جَنَت يَدُهُ   عَلى العِبادِ فَعَينُ اللَّهِ لَم تَنَمِ
وَلَم يَزَل أَهلُ دِينِ اللَّهِ فِي نَصَب   مِمّا يُلاقُونَ مِن كَربٍ وَمِن زَأَمِ
حَتّى إِذا لَم يَعُد فِي الأَمرِ مُترَعَةٌ   وَأَصبَحَ الشَّرُّ جَهراً غَيرَ مُنكَتِمِ
سارُوا إِلى الهِجرَةِ الأُولى وَما قَصَدوا   غَيرَ النَّجاشِيِّ مَلكاً صادِقَ الذِّمَمِ
فَأَصبَحُوا عِندَهُ فِي ظِلِّ مَملَكَةٍ   حَصِينَةٍ وذِمامٍ غَيرِ مُنجَذِمِ
مَن أَنكَرَ الضَّيمَ لَم يَأنَس بِصُحبَتِهِ   وَمَن أَحاطَت بِهِ الأَهوالُ لَم يُقِمِ
وَمُذ رَأى المُشرِكون الدِّين قَد وضَحَت   سَماؤُهُ وَانجَلَت عَن صِمَّةِ الصِّمَمِ
تَأَلَّبُوا رَغبَةً فِي الشَّرِّ وَائتَمَرُوا   عَلى الصَّحِيفَةِ مِن غَيظٍ وَمِن وَغَمِ
صَحِيفَةٌ وَسَمَت بِالغَدرِ أَوجُهَهُم   وَالغَدرُ يَعلَقُ بِالأَعراضِ كَالدَّسَمِ
فَكَشَّفَ اللَّهُ مِنها غُمَّةً نَزَلَت   بِالمُؤمِنِينَ وَرَبِّي كاشِفُ الغُمَمِ
مَن أَضمَرَ السُّوءَ جازاهُ الإِلَهُ بِهِ   وَمَن رَعى البَغيَ لَم يَسلَم مِنَ النِّقَمِ
كَفى الطُّفَيلَ بنَ عَمرٍو لُمعَةٌ ظَهَرَت   فِي سَوطِهِ فَأَنارَت سُدفَةَ القَتَمِ

هَدى بِها اللَّهُ دَوساً مِن ضَلالَتِها | فَتابَعَت أَمرَ داعِيها وَلَم تَهِمِ
وَفِي الإِراشِيِّ لِلأَقوامِ مُعتَبَرٌ | إِذ جاءَ مَكَّةَ فِي ذَودٍ مِنَ النَّعَمِ
فَباعَها مِن أَبي جَهلٍ فَماطَلَهُ | بِحَقِّهِ وَتَمادى غَيرَ مُحتَشِمِ
فَجاءَ مُنتَصِراً يَشكُو ظُلامَتَهُ | إِلى النَّبِيِّ وَنِعمَ العَونُ في الإِزَمِ
فَقامَ مُبتَدِراً يَسعى لِنُصرَتِهِ | وَنُصرَةُ الحَقِّ شَأنُ المَرءِ ذِي الهِمَمِ
فَدَقَّ بابَ أَبي جَهلٍ فَجاءَ لَهُ | طَوعاً يَجُرُّ عِنانَ الخائِفِ الزَّرِمِ
فَحِينَ لاقى رَسُولَ اللَّهِ لاحَ لَهُ | فَحلٌ يَحُدُّ إِلَيهِ النابَ مِن أَطَمِ
فَهالَهُ ما رَأى فَارتَدَّ مُرتَعِجاً | وَعادَ بالنَّقدِ بَعدَ المَطلِ عَن رَغَمِ
أَتِلكَ أَم حِينَ نادى سَرحَةً فَأَتَت | إِلَيهِ مَنشُورَةَ الأَغصانِ كَالجُمَمِ
حَنَت عَلَيهِ حُنُوَّ الأُمِّ مِن شَفَقٍ | وَرَفرَفَت فَوقَ ذاكَ الحُسنِ مِن رَخَمِ
جاءَتهُ طَوعاً وَعادَت حِينَ قالَ لَها | عُودِي وَلَو خُلِّيَت لِلشَّوقِ لَم تَرِمِ
وَحَبَّذا لَيلَةُ الإِسراءِ حِينَ سَرى | لَيلاً إِلى المَسجِدِ الأَقصى بِلا أَتَمِ
رَأى بِهِ مِن كِرامِ الرُّسلِ طائِفَةً | فَأَمَّهُم ثُمَّ صَلّى خاشِعاً بِهِمِ
بَل حَبَّذا نَهضَةُ المِعراجِ حِينَ سَما | بِهِ إِلى مَشهَدٍ في العِزِّ لَم يُرَمِ
سَما إِلى الفَلَكِ الأَعلى فَنالَ بِهِ | قَدراً يَجِلُّ عَنِ التَّشبِيهِ في العِظَمِ
وَسارَ في سُبُحاتِ النُّورِ مُرتَقِياً | إِلى مَدارِجَ أَعيَت كُلَّ مُعتَزِمِ
وَفازَ بِالجَوهَرِ المَكنُونِ مِن كَلِمٍ | لَيسَت إِذا قُرِنَت بِالوَصفِ كَالكَلِمِ
سِرٌّ تَحارُ بِهِ الأَلبابُ قاصِرَةً | وَنِعمَةٌ لَم تَكُن في الدَّهرِ كَالنِّعَمِ
هَيهاتَ يَبلُغُ فَهمٌ كُنهَ ما بَلَغَت | قُرباهُ مِنهُ وَقَد ناجاهُ مِن أَمَمِ
فَيا لَها وُصلَةً نالَ الحَبِيبُ بِها | ما لَم يَنَلهُ مِنَ التَّكرِيمِ ذُو نَسَمِ
فاقَت جَمِيعَ اللَّيالي فَهيَ زاهِرَةٌ | بِحُسنِها كَزُهُورِ النّارِ في العَلَمِ
هَذا وَقَد فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاةَ عَلى | عِبادِهِ وَهَداهُم واضِحَ اللَّقَمِ
فَسارَعُوا نَحوَ دِينِ اللَّهِ وَانتَصَبُوا | إِلى العِبادَةِ لا يَأْلُونَ مِن سَأَمِ

وَلَم يَزَل سَيِّدُ الكَونَينِ مُنتَصِباً ... لِدَعوَةِ الدِّين لَم يَفتر وَلَم يَجِمِ
يَستَقبِلُ النّاسَ في بَدوٍ وَفي حَضَرٍ ... وَيَنشُرُ الدِّينَ في سَهلٍ وَفي عَلَمِ
حَتّى اِستَجابَت لَهُ الأَنصارُ وَاِعتَصَمُوا ... بِحَبلِهِ عَن تَراضٍ خَيرَ مُعتَصَمِ
فَاِستَكمَلَت بِهِمُ الدُّنيا نَضارَتَها ... وَأَصبَحَ الدينُ في جَمعٍ بِهِم تَمَمِ
قَومٌ أَقَرُّوا عِمادَ الحَقِّ وَاِصطَلَمُوا ... بِبَأسِهِم كُلَّ جَبّارٍ وَمُصطَلِمِ
فَكَم بِهِم أَشرَقَت أَستارُ داجِيَةٍ ... وَكَم بِهِم خَمَدَت أَنفاسُ مُختَصِمِ
فَحِينَ وافى قُرَيشاً ذِكرُ بَيعَتِهِم ... ثارُوا إِلى الشَّرِّ فِعلَ الجاهِلِ العَرِمِ
وَبادَهُوا أَهلَ دِينِ اللَهِ وَاِهتَضَمُوا ... حُقُوقَهُم بِالتَّمادِي شَرَّ مُهتَضَمِ
فَكَم تَرى مِن أَسِيرٍ لا حِراكَ بِهِ ... وَشارِدٍ سارَ مِن فَجٍّ إِلى أَكَمِ
فَهاجَرَ الصَّحبُ إِذ قالَ الرَّسُولُ لَهُم ... سِيرُوا إِلى طَيبَةَ المَرعِيَّةِ الحُرَمِ
وَظَلَّ في مَكَّةَ المُختارُ مُنتَظِراً ... إِذناً مِنَ اللَهِ في سَيرٍ وَمُعتَزَمِ
فَأَوجَسَت خيفَةً مِنهُ قُرَيشُ وَلَم ... تَقبَل نَصِيحاً وَلَم تَرجِع إِلى فَهَمِ
فَاِستَجمَعَت عُصَباً في دارِ نَدوَتِها ... تَبغي بِهِ الشَّرَّ مِن حِقدٍ وَمِن أَضَمِ
وَلَو دَرَت أَنَّها فِيما تُحاوِلُهُ ... مَخذولَةٌ لَم تَسُم في مَرتَعٍ وَخِمِ
أَولى لَها ثُمَّ أَولى أَن يَحيقَ بِها ... ما أَضمَرَتهُ مِنَ البَأساءِ وَالشَّجَمِ
إِنّي لَأَعجَبُ مِن قَومٍ أُولي فِطَنٍ ... باعُوا النُّهى بِالعَمى وَالسَّمعَ بِالصَّمَمِ
يَعصُونَ خالِقَهُم جَهلاً بِقُدرَتِهِ ... وَيَعكُفُونَ عَلى الطاغُوتِ وَالصَّنَمِ
فَأَجمَعُوا أَمرَهُم أَن يَبغَتُوهُ إِذا ... جَنَّ الظَّلامُ وَخَفَّت وَطأَةُ القَدَمِ
وَأَقبَلُوا مَوهِناً في عُصبَةٍ غُدُرٍ ... مِنَ القَبائِلِ باعُوا النَّفسَ بِالزَّعَمِ
فَجاءَ جِبريلُ لِلهادِي فَأَنبَأَهُ ... بِما أَسَرُّوهُ بَعدَ العَهدِ وَالقَسَمِ
فَمُذ رَآهُم قِياماً حَولَ مَأمَنِهِ ... يَبغُونَ ساحَتَهُ بِالشَّرِّ وَالفَقَمِ
نادى عَلِيّاً فَأَوصاهُ وَقالَ لَهُ ... لا تَخشَ وَالبَس رِدائي آمِناً وَنَمِ
وَمَرَّ بِالقَومِ يَتلُو وَهوَ مُنصَرِفٌ ... يَس وَهيَ شِفاءُ النَّفسِ مِن وَصَمِ

فَلَم يَرَوهُ وَزاغَت عَنهُ أَعيُنُهُم ... وَهَل تَرى الشَّمس جَهراً أَعيُنُ الحَنَمِ

وَجاءَهُ الوَحيُ إِيذاناً بِهِجرَتِهِ ... فَيَمَّمَ الغارَ بِالصِّدّيقِ في الغَسَمِ

فَما اِستَقَرَّ بِهِ حَتّى تَبَوَّأَهُ ... مِنَ الحَمائِمِ زَوجٌ بارِعُ الرَّنَمِ

بَنى بِهِ عُشَّهُ وَاِحتَلَّهُ سَكناً ... يَأوي إِلَيهِ غَداةَ الرّيحِ وَالرِّهَمِ

إِلفانِ ما جَمَعَ المِقدارُ بَينَهُما ... إِلّا لِسِرٍّ بِصَدرِ الغارِ مُكتَتَمِ

كِلاهُما دَيدَبانٌ فَوقَ مَربَأَةٍ ... يَرعى المَسالِكَ مِن بُعدٍ وَلَم يَنَمِ

إِن حَنَّ هَذا غَراماً أَو دَعا طَرَباً ... باسمِ الهَديلِ أَجابَت تِلكَ بِالنَّغَمِ

يَخالُها مَن يَراها وَهيَ جاثِمَةٌ ... في وَكرِها كُرَةً مَلساءَ مِن أَدَمِ

إِن رَفرَفَت سَكَنَت ظِلّاً وَإِن هَبَطَت ... رَوَت غَليلَ الصَّدى مِن حائِرٍ شَبِمِ

مَرقومَةُ الجيدِ مِن مِسكٍ وَغالِيَةٍ ... مَخضوبَةُ الساقِ وَالكَفَّينِ بِالعَنَمِ

كَأَنَّما شَرَعَت في قانِيءٍ سَرِب ... مِن أَدمُعِي فَغَدَت مُحمَرَّةَ القَدَمِ

وَسَجفَ العَنكَبوتُ الغارَ مُحتَفِياً ... بِخَيمَةٍ حاكَها مِن أَبدَعِ الخِيَمِ

قَد شَدَّ أَطنابَها فَاِستَحكَمَت وَرَسَت ... بِالأَرضِ لَكِنَّها قامَت بِلا دِعَمِ

كَأَنَّها سابِرِيٌّ حاكَهُ لَبِقٌ ... بِأَرضِ سابورَ في بُحبوحَةِ العَجَمِ

وارَت فَمَ الغارِ عَن عَينٍ تُلِمُّ بِهِ ... فَصارَ يَحكي خَفاءً وَجهَ مُلتَثِمِ

فَيا لَهُ مِن سِتارٍ دونَهُ قَمَرٌ ... يَجلو البَصائِرَ مِن ظُلمٍ وَمِن ظُلَمِ

فَظَلَّ فيهِ رَسولُ اللَّهِ مُعتَكِفاً ... كَالدُّرِّ في البَحرِ أَو كَالشَمسِ في الغُسَمِ

حَتّى إِذا سَكَنَ الإِرجافُ وَاِحتَرَقَت ... أَكبادُ قَومٍ بِنارِ اليَأسِ وَالوَغَمِ

أَوحى الرَّسولُ بِإِعدادِ الرَّحيلِ إِلى ... مَن عِندَهُ السِّرُّ مِن خِلٍّ وَمِن حَشَمِ

وَسارَ بَعدَ ثَلاثٍ مِن مَباءَتِهِ ... يَؤُمُّ طَيبَةَ مَأوى كُلِّ مُعتَصِمِ

فَحِينَ وافى قُدَيداً حَلَّ مَوكِبُهُ ... بِأُمِّ مَعبَدَ ذاتِ الشّاءِ وَالغَنَمِ

فَلَم تَجِد لِقِراهُ غَيرَ ضائِنَةٍ ... قَدِ اقشَعَرَّت مَراعِيها فَلَم تَسُمِ

فَما أَمَرَّ عَلَيها داعِياً يَدَهُ ... حَتّى اِستَهَلَّت بِذي شَخبَينِ كَالدِّيَمِ

ثُمَّ اِستَقَلَّ وَأَبقى في الزَّمانِ لَها   ذِكراً يَسيرُ عَلى الآفاقِ كَالنَّسَمِ
فَبَينَما هُوَ يَطوي البيدَ أَدرَكَهُ   رَكضاً سُراقَةُ مِثلَ القَشعَمِ الضَّرِمِ
حَتّى إِذا ما دَنا ساخَ الجَوادُ بِهِ   في بُرقَةٍ فَهَوى لِلسّاقِ وَالقَدَمِ
فَصاحَ مُبتَهِلاً يَرجو الأَمانَ وَلَو   مَضى عَلى عَزمِهِ لانهارَ في رَجَمِ
وَكَيفَ يَبلُغُ أَمراً دونَهُ وَزَرٌ   مِنَ العِنايَةِ لَم يَبلُغهُ ذو نَسَمِ
فَكَفَّ عَنهُ رَسولُ اللَّهِ وَهوَ بِهِ   أَدرى وَكَم نِقَمٍ تفتَرُّ عَن نِعَمِ
وَلَم يَزَل سائِراً حَتّى أَنافَ عَلى   أَعلامِ طَيبَةَ ذاتِ المَنظَرِ العَمَمِ
أَعظِم بِمَقدَمِهِ فَخراً وَمَنقَبَةً   لِمَعشَرِ الأَوسِ وَالأَحياءِ مِن جُشَمِ
فَخرٌ يَدومُ لَهُم فَضلٌ بِذِكرَتِهِ   ما سارَتِ العيسُ بِالزُّوّارِ لِلحَرَمِ
يَومٌ بِهِ أَرَّخَ الإِسلامُ غُرَّتَهُ   وَأَدرَكَ الدّينُ فيهِ ذِروَةَ النُّجُمِ
ثُمَّ اِبتَنى سَيِّدُ الكَونَينِ مَسجِدَهُ   بُنيانَ عِزٍّ فَأَضحى قائِمَ الدّعَمِ
وَاِختَصَّ فيهِ بِلالاً بِالأَذانِ وَما   يُلفى نَظيرٌ لَهُ في نَبرَةِ النَّغَمِ
حَتّى إِذا تَمَّ أَمرُ اللَّهِ وَاِجتَمَعَت   لَهُ القَبائِلُ مِن بُعدٍ وَمِن زَمَمِ
قامَ النَّبِيُّ خَطيباً فيهِمُ فَأَرى   نَهجَ الهُدى وَنَهى عَن كُلِّ مُجتَرَمِ
وَعَمَّهُم بِكِتابٍ حَضَّ فيهِ عَلى   مَحاسِنِ الفَضلِ وَالآدابِ وَالشِّيَمِ
فَأَصبَحوا في إِخاءٍ غَيرِ مُنصَدِعٍ   عَلى الزَّمانِ وَعِزٍّ غَيرِ مُنهَدِمِ
وَحينَ آخى رَسولُ اللَّهِ بَينَهُمُ   آخى عَلِيّاً وَنِعمَ العَونُ في القُحَمِ
هُوَ الَّذي هَزَمَ اللَّهُ الطُغاةَ بِهِ   في كُلِّ مُعتَرَكٍ بِالبيضِ مُحتَدِمِ
فَاِستَحكَمَ الدّينُ وَاِشتَدَّت دَعائِمُهُ   حَتّى غَدا واضِحَ العِرنينِ ذا شَمَمِ
وَأَصبَحَ الناسُ إِخواناً وَعَمَّهُمُ   فَضلٌ مِنَ اللَّهِ أَحياهُم مِنَ العَدَمِ

سكت البابا قليلا، ثم قال: ثم عد الشاعر مفصلا مغازي رسول الله ﷺ [1].. ثم قال بعدها:

---

(١) سنتحدث بتفصيل عن مغازي رسول الله ﷺ وعلاقتها بالسلام والشبهات المثارة حولها في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

فَهَذِهِ الغَزَواتُ الغُرُّ شامِلَةً   جَمعَ البُعُوثِ كَدُرٍّ لاحَ في نُظُمِ
نَظَمتُها راجِياً نَيلَ الشَّفاعَةِ مِن   خَيرِ البَرايا وَمَولى العُربِ وَالعَجَمِ
هُوَ النَّبِيُّ الَّذي لَولاهُ ما قُبِلَت   رَجاةُ آدمَ لَمّا زَلَّ في القِدَمِ
حَسبِي بِطَلعَتِهِ الغَرّاءِ مَفخَرَةً   لَمّا اِلتَقَيتُ بِهِ في عالَمِ الحُلُمِ
وَقَد حَبانِي عَصاهُ فَاِعتَصَمتُ بِها   في كُلِّ هَولٍ فَلَم أَفزَع وَلَم أَهِمِ
فَهيَ الَّتي كانَ يَحبُو مِثلَها كَرَماً   لِمَن يَوَدُّ وَحَسبِي نِسبَةً بِهِمِ
لَم أَخشَ مِن بَعدِها ما كُنتُ أَحذَرُهُ   وَكَيفَ وَهيَ الَّتي تُنجي مِنَ الغُمَمِ
كَفى بِها نِعمَةً تَعلُو بِقيمَتِها   نَفسي وَإِن كُنتُ مَسلوباً مِنَ القِيَمِ
وَما أُبَرِّئُ نَفسي وَهيَ آمِرَةٌ   بالسُّوءِ ما لَم تَعُقها خيفَةُ النَّدَمِ
فَيا نَدامَةَ نَفسي في المَعادِ إِذا   تَعَوَّذَ المَرءُ خَوفَ النُّطقِ بِالبَكَمِ
لَكِنَّني وَاثِقٌ بِالعَفوِ مِن مَلِكٍ   يَعفُو بِرَحمَتِهِ عَن كُلِّ مُجتَرِمِ
وَسَوفَ أَبلُغُ آمالي وَإِن عَظُمَت   جَرائِمي يَومَ أَلقى صاحِبَ العَلَمِ
هُوَ الَّذي يَنعَشُ المَكرُوبَ إِذ عَلِقَت   بِهِ الرَّزايا وَيُغني كُلَّ ذي عَدَمِ
هَيهاتَ يَخذُلُ مَولاهُ وَشاعِرَهُ   في الحَشرِ وَهوَ كَريمُ النَّفسِ وَالشِّيَمِ
فَمَدحُهُ رَأسُ مالي يَومَ مُفتَقَري   وَحُبُّهُ عِزُّ نَفسي عِندَ مُهتَضَمي
وَهَبتُ نَفسي لَهُ حُبّاً وَتَكرِمَةً   فَهَل تَراني بَلَغتُ السُّؤلَ مِن سَلَمي
إِنّي وَإِن مالَ بي دَهري وَبَرَّحَ بي   ضَيمٌ أَشاطَ عَلى جَمرِ النَّوى أَدَمي
لَثابِتُ العَهدِ لَم يَحلُل قُوى أَمَلي   يَأسٌ وَلَم تَخطُ بي في سَلوَةٍ قَدَمي
لَم يَترُكِ الدَّهرُ لي ما أَستَعِينُ بِهِ   عَلى التَّجَمُّلِ إِلّا ساعِدي وَفَمي
هَذا يُحَبِّرُ مَدحي في الرَّسولِ وَذا   يَتلُو عَلى الناسِ ما أُوحيهِ مِن كَلِمي
يا سَيِّدَ الكَونِ عَفواً إِن أَثِمتُ فَلي   بِحُبِّكُم صِلَةٌ تُغني عَنِ الرَّحِمِ
كَفى بِسَلمانَ لي فَخراً إِذا انتَسَبَت   نَفسي لَكُم مِثلَهُ في زُمرَةِ الحَشَمِ
وَحُسنُ ظَنّي بِكُم إِن مُتُّ يَكلَؤُني   مِن هَولِ ما أَتَّقي في ظُلمَةِ الرَّجَمِ

تَاللَّهِ ما عاقَنِي عَن حَيِّكُم شَجَنٌ لَكِنَّنِي مُوثَقٌ فِي رِبقَةِ السَّلَمِ
فَهَل إِلى زَورَةٍ يَحيا الفُؤادُ بِها ذَرِيعَةٌ أَبتَغِيها قَبلَ مُختَرَمِي
شَكَوتُ بَثِّي إِلى رَبِّي لِيُنصِفَنِي مِن كُلِّ باغٍ عَتِيدِ الجَورِ أوهكم
وَكَيفَ أَرهَبُ حَيفاً وَهوَ مُنتَقِمٌ يَهابُهُ كُلُّ جَبّارٍ وَمُنتَقِمِ
لا غَروَ إِن نِلتُ ما أَمَّلتُ مِنهُ فَقَد أَنزَلتُ مُعظَمَ آمالِي بِذِي كَرَمِ
يا مالِكَ المُلكِ هَب لِي مِنكَ مَغفِرَةً تَمحُو ذُنُوبِي غَداةَ الخَوفِ وَالنَّدَمِ
وَامنُن عَلَيَّ بِلُطفٍ مِنكَ يَعصِمُنِي زَيغَ النُّهى يَومَ أَخذِ المَوتِ بِالكَظَمِ
لَم أَدعُ غَيرَكَ فِيما نابَنِي فَقِنِي شَرَّ العَواقِبِ وَاحفَظنِي مِنَ التُّهَمِ
حاشا لِراجِيكَ أَن يَخشى العِثارَ وَما بَعدَ الرَّجاءِ سِوى التَّوفِيقِ لِلسَّلَمِ
وَكَيفَ أَخشى ضَلالاً بَعدَما سَلَكَت نَفسِي بِنُورِ الهُدى فِي مَسلَكٍ قِيَمِ
وَلِي بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ مَترِلَةٌ أَرجُو بِها الصَّفحَ يَومَ الدِّينِ عَن جُرُمِي
لا أَدَّعِي عِصمَةً لَكِن يَدِي عَلِقَت بِسَيِّدٍ مَن يَرِد مَرعاتَهُ يَسُمِ
خَدَمتُهُ بِمَدِيحِي فَاعتَلَوتُ عَلى هامِ السِّماكِ وَصارَ السَّعدُ مِن خَدَمِي
وَكَيفَ أَرهَبُ ضَيماً بَعدَ خِدمَتِهِ وَخادِمُ السّادَةِ الأَجوادِ لَم يُضَمِ
أَم كَيفَ يَخذُلُنِي مِن بَعدِ تَسمِيَتِي باسمٍ لَهُ فِي سَماءِ العَرشِ مُحتَرَمِ
أَبكانِيَ الدَّهرُ حَتّى إِذ لَجِئتُ بِهِ حَنا عَلَيَّ وَأَبدى ثَغرَ مُبتَسِمِ
فَهوَ الَّذِي يَمنَحُ العافِينَ ما سَأَلُوا فَضلاً وَيَشفَعُ يَومَ الدِّينِ فِي الأُمَمِ
نُورٌ لِمُقتَبِسٍ ذُخرٌ لِمُلتَمِسٍ حِرزٌ لِمُبتَئِسٍ كَهفٌ لِمُعتَصِمِ
بَثَّ الرَّدى وَالنَّدى شَطرَينِ فَانبَعَثا فِيمَن غَوى وَهَدى بِالبُؤسِ وَالنِّعَمِ
فَالكُفرُ مِن بَأسِهِ المَشهُورِ فِي حَرَبٍ وَالدِّينُ مِن عَدلِهِ المَأثُورِ فِي حَرَمِ
هَذا ثَنائِي وَإِن قَصَّرتُ فِيهِ فَلِي عُذرٌ وَأَينَ السُّها مِن كَفِّ مُستَلِمِ
هَيهاتَ أَبلُغُ بِالأَشعارِ مِدحَتَهُ وَإِن سَلَكتُ سَبِيلَ القالَةِ القُدُمِ
ماذا عَسى أَن يَقُولَ المادِحُونَ وَقَد أَثنى عَلَيهِ بِفَضلٍ مُترِلُ الكَلِمِ

فَهاكَها يا رَسُولَ اللَّهِ زاهِرَةً   تُهدِي إلى النَّفسِ رَيّا الآسِ وَالبَرَمِ
وَسمتُها باسمِكَ العالي فَأَلبَسَنها   ثَوباً مِنَ الفَخرِ لا يَبلى عَلى القِدَمِ
غَرِيبَةٌ في إِسارِ البَينِ لَو أَنِسَت   بِنَظرَةٍ مِنكَ لاستَغنَت عَنِ النَّسَمِ
لَم أَلتَزِم نَظمَ حَبّاتِ البَدِيعِ بِها   إِذ كانَ صَوغُ المَعانِي الغُرِّ مُلتَزِمِي
وَإِنَّما هِيَ أَبياتٌ رَجَوتُ بِها   نَيلَ المُنى يَومَ تَحيا بَذَّةُ الرِّمَمِ
نَثَرتُ فِيها فَرِيدَ المَدحِ فَانتَظَمَت   أَحسِن بِمُنتَثِرٍ مِنها وَمُنتَظِمِ
صَدَّرتُها بِنَسِيبٍ شَفَّ باطِنُهُ   عَن عِفَّةٍ لَم يَشِنها قَولُ مُتَّهِمِ
لَم أَتَّخِذهُ جُزافاً بَل سَلَكتُ بِهِ   فِي القَولِ مَسلَكَ أَقوامٍ ذَوِي قَدَمِ
تابَعتُ كَعباً وَحَسّاناً وَلِي بِهِما   في القَولِ أُسوَةُ بَرٍّ غَيرِ مُتَّهَمِ
وَالشِّعرُ مَعرَضُ أَلبابٍ يُرُوجُ بِهِ   ما نَمَّقَتهُ يَدُ الآدابِ وَالحِكَمِ
فَلا يَلُمنِي عَلى التَّشبِيبِ ذُو عَنَتٍ   فَبُلبُلُ الرَّوضِ مَطبُوعٌ عَلى النَّغَمِ
وَلَيسَ لِي رَوضَةٌ أَلهُو بِزَهرَتِها   في مَعرَضِ القَولِ إِلّا رَوضَةُ الحَرَمِ
فَهيَ الَّتِي تَيَّمَت قَلبِي وَهِمتُ بِها   وَجداً وَإِن كُنتُ عَفَّ النَّفسِ لَم أَهِمِ
مَعاهِدٌ نَقَشَت في وَجنَتَيَّ لَها   أَيدِي الهَوى أَسطُراً مِن عَبرَتِي بِدَمِ
يا حادِيَ العِيسِ إِن بَلَّغتَنِي أَمَلِي   مِن قَصدِهِ فَاقتَرِح ما شِئتَ وَاحتَكِمِ
سِر بِالمَطايا وَلا تَرفَق فَلَيسَ فَتىً   أَولى بِهَذا السُّرى مِن سائِقٍ حُطَمِ
وَلا تَخَف ضَلَّةً وَانظُر فَسَوفَ تَرى   نُوراً يُرِيكَ مَدَبَّ الذَّرِّ فِي الأَكَمِ
وَكَيفَ يَخشى ضَلالاً مَن يَؤُمُّ حِمى   مُحَمَّدٍ وَهوَ مِشكاةٌ عَلى عَلَمِ
هَذِي مُنايَ وَحَسبِي أَن أَفُوزَ بِها   بِنِعمَةِ اللَّهِ قَبلَ الشَّيبِ وَالهَرَمِ
وَمَن يَكُن راجِياً مَولاهُ نالَ بِهِ   ما لَم يَنَلهُ بِفَضلِ الجِدِّ وَالهِمَمِ
فاسجُد لَهُ وَاقتَرِب تَبلُغ بِطاعَتِهِ   ما شِئتَ في الدَّهرِ مِن جاهٍ وَمِن عِظَمِ
هُوَ المَلِيكُ الَّذِي ذَلَّت لِعِزَّتِهِ   أَهلُ المَصانِعِ مِن عادٍ وَمِن إِرَمِ
يُحيِي البَرايا إِذا حانَ المَعادُ كَما   يُحيِي النَّباتَ بِشُؤبُوبٍ مِنَ الدِّيَمِ

يَـــا غَـــافِرَ الــــذَّنبِ وَالأَلبـــابُ حَـــائِرَةٌ في الحَشْـــرِ وَالنــــارُ تَرمـــي الجَـــوَّ بِالضَّـــرَمِ
حاشَـــا لِفَضـــلِكَ وَهـــوَ المُســـتَعاذُ بِـــهِ أَن لا تَمُـــــنَّ عَلـــى ذِي خَلَّـــةٍ عَــــدِمِ
إِنِّـــي لَمُستَشـــفِعٌ بِالمُصـــطَفى وَكَفـــى بِـــهِ شَـــفِيعاً لَـــدى الأَهـــوالِ وَالقُحَـــمِ
فَاقبَـــل رَجـــائِي فَمـــالي مَـــن أَلـــوذُ بِـــهِ سِـــواكَ في كُـــلِّ مـــا أَخشـــاهُ مِـــن فَقَـــمِ
وَصَـــلِّ رَبِّ عَلـــى المُختـــارِ مـــا طَلَعَـــت شَـــمسُ النَّهـــارِ وَلاحَـــت أَنجُـــمُ الظُّلَـــمِ
وَالآلِ وَالصَّـــحبِ وَالأَنصـــارِ مَـــن تَبِعُـــوا هُـــداهُ وَاعتَرَفـــوا بِالعَهـــدِ وَالـــذِّمَمِ
وَامـــنُن عَلـــى عَبـــدِكَ العـــاني بِمَغفِـــرَةٍ تَمحُـــو خَطايـــاهُ في بَـــدءٍ وَمُختَـــتَمِ

قلت: بورك في هذا الشاعر الفاضل.. لقد تألم المسكين كثيرا في حياته.

قال: من قال مثل هذه الأبيات لا يتألم.. فالحب إكسير أحمر يحول الألم لذة.. والتعب راحة.. والحزن سرورا.

قلت: صدقت.. ومذ هجر الناس هذا الحب الشريف وقعوا ضحية للمخدرات والخمور والليالي الماجنة..

قال: وفوق ذلك صرتم تسمعون بالانتحار الذي لم يسمع به أسلافكم.

قلت: فهل ترى نشر مثل هذا الحب الشريف يقي الأمة مثل هذه الأوباء؟

قال: لا يقيها فقط.. بل يرفعها لتعتلي عرش الحضارة الذي نزلت منه بعد هجرها لحبيبها.

أحمد شوقي:

قلت: لاشك أن من أكبر المعارضين للبردة أحمد شوقي.

قال: أجل.. فله في ذلك قصيدته العصماء (نهج البردة) والتى صاغها على نسق البردة للإمام البوصيرى.

قلت: لقد كان شوقى ذا ذوق رفيع وأدب عال جعله يعترف بأفضلية الإمام البوصيرى، وسبقه عليه، فقال:

يـــا أحمـــد الخـــير، لى جـــاه بتســـميتى وكيـــف لا يتســـامى بـــالنبى سمـــى؟
المادحونوأربـــاب الهـــوى تبـــع لصـــاحب الـــبردة الفيحـــاء ذى القـــدم
مديحـــه فيـــك حـــب خـــالص وهـــى وصـــادق الحـــب يملـــى صـــادق الكلـــم
الله يشـــهد أنى لا أعارضـــه مـــن ذا يعـــارض صـــوب العـــارض العمـــم
و إنمـــا أنـــا بعـــض الغـــابطينومن يغـــبط وليـــك لا يـــذمولا يُلـــم

قال: أجل.. ومما ورد فيها من مدح النبي ﷺ:

لزمتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ، ومَنْ   يُمْسِكْ بمفتاحِ بابِ الله يغتنمِ

فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارفةٍ   ما بين مستلمٍ منه ومُلتزمِ

علقتُ من مدحهِ حبلاً أعزُّ به   في يوم لا عِزَّ بالأنسابِ واللُّحَمِ

يُزري قَريضِي زُهَيْرًا حين أمدحُه   ولا يقاسُ إلى جودي لدَى هَرِمِ

محمدٌ صفوةُ الباري، ورحمتُه   وبغيَةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ

وصاحبُ الحوض يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ   متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمينُ ظَمِي

سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةً   فالجِرمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلَمِ

قد أخطأ النجمَ ما نالت أُبوَّتُه   من سؤددٍ باذخ في مظهَرٍ سَنِمِ

نُمُوا إليه، فزادوا في الورَى شرَفًا   ورُبَّ أصلٍ لفرع في الفخارِ نُمي

حَوَاه في سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم   نوران قاما مقام الصُّلب والرَّحِمِ

لما رآه بَحيرا قال: نعرِفُه   بما حفظنا من الأسماءِ والسِّيَمِ

سائلْ حِراءَ، وروحَ القدس: هل عَلما   مَصونَ سِرٍّ عن الإدراكِ مُنْكَتِمِ؟

كم جيئةٍ وذهابٍ شُرِّفتْ بهما   بَطحاءُ مكةَ في الإصباح والغَسَمِ

ووحشةٍ لابنِ عبد الله بينهما   أشهى من الأُنس بالأحباب والحشَمِ

يُسامِر الوحيَ فيها قبل مهبطه   ومَن يبشِّرْ بسِيمَى الخير يَتَّسِمِ

لما دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظمإٍ   فاضتْ يداه من التسنيم بالسَّنِمِ

وظَلَّلته، فصارت تستظلُّ به   غمامةٌ جذَبَتْها خِيرةُ الدِيَمِ

محبةٌ لرسولِ الله أُشرِبَها   قعائدُ الدَّيْرِ، والرُّهبانُ في القِمَمِ

إنّ الشمائلَ إن رَقَّتْ يكاد بها   يُغْرَى الجَمادُ، ويُغْرَى كلُّ ذي نَسَمِ

ونُودِيَ: اقرأْ. تعالى اللهُ قائلُها   لم تتصلْ قبل مَن قيلتْ له بفمِ

هناك أَذَّنَ للرحمنِ، فامتلأتْ   أسماعُ مكّةَ مِن قُدسيّة النَّغمِ

فلا تسلْ عن قريش كيف حَيْرتُها   وكيف نُفْرتُها في السهل والعَلَمِ؟

تساءَلوا عن عظيمٍ قد ألَمَّ بهم   رمَى المشايخَ والولدانَ باللَّمَمِ

يا جاهلين على الهادي ودعوتِه   هل تجهلون مكانَ الصادقِ العَلَمِ؟

لقَّبتموهُ أمينَ القومِ في صِغرٍ   وما الأمينُ على قوْلٍ بمتّهَمِ

فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ، فكمْ   بالخُلْق والخَلق مِن حسْنٍ ومِن عِظمِ

جاءَ النبيون بالآياتِ، فانصرمت   وجئتنا بحكيمٍ غيرِ مُنصَرمِ

آياتُه كلّما طالَ المدَى جُدُدٌ   يَزينُهنّ جلالُ العِتق والقِدمِ

يكاد في لفظةٍ منه مشرَّفةٍ   يوصِيك بالحق، والتقوى، وبالرحمِ

يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً   حديثُك الشّهدُ عند الذائقِ الفهِمِ

حَلَّيتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيانِ به   في كلِّ مُنتَثِرٍ في حسن مُنتظِمِ

بكلِّ قولٍ كريمٍ أنت قائلُه   تُحْيي القلوبَ، وتُحْيي ميِّتَ الهِممِ

سَرَتْ بشائِرُ بالهادي ومولِده   في الشرق والغرب مَسْرى النور في الظلمِ

تخطَّفتْ مُهَجَ الطاغين من عربٍ   وطيَّرت أنفُسَ الباغين من عجمِ

رِيعت لها شُرَفُ الإيوان، فانصدعت   من صدمة الحق، لا من صدمة القُدمِ

أتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بهم   إلاّ على صَنم، قد هام في صنمِ

والأرض مملوءَةٌ جورًا، مُسَخَّرَةٌ   لكلّ طاغيةٍ في الخَلْق مُحتكِمِ

مُسَيْطِرُ الفرْسِ يبغي في رعيّتهِ   وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ

يُعذِّبان عبادَ اللهِ في شُبهٍ   ويذبَحان كما ضحَّيتَ بالغَنَمِ

والخلقُ يَفْتِك أقواهم بأضعفِهم   كاللَّيث بالبَهْم، أو كالحوتِ بالبَلَمِ

أسرَى بك اللهُ ليلاً، إذ ملائكُه   والرُّسْلُ في المسجد الأقصى على قدَمِ

لما خطرتَ به التفُّوا بسيدِهم   كالشُّهْبِ بالبدرِ، أو كالجُند بالعَلَمِ

صلى وراءَك منهم كلُّ ذي خطرٍ   ومن يفُز بحبيب الله يأْتمِ

جُبْتَ السمواتِ أو ما فوقهن بهم   على منوّرةٍ دُرِّيّةِ اللُّجُمِ

رَكوبة لك من عزٍّ ومن شرفٍ   لا في الجيادِ، ولا في الأَيْنُق الرسُمِ

مَشِيئةُ الخالق الباري، وصَنعتُه   وقدرةُ الله فوق الشك والتُّهَمِ

حتى بلغتَ سماءً لا يُطارُ لها ... على جَناحٍ، ولا يُسْعَى على قَدمِ
وقيل: كلٌّ نبيٍّ عند رتبتِه ... ويا محمدُ، هذا العرشُ فاستلمِ
خطَطتَ للدين والدنيا علومَهما ... يا قارئَ اللوح، بل يا لامِسَ القَلمِ
أحطْتَ بينهما بالسرِّ، وانكشفتْ ... لك الخزائنُ من عِلْمٍ، ومن حِكمِ
وضاعَفَ القُربُ ماقُلِّدْتَ من مِنَنٍ ... بلا عِدادٍ، وما طُوِّقتَ من نِعمِ
سلْ عصبةَ الشِّركِ حولَ الغارِ سائمةً ... لولا مطاردةُ المختار لم تُسمِ
هل أبصروا الأَثرَ الوضَّاءَ، أم سمِعوا ... همْسَ التسابيحِ والقرآن من أَمَمِ؟
وهل تمثّل نسجُ العنكبوتِ لهم ... كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ كالرخمِ؟
فأدبروا، ووجوهُ الأَرضِ تلعنُهم ... كباطلٍ من جلالِ الحق منهزِمِ
لولا يدُ اللهِ بالجارَيْنِ ما سلِما ... وعينُه حولَ ركنِ الدين؛ لم يقمِ
توارَيا بجَناح اللهِ، واستترَا ... ومن يضُمُّ جناحُ الله لا يُضَمِ

ومما ورد فيها من وصف النبي ﷺ ورد الشبهات المثارة حول رسالته:

البدرُ دونكَ في حُسنٍ وفي شَرفٍ ... والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمِ
شُمُّ الجبالِ إذا طاولتَها انخفضت ... والأَنجُمُ الزُّهرُ ما واسمتَها تسِمِ
والليثُ دونك بأْسًا عند وثبتِه ... إذا مشيتَ إلى شاكي السلاح كَمِي
تهفو إليكَ - وإن أدميتَ حبَّتَها ... في الحربِ - أفئدةُ الأَبطالِ والبُهَمِ
محبةُ اللهِ ألقاها، وهيبتُه ... على ابنِ آمنةٍ في كلِّ مُصطَدَمِ
كأن وجهَك تحت النَّقْعِ بدرُ دُجًى ... يضيءُ مُلْتَثِمًا، أو غيرَ مُلتثِمِ
بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغُرّتُه ... كغُرَّةِ النصرِ، تجلو داجيَ الظلَمِ
ذُكِرْتَ باليُتْمِ في القرآن تكرمةً ... وقيمةُ اللؤلؤِ المكنونِ في اليُتمِ
اللهُ قسّمَ بين الناسِ رزقَهُمُ ... وأنتَ خُيِّرْتَ في الأرزاق والقِسمِ
إن قلتَ في الأمرِ:"لا"، أو قلتَ فيه: "نعم" ... فخيرَةُ اللهِ في "لا" منك أو "نعم"
أخوك عيسى دَعَا ميْتًا، فقام له ... وأنتَ أحييتَ أجيالاً مِن الرِّممِ

والجهل موتٌ، فإن أُوتيتَ مُعْجِزةً
فابعثْ منالجهل،أو فابعثْ من الرَّجَمِ

قالوا: غَزَوْتَ، ورسْلُ اللهِ ما بُعثوا
لقتْل نفس، ولا جاءُوا لسفكِ دمِ

جهلٌ، وتضليلُ أحلامٍ، وسفسطةٌ
فتحتَ بالسيفِ بعد الفتح بالقلمِ

لما أتى لكَ عفوًا كلُّ ذي حَسَبٍ
تكفَّلَ السيفُ بالجهالِ والعَمَمِ

والشرُّ إن تَلْقَهُ بالخيرِ ضِقتَ به
ذَرْعًا، وإن تَلْقَهُ بالشرِّ يَنحسِمِ

سَلِ المسيحيّةَ الغراءَ: كم شربت
بالصّاب من شَهوات الظالم الغَلِمِ

طريدةُ الشركِ، يؤذيها، ويوسعُها
في كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ

لولا حُماةٌ لها هبُّوا لنصرَتِها
بالسيفِ؛ ما انتفعتْ بالرفق والرُّحَمِ

لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلهِ
وحُرمَةٌ وجبتْ للروح في القِدَمِ

لَسُمِّرَ البدَنُ الطُّهرُ الشريفُ على
لَوْحَيْن، لم يخشَ مؤذيه، ولم يَجِمِ

جلَّ المسيحُ، وذاقَ الصَّلبَ شانئهُ
إن العقابَ بقدرِ الذنبِ والجُرُمِ

أخُو النبي، وروحُ اللهِ في نُزُلٍ
فُوقَ السماءِ ودون العرشِ مُحترَمِ

علَّمْتَهم كلَّ شيءٍ يجهلون به
حتى القتالَ وما فيه من الذِّمَمِ

دعوتَهم لِجهَادٍ فيه سؤددُهُمْ
والحربُ أُسُّ نظامِ الكونِ والأُممِ

لولاه لم نر للدولاتِ في زمنٍ
ما طالَ من عمدٍ، أو قَرَّ من دُهُمِ

تلك الشواهِدُ تَتْرَى كلَّ آونةٍ
في الأَعصُر الغُرِّ،لا في الأعصُر الدُّهُمِ

بالأمس مالت عروشٌ، واعتلت سُرُرٌ
لولا القذائفُ لم تَثْلَمْ، ولم تصمِ

أشياعُ عيسى أعَدُّوا كلَّ قاصمةٍ
ولم نُعِدّ سِوى حالاتِ مُنقصِمِ

مهما دُعِيتَ إلى الهيْجَاءِ قُمْتَ لها
ترمي بأُسْدٍ، ويرمي اللهُ بالرُّجُمِ

على لِوَائِكَ منهم كلُّ مُنتقِمٍ
للهِ، مُستقتِلٍ في اللهِ، مُعتزِمِ

مُسبِّح للقاءِ اللهِ، مُضطرِمٍ
شوقاً، على سابحٍ كالبرْقِ مضطرِمِ

لو صادفَ الدَّهرَ يَبغِي نقلةً، فرمى
بعزمِهِ في رحالِ الدهرِ لم يَرِمِ

بيضٌ، مَفاليلُ من فعلِ الحروبِ بهم
من أَسْيُفِ اللهِ، لا الهندِيةِ الخُذُمِ

كم في التراب إذا فتّشت عن رجلٍ ... من ماتَ بالعهدِ،أو من مات بالقسَمِ
لولا مواهبُ في بعضِ الأنام لما ... تفاوت الناسُ في الأقدار والقِيَمِ
شريعةٌ لك فجرت العقولَ بها ... عن زاخرٍ بصنوفِ العلم ملتطِمِ
يلوحُ حولَ سنا التوحيدِ جوهرُها ... كالحلْي للسيف أو كالوشْي للعَلَمِ
غرّاءُ، حامت عليها أنفسٌ، ونُهًى ... ومن يَجدْ سَلسَلاً من حكمةٍ يَحُمِ
نورُ السبيل يساس العالَمون بها ... تكفّلتْ بشباب الدهرِ والهَرَمِ
يجري الزمّانُ وأحكامُ الزمانِ على ... حُكم لها، نافِذٍ في الخلق، مُرْتَسِمِ
لّما اعْتَلَت دولةُ الإسلامِ واتسَعت ... مشتْ ممالِكُهُ في نورِها التَّممِ
وعلّمتْ أُمةً بالقفر نازلةً ... رعْيَ القياصرِ بعد الشّاءِ والنَّعَمِ
كم شَيَّد المصلِحُون العاملون بها ... في الشرق والغرب مُلكًا باذِخَ العِظَمِ
للعِلم، والعدلِ، والتمدينِ ما عزموا ... من الأُمور، وما شدُّوا من الحُزُمِ
سرعان ما فتحوا الدنيا لِملّتِهم ... وأنهلوا الناسَ من سَلسالها الشَّبِمِ
ساروا عليها هُداةَ الناس، فَهْي بهم ... إلى الفلاحِ طريقٌ واضحُ العَظَمِ
لا يهدِمُ الدَّهرُ رُكنًا شاد عدلُهُمُ ... وحائط البغي إن تلمسْهُ ينهدِمِ
نالوا السعادةَ في الدّارين، واجتمعوا ... على عميم من الرضوان مقتسمِ
دعْ عنك روما، وآثِينا، وما حَوَتا ... كلُّ اليواقيت في بغدادَ والتُّوَمِ
وخلّ كِسرى، وإيوانًا يدِلُّ به ... هوى على أَثَرِ النيران والأيُمِ
واتْرُكْ رعمسيسَ، إن الملكَ مَظهرُهُ ... في نهضة العدل، لا في نهضة الهرَمِ
دارُ الشرائع روما كلّما ذُكرَتْ ... دارُ السلام لها ألقتْ يدَ السَّلَمِ
ما ضارَعَتها بيانًا عند مُلْتَأَمٍ ... ولا حَكَتها قضاءً عند مُختصَمِ
ولا احتوت في طِرازٍ من قياصِرها ... على رشيدٍ، ومأْمونٍ، ومُعتصِمِ
من الذين إذا سارت كتائبُهم ... تصرّفوا بحدود الأرض والتخُمِ
ويجلسونَ إلى علمٍ ومَعرفةٍ ... فلا يُدانَوْن في عقل ولا فَهَمِ

يُطأطئُ العلماءُ الهامَ إن نَبَسُوا … من هيبةِ العلْمِ، لا من هيبة الحُكُمِ
ويُمطِرون، فما بالأرضِ من مَحَلٍ … ولا بمن بات فوق الأرضِ من عُدُمِ
خلائفُ الله جلُّوا عن موازنةٍ … فلا تقيسنّ أملاكَ الورى بهم
مَنْ في البرية كالفاروق مَعْدَلَةً؟ … وكابن عبد العزيز الخاشعِ الحشمِ؟
وكالإمام إذا ما فَضَّ مزدحمًا … بمدمع في مآقي القوم مزدحمِ
الزاخر العذْب في علْم وفي أدبٍ … والناصر النَّدْب في حرب وفي سلمِ؟
أو كابن عفّانَ والقرآنُ في يدِهِ … يحنو عليه كما تحنو على الفُطُمِ
ويجمع الآي ترتيبًا وينظمُها … عقدًا بجيد الليالي غير منفصِمِ؟
جُرحان في كبدِ الإسلام ما التأما … جُرْحُ الشهيد، وجرحٌ بالكتاب دمي
وما بلاءُ أبي بكر بمتَّهم … بعد الجلائل في الأفعال والخِدمِ
بالحزم والعزم حاطَ الدين في محنٍ … أضلَّت الحلم من كهلٍ ومحتلمِ
وحِدْنَ بالراشد الفاروق عن رشدٍ … في الموت، وهو يقينٌ غير منبَهِمِ
يجادِلُ القومَ مُسْتَلاًّ مهنَّدَه … في أعظم الرسْلِ قدرًا، كيف لم يدمِ؟
لا تعذلوه إذا طاف الذهولُ به … مات الحبيبُ، فضلَّ الصَّبُّ عن رَغَمِ
يا ربِّ صَلِّ وسلِّم ما أردتَ على … نزيل عرشِك خيرِ الرسْلِ كلِّهمِ
مُحيي الليالي صلاةً، لا يقطِّعُها … إلاَّ بدمع من الإشفاق مُنسجمِ
مسبِّحًا لك جُنْحَ الليل، محتملاً … ضُرًّا من السُّهد، أو ضُرًّا من الورَمِ
رضيَّة نفسُه، لا تشتكي سأمًا … وما مع الحبِّ إن أخلصت مِن سَأَمِ
وصلِّ ربِّي على آلٍ له نُخَبٍ … جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرمِ
بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهر ذو حَلَكٍ … شُمُّ الأُنوف، وأنفُ الحادثات حمي
وأهد خيرَ صلاةٍ منك أربعةً … في الصحب، صُحبتُهم مَرْعيَّةُ الحُرَمِ
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم … ما هال من جَلَلٍ، واشتد من عَمَمِ
الصابرين ونفسُ الأرض واجفةٌ … الضاحكين إلى الأخطار والقُحَمِ

يـــــا ربِّ، هبـــــتْ شــــعوبٌ مـــــن منيّتـــــها واســـــتيقظت أُمَـــــمٌ مـــــن رقْـــــدة العـــــدمِ
ســــعدٌ، ونحـــــسٌ، ومُلـــــكٌ أنـــــت مالِكــــه تُـــــديلُ مِـــــنْ نِعَـــــم فيـــــه، ومِـــــنْ نِقَـــــمِ
رأى قضـــــــاؤك فينـــــــا رأْيَ حكمتِـــــــه أكـــــرِمْ بوجهـــك مـــــن قـــــاضٍ ومنـــــتقمِ
فـــــالطُفْ لأجـــــلِ رســـــولِ العـــــالمين بنـــــا ولا تـــــزدْ قومَـــــه خســـــفًا، ولا تُســـــمِ
يـــــا ربِّ، أحســــنت بَـــــدءَ المســـــلمين بـــــه فـــــتمِّم الفضـــــلَ، وامـــــنحْ حُســـــنَ مُختَـــــتَمِ

السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي:

قلت: ومن الصالحين الذين سمعت أنهم ساروا على أقدام البردة الشريفة السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي.

قال: أجل.. ذلك الشاعر الصالح المحب..

قلت: فارو لي من قصيدته ما يذكرنا بالحبيب..

قال: لا بأس.. يقول في قصيدته العصماء في مدح حبيبه ﷺ:

أبيـــت أرعـــى نجـــوم الليـــل في الظلـــم لم تغمـــض العـــين مـــن وجـــدي و لم تـــنم
أبيـــت ليلـــي أنـــاجي الشـــهب مرتقبـــاً ضـــوء الصـــباح كملســـوع مـــن الصـــمم
والقلـــب مـــا زال خفّاقـــاً ومضـــطرباً ممـــا احتـــوى مـــن عظـــيم الشـــوق والألم
والعـــين تـــذرف بالـــدمع الغزيـــر أســـى مـــن لوعـــة الوجـــد يحكـــي فـــائض الـــديم
يـــا قلـــب مالـــك طـــول الـــدهر مضـــطرباً لم تســـتفق وإذا قيـــل اســـتفق تهـــم
رميـــتني عامـــداً قصـــداً بـــلا ســـبب هـــل ينبغـــي الرمـــي للأحبـــاب بـــالحمم
رفقـــاً علـــى دنـــف رفقـــاً علـــى كلـــف مـــن الصـــبابة والأشـــواق في ســـقم
ســـقم الصـــبابة في قلـــبي لـــه ضـــرم أواه مـــن لوعـــة الأشـــواق والضـــرم
ليـــت الحـــرارة مـــن قلـــبي قـــد انطفـــأت ياليتـــها أصـــبحت كـــالمورد الشـــبم
أبيـــت ليلـــي مـــن الأشـــواق في قلـــق والقلـــب يخفـــق مـــن شـــجواه كـــالعلم
وجـــدد الوجـــد والأشـــواق مـــذ نظـــرت عينـــاي برقـــاً بـــدا في الليـــل مـــن إضـــم
تـــذكر القلـــب والـــذكرى مهيجـــة أهـــل الحجـــون وأهـــل البـــان والعلـــم
وبـــات لـــيلاً يعـــاني حـــر لوعتـــه وفي عنـــاء مـــن الأشـــجان والســـدم

وحالـــة الصـــب لا تخفـــى علـــى أحـــد ... فـــالعين شـــكرى وقـــد فاضـــت بمنســـجم
وكيـــف يســـتر حبـــاً غـــير مســـتتر ... هيهـــات لـــيس بمخفـــي ومكتـــتم
يـــا عـــاذلاً جـــاء باســـم النصـــح يعـــذلني ... كأنـــــه غـــــير ذي عـــــذل ومتـــــهم
رويـــدك العـــذل لا يـــثني الفـــتى أبـــداً ... عـــن حبـــه فـــانكفف عنـــه ولا تلـــم
لـــو كنـــت تعـــرف أســـرار المحبـــة مـــا ... عذلتـــــه فـــــدع الأســـــرار للفهـــــم
والحـــب ســـر بـــه نفســـي لقـــد علقـــت ... ومـــا بلغـــت لعمـــري حلـــم محـــتلم
والـــنفس إن أصـــبحت في الحـــب مولعـــة ... فـــلا تـــرم كـــبح حـــب الـــنفس بـــاللجم
لا تتـــرك الـــنفس مألوفـــاً لهـــا أبـــداً ... وإن يكـــن يصـــم الإنســـان أو يصـــم
والـــنفس أمـــارة بالســـوء إن جمحـــت ... رمتـــك في حمـــأة أو مـــأزق وخـــم
كالخيـــل إن روضـــت ســـارت بصـــاحبها ... هونـــاً وإن أهملـــت بـــالغير تصـــطدم

ثم يقول:

بســـيد الخلـــق شمـــس الحـــق معتصـــمي ... محمـــــد خـــــير معصـــــوم ومعتصـــــم
لـــــه فـــــررت حبيـــــب الله حجتـــــه ... ومصـــــدر الفضـــــل والعرفـــــان والكـــــرم
أصـــل الوجـــود وروح الكـــون بهجتـــه ... زيـــــن الشـــــمائل والآداب والشـــــيم
مطهـــر الأرض مـــن رجـــس ومـــن درن ... مـــن عابـــدي وثـــن مـــن عابـــدي صـــنم
لله مـــن منقـــذ الإنســـان مـــن ســـقر ... خـــير البريـــة مـــن عـــرب ومـــن عجـــم
لـــولاه مـــا ســـارت الركبـــان عـــن طـــرب ... إلى مدينتـــــه الغـــــراء والحـــــرم
أسمـــى الـــورى فطـــرة أعلاهـــم نســـباً ... أرقـــى الخليقـــة في قـــدس وفي العظـــم
أصـــوله طهـــر المـــولى عقائـــدهم ... طهـــراً جـــرى ســـابقاً مـــن ســـالف القـــدم
كرامـــــة وامتيـــــازاً للحبيـــــب ... عليـــه الله صـــلى عظـــيم الشـــان والهمـــم
مـــن أســـعد الكـــون إســـعاداً وطهـــره ... وســـن أعظـــم ماقـــد ســـن مـــن نظـــم
أتـــى لنـــا بكتـــاب الله معجـــزة ... يهـــدي إلى الرشـــد كـــم يحلـــو بكـــل فـــم
وجـــاء يقـــرؤه باســـم الرشـــاد ... علـــى الوجـــود مـــن كـــان ذا سمـــع وذا صـــمم

سبت عقول بني الإنسان لهجته	لا يستطيع لعمري وصفها قلمي
تفجرت منه أنهار الفصاحة	والبيان والعلم والآداب والحكم
كلامه معجز الله ميزه	وهديه خير هدي للناس كلهم
قد خصه الله بالتقدير قدره	في سابق العلم قد والاه بالنعم
فكل فضل فمن فضل النبي وقل	ماشئت في فضل رب التاج والشمم
تعاظمت أشرقت أرجاء ساحته	بنوره في نواحي الأرض كالنجم
لله مانالـه المختار من شرف	مقامه الفذ لم يدرك و لم يرم
أثنى الإله على أخلاقه وأتى	في سورة النون في الفرقان والقلم
يكفي القرآن ثناء في شمائله	لله ما جاء في القرآن من قسم
لله من قسم مانالـه أحد	لا فخر أرفع من هذا لدى الأمم
وقد دعا أمم الدنيا بأجمعها	وكان ذلك بعد الرعي للغنم
أخلاقه قط لم يظفر بها بشر	رتل شمائله الحسناء بالنغم
أزكى البرية أخلاقاً وأنبلهم	قصداً وأوفاهم بالعهد والذمم
يسدي النوال بلا من يكدره	يحنو على الناس من صحب ومن حشم
وأزهد الخلق في الدنيا وزهرتها	حول الملذات والزينات لم يحم
لم يمتلىء جوفه والله من شبع	وساده حشوه ليف من الأدم
والمال وافاه لكن كان ينفقه	على المقلين من ذي الجوع والعدم
قد ارتضى بحياة الكد عن رغب	من يحذ حذو حياة الطهر يتسم
فكان ميلاده للناس مفخرة	أبان مولده الأسمى عن العظم
فكم غرائب كم من حادث عمم	كسرى رأى ما انجلى من أكبر الجسم
وكيف يرتج إيوان له عمد	وقد مضى وانقضى في الوقت كالحلم
وقدرة الله إن حلت على شرف	دكته دكاً وهدت شامخ الأطم
وأطفئت نار أهل الشرك أطفأها	الرحمن لما عدت مشتدة الحدم

وساء ساوة قد سدت منابعه	فارتاعت الفرس من ذا الخارق العمم
وأيقنت أن أمر الملك منصرم	عنها فباتت تحيل الفكر في غمم
وكان ذلك إرهاصاً لدعوة من	قد عمه الله بالآلاء والعصم
وانقضت الشهب في الجن الذين لهم	نحو السماء صعود ليس بالكتم
طاحت مقاعدهم للسمع فارتعدوا	من ثاقب الشهب حاصوا حيصة النعم
كرامة لرسول الله قد ظهرت	هذي البشارات كانت مبدأ النعم
دعا إلى الله وسط العداة بلا	خوف وأظهره المولى على الخصم
لله من دعوة عظمى لها الأثر	الكبير لله من ذي دعوة قدم
قد أسمعت كل ذي سمع وذي صمم	حتى ربى قاع كل الأرض والقمم
والله يعصمه الله يحرسه	جبريل يخدمه من جملة الخدم
فأخرج الناس من ليل الظلام إلى	النور المبين الذي يهدي إلى اللقم
وفاز بالنجح إذ كانت دعايته	بحكمة فحلا تردادها بفم
وقد رعته عنايات مقدرة	والحمد لله ربي بارىء النسم
سلهم لماذا اجتمعتم حول منزله	عن التزام و لم توفوا بملتزم
حاولتم الفتك لكن خاب سعيكم	وأصبح الشمل منكم غير ملتئم
وسار "طه" وما أغنى تجمهركم	و لم يكن أحد منكم بمنتقم
ونام في الفرش فرش المصطفى بطل	زوج البتول "علي" بذ كل كمي
وطاردوه فلم يلفوا له أثراً	وغار ثور بنسج العنكبوت حمي
في الغار أحمد والصديق قد مكثا	ويمما بلد الأنصار عن رغم
فقوبلا بحفاوات وتكرمة	من معشر بصنوف الخير مزدحم
أكرم بهم وبمن قد فارقوا قدماً	أوطانهم رغبة في فضل ربهم
حب الرسول بقلب الصب ممتزج	بكل جزء سرى في لحمه ودم
وقوله كله دين ومنفعة	في كل مبتدء منه ومختتم

يا أجود الخلق من يسقي بطلعته … صوب الغمام فيزهو النبت في الأكم
أتيتنا بكتاب جل منزله … سبحانه منشيء الإنسان من عدم
يفنى الزمان ولا تفنى عجائبه … تفجر العلم من آذيه العرم
فيه الهدى ولأصناف العلوم حوى … يجري بموج من العرفان ملتطم
بفضل أصحابك الأبطال قد جمعت … آياته وغدت مرعية الحرم
أرضاهم الله مولانا برحمته … قد ألفت آي مولانا بفضلهم
الله أنزله للناس تبصرة … لاريب فيه يقي من زلة القدم
يشفي الصدور وينجي كل معتصم … به ويذهب كل الضيق والسأم
وقد أقر العدا إقرار معترف … بالعجز من غير تحكيم ولا حكم
والإنس والجن لم يقدر مصاقعهم … يأتون بالمثل -قلب القادحين عمي
يشوق الناس تشويقاً ويندبهم … إلى الجنان مع الهادي نبيهم
وتطمئن قلوب المؤمنين به … يجلو صداها كلام الله ربهم
وهو الشفيع لقاريه شفاعته … غداً تنال يقود الناس بالخطم
والمصطفى ترك القرآن واعظنا … أشد آي لديه قوله "استقم"
ما فرط الله شيئاً جل خالقنا … في الذكر سبحان مبدي الخلق من عدم
هو الأمان هو الحرز المكين لنا … فاقصد إليه بصدق العقد واستلم
لقد سريت من البيت الحرام إلى … القدس المبارك في وقت من الغسم
على البراق وقد تم المسير به … للقدس بشرى ل"طه" خير مغتنم
هناك ألفيت رسل الله واقفة … فجئتهم قادماً في مظهر فخم
وقد تقدمت للمحراب فانتظمت … صفوفهم مثل در بان منتظم
صلوا وراءك والأفراح تغمرهم … لأن نورهم من نورك التمم
قد ارتقيت إلى السبع الطباق على … المعراج أكرم سريع الخط والرسم
مازاغ قلبك يا ثبت الجنان لدى … تكليم ربك ذي الإفضال والكرم

رأيـــت آياتـــه الكـــبرى الـــتي بهـــرت   عينـــاك أعطـــاك فضـــلاً غـــير مقتســـم
وقـــد حبـــاك تعـــالى بالصـــلاة فطـــب   بقـــرة العـــين قـــد فزنـــا علـــى الأمـــم
رسمـــــت للنـــــاس دســـــتوراً تكفـــل ب   الفـــلاح فهـــو بـــربي خـــير مرتســـم
يســـــاير العصـــــر في أدوار نهضـــــته   يـــدعو إلى وحـــدة الأفكـــار والســـلم
أيـــدت بالرعـــب مـــن رب الـــورى كرمـــاً   يلقـــاك كـــل العـــدا في موكـــب ســـنم
عصـــابة الشـــرك قـــد حـــارت مـــن ال   قمـــر المنشـــق وهـــو دوامـــاً غـــير منقســـم
وكـــم رأت مدهشـــات منـــه واضـــحة   مـــا قـــد رأتـــه جليـــاً غـــير منبـــهم
لكنـــها نفـــرت عـــن دينـــه حســـداً   كنـــافر الطـــير أو حمـــر مـــن الـــنعم
أدى الرســـالة روح الكـــون كاملـــة   وقـــد مشـــى للـــوغى بالصـــارم الخـــذم
ضـــحى بمـــا عـــز مـــن نفـــس ومـــن نشـــب   بكـــل بشـــر بثغـــر منـــه مبتســـم
وخصـــه الله بالأصـــحاب خـــير فـــدا   ئـــيين في كـــل إقـــدام ومصـــطدم
هـــم أقـــام رســـول الله ملتـــه   لـــولا مجاهـــدة الأصـــحاب لم تقـــم
مـــن كـــل معتـــزم بـــالحزم متســـم   بالصـــدق ملتـــهم نحـــو العـــدا قـــرم
يـــنقض كالبـــاز في الهيجـــاء مختطفـــاً   بســـيفه كـــل بـــاغ غـــير محـــتكم
أســـد كمـــاة مغـــاوير ذوو فطـــن   كـــم مـــن ذوي الزيـــغ قـــد ألقـــوه في الـــرجم
يسترخصـــون المنايـــا لا يهـــولهم   ورودهـــم مـــورد الأهـــوال والقحـــم
وكيـــف لا ورســـول الله يقـــدمهم   في ســـاحة الحـــرب يـــأتي كـــل مضـــطرم
لابـــدع في ذاك إن جـــادوا بأنفســـهم   قصـــد الـــدفاع عـــن الهـــادي ودينـــهم
إن الـــوطيس إذا مـــا صـــار مشـــتعلاً   لاذوا بـــه كلـــواذ الأســـد بـــالأجم
فـــزاد إيمـــان أصـــحاب الرســـول بـــه   يستصـــبحون بنـــور المصـــطفى الفهـــم

يحيى توفيق:

سكت البابا، فقلت: لقد قرأت قبل أيام قصيدة جميلة لشاعر سعودي يسمى (يحي توفيق) وهي تنهج نهج هذا النوع من الشعر الشريف.

قال: أعرفها.. وهي قصيدة تمتلئ رقة وعذوبة ومحبة.. فبورك في قائلها.. اروها لي إن كنت تحفظها.

قلت: لقد قال هذا الشاعر الفاضل في مدح النبي ﷺ والشكوى لما حصل للأمة بغيابه[1]:

عـــز الـــورود.. وطـــال فيـــك أوام وأرقـــت وحـــدي..والأنـــام نيـــام
ورد الجميـــع ومـــن ســـناك تـــزودوا وطـــردت عـــن نبـــع الســـنى وأقـــاموا
ومنعـــت حـــتى أن أحـــوم..ولم أكـــد وتقطعـــت نفســـي عليـــك..وحـــاموا
قصـــدوك وامتـــدحواودوني اغلقـــت أبـــواب مـــدحك..فـــالحروف عقـــام
أدنـــوا فأذكرمـــا جنيـــت فـــأنثني خجـــلا..تضـــيق بحملـــي الأقـــدام
أمـــن الحضـــيض أريـــد لمســـا للـــذرى جـــل المقـــام.. فـــلا يطـــال مقـــام
وزري يكـــبلني..ويخرســـني الأســـى فيمـــوت في طـــرف اللســـان.. كـــلام
يممـــت نحـــوك يـــا حبيـــب الله في شـــوق..تقـــض مضـــاجعي الآثـــام
أرجوالوصـــول فليـــل عمـــري غابـــة أشـــــــــــواكها.. الأوزار.. والآلام
يـــا مـــن ولـــدت فأشـــرقت بربوعنـــا نفحـــات نـــورك..وانجلـــى الإظـــلام
أأعـــود ظمئآنـــا وغـــيري يرتـــوي أيـــرد عـــن حـــوض الـــنبي..هيـــام
كيـــف الـــدخول إلى رحـــاب المصـــطفى والـــنفس حـــيرى والـــذنوب جســـام
أو كلمـــا حاولـــت إلمـــام بـــه أزف الـــبلاء فيصـــعب الإلمـــام
مـــاذا أقـــول وألـــف ألـــف قصـــيدة عصـــماء قبلـــي.. ســـطرت أقـــلام
مـــدحوك مـــا بلغـــوا بـــرغم ولائهـــم أســـوار مجـــدك فالـــدنو لمـــام
ودنـــوت مـــذهولا.. أســـيرا لاأرى حـــيران يلجـــم شـــعري الإحجـــام
وتمزقـــت نفســـي كطفـــل حـــائر قـــد عاقـــه عمـــن يحـــب..زحـــام
حـــتى وقفـــت أمـــام قـــبرك باكيـــا فتـــدفق الإحســـاس..والإلهـــام
وتوالـــت الصـــور المضـــيئة كـــالرؤى وطـــوى الفـــؤاد ســـكينة وســـلام

---

(١) ننبه أن هذه القصيدة نسبت خطأ في بعض المواقع لنزار قباني، انظر تصحيح الخطأ في: جريدة الشّرق الأوسط، الاحـد ١٣ ذو القعـدة ١٤٢٧ هـ ٣ ديسمبر ٢٠٠٦ العدد ١٠٢٣٢.

يـــا مــــلءروحي..وهـــج حبـــك في دمــــي قـــــبس يضـــــيء ســـــريرتي..وزمـــــام
أنــــت الحبيــــب وأنــــت مــــن أروى لنــــا حــــــتى أضـــــاء قلوبنـــــا..الإســــلام
حوربـــت لم تخضــع و لم تخشـــى العـــدى مــــن يحمــــه الـــــرحمن كيــــف يضــــام
ومـــلأت هـــذا الكـــون نـــورا فأختفــت صــــور الظــــلام..وقوضــــت أصـــــنام
والـــــذل خــــيم فـــــالنفوس كئيبـــــة وعلـــــى الكبــــــار تطــــاول الأقــــزام
الحـــزن..أصـــبح خبزنـــا فمســـاؤنا شـــــجن..وطعـــــم صباحناأســــــقام
واليـــأس ألقـــى ظلــه بنفوســـنا فكـــأن وجــــه الـــنيرين.. ظــــلام
أبى اتجهـت ففـــي العيــون غشـاوة وعلـــى القلـــوب مـــن الظـــلام ركــــام
الكــــرب أرقنـــا وســـهد ليلنـــا مــــن مهـــده الأشـــواك كيــــف ينــــام
يــا طيبــة الخـيرات ذل المســلمون ولا مجــــير وضــــيعت..أحــــلام
بـــاتوا أســـارى حــيرة..وتمزقـــا فكـــأنهم بـــين الـــورى..أغنــــام
نـــاموا فنـــام الـــذل فـــوق جفـــونهم لاغـــــرو..ضـــاع الحـــزم والإقـــدام
يـــا هـــادي الـــثقلين هـــل مـــن دعـــوة تـــدعى..بهـــا يســـتيقظ النـــوام

٣ ــ شعراء مسيحيون:

ما انتهيت من رواية القصيدة حتى قال لي البابا: لم يقتصر مدح النبي ﷺ على المسلمين وحدهم.. حتى المسيحيون لهم نصيب من هذا.

قلت: المسيحيون !؟

قال: أجل.. ألم تعلم أن مسيحيي العرب أقرب إلى الإسلام من قربهم للمسيحية نفسها، حتى أني سمعت بعضهم يدافع على انتمائه للحضارة الإسلامية، ويفخر بذلك.. ويعتبر الحضارة الغربية حضارة شذوذ [1].

قلت: فسم لي بعض هؤلاء الشعراء الأفاضل.

وصفي قرنفلي:

قال: منهم وصفي قرنفلي (١٩١١ – ١٩٧٨)، الذي كان في طليعة رابطة الكتاب السوريين، وصدر له ديوان وحيد بعنوان (وراء السراب)

---

(١) انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (حضارة)

وقد خاف قرنفلي أن يوصف بمجاملة المسلمين أو مداهنتهم لحاجات في نفسه، فبدأ بالدفاع عن نفسه، وتبرير مدحه رسول الله ﷺ، فأعلن أن طائف الحب طاف به، فأترع كؤوس الهوى، والإعجاب بالنبي اليعربي فقال:

قـــــد يقولـــــون: شـــــاعرٌ نصـــــراني ... يرســـــل الحـــــب في كِـــــذابِ البيـــــانِ
يـــــتغنى هـــــوى الرســـــولِ.. ويهـــــذي ... بانبثـــــاق الهـــــدى مـــــن القـــــرآنِ
ينتحـــــي الجبهـــــة القويـــــةَ يحـــــدوها ... ريـــــاءً والشـــــعر (لا وجـــــداني)
كـــــذبوا – والرســـــولِ – لم يجـــــرِ يومًـــــا ... بخـــــلاف الـــــذي أكـــــن لســـــاني
مـــــا تراءيـــــتُ بـــــالهوى بـــــل ســـــقاني ... طـــــائفٌ مـــــن الحـــــب والهـــــوى مـــــا ســـــقاني
أوَعـــــارٌ علـــــى فـــــتىً يعـــــربي ... أن تغـــــنى بالســـــيد العـــــدناني ؟!
أولـــــيس الرســـــول منقـــــذَ هـــــذا الشـــــرق ... مـــــن ظلمـــــة الهـــــوى والهـــــوانِ ؟
أفكُنـــــا لـــــولا الرســـــول ســـــوى العبـــــدان ... بئســـــت معيشـــــة العبـــــدان ؟!
أو لـــــيس الوفـــــاء أن تخلِـــــص المنقـــــذ ... حبًّـــــا إن كنـــــت ذا وجـــــدان ؟!
فالتحيـــــات والســـــلام أبـــــا القاســـــم ... تُهـــــدى إليـــــك في كـــــل آن !

جورج صيدح:

ومنهم جورج صيدح الكاتب المهجري الذي كتب قصيدة رائعة في مدح النبي ﷺ باسم (حراء يثرب) يستنهض فيه الأمة، مذكرًا إياها بما بعث النبي ﷺ من الحمية والهمة والأنفة، مشيرًا إلى تدنيس القدس الشريف ؛ حتى إنه ليقتبس آية من القرآن ــ من سورة الرحمن ــ يضمنها القصيدة، فيقول:

يـــــا مـــــن ســـــريتَ علـــــى الـــــبراق ... وجُـــــزت أشـــــواط العَنـــــان
آن الأوان لأن تجـــــــــــــدّد ... ليلـــــــة المعـــــــراج.. آن
عـــــرّج علـــــى القـــــدس الشـــــريف ... ففيـــــه أقـــــداسٌ تهـــــان
مـــــاذا دهاهم؟هـــــل عصـــــوْك ... فأصـــــبح الغـــــازي جبـــــان ؟
أنـــــت الـــــذي علمتـــــهم ... دفـــــع المهانـــــة بالســـــنان
ونـــــذرت للشـــــهداء جنـــــات ... وخـــــيرات حســـــان
يـــــا صـــــاحبيّ: بـــــأي آلاء ... الـــــنبي تكـــــذبان ؟!

جورج سلستي:

ومنهم الشاعر المهجري جورج سلستي الذي كتب قصيدة بعنوان (نجوى الرسول الأعظم) وهي قصيدة مليئة بالعاطفة الصادقة، وكأنما كتبها مسلم:

أقبلـــــتَ كــــالحق وضّــــاحَ الأســــارير   يفــــيض وجهُـــك بالنعمــــاء والنـــور
علـــى جبينــــك فجــــرُ الحـــق منــــبلجٌ   وفي يــــديك جــــرت مقاليــــدُ الأمـــورِ
فرحــــتَ فينــــا، وليــــل الكفــــر معتكــــر   تفــــري بهــــديك أســــداف الــــدياجير
وتمطــــر البيــــد آلاءً وتُمرِعهــــا يمنًــــا   يــــدوم إلى دهــــر الــــدهاريرِ
أبيــــتَ إلا سمــــوّ الحــــق حــــين أبى   ســــواك إلا سمــــوَّ البُطــــل والــــزورِ!

وقال يصف الصحراء العربية التي أطلعت شمس المصطفى ﷺ:

مــا أنــتِ بالمصــطفى يــا بيــدُ مجدبــةً   كــلا ولا أنــتِ يــا صــحراءُ بــالبورِ
أطلعــتِ مــن تاهــت الــدنيا بطلعتــه   ونافســتْ فيــه حــتى موئــلَ الحــورِ
بوركــتِ أرضًــا تبــث الطهــرَ تربتُهــا   كالطيــبِ.. بثتــه أفــواه القــواريرِ
الــدين مــا زال يزكــو في مرابعهــا   والنبــل مــا انفــك فيهــا جــدَّ موفــورِ
والفضــل والحلــم والأخــلاق مــا فتئــت   تحظــى هنــاك بــإجلال وتــوقيرِ

ويعتذر للنبي ﷺ عن تقصير شعره في الوفاء بحقه، فيقول:

يــا ســيدي يــا رســول الله معــذرةً   إذا كبــا فيــك تبيــاني وتعــبيري
مــاذا أوفيــك مــن حــق وتكرمــةٍ   وأنــت تعلــو علــى ظــني وتقــديري ؟!
وأنــت ربُّ الأداء الفــذ في لغــةٍ   تشــأو اللُّغــى حســنَ تنميــقٍ وتصــويرِ
علــى لســانك مــا جــن البيــان بــه   فــذلك الشــعر يرنــو شــبهَ مســحور !
آي مــن الله.. مــا ينفــك مُعجزُهــا   يعيــي علــى الــدهرِ أعــلام التحــاريرِ
تلوتَهــا فســرت كــالنور مؤتلقًــا   يطــوي الــدنا بــين مــأهولٍ ومهجــورِ !

محبوب الخوري الشرتوني:

ومنهم محبوب الخوري الشرتوني، وهو من شعراء المهجر الشمالي، الذين كتبوا في رسول الله ﷺ رافعًا إياه إلى مستوى النموذج البشري الأتم، أو مثال البطولة الأوحد، وقد كتب قصيدة بعنوان (قالوا تحب العرب؟)

يقول فيها:

قـــالوا تحـــب العُرْب؟قلـــت: أحبـــهم   يقضـــي الجـــوارُ علـــيّ والأرحـــامُ
قـــالوا: لقـــد بخلـــوا عليـــك، أجبتـــهم   أهلـــي وإن بخلـــوا علـــيّ كـــرام
قـــالوا الديانـــة؟قلت: جيـــل زائـــل   وتـــزول معْـــه حـــزازةٌ وخصـــامُ
ومحمـــد.. بطـــل البريـــة كلـــها   هـــو للأعـــارب أجمعـــين إمـــام

الشاعر القروي:

ومن أشهر شعراء المهجر الجنوبي رشيد سليم الخوري الذي اشتهر بالشاعر القروي، وقد كتب قصيدة بعنوان (عيد البرية) يستحث فيها المسلمين لاستعادة مجدهم القديم منها، ويقرئ رسول الله ﷺ سلاماته وحبه، داعيًا إلى التحاب والتآخي بين المسلمين والنصارى، فيقول:

يـــا فـــاتح الأرض ميـــداناً لدولتـــه   صـــارت بـــلادُك ميـــداناً لكـــل قـــوي
يـــا قـــومُ هـــذا مســـيحيٌّ يـــذكّركم   لا يُنـــهِض الشـــرقَ إلا حبُّنـــا الأخـــوي
فـــإن ذكـــرتم رســـول الله تكرمـــة   فبلّغـــوه ســـلام الشـــاعر القـــروي

ويذكر الأندلس وبغداد ويحن إلى ما كان فيها من حضارة الإسلام، فيقول:

ياحبـــذا عهـــد بغـــداد وأنـــدلسٍ   عهـــد بروحـــى أفـــدِّى عَْـــودَهُ وذوي
مـــن كـــان في ريبـــةٍ مـــن ضَـــخْم دولتـــه   فليتـــلُ مـــافي تـــواريخ الشـــعوب رُوي

خليل مطران:

ومنهم خليل مطران الذي كتب قصيدة تسمى (رأس السنة الهجرية) يقول فيها:

عـــانى محمـــد مـــا عـــانى بهجرتـــه   لمـــأرب في ســـبيل الله محمـــود
وكـــم غَـــزاةٍ وكـــم حـــربٍ تجشـــمها   حـــتى يعـــود بـــتمكين وتأييـــد
صـــعبان راضـــهما: توحيـــدُ معشـــرهم   وأخـــذُهم بعـــد إشـــراك بتوحيـــد
وبـــدؤه الحكـــم بالشـــورى يـــتم بـــه   مـــا شـــاءه الله مـــن عـــدل ومـــن جـــود

وله قصيدة احتفالية أخرى شارك فيها المسلمين، عنوانها: (عظة العيد الهجري)، يمدح فيها ويُكبر الهلال رمز الإسلام، أو هو الرسول ﷺ نفسه فيقول:

ســـلام علـــى هـــذا الهـــلال مـــن امـــرئ   صـــريح الهـــوى، والحـــر لا يتكـــتم

ســــــــلام وتكـــــــريم.. بحـــــق كلاهمـــــا   وأشـــــرف مـــــن أحبتَــــه مـــــن تكــــرم
هويتــــك إكبـــــارًا لمــــن أنـــت رمـــزه   مـــن المــأرب العلــوي لــو كـــان يفهـــم

مارون عبود:

ومنهم مارون عبود الشاعر اللبناني الذي كتب قصيدة مطولة في مدح النبي ﷺ يقول فيها:

لــــولا كتابُــــك مــــا رأينــــا معجـــزًا   في أمــــــــةٍ مرصوصــــــــة البنيــــــانِ
حملـــــت إلى الأقطـــــار مـــــن صـــــحرائها   قـــــبسَ الهـــــدى ومطـــــارفَ العمــــرانِ
هـــــادٍ يُصـــــوَّر لي كـــــأن قوامـــــه   متجســــــدٌ مـــــن عنصــــر الإيمـــــان

إلياس فرحات:

ومنهم الشاعر الشهير إلياس فرحات الذي يقول في قصيدته (يا رسولَ الله):

غَمَـــــــرَ الأَرْضَ بِـــــــأَنْوَارِ النُّبُـــــــوَّةْ   كَوْكَـــــبٌ لَـــــمْ تُـــــدْرِكِ الشَّـــــمْسُ عُلُـــــوَّهْ
لَـــــمْ يَكُـــــدْ يَلْمَـــــعُ حَتَّـــــى أَصْـــــبَحَتْ   تَرْقُـــــبُ الـــــدُّنْيَا وَمَـــــنْ فِيهَـــــا دُنُـــــوَّهْ
بَيْنَمَـــــا الكَـــــوْنُ ظَـــــلاَمٌ دَامِـــــسٌ   فُتِحَـــــتْ فِـــــي مَكَّـــــةَ لِلنُّـــــورِ كُـــــوَّةْ
وَطَمَـــــى الإِسْـــــلاَمُ بَحْـــــرًا زَاخِـــــرًا   بِـــــأَوَاذِيِّ الْمَعَـــــالِي وَالفُتُـــــوَّةْ
مَـــــنْ رَأى الأَعْـــــرَابَ فِـــــي وَثْبَـــــتِهِمْ   عَـــــرَفَ البَحْـــــرَ وَلَـــــمْ يَجْهَـــــلْ طُمُـــــوَّهْ
إنَّ فِـــــي الإِسْـــــلاَمِ لِلْعُـــــرْبِ عُـــــلاً   إنَّ فِـــــي الإِسْـــــلاَمِ لِلنَّـــــاسِ أُخُـــــوَّةْ
فَـــــادْرُسِ الإِسْـــــلاَمَ يَـــــا جَاهِلَـــــهُ   تَلْـــــقَ بَطْـــــشَ اللهِ فِيـــــهِ وَحُنُـــــوَّهْ
يَـــــا رَسُـــــولَ اللهِ إِنَّـــــا أُمَّـــــةٌ   زَجَّهَـــــا التَّضْـــــلِيلُ فِـــــي أَعْمَـــــقِ هُـــــوَّةْ
ذَلِـــــكَ الجَهْـــــلُ الـــــذِي حَارَبْتَـــــهُ   لَـــــمْ يَـــــزَلْ يُظْهِـــــرُ لِلشَّـــــرْقِ عُتُـــــوَّهْ
قُـــــلْ لأَتْبَاعِـــــكَ صَـــــلُّوا وَادْرُسُـــــوا   إِنَّمَـــــا الـــــدِّينُ هُـــــدَىً وِالْعِلْـــــمُ قُـــــوَّةْ

عبد الله يوركي حلاق:

ومنهم الشاعر السوري عبد الله يوركي حلاق مؤسس مجلة الضاد في حلب، فله قصيدة بعنوان (قبس من الصحراء)، يشيد فيها بالرسول ﷺ.. يقول فيها:

بعـــــث الشـــــريعة مـــــن غياهـــــب رمسِـــــها   فرعـــــى الحقـــــوق وفـــــتَّح الأذهانـــــا

أحمـــــــدٌ.. والمجــــــدُ نســـــج يمينـــــه   مجـــــــدَّت في تعليمــــــك الأديانــــــا
ولأنـــــه داس الجهالــــــة وانتضـــــى   ســـــيف الجهـــاد، وحطَّـــم الأوثانـــا
فلقــــــد ربينــــــا في ظــــلال عروبـــــة   عربــــــاء.. تشـــــرق عـــــزة وأمانـــــا
مـــــا نحـــــن إلا إخــــوةٌ نســــعى إلى   إســــعاد أمتنــــا.. وصــــونِ حمانــــا

جاك صبري شماس:

ومنهم الشاعر السوري جاك صبري شماس الذي تشهد معظم دواوينه الشعرية، ومقالاته على محبته وولائه للعروبة وإشادته بالدين الإسلامي، وافتخاره بالرسول ﷺ.. يقول في قصيدة له بعنوان (أوراق اعتمادي)

إني مســــــيحيٌّ أجــــــلُّ محمـــــدًا   وأجــــلُّ ضـــادًا.. مهـــدُه الإســــلامُ
وأجـــلُّ أصــــحاب الرســـول وأهلــــه   حيــــث الصــــحابة صــــفوةٌ ومقــــام
كحَّلــــت شـــعري بالعروبـــة والهـــوى   ولأجـــــل طـــــه تفخــــر الأقــــلام
أودعــــت روحــــي في هيـــام محمــــد   دانــــت لــــه الأعــــراب والأعجــــام

إلياس قنصل:

ومنهم الشاعر إلياس قنصل الذي ثم يخاطب رسول الله ﷺ معتذرًا، مشيدًا بالقرآن ومن جاء به، فيقول:

رســـــولَ الله: عفـــوَك ؛ إن عـــذلي   لتنبيــــــه النفــــــوس الغــــــافلات
كتابــــك زينــــة الأجيــــال تزهـــو   بمعجــــــز آيــــــهِ أمُّ اللغــــــات
ودينُـــك نعمـــةٌ في الكـــون ضـــاءت   فنـــــوَّرَت النــــواحي المظلمــــات
تكـــرم يـــا إلـــه العـــرش واجعـــل   بـــلاد العُـــرب للعـــرب الابـــاة

شبلي الملاط:

ومنهم الشاعر اللبناني شبلي الملاط، وهو أحد أبرز الشعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين الذي ينفي عن الإسلام والقرآن دعوى تفريق للأمة، فيقول:

لمـــن البلاد؟ألـــيس مـــن أصـــحابها   أنـــتم ونحن؟فمـــا لنـــا لا نهتـــدي ؟
حـــتى مـــتى لا نســـتفيق ؟! وكلنـــا نحيـــا   ونـــدفن تحـــت جـــو أوحـــد ؟
حـــتى مـــتى التفريـــق يلعـــب دوره   فينـــا ونصـــغي ســـامعين لمفســـد ؟

ويظـــــل مَـــــن بـــث المفاســـد ســـيدًا والصـــــالح الأعمــــــال مغلـــــولَ اليـــــد
ويبيـــــت مـــــن تــــدعو الـــبلاد أئمــــة متشــــــاغلين ببِيعــــــةٍ وبمســــــجد
والله مـــــا قـــــال المســـــيح تباغضــــوا حـــــتى نكــــون ولا كتـــــاب محمـــــد
لكنمـــــا أيـــــدي الجهالـــــة بـــــدّلت أبنـــــاء هـــــذا القطـــــر شـــــر مبـــــدد

ثم يطالب بإنهاء التعصب الذي يوقع الأمة في الهوان والمذلة، فيقول:

وتســـــاهلوا عنـــــد الأمـــــور وأعرضـــــوا عمـــــن يقـــــول بعيســـــوِي ومحمـــــدي
ودعــــوا التعصــــب إنــــه الــــداء الــــذي يقضـــــي علـــــيكم بـــــالهوان الســـــرمدي
ولتشـــــعلوا هـــــذي العواطـــــف ولـــــيكن كـــــل مـــــن الأعيـــــاد عيـــــد المولـــــد

٤ ــ أدباء أسلموا:

قلبت دفتر البابا.. فرأيت أسماء غير عربية، فتعجبت من ذلك، فقلت: أرى في الدفتر أسماء أخرى غير عربية.. من أين لها أن تتعلم العربية، وتكتب بها مدح النبي ﷺ !؟

قال: أصحاب تلك الأسماء أدباء من سائر الأمم جذبتهم أشعة شمس محمد ﷺ إلى الإسلام، فلذلك سجلتهم في هذا الفصل.

قلت: فهل تعلم هؤلاء العربية؟

قال: الشعر موجود في كل لغات العالم.. والحب موجود في كل الكلمات نثرها وشعرها.. والمحب الصادق يعبر بكل الألسنة.

ويليام بيكارد:

كان من تلك الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ويليام بيكارد)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو المؤلف والروائي والشاعرالبريطاني ويليام بيكارد، وهو حاصل على شهادة البكالوريوس في الفنون والآداب (كانتاب)، والدكتوراه في الأدب (لندن)، وهو مؤلّفٌ واسع الشهرة، من أعماله: ليلى والمجنون، ومغامرات القاسم، والعالم الجديد، ومؤلّفاتٌ أخرى.

قلت: هل التقيت به؟

قال: لا.. ولكني قرأت رساله له يتحدث فيها عن رحلته للإسلام، ومما ورد فيها: (لم أُدرك حقيقة أنّي وُلِدت على فطرة الإسلام إلّا بعد مضيٍّ العديد من السنين. ففي المدرسة والجامعة كنت مشغولاً ــ وربما بقوّة ــ بقضايا اللحظة الآنيَّة وشؤونها.. لم أكن أعتبر مهنتي في تلك الأيام مهنةً لامعة، ولكنَّها كانت في تطوُّر،

ووسط محيطٍ مسيحيٍّ تعلَّمت عن الحياة الطيِّبة، وكان الإيمان بالله تعالى والعبادة والحق من الأمور الَّتي تسرُّني، وإن كنت أُقدِّس أيَّ شيءٍ فإنَّ ذلك كان هو النُبل والشَّجاعة)

وفيها يقول:(أنا القادم من كامبريدج، ذهبت إلى أواسط أفريقيا، حيث حصلت على تعيينٍ في إدارة الوصاية على أوغندا. كان وجودي هناك ممتعاً ومثيراً أكثر مما كنت أحلم به في بريطانيا، وكنت مجبراً ــ تبعاً للظروف المحيطة ــ أن أعيش وسط الأخوَّة السوداء من الإنسانيَّة، ويمكنني القول بأنِّي تعلَّقت بهم بمحبةٍ بسبب بساطة نظرتهم السعيدة للحياة. لقد شدَّني الشَّرق دائماً. ففي كامبريدج قرأت (الليالي العربيَّة)؛ ووحيداً في أفريقيا قرأت (الليالي العربيَّة)؛ ووجودي في تجوالٍ موحشٍ في أوغندا لم يقلل من عزة الشرق في نفسي.

ثم ــ وبعد تحطُّم حياتي الهادئة في الحرب العالمية الأولى ــ عدت أدراجي مسرعاً تجاه الوطن في أوروبا؛ وساءت صحَّتي. ومع استعادة صحَّتي تطوَّعت للجيش، لكنَّ طلبي رُفض على أُسسٍ صحيَّة. لذلك عملت على تقليل الخسائر وسجَّلت في (الجندرمة) ــ بعد أن عملت بطريقةٍ ما على اجتياز الفحص الطبِّي ــ وشعرت بالرَّاحة حين تسلَّمت بدلتي العسكريَّة كجنديٍّ في فرقةٍ للمشاة. خدمت حينئذٍ في الجبهة الغربيَّة في فرنسا، واشتركت في معركة السوم سنة ١٩١٧، حيث جُرحت وأُسرت. نُقلت عبر بلجيكا إلى ألمانيا حيث كنت في المشفى. وفي ألمانيا رأيت الكثير من المعاناة الإنسانيَّة، وخاصَّةً الرُّوس المصابين بالديزنطاريا. ووصلت إلى حافَّة الموت جوعاً. جُرحي ــ وهو كسرٌ في ساعدي الأيمن ــ لم يُشف بسرعة، فكنت عديم النَّفع للألمان، فأُرسلت إلى سويسرا من أجل عمليَّةٍ جراحيَّة.

أذكر جيِّداً كم كان عزيزاً عليَّ حتى في تلك الأيام حين كنت أفكِّر بالقرآن الكريم، في ألمانيا كنت قد كتبت رسالةً للأهل ليرسلوا لي نسخةً من القرآن الكريم. وعلمت في السنوات اللاحقة أنَّهم أرسلوا لي نسخةً ولكنَّها لم تصلني أبداً.

في سويسرا ــ وبعد عمليَّةٍ في ساعدي ورجلي ــ تحسَّنت صحَّتي، فكان بإمكاني الخروج بين الحين والآخر، فاشتريت نسخةً من الترجمة الفرنسيَّة لمعاني القرآن الكريم ــ وهي اليوم من أعز ممتلكاتي ــ وعندئذٍ شعرت بسعادةٍ عظيمة. كان ذلك وكأنَّ شعاعاً من الحقيقة الخالدة قد أشرق عليَّ بالبركة. كانت يدي اليمنى ما تزال غير ذات نفع، فتمرَّنت على كتابة القرآن الكريم بيدي اليسرى. وارتباطي بالقرآن الكريم يظهر بوضوح أكبر عندما أقول بأنَّ واحدةً من أشدِّ الذكريات وضوحاً وعزَّة لديّ من كتاب (الليالي العربية) كانت عن فتىً وُجد وحيداً في المدينة البائدة، جالساً يقرأ القرآن الكريم، غافلاً عمَّا يحيط به.

في تلك الأيام في سويسرا، أعدت تسجيل نفسي رسمياً كمسلم. وبعد توقيع الهدنة عدت إلى لندن، وذلك في شهر كانون الأول من سنة ١٩١٨، وبعد ذلك ــ في عام ١٩٢١ ــ سجَّلت لدراسة الأدب في جامعة لندن. وكان أحد المواضيع الَّتي اخترتها هي اللغة العربيَّة، وكنت أحضر محاضراتها في الكلية الملكيَّة. وكان في

يومٍ أن ذكر أستاذي في اللغة العربيَّة ـــ السيِّد بلشا من العراق رحمه الله تعالى ـــ القرآن الكريم وقال: إن كنت تؤمن به أم لا، فإنَّك ستجد أنَّه أكثر الكتب إثارةً وأنَّه يستحقُّ الدِّراسة. فأجبت: أُوه، ولكنِّي أُومن به. فاجأ هذا الجواب أستاذي بشدَّة وأثار اهتمامه، وبعد حديثٍ قصيرٍ دعاني لأُرافقه إلى مسجد لندن في نوتينغ هيل جيت. وبعد ذلك كنت أحضر للصلاة باستمرار في هذا المسجد لكي أتعلَّم أكثرعن تطبيق الإسلام، إلى أن أعلنت ارتباطي بالأمَّة الإسلاميَّة في رأس السنة الجديدة لعام ١٩٢٢.

كان هذا قبل ما يقارب الربع قرن، ومنذئذٍ وأنا أعيش حياةً إسلاميَّةً قولاً وعملاً بكلِّ ما في استطاعتي، فقوَّة الله تعالى وحكمته ورحمته ليس لها حدود. وحقول المعرفة تمتدُّ أمامنا إلى ما وراء الأفق. وفي حجِّنا خلال هذه الحياة أشعر بيقينٍ أقوى بأنَّ اللباس الوحيد المناسب الَّذي نستطيع لبسه هو الخضوع لله تعالى، وأن نعتمر على رؤوسنا عمامةً من الحمد، وأن نملأ قلوبنا حبّاً للخالق الواحد سبحانه وتعالى. والحمد لله ربِّ العالمين)

فانسان مونتييه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذ االفصل اسم (فانسان مونتييه)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أديب فرنسي كان يشغل منصب أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس، وشغل منصب رئيس (مؤسسة الدراسات الإسلامية في داكار)... وله عدة مؤلفات منها: كتاب (الإرهاب الصهيوني)، و(المسلمون في الاتحاد السوفيتي)، و(الإسلام في إفريقيا السوداء)، و(مفاتيح الفكر العربي)، كما قد قام بترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية، وقد أسلم وتسمى بـــ (المنصور بالله الشافعي)

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سبب اختياره الإسلام، فقال: لقد اخترت الإسلام ديناً، ألقى به وجه ربي لأسباب شتى، منها الأسباب الدينية، والأسباب الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية والعاطفية.

ثم استطرد في تفصيل ما أجمله قائلا: لقد اخترتُ دين الفطرة، وهو الإسلام، وكنت فيما مضى كاثوليكيّاً.. وفي الكاثوليكية أمور كثيرة لم أقتنع بها، و لم أفهمها، مثل كرسي الاعتراف، والوسيط لدى الإله، فضلاً عن اعتمادها على أسرارٍ، وقربان، وغير ذلك من أمور لم أستطع الإيمان بها.. في حين أن دين الإسلام برئ من هذا كله، فيكفي المسلم أن يتوجه إلى ربه مباشرة بدون وسيط، وبدون كرسي اعتراف، فيستجيب الله دعاءه.

لقد كانوا يُعلمونني كما يُعلمون غيري أن عيسى إله ابن إله، وكانوا يزعمون أن محمداً ليس نبيّاً، وبالتالي ينكرون الإسلام.. ثم حدث أن وقع بين يدي ـــ لأول مرة في حياتي ـــ ترجمة لمعاني القرآن الكريم، واستوقفتني

---

(١) انظر: صحيفة الاتحاد التي تصدر في الإمارات العربية المتحدة، الصادرة في العاشر من نوفمبر ١٩٨٩ (بتصرف)، والجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبدالصمد.

معاني كلماته، مثل:﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص)

واستَوقَفَني قول الله تعالى:﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: من الآية٣٠)

كما أذكر أني قرأت حديثاً لرسول الله ﷺ، شعرت تجاهه بأن الإسلام دين الفطرة بحق، وهو قول رسول الله ﷺ:« كل مولود يُولَدُ على الفِطْرة، فأبواه يُهَوّدِانه أو يُنَصّرِانه، أو يُمَجّسَانِهِ »

ولذلك كله آمنت برسالة محمد ﷺ ومصداقيتها، مثلما آمنتُ تماماً بوحدانية الله.. إن محمداً رسول الله حقاً.. والقرآن الكريم مُوحىً به من عند الله وليس من إنشاء محمد أو صُنعه... ورسالته السماوية السمحاء ليست مقصورة على العرب.. وإنما هي للناس كافة.

لقد رأيت في الإسلام تسامحاً مدهشاً، والأخلاق الرفيعة هدف كل مسلم.. كما رأيت رفضاً للرهبنة التي تجافي طبيعة الإنسان البشرية، فالإسلام يحفظ للإنسان إنسانيته، فيمنع عليه الرهبنة، ويدفعه إلى التمتع بالحياة وطيباتها، ما لم تتعارض المتعة مع تعاليم الله تعالى، كما قال ﷻ:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(الحج: من الآية٧٨)

سكت قليلا، وقد بدت على وجهه قسمات ألم لم يستطع كتمها، ثم قال: أعداء الإسلام يَدَّعُون أن المسلمين لا يرضون من غيرهم إلا أن يكونوا مسلمين، فإذا لم يكونوا مسلمين أشهروا عليهم سيف الجهاد.. في حين أنهم لو عقلوا ذلك جيداً لعلموا أن الجهاد الإسلامي مفروض، ولكن من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

إنهم يتهمون الإسلام بالقسوة المفرطة، مع أن الإسلام دين السلام، والتسامح، والعفو، والمغفرة... لقد تناسى هؤلاء كل العقوبات النصرانية فيما مضى، والتي أفرطت في القسوة، والتعذيب الذي وصل إلى حد الإحراق، وفصل أجزاء الجسد، فضلاً عن كثرة حالات الإعدام، وهو ما لم يشهده الإسلام في تاريخه.

كما أنهم يتهمون الإسلام بظاهرة الرَقّ التي وُجدَتْ قبل الإسلام وليس بعده، بل حين انتشر الإسلام وطُبقت تعاليمه كان يسعى لإلغاء الرّق، بل إن كثيراً من الكفَّارات للذنوب التي يقدم عليها المرء هو تحرير الرقاب الذي عَدَّه الإسلام تقرباً وطاعة لله.

ثم يحاولون الإساءة إلى الإسلام من زاوية تعدد الزوجات، ولو عقلوا لوَجَدُوا أنه وأن سمح حقّاً بذلك، فإنه في الوقت ذاته وضع شروطاً دقيقة أساسها العدل المطلق، والمعاملة الطيبة، كما نظر إلى النساء التي حالت ظروفهن دون الزواج، أو لمرض الزوجة، أو لأسباب أخرى.

إن الإسلام بعظمته وعمقه، وبنقائه ورقُيه، وبتسامحه ودعوته لكرامة الإنسان في كل زمان ومكان لن يستطيع أحدٌ أن ينال منه.. لأن الإسلام في ذاته قوي.. وتعاليمه تدعو إلى القوة بعدم ارتكاب المعاصي

والذنوب التي تضعف القوة، مثل الزّنَى، وشُرب الخمر، وأكل لحم الخترير، وغير ذلك مما يحرمه الدين الحنيف.

ثم انفرجت أساريره عن ابتسامة عذبة، وقال: لهذا اخترت الإسلام.. من أجل أن أشعر بالراحة في رحابه وظلاله.. نعم، اعتنقتُ الإسلام لأشعر وأدرك أنني اعتنقت ديناً لا يفصل بين البدن والروح، بين النفس والجسد.. يكفيني أن الإسلام دين نقي، يدفع إلى الأخلاق والتحلي بها، وإلى الكرامة الإنسانية والتمسك بها، من أجل ذلك شهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.. وعلى ذلك ألقى ربي.

رابعا ـــ الفنانون

فتحت دفتر البابا على فصله الرابع، فوجدت عنوانه (الفنانون)، فقلت: من تقصد بالفنانين؟

قال: أولئك الذين تذوقوا الجمال وعاشوه وراحوا بما أوتوا من مواهب يحاولون تصويره وإمتاع الخلق به.

قلت: فما علاقة هؤلاء بأشعة محمد ﷺ ؟

قال: أقرب الناس إلى النبي ﷺ هم الفنانون..

قلت: ما تقول؟

قال: إن المعاني النبيلة التي يوجهنا إليها الإسلام، والتي تتناسب مع الجمال الذي يمتلئ به الكون لا يتذوقه إلا صاحب حس مرهف، وذوق رفيع.

قلت: ولكني أرى الفنانين أعظم الناس غفلة، فهم يجرون في أودية الغواية أكثر من الشعراء.

قال: أولئك أحد ثلاثة: إما لا حظ لهم في الفن، وإنما هم أدعياء فيه، وإما أن الإسلام عرض لهم بصورة مشوهة جعلتهم ينفرون منه، وإما أن الإسلام لم يعرض لهم أصلا.

قلت: أرأيت لو أن الإسلام عرض لهم بصورته سيقبلونه؟

قال: لا يقبلونه فقط.. بل يقبلون عليه بكل كيانه، ويسخرون كل طاقاتهم في سبيل خدمته.

قلت: ولكن البعض يأمرهم بتطليق الفن قبل اعتناق الإسلام.

قال: أولئك حجب بين الله وبين عباده.. الإسلام يطلق الطاقات ولا يعطلها.. والفنان المسلم هو الذي يعبد الله في محراب فنه.. فيجعل فنه مرقى من مراقي الهداية ومعراجا من معارج الروح.

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة في هذا الفصل.. فهل التقيت بهم جميعا؟

قال: هناك من التقيت به.. وهناك من حدثني بحديثه الثقاة.. وهناك من قرأت له، أو قرأت عنه.

الفونس إيتان دينيه:

كان من أول الأسماء التي وضعت في هذا الفصل اسم (الفونس إيتان دينيه)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذ الرجل من كبار الفنانين والرسامين العالميين، وقد دُوّنت أعماله في معجم (لاروس)، ولا تزال جدران المعارض الفنية في فرنسا تزين بلوحاته الثمينة، وفيها لوحته الشهيرة (غادة رمضان)

وقد أسلم، وألّف بعد إسلامه العديد من الكتب القيمة، منها كتابه الفذ (أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(ربيع القلوب)، و(الشرق كما يراه الغرب)، و(محمد رسول الله)، و(الحج إلى بيت الله الحرام).. وغيرها.

وقد ذكر في هذه الكتب أسرار انجذابه الإسلامه، ومن أقواله في ذلك:

(لقد أكد الإسلام من الساعة الأولى لظهوره أنه دينٌ صالحٌ لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة،

---

(١) ايتين دينيه (١٨٦١ – ١٩٢٩) Et. Dinet تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨).

والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجة الحضارة)[1]

(لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله إلينا اليوم لكان ميسورًا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم)[2]

(أحسّ المشركون، في دخيلة نفوسهم، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم وكلهم كثيرًا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخاذة التي ألهمها إيمان سماوي، و لم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا)[3]

(إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا كانت في الواقع معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة)[4]

(إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التّأثير في [نفوس علماء] لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟.. لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمِّروا فيه. أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ذلك الأمي الذي لم ينل حظًا من المعرفة؟.. كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات)[5]

(لا عجب أن نرى النبي الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف لهم بحق نعتهم له بالكذب، أن ائتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك)[6]

وتحدث عن تأثير دراسته لشخصية محمد ﷺ في انجذابه للإسلام، ومن أقواله في هذا قوله:(إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جدًا حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي

---

(١) محمد رسول الله، ناصر الدين دينيه، ص (٣٤٥)
(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٥.
(٣) محمد رسول الله، ص ١٠٦.
(٤) محمد رسول الله، ص ١١٨.
(٥) محمد رسول الله، ص ١١٩.
(٦) محمد رسول الله، ص ١٢١.

جعل لها روح الإبداع وأعطاها صفة الشيء الجديد)[1]

وقوله: (إن نبي الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التزيل الحكيم)[2]

(إن سنة الرسول الغرّاء باقية إلى يومنا هذا، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس [مئات الملايين] من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة)[3]

(كان النبي يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة.. ليتمشط أو ليسوي طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالى)[4]

(لقد (دعا) عيسى إلى المساواة والأخوة، أما محمد فوفق إلى (تحقيق) المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته)[5]

وتحدث عن تأثير المناهج الإسلامية في انجذابه للإسلام، فقال:(إن الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل أسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون)[6]

(إن الإسلام [هو] عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التي تقوم عليها تلك العقيدة.. [ونحن نطلب] من خصومنا أن يدلونا عليها في الإنجيل أو في كتاب مقدس آخر إن كانوا صادقين)[7]

(إن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا)[8]

(كما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات.. وبينما تجد الإسلام يهيج من نفسه الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات.. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر)[9]

(عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام كان هذا الدين القويم قد تمّ تنظيمه نهائيًا، وبكل دقة، حتى في أقل

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٦.
(٣) محمد رسول الله، ص ٥١.
(٤) محمد رسول الله، ص ٣١٢.
(٥) محمد رسول الله، ص ٣٢٣.
(٦) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
(٧) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
(٨) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨.
(٩) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٨.

تفاصيله شأنًا)[1]

وتحدث عن إعجابه الشديد بسماحة الإسلام والمسلمين، فقال: (من الحقائق التاريخية أن النبي أعطى أهل (نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يحبها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم)[2]

(ليس من فخار المسيحية أن تضم في تعدادها أولئك الذين يباعون لها من ولدان العبيد ولا أولئك اليتامى الذين ينشأون في مهادها نشأة دينية مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم فإنما هم الخاصة سواء كانوا من الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية)[3]

(إن الإسلام بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً، ففي أقل من مائة عام، ورغم قلة عددهم، استطاع العرب الأمجاد وقد اندفعوا لأول مرة في تاريخهم، خارج حدود جزيرتهم.. أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس)[4]

(المسلمون، على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبدًا خارج حدود الحجاز.. لإكراه غيرهم على الإسلام. وإن وجود المسيحيين في أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط قرطبة. ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًا على المسلمين)[5]

(إن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة، لهي أقوى أثرًا في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين. ولقد اضطر العالم (دوزي) — رغم تعصبه ضد الإسلام — إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في إسبانيا (اعتنقوا الإسلام عن عقيدة)[6]

(وكيف لا يكون المسلم متسامحًا وهو يجل الأنبياء الذين يجلّهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة إليه (كليم الله) وعيسى (روح الله) يجب تبجيله كما يبجل محمد (حبيب الله):﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١٥.
(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨.
(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٩.
(٤) محمد رسول الله، ص ٣١٥.
(٥) محمد رسول الله، ص ٣٣٢.
(٦) محمد رسول الله، ص ٣٣٣.

(البقرة: ٢٨٥)[1]

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي أنجزها الإسلام مقارنة بغيره من الديانات والمذاهب والأفكار، فقال: (إن الفروسية ونبالة قصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيرًا. وعلى يده دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين. ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب)[2]

(نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرًا منطقيًا للمبادئ التي جاء بها محمد فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوروبا. وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام، وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوروبي لشروحه لأرسطو، وإن كان هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر – بحق – أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث فضلاً عن كونه من أصول الإصلاح الديني)[3]

(لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة مثل ذلك الغرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء. على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعل أكثر قبولاً وأسهل تطبيقًا في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور حتى لقد سمي القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكنا نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات.. فمما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه. لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكمًا قاطعًا ولا يأمر به أمرًا باتًّا)[4]

(هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ وإلا فهؤلاء مثلاً ملوك فرنسا – دع عنك الأفراد – الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام. وإن تعدد الزوجات قانون طبيعي وسيبقى ما بقي العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه.. إن نظرية التوحيد في الزوجة [التي] تأخذ بها المسيحية ظاهرًا تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث

---

(١) محمد رسول الله، ص ٣٣٣.
(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٢٨.
(٣) محمد رسول الله، ص ٣٢٤.
(٤) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١.

نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين. إن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية)[1]

(جاء في كتاب (الإسلام) تأليف (شمتز دوملان)(٣) أنه (ندما غادر الدكتور مافروكو رداتو الأستانة سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري - وهو السفلس المعروف بالشرق بالمرض الإفرنكي - فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين تبدل الحال غير الحال. وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة: إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الإفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكي)[2]

(إننا نخشى أن تخرج المرأة الشرقية إلى الحياة العصرية.. فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات، اللائي يسعين للعيش وينافس في ذلك الرجال، ومن أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة)[3]

(إن تعاليم المرأة يساير كل المسايرة جميع تعاليم الدين، وقد كان في عصر ازدهار الإسلام يفاض فيضًا على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك ارفع من ثقافة الأوربيات دون جدال)[4]

(ليس من الجرأة أن يظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات، أنه سيرى مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا. فإذا ما دخل في الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث.. سيتضح سناه الحقيقي، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنهم زمنًا، وسيمد الكل أيديهم لمحالفته متنافسين في ذلك، لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حد لها ولا نفاذ. ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها.. وتبوأوا مكانهم الذي يليق بمجدهم إن شاء الله)[5]

كات ستيفنس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كات ستيفنس)[6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الاسم القديم للمغني الإنجليزي (يوسف إسلام)

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٢.
(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٣.
(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٤٠
(٤) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٣٤١.
(٥) محمد رسول الله، ص ٣٤٥ — ٣٤٦.
(٦) ولد يوسف إسلام تحت اسم ستيفن ديمتري جورجيو في شهر يوليو/ تموز ١٩٤٧ لأم سويدية وأب من القبارصة اليونانيين. وتربى ستيفن في حي ويست إند بلندن في شقة تقع فوق المطعم المملوك لوالديه.
ونظراً لأن والده كان من القبارصة اليونانيين، فإنه كان يعتنق مذهب الأورثوذكس اليونان لكنه تلقى تعليمه في مدرسة كاثوليكية. وحصل ستيفن على ٨ ألبومات ذهبية متتالية، وحازت أغانيه على شهرة واسعة في بريطانيا والولايات المتحدة.

قلت: أعرفه.. ويعلم الله شدة محبتي له.. فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، وقد جمعني معه ــ ومعنا بعض الناس ــ مجلس من المجالس، وقد سأله بعضهم عن قصة إيمانه، فقال: أود أن أبدأ قصتي بما تعرفونه جميعًا، وهو أن الله قد أستخلفنا في الأرض وأرسل لنا الرسل وآخرهم رسولنا محمد ﷺ ليهدينا إلى الطريق القويم، وعلى الإنسان أن يلاحظ واجبه نحو هذا الإستخلاف وأن يسعى لتحضير نفسه للحياة الخالدة القادمة فمن تفوته الفرصة الآن لن تأتيه أخرى فلن نعود ثانية حيث يقول القران الكريم:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٢-١٤)، وقال:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٧)

وقد نشأت في بيئة مرفهة تملؤها أضواء العمل الفني الإستعراضي المبهرة.. وكانت أسرتي تدين بالمسيحية، وكانت تلك الديانة التي تعلمتها، وقد تعلمت من خلالها أن الله موجود، ولكن لا يمكننا الإتصال المباشر به، فلا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق عيسى فهو الباب للوصول إلى الله، وبالرغم من اقتناعي الجزئي بهذه الفكرة إلا أن عقلي لم يتقبلها بالكلية.

وكنت أنظر إلى تماثيل النبي عيسى فأراها حجارة لا تعرف الحياة، وكانت فكرة التثليث أو ثلاثية الإله تقلقني وتحيرني، ولكني لم أكن أناقش أو أجادل احتراما لمعتقدات والدي الدينية.

ثم بدأت أنصرف عن الدين شيئا فشيئا.. لأنشغل بالموسيقى والغناء، فقد كنت أرغب في أن أكون مغنيا مشهورا.

وقد أخذتني تلك الحياة البراقة بمباهجها ومفاتنها فأصبحت هي إلهي، وأصبح الثراء المطلق هو هدفي تأسياً بأحد أخوالي الذي كان واسع الثراء، وبالطبع كان للمجتمع من حولي تأثير بالغ في ترسيخ هذه الفكرة داخلي حيث أن الدنيا كانت تعني لهم كل شيء وكانت هي إلههم.

ومن ثم اخترت طريقي وعزمت أن يكون المال هو هدفي الأوحد، وأن تكون هذه الحياة هي مبلغ المنى ونهاية المطاف بالنسبة لي، وكان قدوتي في هذه المرحلة كبار مطربي البوب العالميين، وانغمست في هذه الحياة الدنيوية بكل طاقتي، وقدمت الكثير من الأغاني ولكن داخلي وفي أعماق نفسي كان هناك نداء إنساني ورغبة في مساعدة الفقراء عند تحقيقي للثراء المنشود.

ولكن النفس البشرية ــ كما يخبرنا القرآن الكريم ــ لا تفي بكل ما تعد به، بل تزداد طمعاً كلما منحت المزيد، وقد حققت نجاحاً واسعاً، وأنا لم أتعد سنواتي التسعة عشرة بعد، واجتاحت صوري وأخباري وسائل الإعلام المختلفة، فجعلوا مني أسطورة أكبر من الزمن وأكبر من الحياة نفسها، وكانت وسيلتي لتعدي حدود الزمن والوصول إلى القدرات الفائقة هي الانغماس في عالم الخمور والمخدرات.

بعد مضي عام تقريباً من النجاح المادي والحياة الراقية وتحقيق الشهرة أصبت بالسل ودخلت المستشفى،

وأثناء وجودي بالمستشفى أخذت أفكر في حالي وفي حياتي: هل أنا جسد فقط، وكل ما عليَ فعله هو أن أسعد هذا الجسد؟ ومن ثم فقد كانت هذه الأزمة نعمة من الله حتى أفكر في حالي، وكانت فرصة من الله حتى أفتح عيني على الحقيقة وأعود إلى صوابي.. لماذا أنا هنا راقداً في هذا الفراش؟

وأسئلة أخرى كثيرة بدأت أبحث لها عن إجابة، وكان اعتناق عقائد شرق أسيا سائداً في ذلك الوقت، فبدأت أقرأ في هذه المعتقدات، وبدأت لأول مرة أفكر في الموت وأدركت أن الأرواح ستنتقل لحياة أخرى، ولن تقتصر على هذه الحياة، وشعرت آنذاك أني على بداية طريق الهداية، فبدأت أكتسب عادات روحانية مثل التفكر والتأمل وأصبحت نباتياً كي تسمو نفسي وأساعدها على الصفاء الروحي، وأصبحت أؤمن بقوة السلام النفسي وأتأمل الزهور.. ولكن أهم ما توصلت إليه في هذه المرحلة هو إدراكي أني لست جسدا فقط.

وفي أحد الأيام بينما كنت ماشياً إذا بالمطر يهطل، وأجدني أجري لأحتمي من المطر، فتذكرت مقولة كنت قد سمعتها قبل ذلك، وهي أن الجسد مثل الحمار الذي يجب تدريبه حتى يأخذ صاحبه أينما يريد، وإلا فإن الحمار سيأخذ صاحبه إلى المكان الذي يريده هو.

إذاً فأنا إنسان ذو إرادة، ولست مجرد جسد كما بدأت أفهم من خلال قراءتي للمعتقدات الشرقية، ولكني سئمت المسيحية بالكلية، وبعد شفائي عدت لعالم الغناء والموسيقى ثانية، ولكن موسيقاي بدأت تعكس أفكاري الجديدة، وأتذكر إحدى أغنياتي التي قلت فيها:

ليتني أعلم

ليتني أعلم من خلق الجنة والنار

ترى هل سأعرف هذه الحقيقة وأنا في فراشي

أم في حجرة متربة

بينما يكون الآخرين في حجرات الفنادق الفاخرة.

وعندها عرفت أني على الطريق السليم.

وفي ذلك الوقت كتبت أيضاً أغنية أخرى (الطريق إلى معرفة الله)

وقد ازدادت شهرتي في عالم الموسيقى، وعانيت من أوقات عصيبة لأن شهرتي وغناي كانتا تزدادان بينما كنت من داخلي أبحث عن الحقيقة.

وفي تلك المرحلة أصبحت مقتنعاً أن البوذية قد تكون عقيدة نبيلة وراقية ولكني لم أكن مستعداً لترك العالم والتفرغ للعبادة، فقد كنت ملتصقاً بالدنيا ومتعلقاً بها، ولم أكن مستعداً لأن أكون راهباً في محراب البوذية وأعزل نفسي عن العالم.

وبعدها حاولت أن أجد ضالتي التي أبحث عنها في علم الأبراج أو الأرقام ومعتقدات أخرى لكني لم أكن مقتنعاً بأي منها.

ولم أكن أعرف أي شيء عن الإسلام في ذلك الوقت وتعرفت عليه بطريقة أعتبرها من المعجزات، فقد سافر أخي إلى القدس وعاد مبهوراً بالمسجد الأقصى وبالحركة والحيوية التي تعج بين جنباته على خلاف

الكنائس والمعابد اليهودية التي دائماً ما تكون خاوية.

وقد أحضر لي أخي من القدس نسخة مترجمة من القرآن، وعلى الرغم من عدم إعتناقه الإسلام إلا أنه أحس بشيئ غريب تجاه هذا الكتاب وتوقع أن يعجبني وأن أجد فيه ضالتي.

وعندما قرأت الكتاب وجدت فيه الهداية، فقد أخبرني عن حقيقة وجودي والهدف من الحياة وحقيقة خلقي ومن أين أتيت، وعندها أيقنت أن هذا هو الدين الحق، وأن حقيقة هذا الدين تختلف عن فكرة الغرب عنه وأنها ديانة عملية وليست معتقدات تستعملها عندما يكبر سنك وتقل رغبتك في الحياة مثل المعتقدات الأخرى.

ويصم المجتمع الغربي كل من يرغب في تطبيق الدين على حياته والإلتزام به بالتطرف، ولكني لم أكن متطرفاً فقد كنت حائراً في العلاقة بين الروح والجسد فعرفت أنهما لا ينفصلان وأنه بالإمكان أن تكون متديناً دون أن تهجر الحياة وتسكن الجبال، وعرفت أيضاً أن علينا أن نخضع لإرادة الله وأن ذلك هو سبيلنا الوحيد للسمو والرقي الذي قد يرفعنا إلى مرتبة الملائكة، وعندها قويت رغبتي في اعتناق الإسلام.

وبدأت أدرك أن كل شئ من خلق الله ومن صنعه وأنه لاتأخذه سنة ولا نوم، وعندها بدأت أتنازل عن تكبري لأني عرفت خالقي وعرفت أيضاً السبب الحقيقي وراء وجودي وهو الخضوع التام لتعاليم الله والانقياد له وهو ما يعرف بالإسلام.

وعندها اكتشفت أني مسلم في أعماقي، وعند قراءتي للقرآن علمت أن الله قد أرسل بكافة الرسل برسالة واحدة، إذاً فلماذا يختلف المسيحيين واليهود؟ نعم، لم يتقبل اليهود المسيح لأنهم غيروا كلامه، وحتى المسيحيون أنفسهم لم يفهموا رسالة المسيح وقالوا أنه ابن الله، كل ما قرأته في القرآن من الأسباب والمبررات بدا معقولاً ومنطقياً.

وهنا يكمن جمال القرآن فهو يدعوك أن تتأمل وأن تتفكر وأن لا تعبد الشمس أو القمر، بل تعبد الخالق الذي خلق كل شيء، فالقرآن أمر الإنسان أن يتأمل في الشمس والقمر وفي كافة مخلوقات الله. فهل لاحظت إلى أي مدى تختلف الشمس عن القمر؟ فبالرغم من إختلاف بعدهما عن الأرض إلا أن كل منهما يبدو وكأنه على نفس البعد من الأرض! وفي بعض الأحيان يبدو وكأن أحدهما يغطي الأخر! سبحان الله.

وعندما صعد رواد الفضاء إلى الفضاء الخارجي ولاحظوا صغر حجم الأرض مقارنة بالفضاء الخارجي أصبحوا مؤمنين بالله لأنهم شاهدوا آيات قدرته.

وكلما قرأت المزيد من القرآن عرفت الكثير عن الصلاة والزكاة وحسن المعاملة.. ولم أكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكني أدركت أن القرآن هو ضالتي المنشودة، وأن الله قد أرسله إليّ، ولكني أبقيت ما بداخلي سرا لم أبح به إلى أحد.

وبما أن فهمي يزداد لمعانيه عندما قرأت أنه لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من الكفار تمنيت أن ألقى إخواني في الإيمان.

وفي ذلك الوقت فكرت في الذهاب إلى القدس مثلما فعل أخي، وهناك بينما أنا جالس في المسجد سألني

رجل: ماذا تريد؟ فأخبرته بأني مسلم، وبعدها سألني عن اسمي فقلت له:« ستيفنس »، فتحير الرجل، وانضممت إلى صفوف المصلين، وحاولت أن أقوم بالحركات قدر المستطاع.

بعد عودتي إلى لندن قابلت أختا مسلمة اسمها نفيسة، وأخبرتها برغبتي في إعتناق الإسلام، فدلتني على مسجد نيو ريجنت، وكان ذلك في عام ١٩٧٧ بعد عام ونصف تقريباً من قراءتي للقرآن، وكنت قد أيقنت عند ذلك الوقت أنه عليّ أن أتخلص من كبريائي وأتخلص من الشيطان وأتجه إلى اتجاه واحد.

وفي يوم الجمعة بعد الصلاة اقتربت من الإمام وأعلنت الشهادة بين يديه.

سكت قليلا، ثم قال: رغم تحقيقي للثراء والشهرة إلا أني لم أصل إلى الهداية إلا عن طريق القرآن، والآن أصبح بإمكاني تحقيق الاتصال المباشر مع الله بخلاف الحال في المسيحية والديانات الأخرى.

لقد أخبرتني سيدة هندوسية ذات مرة قائلة:« أنت لا تفهم الهندوسية، فنحن نؤمن بإله واحد، ولكننا نستخدم هذه التماثيل للتركيز ».. ومعنى كلامها أنه يجب أن تكون هناك وسائط لتصلك بالله، ولكن الإسلام أزال كل هذه الحواجز، والشيء الوحيد الذي يفصل بين المؤمنين وغيرهم هو الصلاة، فهي السبيل إلى الطهارة الروحية.

وأخيراً أود أن أقول: إن كل أعمالي أبتغي بها وجه الله، وأدعو الله أن يكون في قصتي عبرة لمن يقرؤها.. وأود أن أقرر أني لم أقابل أي مسلم قبل اقتناعي بالإسلام، ولم أتأثر بأي شخص، فقد قرأت القرآن ولاحظت أنه لا يوجد إنسان كامل، ولكن الإسلام كامل، وإذا قمنا بتطبيق القرآن وتعاليم الرسول ﷺ، فسوف ننجح في هذه الحياة. أدعو الله أن يوفقنا في إتباع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام. آمين.

ويل سميث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ويل سميث)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا ممثل أمريكي وفقه الله، فأسلم بعد أثار فضوله للبحث في الإسلام تمثيله لفيلم (علي)، الذي يحكي قصة حياة لاعب الملاكمة الأمريكي المسلم (محمد علي كلاي)، فعندما قرأ قصة حياة محمد علي، بدأ يتساءل حول ماهية هذه الديانة العظيمة، وبدأ يبحث في أسرارها وكيف تزداد قوة يوما بعد يوم وكيف يزداد كذلك عدد معتنقيها يوما بعد يوم، وخاصة في الولايات المتحدة أكثر منها في أي بلد آخر.

واكتشف ويل سميث، بعد قراءة الكثير عن الإسلام، الحقيقة، التي تؤكد أن الإسلام هو الطريق الذي يجب اتباعه في هذه الحياة، وكان قد اتصل ببعض الإتحادات والمراكز الإسلامية بالولايات المتحدة، وقرر اعتناق الإسلام.

وقد ذكر هذا الممثل العالمي أنه سوف يواصل الدراسة والبحث حول الإسلام لكي يستطيع أن يطبقه كما ينبغي أن يطبق.

وقد ذكر السيد سفيان زاكوت.. وهو مدير رابطة مسلمي أمريكا الشمالية.. أن محمد علي هو مثل جيد للمسلمين، وكذلك هو متحدث جيد عن الإسلام في الولايات المتحدة في كافة المجالات، وإذا استطاع ويل سميث أن يقوم بنفس الدور فسوف يكون ذلك مفيد جدًا للمسلمين في أمريكا.

وكان ويل سميث قد ظهر في برنامج في التليفزيون الأمريكي لجمع التبرعات لحادث سبتمبر إلى جوار محمد علي، وقد دافعا عن الإسلام، وقالوا عنه: إنه دين السلام والمحبة.

جينو لو كابوتو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جينو لو كابوتو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا فنان إيطالي، وقد كان يرأس مهرجان البحر الأبيض المتوسط في مدينة بيشيله الإيطالية منذ عام ١٩٩٦ وله اهتمامات عدة في المسرح والسينما والشعر وكذلك في ثقافة الأطفال وفنونهم بالإضافة الي كونه رائد المهرجان الدولي شعر ــ موسيقي ــ مسرح الذي يقام في مدينة كونفر سانو بجنوب إيطاليا.

وقد قدر الله أن ألتقي به بعد إعلان إسلامه في عمان، وقد سألته عن سر اعتناقه للإسلام، فأجاب: منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا أطوف في بلدان عربية وإسلامية وأعيد مخزوني الثقافي متوغلاً في تفاصيل الإسلام حيث تعلمت أركانه والآذان والصلاة فضلاً عن اقترابه الشديد من الدين المسيحي وعرفت أن الإسلام هو إلى الأبد، مدعوماً بنصائح ودروس كنت أتلقاها من صديقي الدكتور سلطان العويضة الملحق الثقافي السعودي إذ تفرغ لي كثيراً وأعطاني الكثير من المعلومات والقصص وسير المسلمين وأهمية القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء محمد ﷺ لدرجة أني شعرت بانتصار روحي فور دخولي الدين الإسلامي، هذا وقررت تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم والمواظبة علي حفظ حدود الله بالإضافة الي دراسة تاريخ الصحابة من المسلمين الأوائل.

وأضاف: لقد وجدت أن كل الحضارات الإنسانية تستلهم قيمها من الدين الإسلامي نفسه، وأن ابن خلدون وابن رشد هما عربيان وللأسف ان الغرب ينظر الي الإسلام نظرة خاطئة.

وقال: أرى أن الإسلام يحمل المعاني السامية والنبيلة ويهذب الذات ويعطي للإنسان أملاً وحياة تنبض بالخير والعطاء والإيمان والسلام، وأدركت أن الإنسان لا يمكن أن يعيش لوحده من دون الله.

جيرمان جاكسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جيرمان جاكسون)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مغن أمريكي.. وهو شقيق المغني المعروف (مايكل جاكسون)، وقد قدر الله أن ألتقي به لأسأله عن سر إسلامه، فكان من جوابه لي: عند زيارتي إلى عدد من دول منطقة الشرق الاوسط في عام ١٩٨٩ بصحبة أختي الكبرى، حيث زرنا خلال هذه المرحلة البحرين ورحب بنا الكثيرون.

وكنت مرة أتبادل الحديث مع الاطفال في المنامة خلال تلك الرحلة، فمن جملة أسئلتهم البريئة سؤال كان عن ديني، فأجبتهم بأني مسيحي، وسألتهم بدوري عن دينهم، فأجابوني بصوت واحد أن دينهم الإسلام، وكانوا فخورين جدا بالانتماء لهذا الدين، وانطلقوا في الحديث عنه، وسألتهم أكثر عنه، وصار كل واحد منهم يحدثني عن الإسلام بطريقة أدهشتني، فهؤلاء الاطفال الذين أحببتهم كانوا فخورين جدا بدينهم ويتحدثون عنه بسعادة غامرة.

---

(١) انظر قصة غسلامه في حوار أجرته معه مجلة (المجلة) في العدد ٩٦٦.

بعد عودتي من البحرين والحديث مع أولئك الاطفال عن الإسلام تيقنت من أنني سأصبح مسلماً.. وتحدثت مع صديق لي اسمه علي قنبر عن هذا الشعور الذي بدأ ينتابني منذ فترة، وأفصحت له عن رغبتي في تعلم المزيد عن الإسلام، وسافرت معه الى المملكة العربية السعودية لأتعرف على الإسلام أكثر فأكثر، وهناك أعلنت اسلامي.

سكت قليلا، ثم قال: سافرت مع صديقي علي قنبر الى مدينة الرياض لمعرفة المزيد عن الإسلام، ومن هناك سافرت الى جدة واصطحبتني اسرة سعودية كريمة بعد اعتناقي للاسلام الى مكة المكرمة لاداء العمرة.

وقد وصف جاكسون أنه بعد إسلامه شعر بأنه ولد من جديد، يقول: كانت لدي العديد من الاسئلة الحائرة التي ابحث لها عن اجابات، خاصة الاسئلة المتعلقة بالمسيحية وعيسى عليه السلام، فوجدت إجابات جاهزة ومقنعة لكل هذه الاسئلة لحظة اعتناقي الإسلام.

وقد كنت في حيرة من امري كمسيحي نشأ في أسرة متدينة، اذ كان يحيرني دائما أن الانجيل مكتوب على ايدي اشخاص عاديين، وكان دائما يخطر ببالي أن هؤلاء بشر فكل واحد منهم سيراعي نفسه ومجموعته في ما يكتب، بينما القرآن كتاب الله حفظه الله على مر السنين والاجيال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

وفي السعودية وجدت اشرطة جميلة جدا للمغني البريطاني السابق والداعية الإسلامي يوسف اسلام، وفيها مناظرة حول الإسلام والمسيحية ومنها تعلمت الشيء الكثير.

وقد حدثني في لقائي معه عن الحملة الإعلامية الجائرة التي يعترض لها الإسلام، وقد ذكر لي عجبه من أن الناس العاديين في اميركا يصدقون هذه الحملة الاعلامية الجائرة لجهلهم بحقيقة الإسلام وسماحة هذا الدين.

قال جاكسون: ان الحملة الاعلامية الجائرة في اميركا ضد الإسلام والمسلمين لم تقتصر على اجهزة الاعلام المختلفة، بل ان هوليوود عاصمة صناعة السينما الاميركية تحاول فيما تنتجه من أفلام أن تصور للناس ان المسلمين ارهابيون وقتلة واشرار. ولقد عرفت من خلال تجربتي قبل اعتناقي الإسلام وبعده ان الناس عليهم الا يصدقوا ما تنتجه هوليوود من افلام تسيء الى الإسلام والمسلمين. وان هذا التشويه يؤلم كل مسلم ويجعله يتمنى لو انه يستطيع تغيير هذه الصورة بصورة الإسلام الحقيقية اسلام الحضارة والنور، اسلام التسامح والاخاء.

وقد ذكر لي تأثير الإسلام فيه، فقال: لقد قدم لي الإسلام حلا لكل مشكلاتي، فأصبحت إنسانا بلا أي مشاكل، وكنت من داخلي أتغير بشكل رائع، حيث امتنعت عن شرب الخمر تماما وغيرها من الاشياء المحرمة امتثالا لأوامر ديني الجديد.

براين هوايت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (براين هوايت)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) انظر: المسلمون الجدد -إعداد: إمام محمد إمام.

اسم موسيقي بريطاني هداه الله للإسلام، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه (إبراهيم هويت)

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ولست أدري لم اختار أن يبدأ حديثه بقوله: من المحتمل أن أكون عنصريا متطرفا في عنصريتي قبل اعتناقي للدين الإسلامي، الدين الذي علمني معنى التسامح والتراحم بين الناس ونزع عني شرور التطرف والكراهية والقسوة.

ثم أضاف: اعتقد أنه من فرط عنصريتي وتطرفي أنني لم اتحدث مع شخص غير أبيض لمدة ٢١ عاما من حياتي، فكنت شخصا معتدا بنفسه وبلون بشرته أكثر من اللازم، وأعيش حياة نظيفة وراقية، وأجتهد في عملي كسائر أبناء الشمال البريطاني. وكنت أحسب أن العالم ينتهي عند مدينة ميدلسبره البريطانية، حيث تنشئتي وتربيتي هناك.

ثم حدثني عن كون هذا هو سر إسلامه فيما بعد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر لي أنه ذهب إلى أحد المساجد في مدينة جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، وشاهد مصلين من مختلف الاجناس والألوان يصلون مع بعضهم بعضا، فاندهش لذلك اندهاشا كان مقدمة لإسلامه، قال لي: عندما رأيت ذلك المشهد الرهيب قلت لنفسي: ما هي حقيقة الإسلام؟ هذا الدين الذي يستطيع أن يجمع الناس في جنوب افريقيا من كل الاماكن ومن مختلف الاجناس والألوان؟ وعندما عدت الى بريطانيا حرصت على البدء في القراءة عن الدين الإسلامي.

ثم قررت اشهار اسلامي بعد دراسة عميقة للدين الإسلامي، وشعرت بارتياح وسعادة بالغتين، لان الله سبحانه وتعالى هداني الى هذا القرار الخاص باعتناقي للاسلام. وسارعت الى تعليق آلاتي الموسيقية وهجرت شرب الخمر والذهاب الى الحانات والليالي الصاخبة.

كريستيان باكر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كريستيان باكر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مغنية من قناة إم تي في (MTV) الأوروبية، وقد ولدت في عائلة بروستانتية وعاشت في هامبورج، بألمانيا، وقد حدثتني عن نفسها قبل إسلامها، والألم يعتصرها، فقالت: عندما كنت في سن الواحدة والعشرين اشتركت في راديو هامبورج كمذيعة في الراديو.. وعشت في نوتينج هيل، وكنت البنت الجديدة في المدينة، لقد دعيت إلى كل مكان، وصورني المصورون وتابعتني الصحافة.. التقيت بالكثير من المشاهير، واستمتعت بوقتي.. لقد أنفقت معظم مالي في الملابس، وسافرت إلى كل أوروبا، وإلى أفضل الأماكن.

لقد كنت الفتاة الأولى في قناة إم تي في، وظهرت في شاشة التلفاز طوال الوقت، وعرفني الناس في أوروبا كلها، وفي وقت من الأوقات وقفت على المنصة أمام سبعين ألف شخص.. لسبع سنوات قدمت برامج كثيرة، وقابلت الكثيرين من نجوم الغناء.

قلت: فكيف تحولت عن هذه الحياة إلى حياة الإيمان؟

قالت: لقد كنت ــ في كل ذلك الضجيج ــ منجذبة نحو الحياة الروحية، ولكن لم أفعل أي خطوات

عملية نحو تلك الحياة إلى أن التقيت في عام ١٩٩٢م بعمران خان، وهو من فريق لعبة الكريكت الباكستاني، وكانت تلك أول مرة ألتقي فيها بمسلم.

وقد كان عمران في ذلك الوقت يبحث عن حقيقة الإيمان، وقد دارت بيننا الكثير من النقاشات عن الإسلام، وقد أعطاني بعض الكتب عن الإسلام، وبدأت أقرأ عن دين الله.

وفي ذلك الحين بدأت في تحدي انحيازاتي، وبدأت أنظر بين السطور، وقرأت القرآن وبدأ كل شئ يكون له معنى.

قلت: إن قومنا يشوهون موقف الإسلام من المرأة، ألم يؤثر ذلك فيك؟

قالت: كامرأة غربية عصرية وذات درجة علمية، احتجت لأن أنظر إلى رؤية الإسلام للمرأة، لا يمكن أن أقبل بأن أظلم، فاكتشفت أن رسالة الإسلام مؤيدة للمرأة ومؤيدة للرجل، في الإسلام كان للمرأة حق التصويت في عام ٦٠٠، الرجال يلبسون ملابس محتشمة، والنساء يلبسون ملابس محتشمة، لا أحد من الجنسين يطلق العنان لنظره...بل كلا الجنسين يغض بصره، لا أظن أنها ظاهرة صحية بأن يطلق الناس العنان لشهواتهم الجنسية..إن ذلك يثير الشهوة الخاطئة مرة أخرى.

قلت: فبم اشتغلت بعد إسلامك؟

قالت: لقد فتح الإسلام لي نوافذ كثيرة كانت مغلقة في وجهي.. أنا الآن أصلي الصلوات الخمس، وأصوم شهر رمضان.. وكنت أشرب الخمر في باريس..ولكن الآن لا ألمسها.. وفي عام ٢٠٠١ ذهبت إلى مكة.. وكانت تجربة رائعة.. لقد عدت بالسعادة والطمأنينة.. وعندما عدت بدأت بالدراسة الجامعية في جامعة ويست مينيستر، حيث درست الطب الطبيعي، والأعشاب، والطب الصيني.. لقد فتحت أمامي أبواب أخرى لعالم عجيب، النظرة الأخرى للإنسان والطبيعة، والصحة والمرض.

هذا ما حدثتني به، وقد كان آخر ما ذكرته لي قولها، والبشر يعلو وجهها: الإسلام هو أكبر هدية حصلت عليها.

خامسا ـــ العلماء

فتحت دفتر البابا على فصله الخامس، فوجدت عنوانه (العلماء)، فقلت: من تقصد بالعلماء.. علماء الدين، أم علماء الدنيا.. أم كلاهما؟

قال: عندما وضعت هذا العنوان كنت لا أزال على دين قومي، ولهذا كنت أعتقد المفاصلة بين الدين والعلم.. فلهذا أطلقت اسم (الأحبار) على علماء الدين، وأطلقت هذا الاسم على علماء الدنيا.

قلت: فكيف أتيح لك أن تلقى من علماء الدنيا من يبثك نفحات صدقه.. وأنا لا أراهم إلا مشغولين بمخابرهم وبحوثهم وشهاداتهم وتنافسهم في كل ذلك.

قال: ما تقوله صحيح.. ولكن من هؤلاء العلماء من كان يتيح المجال لعقله ليبحث في أسرار الكون.. وهؤلاء عادة لا يجدون دينا يملؤهم بالقناعة غير الإسلام.

لقد ذكر القرآن الكريم تأثير الإيمان في العلماء، فقال:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: من الآية٢٨)

وقد أخبر القرآن الكريم أن الذين أوتو العلم أقرب الناس إدراكا للحق، فقال:﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (ســبأ:٦)

لقد حصل الكثير مما ذكر القرآن الكريم.. بل أنا أجزم أن المسلمين لو استطاعوا أن ينشروا تلك العجائب التي امتلأ بها القرآن لتحول جميع علماء الدنيا إلى مسلمين..

لقد سمعت مرة الدكتور زغلول النجار[1]، وهو يتحدث عن تأثير نواحي الإعجاز العلمي في النصوص المقدسة.. فقال: دعيت مرة لحضور مؤتمر عقد للإعجاز في موسكو، فكرهت في بادئ الأمر أن أحضره، لأنه يعقد في بلد كانت هي عاصمة الكفر والإلحاد لأكثر من سبعين سنة، وقلت في نفسي: ماذا يعلم هؤلاء الناس عن الله حتي ندعوهم إلي ما نادي به القرآن الكريم !؟

فقيل لي: لابد من الذهاب، فإن الدعوة قد وجهت إلينا من قبل الأكاديمية الطبية الروسية.. فذهبنا إلي موسكو، وفي أثناء استعراض بعض الآيات الكونية، وبالتحديد عند قول الله ﷻ:﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة:٥) وقف أحد العلماء المسلمين وقال: إذا كانت ألف سنة تساوي قدران من الزمان غير متكافئين دل ذلك علي اختلاف السرعة. ثم بدأ يحسب هذه السرعة فقال: ألف سنة..لابد أن تكون ألف سنة قمرية، لأن العرب لم يكونوا يعرفون السنة الشمسية، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً، ومدة الشهر القمري هي مدار القمر حول الأرض، وهذا المدار محسوب بدقة بالغة، وهو ٢,٤ بليون كم.. و٢,٤ بليون مضروب في ١٢، وهو عدد شهور السنة، ثم في ألف سنة، ثم يقسم هذا الناتج علي أربع وعشرين، وهو عدد ساعات اليوم، ثم علي ستين ـــ الدقائق ـــ ثم علي

(١) من كتاب (الذين هدى الله) للدكتور زغلول النجار.

ستين ـــ الثواني ـــ فتوصل هذا الرجل إلي سرعة أعلي من سرعة الضوء.

فوقف أستاذ في الفيزياء ـــ وهو عضو في الإكاديمية الروسية ـــ وهو يقول: لقد كنت أظنني ـــ قبل هذا المؤتمر ـــ من المبرزين في علم الفيزياء، وفي علم الضوء بالذات، فإذا بعلم أكبر من علمي بكثير، ولا أستطيع أن أعتذر عن تقصيري في معرفة هذا العلم إلا أن أعلن أمامكم جميعاً أني (أشهدأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)

ثم تبعه في ذلك أربعة من المترجمين،الذين ماتحدثنا معهم علي الإطلاق، وإنما كانوا قابعين في غرفهم الزجاجية يترجمون الحديث من العربية إلي الروسية والعكس، فجاءونا يشهدون أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ليس هذا فحسب وإنما علمنا بعد ذلك أن التلفاز الروسي قد سجل هذه الحلقات وأذاعها كاملة، فبلغنا أن أكثر من ٣٧ عالماً من أشهر العلماء الروس قد أسلموا بمجرد مشاهدتهم لهذه الحلقات.

التفت البابا إلي، وقال: هذه ثمرات مؤتمر أكاديمي واحد، فكيف لو اجتهد المسلمون للوصول إلى مخابر هؤلاء العلماء ومحادثتهم وجها لوجه !؟

موريس بوكاي:

كان أول اسم سجل في هذا الفصل اسم (موريس بوكاي)، فقلت: من هذا الرجل.. وكيف أتيح لك أن تلتقي به.. وماذا قال لك.. وما !؟

قاطعني البابا قائلا: هذا رجل عظيم، وهو من أكثر الشخصيات التي أحترمها.. وهو يمثل العالم المنصف، والباحث الواصل.

قلت: لم؟

قال: هو ـــ أولا ـــ طبيب فرنسي، بل هو رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، وقد منحته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٨م جائزة في التاريخ.. ويُعتبر كتابه (التوراة والقرآن والعلم) من أهم الكتب التي درست الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، وله ـــ بالإضافة إليه ـــ كتاب (القرآن الكريم والعلم العصري)

قلت: فكيف كان رحلته إلى الإسلام؟

قال: لقد ذكر ذلك في كتبه.. وقد تشرفت بلقائه، فسمعت ذلك منه مشافهة، ومما ذكره لي قوله:(لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثًا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نصّ إنجيل متى

يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض)[1]

قلت: فقد اهتدى إلى الإسلام بسبب مقارنته بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في النواحي العلمية؟

قال: أجل.. لقد كان شديد الإعجاب بما في القرآن الكريم من نواحي الإعجاز العلمي، وقد قال لي ـــ في لقائي معه ـــ:(لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام.. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة)[2]

لقد (تناولتُ القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية.. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة)[3]

لقد كنت أقول لنفسي:(كيف يمكن لإنسان — كان في بداية أمره أمّيًا -.. أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟)[4]

ليس ذلك فقط هو الذي جعل موريس بوكاي يمتلئ قناعة بالإسلام، هناك شيء آخر له أهميته الكبرى.

قلت: تقصد موقف الإسلام من العلم؟

قال: أجل.. فهو موقف مختلف كثيرا، بل مناقض لموقف الكنيسة، لقد قال لي ـــ وهو الباحث المنصف ـــ (إن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا)[5]

وقال لي: (في الإسلام كان الموقف إزاء العلم مختلفًا [عن المسيحية] إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي يقول:« اطلب العلم من المهد إلى اللحد» أو ذلك الحديث الآخر الذي يقول:« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » هناك أمر رئيسيّ: القرآن، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظاهرات الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٥٠.
(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٤٥.
(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٤٥.
(٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص ١٥٠.
(٥) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤.

تمامًا مع معطيات العلم الحديث)[1]

وقد ذكر لي أن تلك المقارنات التي كان يجريها بين موقف المسلمين من العلم طيلة تاريخهم الطويل مقارنة بموقف الكنيسة كانت سببا من أسباب إسلامه، فهو يقول: (علينا أن نتذكر أنه في عصر عظمة الإسلام، أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية، أنجزت كمية عظيمة من الأبحاث والاكتشافات بالجامعات الإسلامية.. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة، ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمائة ألف مجلد.. [وكان] الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها، ولكن كم هي كثيرة تلك المخطوطات القديمة التي وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة، ولكم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات (فالجبر عربي) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النباتات والطب إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية. في ذلك العصر كان الناس أكثر تأثرًا بالروح الدينية مما هم عليه في عصرنا، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغي على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك)[2]

قلت: أحسبني.. بل أحسب كل من قرأ كتب موريس يعلم هذا.. ولكني أبحث عن الشعاع الأول الذي اهتدى به إلى شمس محمد.

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك[3].. بل أخبرني عن حياته الشخصية فذكر لي أنه ولد من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية ، ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالبا في كلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب ، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه.

التفت البابا إلي، وقال: أنت تعلم أن فرنسا من أكثر الدول اهتماما بالآثار والتراث، ولهذا عندما تسلم الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١ طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..

فتم نقل جثمان فرعون من مصر.. وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنيا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حيا.

وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا حملت مومياء فرعون بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي ، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤٠.

(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤٠ – ١٤١.

(٣) انظر في هذا مقالا لد.محمد يوسف المليفي في كتاب (لماذا أسلموا)

فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

لقد كان المعالجون ـــ في ذلك الموقف ـــ مهتمين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس بوكاي) مختلفا عنهم غاية الاختلاف.. فقد كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني.

وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية ..

لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقا، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه.

لكن ثمة أمراً غريباً مازال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر..!

كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائيا عما كان يعتقده اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة ، حتى همس أحدهم في أذنه قائلا: لا تتعجل، فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

لكنه استنكر بشدة هذا الخبر ، واستغربه ، فمثل هذا الإكتشاف لايمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة ، فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلا إلا في عام ١٨٩٨ ميلادية أي قبل مائتي عام تقريبا ، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمئة عام.

وكيف يستقيم في العقل هذا ، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط.

جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقا بجثمان فرعون ، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق.. بينما الكتاب المقدس يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى !؟

وهل يعقل ان يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه !؟

لم يستطع (موريس) أن ينام ، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد).. وبقي موريس بوكاي حائرا.

حتى الكتاب المقدس لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون.. ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار و لم

يهدأ له بال منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة.

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله ﷻ:﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس:٩٢)

لقد كان وقع الآية عليه شديدا.. بل رجت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته:(لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن)

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذى ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم ، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة نص عليها قوله ﷻ:﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢)

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجا ، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)

قلت: كيف كان تأثير هذا الكتاب على الأوروبيين؟

قال: لقد كان تأثيرا خطيرا.. فهو من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات.. ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأوردوية والكجوراتية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب.

قلت: ألم يلق هذا الكتاب ردا من الدوائر الرسمية التي تعودت على بث الشبهات عن الإسلام؟

قال: بلى.. لقد بذلوا كل جهودهم للرد عليه.. ولكنهم لم يكتبوا غير تهريج جدلي، ومحاولات يائسة أملتها عليهم وساوس الشيطان.. وقد كان آخرهم الدكتور (وليم كامبل) في كتابه المسمى (القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم) فقد شرق وغرب و لم يستطع في النهاية أن يحرز شيئا.

بل الأعجب من هذا أن بعض العلماء في الغرب بدأ يجهز رداً على الكتاب ، فلما انغمس بقراءته أكثر وتمعن فيه زيادة.. أسلم ونطق بالشهادتين على الملأ.

كيث مور:

رأيت اسم (كيث مور)، فسألت البابا عنه، فقال: تعرفت على هذا الرجل في بعض الجامعات حيث تقدم ليلقي محاضرة بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وقد قدمه مدير الجامعة[1] بقوله: محاضرنا اليوم

---

(١) المقدم هو الدكتور عبدالله نصيف مدير جامعة الملك عبدالعزيز في ذلك الحين، وقد تولى منصب أمين العام لرابطة العالم الإسلامي بعد ذلك.

هو الأستاذ كيث مور.. وهو أستاذ علم التشريح والأجنة في جامعة تورنتو بكندا، وقد تدرج فيها حتى وصل إلى هذه المرتبة في جامعات عديدة، منها جامعة تويناباك في الغرب الكندي حيث كان هناك لمدة ١١ سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، منها على سبيل المثال جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية الأخرى، كما انتخب عضواً بالجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وعضواً في إتحاد الأمريكتين في التشريح أيضاً، وقد ألف العديد من الكتب، بعض هذه الكتب في مجال التشريح الأكلينكي وعلم الأجنة، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعاً لطلاب كليات الطب، وقد ترجمت إلى ست لغات: الإيطالية، والألمانية، والبرتغالية، والإسبانية، واليونانية، والصينية »

بعد هذا التقديم تقدم الدكتور مور لإلقاء محاضرته، فقال: (لقد أسعدني جداً أن أشارك في توضيح هذه الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثاً، وبعد قرون عدة وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله)[1]

ثم قال:(إنني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمداً أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين، لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين)

لاحظت في وجوه الجمع الحاضر سرورا عظيما، واهتماما كبيرا بما يقوله هذا الدكتور الباحث المنصف، ولاحظت فوق ذلك نفحات الصدق التي ذكرها لي معلم السلام.

حاولت أن أقترب منه لأستوضح أسرار ذلك التصريح الخطير، لكني لم أتمكن، ولكني مع ذلك رأيت الدكتور زغلول النجار الذي ذكر لي أنه قال في مؤتمر موسكو للإعجاز العلمي (إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل علي شئ فإنما يدل علي أن هذا القرآن لايمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمداً رسول الله)

فقيل له بعد انتهاء محاضرته: هل أنت مسلم؟.. فقال: لا.. ولكني أشهد أن القرآن كلام الله.. وأن محمداً مرسل من عند الله، فقيل له: إذاً.. فأنت مسلم، قال: أنا تحت ضغوط اجتماعية تحول دون إعلان إسلامي الآن[2]، ولكن لاتتعجبوا إذا سمعتم يوماً أن كيث مور قد دخل الإسلام.

---

(١) انظر شهادة كيث مور المصورة علي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم على الروابط التالية:
الجزء الأول: http://alhakekah.com/aduio/moore-١-٥٦k[١].ram
الجزء الثاني: http://alhakekah.com/aduio/moore-٢-٥٦k[١].ram

(٢) قد ذكرنا في مناسبات مختلفة عدم اشتراط الإعلان بالطرق المعمول بها، بل قد يكون من الحكمة عدم هـذا الإعـلان، خاصة إذا ترتبت عليه مفاسد تتعلق بالمعلن عن إسلامه أو من يرتبطون به، وقد ذكر القرآن مؤمن آل فرعون الذي لم يعلن إيمانه إلا بعد أن رأى المناسبة الداعية لذلك، فقال ﷻ:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّـهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُـوَ

قال زغلول النجار: ولقد وصلنا في العام الماضي أنه قد أعلن إسلامه فعلاً، فلله الحمد والمنة.

حاولت أن أقترب منه في مناسبة أخرى، لكني لم أتمكن، وقد أخبرني الشيخ الفاضل عبد المجيد الزنداني عن سر ذلك التوجه فقال: لقد كان النور الذي أطل منه هذا العالم الفاضل على الإسلام هو مراحل خلق الإنسان السبعة التي ذكرها القرآن في قوله ﷻ:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون ١٢ـــ١٤)

فقد وجد هذا العالم أن علم الأجنة بأجهزته المتطورة يثبت هذه المراحل وتطابقها مع المراحل المذكورة في القرآن.

ثم قال لي الشيخ الزنداني: تأمل ما قاله هذا الأستاذ الكبير من مشاهير علماء العالم في الأجنة عندما درس الآيات المتعلقة بمجال اختصاصه في هذا الكتاب تأمل ماذا قال (إنه لا بد أن يكون محمد رسولاً من عند الله، وعندما شاهد البروفيسور كيث مور العلقة التي توجد في البرك، وقارن بينها وبين الجنين في مرحلة العلقة وجد تشابها كبيراً بين الاثنين، ثم قال بعد ذلك: إن الجنين في مرحلة العلقة يشبه هذه العلقة تماماً. وتبنى هذه القضية وجاء بعد ذلك بصورة لهذه العلقة التي تعيش في البرك ووضعها بجوار صورة أخرى للجنين وجمع بينهما في شكل توضيحي وعرضه على الأطباء في عدد من المؤتمرات.

وبين البروفيسور كيث مور أيضاً أن الجنين في مرحلة العلقة يكون معلقاً في رحم أمه.. وكذلك فإن العلقة في لغة العرب تعني الدم المتجمد.

وقد ذكر البروفيسور كيث مور أن الجنين في مرحلة العلقة تكون الدماء فيه محبوسة في العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجمد.

وهكذا تشمل كلمة (العلقة) جميع أوصاف الجنين فمن أخبر محمداً ﷺ بهذا؟

ثم تحدث البروفيسور كيث مور عن المضغة، وجاء بقطعة من الطين الصلصال ومضغها بفمه، ثم جاء بصورة من جنين وقارن بين الاثنين وقال: إن الجنين يشبه المضغة.

وقد نشرت بعض الصحف الكندية كثيراً من تصريحات البروفيسور كيث مور، وأخيراً قدم كيث مور ثلاث حلقات في التلفزيون الكندي عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل ١٤٠٠ عام وما كشف عنه العلم في هذا الزمان، وعلى أثر ذلك وجه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنى ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟فأجاب: لم أجد صعوبة في قبول هذا، فقيل له: كيف تؤمن بمحمد وأنت تؤمن بالمسيح؟ فأجاب: أعتقد أنهما من مدرسة واحدة.

وقد قال الشيخ الزنداني معقبا على هذا:(وهكذا يمكن لعلماء العالم في عصرنا أن يعلموا أن هذا الكتاب قد نزل بعلم الله، كما قال تعالى﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (غافر:٢٨)

شَهِيداً) (النساء:١٦٦) فيعلمون إذاً أن محمداً رسول الله ﷺ)

قال الشيخ الزنداني ذلك، ثم أخرج لي كتابا من محفظته، وقال: هذا كتاب The Developing Human أو أطوار خلق الإنسان.. وهو من أهم الكتب التي ألفها هذا العالم الفاضل.. وهو مرجع علمي عالمي، وعندما كونت لجنة في أمريكا لاختيار أحسن كتاب في العالم ألفه مؤلف واحد كان هذا الكتاب هو الفائز عند تلك اللجنة.

سكت قليلا، ثم قال: لي مع صاحب هذا الكتاب قصة أحب أن أعرضها عليك.. لقد التقيت بصاحب هذا الكتاب وعرضت عليه كثيراً من الآيات والأحاديث المتعلقة بمجال تخصصه في علم الأجنة، فاقتنع بما عرضت عليه، وقلت له: إنك ذكرت في كتابك القرون الوسطى، وقلت إن هذه القرون لم يكن فيها تقدم لعلم الأجنة، بل لم يعلم فيها إلا الشيء القليل، وفي هذه العصور عندكم كان القرآن يترل عندنا، وكان محمد ﷺ يعلم الناس الهدي الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وفيه الوصف الدقيق لخلق الإنسان ولأطوار خلق الإنسان، وأنت رجل عالمي فلماذا لم تنصف وتضع في كتابك هذه الحقائق؟

فقال: الحجة عندكم، وليست عندي، قدموها لنا.

قال الشيخ: ففعلنا، فكان هو كذلك عالماً شجاعاً.. فوضع إضافة في الطبعة الثالثة، وهي الآن منتشرة في العالم بثمان لغات يقرؤها أكابر العلماء في العالم الذين ينطقون باللغة الإنجليزية والروسية والصينية واليابانية والألمانية والإيطالية واليوغوسلافية والبرتغالية.

أكابر العلماء في العالم الناطقون بهذه اللغات يقرؤون ما أضافه البروفيسور كيث مور في هذا الباب.

فتح الشيخ الكتاب، ثم قال: اسمع ما يقول البروفيسور كيث مور في هذ الكتاب تحت عنوان (العصور الوسطى).. لقد قال: (كان تقدم العلوم في العصور الوسطى بطيئاً، و لم نعلم عن علم الأجنة إلا الشيء القليل، وفي القرآن الكريم الكتاب المقدس لدى المسلمين ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات من الذكر والأنثى، وقد وردت عدة إشارات بأن الإنسان يخلق من نطفة من المني، وبين أيضاً أن النطفة الناتجة تستقر في المرأة كبذرة بعد ستة أيام، والمعروف أن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام تبدأ في النمو بعد ستة أيام من الإخصاب، ويقول القرآن الكريم أيضاً: إن النطفة (المني) تتطور لتصبح قطعة من دم جامد (علقة) وأن البُييضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام، أو أن البُييضة الملقحة التي بدأت بالإنقسام أو الحمل المجهض تلقائياً يمكن أن تشبه العلقة، ويمكن رؤية مظهر الجنين في تلك المرحلة يشبه العلقة كما هو موضح (الشكل):فإن الرسم لا يختلف عن شكل العلقة أو ماص الدماء.ويكون مظهر الجنين في هذه المرحلة يشبه شيئاً ممضوغاً كاللبان أو الخشب ويظهر في (الشكل):وكأن فيها آثار الأسنان التي مضغتها، ولقد اعتبر الجنين في الشكل الإنساني بعد مضي أربعين أو اثنين وأربعين يوماً ولا يشبه بعدها جنين الحيوان. لأن الجنين البشري يبدأ باكتساب مميزات الإنسان في هذه المرحلة، كما هو مبين في (الشكل):قال تعالى: ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ (الزمر: ٦) إن الجنين يتطور داخل ثلاثة حجب مظلمة. وهذا قد يشير إلى (جدار البطن الخارجي للمرأة، وجدار الرحم، والغشاء الداخلي الذي يحيط بالجنين مباشرة)، ولا يتسع

المجال لمناقشة موضوعات هامة أخرى مشوقة وردت في القرآن الكريم، وتتعلق بتطور الإنسان في مرحلة ما قبل ولادته)

أغلق الشيخ الكتاب، ثم قال: هذا الذي كتبه د. كيث مور، وأصبح منتشراً في العالم اليوم ولله الحمد هذا ما أملاه عليه البحث العلمي.

لقد اقتنع الأستاذ كيث مور أيضاً بأن التقسيم الذي تقسم إليه أطوار الجنين في بطن أمه الآن في العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم ولا ينفع في فهم مراحل تطور الجنين، ذلك لأنه يقسم المراحل تقسيماً رقمياً أي المرحلة ١،٢،٣،٤، أو المرحلة رقم ٥ وهكذا بينما التقسيم الذي جاء بالقرآن لا يعتمد على الأرقام بل يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية، فكانت التقسيمات في كتاب الله (نطفة ـــ علقة ـــ مضغة ـــ عظام ـــ كساء العظام باللحم ـــ النشأة خلقاً آخر)، وهناك تفاصيل متفاوتة في كل منها.

عن هذه التقسيمات القرآنية التي تعتمد على الشكل المحدد المتميز عن الشكل الآخر قال البروفيسور كيث مور: هي تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة ومفهومة ونافعة.

وقد وقف في أحد المؤتمرات يعلن هذا فقال:(يحمي الجنين في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات موضحة في الشريحة التالية (الجدار البطني.. الجدار الرحمي.. الغشاء).. لأن مراحل تطور الجنين البشري معقدة، وذلك بسبب التغيرات المستمرة التي تطرأ عليه فإنه يصبح بالإمكان تبني نظام جديد في التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن والسنة، ويتميز النظام الجديد بالبساطة والشمولية إضافة إلى انسجام مع علم الأجنة الحالي.. لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربعة الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشاً حيث إنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد من الله، إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أمياً، ولهذا لم يكن قد نال تدريباً علمياً.

سكت الشيخ الزنداني قليلا، ثم قال: قلت للدكتور مور: إن هذا الذي قلته صحيح، ولكنه أقل مما عرض عليك من حقائق الكتاب والسنة في مجال علم الأجنة، فلم لا تكون منصفاً وتفسح المجال لبيان جميع الآيات والأحاديث التي وردت في القرآن المتعلقة بمجال اختصاصك، فقال: لقد كتبت القدر المناسب في المكان المناسب في كتاب علمي متخصص، ولكني أسمح لك أن تضيف إلى كتابي إضافات إسلامية تجمع فيها جميع الآيات والأحاديث التي تحدثنا عنها وناقشناها وتضعها في مواضعها المناسبة من كتابي هذا، وبعد ذلك تقدم وتبين أوجه الإعجاز في هذا الكتاب ففعلت ذلك.

ثم بعد ذلك وضع الدكتور كيث مور مقدمة هذه الإضافات الإسلامية.

أخرج الشيخ الزنداني نسخة أخرى من الكتاب، وقال: هذا الكتاب هو الذي اقترحه البروفيسور كيث مور مع الإضافات الإسلامية كما تراه.

ثم قال: لقد رجعنا إلى كل صفحة من الصفحات التي فيها حقائق من علم الأجنة فوضعنا في مقابلها الآيات والأحاديث النبوية التي تبين وجه الإعجاز، إننا اليوم بإذن الله تعالى على موعد مع الإسلام في فتح جديد للعقول البشرية المنصفة.

تيجاتات تاجسن:

رأيت اسم (تيجاتات تاجسن)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور (تيجاتات تيجاسون).. وهو رئيس قسم علم التشريح في جامعة شيانك مي، وهو من تايلند.

وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني[1]، فقد قال لي: بدأت صلتي بالبروفيسور تاجات تاجاسون عندما عرضنا عليه بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه في مجال علم التشريح.

وعندما أجاب عليها قال لي: ونحن كذلك يوجد لدينا في كتبنا المقدسة البوذية أوصاف دقيقة لأطوار الجنين.

فقلت له: أنا بشوق لكي أعرف هذه الأوصاف، وأريد أن أطلع على ما كتب في هذه الكتب.

وعندما جاء ممتحناً خارجياً لطلاب الطب في جامعة الملك عبدالعزيز بعد عام سألته، فاعتذر لي، وقال: كنت قد أجبتك دون أن أتثبت لهذا الأمر، ولما بحثت عنه وجدت أنه لا توجد النصوص التي ذكرتها لك.

عندئذٍ قدمت له محاضرة مكتوبة للدكتور (كيث مور)، وكان عنوان المحاضرة (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وسألته عن الأستاذ كيث مور: هل تعرفه؟ فقال: إنه رجل من كبار علماء العالم المشهورين في هذا المجال.

وبعد أن اطلع على هذه المحاضرة اندهش، وسألناه عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه كان منها ما يتعلق بالجلد، قلت له: هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم الحرق ؟

قال: نعم إذا كان الحرق عميقاً ودمر عضو الإحساس بالألم.

قلت: حسناً ما رأيك إذن أن القرآن الكريم الذى عند تاريخ نزوله على محمد ﷺ لأكثر من ألف وأربعمائة عام قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التي سيعاقب الله به الكافرين يوم القيامة حيث يقول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء:٥٦)

فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلداً جديداً كى يتجدد إحساسهم بالألم وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التى تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة فى الجلد.

قال: هذا أمر يدعو للدهشة والغرابة حقيقة، فتلك معرفة مبكرة جداً عن مراكز الإحساس والأعصاب فى الجلد ولا أدرى كيف ذكر قرآنكم هذا؟

---

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ الزنداني، ببعض التصرف، وانظر شهادته المصورة في: http://alhakekah.com/aduio/tejasen-١-٥٦k[١].ram

قلت: ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبى الإسلام من مصدر بشرى؟
قال: بالطبع لا.. ففى ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع.
قلت: من أين إذن وكيف عرف ذلك ؟
قال: المؤكد عندى هو استحالة المصدر البشرى، ولكنى أسألكم أنتم من أين تلقى محمد هذه المعلومات الدقيقة ؟
قلت: من عند الله.
قال: الله !! ومن هو الله ؟
قلت: إنه الخالق لهذا الوجود. إذا رأيت الحكمة، الحكمة تدل على الحكيم، وإذا رأيت العلم في هذا الوجود دلك على أنه من صنع العليم، وإذا رأيت الخبرة في تكوين هذه المخلوقات دلتك على أنها من صنع الخبير. وإذا رأيت الرحمة شهدت لك على أنها من صنع الرحيم، وهكذا إذا رأيت النظام الواحد في هذا الوجود والترابط المحكم دلك ذلك على أنه من صنع الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

بعد أن شرحت له المفهوم الإسلامى للفظ الجلالة الأعظم راقته تلك الرؤية، وعاد إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التى عايشها، وتأثر بها حتى جاء موعد المؤتمر الطبى السعودى الثامن، واستمع فى الصالة الكبرى التى خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء، ولا سيما غير المسلمين يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمى.

وفى ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) يعلن: بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة، فإنى أؤمن أن كل ما ذكر فى القرآن الكريم يمكن التدليل على صحته بالوسائل العلمية، وحيث أن محمداً نبى الإسلام كان أمياً إذن لابد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحى من خالق عليم بكل شئ.. وإننى أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ألفريد كرونير:

رأيت اسم (البروفيسورألفريد كرونير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا من بلدي.. هو من ألمانيا.. وهو أحد أكبر جيولوجيي العالم المشاهير، وهو أستاذ علم طبقات الأرض، ورئيس قسم علم طبقات الأرض في معهد جوسيينسيس، وجامعة يوهانز جوتينبيرج، ميتر، بألمانيا.

وقد حدثني حديثه من اتفق الجميع على توثيقه عبد المجيد الزنداني[1]، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، وعرضنا عليه عدداً من الآيات وأحاديث رسول الله ﷺ المرتبطة بمجال تخصصه، فأجاب عليها، وناقشناه فيها فقال: إن التفكير في كثير من مسائل الجيولوجيا، ونشأة الأجرام يحتاج إلى علم كثيرة وأجهزة حديثة، فمن أين جاء بكل ذلك محمد.. فقد كان بدوياً على أية حال يجعلنا نعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد عرفها بنفسه أو

(١) انظر: إنه الحق، وشهادته المصورة على هذا الرابط:
الجزء الأول: http://alhakekah.com/aduio/kroner-١-٥٦k[١].ram
الجزء الثاني: http://alhakekah.com/aduio/kroner-٢-٥٦k[١].ram

بمعارف عصره لأن العلماء اكتشفوا ذلك فقط خلال السنوات القليلة الماضية بوسائل معقدة جداً ومتقدمة جداً تكنولوجياً.

قال الشيخ عبدالمجيد الزنداني: وقد اختار مثلاً للتدليل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون قد جاء من عند محمد النبي الأمي، وهو المتعلق بوصف القرآن للبداية الواحدة لهذا الكون والمتعلقة بقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾(الانبياء:٣٠)، فـــ ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما أي أنهما كانتا ملتزقتين، ففصلتا[1].

وقد ضرب البروفيسور كرونر مثلاً بهذه الآية لبيان أن هذا لا يمكن أن يكون من عند محمد، ولا يمكن أن يكون من المعلومات البشرية في عصره، فقال: وشخص لا يعرف عن الفيزياء النووية منذ ١٤٠٠ سنة ما كان له في رأيي أن يكون في وضع يكشف فيه بعقله هو مثلاً أن الأرض والسماوات كانت لهما نفس الأصول أو كثيراً من المسائل الأخرى التي ناقشناها هنا.

قال الشيخ الزنداني: لقد كان البروفيسور كرونر لا يترك لنا فرصة يمكنه أن يفر منها إلا فر، سأذكر مثالاً على ذلك.

فعندما كنا نتناقش معه كيف كانت بلاد العرب سألناه: هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ فأجاب: نعم، فقلنا: متى كان هذا؟ قال: في العصر الجليدي الذي مر بالأرض.. فالجليد يتراكم في القطب المتجمد الشمالي، ثم يزحف نحو الجنوب، فإذا اقترب من جزيرة العرب قرباً نسبياً طبعاً تغير الطقس وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم بساتين وأنهاراً، قلنا له: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ قال: نعم، هذه حقيقة علمية، فعجبنا كيف يقول هذه حقيقة علمية وهي مسألة تتعلق بالمستقبل. فسألناه: لماذا؟

فقال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجمد الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب.

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوروبا وأمريكا. هذه من أدلة العلماء على ذلك، لهم أدلة كثيرة إنها حقيقة علمية.

فقلنا له: إن هذا الذي تذكره أنت لم يصل إليه العلماء إلا بعد حشد طويل من الاكتشافات، وبعد آلات دقيقة يسرت لهم مثل هذه الدراسات، لكنا قد وجدنا هذا مذكوراً على لسان محمد النبي الأمي قبل ١٤٠٠ عام، فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم[2]:« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »، أي بساتين وأنهاراً فقلنا له: من قال لمحمد ﷺ أن بلاد العرب كانت بساتين وأنهاراً؟ فأجاب على الفور قائلا: الرومان.

فتذكرت قدرته على التخلص من المآزق، فقلنا: إذاً نوجه له سؤالاً آخر، فقلنا له: ومن أخبره بأنها ستعود

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية)من هذه السلسلة.
(٢) صحيح مسلم في الزكاة باب١٨ حديث٦٠.

مروجاً وأنهاراً؟.. لقد كان يفر إذا أحرج وإذا وجد فرصة، ولكنه إذا وجد الحقيقة يكون شجاعاً، ويعلن رأيه بصراحة، فقال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي من أعلى.

وبعد مناقشتنا معه علق على هذه المناقشة بكلمته هذه:(أعتقد أنك لو جمعت كل هذه الأشياء، وجمعت كل هذه القضايا التي بسطت في القرآن الكريم والتي تتعلق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهرياً أن تقول: إن القضايا المعروضة هناك صحيحة بطرق عديدة، ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقول: إن القرآن هو كتاب العلم المبسط للرجل البسيط وإن كثيراً من القضايا المعروضة فيه في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتها. ولكنك بالوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد منذ ١٤٠٠ سنة)

علي سليمان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (علي سليمان)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا دكتور في الطب.. وهو ينتمي إلى أسرة فرنسية كاثوليكية.. وقد التقيت به في فرنسا، وسألته عن سر إسلامه، فقال لي: كان لاختياري لهذه المهنة أثره في انطباعي بطباع الثقافة العلمية البحتة، وهي لا تؤهلني كثيرا للناحية الروحية.. وهذا لا يعني أنني لم أكن أعتقد في وجود اله، إلا أنني أقصد أن الطقوس الدينية النصرانية عموما والكاثوليكية بصفة خاصة، لم تكن لتبعث في نفسي الإحساس بوجوده، وعلى ذلك فقد كان شعوري الفطري بوحدانية الله يحول بيني وبين الإيمان بعقيدة التثليث، وبالتالي بعقيدة تأليه عيسى المسيح.

ولهذا كنت قبل أن أعرف الإسلام مؤمنا بالقسم الأول من الشهادتين (لا اله إلا الله).. ومؤمنا معها بهذه الآيات من القرآن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١)اللَّهُ الصَّمَدُ(٢)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)﴾(الإخلاص)

لهذا فإنني أعتبر أن الإيمان بعالم الغيب وما وراء المادة هو الذي جعلني أدين بالإسلام، على أن هناك أسبابا أخرى حفزتني لذلك أيضا، منها مثلا، أنني لا أستسيغ دعوى الكاثوليك أن من سلطانهم مغفرة ذنوب البشر نيابة عن الله، ومنها أنني لا أصدق مطلقا ذلك الطقس الكاثوليكي عن العشـــــاء الرباني والخبز المقدس، الذي يمثل جسد المسيح عيسى، ذلك الطقس الطوطمي الذي يماثل ما كانت تؤمن به العصور الأولى البدائية، حيث كانوا يتخذون لهم شعارا مقدسا، يحرم عليهم الاقتراب منه، ثم يلتهمون جسد هذا المقدس بعد موته حتى تسري فيهم روحه.

ومما كان يباعد بيني وبين النصرانية، أنها لا تحوي في تعاليمها شيئا يتعلق بنظافة وطهارة البدن، لا سيما قبل الصلاة، فكان يخيل لي أن في ذلك انتهاكا لحرمة الرب، لأنه كما خلق لنا الروح فقد خلق لنا الجسد كذلك، وكان حقا علينا ألا نهمل أجسادنا.

ونلاحظ كذلك أن النصرانية التزمت الصمت فيما يتعلق بغرائز الإنسان الفسيولوجية، بينما نرى أن

---

(١) انظر: كتاب لماذا أسلمنا؟ تأليف: عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيباني.

الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينفرد بمراعاة الطبيعة البشرية.

أما مركز الثقل والعامل الرئيسي في اعتناقي للإسلام، فهو القرآن.. فقد بدأت قبل أن أسلم في دراسته.. وأنا مدين بالكثير للكتاب العظيم الذي ألفه مستر مالك بن نبي واسمه (الظاهرة القرآنية)، فاقتنعت بأن القرآن كتاب وحي مترل من عند الله.

إن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى الله به منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ما يحمل نفس النظريات التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية.

لقد كان هذا كله كافيا لإقناعي وإيماني بالقسم الثاني من الشهادتين (محمد رسول الله)

وهكذا تقدمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٣ م إلى المسجد في باريس، وأعلنت إيماني بالإسلام، وسجلني مفتي مسجد باريس في سجلات المسلمين، وحملت الاسم الجديد (علي سلمان)

قال ذلك.. ثم ابتسم قائلا: إنني أشعر بالغبطة الكاملة في ظل عقيدتي الجديدة وأعلنها مرة أخرى (أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله)

مارشال جونسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا اسم (مارشال جونسون)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو البروفيسور (مارشال جونسون)، وهو رئيس قسم التشريح، ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة (عبد المجيد الزنداني)، فقال: لقد التقيت به مع نفر من أصحابنا في المؤتمر الطبي السعودي الثامن، وقد خصصت لنا لجنة تبحث في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فالتقينا به أول ما التقينا في هذه اللجنة، وقد بدأنا بالسؤال التالي: ما هو موضوع لجنتنا هذه؟

فقلنا له:موضوعنا هو دراسة العلاقة بين ما ذكر في القرآن والسنة قبل ١٤٠٠ عام وما ذكرته العلوم الحديثة.

فقال: مثل ماذا؟

قلنا: مثلاً ذكر العلم أن الإنسان يخلق في أطوار وذكر القرآن الكريم هذه الأطوار قبل ١٤٠٠عام.

كان جالساً فوقف يصيح: لا. لا. لا.

فقلنا: اجلس يا دكتور.

فقال: أجلس.. ما هذا الكلام الذي تقوله؟

قال الشيخ: لقد كنا ندرك أثر هذا عليه، وهو أحد العلماء المشهورين في أمريكا، وهو يعلم أن البشرية بعد اكتشاف الميكروسكوب في القرن السادس عشر كان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعتقدون أن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في الحيوان المنوي أي في نطفة الرجل أي في السلالة التي تخرج من الرجل، واستمر

---

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزنداني.

هذا الاعتقاد إلى القرن الثامن عشر، وبعد اكتشاف البُييضة في القرن ١٨ غير العلماء جميعاً آراءهم، فقالوا: إن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في بُييضة المرأة لأنها أكبر، وأهمل دور الرجل بعد أن أهمل القرن السابع عشر دور المرأة، وفي منتصف القرن ١٩ فقط بدأ الإنسان، وبدأ العلماء يكتشفون أن الإنسان يخلق في أطوار.

لذلك لما قيل للبروفيسور (مارشال جونسون) هذا مذكور في القرآن قبل ١٤٠٠ عام وقف يصرخ لا لا لا، فقمنا إليه، وقدمنا له المصحف، وقلنا له: تفضل اقرأ وقرأنا عليه قوله ﷻ:﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (نوح:١٣-١٤)، وقرأ ترجمة معناها باللغة الإنجليزية. ثم قرأنا عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾(الزمر: من الآية٦)

فجلس، وقال: لكن هذا يمكن أن يكون له ثلاثة تفسيرات، الأول: أن يكون صدفة، فجمعنا له أكثر من خمسة وعشرين نصاً، ووضعناها بين يديه، وقلنا: كل هذه النصوص قد تكون صدفة؟ ثم إن القرآن الكريم قد أعطى لهذه الأطوار أسماء هذا نطفة والذي بعده علقة والذي بعده مضغة والذي بعده العظام والذي بعده كساء العظام باللحم. إنه سمى هذه الأطوار بأسماء أيكون هذا صدفة؟ فقال:لا.

قلنا: فماذا بقي؟

قال: يمكن أن يقال: إن محمداً عنده ميكروسكوبات ضخمة.

قلنا: أنت تعلم أن مثل هذه الأطوار والدقائق والتفاصيل وما عرفه العلم من تفاصيل هذه الأطوار وذكره القرآن كذلك هذا لا يتيسر إلا بميكروسكوبات ضخمة جداً والذي عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لا بد أن يكون له تقنية عالية جداً وتنعكس على طعامه وشرابه وحربه وسلمه ولا بد أن يتلقى هذا من الجيل الذي قبله، ويسلمه للجيل الذي بعده.

فضحك بعد ذلك، وقال: لقد رأيت في معرض من المعارض أول ميكروسكوب اخترع في العالم، إنه لا يكبر أكثر من عشر مرات، ولا يستطيع أن يظهر الصورة واضحة.. لا.. لم يكن عند محمد أجهزة ولا مكروسكوبات، فما بقي إلا أن نقول هو رسول من عند الله.

ثم بعد ذلك تبنى هذه الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي، وركز في بعض أبحاثه على أطوار الجنين، فبينما كان الدكتور كيث مور وغيره من الدكاترة يتكلمون عن الشكل الظاهري أخذ يقدم بحثه هو عن وصف القرآن الدقيق لشكل الجنين الخارجي ولتركيبات الجنين الداخلية.

فقد قال: القرآن في الواقع شرح المراحل الخارجية، ولكنه يؤكد أيضاً المراحل التي داخل الجنين أثناء خلقه وتطوره مؤكداً على أحداث رئيسية تعرف عليها العلماء المعاصرون.

فالمضغة مثلا تعطينا الشكل الخارجي للجنين الذي يكون مقوساً كما ويكون في نهاية هذا القوس آثار وكأنها طبع الأسنان ليوحي بشكل المضغة ونرى انتفاخات وأخاديد ونرى سطحاً منفرجاً يعطي انطباع المضغة.

ولو أننا وضعنا قطاعاً منها، وجئنا نشرح الأجزاء الداخلية سنجد معظم الأجهزة قد تخلقت وسنرى في هذا أن جزءاً من الخلايا قد تخلق، وجزءاً آخر لم يتخلق بعد.

فإذا أردنا أن نصف هذه المضغة ماذا نقول؟.. هل نقول هي مخلقة؟ هذا ينطبق على الجزء الذي تخلق.. أو نقول غير مخلقة؟.. وهذا سيصدق على الجزء الذي لم يخلق فقط.

قال جونسون: فلا بد لنا أن نصف المضغة في تركيبها الداخلي بالوصف الذي وصفت به في القرآن فنقول كما قال القرآن: ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ (الحج: من الآية٥) مخلقة وغير مخلقة﴾

ثم جاء بملخص لبحثه هذا فقال:(إنني كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها بالتحديد أستطيع أن أفهم علم الأجنة وتطور علم الأحياء أستطيع أن أفهم الكلمات التي تترجم لي من القرآن كما ضربت لكم أمثلة من قبل.

إنني لا أرى شيئاً لا أرى سبباً لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد الذي لا بد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما، ولذلك إنني لا أرى شيئاً يتضارب مع مفهوم أن التدخل الإلهي كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه.

قال الشيخ الزنداني: هذا هو البروفيسور مارشال جونسون الذي بدأ رافضاً لما قلناه من أول وهلة وانتهى به الأمر متبنياً لهذه الأبحاث في عديد من المؤتمرات.

وعندما سئل عن رأيه في تفسير هذه الظاهرة ـــ ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء في القرآن والسنة ـــ أجاب بقوله: نعم، إنه الوحي.

يوشيودي كوزان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور يوشيودي كوزان)، فسألت البابا عنه، فقال: إنه البروفيسور يوشيودي كوزان مدير مرصد طوكيو، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، فعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بوصف بداية الخلق وبوصف السماء وبعلاقة الأرض بالسماء، فلما قرأ معاني هذه الآيات، وسألنا عن القرآن، وعن زمن نزوله، فأخبرناه أنه نزل منذ ١٤٠٠ عام، وسألناه نحن عن هذه الحقائق التي تعرضت لها هذه الآيات، فأجاب، وكان بعد كل إجابة يجيب بها نعرض عليه النص القرآني.

لقد عبر عن دهشته فقال: إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود، فكل شيء أمامه مكشوف.. إن الذي قال هذا القرآن، يرى كل شيء في هذا الكون، فليس هناك شيء قد خفي عليه.

سألناه عن الفترة الزمنية التي مرت بها السماء يوم أن كانت في صورة أخرى فأجاب: لقد تظافرت الأدلة وحشدت وأصبحت الآن شيئاً مرئياً مشاهداً نرى الآن نجوماً في السماء تتكون من هذا الدخان الذي هو أصل الكون.

ثم أخرج لنا صورة، وقال: هذه الصورة حصل عليها العلماء أخيراً بعد أن أطلقوا سفن الفضاء.. إنها تصور نجماً من النجوم وهو يتكون من الدخان.. انظروا إلى الأطراف الحمراء للدخان الذي في بداية الالتهاب والتجمع وإلى الوسط الذي اشتدت به المادة وتكدست فأصبح شيئاً مضيئاً.. وهكذا النجوم المضيئة كانت قبل ذلك دخاناً وكان الكون كله دخاناً.

وعرضنا عليه الآية وهي قول الله ﷻ:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت:١١)، فقال: إن بعض العلماء يتكلمون عن هذا الدخان، فيقولون إنه ضباب.. ولكن لفظ الضباب لا يتناسب مع وصف هذا الدخان، لأن الضباب يكون بارداً، وأما هذا الدخان الكوني فإن فيه شيئاً من الحرارة. نعم، الدخان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة. ويكون معتماً وهذا وصف الدخان الذي بدأ منه الكون. قبل أن تتكون النجوم كان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة وكان معتماً.. وكذلك كان حاراً، فلا يصدق عليه وصف الضباب، بل إن أدق وصف هو أن نقول: هو دخان.

وهكذا أخذ يفصل فيما عرض عليه من آيات، وأخيراً سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة التي رأيتها بنفسك، العلم يكشف بتقدمه أسرار الكون، فإذا بكثير من هذه الأسرار قد ذكرت في القرآن، أو ذكرت في السنة.. هل تظن أن هذا القرآن جاء إلى محمد ﷺ من مصدر بشري؟

قال: قبلنا كان الفلكيون المعاصرون يدرسون تلك القطع الصغيرة في السماء. لقد ركزنا مجهودنا لفهم هذه الأجزاء الصغيرة لأننا نستطيع باستخدام التلسكوب أن نرى كل الأجزاء الرئيسية في السماء، ولذلك أعتقد أنه بقراءة القرآن وبإجابة الأسئلة أنني أستطيع أن أجد طريقاً في المستقبل للبحث في الكون.

وقال: إننا نحن العلماء نركز على جزء صغير في دراستنا، أما من يقرأ القرآن فإنه يرى صورة واسعة لهذا الكون.

وقال: إنني عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون لا بد أن ننظر إليه نظرة شاملة لا أن ننظر إليه من هذه النقطة الضيقة الجزئية المحدودة.

وقال: إنني سأنهج هذا المنهج وقد عرفت بعد أن قرأت القرآن وهذه الآيات المتعلقة بالكون عرفت مستقبلي، أي إنني سأخطط أبحاثي على هذه النظرة الشاملة التي استفدتها من كتاب الله.

جولي سمسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور جولي سمسون)[١]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: قصدته مع نفر من أصحابنا، وحدثناه عن مجال اختصاصه، وما ورد عنه في القرآن الكريم.. فكان في شك أول الأمر.. فقد كان يريد أن يتأكد هل هذه نصوص القرآن؟.. هل هذه نصوص السنة؟.. فلما اطمأنت نفسه، ورأى النصوص المتعلقة بالوراثة، والتي تحدث في المراحل الأولى في الجنين عندما يكون نطفة، وعرف دقة الأوصاف، وكيف أن القرآن يقرر أن الإنسان يخلق بعد أن تجمع النطفتان، فيتقرر خلق الإنسان، وبعد ذلك يقرر البرنامج الوراثي في هذه الكروموزومات التي نشاهدها الآن.

هذه الكروموزومات فيها تفاصيل الإنسان الذي يولد لون العينين، لون الجلد، لون الشعر، كثير من

---

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزنداني.

تفاصيل الإنسان مقررة هنا، فالإنسان في هذه الكروموزمات مقدر، وهذه الكروموزمات في مرحلة النطفة، إذاً فهذا الإنسان يقدر وهو في مرحلة النطفة، كما قال ﷻ:﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)﴾ (عبس)، والجنين قبل أربعين يوماً ــ خلال الأربعين يوماً الأولى ــ تجمع جميع أجهزته، فتكون جميع الأجهزة قد ظهرت، وإن كانت تظهر تباعاً، بدأت الأجهزة تتخلق وتجمع، والجنين يكون منحنياً على نفسه، والرسول ﷺ يقول:« إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً »

تعرض البروفيسور جولي سممسون لهذا الحديث والحديث الآخر:« إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها »، وأخذ يقارن بين الحديثين والحد الفاصل بينهما، وبعد أن رأى هذه الدقائق والتفاصيل وقف في أحد المؤتمرات يعلن رأيه حول هذا الموضوع، فقال: من هذين الحديثين يمكننا استخلاص جدول محدود حول التطور الرئيسي للجنين قبل أربعين يوماً.

و لم يكتف بهذه الشهادة، بل إنه قال: إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة.

وقال: وعليه أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية وبين الوحي بل إن الوحي ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذٍ. وجاء القرآن قبل عدة قرون مؤيداً لما تطرقنا إليه مما يدل على أن القرآن هو كلام الله.

البروفيسور هاي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور هاي)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور من أشهر علماء البحار في أمريكا، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: ذهبت إليه مع نفر من أصحابنا، وسألناه عن كثير من الظواهر البحرية التي تتعلق بسطح البحر، والتي تتعلق بالحد الفاصل بين البحر السطحي وبين البحر العميق، والتي قد تتعلق أيضاً بقاع البحار وجيولوجيا البحار.. سألناه عن هذا كله، وسألناه عن الحواجز المائية بين البحار المختلفة، وعن الحواجز المائية بين مياه البحار والأنهار [1].

وقد كان يجيبنا عن هذا كله، وبتفصيل، وعندما تعرضنا لشرح الحواجز بين البحار المالحة وضح لنا أن البحار المالحة ليست كما تشاهدها العين بحراً واحداً، إنها بحار مختلفة، تختلف في درجة الحرارة، والملوحة والكثافة، حيث نرى فيها خطوطاً بيضاء تمثل الحواجز بين الكتل البحرية، وكل حاجز يفصل بين كتلتين بحريتين مختلفتين فيما بينهما، في الحرارة والملوحة والكثافة، والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأوكسيجين.

وقد أخرج لنا من محفظته صورة توضح ذلك، ثم قال: هذه الصورة أول ما عرفت في عام ١٩٤٢ بهذا الشكل بعد أن أقام العلماء مئات المحطات المائية في البحار لدراسة خصائص البحار.. وهي توضح حداً فاصلاً بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطي.. في الوسط الذي في الصورة مثلث هو عتبة جبل طارق أسفل.. وهذه منطقة جبل طارق نرى فيها كيف يوجد الحد الفاصل، وهو مبين باللون بين الكتلتين المائيتين يفصل بينهما.

---

(١) انظر الجوانب العلمية المرتبطة بهذا، وما ورد في القرآن مما يقررها في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

ثم التفت إلينا، وقال: هذا أمر لا تشاهده الأبصار، ولكنه أصبح الآن حقيقة واضحة، وبتطور الأقمار الصناعية ودراستها واستشعارها من بعد تمكنت هذه الأقمار الصناعية أن تصور هذه المناطق البحرية، الحدود البحرية بين الكتل المختلفة.. كما نرى في هذا الشكل الذي التقط بالأقمار الصناعية بالخاصية الحرارية فظهرت البحار بألوان مختلفة، كما نرى بعضها بلون أزرق فاتح وبعضها بلون أزرق قاتم وبعضها بلون أسود وبعضها بلون يميل إلى الأخضر.. هذه الألوان المختلفة السبب فيها اختلاف درجات الحرارة على سطح البحار، ولكنك لو وقفت على سطح البحر لا ترى.. لا ترى إلا ماءً أزرق في كل هذه البحار والمحيطات.. إنها حواجز لا ترى إلا بالدراسة وبالتقنية الحديثة.

عندما عرض لنا ذلك، وشرحه لنا بالتفصيل قرأنا عليه من القرآن الكريم ما يدل عليه دلالة واضحة، وذلك في قوله ﷻ:﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن:١٩-٢٠)، ثم سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة؟.. نصوص نزلت قبل ١٤٠٠ عام تصف دقائق لا يمكن لبشر أن يعرفها في ذلك الزمان، وجاء العلم اليوم شاهداً بها مبيناً لدقائقها فما هو رأيك؟

فقال البروفيسور هاي: إنني أجد من المثير جداً أن هذا النوع من المعلومات موجود في آيات القرآن الكريم، وليست لدي طريقة أعرف بها من أين جاءت، ولكنني أعتقد أنه من المثير للغاية أنها موجودة فيه، وأن العمل مستمر لكشف معاني بعض الفقرات.

فقلنا: إذن فقد أنكرت تماماً أنها من مصدر بشري.. فممن إذن يأتي في اعتقادك أصل أو مصدر هذه المعلومات؟

فقال: أعتقد أنه ولا بد أن يكون من الله.

البروفيسور فان برسود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور فان برسود)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور فان برسود، وهو رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا، وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فذكر أن الدكتور (كيث مور) الذي سبق الحديث عنه ذكر له أن هناك علماء أحرارا يهمهم البحث عن الحقيقة، ومنهم البروفيسور فان برسود.. وهو مؤلف مشهور له عدد من الكتب ألفها في علم أمراض النساء، وهو ممن أضاف ــ بعد ذلك ــ إلى كتبه بعض ما جاء في القرآن والسنة، وأشار إلى هذه الآيات والأحاديث في كتبه، وقدم عدداً من البحوث في عدد من المؤتمرات، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه حول حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم وهو قول رسول الله ﷺ:« إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء »

وقدم البروفيسور برسود أبحاثاً كثيرة حول علاقة القرآن والسنة بالعلوم الحديثة، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه في معنى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه والحاكم وهو قول رسول الله ﷺ:« ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم »

ومما قاله في بحثه هذا: من المعترف به الآن على نطاق واسع أن هذه التغيرات الخبيثة في عنق الرحم لها صلة بعمر النساء، وعدد مرات الجماع، وعدد مرات الولادة، فعديد من دراسات علم الأوبئة قد أظهرت بوضوح علاقة متبادلة هامة بين التعرض للعلاقات الجنسية المتعددة، والسرطان العرضي المحتمل الحدوث بدرجة عالية.

وقال: إن نتائج ومخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية، والممارسات الجنسية المنحرفة، قد ذكرت في هذا الحديث منذ ١٤٠٠ سنة وأرجو أن أكون مصيباً ــ مشيراً إلى مرض الإيدز ــ:« ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم »، فالفاحشة هي الخيانة والشذوذ الجنسي غير المعلن والبوهيمية، وكل العلاقات الجنسية الأخرى، وليس من اتساع الخيال أن نعتبر الهربز والإيدز كأمثلة واضحة لأمراض جديدة في الوقت الحاضر ليس لدينا العلاج لها.

وقد قال الشيخ الزنداني معلقا على هذا مخاطبا الحاضرين: انظروا إلى هذا الربط بين قول الرسول ﷺ:« ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم »، فلما أعلنت أوروبا وأمريكا إباحة الشذوذ وإباحة الزنا والفجور بأشكاله ما إن أعلنوا هذا وأذاعوا به حتى ظهرت بعد ذلك بأعوام هذه الأمراض التي تهز كيانهم هزاً.

وصدق رسول الله ﷺ، فهي أمراض جديدة، طاعون فشا، وأمراض تفشو وتسري بين الناس وهم يخافونها.

وقد ذكر الشيخ أن البروفيسور برسود عندما سئل عن رأيه في هذه الظاهرة التي اطلع بنفسه عليها وشارك بأبحاثه فيها قال: الطريقة التي شرح لي بها هو أن محمداً ﷺ كان رجلاً عادياً جداً، ولم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، بل كان في الواقع أمياً، ونحن نتحدث عنه أنه كان منذ ١٤٠٠ سنة رجلاً أمياً يدلي بتصريحات عميقة ودقيقة بصورة مدهشة، وذات طبيعة علمية، وأنا شخصياً لا أستطيع أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة، هناك أشياء كثيرة دقيقة مثل دكتور كيث مور لا أجد صعوبة في أن أوافق في عقلي أن هذا إلهام إلهي أو وحي قاده إلى هذه البيانات.

البروفيسور بالمار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور بالمار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من أشهر علماء الجيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان رئيس اللجنة التي أشرفت على الاحتفال المئوي للجمعية الجيولوجية الأمريكية.

وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: عندما التقينا معه وعرضنا عليه أوجه الإعجاز العلمي للقرآن والسنة كان يندهش، وأذكر قصة لطيفة بدأت معه عندما قلنا له: إن القرآن يذكر أخفض منطقة في الأرض وبين أنها قرب بيت المقدس، حيث دارت المعركة بين الفرس والروم، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾(الروم)، وأدنى تأتي بمعنى أقرب، وتأتي بمعنى أخفض.

وذكرنا له أنه عندما درسنا أخفض منطقة في الأرض وجدنا أنها هي نفس المنطقة التي دارت فيها المعارك.. فلما قلنا هذا للبروفيسور بالمار، قال: لا... هناك مناطق كثيرة أخفض من هذه المنطقة.

قال ذلك، ثم أخذ يذكر لنا مناطق في أوروبا ومناطق في أمريكا، فقلنا له: يا دكتور نحن قد تأكدنا من ذلك.

كان معه مصور جغرافي مجسم فيه الارتفاعات والانخفاضات، فقال: إذاً الأمر بسيط، هذا هو المجسم يبين لنا أخفض منطقة، فأدار الكرة الأرضية بيده ــ وهي كرة مجسمة ــ ووجه نظره على المنطقة المحددة، وهي قرب بيت المقدس، فإذا به يرى سهماً قد خرج من تلك الخريطة مكتوباً عليه (أخفض منطقة على وجه الأرض)

ثم بعد ذلك تحول بسرعة، وقال: هذا كلام صحيح.

وقد رغبه هذا السبق القرآني في المزيد.. وقد ازداد اندهاشه عندما وجد القرآن يصف الماضي كيف بدأ، وخلق الأرض كيف بدأ، وخلق السماء، وكيف خرجت المياه من باطن الأرض، وكيف أُرسيت الجبال، وكيف خرجت النباتات.. وغيرها كثير.

واندهش عندما رأى القرآن يصف هذه الأحداث، ثم كيف يصف سطح الأرض اليوم ويصف الجبال ويصف ما عليها من ظواهر، ثم يصف الأحوال التي تمر بها الأرض، كما حدث بالنسبة لجزيرة العرب، بل ويصف ما سيكون عليه حال بلاد العرب، وما سيكون عليه حال الأرض.فقال: (هذا الكتاب عجيب يصف لنا الماضي، ويصف لنا الحاضر، ويصف لنا المستقبل)

وقد قدم بحثاً في القاهرة حول الإعجاز في مجال علم الجيولوجيا، ثم ختم بحثه هذا بقوله: (أنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس في زمن محمد.. ولا أدري في أي مستوى علمي كانوا، فإذا كان الأمر كما نعرف عن أحوال الأولين والمستوى العلمي المتواضع والذي ليس فيه هذه الإمكانيات، فلا شك أن هذا العلم الذي نقرؤه الآن في القرآن هو نور من العلم الإلهي قد أوحي به إلى محمد)

وقد أنهى بحثه بالتصريح التالي: (لقد قمت ببحث في تاريخ الحضارة المبكر للشرق الأوسط لأعرف إذا كان في الواقع قد وردت أنباء جادة كهذه، إذا لم يكن هناك سجل كهذا فإن هذا يقوي الاعتقاد بأن الله قد أرسل من خلال محمد مقادير ضئيلة من علمه اكتشفناها فقط في الأزمنة الحديثة، إننا نتطلع إلى حوار مستمر في موضوع العلم في القرآن في سياق الجيولوجيا)

وقد علق الشيخ الزنداني على تصريحه هذا تعليقا هاما، فقال: نعم، هذا علم من أعلام الجيولوجيا في عالمنا المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية لا يتردد في أن يعترف ويقدم ويبين ولكنه بحاجة إلى من يوضح له الحقيقة، لقد عاش الغربيون وكذلك الشرقيون معركة بين الدين والعلم، وكان لا بد أن تحدث هذه المعركة، لأن كل الأديان قد حرفت وما بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام إلا لتصحيح ما أفسده هؤلاء.

وأذكر أن بعض الناس سأله حينها: كيف سيقبل منا هؤلاء الناس ونحن في تخلف ونحن في بعد عن ديننا؟

فأجاب: إن العلم يفتح بصائر أهله، إنهم ينظرون إلى الحقائق ولا ينظرون إلى الصور، إن رصيد الإسلام

اليوم هو هذا العلم والتقدم العلمي. فإن هذا العالم يحني رأسه إجلالاً لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ثم إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تطمئن إلا مع الإيمان.. إن الناس بدون إيمان في قلق وضياع، ثم إن هذه الحرية التي يتمتع بها أهل الغرب تعين علماءهم على أن يقولوا الكلمة التي يعتقدونها، وهم لا يبالون ولا يحسبون أي حساب، وها هم كما سمعناهم في كثير من هذه الحلقات، يقرون ويعترفون بالمعجزة القرآنية الحية المتجددة إلى قيام الساعة.

البروفيسور سياويدا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور سياويدا)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فذكر أنه من أشهر علماء جيولوجيا البحار في اليابان، بل هو من العلماء المشاهير في العالم في هذا المجال.

وقد ذكر لي أنه ممن حجبوا عن الإسلام بسبب الشبهات الكثيرة التي يسوقها أعداؤه عنه كل حين.. بل ملئ رأسه بتشويشات وشبهات عن كل الأديان.

وقد ذكر لي حواره معه الذي حاول من خلاله تخليصه من تلك الشبهات، فقال: عندما التقينا معه أول مرة ــ أنا ونفر من أصحابنا ــ قال لنا: لا يصح أن تتحدثوا أنتم أهل الدين أبداً.. يجب أن تسكتوا في الدنيا كلها.

قال الشيخ: فقلت له: لماذا يا بروفيسور؟.. لماذا؟

قال: لأنكم إن تكلمتم أشعلتم الحرب بين الناس في العالم كله.

فقلت له: وحلف وارسو.. وحلف الأطلسي.. لماذا يحشدون هذه الترسانات الهائلة من الأسلحة النووية في الفضاء وفي البحار وعلى الأرض وتحت الأرض؟.. لماذا هذا؟.. أبسبب ديني؟

فلم يجد ما يجيب به، فقلنا له: على أي حال نحن نعلم أنك تتخذ موقفاً من الدين كله، ولكن نريد منك، وطالما أنت لا تعرف ما هو الإسلام أن تسمع أولاً، وأن نرى ما عندك.

قال الشيخ: فوجهنا له عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه، وعن الآيات والأحاديث التي تصف تلك الظواهر التي يتحدث عنها، وكان منها ما طلبنا منه أن يبينه في موضوع الجبال، فقد سألناه: ما هو شكل الجبل؟.. هل هو في شكل وتد؟

فأجاب: الجبال القارية والجبال المحيطية تتكون من مواد مناسبة، فالجبال القارية مكونة جوهرياً من مواد راسبة، بنيما الجبال المحيطية مكونة من صخور بركانية، والجبال القارية تكونت بواسطة قوى ضاغطة، بينما الجبال المحيطية تكونت بواسطة قوى تمديدية، ولكن النقاط المشتركة بين النوعين من الجبال هي: أن لها جذوراً لتدعم الجبال.

في حالة الجبال القارية فإن المادة الخفيفة القليلة الكثافة التي تكون الجبل تمتد تحت الأرض كجذر.. وفي حالة الجبال المحيطية هناك أيضاً مادة خفيفة تدعم الجبل كجذور ولكن في حالة الجبال المحيطية فإن مادتها الخفيفة مناسبة للتركيب الخفيف ولكنه ساخن ولذلك، فإنها ممتدة بطريقة رقيقة، ولكن من وجهة نظر الكثافة،

فإنهما تؤديان نفس المهمة، وهو دعم الجبل، ولذلك فإن مهمة الجذور هي دعم الجبال وفق قانون أرشميدس عن الطفو.

قال الشيخ: ثم شرح لنا البروفيسور سياويدا شكل كل جبل سواء كان على اليابسة في القارات أو في قاع المحيطات، وذكر في كل ذلك على شكل وتد، وهو يوافق تماما ما ذكره القرآن من وصف الجبال بكونها أوتادا.

قال الشيخ: وعندما سألنا البروفيسور سياويدا عن وظيفة الجبال: ألها دور في تثبيت القشرة الارضية؟ فقال: إلى الآن لم يكتشف العلم هذا.

فأخذنا نبحث، ونسأل فوجدنا كثيراً من علماء الجيولوجيا يجيبون علينا بنفس الجواب إلا القليل ــ ومن هؤلاء أصحاب كتاب (الأرض) وهو مرجع علمي في كثير من الجامعات في العالم.. ومن الذين كتبوه فرانك برس، وقد كان رئيس أكاديمية العلوم في أمريكافقد ذكر في صفحة ٤٣٥ عن وظيفة الجبال يقول:إن للجبال دوراً كبيراً في تثبيت قشرة الأرض.

فذكرنا ذلك لهذا البروفيسور وعرضنا عليه تقريرات القرآن المرتبطة بهذا، ومن ذلك قوله ﷻ:﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ (النازعـــات:٣٢)، وقوله ﷻ:﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ (النبأ:٧)، وقوله ﷻ:﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٥)

وقلنا له: يا أستاذ.. ما رأيك في هذا الذي رأيته من ظاهرة حديث القرآن والسنة عما في هذا الكون من أسرار، الأمر الذي لم يكتشفه العلم إلا في هذا الزمان.

فأجاب على سؤالنا بقوله: أعتقد أنه يبدو لي غامضاً جداً جداً غير معقول تقريباً، إنني أعتقد حقيقة إن كان ما قلته صحيحاً، فإن هذا الكتاب جدير جداً بالملاحظة، إنني أوافقك.

قال الشيخ: ماذا يستطيع العلماء أن يقولوا، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم الذي أنزله الله على محمد ﷺ في هذا الكتاب، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم في هذا الكتاب إلى مصدر بشري، أو إلى جهة علمية في ذلك العصر، فإن جميع العلماء ما كانوا يعلمون شيئاً عن هذه الأسرار.. إن البشرية كلها لم تعلم شيئاً عن ذلك، إنهم لا يملكون أن يجدوا تفسيراً إلا أن يقولوا هذا من جهة أخرى هي وراء هذا الكون.. نعم، إنه وحي من الله سبحانه وتعالى، أوحى به إلى عبده النبي الأمي محمد ﷺ، وجعله معجزة باقية دائمة تستمر مع البشرية إلى قيام الساعة.

البروفيسور آرمسترونج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور آرمسترونج)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور آرمسترونج، وهو أحد مشاهير علماء الفلك في أمريكا، ويعمل في وكالة الفضاء الأمريكية ناسا، وهو من مشاهير علمائها.

وقد حدثني بخبره الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: قصدته مع نفر من أصحابنا لنسأله عن عدد من الآيات الكونية المتعلقة بمجال تخصصه في الفلك.

وكان من جوابه لنا قوله: سأحدثكم كيف تكونت كل العناصر على الأرض، لقد اكتشفناها.. بل لقد أقمت عدداً من التجارب لإثبات ما أقول لكم.

إن العناصر المختلفة تجتمع فيها الجسيمات المختلفة من الكترونات وبروتونات وغيرها لكي تتحد هذه الجسيمات في ذرة كل عنصر يحتاج إلى طاقة.

وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعة الشمسية أربع مرات، ليست طاقة الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا عطادر ولا زحل ولا المشتري كل هذه المجموعة الشمسية بأكملها لا تكفي طاقتها لتكوين ذرة حديد، بل تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات.

ثم قال هو من نفسه بدون سؤال منا: ولذلك يعتقد العلماء أن الحديد عنصر غريب وفد إلى الأرض و لم يتكون فيها.

وهنا ذكرنا قول الله ﷻ:﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: من الآية٢٥)، ثم سألناه: هل في هذه السماء فروج وشقوق؟

فقال: لا، إنكم تتكلمون عن فرع من فروع علم الفضاء اسمه الكون التام، وهذا الكون التام ما عرفه العلماء إلا أخيراً، لو أخذت نقطة في الفضاء وتحركت مسافة معينة إلى اتجاه وتحركت بنفس المسافة في اتجاه آخر لوجدت أن وزن الكتلة في كل الاتجاهات متساو لأن هذه النقطة متزنة فيجب أن تكون الضغوط عليها من كل جانب متساوية. والكتلة يجب أن تكون كذلك. ولو لم يكن هذا الاتزان لتحرك الكون وحدث فيه تصدع وشقوق.

قال الشيخ: فذكرت قول الله ﷻ:﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) (قّ:٦)

ثم تحدثنا معه عن جهود العلماء في محاولاتهم الوصول إلى حافة الكون، وقلنا له: هل وصل العلم إلى معرفة حافة الكون؟

فقال: نحن في معركة للوصول إلى حافة الكون.. إننا نكبر أجهزة، ثم ننظر من خلالها، فنكتشف نجوماً ونكتشف أننا ما زلنا بداخل هذه النجوم ما وصلنا إلى الحافة؟

قال الشيخ: وأنا أعلم من قوله ﷻ:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ﴾(الملك: من الآية٥) أن كل هذه النجوم هي زينة للسماء الدنيا.

قال البروفيسور: ولذلك نحن نفكر في إقامة التلسكوبات في الفضاء حتى لا يكون هذا الغبار والأشياء من الظواهر الجوية الموجودة على الأرض من العوائق التي تحول بيننا وبين هذه الرؤيا.. إن التلسكوبات البصرية التي تستعمل الضوء أو البصر عجزت و لم تستطع أن تتجاوز بنا مسافات كبيرة، فعوضنا عن هذه التلسكوبات البصرية بتلسكوبات لا سلكية فوجدنا مسافات جديدة، ولكن لا زلنا داخل الحدود.

قال الشيخ: فذكرت قول الله ﷻ:﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ

إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك)

قال الشيخ: وهكذا بقي يذكر الحقائق العلمية، ونحن نذكر له الآيات المرتبطة بها، وهو يوافق على ذلك، ثم قلنا له: ها أنت ذا قد رأيت بنفسك حقائق علم الفلك الحديث بعد أن استخدم الإنسان هذه الأجهزة والصواريخ وسفن الفضاء واكتشفت هذه المعلومات، ها أنت ذا قد رأيتها ثم رأيت كيف جاءت في نصوص القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ عام فما رأيك في هذا؟

فأجاب: هذا سؤال صعب.. ظللت أفكر فيه منذ أن تناقشنا هنا.. وإنني متأثر جداً كيف أن بعض الكتابات القديمة تبدو متطابقة مع علم الفلك الحديث بصورة ملفتة للأنظار، لست عالماً وافياً في تاريخ البشرية، وفي صورة يعتمد عليها بحيث ألقي بنفسي تماماً في ظروف قديمة كانت سائدة منذ ١٤٠٠ سنة، ولكني بالتأكيد أود ألا أزيد على أن ما رأيناه جدير بالملاحظة، ومع ذلك قد لا يترك مجالاً للتفسير العلمي، قد يكون هناك شيء فيما وراء فهمنا كخبرة بشرية عادية ليشرح الكتابات التي رأيناها، ولكن ليس في نيتي أو وضعي عند هذه النقطة أن أقدم إجابة على ذلك، لقد قلت كلمات كثيرة على ما أظن دون أن أعبر بالضبط عما أردتني أن أعبر عنه.

إنه من واجبي كعالم أن أظل مستقلاً عن مسائل معينة، وأعتقد أن هذا عندما توقفت على أفضل وجه عند نقطة أقل قليلاً من إعطائك الإجابة التي قد ترغب فيها؟

قلت: ألا ترى في إجابة هذا البروفيسور نوعا من الهروب؟

قال: نعم.. فهؤلاء العلماء ــ مع ما رزقوا من ذكاء حاد في جميع علوم الدنيا ــ إلا أن لهم بلاهة عجيبة فيما يتعلق بحقائق الأزل.

سكت قليلا، ثم قال: ولكن مع ذلك.. هذه البداية.. والعقل سيبقى محاصرا لهؤلاء.. والحقائق تظل محاصرة لهم إلى أن يعرفوا الحق، ويشهدوا له.

البروفيسور ج. س. جورنجر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور ج. س. جورنجر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت بهذا الأستاذ مع نفر من أصحابنا، وسألناه: هل ذكر في تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق في أطوار؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار في زمن الرسول ﷺ أو بعده بقرون، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر؟

فأجابنا بقوله: لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه.

فقلنا له: نعم، نعلم هذا، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطواراً؟ لأننا نعلم أن الأطوار لم تعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر، ولم تثبت إلا في أوائل القرن العشرين.

وبعد نقاش طويل، قال: لا.

قلنا: هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار، كالمصطلحات التي وردت في القرآن الكريم؟

قال: لا.

قلنا: فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين؟

وبعد مناقشة طويلة معه قدم بحثاً، وألقاه في المؤتمر الطبي السعودي الثامن عن هذه الأطوار التي وردت في القرآن الكريم، وعن جهل البشرية بها، وعن شمول ودقة هذه المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم على هذه الأطوار لأحوال الجنين بعبارات موجزة وألفاظ مختصرة شملت حقائق واسعة.

وقد قال مصرحا بعد بحثه ذلك: إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في معظم الحالات إن لم يكن في جميعها يعود هذا الوصف في قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنيني البشري التي وردت في العلوم التقليدية العلمية.

قال الشيخ: وتطرق البحث مع البروفيسور جورنجر حول الظاهرة التي كشفت علمياً، وكشفت حديثاً لتزيل الإشكال الذي كان يثيره النصارى الذين يقولون: ها هو ذا عيسى عليه السلام قد خلق من أم فمن هو أبوه؟.. يثيرون هذا الإشكال لا يتصورون أن يكون هناك خلق بدون أب.

ولكن العلم يكشف أن كثيراً من الحيوانات الدنيا وكثيراً من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور، فهذا النحل: جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلقح بماء الذكور والبيضة التي تلقح بماء الذكور تكون شغالة أنثى، أما الذكور فهي مخلوقة من بيض الملكة بدون ماء الذكور.. وغير ذلك من الحيوانات.

بل لقد حدث في التقدم العلمي أن تمكن الإنسان أن ينبه بعض البيض لبعض الكائنات فتنمو هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر.

وقد حدثنا البروفيسور جورنجر عن هذا الأمر، فقال: في نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصب لكثير من الحيوانات اللافقارية والبرمائية والثديية السفلي يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية، كالوخز بالإبرة، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية، أو بوسائل كيميائية بأي عدد من المواد الكيمائية المختلفة، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة، في بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجيني طبيعياً.

البروفيسور درجا برساد راو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور درجا برساد راو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ في علم جيولوجيا البحار، وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا، وعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فاندهش لما سمع ولما رأى وهو يقرأ معاني آيات القرآن في بعض الكتب المخصصة لذلك.

وكان مما تعرض لشرحه قول الله ﷻ:﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ

﴾(النور: ٤٠)

وقد قال في تفسيرها: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن بعد أن استعملوا الغواصات، وتمكنوا من الغوص في أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين متراً، فالذين يغوصون من أجل اللؤلؤ في مناطق الخليج يغوصون في مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق، فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق ٢٠٠ متر لا يمكن أبداً أن يبقى حياً.

وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد في البحار العميقة، ولذلك قال ﷻ:﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾.. ليس في أي بحر وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق بعض، والظلمات المتراكمة والتي تتراكم في البحار العميقة تنشأ بسببين، وكلا السببين يكونان نتيجة اختفاء الألوان في طبقة بعد طبقة.

فالشعاع الضوئي مكون من سبعة ألوان، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة.

أخرج لنا صورة طبقات مقسمة من مقطع عرضي لقاع البحر، وقال: نرى في هذا الشكل الذي أمامنا الشعاع في الماء، فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر في العشرة الأمتار السطحية العليا، فلو أن غواصاً يغوص على عمق ثلاثين متراً وجرح جسمه وخرج الدم وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر لأن الأشعة الحمراء غير موجودة، وبعده يمتص اللون البرتقالي، وكما نرى في هذا الشكل الشعاع الضوئي وهو يترل في أعماق الماء على مسافة ٥٠ متراً يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق١٠٠ متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا.

ونرى تحت مائتي متر يكون الامتصاص للون الأزرق، فإذاً ظلمة اللون الأخضر عند عمق ١٠٠ متر وظلمة الأصفر تكون على عمق ٥٠ متراً، وقبلها ظلمة اللون البرتقالي وظلمة اللون الأحمر، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وأما السبب الثاني فيكون بسبب الحواجز التي تحجب الضوء، فالشعاع الضوئي الذي نراه هنا يترل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه فتنشأ ظلمة تحت السحب، وهذه الظلمة الأولى، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى سطح البحر المتموج انعكس على سطح الموج فأعطى لمعاناً، ولذلك نرى أنه إذا حدث موج في البحر كان اللمعان شديداً على حسب ميل سطح الموج.

فالموج إذاً يسبب عكساً للأشعة أي يسبب ظلمة ثم يترل الشعاع الضوئي إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين، قسم سطحي وقسم عميق، أما السطحي فهو الذي يوجد فيه الظلام والبرودة.

ويختلف البحران في خصائصهما وصفاتهما ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحي والبحر العميق، وهذا الموج الداخلي لم يكتشف إلا عام ١٩٠٠م تحت الموج العميق الذي يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك في هذه المناطق لا ترى بأعينها بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها في هذه الظلمات التي تراكمت بعضها فوق بعض، وقد جاء ذكر هذا في قوله ﷻ:﴿:﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام ونرى فوق الموج الأول الذي يفصل بين البحر السطحي والبحر العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ ﴾ أي من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذي يكون على سطح البحر:﴿ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ فوقهم:﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ ظلمات هذه الحواجز وظلمات الألوان

في طبقات بعضها فوق بعض ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ في هذه المناطق ظلام شديد، والغواصات تترل إلى هذه المسافات فلا ترى شيئاً، وتستخدم مصادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها. فمن أخبر محمداً ﷺ عن هذه الآيات؟

قال الشيخ: فكان هذا مما حدثنا عنه البروفيسور راو، ثم استعرضنا معه كثيراً من الآيات المتعلقة بالبحار وفي مجال تخصصه، ثم قلنا له: ما هو تفسيرك يا أستاذ راو لهذه الظاهرة؟.. ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى كيف أخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ ١٤٠٠ عام؟

فقال: من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجوداً في ذلك الوقت منذ ١٤٠٠سنة هجرية، ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة، ولكن وصف هذه الأشياء بتفصيل كبير أمر صعب جداً، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علماً بشرياً بسيطاً، لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فقد فكرت في قوة خارقة الطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة.

البروفيسور شرويدر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور شرويدر)، فسألت البابا عنه، فقال:: هو من علماء البحار في ألمانيا الغربية، وقد حدثنا حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا في ندوة لعلماء البحار نظمتها جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وقد طلب مني حينها أن ألقي محاضرة عن الظواهر البحرية بين الكشوف العلمية والآيات القرآنية، وبعد أن ألقيت المحاضرة وقف البروفيسور شرويدر في اليوم الثاني يعقب على هذه المحاضرة فكان مما قاله: أود أن أعلق على المحاضرة التي ألقاها علينا الشيخ الزنداني بالأمس، وأود أن أقول: إنني أقدر هذه المحاضرة، في إطار اجتماع علمي كهذا لا يحتاج المرء أن يكون مسلماً، حتى بالنسبة لي كمسيحي من المهم أن أرى العلم ليس فقط كما هو عليه، ولكن أيضاً أن أراه بصورة أوسع وأقابله بالدين أي أن أراه في إطار الدين.

قال الشيخ: ثم أخذ البروفيسور شرويدر يبين العلاقة بين الأديان والعلم، إنه يتحدث عن تلك الفجوة الهائلة بين الأديان كلها وبين العلم، فهناك تنافر واضح بين قادة العلوم الدينية وقادة العلوم الكونية، ولكنه اندهش عندما سمع آيات القرآن الكريم وسمع الحقائق التي ذكرها هذا الكتاب الكريم قبل ١٤٠٠ عام، فعلق على ذلك وقال: في أديان كثيرة نجد أن القادة يظنون أن العلم يستطيع أن يأخذ شيئاً من الدين، إذا كان العلم يتقدم فإن على الدين أن يتقهقر، هنا لدينا تناول مختلف تماماً، لقد أراني الشيخ الزنداني أن العلم في الحقيقة يؤكد ما يقوله القرآن، وما ورد بالفعل منذ عديد من السنين في القرآن هو حقيقة ما يكتشفه العلماء اليوم، أعتقد أنه من المهم بالنسبة لندوة كهذه أن تبلغ إلى العلماء من جميع الأمم، وإنني واثق أننا جميعاً سنعود إلى أوطاننا ونحن نفكر أكثر في العلاقة بين الدين وعلوم البحار، ليس هناك علم في جانب ودين في جانب آخر.

آرثر أليسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر أليسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هو

رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن، ورئيس جمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية.. وقد سمعت حديثه عن بعض الثقاة، فقد ذكر لي بأن هذا الاستاذ الفاضل زار القاهرة عام ١٩٨٥ ليشارك في أعمال المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، كان يحمل معه بحثه الذي ألقاه، وتناول فيه أساليب العلاج النفسي والروحاني في ضوء القرآن الكريم، بالإضافة الى بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما في ضوء الآية القرآنية الكريمة:﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:٤٢)

و لم يكن حينها قد اعتنق الإسلام، وإنما كانت مشاعره تجاهه لا تتعدى الإعجاب به كدين من الأديان.

ولكنه ما إن جلس يشارك في أعمال المؤتمر، ويستمع إلى باقي البحوث التي تناولت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حتى تملكه الانبهار، وازداد يقينه بأن هذا هو الدين الحق.. فكل ما يسمعه عن الإسلام يدلل بأنه دين العلم ودين العقل.

لقد رأى ذلك الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية، والتي تتكلم عن المخلوقات والكائنات، والتي جاء العلم، فأيدها، فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر.. وما جاء به محمد من أربعة عشر قرناً يؤكد أنه رسول الله حَقّاً.

وأخذ أليسون يستفسر من كل مَن جلس معه عن كل ما يهمه أن يعرفه عن الإسلام كعقيدة ومنهج للحياة في الدنيا..

وفي الليلة الختامية للمؤتمر، وأمام مراسلي وكالات الأنباء العالمية، وعلى شاشات التليفزيون، وقف البروفيسور (آرثر أليسون) ليعلن أمام الجميع أن الإسلام هو دين الحق، ودين الفطرة التي فطر الناس عليها، ثم نطق بالشهادتين أمام الجميع بصوت قوي مؤمن.

وفي تلك اللحظات كانت تكبيرات المسلمين من حوله ترتفع، ودموع البعض قد انهمرت خشوعاً ورهبة أمام هذا الموقف الجليل.

ثم أعلن البروفيسور البريطاني عن اسمه الجديد (عبد الله أليسون)، وأخذ يحدث الحضور عن قصته مع الإسلام فقال:(إنه من خلال اهتماماتي بعلم النفس، وعلم ما وراء النفس، حيث كنت رئيساً لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة، أردت أن أتعرف على الأديان، فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام، الذي وجدته أكثر العقائد تمشياً مع الفطرة التي ينشأ عليها الإنسان، وأكثر العقائد تمشياً مع العقل، من أن هناك إلهاً واحداً مهيمناً ومسيطراً على هذا الوجود، ثم إن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية من قبل أربعة عشر قرناً قد أثبتها العلم الحديث الآن، وبالتالي نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبي محمد ﷺ هو رسول الله)

ثم تناول (عبد الله أليسون) جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية السابقة، فأثبت (أليسون) أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت، وتعني النوم، وأن

الموت وفاة غير راجعة في حين أن النوم وفاة راجعة.. وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلنيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أم عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النّفسُ وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.

ثم قرر هذا العالم المسلم البروفيسور (عبد الله أليسون) أن الحقائق العلمية في الإسلام هي أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل.

وقد أعلن البروفيسور أنه سيقوم بإنشاء معهد للدراسات النفسية الإسلامية في لندن على ضوء القرآن المجيد والسنة النبوية.

وأعلن أنه سيظل مهتما بدراسات الإعجاز الطبي في الإسلام، وذلك لكي يوصل تلك الحقائق إلى العالم الغربي الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام.

كما وعد بإنشاء مكتبة إسلامية ضخمة باللغتين العربية والإنجليزية للمساعدة في إجراء البحوث العلمية على ضوء الإسلام.

جفري لانج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفسور جفري لانج)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ الرياضيات في الجامعات الأميركية، وهو مؤلف كتاب بعنوان (حتى الملائكة تسأل)، وقد سطر في هذا الكتاب قصة إسلامه.

وقد تشرفت باللقاء معه، والاستماع لتلك القصة منه مشافهة، ومما ذكره لي من ذلك قوله:(لقد كانت غرفة صغيرة، ليس فيها أثاث ما عدا سجادة حمراء، ولم يكن ثمة زينة على جدرانها الرمادية، وكانت هناك نافذة صغيرة يتسلّل منها النور ... كنا جميعاً في صفوف، وأنا في الصف الثالث، لم أكن أعرف أحداً منهم، كنا ننحني على نحو منتظم فتلامس جباهنا الأرض، وكان الجو هادئاً، وخيم السكون على المكان، نظرت إلى الأمام فإذا شخص يؤمّنا واقفاً تحت النافذة، كان يرتدي عباءة بيضاء ... استيقظت من نومي!رأيت هذا الحلم عدة مرات خلال الأعوام العشرة الماضية، وكنت أصحو على أثره مرتاحاً.

في جامعة (سان فرانسيسكو) تعرفت على طالب عربي كنت أُدرِّسُهُ، فتوثقت علاقتي به، وأهداني نسخة من القرآن، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن القرآن هو الذي (يقرأني)

وفي يوم عزمت على زيارة هذا الطالب في مسجد الجامعة، هبطت الدرج ووقفت أمام الباب متهيباً الدخول، فصعدت وأخذت نفساً طويلاً، وهبطت ثانية لم تكن رجلاي قادرتين على حملي!مددت يدي إلى قبضة الباب فبدأت ترتجف، ثم هرعت إلى أعلى الدرج ثانية ... شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكتبي.. مرت عدة ثوانٍ كانت هائلة ومليئة بالأسرار اضطرتني أن أنظر خلالها إلى السماء، لقد مرت عليّ عشر سنوات وأنا أقاوم الدعاء والنظر إلى السماء!أما الآن فقد انهارت المقاومة وارتفع الدعاء: (اللهم إن كنت تريد لي

دخول المسجد فامنحني القوة)، نزلت الدرج، دفعت الباب، كان في الداخل شابان يتحادثان. ردا التحية، وسألني أحدهما: هل تريد أن تعرف شيئاً عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم .. وبعد حوار طويل أبديت رغبتي باعتناق الإسلام فقال لي الإمام: قل أشهد، قلت: أشهد، قال: أن لا إله، قلت: أن لا إله ـــ لقد كنت أؤمن بهذه العبارة طوال حياتي قبل اللحظة ـــ قال: إلا الله، رددتها، قال: وأشهد أن محمداً رسول الله، نطقتها خلفه.

لقد كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافي تنحدر في الحلق المحترق لرجل قارب الموت من الظمأ ... لن أنسى أبداً اللحظة التي نطقت بها بالشهادة لأول مرة، لقد كانت بالنسبة إليّ اللحظة الأصعب في حياتي، ولكنها الأكثر قوة وتحرراً.

بعد يومين تعلمت أول صلاة جمعة، كنا في الركعة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطفون، الكتف على الكتف، كنا نتحرك وكأننا جسد واحد، كنت أنا في الصف الثالث، وجباهنا ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئاً والسكون مخيماً على المكان !! والإمام تحت النافذة التي يتسلل منها النور يرتدي عباءة بيضاء!صرخت في نفسي: إنه الحلم!إنه الحلم ذاته ... تساءلت: هل أنا الآن في حلم حقاً فاضت عيناي بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انفتلتُ من الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية!تملكني الخوف والرهبة عندما شعرت لأول مرة بالحب، الذي لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله)[1]

وقد انهالت الأسئلة على الدكتور جيفري لانغ باحثة عن سر إسلامه فكان يجيب:(في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتي، منّ الله بواسع علمه ورحمته عليّ، بعد أن وجد فيّ ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدي الاستعداد الكبير إلى مَلء الخواء الروحي في نفسي، فأصبحت مسلماً ... قبل الإسلام لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكنني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لا تقاوَم) [2]

وكان من إجاباته قوله:(الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة.. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح) [3]

وكان يجيب بقوله:(القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملّك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدّى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك!وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أن مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتــشف الإجابـــة في اليوم التالي ... لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في

---

(١) باختصار عن كتابيه (الصراع من أجل الإيمان) و(حتى الملائكة تسأل)

(٢) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: ٢١١.

(٣) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ:٧٥.

صفحات القرآن..) [1]

وكان يقول:(بعد أن أسلمت كنت أُجهد نفسي في حضور الصلوات كي أسمع صوت القراءة، على الرغم من أني كنت أجهل العربية، ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد) [2]

وكان يقول:(الصلاة هي المقياس الرئيس اليومي لدرجة خضوع المؤمن لربه، ويا لها من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها، وتشتمُّ تربتها، وتتنشق شذا عبيرها، وتشعر وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض، وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم) [3]

وكان يقول:(وإن صلاة الفجر هي من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما في النهوض فجراً — بينما الجميع نائمون — لتسمع موسيقا القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتسافر مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر) [4]

قلت: أراه شديد التعظيم للصلاة مدركا لقيمتها.

قال: أجل.. وقد حدثني عن أول صلاة صلاها، والصراع الذي حصل بينه وبين نوازع نفسه، فقال: في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام، قدم لي إمام المسجد كتيباً يشرح كيفية أداء الصلاة، غير أني فوجئت بما رأيته من قلق الطلاب المسلمين، فقد ألحوا عليَّ بعبارات مثل: (خذ راحتك) (لا تضغط على نفسك كثيراً) (من الأفضل أن تأخذ وقتك) (ببطء.. شيئاً، فشيئاً)

وتساءلت في نفسي (هل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟). لكني تجاهلت نصائح الطلاب، فقررت أن أبدأ فوراً بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها.

وفي تلك الليلة، أمضيت وقتاً طويلاً جالساً على الأريكة في غرفتي الصغيرة بإضاءتها الخافتة، حيث كنت أدرس حركات الصلاة وأكررها، وكذلك الآيات القرآنية التي سأتلوها، والأدعية الواجب قراءتها في الصلاة.

وبما أن معظم ما كنت سأتلوه كان باللغة العربية[5]، فقد لزمني حفظ النصوص بلفظها العربي، وبمعانيها باللغة الإنجليزية، وتفحصت الكتيب ساعات عدة، قبل أن أجد في نفسي الثقة الكافية لتجربة الصلاة الأولى، وكان الوقت قد قارب منتصف الليل، لذلك قررت أن أصلي صلاة العشاء.

ودخلت الحمام ووضعت الكتيب على طرف المغسلة مفتوحاً على الصفحة التي تشرح الوضوء، وتتبعت

---

(١) حتى الملائكة تسأل،:٢٠٩.
(٢) الصراع من أجل الإيمان:٣٤.
(٣) حتى الملائكة تسأل:٣٦٦.
(٤) الصراع من أجل الإيمان:١١١.
(٥) ذكرنا في المسائل الفقهية المرتبطة بهذا الجانب أنه لا ينبغي التشدد في هذا الباب، فيمكن للمصلي أن يصلي باللغة التي يعرفها، وفي الفقه الإسلامي الأدلة الكثيرة المبينة لجواز هذا، ولعل أقواها قوله ﷻ:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)(طـه: من الآية١٤)، فالغرض من الصلاة هو ذكر الله، وهو يتحقق بأي لغة من اللغات.

التعليمات الواردة فيه خطوة خطوة، بتأن ودقة، مثل طاهٍ يجرب وصفة لأول مرة في المطبخ.

وعندما انتهيت من الوضوء، أغلقت الصنبور وعدت إلى الغرفة والماء يقطر من أطرافي، ووقفت في منتصف الغرفة، متوجهاً إلى ما كنت أحسبه اتجاه القبلة.

نظرت إلى الخلف لأتأكد من أنني أغلقت باب شقتي، ثم توجهت إلى الأمام، واعتدلت في وقفتي، وأخذت نفساً عميقاً، ثم رفعت يدي، وبراحتين مفتوحتين ملامساً شحمتي الأذنين بإبهامي، ثم بعد ذلك، قلت بصوت خافت (الله أكبر).

كنت آمل ألا يسمعني أحد. فقد كنت أشعر بشيء من الانفعال. إذ لم أستطع التخلص من قلقي من كون أحد يتجسس علي.

وفجأة أدركت أنني تركت الستائر مفتوحة، وتساءلت: ماذا لو رآني أحد الجيران؟ تركت ما كنت فيه، وتوجهت إلى النافذة، ثم جلت بنظري في الخارج لأتأكد من عدم وجود أحد.

وعندما رأيت الباحة الخلفية خالية، أحسست بالارتياح. فأغلقت الستائر، وعدت إلى منتصف الغرفة.

ومرة أخرى، توجهت إلى القبلة، واعتدلت في وقفتي، ورفعت يدي إلى أن لامس الإبهامان شحمتي أذني، ثم همست (الله أكبر)... وبصوت خافت لا يكاد يسمع، قرأت فاتحة الكتاب ببطء وتلعثم، ثم أتبعتها بسورة قصيرة باللغة العربية، وإن كنت أظن أن أي عربي لم يكن ليفهم شيئاً لو سمع تلاوتي تلك الليلة.

ثم بعد ذلك تلفظت بالتكبير مرة أخرى بصوت خافت وانحنيت راكعاً حتى صار ظهري متعامداً مع ساقي واضعاً كفي على ركبتي وشعرت بالإحراج، إذ لم أنحن لأحد في حياتي، ولذلك فقد سررت لأنني وحدي في الغرفة.

وبينما كنت ما أزال راكعاً، كررت عبارة (سبحان ربي العظيم) عدة مرات، ثم اعتدلت واقفاً وأنا أقرأ (سمع الله لمن حمده) ثم (ربنا ولك الحمد).... أحسست بقلبي يخفق بشدة، وتزايد انفعالي عندما كبرت مرة أخرى بخضوع فقد حان وقت السجود.. وتجمدت في مكاني، بينما كنت أحدق في البقعة التي أمامي، حيث كان علي أن أهوي إليها على أطرافي الأربعة وأضع وجهي على الأرض.

لم أستطع أن أفعل ذلك، لم أستطع أن أنزل بنفسي إلى الأرض، لم أستطع أن أذل نفسي بوضع أنفي على الأرض، شأن العبد الذي يتذلل أمام سيده.. لقد خيل لي أن ساقي مقيدتان لا تقدران على الانثناء... لقد أحسست بكثير من العار والخزي، وتخيلت ضحكات أصدقائي ومعارفي وقهقهاتهم، وهم يراقبونني وأنا أجعل من نفسي مغفلاً أمامهم، وتخيلت كم سأكون مثيراً للشفقة والسخرية بينهم، وكدت أسمعهم يقولون: (مسكين جفري فقد أصابه العرب بمس في سان فرانسيسكو)

وأخذت أدعو: (أرجوك، أرجوك، أعني على هذا). أخذت نفساً عميقاً، وأرغمت نفسي على النزول.. الآن صرت على أربعتي، ثم ترددت لحظات قليلة، وبعد ذلك ضغط وجهي على السجادة.. أفرغت ذهني من كل الأفكار، وتلفظت ثلاث مرات بعبارة (سبحان ربي الأعلى)، (الله أكبر) قلتها ورفعت من السجود جالساً على عقبي وأبقيت ذهني فارغاً رافضاً السماح لأي شيء أن يصرف انتباهي. (الله أكبر) ووضعت وجهي على

الأرض مرة أخرى. وبينما كان أنفي يلامس الأرض، رحت أكرر عبارة (سبحان ربي الأعلى) بصورة آلية. فقد كنت مصمماً على إنهاء هذا الأمر مهما كلفني ذلك. (الله أكبر) وانتصبت واقفاً، فيما قلت لنفسي: لا تزال هناك ثلاث جولات أمامي. وصارعت عواطفي وكبريائي في ما تبقى لي من الصلاة.

لكن الأمر صار أهون في كل شوط، حتى إنني كنت في سكينة شبه كاملة في آخر سجدة، ثم قرأت التشهد في الجلوس الأخير، وأخيراً سلمت عن يميني وشمالي...

وبينما بلغ بي الإعياء مبلغه، بقيت جالسا على الأرض، وأخذت أراجع المعركة التي مررت بها، لقد أحسست بالإحراج لأنني عاركت نفسي كل ذلك العراك في سبيل أداء الصلاة إلى آخرها، ودعوت برأس منخفض خجلاً: (اغفر لي تكبري وغبائي، فقد أتيت من مكان بعيد ولا يزال أمامي سبيل طويل لأقطعه)

وفي تلك اللحظة، شعرت بشيء لم أجربه من قبل، ولذلك يصعب عليّ وصفه بالكلمات، فقد اجتاحتني موجة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها كالبرودة، وبدا لي أنها تشع من نقطة ما في صدري، وكانت موجة عارمة فوجئت بها في البداية حتى إنني أذكر أنني كنت أرتعش، غير أنها كانت أكثر من مجرد شعور جسدي، فقد أثرت في عواطفي بطريقة غريبة أيضا.

لقد بدا كأن الرحمة قد تجسدت في صورة محسوسة، وأخذت تغلفني وتتغلغل فيّ.. ثم بدأت بالبكاء من غير أن أعرف السبب، فقد أخذت الدموع تنهمر على وجهي، ووجدت نفسي أنتحب بشدة... وكلما ازداد بكائي، ازداد إحساسي بأن قوة خارقة من اللطف والرحمة تحتضنني. و لم أكن أبكي بدافع من الشعور بالذنب، رغم أنه يجدر بي ذلك، ولا بدافع من الخزي أو السرور.. لقد بدا كأن سداً قد انفتح مطلقاً عنان مخزون عظيم من الخوف والغضب بداخلي.

ظللت لبعض الوقت جالساً على ركبتي، منحنياً إلى الأرض، منتحباً ورأسي بين كفي. وعندما توقفت عن البكاء أخيراً، كنت قد بلغت الغاية في الإرهاق، فقد كانت تلك التجربة جارفة وغير مألوفة إلى حد لم يسمح لي حينئذ أن أبحث عن تفسيرات عقلانية لها.. وقد رأيت حينها أن هذه التجربة أغرب من أن أستطيع إخبار أحد بها.

أما أهم ما أدركته في ذلك الوقت فهو أنني في حاجة ماسة إلى الله وإلى الصلاة، وقبل أن أقوم من مكاني، دعوت بهذا الدعاء الأخير: « اللهم، إذا تجرأت على الكفر بك مرة أخرى، فاقتلني قبل ذلك، خلصني من هذه الحياة.. ومن الصعب جداً أن أحيا بكل ما عندي من النواقص والعيوب لكنني لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً آخر وأنا أنكر وجودك »[1]

محمد أكويا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (محمد أكويا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ بإحدى الجامعات الأمريكية، وقد ذكر لي قصة إسلامه، فقال: قبل أربع سنوات، ثارت عندنا بالجامعة زوبعة

---

(١) حتى الملائكة تسأل:٢٣٤.

كبيرة، حيث التحقت للدراسة طالبة أميركية مسلمة،وكانت محجبة،وقد كان من بين مدرسيها رجل متعصب يبغض الإسلام ويتصدى لكل لا يهاجمه، فكيف بمن يعتنقهويظهر شعائره للعيان؟

وقد كان هذا الأستاذ يحاول استثارتها كلما وجد فرصة سانحة للنيل من الإسلام، وشن حربا شعواء عليها،ولما قابلت هي الموضوع بهدوء ازداد غيظه منها، فبدأ يحاربها عبر طريق آخر، حيث الترصد لها بالدرجات،وإلقاء المهام الصعبة في الأبحاث، والتشديد عليها بالنتائج، ولما عجزت المسكينة أن تجد لها مخرجا تقدمت بشكوى لمدير الجامعة مطالبة فيها النظر إلى موضوعها.

وكان قرار الإدارة أن يتم عقد لقاء بين الطرفين المذكورين الدكتور والطالبة لسماع وجهتي نظرهما والبت في الشكوى.

ولما جاء الموعد المحدد، حضر أغلب أعضاء هيئة التدريس، وكنا متحمسين جدا لحضور هذه الجولة التي تعتبر الأولى من نوعها عندنا بالجامعة.

بدأت الجلسة التي ذكرت فيها الطالبة أن المدرس يبغض ديانتها، ولأجل هذا يهضم حقوقها العلمية، وذكرت أمثلة عديدة لهذا، وطلبت الاستماع لرأي بعض الطلبة الذين يدرسون معها، وكان من بينهم من تعاطف معها وشهد لها، و لم يمنعهم اختلاف الديانة أن يدلوا بشهادة طيبة بحقها.

حاول الدكتور على إثر هذا أن يدافع عن نفسه، واستمر بالحديث، فخاض بسب دينها، فقامت تدافع عن الإسلام، وأدلت بمعلومات كثيرة عنه، وكان لحديثها قدرة على جذبنا، حتى أننا كنا نقاطعها، فنسألها عما يعترضنا من استفسارات، فتجيب، فلما رآنا الدكتور المعني مشغولين بالاستماع والنقاش خرج من القاعة، فقد تضايق من اهتمامنا وتفاعلنا.

فذهب هو ومن لا يرون أهمية للموضوع، وبقينا نحن مجموعة من المهتمين نتجاذب أطراف الحديث، وفي نهايته قامت الطالبة بتوزيع ورقتين علينا كتب فيها تحت عنوان (ماذا يعني لي الإسلام؟)، وفيها ذكرت الدوافع التي دعتها لاعتناق هذا الدين العظيم، ثم بينت ما للحجاب من أهميةوأثر، وشرحت مشاعرها الفياضة صوب هذا الجلباب وغطاء الرأس الذي ترتديه، والذي تسبب بكل هذه الزوبعة.

لقد كان موقفها عظيما.. ولأن الجلسة لم تنته بقرار لأي طرف، فقد قالت إنها تدافع عن حقها، وتناضل من أجله، ووعدت أنها إن لم تظفر بنتيجة لصالحها أن تبذل المزيد حتى لو اضطرت لمتابعة القضيةوتأخير الدراسة نوعا ما، لقد كان موقفا قويا، و لم نكن أعضاء هيئة التدريس نتوقع أن تكون الطالبة بهذا المستوى من الثبات، ومن أجل المحافظة على مبدئها.

وكم أذهلنا صمودها أمام هذا العدد من المدرسين والطلبة، وبقيت هذه القضية يدور حولها النقاش داخل أروقة الجامعة، أما أنا فقد بدأ الصراع يدور في نفسي من أجل تغيير الديانة، فما عرفته عن الإسلام حببني فيه كثيرا، ورغبني في اعتناقه، وبعد عدة أشهر أعلنت إسلامي، وتبعني دكتور ثانوثالث في نفس العام، كما أن هناك أربعة طلاب أسلموا.

وهكذا في غضون فترة بسيطة أصبحنا مجموعة لنا جهود دعوية في التعريف بالإسلام والدعوة إليه، وهناك

الآن عدد من الأشخاص في طور التفكير الجاد، وعما قريب إن شاء الله ينشر خبر إسلامهم داخل أروقة الجامعة.والحمد لله وحده.

آلا أولينيكوفا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آلا أولينيكوفا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه أستاذة بالجامعية الروسية، وقد درست الطب في ثلاث جامعات، قد أخبرتني عن قصة اعتناقها للإسلام، فقالت: أنا روسية، ولدت في مدينة (لينين غراد).. وهي مدينة تنتسب إلى لينين ذلك الشيوعي الذي قتل آلاف المسلمين في الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفييتي السابق.

وقد تعلمت وواصلت الدراسة في أسرة فقيرة لم يكن لها من زاد سوى صيد الأسماك التي عمل بها والدي من قديم.

وقد درست الطب في موسكو وتخرجت، ثم حصلت على الماجستير فالدكتوراه، ودرست بعدها في جامعات موسكو وكييف ولينين غراد.

حياتي في ظل الشيوعية كانت سيئة جدا، لا تتفق وفطرة الإنسان في العيش بحرية وأمان ورفاه.

كنت في داخلي ثائرة على الوضع، لكنني لم أكن أستطيع الكلام، مثل سائر الناس، وإلا كان المصير هو القتل، أو النفي لسيبيريا، أو السجن أو التعذيب.

كانت حياتنا جحيما مستعرا، ظلما واستعبادا وقهرا، وإجبارا على حياة لا توافق فطرة البشر، ومنعا من العبادة، وإجبارا على الكفر والإلحاد.

نحن نعلم عن الإسلام أكثر مما يعرفه الغربيون لأسباب أهمها قربنا من المجتمعات المسلمة، ولأن الاتحاد السوفييتي كان يضم قرابة ٦٠ مليون مسلم، وهؤلاء يعملون معنا في مختلف مراكز الدولة.

عرفت الإسلام من بعض المسلمين العاملين معنا، ولاحظته في تصرفات الطلبة الوافدين من الدول الإسلامية مثل: سورية والكويت وليبيا واليمن والعراق.

وتعرفت على الإسلام أكثر من خلال طالب سوري من حمص كان يدرس الطب في جامعة كييف، إذ لم يكن يشرب الخمر، ولا يأكل لحم الخنزير، ولا يقيم علاقات مع النساء، وكانت أخلاقه عالية جدا، فقد كان أمينا وصادقا، وكان يسكن مترلا متواضعا يقول عنه: هذا مترلي ومسجدي.

شدني هذا الطالب المسلم بأخلاقه، وتعامله المهذب، ليؤكد أن هذه هي أخلاق الإسلام، ولقد أهداني كتبا عن الإسلام قرأتها جيدا فزادت معرفتي به.

وفي عام ١٩٩٢ م تركت العمل مؤقتا، وسافرت إلى سورية حيث التحقت بكلية الدعوة، ودرست الإسلام فيها، وتخرجت عام ١٩٩٥ لأعلن إسلامي.

وقد ذكرت لي فضائل الإسلام ومزاياه.. وهي التي جعلته تقتنع به وتعتنقه، فقالت: الإسلام دين عظيم، وهو في بلادنا من قبل ألف عام، بينما لم تعش الشيوعية أكثر من سبعين عاما .. لاحظت الأخوة والمحبة بين المسلمين وتبادل النصح .. يزداد تجلي الإسلام في رمضان حيث النظام والصبر والمودة التي تفتقدها المجتمعات

غير المسلمة على إطلاقها .. الإسلام يراعي الدنيا والآخرة، وهذا يلائم الطبيعة البشرية .. بعد ارتدائي الحجاب أحاول عدم الاختلاط بالرجال قدر المستطاع.

ولو عرف مجتمعنا الإسلام جيدا وطبقه لأنقذه من الجريمة والفساد والمافيا والمخدرات والدعارة والبطالة.. لأن الإسلام يحرم ويحارب كل ما يضر بالنفس وبالآخرين.

الإسلام هو الخلاص للبشرية، والشافي لها من أمراض العصر، وفيه الحل لمشكلات المجتمعات المختلفة.

لقد سقطت الشيوعية في مزبلة التاريخ على الرغم من كل ما أحاطوها به من دعايات.

بقي الإسلام الذي حاول الشيوعيون طمسه، بل تعاظم دوره واتسعت رقعته اليوم في روسيا وغير روسيا، وفي هذا درس وعبرة لمن أراد أن يعتبر.

وقد قالت لي في آخر حديثي معها: أنا الآن بصدد وضع كتاب عن الإسلام بالروسية، وسوف أحاول تعريف الجميع بهذا الدين العظيم، الذي رأيت من خلاله النور.

صوفي بوافير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (صوفي بوافير) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه عالمة كندية تحمل درجة الماجستير في تعليم الفرنسية والرياضيات، وقد حدثتني حديث إسلامها، فقالت: ولدت في مونتريال بكندا عام ١٩٧١ في عائلة كاثوليكية متدينة، فلذلك اعتدت الذهاب إلى الكنيسة، إلى أن بلغت الرابعة عشرة من عمري، حيث بدأت تراودني تساؤلات كثيرة حول الخالق وحول الأديان، وكانت هذه التساؤلات منطقية، ولكنها سهلة، ولكني تعجبت من صعوبتها على الذين كنت أسألهم.

ومن هذه الأسئلة: إذا كان الله هو الذي يضر وينفع، وهو الذي يعطي ويمنع، فلماذا لا نسأله مباشرة !؟.. ولماذا يتحتم علينا الذهاب إلى الكاهن كي يتوسط بيننا وبين من خلقنا !؟.. أليس القادر على كل شيء هو الأولى بالسؤال !؟

أسئلة كثيرة كهذه كانت تُلحُّ علي، فلمّا لم أتلق الأجوبة المقنعة عنها توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة، و لم أعد للاستماع لقصص الرهبان غير المقنعة، والتي لا طائل منها.

لقد كنت أؤمن بالله وبعظمته وبقدرته، لذلك رحت أدرس أدياناً أخرى، دون أن أجد فيها أجوبة تشفي تساؤلاتي في الحياة، وبقيت أعيش الحيرة الفكرية حتى بدأت دراستي الجامعية، فتعرفت على شاب مسلم تعرفت من خلاله على الإسلام، فأدهشني ما وجدت فيه من أجوبة مقنعة عن تساؤلاتي الكبرى.

وبقيت سنة كاملة وأنا غارقة في دراسة هذا الدين الفذ، حتى استولى حبه على قلبي، والمنظر الأجمل الذي جذبني إلى الإسلام هو منظر خشوع المسلم بين يدي الله في الصلاة، كانت تبهرني تلك الحركات المعبرة عن السكينة والأدب وكمال العبودية لله تعالى، فبدأت أرتاد المسجد، فوجدت بعض الأخوات الكنديات اللواتي سبقنني إلى الإسلام، وهو ما شجعني على المضي في الطريق إلى الإسلام، فارتديت الحجاب أولاً لأختبر إرادتي،

---

(١) انظر: كتاب (ربحت محمدا و لم أخسر المسيح)، د.عبد المعطي الدالاتي.

وبقيت أسبوعين حتى كانت لحظة الانعطاف الكبير في حياتي، حين شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إن الإسلام الذي جمعني مع هذا الصديق المسلم، هو نفسه الذي جمعنا من بعد لنكون زوجين مسلمين، لقد شاء الله أن يكون رفيقي في رحلة الإيمان هو رفيقي في رحلة الحياة.

اسبر ابراهيم شاهين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اسبر إبراهيم شاهين)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هو الدكتور اسبر ابراهيم شاهين.. وهو اسم معروف في الولايات المتحدة الاميركية التي يحمل جنسيتها وتربطه علاقة صداقة حميمة مع رؤسائها، بل يعتبر أحد الشخصيات ذوي الانجازات في دول الغرب.

وقد عرف بمؤلفاته ومقالاته التي حققت رواجاً بين أوساط القراء، بل إن بعضها ادرج ضمن الكتب الاكثر رواجاً وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالتكنولوجيا.

وهو بالإضافة إلى هذا خطيب بارع، ومتحدث لبق يجيد فن الحديث، وقد نال جائزة قيمة في مجال تطوير المهارات المتخصصة، وهو مصنف ضمن رجال العلم الأميركان، وضمن أحد الشخصيات ذوي الإنجازات في دول الغرب. كما أنه مواطن فخري لمدينة تكساس، وأحد الأساتذة البارزين في أميركا. وقد نال جائزة رواد الخطابة العالمية للباقته في الحديث، كما حصل على شهادة تقدير وسجل أسمه في سجل الشرف التذكاري الرئاسي.

وقد التقيت به في أمريكا، وحدثني عن قصة إسلامه، فقال: ولدت في لبنان عام ١٩٣٧، وأنا ــ في أصلي ــ مسيحي أرثوذكسي، درست في لبنان واكملت دراسة الثانوية فيها، ومن خلال حبي لروح المغامرة كشاب في مقتبل العمر وطموحي وتعطشي للمعرفة هاجرت الى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٥٧ طلباً للعمل والبحث عن فرص وظيفية، وكنت اعمل اثناء الدراسة لأنفق على نفسي، وقد درست بجامعة تكساس في أوستن لمدة سنتين، وحصلت على درجة البكالوريوس في العلوم من قسم الهندسة الكيميائية من جامعة ولاية اوكلاهوما ثم درست بعد ذلك بجامعة اريزونا في توسون، وحصلت على درجة الماجستير في العلوم، كما حصلت على شهادة الدكتوراة من جامعة تينيسي في نوكسفيل.

وأثناء دراستي هناك كنت ناشطاً في شرح القضايا العربية والدفاع عنها، ففي جامعة اوكلاهوما انتخبت رئيساً لمنظمة الطلبة العرب.

قلت: فكيف أقبلت على الإسلام، واقتنعت به، واعتنقته؟

قال: أصارحك القول.. أنا منذ صغري أشعر بميل شديد إلى الإسلام.. وفي مراحل التعليم المختلفة، ومن خلال ما اطلعت عليه في صغري عن الحضارة العربية والإسلامية والتاريخ العربي اتضح لي أن الإسلام دين عظيم، وقد انبعث من الجزيرة العربية لينتشر في جميع أنحاء المعمورة، ومن خلال صداقاتي مع كثير من المسلمين

---

(١) أجري معه الحوار في مجلة (الشرق الاوسط)، أجرى الحوار في الرياض: بدر الخريف.

التي امتدت إلى عدة عقود لمست فيهم سلوكيات في غاية الكمال وممارسات تجبرك على احترامهم، فمثلاً أنا مسيحي لم أجد من أصدقائي المسلمين أي شيء يشعرني بالبعد عنهم، بل إن الاحترام هو ديدن هذه الصداقة.

إن المعاملة والوعي لب روح الإسلام تجبرك على احترام هذا الدين، كما أن صداقاتي للدكتور ناصر بن ابراهيم الرشيد التي امتدت لأكثر من ٣٣ عاماً كان لها تأثير إيجابي على حياتي، فالإسلام دين واقعي ودين يدعو للعدالة والرحمة وتقدير الإنسان وتكريمه.

قلت: هذا السبب العام، فما السبب الخاص الذي أجبرك على إعلان إسلامك؟

قال: لقد قلت لنفسي (العمر يمشي ونحن نمشي، ولم يبق من الزمن مثل ما مضى).. وإضافة الى ما كانت ذاكرتي تختزنه من حب للاسلام، فقد مررت بظروف صعبة جداً منذ سنتين ونصف حيث خضعت لعملية استئصال ورم سرطاني حول البنكرياس، وذلك في احدى المستشفيات الاميركية، واتضح لي أن العملية ونتائجها خطرة وأن نسبة نجاحها تعد من النوادر.

وفي ليلة العملية تلقيت اتصالات من اصدقاء ومحبين كلهم يدعون لي بنجاح العملية، بل إن البعض منهم أشار إلى أنهم دعوا لي في الحرم بخروجي سالماً معافى من هذا الظرف، ولأنني مولع بالقرآن الكريم بصوت المقرئ الراحل عبد الباسط عبد الصمد الذي كنت أتلذذ بالاستماع اليه، وينتابني عند سماعه شعور غريب أشعر بعده بالطمأنينة، فقد استمعت ليلة إجراء العملية إلى آيات من القرآن الكريم، وبعد العملية شعرت بطمأنينة عميقة وروح هادئة، وحينها قررت أن أعلن إسلامي، وبالفعل حصل ذلك بحمد الله.

كانت الظروف السياسية التي أعلن فيها إسلامه صعبة جدا، فقلت: ألا ترى أن تزامن إسلامك مع هذه الظروف الصعبة وأنت ضمن الشخصيات الأميركية البارزة وتربطك علاقة بصناع القرار السياسي في أميركا، إضافة إلى أنك استشاري دولي ورئيس لمعهد تكنولوجي دولي، هل ترى ان توقيت إسلامك فيه نوع من التحدي؟

قال: نعم، اعلان اسلامي في ظل هذه الظروف هو نوع من التحدي، ولكنني لا أخشى أحداً، فقد اتخذت قرار الدخول في الدين الإسلامي عن قناعة تامة.

قلت: ألا تخاف أن توجه لك انتقادات بسبب إسلامك؟

قال: بالتأكيد سأواجه انتقادات.. ولكن كما قلت لا أعبأ بذلك.

قلت: فهل ستعرض الإسلام على أسرتك؟

قال: نعم، ولكن بأسلوب الإقناع، ودخول أفراد أسرتي للإسلام وخصوصاً زوجتي الاميركية يعتمد على القناعة، وأنا أرى أنني قدوة لأسرتي سابقاً، والآن سأكون أفضل بعد إسلامي.

قلت: أنت ترى ما يفعل قومي وقومك من التشهير بالإسلام والمسلمين والعرب في الغرب؟

قال: ليس هناك ما يبرر مثل هذا الهجوم، وقد تابعت ذلك ووجدت أن ما طرح لا يعدو أن يكون حقداً وكراهية ولا يصور الواقع، واقع الدين الإسلامي المشهور بالعدل والحق وواقع المسلمين والعرب، والغريب أن هذه الحملة تأتي من اشخاص في مراكز قوى تؤثر على الملايين من المواطنين.

والاعلام الاميركي وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر أصبح طوفانا من الدعاية السيئة، ومن المستحيل أن يقف أمامه من يسعون إلى إيضاح الحقيقة بسبب سيطرة الصهاينة عليه، وهذا يتطلب آلية من العرب والمسلمين لايضاح الصورة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن دينهم وعن واقعهم.

قلت: من خلال دراستك للإسلام ومخالطتك للمسلمين، هل لمست أن صراعاً ظهر بين الإسلام والمسيحية؟

قال: المسيحية ــ في أصلها وحقيقتها ــ لا تعادي الإسلام، والعكس كذلك، لكن ظهرت مؤخراً أصوات من مبشرين تتناول إعلان الحرب على الإسلام مثل ما ذهب اليه فرانك جراهام ــ وهو نجل المبشر الكبير بل جراهام ــ حيث قال: يجب أن يعلن الحرب على الإسلام، فإله الإسلام ليس بإلهنا، والإسلام هو دين عنف وكراهية لأقصى درجات.

تصور، هل مثل هذا الكلام يطرح، وتتناقله بعض وسائل الاعلام، وهل مثل هذا الشخص يمكن أن يقال إنه يدين بالمسيحية، لا اعتقد ذلك، فالمسيحية تقول:(من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر).. إنه بذلك يحرض العالم على الحرب وهذا شيء مؤلم، فكيف تنتقد ديناً أو تبدي رأياً فيه دون أن تعرف حقيقته أو ان تقرأ عنه.

المشكلة أن البعض في الغرب يقارن الإسلام النبيل بالمتطرفين من المسلمين، ومن قبل متطرفين مسيحيين، رغم أن الإسلام والمسيحية براء من هذه النماذج.

قلت: ما هي الآلية التي تراها مناسبة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام؟

قال: من خلال إيضاح حقيقة الإسلام، من خلال الحوار مع الآخر، من خلال المراكز الاعلامية بأساليب نبيلة ومحترمة توضح الحقيقه وتراعي شعور الآخرين.

موري ديفيد كيل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (موري ديفيد كيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث كندي شاب، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى كندا، وقد سألته أن يحدثني عن سر اختياره الإسلام دينا دون سائر الأديان، فقال: كنت أنتمي الي عائلة مسيحية، وأتردد علي الكنيسة حتي الثانية عشر من عمري، وكنت أغني مزامير وتراتيل الكنيسة، ولكن ترددي علي الكنيسة بدأ يقل كثيرا أو شعرت بأن وجودي هناك لا يعالج حالة الفراغ الروحي التي أشعر بها، وكانت مشكلة الدين تثير إهتمامي بشكل كبير في ذلك الوقت.

ورغم أني كنت أعرف شيئا قليلا عن الإسلام من خلال ما تذكره وسائل الإعلام، إلا أني لم أكن أعلم أن الإسلام دين توحيدي، بل لم أكن أعلم أن الإسلام تربطه أي علاقة بدين ابراهيم أو غيره من الاديان.. لكني بدأت ألتفت إلى الإسلام بقوة عندما علمت أن أحد علماء الإسلام في سويسرا وصف الإسلام بانه نقطه تلاقي بين الله كما هو وبين الانسان كما هو.

بعدها بدأت رحلة البحث والدراسة والتفكير، وبدأ يتكشف أمامي الكثير من تعاليم الدين الإسلامي،

وكانت كل مشكلتي تتمثل في عدم وجود من يشجعني علي دخول الإسلام، خاصة وأن المجتمع الغربي ككل يتخذ موقفاً معادياً للإسلام.

ولكني لم أتراجع عن الإسلام.. لقد وجدت في الإسلام التوازن الذي كنت أنشده، وهو الذي هداني إلى الغاية الحقيقية من الحياة، وقد وجدت فيه علاجاً وحلاً لمشكلة الروح في هذا الزمان والتي بحثت كثيراً عنها في مختلف الأديان، لكني لم أجد ديناً يعالج هذه القضية بشكل شامل وواسع سوى الإسلام.

لقد أعلنت إسلامي رغم علمي بالصعوبات التي سوف تواجهني.. وسميت نفسي عبد الصمد.

قلت: ما هي الصعوبات التي واجهتك بعد إسلامك؟

قال: عندما أعلنت إسلامي لم ألق معارضة من قبل أصدقائي، ولكن بمرور الوقت اكتشفت أنني فقدتهم جميعاً، أما بالنسبة لعائلتي، فقد أخفيت إسلامي عنهم طويلا، وعندما اكتشفوا ذلك توترت علاقتي بهم، واصيبوا بحالة من خيبة الأمل والحزن، ولمدة عام كامل، وهم يتعاملون معي بحساسية شديدة.

ورغم أن موقفهم من إسلامي كان يعذبني إلا أنني اقتديت بالصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي فضل الإيمان علي أمه والتي كان باراً بها..

لكن بمرور الوقت تحسنت علاقتي بالأسرة، ولكنهم ما يزالوا حتي اليوم يحرصون علي إخفاء نبأ إسلامي، ويعتبرون ذلك فضيحة.

أحمد نسيم سوسه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أحمد نسيم سوسه)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث مهندس من العراق، وهو عضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وقد توفي قبل سنوات تاركا الكثير من الدراسات في مختلف المجالات، وخاصة في تاريخ الريّ، وقد فنّد في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة(مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فحدثني عن رحلته إلى الإسلام، وعن إعجابه الشديد بالإسلام، وسأنقل لك من كلامه ما تستطيع أن تكتشف به سر انجذابه إلى الإسلام، فمن أقواله:

(يرجع ميلي إلى الإسلام.. حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعًا شديدًا.. وكنت أطرب لتلاوة آياته)[1]

(الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب وقد جاء ذلك تأييدًا علميًا للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي العربي الكريم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقًا الكتاب المقدس

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥١.

الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيرًا ما يصوّبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه دون أن يتغير فيه حرف واحد)[1]

(ورد في القرآن أنه جاء مهيمنًا على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ إياها من التلاعب)[2]

(الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية و لم يضطلع بآدابها أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وسموه وما يتضمنه من المعجزات المبهرة، ولما كان القرآن الكريم قد تناول كل أنواع التفكير والتشريع فقد يكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضع كلها. وهل من مناص للمرء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أميّة نبي الإسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسول.. فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمّيّة محمد برهانًا على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له)[3]

(إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزًا في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول)[4]

(يستحسن بأتباع موسى وعيسى عليهما السلام أن يراجعوا التاريخ الإسلامي ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرفق بالأطفال والنساء والشيوخ وغير المقاتلين بصورة عامة. ويثبت لنا التاريخ عدا ذلك أن المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مس الأطفال والنساء والشيوخ بكل أمانة وحرص حتى في الظروف التي كان فيها العدو المقابل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)[5]

(وجد اليهود تحت راية الإسلام أمنًا وعدلاً اتقوا به شر الاضطهاد والاعتداء، وقد مضت عليهم قرون عديدة وهم في خير وثراء)[6]

(من جملة ما حمله الصليبيون إلى بلادهم تلك الخلة الإسلامية الشريفة، خلة احترام الأديان وإطلاق الحرية لأهل الدين في تأدية فرائضهم مع احترام ما يجلّونه من العادات والتعاليم الروحية)[7]

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٦.
(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٧.
(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٢ – ١٨٣.
(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٥.
(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٩٤.
(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٠.
(٧) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٣.

(إن الإسلام شريعة العدل والإنسانية وأنه ينطوي على مبادئ تفوق السيف في قوتها واستقامتها، وأن منهج اللطف في دعوته إلى حقيقة التوحيد يجتذب القلوب ويسحر العقول ويأسر الناس بلا سيف ولا قتال)[١]

(يجب ألا يغرب عن البال أن المرأة لم تكن قد حازت حقوقًا تتمتع بها إلا بعد ظهور الإسلام لأن الإسلام هو أول من رفع قدر المرأة وأعطاها حقها في الحياة كحق الرجل)[٢]

(لقد حرمت المسيحية الطلاق ولكن في الوقت نفسه نجد أنظمة البلاد المسيحية وقوانينها الرسمية تنصّ على إباحته. إن المسيحيين أنفسهم قد ضربوا بتعاليم ديانتهم عرض الحائط ووضعوا القوانين التي تنقضها من الأساس، وما كان ذلك كرهًا لديانتهم ولكن رغبة في وضع ما تتطلبه نفسية المجتمع البشري من نظام يضمن الاطمئنان في علاقات الجنسين ويكفل السعادة البشرية. ولو صحا المسيحيون من غفلتهم وتأملوا في الأمر لاتضح لهم بأن الإسلام قد سبقهم في هذا المضمار من قبل ثلاثة عشر قرنًا)[٣]

(من الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلمين إلى جانب القلة ويكثر عند الغربيين الذين كانوا ينكرونه أشد الإنكار، وما فتئ يزداد مع الزمن انتشارًا مطردًا، فإنه يحصل بالولايات المتحدة الأمريكية كل سنة ما ينيف على المائتي ألف طلاق، وفي أوروبا يبت في عشرات الألوف من قضايا الطلاق وعلى الأخص في فرنسا. ولا يغيب عن الذهن أن الإسلام مع إباحته الطلاق للضرورة فإنه يعد أبغض الحلال عندا لله، كما أنه ورد في القرآن الكريم ما يحتم الرفق بالمرأة ويفرض المحافظة على حقوقها ويقصي الرجل عن الإقدام الطلاق ما أمكن)[٤]

(كانت المرأة في ديار العرب قديمًا محض متاع، بمجرد ذكرها أمرٌ ممتهن. هكذا كان الوضع حينما جاء محمد فرفع مقام المرأة في آسيا من وضع المتاع الحقير إلى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة، كما أن له الحق في أن يملك ويرث المال)[٥]

(مما يدل على أن الإسلام هو دين أبدي قد انزل لكل وقت ومكان نجد أن عادة تعدد الزوجات لم تعد تتبع في كثير من الأنحاء الإسلامية إلا ما ندر وقل، وذلك لسبب التطور الذي طرأ في حياة معظم الجماعات بحيث جعل العسر الاقتصادي والظروف الحالية تعدد الزوجات متعذرًا تطبيقه.. هذا وإذا دقّقنا كم هي النسبة المئوية من المؤمنين بالدين الإسلامي الذين يطبقون عادة تعدد الزوجات في الوقت الحاضر نجد فعلاً أنها نسبة جدّ قليلة)[٦]

(إني أعتقد بأنه لو كان للإسلام في أمريكا بعض ما كان للمسيحية من الدعاية والتبشير، لكان علمه يخفق اليوم في معظم أصقاع هذه البلاد الواسعة ولكان لقي فيها من التشجيع بخلاف ما هو معروف من فشل

(١) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ٣٨.
(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١٨٧/١.
(٣) في طريقي إلى الإسلام: ٣٠/٢ — ٣١.
(٤) في طريقي إلى الإسلام: ٣١/٢ — ٣٢.
(٥) في طريقي إلى الإسلام: ٤٢/٢.
(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١٤٤/٢ — ١٤٥.

التبشير النصراني)[1]

(إن البلاد العربية تجتاز اليوم دورًا عصيبًا هو دور الانتقال والتطور، وهذا الانتقال السريع مخيف ومريع، فقد تضيع فيه الوجهة والمبدأ إن لم نتدارك الأمر بالتحلي بالصفات الإسلامية السامية التي تمدنا بالإيمان والقوة قبل أن تتغلب علينا مادة الغرب فتفرقنا وتنتزع من أبناء يعرب يقينهم وأمانيهم)[2]

(لابدّ للشباب المتعلمين أن يضعوا نصب أعينهم الحقيقة التاريخية، ألا وهي أن حرب الغرب ضد الإسلام لم تنته، تلكم الحرب التي أضرمها الغربيون المسيحيون بقصد قطع دابر المسلمين، ومحو شوكة الإسلام من البسيطة. وقد وجد الغربيون في نظرياتهم الإلحادية التي يبثونها في علومهم ويشجعونها بين المسلمين بوسائط مختلفة غير العلم خير دسيسة بل أنجع وسيلة لمحو الإيمان بالدين الإسلامي، ونعني بذلك قوة الإسلام التي يتربص لها الغرب باغيًا إخمادها واضمحلالها. ويا ليت الشباب المسلمين يتروون في مسلكهم ويدرسون الحقائق الدينية التاريخية قبل أن يبيعوا عواطفهم الدينية رخيصة للعدو المترصد)[3]

(إنه يجب ألا ننسى أن العالم الغربي يخشى بأس الإسلام إذا اتّحد أنصاره.. إذ يرى الغربيون في اتحاد المسلمين خطرًا على كيانهم ومدنيّتهم ولا يخفون شعورهم في هذا الصدد بل هم يسعون بكل الوسائل لوضع العراقيل في سبيل التفاهم والاتحاد بين البلاد الإسلامية)[4]

(لابدّ من القول إن المناوأة التي أحدثتها البابوية ضد الإسلام وأضرمت بها نيران الحروب الصليبية لا تزال متأصلة في نفوس الغربيين)[5]

(أي غاية أسمى وأقرب إلى الإنسانية ودين الله من تلكم الغاية التي كان يرمي إليها الرسول في توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟لنتصور محمدًا وهو يملي على أهل الكتاب وحي الله قائلا:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)[6]

(إن نبي الإسلام شخصية تاريخية مبجلة. ما حياة الرسول سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامي من الحلقة الإنسانية)[7]

(كان محمد أنموذجًا للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة. بل مثالاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن تضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سموّ ذاته ونبل مقصده وعظمة شخصيته

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥٣.
(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٢.
(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٢ – ٦٣.
(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٣ – ١٣٤.
(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٤– ١٣٥.
(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١/٧٢-٧٣.
(٧) في طريقي إلى الإسلام: ١/١٧٤.

وقدسية نبوته)[1]

(إن التاريخ ينبئنا أن محمدًا ضحى بكل شيء من أجل رسالته إذ أتيحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ دعوته وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثاني لأن إيمانه برسالته كان قويًا وكان قد أوحي إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة على الإنسانية جمعاء فكان ما أراد الله له)[2]

(على المرء الذي وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو في الحقيقة دين الحرية والفطرة بعيدًا عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية وغريبًا عن العصبية وتقاليدها الثقيلة في اليهودية)[3]

(إن المرء الذي تغلغل في أعماق الحضارة الغربية وأدرك منطوياتها ومحصها تمحيصًا دقيقًا نظريًا وعمليًا لابد له من الانقياد بقوة نفسية كمينة إلى منهل العقيدة الإسلامية ليروي غليله منها)[4]

(ما أعظم سروري الآن حين جاء الاستدلال العلمي الصحيح مؤيدًا للميل الفطري فانتميت إلى الدين الإسلامي بدافع طبيعي غريزي وبتأييد علمي تمحيصي فأصبحت بذلك مسلمًا شعورًا وموطنًا ودينًا)[5]

(جاء الإسلام بعد الديانتين التوحيديتين منقحًا موضحًا للحقيقة، معترفًا بجوهر الديانتين السابقتين، مشيرًا إلى التحوير والأخطاء التي طرأت عليهما.. مضيفًا كثيراً من الإرشادات والتعاليم الروحية التي أرادها الله لعباده المؤمنين.. واضعًا شريعة تحتوي على كل ما يتعلق بالمجتمع من أمور اجتماعية دينية اقتصادية سياسية. ومن ذلك يتضح أن الإسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب وإنما جاء أيضًا لتوحيد الأديان ورفع الشكوك والارتباكات التي انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية وإرشاد أتباعهما إلى الدين الجديد. ولكن تأصل جذور الديانتين ونفوذ الأحبار والساسة والعصبية اليهودية بصورة خاصة كل هذه كانت من العوامل التي حالت دون تحقيق التوحيد المنشود. ولو أن هؤلاء كانوا من المهتدين إلى الإسلام دين الحقيقة لكان انقشع ضباب الضلال والكراهية والارتباط وانبثق نور السعادة على البشرية جمعاء في جو مشبع بالصفاء والولاء)[6]

(الواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشري حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامي، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية)[7]

(إذا كان يصح ما يقال بأن خير الأمور أوسطها، فإن الديانة الإسلامية هي التي تستحق أن تحتل المكانة السامية بين الديانات العالمية لأنها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفطرة معتدلة في طقوسها.. متوسطة في

(١) في طريقي إلى الإسلام:١ / ١٧٤ — ١٧٥.
(٢) في طريقي إلى الإسلام:٢ / ١٣٠.
(٣) في طريقي إلى الإسلام:١ / ٥٢.
(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١/ ٥٢ — ٥٣.
(٥) في طريقي إلى الإسلام:١ / ٥٥.
(٦) في طريقي إلى الإسلام:١ / ٧١ — ٧٢.
(٧) في طريقي إلى الإسلام:١ / ٧٤ — ٧٥.

مسلكها.. فهي الشريعة الوسط التي تدعو إلى العمل للدنيا والآخرة في آن واحد)[1]

(إن الإسلام هو الدين الصافي الذي أراده الله للإنسانية، صفي بمصفاة وحيه الإلهي ليكون دينًا صالحًا لكل إنسان ولكل زمان ومكان)[2]

(لو أدرك هذا العالم التائه جوهر المبادئ الإسلامية لوجد فيها خير كفيل لحلّ معظم الأدواء البشرية الحالية ولما احتاج إلى عصبة أمم أو نظائرها من الاتجاهات لنشر مبادئ السلم والتعاون لأن الإسلام يضم بين تعاليمه أنبل مبدأ وأمتن أساس لتوطيد عرى العلاقات السلمية بين الأمم)[3]

(للإسلام فضل كبير على التاريخ نفسه من غير الوجهة الدينية. ذلك أنه جاء موضحًا بعض الحوادث التاريخية الغامضة بحيث فتح بابًا واسعًا للتدقيق والبحث بل جاء حافزًا للعلماء للتنقيب وسبر أغوار البحوث التاريخية لاستنباط الحقائق التي أوردها القرآن الكريم. ومن ثم فإن خدمة الإسلام للتاريخ والعلم بل خدمته للإنسانية بصورة عامة بتشجيعه العلم الصحيح ونبذ التقليد الأعمى مما يسجلها له التاريخ ما دام تاريخ في الوجود)[4]

(إن النزعة العامة للكنيسة المسيحية تجاه الفلسفة والعلم هي نزعة عدائية.. ويرجع الفضل للإسلام في محافظته على الروح العلمية الفلسفية وإرجاعها إلى المجتمع الأوروبي، إذ كان الإسلام حاميًا للكثير من المعلمين والفلاسفة الذين هجروا أوطانهم بنتيجة اضطهاد المسيحية إياهم. والواقع أن العلم لم يرجع إلى أوروبا إلا بواسطة الإسلام الذي امتد سلطانه إلى الأندلس.. وأن هذا العلم الذي انتشر في أوروبا عن طريق الإسلام أخذ يعمل في عقول المفكرين شيئًا فشيئًا حتى كانت النتيجة أن أحدث صراعًا عنيفًا بين الكنيسة وساسة الشعوب المفكرين فكان نصيب الكنيسة التسليم بمعظم ما كانت تتمتع به من سلطان)[5]

(لا يخفى أن الحضارة الإسلامية أنتجت ضحى التبصير والتيقظ نابذة التقليد ومتجنبة الظن فكانت التجربة والبرهان قاعدة البحث فيها وبذلك تمّ للمسلمين وضع الأسس الثابتة للعلوم الصحيحة فجعلوا التجربة والملاحظة أساس المباحث العلمية ودعامة التنقيب الأمر الذي لم يكن قد اهتدى إليه اليونان مدى اشتغالهم بالبحث والفلسفة، فكوّن المسلمون بذلك ثقافة خاصة بهم وفلسفة إسلامية مستقلة بعد أن اقتبسوا محسنات ما في الفلسفة اليونانية ونبذوا الآراء الوثنية منها كما أنهم وضعوا الأسس للعلوم الطبيعية والرياضية بأنواعها المختلفة ومن طريقهم وصلت هذه العلوم إلى أوروبا)[6]

(تمتاز الحضارة الإسلامية في كونها تخضع في معظم إنتاجها إلى التعاليم الإسلامية فالقيام بالصناعات والأخذ بالعلوم متصل بروح الأمة وعقيدتها، لأن العمل بذلك في نظر الإسلام فرض على الأمة وهذا نظام

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٧٧.
(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٠.
(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٩.
(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١/ ١٠٢.
(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٨ – ١٨٩.
(٦) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١١٢.

يربط الإنتاج البشري بالدين.. وذلك بخلاف المدنية الغربية فإنها جعلت القيام بشؤون الحياة من اختصاص الاقتصاد المادي وحده، فأمست مدنية مادية محضة لا يعين الفرد فيها صاحبه ولا ينصر أحد رفيقه)[1]

(يجب أن لا يغرب عن البال أن المدنية الغربية الحديثة خابت في إرضاء النفوس وأخفقت في إيجاد السعادة البشرية فهبطت بالناس في هاوية الشقاء والارتباك لأن جهود العلم الحديث موجهة إلى التدمير والإفناء.. فهو بعيد والحالة هذه من أن يتصف بالكمال أو أن يكون واسطة لخدمة الإنسانية كما كان في عهد الإسلام)[2]

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١١٢ – ١١٣.
(٢) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١١٤.

سادسا ــ الأولياء

فتحت دفتر البابا على فصله السادس، فوجدت عنوانه (الأولياء)، فقلت: من تقصد بالأولياء؟

قال: أولئك الذين فتحت لهم أبواب السماء، وانكشفت لهم الحجب، واتسع لهم من الحقائق ما ضاق على غيرهم، ورأوا من ملكوت الله ما راحوا يبشرون به عباد الله.

قلت: فما علاقة هؤلاء بشمس محمد ﷺ ؟

قال: هؤلاء هم المستقبل الأعظم لأشعة شمس محمد ﷺ .. ولهذا فإنهم أقرب الخلق إليه، وأعرف الخلق به، وأكثر الخلق أدبا معه.

قلت: بم استفادوا ذلك القرب، وذلك الأدب؟

قال: بالسير على قدمه.. فمن سار على قدم رسول الله ﷺ.. ومن وحد وجهته إليه ظفر بالأنوار التي لا ينعم بها إلا المخلصون المخلّصون من شوائب الأنا.

قلت: لا أرى أسماء في هذا الفصل.. بل أرى كلمات.

قال: الأولياء كلمات وليسوا أسماء.. وحقائق وليسوا حروفا.

قلت: لم أفهم..

قال: الولي الذي يعيش الحقائق تتبناه الحقائق، وتصبح هي المعبرة عنه، فالولي الحيي يعبر عنه الحياء.. والولي المحب يعبر عنه الحب.. والولي المتوكل يعبر عنه التوكل.. وهكذا.

قلت: أعلم بعض هذا.. فقد ذكروا لطريق الله معارج ومقامات ومنازل.. ولكل حظه منها.

قال: الأولياء هم الذين ظفروا بكل ذلك.. ولهذا كانت الكلمات هي المعبر عنهم لا الأسماء.

قلت: أرى كلمات كثيرة.

قال: سأكتفي لك في هذا المقام بأربعة منها.. فإني أرى الجدل في عصرنا شديدا.. ولن أذكر لك إلا ما يطيقون.

المحبة:

قلت: فما الكلمة الأولى؟

قال: الكلمة التي توله القلوب، وتملؤها بالأشواق اللذيذة التي لا تعرف الحزن.

قلت: تقصد محبة الله والشوق إليه !؟

قال: وأقصد محبة رسوله والشوق إليه.. فيستحيل على من أحب الله أن لا يحب رسوله.

قلت: فكيف بدا لك أن تسجل هذه الكلمة؟

قال: لذلك قصة.. كنت في بلاد من بلاد الله.. وكنت مشتت الفؤاد ممتلئا بالأكدار إلى أن سمعت غناء عذبا من أحد البيوت يردد قول محمد إقبال:

قـــد كـــان هـــذا الكـــون قبـــل وجودنـــا روضـــــــاوأرزهارا بغـــــــير شمـــــــيم

والـــــورد فى الأكمـــام مجهـــول الشـــذى لا يرتجـــــــى ورد بغـــــــير نســـــــيم

بـــــل كانــــت الأيـــامُ قبـــل وجودنـــا لـــــــــيلا لظالمهـــــــا وللمظلـــــــوم

لمـــــا أطـــــل محمـــــدٌ زكـــــت الرُبـــــا و اخضـــــر في البســـــتان كُـــــلُ هشـــيم

و أذاعــــت الفـــردوس مكنـــون الشـــذى فـــــإذا الـــــورى في نضـــــرة ونعـــــيم

فاقتربت من الباب، فوجدته مفتوحا، فدخلت من غير استئذان، فلم أجد نفسي إلا في حلقة كهالة الشمس تمتلئ بالأنوار.. كانوا سبعة نفر، وكان كل فرد منهم شمسا لا تختلف عن الشمس.

لم يروني وأنا أدخل، و لم يسمعوني وأنا أسلم، بل ظلوا على حالهم غارقين في تأملاقم، فجأة نطق أحدهم يقول:

عبـــد بنـــار الشـــوق فيـــك معـــذب لكنـــــه أبـــــدا لـــــه يســــــتعذب

جـــــودوا بوصـــــل مـــــنكم وبعطفـــــة تشـــــفي ســـــــقاما لا أراه يـــــذهب

لي فــــيكم عشـــــق وفــــرط صـــبابة وفـــؤادي مـــــنكم فيـــــه نـــــار تلـــهب

يـــا ســـعد مـــن خصصـــتموه بـــودكم وبمـــــذهب لكـــــم غـــــدا يتمـــــذهب

ولقــــد نأيــــت عــــن المــــنى بخطيــــئتي وحاشـــــاكم أن تطـــــردوا مـــــن يـــــذنب

فتمـــام قصـــدي مـــن نـــدائكم نفحـــة تجلـــوا الصـــدا عـــني كـــي لا أحجـــب

التفت إليه، وقلت: أي محبوب هذا الذي ملأ عليك كيانك، فرحت تصرح في الوقت الذي يكتم المحبون فيه حبهم؟

لم يلتفت إلي، و لم يجبني، بل نطق ثانيهم، وقال:

مـــن مثـــل أحمـــد في الكـــونين نهـــواه بـــدر جميـــع الـــورى في حســـنه تـــاهوا

مـــن مثلـــه وإلـــه العـــرش شـــرفه في الخلـــــق والخلـــــق إن الله أعطـــــاه

الشـــمس تخجـــل مـــن أنـــوار طلعتـــه حـــارت عقـــول الـــورى في وصـــفه معنـــاه

تبـــارك الله مـــا أحلـــى شمائلـــه حـــاز الجمـــال فمـــا أبهـــى محيـــاه

يـــا ربـــع وادي النقـــا يـــا أهـــل كاظمـــة في حـــيكم قمـــر في القلـــب مـــأواه

صـــلى عليـــه إلـــه العـــرش مـــا طلعـــت شمـــس ومـــا حـــدا الحـــادي مطايـــاه

قلت: أنتم تتغنون بحب محمد إذن.. لا بحب ليلى ولبنى !؟

قال ثالثهم:

إذا مدح الشعراء أرباب عصرهم مدحت الذي من نوره الكون أبهج
وإذا ذكروا ليلى ولبنى فإنني بذكر الحبيب الطيّب الذكر ألهج
أما ومحل الهدي تدمي نحورها ومن ضمّه البيت العتيق المدجج
لقد شاقني زوّار قبر محمد فشوقي مع الزوّار يسري ويدلج
تظلّ الهوادي بالهوادج ترتمي وما لي في ركب المحبّين هودج
وتمسي بروق الأبرقين ضواحكا فتغري غرامي بالبكا وتهيّج
وأرتاح من أرواح أطيب طيبة إذا المسك في أرجائها يتأرّج
بلاد بها جبريل يسحب ريشه ويترل من جوّ السماء ويعرج
نبي تغار الشمس من نور وجهه بهيّ نقيّ الثغر أحور أدعج
تزيد به الأيام حسنا ويزدهي به الدين والدنيا به تتبرّج
مكارم أخلاق وحسن شمائل وشيمة جود بحره متموّج
غياث للملهوف وغوث لرائد وليث إذا صال الكمي المدجج

قلت: بالله عليكم إلا حدثتموني كما يحدث الناس بعضهم، فإني غريب في هذا البلاد، ولا أفهم من الشعر ما أفهمه من النثر، فانثروا نثر الله عنكم الآلام والأحزان.

قال أحدهم: إن أردت أن ينثر الله عنك الهموم والأحزان، فتعلق بحبل النبي ﷺ.. فلا يحزن من حل بساحته، ولا يعطش من شرب من يده.

قلت: فبأي حبل أتعلق؟

قالوا جميعا: بحبل الحب.

قلت: وما حبل الحب؟

قال أحدهم: ليس هناك حبل في الدنيا غير حبل الحب.

قلت: أنا لم أسأل عن غير حبال الحب، ولكني سألت عن حقيقة هذا الحبل، وعن مدى جدواه.

قال أحدهم: حب محمد ﷺ هو الذي يربطك بمنبع النور والجمال.

قلت: وحب الله؟

قال: لا يكمل حب الله حتى تمتلئ النفس بحب المعرف بالله والدال عليه والهادي إليه والمعرف بمراضيه.

قلت: من هذا الذي اكتمل له هذا؟

قال: لم يكتمل هذا في أحد كما اكتمل في رسول الله ﷺ، فبه عرفنا الله، وبه عبدناه، وبه أشرقت شموس

الحقائق على هذا الكون، وبه انبلجت أنوار الحكم على العقل البشري.

قال آخر: هو الخلاصة التي اجتمعت فيها جميع الخيرات، والشمس التي صدرت منها جميع الأشعة، والبذرة التي أنبتت شجرة الجمال في الكون.

قال آخر: كما ان الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية – المادية والمعنوية – مترشحة من الحياة ومن روح الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حسّ الكون وشعورهِ وعقلِه، فهي اصفى خلاصته[1].

قال آخر: إن جمال الكائنات وحياتها ونورانيتها التي يعيش المؤمن في أكنافها لم تكن لتتحقق لولا رسالة رسول الله ﷺ والمعاني الجميلة التي تحملها.

قال آخر: إن حياة محمد ﷺ – المادية والمعنوية – بشهادة آثارها حياة لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. فاذا ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، وأصطدمت باحدى سيارات الفـــضاء، وقامت القيامة[2].

قال آخر: لنتصور الأرض والكون والبشر لولا التعاليم التي جاءنا به رسول الله ﷺ، ولنتأمل قيمة الحياة لو خلت من الحياة التي بثها رسول الله ﷺ.

قال آخر: إن رسول الله ﷺ هو النافذة التي نتطلع بها إلى الحقائق، وهو العين التي نبصر بها أسرار الكون والحياة، وقد قال بعض السلف:« رأيت الجنة والنار حقيقة »، فقيل له:« وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا؟ »، فقال:« رآهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينيه، ورؤيتي لهما بعيني رسول الله ﷺ آثر عندي من رؤيتهما بعيني، فإن بصري قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى، أما بصر الرسول ﷺ فما زاغ وما طغى »

قلت: إنكم تذكرون أوصافا كثيرة يعتبرها بعض قومهم من المبالغات في حق نبيكم.

قال أحدهم: لو ظللنا طول دهرنا نصف أفضال نبينا علينا ما انتهينا.

قال آخر: كيف يقولون هذا.. ونحن لم نخرج عن قوله ﷻ في وصفه:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (الأحزاب:٤٥ ــ ٤٦)، وقوله:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (لأعراف:١٥٧)، وقوله:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

---

(١) هذا القول لبديع الزمان النورسي في بيان حقيقة الجمال المحمدي.

(٢) هذا القول لبديع الزمان النورسي..

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (لأعراف:١٥٨)

قال آخر: إن تعمقك في معاني هذه الكلمات يهديك إلى بحور من العلم بحقيقة محمد ﷺ لا يطيقها الجامدون.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد وصف القرآن محمدا ﷺ بأنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، واعتبره مبشرا ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، ويتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، فأي إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلى جميع المؤمنين، وأي إفضال أعمّ منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين، إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربّهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمدي.

قال آخر: فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذّي بها قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب، وإذا كان يحب بالطبع ملكاً لحسن سيرته أو حاكماً لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال كلها على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل.

قلت: وعيت هذا.. ولكن الحريصين على صفاء التوحيد من قومكم يخافون على التوحيد في أقل من هذا.

قال أحدهم: فخاطبهم بقوله ﷻ:﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:٢٤)

قلت: فما في هذه الآية؟

قال: هذه الآية الكريمة جمعت أصناف ما يحبه الناس ويؤثرونه وتتوجه به حياتهم على أساسه، ووضعته في كفة ووضعت حب الله ورسوله في كفة أخرى، ثم أنذرت من قدم أهواءه ومحابه على الله، واعتبرته من الفاسقين.

قال آخر: أما من خالف ذلك وقدم الله ورسوله على من سواه، فقد أثنى الله عليه بقوله:﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:٢٢)

ففي الآية الكريمة من أصناف الثواب والجزاء لمن ضحى بكل محبة وهوى أمام محبة الله ورسوله ما يقصر عنه الوصف.

قلت: هم يذكرون السنة أكثر من ذكرهم للكتاب.

قال: فاذكر لهم منها قوله ﷺ:« والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده

وولده والناس أجمعين »[1]، فقد جمع ﷺ في هذا الحديث أصناف المحبة، وأمر بتقديم محبة رسول الله ﷺ عليها.

قال آخر: وعندما قال عمر بن الخطاب ﷺ لرسول الله ﷺ:« واللّه يا رسول اللّه لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي »، قال له رسول اللّه ﷺ:« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »، فقال عمر ﷺ:« فأنت الآن واللّه أحب إليّ من نفسي »، فقال رسول اللّه ﷺ:« الآن يا عمر »[2]

قال آخر: وأخبر ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتحقق إلا لمن قدم محبة الله ورسوله على من سواهما، قال ﷺ:« ثَلاثٌ مَّنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهُما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبهُ إلا لله، وأن يَكرَهَ أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»[3]

قال آخر: هذا الحديث أصل من أصول الإسلام، وكله حديث عن الحب، وإخبار بأن الحب وما ينتج عنه من مشاعر هو أعمق أعماق الإسلام.

قلت: ابتعدوا عن النصوص.. وحدثوا عقلي ببراهين العقول [4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) حاول العلماء ــ كما فعلوا مع محبة الله ــ أن يبحثوا في الأسباب الدافعة لحب رسول الله ﷺ، وهي كما نرى لا يمكن حدها بأسباب معينة، فكل شخص دوافعه الخاصة، والتي تختلف باختلاف درجة حبه لرسول الله ﷺ ودرجة قربه منه ودرجة تعرفه عليه ودرجة ترقيه في مقامات الإيمان.

وأقل هذه الدرجات ما يبالغ فيه البعض من وصف الصورة الخلقية لرسول الله ﷺ في مدحه والثناء عليه بذلك والمبالغة فيه إلى درجة لا نرى أن رسول الله ﷺ يرضى عنها.

فرسول الله ﷺ مع ما أوتي من حسن الخلقة، والذي ذكره واصفوه، وأثنوا عليه به ليس هو الأصل الدافع للحب، فالحب المؤسس على الجسد قد يليق بالغواني ولا يليق برسول الله ﷺ.

فالترغيب الحقيقي في رسول الله ﷺ لا يكون بذكر صورته وشكله، وإنما بذكر خلقه وكمالاته، ومع ذلك لا نرى مانعا من ذكر صورته الخلقية لتكون مكملا لصورته الحقيقية لا أصلا لها.

وانطلاقا من هذا نرى بعض التشويه في شخص رسول الله ﷺ، والذي يمارسه البعض باسم إحياء السنة، فيتصور أن السنة هي طول اللحية وقصر القميص مع تجهم الوجه والتشدد في محله وغير محله.

وعلاج هذه الظاهرة بالوصف الشامل لرسول الله ﷺ، انطلاقا من قربه من ربه، وانتهاء بعلاقته التي شملت كل ما يمكن أن يؤسسه الإنسان من علاقات.

وهذا الوصف وحده ــ والذي يعتمد القرآن الكريم والسنة الصحيحة ــ كاف وحده لملأ القلوب بمحبة رسول الله ﷺ، والتفاني في حبه.

ويمثل هذه المبالغة في وصف الهيئة الشكلية لرسول الله ﷺ نرى في المقابل بعض المبالغة في وصف مقاماته ﷺ الروحية وقربه من ربه وعلاقته بالخلق، حتى تحول رسول الله ﷺ بذلك إلى سر غامض، وتحولت رسالته إلى مجموعة ألغاز لا يفهمها إلا خاصة الخاصة، وكأن رسالة رسول الله ﷺ العامة الشاملة خاصة بهذه الثلة القليلة التي تفردت بالتعمق في حقيقتها.

وإلى هذين المعنيين، وإلى هذين الفريقين أشار ﷺ بقوله:« لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولوا: عبدالله ورسوله »

وهذا نهي صريح منه ﷺ عن وصفه بما ليس في من الصفات التماسا لمدحه، كما وصفت النصارى عيسى عليه السلام بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا.

قال أحدهم: فاسمع ما يقول ابن حجر..

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال:« إن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها، أما نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الافات، وهذا هو حقيقة المطلوب وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفه حالا ومالا فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته اوفر من غيره لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه»[1]

قلت: عرفت دلالة العقل على هذا الحب.. فما ثمراته؟

قال أحدهم: هذا الحب هو المحرك لكل خير، الداافع لكل كمال.

قال آخر: ولهذا كان الاتباع الحقيقي لسنة رسول الله ﷺ هو الاتباع الصادر عن المحبة.

قال آخر: ويدل على هذا قوله ﷺ لأنس بن مالك:« يا بنيَّ إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غِشٌ لأحدٍ فافعل »، ثم قال له:« يا بُنَيَّ وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في

وبدخل فيه أيضا وصفه ببعض ما هو فيه مما ينتج خللا في التعرف عليه ﷺ، كمن يقتصر على وصف خلقته الجسدية، أو مقاماته الروحية، أو حياته في بيته، أو حياته مع صحابته، أو غزواته.

ولهذا استغل المستشرقون ما ورد في غزواته ﷺ لتصويره بصورة المحارب الذي لا يهدأ، والذي لا يكون له الوقت الكافي للتوجيه والتربية.

بل وقع في ذلك بعض المسلمين حين تصور الدين سيفا مرفوعا على كل هامة، وتصور الدعوة إلى الله وفتح القلوب على دينه حروبا وغزوات لا تنتهي.

وقد غفل هؤلاء عن الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، أو التي تناقلها أهل الكتاب في كتبهم، وكلها ترجع إلى الرحمة واللطف وحسن المعاملة مع جميع الخلق.

فهذه هي أوصاف رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، قال الله ﷻ:﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)

فالله ﷻ في هذه الآية الكريمة ذكر له اسمين من أسمائه الحسنى، قال الحسين بن الفضل:« لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ ؛ فإنه قال:﴿) بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة: من الآية١٢٨)، وقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(الحج: من الآية٦٥)

وفي آية أخرى يمن عليه بالرحمة التي ملأ بها قلبه، قال ﷻ:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ٤ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩)

فالرحمة هي خلق رسول الله ﷺ الذي تنبع منه كل أخلاقه، كما قال الحسن البصري ﵁:« هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به»، بل كما قال ﷺ:« إنما أنا رحمة مهداة »٤، بل كما قال ﷻ:﴿)وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الانبياء:١٠٧)

ولهذا عندما قيل له ﷺ:« يا رسول الله ادع على المشركين، »، قال:«:« إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة »

(١) فتح الباري: ١/٦٠.

الجنة »، فقد أخبر ﷺ أن علامة حبه له ﷺ إحياء سنته.فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله.

قال آخر: ويدل على هذا كذلك كل الأحاديث التي تبين مواصفات القريب من رسول الله ﷺ، وهي في مجموعها تدل على الخصال الكبرى التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ من الأخلاق الفاضلة التي مدحه بها ربه، فقال ﷻ:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:٤)

قال آخر: الخلق العظيم هو السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ، وهي التي أخبر بالأجر الجزيل لمن أحياها، ودليل ذلك الأحاديث التي تبين موصافات القريب منه ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصريح:« إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون »

قال آخر: وفي أحاديث أخرى يجعل القريب منه هو القريب من المستضعفين من الناس، كقوله ﷺ ترغيبا في الاهتمام بتربية البنات:« من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه »، وقوله ﷺ في كفالة الأيتام:« أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى »

قال آخر: وفي حديث آخر يذكر فضل المرأة التي تحبس نفسها على أيتامها، قال ﷺ:« أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأومأ يزيد بالوسطى والسبابة امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا »

قلت: أرى قوما يقصرون المحبة على ما يتصورونه إحياء السنة.

قال أحدهم: علامة إحياء السنة الحقيقي هو أن يعيش حياة رسول الله ﷺ بقيمها ومبادئها وسموها، وهو يستحضر رسول الله ﷺ في كل حركة من حركاته، حتى كأنه يشاهده عيانا، وبذلك يكون رسول الله ﷺ هو دليله الأعظم على الله، وعلى الأدب مع الله.

قال آخر: وهذا ما كان يعيشه الربانيون ويستشعرونه، وهو المراد من إخبارهم عن اجتماعهم برسول الله ﷺ، يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني:« سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل عبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ أي وقت شاء »

قال آخر: لقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي ذلك ثم قال:« رأيت النبي ﷺ واجتمعت به نيفا وسبعين مرة»

قال آخر: ويذكر عن الشيخ إبراهيم المتبولي أنه كان لا يحصى اجتماعه به ﷺ لأنه كان يراه في أحواله كلها ويقول:« ليس لي شيخ إلا رسول الله ﷺ »

قال آخر: ويذكر عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه كان يقول:« لو احتجب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين »

قلت: كيف هذا؟

قال أحدهم: هذا الاجتماع ــ الذي لا ينكره إلا معاند ــ دليل على الحب المتغلغل في الصدر لرسول الله

ﷺ لأن عين القلب والروح لا ترى إلا ما تحبه، وقد كان خيال ليلى يرتسم في عين قلب المجنون في كل محل.
لم أجد ما أقول، فراح أحدهم ينشد بصوت عذب قصيدة البرعي التي يقول فيها:

هـــــم الأحبـــــة إن جـــــاروا وإن عـــــدلوا | فلـــــيس لي معـــــدِلٌ عنـــــهم وإن عـــــدلوا
هـــــم الأحبـــــة إن جـــــاروا وإن عـــــدلوا | والمـــــالكون لقلـــــبي كيفمـــــا فعلـــــوا
فليعلمـــــوا أن ودي مـــــا يغيرهـــــم | تغـــــير مـــــن ســـــجاياهم ولا ملـــــل
و كـــل شـــيء ســـواهم لي بـــه بـــدلٌ | عنـــهم وما لي بهـــم مـــن غيرهـــم بـــدلُ
إني وإن فتنـــوا في حبـــهم كبـــدي | بـــاقٍ علـــى وُدِّهـــم راضٍ بمـــا فعلـــوا
شـــربت كـــأس الهـــوى العـــذري مـــن ظمـــأٍ | و لـــذّ لي في الغـــرام العلُّ والنـــهلُ
فليـــت شـــعري والـــدنيا مفرقـــةٌ | بـــين الرفـــاق وأيـــام الـــورى دُوَلُ
هـــل ترجـــع الـــدارُ بعـــد البعـــدِ آنســـةً | و هـــل تعـــودُ لنـــا أيامُنـــا الأوَلُ
يـــا ظـــاعنين بقلـــبي أيـــن مـــا ظعنـــوا | و نـــازلين بقلـــبي أيـــن مـــا نزلـــوا
ترفّقـــوا بفـــؤادي في هَـــوَادِجِكم | راحـــت بـــه يـــوم راحـــت بـــالهوى الإبـــلُ
فوالـــذي حَجّـــتِ الـــزوارُ كعبتَـــه | و مـــن ألَمَّ بهـــا يدعو ويبتـــهلُ
لقـــد جـــرى حُـــبُّكم مجـــرى دمـــي فـــدمي | بعـــد التفـــرقِ في أطلالكـــم طَلَـــلُ
لم أنـــس ليلـــة فارقـــت الفريـــق وقـــد | عـــانوا الحبيـــب عـــن التوديـــع وأرتحلـــوا
لمـــا تـــراءت لهـــم نـــار بـــذي ســـلم | ســـاروا فمنقطـــعٌ عنـــها ومتصـــلُ
لا درَّ درُّ المطايـــا أينمـــا ذهبـــت | إن لم تُـــنخ حيـــث لا تـــثنى لهـــا العُقـــلُ
في روضـــة مـــن ريـــاض الجنـــة ابتـــهجت | حســـنا وطـــاب بهـــا للنـــازل الـــترل
حيـــث النبـــوة مضـــروبٌ ســـرادقها | وطـــالع النـــور في الآفـــاق يشـــتمل
وحيـــث مـــن شـــرّف اللهُ الوجـــودَ بـــه | فأســـتغرق الفضـــلَ فـــرداً مـــا لـــه مثـــلُ
محمـــد ســـيد الســـادات مـــن مضـــرٍ | ســـرُّ الســـرارة شمـــسٌ مالـــه طَفَـــل
شـــوارد المجـــد في مغنـــاه عاكفـــة | وريـــف رأفتـــه غصـــنُ الجَنَـــى الخضِـــلُ
تـــثني عليـــه المثـــاني كلمـــا تليـــت | كمـــا أســـتنارت بـــه الأقطـــار والسُّـــبلُ

بحـــــرٌ طوارقـــــه بـــــرٌّ ومكرمـــــةٌ بـــــدرٌ علـــــى فَلَـــــك العليـــــاء مكتمـــــلُ
مـــا زال بـــالنور مـــن صـــلب إلى رحـــمٍ مـــن عهـــد آدم في الســـادات ينتقـــلُ
حـــتى انتـــهى في الـــذُّرى مـــن هاشـــمٍ وسَـــمَا فـــتىً وطفـــلاً، تـــوفّي وهـــو مكتـــهلُ
فكـــان في الكـــون لا شـــكلٌ يُقـــاسُ بـــه ولا علـــى مثلـــه الأقطـــار تشـــتملُ
بـــه الحنيفـــةُ مُرســـاةٌ قواعـــدُها فـــوق النجـــوم ونهـــج الحـــق معتـــدلُ
ومنـــه ظـــلٌّ لـــواء الحمـــد يشـــملنا إذا العصـــاةُ علـــيهم مـــن لظـــى ظُلَـــلُ
وإنـــه الحكـــم العـــدل الـــذي نُســـخت بـــدين مِلّتِـــه الأديـــان والمِلـــلُ
يـــا خـــير مـــن دفنـــت في التـــرب أعظمـــه فطـــاب مـــن طيبـــهن السَّـــهلُ والجبـــلُ
نفســـي الفـــداء لقـــبرٍ أنـــت ســـاكنه فيـــه الهـــدى والنـــدى والعلـــم والعمـــلُ
أنـــت الحبيـــب الـــذي نرجـــو عواطفـــه عنـــد الصـــراط إذا مـــا ضـــاقت الحيـــلُ
نرجـــو شـــفاعتك العظمـــى لُمـــذنبنا بجَـــاهِ وَجْهِـــك عنـــا تغفَـــرُ الزّلَـــلُ
يـــا ســـيدي يـــا رســـول الله خـــذ بيـــدي في كـــل حادثـــة مـــالي بهـــا قِبَـــلُ
قـــالوا نزيلـــك لا يـــؤذي وهـــا أنـــا ذا دمـــي وعرضـــي مبـــاحٌ والحِمـــى هَمَـــلُ
وذا المســـمى بـــك أشـــتد الـــبلاء بـــه فـــارحم مدامعـــه في الخـــدِّ تنـــهملُ
وحُـــلَّ عقـــدة هَـــمٍّ عنـــه مـــا برحـــت واشـــرح بـــه صـــدر أمٍّ قلبُهـــا وَجِـــلُ
وَصِـــلْ برحمـــةٍ عبـــدالرحيم وَمـــن يليـــه لا خـــاب فيـــهِ الظـــنُ والأمـــلُ
صـــلى وســـلم ربي دائمـــاً أبـــدا عليـــك يـــا خـــير مـــن يَحْفَـــى وينتعـــلُ
والآل والصـــحب مـــا غنَّـــت مطوقـــةٌ ومـــا تعاقبـــت الأبكـــارُ والأُصُـــلُ

وأنشد آخر يقول:

لطيبـــة عـــرج إن بـــين قبابهـــا حبيـــب لادواء القلـــوب طبيـــب
إذا لم تطـــب في طيبـــة عنـــد طيـــب بـــه طابـــت الـــدنيا فـــأين تطيـــب؟

تركتهم على تلك الحال، وانصرفت، لأسجل هذه الكلمة في هذا المحل.

قلت: ألا تعرف أسماءهم؟

قال: لو عرفتها لسجلتها، ولكني كلما قلبت هذا الدفتر على هذا المحل رأيتهم وسمعتهم كعهدي بهم أول

مرة.

التعظيم:

قلت: حدثني عن الكلمة الأولى، فحدثني عن الثانية.

قال: الكلمة الثانية هي التعظيم.. انظر في الدفتر إنها تلي كلمة الحب مباشرة.

قلت: لم كانت كذلك؟

قال: لأنه لا يعظم في عين الحبيب إلا محبوبه.

قلت: فهل تروي قصة عن هذه الكلمة؟

قال: أروي في ذلك قصصا، لكني سأقتصر لك على واحدة منها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: في بلد من بلاد الله رأيت رجلا عليه سيما الوقار، وعلى جبينه نور يملأ النفس هيبة وجمالا، وكان في طريقة يسير كما يسير سائر الناس، ولكنه فجأة انحنى على ورقة مرمية على الأرض، فمسح عنها الأذى، ثم قبلها، ثم وضعها على جيبه، فحدثت نفسي بأن أتبعه لأرى سر تلك الورقة.

في طريقي خلفه رأيته يدخل حانوت عطار، ويشتري بعض المسك، ثم يخرج تلك الورقة، ويعطرها بذلك المسك، فلم أجد نفسي إلا بجانبه، و لم أجد لساني إلا وهو يقول له: ما شأن هذه الورقة التي لقيت منك كل هذا التعظيم.

لم يحتج إلى وقت يفكر فيه، بل أجاب مباشرة: هذه ورقة فيها اسم لحبيب غال، واسم الحبيب لا ينبغي أن يهان.. بل ينبغي أن يعظم ويقدس، ويعطر بكل مسك.

قلت: من حبيبك هذا الذي ملأته تعظيما ورفعة.

فأجابني على الفور: محمد..

قلت: تقصد نبي المسلمين؟

قال: أجل.. وهل هناك من حمدته السماء والأرض غيره، فصار محمود الكل.

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر:

المصـــــطفى مـــــا زال يعلـــــو قـــــدرَهُ   حتَّـــــى غـــــدا فى الكـــــون مِســـــكاً عـــــاطِراَ

ما قلت هذا حتى شعرت بجميع أعضائه ترتعد هيبة، ثم راح يقول بصوت امتزج فيه الحب بالتعظيم بالأشواق:

(المصـــــطفى مـــــا زال يعلـــــو قـــــدرَهُ)   فســـــما الزمـــــانَ اوائـــــلا وأواخِـــــرا

طهِّـــــر فـــــؤادك مـــــن شـــــوائب غيِّـــــه   حتّـــــى تقابلـــــهُ فـــــؤاداً طـــــاهراً

يـــــا ســـــيدى ولقـــــد غـــــدوتُ مناجيـــــاً   عمـــــرى وبـــــتُّ مـــــع الجـــــلال مســـــامرا

كم من صغير جاء حيَّك تائبا ... أضحى يسودُ من الرِّجال أكابرا
والله ما طرأ العناءُ وسامنى ... الا وأذكُرُهُ فأُصبِحُ ظافراَ
فاذا نَهلتُ نَهلتُ من نور الهدى ... واذا سكِرتُ سكرتُ عِلماً ذاخراَ
واذا غفوتُ غفوتُ صباً مُغرماً ... واذا افقتُ رَأيتَهُ لىَ ناظِراَ
واذا خشيتُ من العدوِّ وكيده ... كان النبىُّ هو الملاذَ الناصِراَ
عوَّدتنا منكَ الجميلَ فهب لنا ... منك الوصولَ ولا تردَ الزائراَ
أنا ان أكُن جِسما بعيداً انَّما ... رُوحى من النجوى تفيضُ سرائِراَ
أرسلتُها بِفَمِ النسيمِ شهيدةً ... وتزِفُّ باِسمِكُمُ السَّلامَ العاطراَ
فلكم فقيرٍ عزَّ باَسمكَ جاهُهُ ... أمسى يُساجِلُ فى الملوكِ القياصِراَ
ولَكَم ذليلٍ نَالَهُ من جاهِكُم ... قَدرٌ فأصبحَ بالمذلَّةِ قاهِراَ
وَلَكم عَيىٍّ قد نظرتَ لِروُحِهِ ... فَرَوَى المعارِفَ ناثِراً أو شاعِراَ
قَولِى هُو الحَقُّ الصرَّيحُ فَلَم أكُن ... أرجو بمَدحِك أن أسُودَ مَظَاهِراَ
لم أنسَ حُبَّكَ ما حَييتُ وان أمُت ... اَجِدُ الغرامَ علىَّ مُدَّ منابراَ
ان كنتُ صبَّاً اكتُمُ الوُجدَان فى ... قلبِى يَظُنُّونِى بحُبِكَ فاتِراَ
أنا هائمٌ ومِن المحبةِ هائجٌ ... كالرِّيحِ قد أزجى السَّحابَ الماطِراَ
فَأصُبٌّ فى الاحساس مِن مُهَجِ الورَى ... حِكَماً تُقَلِّبُهَا القُلُوبُ مَزَاهِراَ
يا هَذِهِ ألايَّامَ انِّى ليس لِى ... الا رسُولُ اللهِ سِرّاً ظَاهِرا
أنا كُلُّ شئٍ فى الحياةِ تركتُهُ ... وَوَقَفتُ نَفسِى للنَّبِىِّ مُثابراَ
والوقفُ لا يُشرَى وليسَ يُباعُ فى ... حالٍ يدومُ الى القيامةِ حاضِراَ
أنا باِسمِكُم والى اسمِكُم وَلِوَسمِكُم ... فى رَسمِكُم قَلبِى عَلَى الشِّعرى سَرَى
لم أنسَ أيَّامَ الطُّفُولَةِ حَيثُما ... كُنتَ المُؤمَّلَ لِى كُنتُ الظافِرَا
مَا زالَ حُبُّكَ باقياً فى مُهجتى ... يُضفى علىَّ من اليقينِ سرائراَ
ولقد غسلتُ بواطِنِى وظواهِرى ... فى حُبِهِ حتى نُسِبتُ الطَّاهِرا

نُـــــورُ الـــــنَّبِيِّ اذا تمكـــــن مــــــن فــــتىً   لم يُبـــــقِ فِيـــــهِ صـــــغائراً وكبــــــائراً
نُـــــورُ الـــــنَّبِيِّ اذا تمكـــــن مــــــن فــــتىً   ألفيتَـــــه بَــــــينَ البريـــــةِ ظـــــاهِرا
فـــــاذا رُزِقـــــتُ محبـــــةً فَبِفَضـــــلِه   واذا كَسَـــــبتُ فَّقَـــــد كَسَـــــبتُ جـــــواهِرا
قُـــــل لِــــى عليــــكَ صــــلاتُنا وسَــــلامُنا   حتّــــى أعُــــود علــــى المَحَبَــــةِ شــــاكرا
أرضَــــيتَنِى كَرَمــــاً وَصَــــاحَبَنِى الرِّضــــا   حتّــــى وصَــــلتُ فَلَســــتُ أســــلُكُ حــــائراَ
مــــا زالَ فضــــلُكَ فى البريَّــــةِ ســــائراً   يســــمو وَيزكــــو بــــالنفوسِ ضــــمائرا
وَلَكـــــم أراهُ فى العــــــوالِمِ صــــاعِدا   حتَّــــى غــــدا فى الكــــون مِســــكاً عــــاطِراَ)

تعجبت من حضور بديهتيه، وانصياع الشعر له، فسألته: من أنت؟

قال: علي عقل.

قلت: ذلك القطب الرباني، صاحب الفيوضات الصمدانية، والعلوم اللدنية ذلك الملهم الذي ينساب الشعر من فمه كما ينساب الماء الزلال.

قال: هم يقولون هذا.

قلت: بأي بركة نلت هذا؟

قال: ببركة الحبيب..

قلت: وبأي بركات الحبيب نلت ذلك؟

قال: ببركة التعظيم..

قلت: لا يعظم إلا الله.. فكيف رحت تشرك بالله؟

قال: أرأيت لو أن فنانا مبدعا أراك لوحة من لوحاته في منتهى الجمال، فرحت تهينها وتحتقرها، فإذا سألك عن ذلك قلت له: أنا أهينها حتى لا يبقى عظيما في عيني غيرك.. أترى هذا عين العقل؟

قلت: بل أراه عين الحمق.. ولن أنال من هذا الفنان إلا الازدراء.

قال: لم؟

قلت: لأني احتقرت صنعته.. ولا يمكن أن أشعره بتعظيمي له إلا من خلال تعظيمي لصنعته.

قال: وهكذا الأمر مع محمد ﷺ.. فهو عصارة الجمال التي أمرنا الله بعبوديته من خلال التأمل فيها وتعظيما وامتلاء قلوبنا بمحبتها.. فلو أهناها لأهنا الله.

قلت: ولكن الحريصين على صفاء التوحيد يخالفونك في هذا.. ويعتبرون كل هذا شركا.

قال: فاقرأ عليهم قوله ۵ للنبي ﷺ:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)﴾(الفتح)

قلت: فما في هذه الآيات؟

قال: في هذه الآيات يأمر الله الأمة بتعظيم محمد، ويربط الفلاح بذلك.

قلت: فما الفرق بين المسلمين والمسيحيين في هذا .. ما دام المسيحيون يعظمون المسيح، والمحمديون يعظمون محمدا.

قال: الفرق بينهما عظيم.. فالمحمديون يعظمون محمدا عبودية لله، وتحقيقا لأمر الله، وفيضا من فيوضات تعظيم الله.. بينما المسيحيون يعظمون المسيح لذات المسيح.. فيجعلون للمسيح شركة في الألوهية.

قلت: وتعظيم المسلمين؟

قال: أرأيت لو أنك أرسلت رسولا برسالة لقوم من الناس، فأهانوا رسولك، واحتقروه مع علمهم بأنه رسولك؟

قلت: هم يحتقرونني بذلك ويهينونني.

قال: فلذلك ربط الله ﷻ طاعته بطاعة رسوله، وتعظيمه بتعظيم رسوله، ومحبته بمحبة رسوله.

لقد قال الله ﷻ:﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ (النساء:٨٠)

قلت: فرق عظيم بين الطاعة والتعظيم.

قال: فقد قال الله ﷻ:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ (النور)

قلت: فما في هذه الآية مما نحن فيه؟

قال: فيها كل ما نحن فيه.. فالله ﷻ في هذه الآيات يأمر بتعظيم النبي ﷺ، وعدم التعامل معه كما يتعامل الناس بعضهم مع بعض.

لقد قال ابن عباس في تفسير الآيات: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك، إعظامًا لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُبَجَّل وأن يعظَّم وأن يسود[1].

بل إن الله ﷻ نهى المؤمنين عن كل سلوك لا ينسجم مع الأدب مع رسوله، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ (البقرة: ١٠٤).. وقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ

---

(١) هذا هو المعنى الأول في تفسير قوله ﷻ:﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ (النور: من الآية٦٣)، والمعنى الثاني:﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُول بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العَوفي.

وهذا المعنى أيضا من التعظيم، وهو من أقوى الأدلة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بل استحبابه، باعتبار التوسل نوعا من طلب الدعاء من المتوسل إليه.

وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾ (الحجرات)

بل إن الله ﷻ شرع لمناجاة النبي ﷺ من باب التعظيم له تقديم صدقة على ذلك، فقال ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة:١٢)

قلت: وعيت كل ما ذكرته من القرآن.. ولكن هؤلاء الحريصين على صفاء التوحيد لا يرجعون للقرآن بل يرجعون لهدي السلف.

قال: ومن السلف؟

قلت: الصحابة .. ومن بعدهم من القرون الأولى.. فهم يعتبرون فهمهم هو الفهم.. وتفسيرهم هو التفسير.

قال: فأخبرهم عن قول ذلك الصحابي في حديثه الطويل:« وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيقُ أن أملأ عيني منهُ إجلالاً له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن املأ عيني منه »

وأخبرهم عن قول أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار، وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحدُ منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمرُ، فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويبتسمان إليه، ويبتسمُ لهما.

وأخبرهم عما حصل لما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي ﷺ إليهم في القضية، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وقد وصف حال الصحابة ﵃ في جلوسهم أمام رسول الله ﷺ بأنهم « وكأنهم على رؤوسهم الطير»[١]، وفي روايات أخرى:« إذا تكلم أطرق جلساؤه وكأنما على رؤوسهم الطير » وهو كناية على « السكون والوقار وأنهم لم يكن فيهم طيش ولا خفة لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن»[٢]

وقد كانوا ﵃ ـــ لحبهم الشديد له ـــ يتبركون بآثاره وكل ما يرتبط به، فكان ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً إلا تلقوها بأكفهم، فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّونَ

(١) وقد رويت في ذلك أحاديث كثيرة، انظر: البخاري:٣/١٠٤٥، ابن حبان: ١٦/١٨٥، الحاكم: ١/٢٠٨، أبـــو داود: ٤/٣ وغيرها.

(٢) عون المعبود: ١٠/٢٣٩.

إليه النظر تعظيماً له.

وعندما رأى بعض المشركين ذلك منهم قال لقومه « يا معشر قريش، إني جئتُ كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً»

وعن أنس قال رأيت النبي ﷺ والحلاق يحلقه، وقد أطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[١].

وعنه قال لما كان يوم أحد انهزم الناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، قال: وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فقال له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك[٢].

سكت قليلا يستجمع أنفاسه، ثم قال: أخبرهم بحديث أبي جحيفة عندما قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة فأتي بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به [٣].

وأخبرهم بحديث أنس عندما قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم أهل المدينة بآنيتهم فيها الماء فلم يؤت باناء الا غمس يده فيه فربما في الغداة جاؤوا الباردة فيغمس يده فيها.

وأخبرهم بما روي أن أبا محذورة كانت له قصة في مقدم رأسه يرسلها فتبلغ الارض إذا جلس فقلنا له: ألا تحلقها؟فقال: ان رسول الله ﷺ مسح عليها بيده، فلم أكن لاحلقها حتى أموت، فما حلقها حتى مات [٤].

وأخبرهم بما حدث به أبو سعيد الخدري عندما قال: كنت يوما عند رسول الله ﷺ فأتى بتمر يفرقه علينا وكنا ندنيه منه ليمسه لما نرجو من بركة يده، فإذا رآه قد اجتمع فرقه بيننا [٥].

وروى البخاري عن عروة عن السائب بن يزيد ــ رضي الله عنه ــ قال: ذهبت بي خالتي الى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ان ابن أختي وقع فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه..الحديث.

وأخبرهم بما حدث به خالد بن الوليد عندما قال: أعتمرنا مع رسول الله ﷺ فعلق شعره فاستبق الناس الى شعره، فسبقت الى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدمة القلنسوة فما وجهت في وجه الا فتح لي [٦].

وأخبرهم بما فعله مالك بن سنان لما أصيب رسول الله ﷺ في وجهه يوم أحد.. حيث مص دم رسول الله

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه أبو القاسم البغوي.
(٥) رواه أبو سعيد بن الاعرابي.
(٦) رواه أبو الحسن بن الضحاك وأبو يعلى بسند صحيح.

ﷺ وازدرده فقال له: (أتشرب الدم ؟) قال: أشرب دم رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ:(من خالط دمي دمه لا يضره الله)[1]

قلت: هم لا يكتفون بالصحابة.. بل يشترطون أن يوافقهم على ذلك التابعون.

قال: فحدثهم عن أخبار مالك بن أنس.. لقد قال عنه مصعب بن عبد الله:« كان مالك إذا ذكر النبي يتغير لونه انحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكى حتى نرحمه.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصليا، وإما صامتا، وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ، فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع.

ولقد رأيت الزهري، وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتى صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكى حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

لم أجد ما أقول، فقلت له: هم لا يبالون إلا بالمحدثين.

قال: فأخبرهم عن تعظيم المحدثين لرسول الله ﷺ.. لقد حدث عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فكان مما قال: وما سمعته قط يقول: قال رسول الله ﷺ إلا مرة، فنظرت إليه وقد حل إزاره وانتفخت أوداجه، واغرورقت عيناه، فقال:« أو نحو ذلك أو دون، أو قريباً من ذلك، أو شبه ذلك »

وقال ضرار بن مرة:« كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله ﷺ وهم على غير وضوء »، قال إسحاق: فرأيت الأعمش إذا أراد أن يتحدث وهو على غير وضوء تيمم.

وكان مالك يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب، ويأخذ زينته للتحديث بحديث رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبي الزناد: كان سعيد بن المسيب، وهو مريض، يقول:« أقعدوني ؛ فإني أكره أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع »

ومرّ مالك بن أنس على أبي حازم ــ وهو يحدث ــ فجازه، وقال:« إني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم »

وكان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع.

وقال سعيد بن عامر:« كنا عند هشام الدستوائي فضحك رجل منا، فقال له هشام الدستوائي: تضحك

---

(١) رواه أبو علي بن السكن.

وأنت تطلب الحديث !؟

بينما نحن كذلك إذا بنا نرى رجلين يتشاجران، وأخذ أحدهما يسب الآخر، وكان اسمه محمدا.. فتغير صاحبي تغيرا شديدا، واحمر وجهه، وسقطت دموع حارة من عينيه، ثم اندفع إليهما ينهرهما، ويحذرهما من سب النبي ﷺ، فقال الساب: أنا لم أسب نبينا.. ولكني سببت هذا الرجل الذي لم يحفظ حرمة اسمه.

فتوجه إلى المشتوم، وقال: إن لم تترك ما أنت فيه فدع عنك هذا الاسم العظيم.

قال: هو اسم سماني به أبي، وما كنت لأدعه لقولك، أو لقول أحد من الناس، فمن سبني باء بإثمي.

قال صاحبي: ألم تعلم ما روي من نهي عمر عن التسمي باسم محمد؟

قال الرجل: لا أعلم إلا أنه يستحب التسمية بأسماء الأنبياء والصالحين.

قال: لمن حفظ حرمتهم.. لقد ذكر أن عمر ﷺ سمع رجلاً يقول لمحمد بن زيد بن الخطاب:« فعل الله بك يا محمد » فدعاه فقال:« أرى رسول الله ﷺ يسب بك والله لا تدعى محمداً ما بقيت » وسماه عبد الرحمن.

وقد ورد في هذا المعنى حديث جاء فيه: « يسمونهم محمدا ويلعنونهم»[1]

قال ذلك، ثم انصرف، وهو يقول: عذرك يا رسول الله.. عذرك يا حبيب الله.. لا تؤاخذنا بفعل السفهاء.

ندم الرجلان، وأخذا يعتذران إليه.. تركتهما كذلك، وانصرفت وفي نفسي ألم عظيم.. فالمسيح بين قومنا يهان ويحتقر وتمثل الأفلام التي تسيئ إليه، ولا أحد من أدعياء حب المسيح يتحرك أو تأخذه الغيرة.

الإلتجاء:

قلت: فما الكلمة الثالثة؟

قال: الالتجاء.

قلت: ما تقصد بالالتجاء؟

قال: المحب الشغوف بحبيبه لا يصبر على فراقه، ولهذا تراه يحن إليه كل حين، ويلتجئ إليه في كل مناسبة.

قلت: ذاك قد يصح مع حبيب حي.. ولكنه لن يصح أبدا مع حبيب ميت.

قال: إن المحبوب يموت عند جميع الناس إلا عند من يحب.. فإنه يظل حيا، ولذلك لا حرج عليه أن يلتجئ إليه.

قلت: ولكن الناس يضحكون عليه حينذاك، وقد يرمونه بالجنون.

قال: المحب الصادق يستلذ جنونه في محبوبه.

قلت: عد بنا إلى هذه الكلمة وعلاقتها برسول الله ﷺ.. وعلاقتها بعد ذلك بالأولياء.

قال: لقد لاحظت من خلال معايشتي لبعض هؤلاء أولياء، أو كتاباتهم، أنهم لا يتعاملون في علاقتهم برسول الله ﷺ إلا كما يتعامل الأحياء مع الأحياء.

---

(١) قال الطبري: وهو ضعيف لأنه من رواية الحكم بن عطية عن ثابت عنه.

قلت: ألا يعتقدون موته!؟.. فإن كان كذلك، فاقرأ عليهم قول الله ﷻ:﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر:٣٠)

قال: قد قرأت عليهم قوله ﷻ:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٩)

قلت: ما علاقة هذا بذاك؟

قال: ألم يخبر الله ﷻ عن موت الشهداء؟

قلت: بلى.. فقد قال ﷻ:﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(آل عمران:١٥٧)، وقال ﷻ:﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران:١٥٨)

قال: ألا ترى أن الله ﷻ الذي أخبر بموتهم هو الذي أخبر بحياتهم؟

قلت: بلى..

قال: فكذلك الأمر مع رسول الله ﷺ..

التفت إلي، وقال: ثم ألا تعجب أن نقول بحياة الشهداء، ثم لا نقول بحياة سيد الشهداء.

قلت: فنلفرض أني وعيت ما ذكرت، فما ينتج عنه؟

قال: ألم تقرأ قوله ﷻ:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾(النساء: من الآية٦٤)!؟

قلت: بلى.. فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: سأقص عليك قصة تعلق بها أولياء الله، فراحوا يعيشونها.

قلت: حدثني عنها.

قال: ذكر الحافظ السمعاني عن علي ــ رضي الله عنه ــ قال: قَدِمَ علينا أعرابي بعدما دفنّا الرسول ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ، وحثا من ترابه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قُلتَ فسمعنا قولك، ووعيتَ عن الله ما وَعينا عنك، وكان فيما أنزلَ عليك:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: من الآية٦٤)، وقد ظلمت نفسي، وجئتك تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غُفر لك[١].

وفي رواية أخرى عن أبي شبل محمد بن النعمان بن شبل الباهلي قال: دخلتُ المدينة فانتهيتُ إلى قبر النبي ﷺ، فإذا أعرابي يُوضع على بعيره، فأناخه وعَقَله، ثم دخل إلى القبر الشريف، فسلَّم سلامًا حسنًا، ودعا دعاءً جميلاً ثم قال:« بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنّ الله خصّك بوحيه وأنزل عليك كتابًا جمع لك فيه علم الأولين والآخرين، وقال في كتابه وقوله الحق:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

---

(١) ورواها بنحو لفظها: الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٣/٤٩٥، وانظر: سبل الهدى والرشاد ١٢/٣٨٠، وفاء الوفا ٤/ ١٣٦١، وأبو اليمن ابن عساكر في إتحاف الزائر ص ٦٨/٦٩، وابن النجار في الدرة الثمينة، ص٢٢٤، وابن حجر الهيتمي في تحفة الزوار ص٥٥.

الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: من الآية٦٤)، وقد أتيتك مقرًا بالذنوب، مستشفعًا بك إلى ربك، فهو ما وعد.

ثم التفت إلى القبر، وقال:

يا خير من دفنت بالقاع أعظُمُه ... فطاب من طيبهنّ القاعُ والأكمُ

أنت النبي الذي تُرجى شفاعته ... عند الصّراط إذا ما زلّت القدمُ

نفسي الفداء لقبرٍ أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكَرَمُ

ثمّ ركب راحلته فما أشكُّ ـــ إن شاء الله ـــ إلا أنه راحَ بالمغفرة، ولم يُسمَع بأبلغ من هذا قط.

وذكر محمد بن عبد الله العُتبي هذا، وزاد في آخره: فغلبتني عيناي، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي:« يا عُتبي، الحق الأعرابي وبشّره أنّ الله قد غفر له»[1]

قلت: إن الفقهاء ينكرون مثل هذا.

قال: إن سيد الفقهاء مالك.. وكان يشعر هذه المشاعر في مدينة رسول الله ﷺ وأمام قبره ﷺ.. وقد روي بالأسانيد الصحيحة أنه لما ناظر الخليفة أبو جعفر المنصور مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، قال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله عزّ وجلّ أدّب قومًا، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات:٢)، ومدح قومًا فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الحجرات:٣)، وذم آخرين، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾(الحجرات:٤)، وإنّ حُرمته ميتًا كحُرمته حيًا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أستقبلُ القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ ؟

فقال الإمام مالك: ولَمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلةُ أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفِع به، فيشفّعك الله[2].

قلت: أحسبني وعيت ما ذكرته من هذا.. فما لازمه؟

قال: لازمه كل ما سمعته من مخاطبات الأولياء لرسول الله ﷺ وشكواهم إليه، فهم لا يشكون لميت.

---

(١) رواها الإمام النووي في (الإيضاح) ص٤٥٤، وابن بشكوال في (القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين ﷺ) الورقة (١٦/أ)

(٢) ذكر هذه القصة: القاضي عياض بسنده في الشفا: ٢/٤١، والقسطلاني في المواهب اللدنية، وأبو اليمن ابن عساكر في إتحاف الزائر، ص١٥٣، والعز بن جماعة في هداية السالك: ٣/١٣٨ وقال الإمام الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية: ٤/٥٨٠ ردًا على من أنكرها: هذا تهوّر عجيب، فإنّ الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه (فضائل مالك) بإسناد حسن، وأخرجها القاضي عياض في الشفا من طريقه عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه. فمن أين أنها كذب؟! وليس في إسنادها وضّاعٌ ولا كذّاب.

قلت: إن من قومي من يعتبر ذلك شركا، وقد قال بعضهم[1] عن قول البوصيري:

يـــا أكـــرم الخلـــق مـــا لي مـــن ألـــوذ بـــه ســـواك عنـــد حلـــول الحـــادث العمـــم

« هذا الشاعر يستغيث بالرسول ﷺ، ويقول له: لا أحد من ألتجئ إليه عند نزول الشدائد العامة إلا أنت، وهذا من الشرك الأكبر الذي يُخلد صاحبه في النار إن لم يتب منه، لقوله ﷻ:﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس:١٠٦)، أي المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم، وقوله ﷺ:« من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار »[2]

ابتسم، وقال: ما أعجب هؤلاء.. وما أسرعهم في اتهام المؤمنين، بل الأولياء من المؤمنين بالكفر والشرك، ألم يسمعوا ما ورد في التحذير من ذلك.

قلت: بلى.. سمعوا.. ولكنهم يعتقدون أن ما يذكرونه هو الحق الذي لا حق غيره.

قال: أفتراهم إذا جثوا بين يدي الطبيب يشكون حالهم إليه مشركون بذلك؟

قلت: لم يقل بهذا أحد من الناس.

قال: فكيف يزعمون إذن بأن من شكى لحبيبه وطبيبه حاله، يكون مشركا.

سكت قليلا، ثم قال: الشرك معروف، وهو ما يعتقده قومي حين يعتبرون المسيح إلها أو أقنوما من إله.

قلت: ولكنهم يتصورون مخاطبة رسول الله ﷺ ودعائه شركا، لأنه لا يدعى إلا الله.

قال: و لم أر المسلمين يدعون غير الله عوامهم وخواصهم، فلا أحد منهم يعتقد إلها غير الله..

قلت: وهذا الخطاب الذي يتوجهون به لرسول الله ﷺ، وكأنهم يستغيثون به !؟

قال: هم يفعلون ذلك كما يفعل كل البشر مع الأطباء حين يستلقون أمامهم كما يستلقي الميت بين يدي الغسال ينتظرون منهم أن يكونوا واسطة للشفاء الذي يترله الله، فالله هو الشافي، والطبيب واسطة.

ومثل ذلك محمد.. فالله هو الرحيم الرحمن.. وقد جعل من خلقه وسائط لرحمته.. ومنهم محمد.

قلت: هم يعتبرون ما تقوله شركا.

قال: ألا يؤمن هؤلاء بالشفاعة العظمى؟

قلت: بلى.. هم يؤمنون.. بل إني أراهم يبدعون منكرها.

قال: فهي واسطة من الوسائط ووسيلة من الوسائل.

سكت، فقال: ألم يقرأوا حديث الأعمى؟

قلت: ابن أم مكتوم !؟

قال: لا.. الأعمى الذي حدث حديثه عثمان بن حنيف، حيث ذكر أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ، فقال:« ادع الله أن يعافني »، فقال:« إن شئت أخرت ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت »، قال:« فادعه » قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول:« اللهم إني أسألك وأتوجه إليك

(١) انظر: كتاب (معلومات مهمة من الدين) للشيخ محمد جميل زينوا(ص١٦٠ ــ ١٦٦.

(٢) رواه البخاري.

بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه في وشفعني فيه»[1]

قلت: بلى.. قرأوه.. ولكنهم قيدوه بصنوف من التأويلات جعلته خاصا بهذا الأعمى.

قال: ولكن ظاهره لا يحتمل أي تقييد.

قلت: لقد أول ابن تيمية هذا الحديث بصنوف من التأويلات وصرفه عن ظاهره، فقال:« وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ فلهذا قال في دعائه:« اللهم فشفعه في »، فعلم أنه شفيع فيه »

واستشهد بقوله ﷺ:« إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك » فقال: «ادع لي»، بأنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلي ويدعو هو أيضا لنفسه، ويقول في دعائه:« اللهم فشفعه في»، فدل ذلك على أن معنى قوله:« أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد »، أي بدعائه وشفاعته.

واستشهد بقول عمر ﷺ:« اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا »، وقال:« فالحديثان معناهما واحد فهو علم رجلا أن يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه »

ومن استشهاده بحديث عمر ﷺ قوله:« فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسل به وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وأقربهم إليه وسيلة إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله »

ابتسم، وقال: لا أرى أي تناف بين الجمع بين دعاء رسول الله ﷺ ودعاء غيره، فإن الدعاء كلما كثر، واشتد الإلحاح فيه، كلما ازداد اليقين بتحقق إجابته.

أما إخبار عمر ﷺ بأنهم كانوا يستشفعون في حياته ﷺ به ﷺ في ذلك الموقف، فلأنه كان يريد الاستشفاع بالعباس ﷺ، وهو حي أمامه، وهو لا يتنافى مع التوسل، فالاستشفاع أو طلب الدعاء قد يحتاج إلى اشتراط الحياة بخلاف التوسل الذي لا يحتاج إلى هذا الشرط.

قلت: ومما أول به ابن تيمية الحديث قوله:« وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول ﷺ بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه »

ابتسم، وقال: سأجيبك على هذا من من جهتين:

الأولى هي أن من الصحابة ﷺ من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضى بقسمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، وبها

---

(١) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

طيف، فقالت:« يا رسول اللّه إني أصرع، وأتكشف، فادع اللّه أن يشفيني »، فقال:« إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة »، فقالت:« بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع اللّه لي أن لا أتكشف »، فدعا لها فكانت لا تتكشف[1].

والثانية: أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالآثار الدالة على الفعل به من الصحابة ﷺ يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن.

فلذلك يكتفي العلماء كلهم ــ بما فيهم ابن تيمية ــ بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن في خلاف الصحابة ﷺ للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث للصحابة، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه.

وقد جعل ابن تيمية نفسه ــ هذا المعنى ــ من أسباب الخلاف الفقهي في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال:« السبب الأول أن لايكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول لله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة »

ثم ذكر أن النبى ﷺ كان يحدث أو يفتي أو يقضى أو يفعل الشيء، فيسمعه أو يراه من يكون حاضرا ويبلغه أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من يشاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتي أو يقضى أو يفعل شيئا ويشهده بعض من كان غائبا عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ماليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ماليس عند هؤلاء.

ثم ذكر أن تفاضل العلماء من الصحابة ﷺ ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته لا بالإحاطة بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه.

ثم ذكر نموذجا على هذا بالخلفاء الراشدين الذين هم أعلم الأمة بأمور رسول الله ﷺ وسنته وأحواله، فإن عمر ﷺ ــ والذي استدل ابن تيمية بحديثه على إنكار التوسل برسول الله ﷺ بعد موته ــ لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى، واستشهد بالأنصار، و لم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها، بل يرى أن الدية للعاقلة حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان وهو أمير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة اشيم الضبابى من دية زوجها، فترك رأيه لذلك وقال:« لو لم نسمع بهذا لقضينا بخلافه »، و لم يكن يعلم حكم المجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:« سنوا بهم سنة أهل الكتاب»

ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فاشار كل عليه بما رأى و لم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ﷺ فاخبره بسنة رسول الله ﷺ في

---

(١) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

الطاعون وأنه قال:« إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه »

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على احتمال أن ما ذكره عمر ﷺ ناتج عن عدم سماعه لحديث الأعمى.

قلت: فلم لم ينكر عليه.. ولم لم يخبر بالحديث كما خبر في الآثار السالفة؟

قال: لأن ما قاله عمر لا يريد به التوسل بمعناه الاصطلاحي، وإنما يريد به طلب الدعاء من الحي، أما عدم إخباره بما ورد في حديث الأعمى، فقد لا يكون الراوي حاضرا، حتى يبلغه.

قلت: مما استدل به ابن تيمية في التفريق بين حياته وموته ﷺ أنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة، فإن أحدا من الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهي من يعبده ويشرك به، ولو كان شركا أصغر كما نهى النبي ﷺ من سجد له عن السجود له، أما بعد موته، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما.

قال: إن هذا يختلف باختلاف المتوسل واعتقاده، فإن كان يعتقد الوساطة الشركية، فهو حرام، بل قد يكون كفرا، أما إن أراد به التوسل الإيماني الذي هو استشعار محبة رسول الله ﷺ وشفقته على أمته والتوسل بهما إلى الله، فإن في ذلك من المصالح الإيمانية والتربوية ما لا يصح طرحه من أجل هذه المفسدة المشكوكة.

ثم لو طرحت أحكام الشريعة بهذا الأسلوب، فإن الكثير من الأحكام قد تتعرض للإلغاء خوفا من المفاسد التي قد تنجر عنها.

قلت: وعيت كل هذا.. ولكن لم يكن هذا النوع من الوساطة شركا.

قال: إن ذلك ينبع من معين اسم عظيم من أسماء الله الحسنى هو اسم الشكور.

قلت: الشكور !؟.. أجل هو اسم من أسماء الله الحسنى.

قال: فما يفعله الأولياء في هذا الباب من التعامل مع النبي ﷺ ينبع من معين هذا الاسم.

قلت: لم أفهم.. كيف ذلك؟

قال: إن اسم الله الشكور يقتضي مجازاة الله عباده على أعمالهم الصغيرة بالعوض الكير المجانس لأعمالهم ورغباتهم[1].

ومن هذه النافذة تفهم النصوص المجيزة للتوسل بأنواعه: التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين والأعمال الصالحة وغيرها مما ورد النصوص بجوازه.

فالتوسل بالعمل الصالح ـــ مثلا ـــ إن اعتقد أنه واسطة صحيحة، وأن الله يجب أن يجازي المكلفين، كان سوء أدب مع الله، فالله ﷻ:﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:٢٣)، والله غني عن أعمال عباده.

لكن إن نظر إليه من باب اسم الله الشكور، فذكر العمل، وطلب الجزاء كما تطلب المنن لم يكن في ذلك حرج على الداعي، بل قد ورد في النصوص الكثيرة ما يدل عليه.

ولعل أشهر ما ورد من ذلك حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله، فهذا سأل ببره لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة، وهذا سأل بأمانته وإحسانه، وكل ذلك مما يحبه

(١) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف.

الله ويرضاه، ومحبة الله لذلك العمل تقتضي إجابة صاحبه.

وقد كان ابن مسعود ﷺ يقول وقت السحر:« اللهم أمرتني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لي » وكان ابن عمر ﷺ يقول على الصفا:« اللهم إنك قلت وقولك الحق:﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)(غافر: من الآية٦٠)، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم ذكر الدعاء المعروف.

ومن هذا الباب شرعت الصلاة على رسول الله ﷺ، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله.

بل إن الله ﷻ وصانا بالشكر للوالدين، وهما سبب حياتنا الطينية المجازية، فقال ﷻ:﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:١٤)فكيف لا يستحق رسول الله ﷺ منا الشكر، وهو سبب حياتنا الروحية الحقيقية.

ولهذا اعتبر ﷺ من لم يصل عليه بخيلا، فقال ﷺ:« البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي »

ومن هذا الباب ما ورد من الآثار في ربط الصلاة على رسول الله ﷺ بأشياء، لولا الوساطة الشرعية لرسول الله ﷺ لم تتحقق، مثل قول القائل عند الدخول إلى المسجد:« أعوذ باللّه العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، الحمد للّه، اللهمّ صلّ وسلم على محمد وعلى آل محمد؛ اللهمّ اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك »

قلت: فما علاقة التوسل والشكوى والاستغاثة باسم الله الشكور؟

قال: إن الله برحمته وفضله وشكره لعباده جعل من جزاء الرسول ﷺ الذي امتلأ قلبه بالرحمة لأمته بل للخلق جميعا، الشفاعة العظمى يوم القيامة، والتوسل باب من أبوابها، كلاهما يطل من نافذة هذا الاسم.

زيادة على أن المتوسل برسول الله ﷺ يستحضره ويشعر بمنة الله به عليه، وفي ذلك الشعور توسل لاستجابة الدعاء، فللدعاء شروطه التي إن توفرت لا يخطئ أبدا.

وانطلاقا من هذا، فإن التوسل برسول الله ﷺ هو نوع من الحضور معه، والشعور بمعيته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذي يستحضر فيه قلب السائل رسول الله ﷺ، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، يملأ القلب شعورا برسول الله ﷺ.

أما اعتقاد أن هذا خاص بحياة رسول الله ﷺ، فلا دليل صريح عليه من النصوص، بل قد يكون فهما من عمر ﷺ، مع أن قوله ﷺ لا يدل على حرمة الاستشفاع به ﷺ بعد موته.

والقول بذلك يحرم الأمة جميعا من هذا الخير الجزيل، فلا يتمتع به على مقتضى هذا القول إلا المصاحبون لرسول الله ﷺ.

زيادة على ذلك، فإنا نتوسل برسول الله ﷺ في كل الأحكام الشرعية، فنرجع إليه لنعلم أحكام الله، بل إن الله هو الذي أمرنا بالرجوع إليه مطلقا حيا أو ميتا، كما قال ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (النساء:٥٩)، وليس هناك من يقول بأن هذا خاص بحياته ﷺ.

ثم من قال بأن موت رسول الله ﷺ يغاير حياته، فإن كان الشهداء، وهم أدنى بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال ﷻ:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران:١٦٩)، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبيين ؟

ثم، إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ:« حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم، تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم »

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال ﷻ:﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)

قلت: قد يقال بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شفاعة؟

قال: إن كان الله ﷻ أخبر بدعوة الملائكة ــ عليهم السلام ــ للمؤمنين، كما قال ﷻ:﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر:٧)، فإن كان هذا مع حملة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته التي كلف بها، وهو أحرص الخلق عليها؟

وقد أخبر ﷺ أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، فقال ﷺ:« إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[1]

فإن جاز هذا للعشائر والأقارب، وهم أفراد من الأمة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمته من آبائهم، وأمهاتهم، وقد قال ﷻ:﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب: من الآية٦)

الألم:

قلت: فما الكلمة الرابعة؟

قال: الألم.

قلت: الألم !؟

قال: أجل..

قلت: عهدي بأولياء الله أسعد الخلق حياة، وأهنأهم نفسا، حتى وكأن الجنة عجلت لهم.

قال: لكن بعض الآلام تعتريهم.

قلت: القلب الذي يعرف الله لا يعرف الألم.

---

(١) رواه أحمد والطيالسي.

قال: هو ألم أشبه بألم يعقوب لفقد يوسف.. فمقام يعقوب العظيم عند الله، ومقام يعقوب العظيم في درجات السلوك إلى الله لم يمنعاه من ذلك الحزن الذي عبر عنه الله ۵ بقوله:﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف:٨٤)

ومقام رسول الله ﷺ في سلم الولاية لم يمنعه من قوله عندما توفي ابنه إبراهيم:«

قلت: فما الحزن الذي يعتري الأولياء.. فيشعرهم بالألم.

قال: فقد رسول الله ﷺ..

قلت: ألم تخبرني قبل الحين أنهم يستشعرون حياته؟

قال: الحياة مراتب.. فقد يكون شخصا حيا، ولكنك تستشعر ألما لبعده عنك.

قلت: ولكن الأولياء كما ذكرت لي لا يغيبون عن رسول الله.. ولا يغيب رسول الله عنهم..

قال: ذلك لقاء الأرواح.. والأولياء يتلهفون على لقاء الأشباح..

التفت إلي، وقال: ألم تسمع حديث ثوبان وغيره من الصحابة وشكواهم لرسول الله ﷺ ألم الفراق؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا كانت أعظم المصائب التي حلت بالمؤمنين فقداهم لرسول الله ﷺ.. قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ:« لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ــ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ــ فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون.. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته.. وعلي فيمن أقعد.. وعثمان فيمن أخرس.

فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله تعالى، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعده الله ﷻ كما واعد موسى وهو آتيكم »

وذكر مكي عن عبدالله أنه لما مات النبي ﷺ قال:« اللهم أعمني حتى لا أري شيئا بعده؛ فعمي مكانه »، وروي أنه قال:« للهم أعمني فلا أرى شيئا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي؛ فعمي مكانه »

و لم يكن قويا في هذا الموقف الشديد إلا أبا بكر ﷺ الذي ربط الله على قلبه ليواسي المسلمين في نبيهم ﷺ، ولكنه مع ذلك ظل باطنه يحترق فلا يكاد يمسك نفسه، فقد روي أنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ، وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول:« بأبي وأنت وأمي ونفسي وأهلي، طبت حياً وميتاً، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمدوا وادّكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا

واحفظه فينا »

وقد استمر هذا الحزن بالصحابة ﷺ أمدا طويلا، عن أنس قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ، قال: فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها:« ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله » قالت:« إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكني أبكي لكون الوحي انقطع من السماء » قال: فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها »[1]

وقد كانت حرقة حب رسول الله ﷺ هي سبب وفاته ﷺ، فعن عبد الله بن عمر ﷺ قال:« كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله ﷺ كمد، فما زال جسمه يحري حتى مات »

ولهذا كانت وفاة رسول الله ﷺ هي عزاء المؤمن عن كل مصيبة، كما قال رسول الله ﷺ:« إذا أصيب أحدكم بمصيبة، فليذكر مصيبته بي ليعزه ذلك عن مصيبته »[2]

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى شغف الأولياء بالقبر الشريف.. فهم يعتبرونه أشرف بقعة في الأرض.

قلت: بلى.. وقد أنكر عليهم البعض ذلك.

قال: لا ينبغي أن ينكر عليهم.. فأحب تراب الله لأهل الله التراب الذي ضم رسول الله.. إنه عطرهم الذي يستنشقون أريجه، ودواؤهم الذي يحميهم من العلل ويملؤهم بالصحة.

قلت: فهل لك قصة مع القبر الشريف؟

قال: أجل.. وهي قصة لن أنساها ما حييت.

قلت: كيف أذن لك في دخول الحرم، والحرم لا يدخله إلا مسلم؟

قال: أتحسبني زرتك قبل أن أزور حبيبي ﷺ.. لقد كان أول ما فعلته بعد إسلامي أن زرت قبر رسول الله ﷺ.. وفي الطريق إليه رأيت وليا من أولياء الله يردد:

أتيتُك راجلاً وَوَدِدْتُ أني ... مَلَكْتُ سَوَاد عيني أَمْتَطِيهِ

وما لي لا أسِيرُ على المآقي ... إلى قبرِ رسولُ الله فيهِ

فأسرعت إليه، وقلت له: رويدك.. احذر أن يسمعك بعض المتشددين، فيرميك بالشرك.

قال: فليفعلوا بي ما يشاءون.. فأنا لم أخرج عن هدي السلف، ولا عن أدب الخلف.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد كان حسان بن ثابت من سلف الأمة، ومن صحابة رسول الله ﷺ، وقد قال مخاطبا قبره ﷺ:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مصنف عبد الرزاق: ٥٦٤/٣، المعجم الأوسط:٣٦٥/٤.

تهيـــــل عليـــــه التـــــرب أيـــــد وأعـــــين عليـــــه وقـــــد غـــــارت بـــــذلك أســـــعد
لقـــــد غيبـــــوا حلمـــــا وعلمـــــا ورحمـــــة عشـــــية علـــــوه الثـــــرى لا يوســـــد
وراحـــــوا بحـــــزن لـــــيس فـــــيهم نبـــــيهم وقـــــد وهنـــــت منـــــهم ظهـــــور وأعضـــــد
يبكـــــون مـــــن تبكـــــي الســـــموات يومـــــه ومـــــن قـــــد بكتـــــه الأرض فالنـــــاس أكمـــــد
وهـــــل عـــــدلت يومـــــا رزيـــــة هالـــــك رزيـــــة يـــــوم مـــــات فيـــــه محمـــــد ؟

وقد روي عن ابن المنكدر ﷺ أنه كان يجلس مع أصحابه فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي ﷺ ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطر، فإذا وجدت ذلك استعنت بقبر النبي ﷺ.

وكان يأتي موضعا من المسجد يتمرغ فيه، ويضطجع، فقيل له في ذلك فقال: إني رأيت النبي ﷺ في هذا الموضع[1].

قلت: هذا السلف.. فما فعل الخلف؟

قال: لقد ورث السلف حسان وغيره أمة من الصالحين أنتجوا تراثا عريضا من معاني الحب ولدت أمام قبر رسول الله ﷺ، فهذا أحدهم يقول:

قـــــف عنـــــد قـــــبر التـــــهامي والـــــثم الجـــــدثا وانشـــــق عـــــبير الهـــــدى ممـــــن بـــــه مكثـــــا
واجـــــثُ احترامـــــاً بـــــداع الوجـــــد مـــــدّكراً فجـــــر النبـــــوة وامـــــدح خـــــير مـــــن بُعثـــــا
محمـــــدٌ ســـــيد الأكـــــوان قاطبـــــة إذ مجـــــده كـــــابراً عـــــن كـــــابر ورثـــــا
مـــــا أنجـــــب الـــــدهر ذا خلـــــق وذا خلـــــقٍ في الفضـــــل يشـــــبهه مـــــذ جاءنـــــا حـــــدثا

(١) ابن المنكدر ليس من الصحابة، ولهذا تحمل الرؤية على الرؤية المنامية، أو على رؤى اليقظة التي أجمع عليها الأولياء.

سابعا ــ الأحبار

فتحت دفتر البابا على فصله السابع، فوجدت عنوانه (الأحبار)، فقلت: أليس الأحبار هم رجال الدين؟

قال: أجل.. هم رجال الدين من اليهود والمسيحيين.. وقد يقصد به غيرهم.

قلت: من الصعب أن يسلم مثل هؤلاء الرجال لمحمد ﷺ.

قال: أجل.. فما هم فيه من السلطان والجاه والتعصب يقف حائلا بينهم وبين الإسلام.. ولكن مع ذلك هناك من هؤلاء من تغلب على هواه، وطلق جاهه، وجميع الدنيا العريضة التي أتيحت له، ليتمتع بجمال شمس محمد ﷺ.

قلت: لقد ذكر الله ﷻ هؤلاء، وأثنى عليهم ثناء حسنا في القرآن الكريم، فقال ﷻ:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ (المائدة)

وقال فيهم:﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٩)

وقال فيهم:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص:٥٢-٥٥)

قال: ولهذا تراني اهتممت في هذا الدفتر بالبحث عن هؤلاء.. فهم ــ بالنسبة لنا معشر رجال الدين ــ من أعظم الشهود على صدق النبي ﷺ..

١ ــ أحبار من عصر النبوة:

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة من غير عصرنا.. بل هي من عصر النبوة، فكيف التقيت بها؟

قال: لقد التقيت بها في أسانيد الثقاة.. فهذه الجموع الكثيرة التي امتلأت قلوبها تعظيما لرسول الله ﷺ وحيا للإسلام يستحيل أن تجتمع على الكذب.

قلت: فهل ترى نبدأ بهؤلاء.. أم نعرج إلى المعاصرين؟

قال: ليس من الأدب أن نتخطى رقاب الصديقين.. فلنبدأ بهؤلاء.

سلمان الفارسي:

كان من أول الأسماء التي وصعت في هذا الفصل اسم (سلمان الفارسي)، فسألت البابا عن سر اختياره لسلمان، فقال: سلمان ليس فردا.. بل هو معنى.. ومعنى عظيم يشير إلى الصادقين من رجال الدين.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد أمضى سلمان شطرا من عمره ليس له من هم غير البحث عن الحقيقة.. فلذلك صار رمزا للباحث عن الحقيقة.

قلت: صدقت في هذا.. وقد ألف بعضهم رواية بهذا الاسم، وكان موضوعها سلمان.

قال: لقد كان أول سلمان أول من وضع رواية الباحث عن الحقيقة.. أو مذكرات الباحث عن الحقيقة.. فهلم نسمع له..

قلت: وكيف نسمع له، وقد رمم.

قال: آذان الروح يمكن أن تسمع كل شيء..

ثم التفت إلي، وقال: حاول أن تتخلص من جلباب جسدك.. ولترحل إلى ذلك الزمن الجميل الذي جلس فيه سلمان يحدث عن نفسه.

أصابني نوع من الغيبة اللذيذة، رحت خلالها أسمع البابا، وهو يحدثني بلسان سلمان، وكأني كنت جالسا في تلك اللحظة مع سلمان نفسه.

قال سلمان: كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان، من جي، ابن رجل من دهاقينها، وكان أبي دهقان أرضه، وكنت أحب الخلق إليه، فأجلسني في البيت كالجواري، فاجتهدت في المجوسية ــ فكنت في النار التي توقد فلا تخبو، وكان أبي صاحب ضيعة، وكان له بناء يعالجه في داره،، فقال لي يوما: يا بني، قد شغلني ما ترى فانطلق الى الضيعة، ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك، فخرجت لذلك، فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون، فملت إليهم وأعجبني أمرهم، وقلت: هذا والله خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت الشمس، لا أنا أتيت الضيعة، ولا رجعت إليه، فاستبطأني وبعث رسلا في طلبي، وقد قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت الى والدي، فقال: يا بني، قد بعثت اليك رسلا، فقلت: مررت بقوم يصلون في كنيسة، فأعجبني ما رأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا.

فقال: يا بني، دينك ودين آبائك خير من دينهم، فقلت: كلا والله.

فخافني وقيدني.

فبعثت الى النصارى وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم، وسألتهم إعلامي من يريد الشام، ففعلوا فألقيت الحديد من رجلي، وخرجت معهم، حتى أتيت الشام، فسألتهم عن عالمهم، فقالوا: الأسقف، فأتيته، فأخبرته، وقلت، أكون معك أخدمك وأصلي معك؟قال: أقم.

فمكثت مع رجل سوء في دينه، كان يأمرهم بالصدقة، فإذا أعطوه شيئا أمسكه لنفسه، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا، فتوفي، فأخبرتهم بخبره، فزبروني، فدللتهم على ماله فصلبوه، ولم يغيبوه ورجموه،

وأحلوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهد ورغبة في الاخرة وصلاحا، فألقى الله حبه في قلبي، حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصى، فذكر رجلا بالموصل، وكنا على أمر واحد حتى هلك.

فأتيت الموصل، فلقيت الرجل، فأخبرته بخبري، وأن فلانا أمرني باتيانك، فقال: أقم، فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصي، قال: ما أعرف أحدا على ما نحن عليه الا رجلا بعمورية.

فأتيته بعمورية، فأخبرته بخبري، فأمرني بالمقام وثاب لي شيئا، واتخذت غنيمة وبقيرات، فحضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي؟ فقال: لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، مهاجره بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين منكبيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت فتخلص إليه، فتوفي.

فمر بي ركب من العرب، من كلب، فقلت: أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه، وتحملوني الى بلادكم؟فحملوني الى وادي القري، فباعوني من رجل من اليهود، فرأيت النخل، فعلمت أنه البلد الذي وصف لي، فأقمت عند الذي اشتراني، وقدم عليه رجل من بني قريظة فاشتراني منه، وقدم بي المدينة، فعرفتها بصفتها، فأقمت معه أعمل في نخله، وبعث الله نبيه ﷺ، وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة، فترل في بني عمرو بن عوف، فاني لفي رأس نخلة إذ أقبل ابن عمر لصاحبي، فقال: أي فلان، قاتل الله بني قيلة، مررت بهم آنفا وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة، يزعم أنه نبي، فوالذي ما هو الا أن سمعتها، فأخذني القر ورجفت بي النخلة، حتى كدت أن أسقط، ونزلت سريعا، فقلت: ما هذا الخبر؟فلكمني صاحبي لكمة، وقال: وما أنت وذاك؟ أقبل على شأنك، فأقبلت على عملي حتى أمسيت، فجمعت شيئا فأتيته به، وهو بقباء عند أصحابه، فقلت: اجتمع عندي، أردت أن أتصدق به، فبلغني انك رجل صالح، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة، فرأيتكم أحق به، فوضعته بين يديه، فكف يديه، وقال لأصحابه: كلوا.

فأكلوا، فقلت: هذه واحدة، ورجعت.

وتحول الى المدينة، فجمعت شيئا فأتيته به، فقلت: أحببت كرامتك فأهديت لك هدية، وليست بصدقة، فمد يده فأكل، وأكل اصحابه، فقلت: هاتان اثنتان، ورجعت.

فأتيته، وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد، وحوله أصحابه، فسلمت، وتحولت أنظر الى الخاتم في ظهره، فعلم ما أردت، فألقى رداءه، فرأيت الخاتم، فقبلته، وبكيت، فأجلسني بين يديه، فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجبه ذلك، وأحب أن يسمعه أصحابه، ففاتني معه بدر وأحد بالرق، فقال لي: كاتب يا سلمان عن نفسك، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته، على أن أغرس له ثلثمائة ودية وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقال النبي ﷺ:(أعينوا أخاكم بالنخل)، فأعانوني بالخمس والعشر، حتى اجتمع لي، فقال لي:(فقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدي)، ففعلت، فأعانني أصحابي حتى فرغت، فأتيته، فكنت آتيه بالنخلة فيضعها، ويسوي عليها ترابا، فانصرف، والذي بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة، وبقي الذهب، فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من اصحابه بمثل البيضة، من ذهب أصابه من بعض المعادن، فقال: (ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب)، فقال: (أد هذه) فقلت: يا رسول الله، واين تقع هذه مما علي؟وروى أبو الطفيل، عن سلمان، قال: أعانني

رسول الله ﷺ ببيضة من ذهب، فلو وزنت بأحد لكانت أثقل منه[1].

عبد الله بن سلام:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبد الله بن سلام)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من كبار أحبار اليهود، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام، وكان اسمه الحصين، فغيره النبي ﷺ، وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبي أيوب أول ما قدم[2].

وقد حدث عن نفسه بخبر إسلامه، فقال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف له[3]، فكنت مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قدم نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة.

فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري:« لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت »، فقلت لها:« أي عمة وهو، الله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به »

ثم قالت:« يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟»، فقلت لها:« نعم »، قالت:« فذاك إذا »

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شئ سمعته يقول:« افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »[4]

وقد أخبر أنس عن السر الذي جعله يقبل على الإسلام، فقال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن خلال لا يعملهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد يترع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟

فقال ﷺ: أخبرني بهن جبريل آنفا.

فقال عبد الله: جبريل ؟قال ﷺ: نعم، فقال عبد الله: عدو اليهود من الملائكة، ثم قرأ أنس:﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:٩٧)

قال ﷺ: أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق (تسوقهم) إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسين[5]، قال الله ﷻ:﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

---

(١) رواه ابن إسحق وغيره.

(٢) كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي.

(٣) توكف الخبر: إذا انتظر، انظر: النهاية: ٥ / ٢٢١.

(٤) رواه البخاري والبيهقي عن أنس، وابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام، وأحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام، والبيقهي عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب.

(٥) أشرنا إلى الحقيقة المرادة في هذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (الاسراء: من الآية١٢) فالسواد الذي رأيت هو المحو.

فقال عبد الله: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك.

فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه، فقال:« يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا »

فقالوا: ما نعلمه.

فقال: أي رجل فيكم الحصين بن سلام؟قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال: أرأيتم إن أسلم.

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فقال ﷺ:« يا ابن سلام اخرج إليهم »

فخرج عبد الله فقال:« أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه »

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟

قال عبد الله: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها[1].

٢ ــــ أحبار من عصرنا:

قلبت بعض الصفحات، بحثا عن أسماء لأحبار من عصرنا، أو قريبين من عصرنا.

القس إسحق هلال مسيحه:

وكان من الأسماء التي وجدتها (القس إسحق هلال مسيحه) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به بعد ما سمعت بإسلامه في إطار الوظيفة التي أخبرتك عنها، وكان من تصريحاته لي قوله: حين بدأت أدرس حياة الأنبياء بدأ الصراع الفكري في داخلي وكانت أسئلتي تثير المشاكل في أوساط الطلبة مما جعل البابا (.. !؟)[3] يصدر قراراً بتعييني قسيساً قبل موعد التنصيب بعامين كاملين، لإغرائي وإسكاتي فقد كانوا يشعرون

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) هو القس المصري السابق اسحق هلال مسيحه، رئيس لجان التنصير بأفريقيا، وهو راعي كنيسة المثال المسيحي، ورئيس فخري لجمعيات خلاص النفوس المصرية بإفريقيا وغرب آسيا.

(٣) كما تعودنا في هذه السلسلة، فلن نذكر هنا جميع الأسماء المرتبطة بالمعاصرين إلا ما لا بد منه.

بمناصرتي للإسلام ــ مع أنه كان مقرراً ألا يتم التنصيب إلا بعد مرور ٩ سنوات من بداية الدراسة اللاهوتية.

ثم عيّنت رئيساً لكنيسة المثال المسيحي بسوهاج ورئيساً فخرياً لجمعيّات خلاص النفوس المصريّة ــ وهي جمعيّة تنصيريّة قويّة جدّاً ولها جذور في كثير من البلدان العربية وبالأخص دول الخليج ــ وكان البابا يغدق عليّ الأموال حتّى لا أعود لمناقشة مثل تلك الأفكار لكنّي مع هذا كنت حريصاً على معرفة حقيقة الإسلام، ولم يخبو النور الإسلامي الذي أنار قلبي فرحاً بمنصبي الجديد بل زاد.

قلت: فكيف بدأت علاقتك بالمسلمين؟

قال: بدأت علاقتي مع بعض المسلمين سراً، حيث بدأت أدرس وأقرأ عن الإسلام، وقد طُلب منّي إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان، وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمي في مصر سنة ١٩٧٥، واستغرقت في إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف يعترض على ما جاء في الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وأميته وتبشير المسيح بمجيئه.

وأخيراً تمّت مناقشة الرّسالة في الكنيسة الإنكليكيّة بالقاهرة، واستغرقت المناقشة تسع ساعات وتركزت حول قضيّة النّبوّة والنّبي ﷺ علماً بأن الآيات صريحة في الإشارة إلى نبوّته وختم النّبوّة به.

قلت: فهل منحوك هذه الرسالة مع هذا؟

قال: نعم منحوني الرسالة بيد، وأخذوها مني باليد الأخرى.. لقد صدر قرار البابا بسحب الرسالة منّي وعدم الاعتراف بها.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: أخذت أفكر في أمر الإسلام تفكيراً عميقاً حتّى تكون هدايتي عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول على الكتب الإسلامية، فقد شدّد (.. !؟) الحراسة عليّ وعلى مكتبتي الخاصّة.

قلت: فكيف وصلت إلى أشعة محمد مع هذا التضييق؟

ابتسم، وقال: أصدقك القول.. إنهم كلما ضيقوا على الإسلام، كلما اتسع وازداد انتشاره..

في يوم من أيام عام ١٩٧٨م كنت ذاهباً لإحياء مولد العذراء بالإسكندريّة، وأثناء ركوبي في الحافلة بملابسي الكهنوتية، وبصليب يزن ربع كيلو من الذهب الخالص وعصاي الكرير صعد صبيّ صغير يبيع كتيبات صغيرة، فوزعها على كلّ الركّاب ماعدا أنا.

عندما انتهى من التوزيع والجمع، فباع ما باع وجمع الباقي، قلت له:« يا بنيّ لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا »، فقال:« لا يا أبونا أنت قسيس »

وهنا شعرت، وكأنّني لست أهلاً لحمل هذه الكتيّبات مع صغر حجمها.. فألححت عليه ليبيعني منها، فقال:« لا هذه كتب إسلاميّة » ثم نزل.

وبنزول هذا الصّبي من الحافلة شعرت وكأنّني جوعان، وفي هذه الكتب شبعي، وكأنّني عطشان وفيها شربي.. نزلت خلفه، فجرى خائفاً منّي، فنسيت من أنا وجريت وراءه حتّى حصلت على كتابين.

عندما وصلت إلى الكنيسة الكبرى بالعبّاسيّة (الكاتدرائيّة المرقسيّة) ودخلت إلى غرفة النّوم المخصّصة

بالمدعوّين رسميّاً كنت مرهقاً من السفر، ولكن عندما أخرجت أحد الكتابين، وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصري على سورة الإخلاص، فأيقظت عقلي وهزت كياني..

لقد بدأت أرددها حتى حفظتها، وكنت أجد في قراءتها راحة نفسية واطمئناناً قلبياً وسعادة روحية، وبينا أنا كذلك إذ دخل عليّ أحد القساوسة وناداني:« أبونا إسحاق»، فخرجت وأنا أصيح في وجهه:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ دون شعور منّي.

بعد ذلك ذهبت إلى الإسكندريّة لإحياء أسبوع مولد العذراء يوم الأحد.. وأثناء صلاة القداس المعتاد، وفي فترة الراحة ذهبت إلى كرسي الاعتراف لكي أسمع اعترافات الشعب الجاهل الذي يؤمن بأن القسيس بيده غفران الخطايا.

ومن ضمن من جاء امرأة تعض أصابع الندم، وهي تقول:« إني انحرفت ثلاث مرات، وأنا أمام قداستك الآن أعترف لك رجاء أن تغفر لي، وأعاهدك ألا أعود لذلك أبداً ».. ومن العادة المتبعة أن يقوم الكاهن برفع الصليب في وجه المعترف ويغفر له خطاياه.

وما كدت أرفع الصليب لأغفر لها حتى وقع ذهني على العبارة القرآنية الجميلة:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فعجز لساني عن النطق، وبكيت بكاءً حارّاً، وقلت:« هذه جاءت لتنال غفران خطاياها منّي فمن يغفر لي خطاياي يوم الحساب والعقاب»

هنا أدركت أن هناك كبير أكبر من كل كبير، إله واحدٌ لا معبود سواه.

ذهبت على الفور للقاء الأسقف وقلت له:« أنا أغفر الخطايا لعامة الناس، فمن يغفر لي خطاياي»، فأجاب دون اكتراث:« البابا »، فسألته:« ومن يغفر للبابا »، فانتفض جسمه ووقف صارخاً وقال:« أنت قسيس مجنون، والذي أمر بتنصيبك مجنون حتّى وإن كان البابا، لأنّنا قلنا له لا تنصّبه لئلاّ يفسد الشعب بإسلاميّاته وفكره المنحل » بعد ذلك صدر قرار البابا بحبسي في دير (ماري مينا) بوادي النطرون.

قلت: أحصل هذا !؟

قال: حصل ما هو فوق هذا.. لقد أخذوني معصوب العينين، وهناك استقبلني الرهبان استقبالاً عجيباً كالوا لي فيه صنوف العذاب علماً بأنّني حتّى تلك اللحظة لم أسلم، كل منهم يحمل عصا يضربني بها وهو يقول:« هذا ما يصنع ببائع دينه وكنيسته»

استعملوا معي كل أساليب التعذيب الذي لا تزال آثاره موجودةً على جسدي، وهي خير شاهدٍ على صحّة كلامي حتّى أنّه وصلت بهم أخلاقهم اللاإنسانيّة أنهم كانوا يدخلون عصا المقشّة في دبري يوميّاً سبع مرّات في مواقيت صلاة الرهبان لمدّة سبعة وتسعين يوماً، وأمروني بأن أرعى الخنازير.

وبعد ثلاثة أشهر أخذوني إلى كبير الرهبان لتأديبي دينياً وتقديم النصيحة لي، فقال:« يا بنيّ.. إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، اصبر واحتسب. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب »، قلت في نفسي ليس هذا الكلام من الكتاب المقدس ولا من أقوال القديسين.

وما زلت في ذهولي بسبب هذا الكلام حتى رأيته يزيدني ذهولاً على ذهول بقوله:« يا بنيّ نصيحتي لك

السر والكتمان إلى أن يعلن الحق مهما طال الزمان »

لقد احترت في المعني الذي يشير إليه هذا الرجل، وهو كبير الرهبان، و لم يطل بي الوقت حتى فهمت تفسير هذا الكلام المحيّر.

لقد دخلت عليه ذات صباح لأوقظه فتأخر في فتح الباب، فدفعته ودخلت، وكانت المفاجأة الكبرى التي كانت نوراً لهدايتي لهذا الدين الحق دين الوحدانيّة عندما شاهدت رجلاً كبيراً في السنّ ذا لحية بيضاء، وكان في عامة الخامس والستّين، وإذا به قائماً يصلي صلاة المسلمين (صلاة الفجر).

تسمرتُ في مكاني أمام هذا المشهد الذي أراه، ولكنّي انتبهت بسرعة عندما خشيت أن يراه أحد من الرهبان، فأغلقت الباب.

جاءني بعد ذلك وهو يقول:« يا بنيّ استر عليّ ربّنا يستر عليك »، ثم أضاف:« أنا منذ ٢٣ سنة على هذا الحال.. غذائي القرآن.. وأنيس وحدتي توحيد الرحمن.. ومؤنس وحشتي عبادة الواحد القهّار.. الحقّ أحقّ أن يتّبع يا بنيّ »

بعد أيّام صدر أمر البابا برجوعي لكنيستي بعد نقلي من سوهاج إلى أسيوط، لكن الأشياء التي حدثت مع سورة الإخلاص وكرسي الاعتراف والراهب المتمسّك بإسلامه جعلت في نفسي أثراً كبيراً، لكني كنت محتارا ماذا أفعل، وأنا محاصر من الأهل والأقارب وممنوع من الخروج من الكنيسة بأمر (.. !؟)

بعد مرور عام، جاءني خطاب يأمرني بالذهاب كرئيس للّجنة المغادرة إلى السودان في رحلة تنصيريّة، فذهبنا إلى السودان في الأوّل من سبتمبر ١٩٧٩م وبقينا به ثلاثة شهور، وحسب التعليمات البابويّة بأن كلّ من تقوم اللجنة بتنصيره يسلّم مبلغ ٣٥ ألف جنيه مصريّ بخلاف المساعدات العينيّة، فكانت حصيلة الذين غرّرت بهم اللجنة تحت ضغط الحاجة والحرمان خمسة وثلاثين سودانيّاً من منطقة واو في جنوب السودان.

وبعد أن سلّمتُهم أموال المنحة البابويّة اتّصلت بالبابا من مطرانيّة أم درمان فقال:« خذوهم ليروا المقدسات المسيحيّة بمصر (الأديرة)»، وتم خروجهم من السودان على أساس أنهم عمّال بعقود للعمل بالأديرة لرعي الإبل والغنم والخنازير وتم عمل عقود صوريّة حتّى تتمكّن لجنة التنصير من إخراجهم إلى مصر.

بعد نهاية الرحلة، وأثناء رجوعنا بالباخرة في النّيل، قمت أتفقّد المتنصرين الجدد وعندما فتحت بعض الأبواب على الباخرة، فوجئت بأن المتنصر الجديد الذي أطلقنا عليه عبد المسيح (وكان اسمه محمّد آدم) يصلّي صلاة المسلمين.

تحدّثت إليه فوجدته متمسّكاً بعقيدته الإسلاميّة، فلم يغره المال، و لم يؤثّر فيه بريق الدنيا الزائل.. ومما أذكره أني قلت له:« يا عبد المسيح لماذا تصلّي صلاة المسلمين بعد تنصّرك ؟! »، فقال:« بعت لكم جسدي بأموالكم، أمّا قلبي وروحي وعقلي فملك الله الواحد القهّار لا أبيعهم بكنوز الدنيا وأنا أشهد أمامك بأن لا إله إلا الله وأنّ محمّد رسول الله »

بعد هذه الأحداث التي أنارت لي طريق الإيمان، وهدتني لأعتنق الإسلام وجدت صعوبات كثيرة في إشهار إسلامي نظراً لأنّي قس كبير ورئيس لجنة التنصير في إفريقيا، وقد حاولوا منع ذلك بكل الطرق لأنه بالنسبة لهم

فضيحة كبيرة.

ذهبت لأكثر من مديريّة أمن لأشهر إسلامي، وخوفاً على الوحدة الوطنيّة أحضرتْ لي مديريّة الشرقيّة فريقاً من القساوسة والمطارنة للجلوس معي، وهو المتّبع بمصر لكل من يريد اعتناق الإسلام.

هدّدتني اللجنة المكلّفة من ٤ قساوسة و٣ مطارنة بأنها ستأخذ كلّ أموالي وممتلكاتي المنقولة والمحمولة والموجودة في البنك الأهلي المصري ــ فرع سوهاج وأسيوط والتي كانت تقدّر بحوالي ٤ مليون جنيه مصريّ، وثلاثة محلات ذهب، وورشة لتصنيع الذهب بحارة اليهود وعمارة مكوّنة من أحد عشر طابق بالقاهرة ــ فتنازلت لهم عنها كلّها، فلا شئ يعدل لحظة الندم التي شعرت بها، وأنا على كرسي الاعتراف.

بعدها كادت لي الكنيسة العداء، وأهدرت دمي فتعرضت لثلاث محاولات اغتيال من أخي وأولاد عمّي، فقاما بإطلاق النّار عليّ في القاهرة، وأصابوني في كليتي اليسرى والّتي تم استئصالها في مستشفى القصر العيني والحادث قيّد بالمحضر رقم ١٩٨٦/١٧٦٢ بقسم قصر النّيل مديريّة أمن القاهرة بتاريخ ١٩٨٦/١١/١١م.

ليس هذا فقط.. بل إن أبواي لما علما بإسلامي أقدما على الانتحار، فأحرقا نفسيهما، والله المستعان.

إبراهيم خليل فلوبوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إبراهيم خليل فلوبوس)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أشهر من نار على علم..كان أستاذا بكلية اللاهوت الإنجيلية.. وقد نشأ في الكنيسة.. وترقى في مدارس اللاهوت.. وتبوأ مكانة مرموقة في سلم التنصير..

قلت: فحدثني عن لقائك به، وحديثك معه.

قال: لقد تشرفت بالالتقاء به، والحديث معه عن سر إسلامه، وكان مما ذكره لي قوله: ولدت في الإسكندرية عام ١٩١٩.. ونشأت فيها نشأة نصرانية ملتزمة وتهذبت في مدارس الإرسالية الأمريكية، وتصادف وصولي مرحلة (الثقافة) المدرسية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتعرض مدينة الإسكندرية لأهوال قصف الطائرات.. فاضطررنا للهجرة إلى أسيوط حيث استأنفت في كليتها، وقد دفعتني أخبار الحرب والنكبات لأن أنظر إلى العالم نظرة أعمق قادتني للاتجاه إلى دعوة السلام وإلى الكنيسة.. التي كانت ترصد رغباتي وتؤجج توجهاتي.. فالتحقت بكلية اللاهوت سنة ١٩٤٥م وأمضيت فيها ثلاث سنين.

قلت: الأصل في مثل هذه الكلية أن تعمق فيك التوجه للمسيحية..

قال: أجل.. ذلك صحيح.. لقد درسنا مقدمات العهد القديم والجديد، والتفاسير والشروحات وتاريخ

---

(١) إبراهيم خليل أحمد قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية. عمل أستاذاً بكلية اللاهوت بأسيوط. كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيرًا عامًا للإرسالية الألمانية السويسرية. وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه رسميًا عام ١٩٥٩. كتب العديد من المؤلفات، أبرزها ولا ريب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، و(تاريخ بني إسرائيل)، و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك اسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(الغفران بين المسيحية والإسلام)

الكنيسة.. ولكنا لم نكتف بذلك، فنظام الكلية يدرس تاريخ الحركة التنصيرية وعلاقتها بالمسلمين، ولهذا درسنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتركزت دراستنا على بعض الفرق التي انحرفت عن الإسلام أمثال الإسماعيلية، والعلوية، والقاديانية، والبهائية ...

قلت: أكانت هذه الدراسة لمجرد الاطلاع العلمي؟

قال: لا.. لا يمكن أن تهدف كلية مثل تلك الكلية لهذا الهدف النبيل.. لقد كانوا يهيئوننا للحوار المستقبلي مع المسلمين، لنستخدم معرفتنا لنحارب القرآن بالقرآن، والإسلام بالنقاط السوداء في تاريخ المسلمين.

لقد كنا نحاور الأزهريين وأبناء الإسلام بالقرآن لنفتنهم، فنستخدم الآيات مبتورة عن سياقها، لنخدم أهدافنا.. لقد كان لدينا في هذا كتب ننهل منها..

قلت: منها.. !؟

قال: هي كثيرة.. لعل أهمها كتاب (الهداية) وهو في ٤ أجزاء، و(مصدر الإسلام).. إضافة إلى استعانتنا واستفادنا من كتابات علماء الاستشراق أمثال طه حسين الذي استفادت الكنيسة من كتابه (الشعر الجاهلي) مائة في المائة، وكان طلاب كلية اللاهوت يعتبرونه من الكتب الأساسية لتدريس مادة الإسلام.

وعلى هذا المنهج كانت رسالتي في الماجستير تحت عنوان (كيف ندمر الإسلام بالمسلمين) سنة ٥٢ والتي أمضيت ٤ سنوات في إعدادها من خلال الممارسة العملية للوعظ والتنصير بين المسلمين من بعد تخرجي عام ٤٨.

قلت: أنا أعجب لك.. كيف يمكن لرجل يكتب مثل هذه الرسالة، ويتوجه هذا التوجه ينقلب ذلك الانقلاب الذي انقلبته.

قال: لا تعجب.. فالهداية من الله وبالله.. لقد من الله علي، فتعرضت لشمس النبوة التي نسخت تلك الأحقاد التي ملأتنا بها الكنيسة.

قلت: فحدثني كيف أشرقت عليك أنوار الهداية.

قال: في مؤتمر تبشيري دعيت للكلام، فأطلت الكلام في ترديد كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي بدأت أسأل نفسي: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أنني كاذب ؟! واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر، خرجت وحدي متجهاً إلى بيتي، كنت مهزوزاً من أعماقي، متأزماً للغاية، وفي البيت قضيت الليل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن، ووقفت طويـــــلاً عنـــد الآية الكريمة:﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)

في تلك الليلة اتخذت قرار حياتي فأسلمت، ثم انضم إلي جميع أولادي، وكان أكثرهم حماساً ابني الأكبر (أسامة) وهو دكتور في الفلسفة، ويعمل أستاذاً لعلم النفس في جامعة السوربون.. وبإسلامهم زادت بيوت الإسلام بيتاً.

قلت: تلك النهاية التي انتهيت إليها، وأنا أسألك عن البداية.

قال: في شهر يونيو تقريباً عام ١٩٥٥م استمعت إلى قول الله سبحانه:﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ (سورة الجن).. هذه الآية الكريمة من الغريب أنها رسخت في القلب، ولما رجعت إلى البيت سارعت إلى المصحف وأمسكته وأنا في دهشة من هذه السورة..

قلت: لقد كنت تقرأ القرآن من قبل، بل تستخدمه لحرب القرآن والإسلام، فكيف أثرت فيك هذه الآيات خصوصا.

قال: لست أدري.. ربما كنت حينها في لحظة من لحظات الصدق.. أو ربما أشرقت علي حينها شمس الهداية..

في ذلك الحين تحولت إلى إنسان آخر.. لقد عدت لأقرأ القرآن بغير النية التي كنت أقرؤه بها.. فاستوقفني قوله ﷻ:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).. وقوله ﷻ:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾(الصف:٦)

هذه النصوص جعلتني أرجع للكتاب المقدس لأتأكد مما يذكره القرآن..

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد ظللت لعدة سنوات أدرس هذه التنبؤات إلى أن وجدتها حقيقة لم يمسها التبديل والتغيير، لأن بني إسرائيل ظنوا أن النبوة لن تخرج عن دائرتهم..

على سبيل المثال جاء في (سفر التثنية) وهو الكتاب الخامس من كتب التوراة (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)[1] توقفت أولاً عند كلمة (إخوتهم) وتساءلت: هل المقصود هنا من بني إسرائيل؟لو كان كذلك لقال (من أنفسهم) أما وقد قال (من وسط إخوتهم) فالمراد بها أبناء العمومة، ففي سفر التثنية (إصحاح ٢ عدد ٤) يقول الله لسيدنا موسى عليه السلام:(أنتم مارون بتخم إخوتكم بني عيسو ...) و(عيسو) هذا الذي نقول عنه في الإسلام (العيس) هو شقيق يعقوب عليه السلام، فأبناؤه أبناء عمومة لبني إسرائيل، ومع ذلك قال (إخوتكم) وكذلك أبناء (إسحق) وأبناء (إسماعيل) هم أبناء عمومة، لأن (إسحق) شقيق (إسماعيل) عليهما السلام ومن (إسحق) سلالة بني إسرائيل، ومن (إسماعيل) كان (قيدار) ومن سلالته كان سيدنا محمد ﷺ، وهذا الفرع الذي أراد بنو إسرائيل إسقاطه وهو الذي أكدته التوراة حين قالت (من وسط إخوتهم) أي من أبناء عمومتهم.

وتوقفت بعد ذلك عند لفظة (مثلك) ووضعت الأنبياء الثلاثة: موسى، وعيسى، ومحمد ــ عليهم الصلاة والسلام ــ للمقابلة فوجدت أن عيسى عليه السلام مختلف تمام الا ختلاف عن موسى وعن محمد ــ

(١) انظر تفاصيل الاستدلال بهذه النبوة في رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

عليهما الصلاة والسلام ـــ وفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها والتي نرفضها بالطبع، فهو الإله المتجسد، وهو ابن الله حقيقة، وهو الأقنوم الثاني في الثالوث، وهو الذي مات على الصليب.. أما موسى عليه السلام فكان عبدالله، وموسى كان رجلاً، وكان نبياً، ومات ميتة طبيعية ودفن في قبر كباقي الناس وكذلك سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وإذاً فالتماثل إنما ينطبق على محمد ﷺ، بينما تتأكد المغايرة بين المسيح وموسى ـــ عليهما السلام ـــ ووفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها!فإذا مضينا إلى بقية العبارة: (وأجعل كلامي في فمه..) ثم بحثنا في حياة محمد ﷺ فوجدناه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ثم لم يلبث أن نطق بالقرآن الكريم المعجزة فجأة يوم أن بلغ الأربعين.. وإذا عدنا إلى نبوءة أخرى في التوراة سفر أشعيا إصحاح ٧٩ تقول:(أو يرفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ولا الكتابة ويقول له اقرأ، يقول ما أنا بقارىء..) لوجدنا تطابقاً كاملاً بين هاتين النبوءتين وبين حادثة نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، ونزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق)

قلت: هذا عن التوراة، فماذا عن الإنجيل؟

قال: إذا استثنينا نبوءات برنابا الواضحة والصريحة ببعثة محمد ﷺ بالاسم، وذلك لعدم اعتراف الكنيسة بهذا الإنجيل أصلاً، فإن المسيح عليه السلام تنبأ في إنجيل يوحنا تسع نبوءات، و(البرقليط) الذي بشر به يوحنا مرات عديدة ... هذه الكلمة لها خمسة معاني: المعزّي، والشفيع، والمحامي، والمحمد، والمحمود، وكل هذه المعاني ينطبق على سيدنا رسول الله ﷺ تمام الانطباق فهو المعزّي المواسي للجماعة التي على الإيمان وعلى الحق من بعد الضياع والهبوط، وهو المحامي والمدافع عن عيسى ابن مريم عليه السلام وعن كل الأنبياء والرسل بعدما شوه اليهود والنصارى صورهم وحرفوا ما أتوا به وهو الإسلام.. ولهذا جاء في إنجيل يوحنا [١٤ /١٦ و١٧] (أنا أصلي إلى الله ليعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق).. وقال في نبوءة أخرى (١٦ /١٣ ـــ ١٤] (وأما متى جاء ذاك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به. ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني)

لقد وجدت أن هذه النبوءة تنطبق تماما على قوله ﷻ:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف:١١٠)

قلت: فقد كانت البشارات التي وردت في الكتاب المقدس هي دليلك إلى الإسلام.

قال: لقد كانت بعض أدلتي.. وإن شئت قل: لقد كانت هي منبهي الأول الذي جعلني أبحث عن الحقيقة.. فقد انطلقت منها إلى مقارنات جادة بين الإسلام والمسيحية.. وقد كات تلك المقارنات هي الأساس الذي بني عليه إسلامي.

قلت: فحدثني عن بعض مقارناتك.

استجمع ذهنه قليلا، ثم قال: لقد قرأت بتأمل قوله ﷻ:﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(الزمر:٥٣)..ثم قارنت بينها وبين ما

ورد في الإنجيل عن الغفران:(بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) وبالقول: (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية).

قارنت بين العقيدتين.. فعرفت أن المغفرة في عقيدتنا مقيدة بقيود: من جانب الله ببذل ابنه الحبيب، ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الابن.

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنيسية تعرف بسرّ الشكر، وفيها يؤمن المسيحي باستحالة الخبز إلى جسد المسيح واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية، ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران.. إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهي الذي ندّد به زعماء الإصلاح في القرن الخامس عشر.. فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادي، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة[1].

قلت: هل هناك مقارنة غيرها جعلتك تؤثر الإسلام؟

قال: كثيرة هي مقارناتي.. منها أني قرأت قول الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(الحجرات:١٣)، ثم قارنته بما جاء بالإنجيل: (إذن لسنا أولاد جارية، بل أولاد حرة)

لقد زال عني بتلك المقارنة العجب عن التفرقة العنصرية عند الأمريكيين في أيامنا هذه بين البيض والسود، وزاد إعجابي وإجلالي للمسلمين.. فسيد القوم عندهم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، راكعين ساجدين، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين في هذا التساند الجميل والتآخي الحبيب[2].

بالإضافة إلى هذا، فقد استوقفني كثيرًا نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام.. إن التوحيد يجعلني عبدًا لله وحده لست عبدًا لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يجرّد الإنسان ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده.

بالإضافة إلى هذا، فإن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة.

قلت: ألا تزال تذكر اللحظة التي أعلنت فيها عن إسلامك؟

قال: لن أنسى ذلك ما حييت..

قلت: فحدثني عنها..

قال: بعد أن وصلت إلى اليقين وتلمست الحقائق بيدي كان عليّ أن أتحدث مع أقرب الناس إلي.. وكان أقربهم إلي زوجتي.. لكن الحديث تسرب عن طريقها إلى الإرسالية للأسف، وسرعان ما تلقفوني ونقلوني إلى المستشفى وتحت مراقبة صارمة مدعين أني مختل العقل.. ولأربعة شهور تلت عشت معاناة شديدة جداً، ففرقوا

---

(١) انظر: محمد في التوراة، ص ١٠ – ١١، بتصرف.

(٢) محمد في التوراة، ص ١١.

بيني وبين زوجتي وأولادي، وصادروا مكتبتي وكانت تضم أمهات الكتب والموسوعات ... حتى اسمي كعضو في مجمع أسيوط، وفي مؤتمر (سنودس) شُطب، وضاع ملفي كحامل ماجستير من كلية اللاهوت ... ومن المفارقات العجيبة أن الإنجليز في هذه الآونة كانوا قد خلعوا الملك طلال من عرش الأردن بتهمة الجنون ... فخشيت أن يحدث معي الأمر ذاته.. لذلك التزمت الهدوء والمصابرة وصمدت حتى أطلق سراحي، فقدمت استقالتي من الخدمة الدينية، واتجهت للعمل في شركة أمريكية للأدوات المكتبية، لكن الرقابة هناك كانت عنيفة جداً، فالكنيسة لا تترك أحداً من أبنائها يخرج عليها ويسلم، إما أن يقتلوه أو يدسوا عليه الدسائس ليحطموا حياته.. وفي المقابل لم يكن المجتمع المسلم حينذاك يقدر على مساعدتي ... ففي حقبة الخمسينات والستينات كان الانتماء للإسلام والدفاع عنه لا يعني إلا الضياع!

لذلك كان عليّ أن أكافح قدر استطاعتي، فبدأت العمل التجاري، وأنشأت مكتباً تجارياً هرعت بمجرد اكتماله للإبراق إلى (د. جون تومسون) رئيس الإرسالية الأمريكية حينذاك، وكان التاريخ هو الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٥٩ والذي يوافق الكريسماس، وكان نص البرقية: (آمنت بالله الواحد الأحد، وبمحمد نبياً ورسولاً) لكن إشهار اعتناقي الرسمي للإسلام كان يفترض عليّ وفق الإجراءات القانونية أن ألتقي بلجنة من الجنسية التي أنا منها لمراجعتي ومناقشتي.

وفي الوقت الذي رفضت جميع الشركات الأوربية والأمريكية التعامل معي تشكلت اللجنة المعنية من سبعة قساوسة بدرجة الدكتوراه.. خاطبوني بالتهديد والوعيد أكثر من مناقشتي!وبالفعل تعرضت للطرد من شقتي لأنني تأخرت شهرين أو ثلاثة عن دفع الإيجار، واستمرت الكنيسة تدس علي الدسائس أينما اتجهت.. وانقطعت أسباب تجارتي.. لكني مضيت على الحق الذي اعتنقته ... إلى أن قدر الله أن تبلغ أخباري وزير الأوقاف حينذاك عبدالله طعيمة، والذي استدعاني لمقابلته وطلب مني بحضور الأستاذ الغزالي المساهمة في العمل الإسلامي بوظيفة سكرتير لجنة الخبراء في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ولما بلغت الستين، بدأت عملي كداعية إسلامي متفرغ، وكان أول ما نصرني الله به أن ألتقيت مع الدكتور جميل غازي ــ رحمه الله ــ بــ ١٣ قسيساً بالسودان في مناظرة مفتوحة انتهت باعتناقهم الإسلام جميعاً، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألوف من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم.

يوسف استس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (يوسف استس) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيت به في رحلاتي التي وصفتها لك، وقد دار بيني وبينه هذا الحوار:

قلت له: من أنت؟

---

(١) انظــر: عنــوان موقعــه: www.todayislam.com لقــاء صــوتي معــه: الجــزء الأول: http://www.alhakekah.com/converts/yousef١.mp٣ الجــزء الثــاني: http://www.alhakekah.com/converts/yousef٢.mp٣

قال: كنت جوزيف إدوارد إستس، وأنا اليوم يوسف استس..

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: عظيم.. عظيم جدا.. إنه كالفرق بين القرآن والكتاب المقدس.. وكالفرق بين المسجد والكنيسة.. وكالفرق بين الحق والباطل.

قلت: أنا لم أنطق إلا باسمك الذي سماك به أبوك وأمك.

قال: ذلك في ولادتي الأولى.

قلت: فهل ولدت ولادة ثانية؟

قال: لا يدخل الملكوت من لم يولد ولادة ثانية تخرجه من ربقة التقليد لتدخل في حضرة الله..

قلت: كيف ولدت الولادة الثانية.. وما مخاضها؟

قال: تلك قصة طويلة سأختصرها لك اختصارا.

أصخت بسمعي، فراح يحدثني بحرارة مشوبة بإيمان عظيم قائلا: أنا من الغرب الأوسط لأمريكا.. ولدت لعائلة نصرانية شديدة الالتزام بالنصرانية.. فآباؤنا وأجدادنا لم يبنوا الكنائس والمدارس فحسب، بل وهبوا أنفسهم لخدمة النصرانية.

بدأت بالدراسة الكنسية عندما اكتشفت أني لا أعلم كثيراً عن ديني، وبدأت أسأل أسئلة دون أن أجد أجوبة مناسبة لها، فدرست النصرانية حتى صرت قسيساً وداعياً من دعاة النصرانية، ومثل ذلك والدي..

وقد كنا بالإضافة إلى ذلك نعمل بالتجارة في الأنظمة الموسيقية، وبيعها للكنائس، وعلى مدى ٣٠ سنة لاحقة، عملت أنا وأبي معاً في مشاريع تجارية كثيرة، وكان لدينا برامج ترفيه وعروض كثيرة جذابة، وقد عزفنا البيانو والأورج في تكساس واوكلاهما وفلوريدا، وجمعت العديد من ملايين الدولارات في تلك السنوات.

قلت: فهل اقتصرت دراستك على النصرانية؟

قال: لا.. لقد درست الهندوسية واليهودية والبوذية..

قلت: والإسلام !؟

قال: لقد كنت أبغض الإسلام والمسلمين بغضا شديدا.. فالصورة المشوهة التي وصلتني، وارتسمت في ذهني عن المسلمين من أنهم أناس وثنيون لا يؤمنون بالله وأنهم يعبدون صندوقاً أسوداً في الصحراء وأنهم همجيون وإرهابيون يقتلون من يخالف معتقدهم.. كل ذلك ملأ قلبي بغضا للإسلام والمسلمين.

قلت: فكيف تمكن الإسلام من قلبك وقد وصدت دون هدايته قلبك بحجب البغض؟

قال: مفاتيح القلوب بيد الله.. وقد شاء الله أن يفتح قلبي للإسلام، ويخلصني من تلك الأحقاد التي كانت تملأ قلبي.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: كان ذلك في عام ١٩٩١، عندما بدأ والدي عملاً تجارياً مع رجل من مصر وطلب مني أن أقابله، طرأت لي هذه الفكرة وتخيلت الأهرامات وأبو الهول ونهر النيل وكل ذلك، ففرحت في نفسي وقلت: سوف

نتوسع في تجارتنا، وتصبح تجارة دولية تمتد إلى أرض أبي الهول.. ذلك الضخم الجاثي على أرض مصر، ليملأ القلوب منها بالمهابة.

لكن والدي ــ وهو يعلم بغضي للإسلام ــ صارحني بأنه من الضروري أن نلتقي مع رجل أعمال مصري مسلم.. فقلت مترعجاً: مسلم !! لا.. لن أقابله.

فقال والدي: لابد أن تقابله.

قلت: لا.. أبداً.

لم يكن من الممكن أن أصدق أو أقبل أن أحاور مسلما.. ولهذا ذكرت أبي بما سمعنا عن هؤلاء المسلمين، وأنهم يعبدون صندوقاً أسود في صحراء مكة.

لكن والدي أصر على أن أقابله، وأخبرني أنه شخص لطيف جداً، لذا استسلمت ووافقت على لقائه، ومع ذلك لما حضر موعد اللقاء أردت أن أغيظه، فلبست قبعة عليها صليب، ولبست عقداً فيه صليب، وعلقت صليباً كبيراً في حزامي، وأمسكت بنسخة من الإنجيل في يدي، وحضرت إلى طاولة اللقاء بهذه الصورة.

لكني عندما رأيته ارتبكت.. فلم تكن هيئته هيئة ذلك المسلم الذي كان يخطر على بالي.. لقد بدأ مرحباً بنا وصافحنا، ولكن ذلك لم يعنِ لي شيئاً، فمازالت صورة المسلم الإرهابي تطغى على موقفي.

تطرقنا في الحديث عن ديانته، وتهجمت على الإسلام والمسلمين حسب الصورة المشوهة التي كانت لدي، وكان هو هادئاً جداً وامتص حماسي واندفاعي ببرودته.. وقد كان ذلك السلوك هو البداية لإسلامي.

بادرت إلى سؤاله: هل تؤمن بالله؟

قال: أجل..

قلت: ماذا عن ابراهيم.. هل تؤمن به؟.. وهل تؤمن بمحاولته التضحية بابنه لله؟

قال: نعم..

قلت في نفسي: هذا جيد سيكون الأمر أسهل مما اعتقدت..

ثم ذهبنا لتناول الشاي في محل صغير، والتحدث عن المعتقدات.. فهي موضوعي المفضل.. وبقينا نتحدث لساعات.. وقد كان معظم الكلام لي، وقد وجدته لطيفاً جداً، وهادئا وخجولاً، استمع بانتباه لكل كلمة، و لم يقاطعني أبداً.

وفي يوم من الأيام كان هذا الرجل، واسمه محمد عبد الرحمن على وشك أن يترك المترل الذي كان يتقاسمه مع صديق له، وكان يرغب أن يعيش في المسجد لبعض الوقت.

حدثت أبي إن كان بالامكان أن ندعو محمدا للذهاب إلى بيتنا الكبير في البلدة ويبقى هناك معنا.. ثم دعاه والدي للإقامة عندنا في المترل، وكان بالمترل أنا وزوجتي ووالدي، ثم جاء هذا المسلم المصري، واستضفنا كذلك قسيساً آخر لكنه يتبع المذهب الكاثوليكي، فصرنا خمسة.. أربعة من علماء ودعاة النصارى، ومسلم مصري عامي.

أما أنا ووالدي، فكنا من المذهب البروتستانتي.. والقسيس الآخر كان كاثوليكيا.. أما زوجتي، فكانت

من مذهب البورنجين، وهو مذهب متعصب له ميول صهيونية.

وكان لكل منا ثقافته الكنسية القوية.. فوالدي قرأ الإنجيل منذ صغره، وصار داعية وقسيساً معترفا به في الكنيسة، والقسيس الكاثوليكي له خبرة ١٢ عاماً في دعوته في القارتين الأمريكيتين، وأنا نفسي درست الإنجيل والمذاهب النصرانية واخترت بعضاً منها أثناء حياتي وانتهيت من حصولي على شهادة الدكتوراة في العلوم اللاهوتية.

وهكذا انتقل للعيش معنا، وكان لدي الكثير من المنصرين في ولاية تكساس، وكنت أعرف أحدهم، كان مريضاً في المستشفى، وبعد أن تعافى دعوته للمكوث في مترلنا أيضاً، وأثناء الرحلة إلى البيت تحدثت مع هذا القسيس عن بعض المفاهيم والمعتقدات في الإسلام، وأدهشني عندما أخبرني أن القساوسة الكاثوليك يدرسون الإسلام، وينالون درجة الدكتوراه أحياناً في هذا الموضوع.

بعد الاستقرار في المترل بدأنا نتجمع حول المائدة بعد العشاء كل ليلة لمناقشة الديانة، وكان بيد كل منا نسخة إنجيل تختلف عن الأخرى، وكان لدى زوجتي إنجيل من نسخة جيمي سواجارت للرجل المتدين الحديث، وكان لدى القسيس بالطبع الكتاب المقدس الكاثوليكي، كما كان عنده ٧ كتب أخرى من الإنجيل البروتستانتي. وقد كان مع والدي في تلك الفترة نسخة الملك جيمس وكانت معي نسخة الريفازد إيديشن (المُراجع والمكتوب من جديد) التي تقول: إن في نسخة الملك جيمس الكثير من الأغلاط.. حيث أن قومنا لما رأوا كثرة الأخطاء في نسخة الملك جيمس اضطروا إلى كتابته من جديد وتصحيح ما رأوه من أغلاط كبيرة، لذا قضينا معظم الوقت في تحديد النسخة الأكثر صحة من هذه الأناجيل المختلفة، وركزنا جهودنا لاقناع محمد ليصبح نصرانياً.

وكنا ــ نحن النصارى في البيت ــ يحمل كل منا نسخة مختلفة من الإنجيل ونتناقش عن الاختلافات في العقيدة النصرانية وفي الأناجيل المختلفة على مائدة مستديرة، والمسلم يجلس معنا ويتعجب من اختلاف أناجيلنا.

من جانب آخر كان القسيس الكاثوليكي لديه ردة فعل من كنيسته واعتراضات وتناقضات مع عقيدته ومذهبه الكاثوليكي، فمع أنه كان يدعو لهذا الدين والمذهب مدة ١٢ سنة، لكنه لم يكن يعتقد جازماً أنه عقيدة صحيحة ويخالف في أمور العقيدة المهمة.

ووالدي كان يعتقد أن هذا الإنجيل كتبه الناس وليس وحياً من عند الله، ولكنهم كتبوه وظنوه وحياً.

وزوجتي تعتقد أن في إنجيلها أخطاء كثيرة، لكنها كانت ترى أن الأصل فيه أنه من عند الرب.

أما أنا فكانت هناك أمور في الإنجيل لم أصدقها لأني كنت أرى التناقضات الكثيرة فيه، فمن تلك الأمور أني كنت أسأل نفسي وغيري: كيف يكون الرب واحداً وثلاثة في نفس الوقت، وقد سألت القسس المشهورين عالمياً عن ذلك وأجابوني بأجوبة سخيفة جداً لا يمكن للعاقل أن يصدقها، وقلت لهم: كيف يمكنني أن أكون داعية للنصرانية وأعلّم الناس أن الرب شخص واحد وثلاثة أشخاص في نفس الوقت، وأنا غير مقتنع بذلك فكيف أقنع غيري به.

بعضهم قال لي: لا تبيّن هذا الأمر ولا توضحه، قل للناس: هذا أمر غامض ويجب الإيمان به.. وبعضهم قال لي: يمكنك أن توضحه بأنه مثل التفاحة تحتوي على قشرة من الخارج ولب من الداخل وكذلك النوى في داخلها، فقلت لهم: لا يمكن أن يضرب هذا مثلاً للرب، التفاحة فيها أكثر من حبة نوى فستتعدد الآلهة بذلك ويمكن أن يكون فيها دود فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة وأنا لا أريد رباً نتناً.

وبعضهم قال: مثل البيضة فيها قشر وصفار وبياض، فقلت: لا يصح أن يكون هذا مثلاً للرب، فالبيضة قد يكون فها أكثر من صفار فتتعدد الآلهة، وقد تكون نتنة، وأنا لا أريد أن أعبد رباً نتناً.

وبعضهم قال: مثل رجل وامرأة وابن لهما، فقلت له: قد تحمل المرأة وتتعدد الآلهة، وقد يحصل طلاق فتتفرق الآلهة وقد يموت أحدها، وأنا لا أريد رباً هكذا.

وأنا منذ أن كنت نصرانياً وقسيساً وداعية للنصرانية لم أستطع أن اقتنع بمسألة التثليث و لم أجد من يمكنه إقناع الإنسان العاقل بها.

أتذكر أنني في ذلك الحين سألت محمداً: كم نسخة من القرآن ظهرت طوال السنوات ١٤٠٠سنة الماضية؟

فأجابني أنه ليس هناك الا مصحف واحد، وأنه لم يتغير أبداً، وأكد لي أن القرآن قد حفظ في صدور مئات الآلاف من الناس، ولو بحثت على مدى قرون لوجدت أن الملايين قد حفظوه تماماً وعلموه لمن بعدهم.

وهذا لم يبد ممكناً بالنسبة لي.. كيف يمكن أن يحفظ هذا الكتاب المقدس ويسهل على الجميع قراءته ومعرفة معانيه.

كان بيننا حوار متجرد واتفقنا على أن ما نقتنع به سندين به ونعتنقه فيما بعد، وهكذا بدأنا الحوار معه، ولعل ما أثار إعجابي أثناء الحوار أن محمداً لم يتعرض للتجريح أو التهجم على معتقداتنا أو انجيلنا وأشخاصنا، وظل الجميع مرتاحين لحديثه.

وعلى العموم.. لما كنا نجلس في بيتنا ــ نحن النصارى الأربعة المتدينين ــ مع المسلم المصري (محمد) ونناقش مسائل الاعتقاد حرصنا أن ندعو هذا المسلم إلى النصرانية بعدة طرق.. فكان جوابه محدداً بقوله: أنا مستعد أن أتبع دينكم إذا كان عندكم في دينكم شيء أفضل من الذي عندي في ديني.

قلنا: بالطبع يوجد عندنا.

فقال المسلم: أنا مستعد إذا أثبتم لي ذلك بالبرهان والدليل.

فقلت له: الدين عندنا لم يرتبط بالبرهان والاستدلال والعقلانية.. إنه عندنا شيء مسلّم وهو مجرد اعتقاد محض! فكيف نثبته لك بالبرهان والدليل؟!

فقال المسلم: لكن الإسلام دين عقيدة وبرهان ودليل وعقل ووحي من السماء.

فقلت له: إذا كان عندكم الاعتماد على جانب البرهان والاستدلال، فإني أحب أن أستفيد منك وأن أتعلم منك هذا وأعرفه.

بعدها تطرقنا لمسألة التثليث، وكل منا قرأ ما في نسخته ولم نجد شيئاً واضحا[1]، سألنا محمد: ما هو اعتقادكم في الرب في الإسلام؟

فقرأ سورة الإخلاص، تلاها بالعربية ثم ترجم لنا معانيها.. وكأن صوته حين تلاها بالعربية دخل في قلبي.. بل إن صوته لا زال يرن صداه في أذني، ولاأزال أذكره.. أما معناها فلا يوجد أوضح ولا أفضل ولا أقوى ولا أوجز ولا أشمل منه إطلاقاً.

لقد كان هذا الأمر مثل المفاجأة القوية لنا.. مع ما كنا نعيش فيه من ضلالات وتناقضات في هذا الشأن وغيره.

ولما أردت دعوته للنصرانية قال لي بكل هدوء ورجاحة عقل: إذا أثبت لي بأن النصرانية أحق من الإسلام سأتبعك على دينك الذي تدعو إليه.

فقلت له: متفقين.

فقال: أين الأدلة التي تثبت أفضلية دينكم وأحقيته؟

قلت: نحن لا نؤمن بالأدلة، ولكن بالإحساس والمشاعر، ونلتمس ديننا وما تحدثت عنه الاناجيل.

قال محمد: ليس كافياً أن يكون الإيمان بالإحساس والمشاعر والاعتماد على علمنا، ولكن الإسلام فيه الدلائل والأحاسيس والمعجزات، التي تثبت أن الدين عند الله الإسلام.

طلبت هذه الدلائل من محمد، والتي تثبت أحقية الدين الإسلامي، فقال: إن أول هذه الأدلة هو كتاب الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم الذي لم يطرأ عليه تغيير أو تحريف منذ نزوله على سيدنا محمد ﷺ قبل ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، وهذا القرآن يحفظه كثير من الناس، إذ ما يقرب من ١٢ مليون مسلم يحفظون هذا الكتاب، ولا يوجد أي كتاب في العالم على وجه الأرض يحفظه الناس كما يحفظ المسلمون القرآن الكريم من أوله لآخره.. وهذا مصدق لقوله ﷻ:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، وهذا الدليل كاف لإثبات أن الدين عند الله الإسلام.

من ذلك الحين بدأتُ البحث عن الأدلة الكافية، التي تثبت أن الإسلام هو الدين الصحيح، وذلك لمدة ثلاثة شهور بحثاً مستمراً.. بعد هذه الفترة وجدت في الكتاب المقدس أن العقيدة الصحيحة التي ينتمي إليها سيدنا عيسى عليه السلام هي التوحيد وأنني لم اجد فيه أن الاله ثلاثة كما يدعون، ووجدت أن عيسى عبدالله ورسوله وليس إلها، مثله كمثل الأنبياء جميعا جاء يدعو إلى توحيد الله عز وجل، وأن الأديان السماوية لم تختلف حول ذات الله سبحانه وتعالى، وكلها تدعوا الى العقيدة الثابتة بأنه لا اله الا الله بما فيها الدين المسيحي قبل أن يفترى عليه بهتانا، ولقد علمت ان الإسلام جاء ليختم الرسالات السماوية ويكملها ويخرج الناس من حياة الشرك الى التوحيد والإيمان بالله تعالى، وأن دخولي في الإسلام سوف يكون إكمالا لإيماني بأن الدين المسيحي كان يدعو إلى الإيمان بالله وحده، وأن عيسى هو عبدالله ورسوله، ومن لا يؤمن بذلك فهو ليس من المسلمين.

---

(١) سنرى في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة عدم وجود أي نص في الكتاب المقدس عن التثليث أو ألوهية المسيح.

ثم وجدت ان الله سبحانه وتعالى تحدى الكفار بالقرآن الكريم أن يأتوا بمثله أو يأتون بثلاث آيات مثل سورة الكوثر فعجزوا عن ذلك.

ومن المعجزات التي رأيتها والتي تثبت ان الدين عند الله الإسلام التنبؤات المستقبلية التي تنبأ بها القرآن الكريم مثل:﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ (الروم)، وهذا ما تحقق بالفعل فيما بعد.. وأشياء أخرى ذكرت في القرآن الكريم مثل وصول الإنسان إلى الفضاء بالعلم، وهذا تفسير لمعنى الآية التي تقول:﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (الرحمن:٣٣)، وهذا السلطان هو العلم الذي خرق به الإنسان الفضاء، فهذه رؤية صادقة للقرآن الكريم.

ومن المعجزات التي تركت أثراً في نفسي (العلقة)، التي ذكرها الله في القرآن الكريم، والذي وضحها العالم الكندي (كوسمر)، وقال: إن العلقة هي التي تتعلق برحم الأم، وذلك بعدما تتحول الحيوانات المنوية في الرحم إلى لون دموي معلق. وهذا بالفعل ما ذكره القرآن الكريم من قبل أن يكتشفه علماء الأجنة في العصر الحديث، وهذا بيان للكفار والملحدين.

وبعد كل هذا البحث الذي استمر ثلاثة شهور، قضاها معنا محمد تحت سقف واحد، بسبب ذلك اكتسب ود الكثيرين، وعندما كنت أراه يسجد لله ويضع جبهته على الأرض، أعلم أن ذلك الأمر غير عادي.

قلت: أراك قد تأثرت كثيرا بشخص محمد.

قال: أجل.. لقد كان باب هدايتي بسلوكه الرفيع، وخلقه العظيم..

وفي يوم من الأيام طلب صديقي القسيس من محمد أن نذهب معه إلى المسجد، لنتعرف أكثر عن عبادة المسلمين وصلاتهم، فرأينا المصلين يأتون إلى المسجد يصلون ثم يغادرون دون أي خطب أو غناء.

مضت أيام وسأل القسيس محمداً، أن يرافقه إلى المسجد مرة ثانية، ولكنهم تأخروا هذه المرة حتى حل الظلام.. قلقنا بعض الشيء.. وأخيراً وصلوا، وعندما فتحت الباب.. عرفت محمدا على الفور لكني لم أعرف من معه، وكان شخصا يلبس ثوباً أبيض وقلنسوة.

لقد كان ذلك الشخص هو صاحبي القسيس.. فقلت له: هل أصبحت مسلماً؟

قال: نعم أصبحت من اليوم مسلماً!

ذهلت.. كيف سبقني هذا إلى الإسلام.. ثم ذهبت إلى أعلى للتفكير في الأمور قليلاً، وبدأت أتحدث مع زوجتي عن الموضوع، فقالت لي: أظن أني لن أستمر بعلاقتي معك طويلاً.

فقلت لها: لماذا ؟.. هل تظنين أني سأسلم ؟

قالت: لا.. بل لأني أنا التي سوف تسلم!

فقلت لها: وأنا أيضاً في الحقيقة أريد أن أسلم.

قال: فخرجت من باب البيت، وخررت على الأرض ساجداً تجاه القبلة وقلت: يا رب.. اهدني.

ذهبت إلى أسفل، وأيقظت محمداً، وطلبت منه أن يأتي لمناقشة الأمر معي.. مشينا وتكلمنا طوال تلك

الليلة، وحان وقت صلاة الفجر.. وعندها أيقنت أن الحقيقة قد ملأت قلبي، وأصبحت الفرصة مهيئة أمامي.. أذن الفجر، ثم استلقيت على لوح خشبي ووضعت رأسي على الأرض، وسألت إلهي أن يرشدني.. وبعد فترة رفعت رأسي إلى أعلى فلم ألحظ شيئاً، و لم أر طيوراً أو ملائكة تنزل من السماء، و لم أسمع أصواتاً أو موسيقى، و لم أر أضواء.

أدركت أن الأمر أصبح مواتياً والتوقيت مناسباً، لكي أتوقف عن خداع نفسي، وأنه ينبغي أن أصبح مستقيماً مسلماً.. عرفت ما يجب علي فعله.

وفي الحادية عشرة صباحاً وقفت بين شاهدين: القسيس السابق، والذي كان يعرف سابقاً بـــ (الآب بيتر جاكوب)، ومحمد عبدالرحمن، وأعلنت شهادتي، وبعد لحظات قليلة أعلنت زوجتي إسلامها بعد ما سمعت بإسلامي.

وكان أبي أكثر تحفظاً على الموضوع، وانتظر شهوراً قبل أن ينطق بالشهادتين.

قلت: أرى أن محمدا ذلك الرجل المسلم قد أثر فيكم كثيرا.

قال: أجل.. فإسلامنا جميعاً كان بفضل الله، ثم بالقدوة الحسنة في ذلك المسلم الذي كان حسن الدعوة، وكان قبل ذلك حسن التعامل.. لقد نفذ بحرفية ما يقال عندنا: لا تقل لي.. ولكن أرني.

لقد دخلنا ـــ نحن الثلاثة المثقفين ثقافة دينية واسعة.. ومن ثلاث طوائف مختلفة ـــ الإسلام دفعة واحدة، وسلكنا طريقاً معاكساً جداً لما كنا نعتقد..و لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد، بل في السنة نفسها دخل طالب معهد لاهوتي معمد من (تينسي) يدعى (جو) في الإسلام بعد أن قرأ القرآن، و لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل رأيت كثيراً من الأساقفة والقساوسة، وأرباب الديانات الأخرى يدخلون الإسلام ويتركون معتقداهم السابقة.

قلت: فماذا تعمل الآن؟

قال: لقد تعلق قلبي بحب الإسلام وحب الوحدانية والإيمان باللّه تعالى، وأصبحت أغار على الإسلام أشد من غيرتي قبله على النصرانية.

و لم أكتف بهذا التعلق، بل بدأت رحلة الدعوة إلى الإسلام وتقديم الصورة النقية، التي عرفتها عن الدين الإسلامي، الذي هو دين السماحة والخلق، ودين العطف والرحمة.

الدكتور وديع أحمد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور وديع أحمد)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان شماسا، وقد التقيت به في مصر.. وقد حدثني عن رحلته إلى الإسلام، وكيفية تخلصه من الشبهات الكثيرة التي وضعت في طريقه، فقال: لقد مررت برحلة طويلة قاربت ٤٠ عاما الى أن هداني الله للإسلام..

في البداية.. كنت من عائلة متدينة، وقد أصر أبي ـــ وقد كان واعظا فى جمعية أصدقاء الكتاب المقدس، وكانت مهنته التبشير فى القرى المحيطة والمناطق الفقيرة لمحاولة جذب فقراء المسلمين الى المسيحية ـــ أن أنضم الى الشمامسة منذ أن كان عمرى ست سنوات، وأن أنتظم فى دروس مدارس الأحد.

وفيها تلقيت أخطر الشبهات عن الإسلام والمسلمين، ومنها أن المسلمين اغتصبوا مصر من المسيحين

وعذبوا المسيحين.. ومنها أن المسلمين يضطهدون النصارى لكى يتركوا مصر ويهاجروا.. ومنها أن المسلم أشد كفرا من البوذى وعابد البقر.. ومنها أن القرآن ليس كتاب الله ولكن محمد اخترعه.. وغير ذلك من الشبهات التى تزرع الحقد الأسود ضد المسلمين فى القلوب.

لكن الله شاء أن يقيض لنا في هذه الفترة من يقف في وجه هذه الشبهات.. وقد كان أبي هو ذلك النور المبدد لظلمات الشبهات.. لقد كان في هذه الفترة المحرجة يتكلم معنا سرا عن انحراف الكنائس عن المسيحية الحقيقية التي تحرم الصور والتماثيل والسجود للبطرك والاعتراف للقساوسة.

قلت: كيف يكون ذلك، وقد ذكرت لي أنه هو الذي أصر على أن تكون من الشمامسة؟

قال: لست أدري.. ولكني لا أزال محتارا في شأنه.. لقد كان يمارس في حياته أشياء كثيرة لا تدل إلا على أنه مسلم يكتم إسلامه.. وقد كان ذلك من أهم أسباب هدايتي.

فقد هجر الكنائس والوعظ والجمعيات التبشيرية تماما.. وكان يرفض تقبيل أيدي الكهنة (وهذا أمر عظيم عند النصاري).. وكان لايؤمن بالجسد والدم (الخبز والخمر) أي لا يؤمن بتجسيد الإله.. وبدلاً من نزوله صباح يوم الجمعة للصلاة أصبح ينام ثم يغتسل وينزل وقت الظهر.. وكان ينتحل الأعذار للنزول وقت العصر والعودة متأخرا وقت العشاء.

ومما قوى هذا الموقف عندي أنه صار ينطق بألفاظ جديدة لم يكن يقولها مثل (أعوذ بالله من الشيطان) (لا حول ولا قوة الا بالله)..

وقد وجدت بعد موته عام ١٩٨٨ بالإنجيل الخاص به قصاصات ورق صغيرة يوضح فيها أخطاء موجودة بالأناجيل وتصحيحها.. بل عثرت علي إنجيل جدي (والد أبي) طبعة ١٩٣٠ وفيها توضيح كامل عن التغيرات التي أحدثها النصاري فيه منها تحويل كلمة (يا معلم) و(يا سيد) إلى (يا رب) ليوهموا القارئ أن عبادة المسيح كانت منذ ولادته.

قلت: إن كل ما ذكرته أدلة قوية تشير إلى إسلامه.. ولكن لم كان يكتمه؟

قال: ألم تسمع بقول اللورد هدلي؟

قلت: تقصد قوله:« إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم »

قال: أجل.. ولو أن هذه الحواجز النفسية رفعت لرأيت غير ما ترى، وسمعت غير ما تسمع.

قلت: فكيف أزلت أنت هذه الحواجز النفسية؟

قال: ذلك فضل الله.. وتلك هدايته التي ملأ بها قلبي، مع أني تعرضت لحواجز كثيرة اجتمعت على أن تحول بين قلبي وبين الإيمان.. لكن الله بفضله وكرمه رفعها عني.

لقد صرت أستاذاً في مدارس الأحد ومعلما للشمامسة، وكان عمري ١٨ سنة وكان علي أن أحضر دروس الوعظ بالكنيسة والزيارة الدورية للأديرة (خاصة في الصيف) حيث يتم استدعاء متخصصين في مهاجمة الإسلام والنقد اللاذع للقرآن ومحمد ﷺ.

لقد كانوا في تلك الاجتماعات يذكرون لنا أن القرآن مليء بالمتناقضات، ثم يذكروا نصف آية مثل:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ﴾(النساء: من الآية٤٣) ويقطعوها لنتوهم أن القرآن ينهى عن الصلاة.

بل كانوا ــ أكثر من ذلك ــ يذكرون أن القرآن مليء بالألفاظ الجنسية ويفسرون كلمة (نكاح) علي أنها الزنا أو اللواط.

وكانوا يذكرون لنا يقولون أن النبي محمد ﷺ قد أخذ تعاليم النصرانية من (بحيرا) الراهب، ثم حورها واخترع بها دين الإسلام، ثم قتل بحيرا حتي لا يفتضح أمره[1]..

وقد كنت في تلك الفترة أسمع أسئلة محيرة من الشباب الحاضر كانت ــ هي الأخرى ــ من أهم أسباب هدايتي.

من ذلك أن شابا سأل أحد القساوسة قائلا: ما رأيك بمحمد؟

فقال القسيس: هو إنسان عبقريوذكي.

فقال الشاب: هناك الكثير من العباقرة مثل (أفلاطون، سقراط ، حامورابي....) ولكن لم نجد لهم أتباعاودينا ينتشر بهذه السرعة الي يومنا هذا؟ لماذا؟

فيتهرب القسيس من الإجابة.. أو يغالطه بطريقة ذكية تصرفه عن سؤاله.

ومنها أن شابا سأل قسيسا: ما رأيك في القرآن؟

فأجاب القسيس: كتاب يحتوي علي قصص للأنبياء ويحض الناس علي الفضائل ولكنه مليء بالأخطاء.

فقال الشاب: لماذا تخافون أن نقرأه، وتكفرون من يلمسه أو يقرأه؟

فيصر القسيس أن من يقرأه كافر دون توضيح السبب.

ومنها أن آخر سأل: إذا كان محمد كاذباً فلماذا تركه الله ينشر دعوته ٢٣ سنة؟ بل ومازال دينه ينتشر الي الآن مع انه مكتوب في كتاب موسي (كتاب ارميا) ان الله وعد بإهلاك كل إنسان يدعي النبوة هووأسرته في خلال عام؟

فييجيب القسيس: لعل الله يريد أن يختبر المسيحيين به.

بالإضافة إلى هذا.. فقد مررت في حياتي بمواقف كثيرة محيرة.. كلها كانت أشعة اهتديت بها إلى شمس محمد.

منها أن البطرك (.. !؟) أصدر في عام ١٩٧١ قرارا بحرمان الراهب (.. !؟) ــ وهو راهب بدير مينا ــ من الصلاة لأنه لم يذكر اسمه في الصلاة، وقد حاول إقناعه الراهب (.. !؟) بالصلاة فانه يصلي لله، وليس للبطرك ولكنه خاف من البطرك أن يحرمه من الجنه أيضا.

وقد تسائل هذا الراهب: هل يجرؤ شيخ الأزهر أن يحرم مسلما من الصلاة؟

لقد كان أشد ما يحيرني هو معرفتي بتكفير كل طائفة مسيحية للأخرى، فلهذا سألت القمص (.. !؟)، وهو أب اعترافي، فأكد هذا وأن هذا التكفير نافذ في الأرض والسماء.

---

(١) ذكرنا الجدليات الكثيرة التي يبثها المبشرون، والمرتبطة بهذا في الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

فسألته متعجبا: هل معني هذا أننا كفار لتكفير بابا روما لنا؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وباقي الطوائف كفار بسبب تكفير بطرك الإسكندرية لهم؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وما موقفنا إذا يوم القيامة؟

أجاب: الله يرحمنا !!!

وفوق هذا كنت كلما دخلت الكنيسة، ووجدت صورة المسيح وتمثاله يعلو هيكلها سألت نفسي: كيف يكون هذا الضعيف المهان الذي استهزأ به اليهود وعذبوه رباًوإلهاً !؟

المفروض أن أعبد رب هذا الضعيف الهارب من بطش اليهود، وتعجبت حين علمت أن التوراة قد لعنت الصليب والمصلوب عليه وأنه نجس وينجس الأرض التي يصلب عليها، كما في (تثنية ٢١: ٢٢ – ٢٣)

وفوق هذا كله فقد كان لي جار مسلم وكنت كثير الجدل معه، وذات يوم كلمني عن العدل في الإسلام (في الميراث، في الطلاق، القصاص....) ثم سألني هل عندكم مثل ذلك؟ فأجبت لا.. لايوجد..

وبدأت أسأل نفسي: كيف أتي رجل واحد بكل هذه التشريعات المحكمة والكاملة في العبادات والمعاملات بدون اختلافات؟.. وكيف عجزت مليارات اليهود والنصاري عن إثبات أنه مخترع؟

بالإضافة إلى هذا كله كنت أسمع أحاديث الدكتور محمد الشاطبي ـــ وقد كنت حينها طبيبا في مستشفي (صدر كوم الشقافة) ـــ وقد كان دائم التحدث مع الزملاء عن أحاديث محمد ﷺ، وكنت في بداية الأمر أشعر بنار الغيرة، ولكن بعد مرور الوقت أحببت سماع هذه الأحاديث التي كانت قليلة في ألفاظها كثيرة في معانيها، جميلة الألفاظ والسياق.. وقد شعرت وقتها أن محمدا نبي عظيم.

وكان بالقرب من عيادتى مسجد.. اقترب منه، وأخذت أنظر بداخله، فوجدته لا يشبه الكنيسة مطلقا (لا مقاعد – لا رسومات – لا ثريات ضخمة – لا سجاد فخم – لا أدوات موسيقى وايقاع – لا غناء لا تصفيق) ووجدت أن العبادة فى هذه المساجد هى الركوع والسجود لله فقط، لا فرق بين غنى وفقير يقفون جميعا فى صفوف منتظمة وقارنت بين ذلك وعكسه الذى يحدث فى الكنائس فكانت المقارنة دائما لصالح المساجد.

ثم حبب الله إلى القرآن.. فاشتريت مصحفا، وتذكرت أن صديقى أحمد الدمرداش ذكر أن القرآن:﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (الواقعة:٧٩)، فاغتسلت[1] و لم أجد غير ماء بارد وقتها، ثم قرأت القرآن، وكنت أخشى أن أجد فيه اختلافات (بعد ما ضاعت ثقتى فى التوراة والانجيل)، وقرأت القرآن فى يومين ولكنى لم أجد ما كانوا يعلمونا إياه فى الكنيسة عن القرآن.

---

(١) ذكرنا في مناسبات كثيرة أن هذا ليس شرطا في قراءة القرآن، ومن اشترطه فقد بعد كثيرا عن الصواب، ذلك أن الاغتسال يتطلب نية بالصفة الشرعية، والنية المرادة هي التقرب إلى الله، وذلك لا يكون إلا بالإسلام.

وقد فصلنا المسألة بتفاصيلها في السلاسل الفقهية خاصة (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد)

بل رأيت أن من يكلم محمدا ﷺ يخبره أنه سوف يموت.. ولا يجرؤ أن يتكلم هكذا الا الله..

بعد كل هذا دعوت الله أن يهدين ويرشدني..

وذات يوم غلبني النوم، فوضعت المصحف بجوارى.. وقرب الفجر رأيت نورا فى جدار الحجرة، وظهر رجل وجهه مضيء اقترب مني، وأشار الى المصحف، فمددت يدى لأسلم عليه لكنه اختفى.. وقد وقع فى قلبى أن هذا الرجل هو النبى محمد ﷺ يشير الى أن القرآن هو طريق النور والهداية.

وقد كان ذلك من الأسباب الكبرى لإسلامي.

قلت: لم تكتف بما يفعل الكثير من التكتم على إسلامهم.

قال: أجل.. لقد سألت أحد المحامين عن كيفية دخول الإسلام، فدلني علي قسم الشئون الدينية لمديرية الأمن.. و لم أنم تلك الليلة التي امتلأت فيها بوساوس الشياطين.

لكني لم أهتم لها.. خرجت في السادسة صباحا ودخلت كنيسة (.. !؟) وكانت الصلاة قائمة، وكانت الصالة مليئة بالصور والتماثيل للمسيح ومريموالحواريين وآخرين إلي البطرك السابق (.. !؟) فكلمتهم:« لو أنكم علي حق وتفعلون المعجزات كما كانوا يعلمونا فافعلوا أي شيء.. أي علامة أو إشارة لأعلم أنني أسير في الطريق الخطأ ».. وبالطبع لم أجد أي إجابة.

لقد بكيت ــ حينها ــ كثيرا علي عمر طويل ضاع في عبادة هذه الصور والتماثيل.. وبعد البكاء شعرت أنني تطهرت من الوثنية، وأنني أسير في الطريق الصحيح طريق عبادة الله حقا.

ذهبت الي المديريةوبدأت رحلة طويلة شاقة مع الروتين، ومع معاناة مع البيروقراطيةوظنون الناس، وبعد عشرة شهور تم اشهار اسلامي من الشهر العقاري في أغسطس ١٩٩٢.

أبو بكر موايبيو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أبو بكر موايبيو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مارتن جون موايبوبو.. اسمه الأصلي (مارتن جون موايبوبو)، وقد أصبح بعد إعلانه الإسلام معروفاً باسم (الحاج أبو بكر جون موايبوبو)، وهو رئيس الأساقفة اللوثريِّ التترانيِّ.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل..

قلت: كيف تم ذلك؟.. وماذا قال لك؟

قال: كنت في ذلك اليوم الذي أعلن فيه هذا الرجل إسلامه في تترانيا.. لقد كان ذلك في الثالث والعشرين من شهر كانون الأوَّل لعام ١٩٨٦.. أي قبل يومين من أعياد الميلاد..

لقد كنت في الكنيسة مع حشد من المصلين نستمع إليه، وهو يعزف آلاته الموسيقيَّة بطريقةٍ تثير مشاعر الجميع.. و لم نكن نعرف ذلك الحين ما يجول في خاطر الأسقف.

فجأة نهض، وأعلن إسلامه بقوة لا نظير لها، وكأنه يتحدانا، أو كأنه يتحدى نفسه التي كانت تحول بينه وبين ذلك الإعلان.. أو كأنه يتذكر يوم الزينة الذي فاجأ فيه السحرة فرعون والناس جميعا بإعلان إسلامهم

لله.

ما إن فعل ذلك حتى وقع حشد المصلِّين في حالة شللٍ تامٍّ للصدمة الَّتي أصابتهم لسماع هذا الخبر، إلى درجة أنَّ مساعد الأُسقف قام من مقعده فأغلق الباب والنوافذ، وصرَّح لأعضاء الكنيسة بأنَّ رئيس الأساقفة قد جُنّ.

وفورا اتَّصلوا بقوات الأمن لأخذ الرَّجل المجنون.. فجاءوا، وتحفَّظوا عليه في الزنزانة حتَّى منتصف الليل، إلى أن جاء الشَّيخ أحمد شيخ ــ وهو الرَّجل الَّذي حثَّه على دخول الإسلام ــ وكفله لإطلاق سراحه.

و لم يكن ذلك إلى بداية للآلام الكثيرة التي تعرض لها..

لقد تعرفت هناك على صحفي اسمه (سيمفيوي سيسانتي)، وهو صحفيٌّ من صحيفة القلم، وقد أخبرني بلقائه به، وقد ذكر لي أن هذا الأسقف لم يكن رجلا عاديا، ولا رجل دين بسيط..

فهو لم يحصل فقط على شهادتي البكالوريوس والماجستير في اللاهوت، بل لديه شهادة الدكتوراه في اللاهوت والتي حصل عليها من الإدارة الكنسيَّة من إنجلترا، بالإضافة إلى باقي الدَّرجات العلميَّة التي حصل عليها من برلين في ألمانيا.

ولهذا المستوى العلمي نصب أمينا عاما لمجلس الكنائس العالميِّ لشؤون إفريقيا ــ والتي تشمل تترانيا وكينيا وأوغندا وبوروندي وأجزاء من أثيوبيا والصُّومال ــ وكان منصبه في مجلس الكنائس يفوق الرئيس الحاليَّ للجنة حقوق الإنسان الجنوب إفريقيَّة باربي بيتيانا، ورئيس لجنة المصالحة الوطنيَّة الأُسقف ديسموند توتو.

وذكر لي أن الرجلٍ وُلد قبل ٦١ عاماً في بوكابو، وهي منطقةٌ على الحدود مع أوغندا من عائلة اهتمت بتنشئته تنشئة دينية، فبعد سنتيْن من ولادته قامت عائلته بتعميده؛ وبعد خمس سنواتٍ كانت تراقبه بفخرٍ وهو يصبح خادم المذبح في القُدَّاس.

وقد أخبر أبو بكر عن رغبة والده في انضمامه للكنيسة، وقد حصل هذا في الخامسة والعشرين من عمره، حيث استسلم لرغبة والده الذي كان يقول له:« يا بنيّ، قبل أن أغمض عيني (أموت)، سأكون مسروراً إنْ أصبحتَ راهباً »

وهذا القرار هو الَّذي قاده إلى إنجلترا عام ١٩٦٤ للحصول على الدبلوم في إدارة الكنائس؛ وبعد ذلك بسنةٍ سار إلى ألمانيا للحصول على البكالوريوس، وبعودته بعد عامٍ أصبح أُسقفاً عاملاً، وفيما بعد رجع ليحصل على الماجستير.

وقد كان إلى هذا الوقت مقلدا محضا، ولكنه في أثناء تحضير للدكتوراه بدأ يخرج من ربقة التقليد، وقد ذكر لي أنه قال له:« بدأت أتساءل باندهاش، فهناك المسيحيَّة والإسلام واليهوديَّة والبوذيَّة، وكلٌّ دينٍ منها يدَّعي أنَّه الحقّ؛ فما هي الحقيقة؟ كنت أريد الحقيقة »

وهكذا بدأ بحثه حتى اختزله إلى الأديان الرئيسيَّة الأربعة.. ثم حصل على نسخةٍ من القرآن الكريم..

وقد ذكر موايبوبو ذلك قائلاً:« حين فتحت القرآن الكريم، كانت الآيات الأولى الَّتي أقرأها هي سورة الإخلاص:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١)اللَّهُ الصَّمَدُ(٢)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)﴾

وقد كانت هذه الآيات هي البذور التي نبتت بها بعد ذلك شجرة إسلامه.. وفي ذلك الوقت اكتشف بأنَّ القرآن الكريم هو الكتاب المقدَّس الوحيد الَّذي لم يحصل له أي تشويه.

قال:« وهذا ما قُلْته كخاتمةٍ في رسالتي للدكتوراه. ولم يكن يهمُّني إنْ كانوا سيمنحوني الدكتوراه أم لا، لأنَّ هذه هي الحقيقة؛ وأنا كنت أبحث عن الحقيقة »

وفي حالته الذهنيَّة هذه، ذهب إلى أُستاذه المحبوب فان بيرغر، وقد أخبر عن نص الحوار الذي جرى بينهما، فقال:« أغلقت الباب، ثمَّ نظرت إليه في عينيه، وسألته: من كلِّ الأديان الَّتي في الدُّنيا، أيُّها هو الدِّين الحقّ؟ فأجابني:«الإسلام »، فسألته:« فلماذا أنت إذاً لست مسلماً؟» فقال لي:« أوَّلاً: أنا أكره العرب؛ وثانياً: هل أنت ترى كلَّ هذا الترف الَّذي أنعم فيه؟ فهل تعتقد بأنِّي سأتخلَّى عن كلِّ ذلك من أجل الإسلام؟» وعندما تفكَّرت بجوابه، بدأت أتفكَّر بحالتي الخاصَّة أيضاً »

فمنصب موايبوبو، وسياراته، كلُّ ذلك خطر على باله.. ولذلك لم يستطيع إعلان إسلامه.. وهكذا ظل لسنةٍ كاملةٍ ممتلئا بهذه المخاوف إلى أن استطاع أن يقف في وجهها في تلك اللحظة الحرجة.

وقد ذكر لهذا الصحفي عن فضل الله الذي تداركه برُؤى بدأت تلاحقه، وآياتٌ من القرآن الكريم دوامت على الظُّهور أمامه، وأُناسٌ موشحون بالبياض يأتون إليه، خاصَّةً في أيَّام الجُمَع، حتَّى لم يستطع أن يقاوم أكثر.

قلت للصحفي: ألم تكن تلك الرؤى.. ومخاوفه منها ترجع للطَّبيعة الخُرافيَّة للأفارقة؟

قال لي الصحفي: لقد سألت موايبوبو هذا السؤال، فأجابني: لا؛ لا أظنُّ بأنَّ كلَّ الرُّؤى سيِّئة.. فإنَّ هناك تلك الرُّؤى الَّتي تهديك للاتجاه الصَّحيح، وتلك الَّتي لا تفعل ذلك.. أمَّا هذه –على وجه الخصوص– فقد قادتني إلى الطَّريق الصَّحيح، إلى الإسلام»

بعد فترة سمعت بما حصل لهذا الأسقف نتيجة إشهار إسلامه، فقد علمت بأن الكنيسة قامت بتجريده من بيته وسياراته، ولم تستطع زوجه تحمُّل ذلك، فحزمت حقائبها وأخذت أولادها وتركته، وذلك على الرغم من تأكيد موايبوبو لها بأنَّها ليست مُلزمةً بدخول الإسلام. وعندما ذهب إلى والديه، اللَّذيْن كانا أيضاً قد سمعا بقصَّته، وقد طلب منه أبوه انتقاد الإسلام علانيةً، ومثل ذلك أمه، ولكنه ظل ثابتا على موقفه.

بعد أن أصبح وحيدا اضطر إلى الرحيل حيث تنتمي عائلته أصلاً على الحدود بين تترانيا ومالاوي.. وخلال رحلته جَنَح إلى بروسيل حيث التقى بزوجته، وهي راهبةٌ كاثوليكيَّةٌ اسمها الأخت (جيرترود كيبويا)، وهي تُعرف الآن باسم الأخت زينت، ومعها سافر إلى كايبلا، حيث أخبره العجوز الَّذي منحه المأوى في الليلة السَّابقة بأنه هناك سيجد مسلمين آخرين، ولكن قبل ذلك، وفي صباح ذلك اليوم رفع الآذان للصَّلاة، وهو الشيء الَّذي جعل القرويِّين يخرجون من منازلهم سائلين المضيف كيف يؤوي رجلاً مجنوناً.

لكن الراهبة ـــ التي تزوج بها بعد ذلك ـــ هي التي صرفت عنهم هذه النظرة، وقد كانت هي الَّتي ساعدته فيما بعد على دفع النَّفقات العلاجيَّة لمشفى الإرساليَّة الأنجليكانيَّة حين كان مريضاً جدّاً.

وأخبرني أنه سألها: لماذا ترتدي الصَّليب في سلسلةٍ على صدرها، فكان أن أجابت بأنَّ ذلك لأنَّ المسيح

قد صُلب عليه، وقد رد عليها بأنه (لنَقُل أن أحدهم قتل أباك ببندقيَّةٍ، فهل كنت ستتجوَّلين حاملةً البندقيَّة على صدرك؟)

لقد جعل ذلك الراهبة تفكِّر.. وحين عرض عليها الأُسقف الزواج لاحقاً، كان جوابها بالإيجاب، فتزوَّجا سرّاً، وبعد أربعة أسابيع كتبت إلى مسؤوليها تُعلِمهم بأنَّها تركت الرَّهبنة.

وقد سمع الشَّيخ الَّذي قدَّم لهما المأوى ــ وهو خال الرَّاهبة ــ بهذا الزواج؛ وفي لحظة وصولهما إلى بيته نُصحا بالهرب، لأنَّ الشَّيخ كان يُعبِّيء بندقيَّته، وكان والد الرَّاهبة غاضباً ومتوحِّشاً كالأسد.

انتقل موايبوبو من رفاهية مترل رئيس الأساقفة ليعيش في بيتٍ مبنيٍّ من الطِّين، وبدلاً من راتبه الكبير كعضوٍ في المجلس الكنسيِّ العالميِّ كأمينٍ عامٍّ لشرق إفريقيا، بدأ بكسب قوته كحطَّابٍ، وحرَّاثٍ لأراضي الآخرين.

وفي الأوقات الَّتي لم يكن يعمل فيها كان يدعو إلى الإسلام علانية، ممَّا قاده إلى سلسلةٍ من الأحكام القصيرة بالسِّجن لعدم احترام المسيحيَّة.

وحين كان يؤدِّي فريضة الحجِّ في عام ١٩٨٨، حدث بلاء آخر، حيث فُجِّر بيته، وترتب على ذلك قتل أطفاله التوائم الثلاثة.

وقد ذكر أن من المتسببين في ذلك الأُسقف ــ الذي هو ابن خالته ــ ويذكر أنَّه بدلاً من أن يحبطه ذلك فقد فعل العكس، لأنَّ عدد الَّذين كانوا يعلنون إسلامهم كان يزداد، وهذا يشمل حماه أيضاً.

وفي عام ١٩٩٢ اعتُقِل لمدَّة عشرة أشهرٍ مع سبعين من أتباعه، اتُّهموا بالخيانة، وكان ذلك بعد تفجير بعض محلات بيع لحم الخترير الَّتي كان قد تحدَّث ضدَّها[١]، وبعد ذلك مباشرةً هاجر إلى زامبيا منفيّاً؛ وذلك بعد أن نُصِحَ بأنَّ هناك مؤامرة لقتله.

وذكر بأنَّه في كلِّ يومٍ كان يُطلق فيه سراحه، كانت الشرطة تأتي لتعتقله مُجدَّداً، يقول موايبوبو:« لقد قالت النِّساء بأنَّهن لن يسمحن بذلك! وبأنَّهم سيقاومن اعتقالي من قبل قوات الأمن بأجسادهن، وكانت النِّساء أيضاً هنَّ اللواتي ساعدنني على الهرب عبر الحدود مُتخفياً؛ فقد ألبسنني ملابس النِّساء! »

وهذا هو أحد الأسباب التي جعلته يُقدِّر دور النِّساء:« يجب أن تُعطى النِّساء مكانةً رفيعةً، وأن يُمنحن تعليماً إسلاميّاً جيِّداً، وإلا فكيف يمكن للمرأة أن تتفهَّم لماذا يتزوَّج الرَّجل أكثر من امرأةٍ واحدة.. لقد كانت زوجي زينب هي من اقترحت عليَّ بأنِّي يجب أن أتزوَّج بزوجي الثَّانية ــ صديقتها شيلا ــ حين كان يتوجَّب عليها السَّفر إلى الخارج من أجل الدِّراسات الإسلاميَّة »

وقد صادف أن لقيته مرة بعد هذا، وهو يخطب في جمع من المسلمين، وهو يقول لهم ناصحا:« إنَّ هناك

---

(١) لا نرى من النصح للإسلام أن يتحدث المسلم في الأرض التي فيها غير مسلمين عن مثل هذه المواضيع، فذلك يشوه صورة الإسلام من جهة، ويعرض المسلمين الذين قد يشكلون أقلية للأذى من جهة أخرى.

وقد نصح ﷺ معاذا عن مواضيع الدعوة وتدرجها.. وذلك هو الأسلوب النبوي الأمثل، انظر في هذا رسالة (النبي الهادي) من هذه السلسلة.

حرباً على الإسلام.. وقد أغرقوا العالم بالمطبوعات.. والآن بالتحديد يعملون على جعل المسلمين يشعرون بالعار بوصفهم لهم بالأُصوليِّين، فيجب على المسلمين ألا يقفوا عند طموحاتهم الشَّخصيَّة، ويجب عليهم أن يتَّحدوا، فعليك أن تدافع عن جارك إن كنت تريد أن تكون أنت في أمان »

سمعته يقول ذلك، وهو يحضُّ المسلمين على أن يكونوا شجعاناً، مُستشهداً بالمركز الإسلاميِّ العالميِّ للدَّعوة وبدور الشَّيخ أحمد ديدات الذي كان شديد الإعجاب به، وقد سمعته يقول عنه يخاطب المسلمين:« ذلك الرَّجل ليس مُتعلّماً، لكن انظر إلى الطَّريقة الَّتي ينشر بها الإسلام »

الراهب ماركو كوربس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الراهب ماركو كوربس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الفلبين، وقد صادفته في رحلة من رحلاتي، فرأيته شديد الحماس للإسلام، متألما لما مضى من عمره بعيدا عنه، وقد لاحظت في حديثه نفحة الصدق التي حدثني عنها معلم السلام، فرحت أسأله عنه، وعن سر ذلك الحرص على الدعوة للإسلام، فقال:

كنت من طائفة وثنية.. وكان جدي وعمي مُعالِجَيْن روحانيَّيْن يعبدان الأصنام والأرواح، وقد شهدت الكثير من المرضى الَّذين جاءوا إليهما من أجل العلاج، وكيف كانوا يبرأون، ولذلك فقد تسبَّبا في اتباعي ما يؤمنان به.

وعندما وصلت السابعة عشرة من عمري، لاحظت بأنَّ هناك الكثير من الأديان، والَّتي تحوي أنواعاً مختلفةً من التعاليم، وكلٌّ منها يدَّعي بأنَّه الدِّين الحقّ.

عندها تساءلت:« هل يتوجَّب عليَّ أن أبقى على دين عائلتي، أم أنِّي يجب أن أُجرِّب الاستماع إلى الأديان الأخرى؟»

وفي أحد الأيام دعاني ابن عمي لحضور عيد الخميس في الكنيسة، وكان دافعي هو مشاهدة ما يفعلونه داخل الكنيسة، فشاهدتهم يغنُّون، ويصفِّقون، ويرقصون، ويبكون رافعين أيديهم في دعائهم ليسوع.. ثم قام الراهب بالوعظ بخصوص الإنجيل.. ثم ذكر الفقرات الأكثر شيوعاً، والَّتي يقتبسها كلُّ المبشِّرين، وهي تلك الَّتي تتعلَّق بأُلوهيَّة المسيح مثل ما في (يوحنا ١:١٢، ويوحنا ٣:١٦، ويوحنا ٨:٣١-٣٢)، وفي ذلك الوقت، ولدت من جديد كمسيحيّ، وقَبِلْتُ يسوع المسيح إلها ومُخلِّصا.

كان أصدقائي يزورونني كلَّ يومٍ للذهاب إلى الكنيسة، وبعد شهرين تمَّ تعميدي، فأصبحت عضواً منتظماً في صلاتهم، وبعد مرور خمسة أعوام، أقنعني راهبنا بالعمل في الكهنوت كعاملٍ متطوِّع، ثم أصبحت المنشد الرئيسي، ثم القائد في الصَّلاة، ثم معلِّماً في مدرسة الأحد، ثم أصبحت أخيراً راهباً رسميّاً في الكنيسة.

وكان عملي خاضعاً لبعثة التبشير الإنجيليَّة القرويَّة الحرَّة (.. !؟) وهي بعثةٌ تبشيريَّة مثل بعثة (يسوع هو الله)، و(الناصري)، و(خبز الحياة).. وغيرها من الجمعيات.

بدأت تعليم الناس الإنجيل وتعاليمه، وأجبرت نفسي على حفظ أجزاءٍ وآياتٍ منه عن ظهر قلبٍ من أجل الدِّفاع عن الدِّين الَّذي كنت أُومن به.

وقد أصبحت فخوراً بنفسي لهذا المنصب الّذي حظيت به، وكنت غالباً ما أرى أنّي لا أحتاج إلى أيِّ تعاليم أو نصوص أخرى عدا الإنجيل، ولكن مع ذلك، كان هناك فراغٌ روحيٌّ في داخلي.

صلَّيت، وصُمْت، واجتهدت لإرضاء مشيئة الإله الّذي كنت أعبده، ولم أكن أجد السعادة إلَّا عندما كنت أتواجد في الكنيسة.. لكن هذا الشعور بالسعادة لم يكن مستمرّاً، وحتى عندما كنت أتواجد مع عائلتي.

ومما زاد في آلامي هذه أنَّ بعض أصدقائي من الرُّهبان ماديُّون، فهم يغمسون أنفسهم في الشهوة الجسديَّة والفساد، والتعطُّش للشهرة.

وعلى الرغم من كلِّ ذلك فقد واصلت مقلدا اعتناقي الدِّين بقوَّة، وذلك لأنني كنت أعرف ــ حسب ما تقوله التعاليم ــ بــ (أنَّ الكثيرين يُدْعَوْن، ولكنَّ القليل منهم يُخْتارون)

كنت دوماً أُصلِّي ليسوع المسيح ليغفر لي ذنوبي، وكذلك ذنوبهم، فقد كنت أظنُّ بأنَّه هو الحلُّ لكلِّ مشكلاتي، ولذلك فإنَّه يستطيع الاستجابة لكلِّ دعائي.

مع ذلك ــ وبالنظر إلى حياة زملائي من الرُّهبان ــ لا تستطيع أن تجد بينهم أمثلةً جيّدةً مُقارنةً بالرعيَّة الّتي يعظونها، وهكذا بدأ إيماني يخفت، وناضلت بصعوبة بالغة على العمل في خدمة الصَّلاة الجماعيَّة.

في أحد الأيام، فكرت في السفر إلى الخارج، وليس ذلك من أجل العمل فقط، بل ــ وأهم من ذلك ــ من أجل نشر اسم يسوع كإله ــ بناء على قناعتي في ذلك الوقت ــ وكان في خطتي الذهاب إمَّا إلى تايوان أو كوريا، إلَّا أنَّ مشيئة الله تعالى كانت في حصولي على تأشيرة عملٍ في بلد مسلم، ووقَّعت في الحال عقداً لمدَّة ثلاثة أعوام للعمل فيه.

بعد أسبوعٍ من وصولي لاحظت أُسلوب الحياة المختلف، كاللغة، والعادات والتقاليد، حتى الطعام الّذي يأكلونه، فقد كنت جاهلاً تماماً بثقافات الآخرين.

والحمد لله، فقد حدث أن كان لديَّ زميلٌ فلبينيٌّ في المصنع، وهو مسلمٌ يتكلَّم العربيَّة، لذلك -ومع أنّي كنت متوتِّراً، إلَّا أنّي حاولت سؤاله عن المسلمين، وعن دينهم ومعتقداتهم. فقد كنت أعتقد بأنَّ المسلمين من عُتاةِ القَتَلة، وأنَّهم يعبدون الشيطان والفراعنة ومحمَّداً كآلهةٍ لهم ــ وحدَّثته عن إيماني بالمسيح، وكردِّ فعلٍ على ذلك أخبرني أنَّ دينه يختلف تماماً عن ديني، واقتبس لي آيتيْن من القرآن الكريم كانتا المفتاح الأول لإسلامي:

أما الأولى، فمن سورة المائدة، وهي الآية الّتي جاء فيها:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾ (المائدة: من الآية٣)

وأما الثانية، فمن سورة يوسف:﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٤٠)

لقد أصابتني هاتان الآيتان بصدمةٍ قويَّة.. كانت هي البداية لإسلامي.

بعد ذلك بدأت بملاحظة حياة صاحبي المسلم.. وكلَّ يومٍ كنَّا نتحدث.. كلٌّ منا يتحدث عن دينه، حتى أصبحنا في النِّهاية صديقيْن حميميْن.

وفي إحدى المناسبات ذهبنا إلى البلد لإرسال بعض الرسائل. وهناك حدث أن رأيت جمهرةً من أُناسٍ كثيرين يشاهدون فيلماً لمناظرةٍ لأحد أفضل المبشِّرين لديّ.

وقد أخبرني صديقي المسلم بأنَّ هذا الَّذي أدعوه بأفضل مبشِّرٍ لديّ كان الشيخ أحمد ديدات، وهو داعيةٌ إسلاميٌّ مشهور، فأخبرته بأنَّ رهباننا في الوطن جعلونا نعتقد بأنَّه مبشِّرٌ عظيمٌ فقط؛ وأخفوا عنَّا شخصيَّته الحقيقيَّة بأنَّه داعيةٌ مسلم، ومهما كانت نيَّتهم، فإنَّها بالتأكيد كانت لإبعادنا عن معرفة الحقيقة.

على الرغم ممَّا عرفته، فقد اشتريت أشرطة الفيديو، وبعض الكتب أيضاً لأقرأ عن الإسلام.

وفي مكان إقامتنا، حدَّثني صديقي عن قصص الأنبياء، وكنت حقيقةً مُقتنعاً، لكنَّ كبريائي أبقاني بعيداً عن الإسلام.

وبعد مُضيِّ سبعة أشهر، حضر إليَّ في غرفتي صديقٌ آخر، وهو مسلمٌ من الهند، وأعطاني نسخةً من ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزيَّة. وفيما بعد قادني إلى البلد، ثم اصطحبني إلى المركز الإسلاميّ.

هناك قابلت أحد الإخوة الفلبينيِّين؛ ودار بيننا نقاشٌ حول بعض المسائل الدينيَّة، وقام بربط ذلك بمقارنةٍ لحياته قبل الإسلام ــ حين كان مسيحيّاً ــ وبعده؛ ثم شرح لي بعض تعاليم الإسلام.

وفي تلك الليلة المباركة، دخلت الإسلام، وأعلنت دخولي الإسلام بترديد الشهادتين»

سرد لي قصته، ثم قال: كنت سابقاً أتَّبع ديناً أعمى، أمَّا الآن فإنِّي أرى الحقيقة المطلقة، وهي أنَّ الإسلام هو الطريقة الأفضل والكاملة للحياة المصمَّمة لكلِّ البشريَّة.

الدكتور جاري ميلر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور جاري ميلر) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: قال: هذا (جاري ميلر).. أو كما يحب أن يسمى (عبد الأحد عمر).. وهو كندي الأصل.. وقد كان قسيساً نشيطا يدعو للمسيحية، بالإضافة إلى اهتمامه بالرياضيات.. بل كونه عالما فيها.

وقد كان أول لقاء لي معه أني كنت في ساحة (.. !؟) أستمع إليه، وهو يتوجه بخشوع للملتفين حوله يقول لهم: أيها المسلمون، لو أدركتم فضل ما عندكم علي ما عند غيركم لحمدتم الله أن أنبتكم من أصلاب مسلمة ورباكم في محاضن المسلمين وأنشأكم علي هذا الدين العظيم.

ثم أضاف: إن معني النبوة، ومعني الألوهية، ومعني الوحي، ومعنى الرسالة، ومعنى البعث، ومعنى الحساب.. كل تلك المعاني ليست إلا عندكم.. والفرق بين ما عندكم فيها، وما عند غيركم، كالفرق مابين السماء

---

(١) هو الدكتور جاري ميلر (عبد الأحد عمر) عالمٌ في الرياضيات واللاهوت المسيحيِّ ومُبشِّرٌ سابق، وقد كان الدكتور ميلر في إحدى فترات حياته نشطاً في التبشير المسيحيّ، ولكنَّه بدأ مبكِّراً باكتشاف تناقضاتٍ كثيرةٍ في الإنجيل.

وفي سنة ١٩٧٨، حصل أن قرأ القرآن الكريم مُتوقِّعاً بأنَّه أيضاً سيحوي خليطاً من الحقيقة والزَّيْف. لكنَّه ذهل باكتشافه أنَّ رسالة القرآن الكريم كانت مُطابقةً لنفس جوهر الحقيقة الَّتي استخلصها من الإنجيل. فدخل الإسلام، ومنذئذ أصبح نشطاً بتقديمه للناس، بما في ذلك استخدام المذياع والبرامج التلفازيَّة. وهو أيضاً مؤلِّفٌ للعديد من المقالات والنشرات الإسلاميَّة، نذكر منها:« ردٌّ موجَزٌ على المسيحيَّة — وجهة نظر المسلم"،و"القرآن العظيم"،و"خواطر حول (براهين) أُلوهيَّة المسيح"،و"أُسُسُ عقيدة المسلم"،و"الفرق بين الإنجيل والقرآن"،و"المسيحيَّة التبشيريَّة — تحليلٌ لمسلم".

والأرض.

بعدما انتهى من خطابه الذي يفيض من قلب ممتلئ بالخشوع الصادق اقتربت منه لأتنسم سر رائحة الصدق التي نبعت من كلامه.

قال لي: لقد جذبني لهذا الدين وضوح العقيدة، ذلك الوضوح الذي لا أجده في عقيدة سواها.

قلت: هذه الجملة.. فما التفاصيل؟

قال: لقد كنت أحب الرياضيات حبا شديدا.. وقد كان سر حبي لها هو حب المنطق أو التسلسل المنطقي للأمور..

قلت: فهل قادتك الرياضيات للإسلام؟

قال: تستطيع أن تقول ذلك.. في يوم من الأيام أردت أن أطبق المنهج المنطقي مع القرآن.. لقد قرأته بحثا عن بعض الأخطاء التي تعزز موقفي عند دعوتي للمسلمين للمسيحية... وكنت أتوقع أن أجد القرآن كأي كتاب بشري تلوح عليه آثار المؤلف، وآثار البيئة التي أبدع فيها.

قلت: فما وجدت؟

قال: وجدت ما بهرني.. لقد وجدت أن القرآن ذلك الكتاب القديم الذي كتب منذ ١٤ قرنا لا يتكلم عن الصحراء ولا عن البيئة العربية.. بل ولا عن محمد وحياة محمد كشأن الكتاب المقدس عندنا.. بل هو كتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

كنت أتوقع أن أجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده.. لكني لم أجد شيئا من ذلك.

بل وجدت فوق ذلك.. وهو ما أوقعني في حيرة عظيمة.. أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم، وفيها تشريف لمريم ــ عليها السلام ــ ولا يوجد مثيل لها في كتب المسيحيين ولا في أناجيلهم.. وفي نفس الوقت لم أجد سورة باسم عائشة أو فاطمة رضي الله عنهن.

ومثل ذلك وجدت أن عيسى عليه السلام ذكر بالاسم ٢٥ مرة في القرآن في حين أن النبي محمد ﷺ لم يذكر إلا ٤ مرات فقط.

ثم أخذت أقرأ القرآن بتمعن أكثر لعلي أجد مأخذا عليه.. لكني لم أجد إلا ما يبهرني:

لقد قرأت مرة قوله ﷻ:﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (النساء:٨٢)، فملأتني بالحيرة.. فمن المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification test.. والعجيب أن القرآن الكريم يدعوا المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا.

ومع كثرة بحوثي ومطالعاتي لم أجد مؤلفا في العالم يمتلك الجرأة، ليؤلف كتابا، ثم يقول عنه (هذا الكتاب خالي من الأخطاء).. ولكن القرآن على العكس تماما لا يقول لك (لا يوجد أخطاء) فقط، بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء، ولن تجد.

ومن الآيات التي استوقفتني، وبهرتني:﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبياء:٣٠)

لقد وجدت أن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٣، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب.. فالرتق هو الشي المتماسك في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك [1] ..

ومن الآيات التي استوقفتني قوله ﷻ:﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١)﴾ (الشعراء)، وقوله ﷻ:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل:٩٨)

التفت إلي، وقال: أرأيت.. هل هذه طريقة الشيطان في كتابة أي كتاب.. يؤلف كتابا، ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب يجب عليك أن تتعوذ مني.

إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية في هذا الكتاب المعجز.. وفيها رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة.

ومن السور التي استوقفتني سورة المسد:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾ (المسد)

لقد علمت أن هذا الرجل أبا لهب كان يكره الإسلام كرها شديدا، لدرجة أنه كان يتبع محمدا ﷺ أينما ذهب ليقلل من قيمة ما يقوله الرسول ﷺ.. فإذا رأى الرسول ﷺ يتكلم إلى أناس غرباء، فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسألهم ماذا قال لكم محمد؟.. لو قال لكم أبيض، فهو أسود، ولو قال لكم ليل فهو نهار.

وقبل ١٠ سنوات من وفاة أبي لهب نزلت هذه السورة، وهي تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار ، أي بمعنى آخر أنه لن يدخل الإسلام.

وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول:« محمد يقول أني لن أسلموسوف أدخل النار، ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل في الإسلام وأصبح مسلما.. الآن مارأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي؟»

لكن أبا لهب لم يفعل ذلك، مع أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول ﷺ لكنه لم يخالفه في هذا الأمر.

لقد كانت لدية عشر سنوات ليهدم الإسلام بدقيقة واحدة، ولكن لأن هذا الكلام ليس كلام محمد ﷺ ولكنه وحي ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم فإن أبا لهب لم يسلم.

كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة إن لم يكن هذا وحيا من الله؟.. بل كيف يكون واثقا خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحيا من الله؟

لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا معنى واحد هذا وحي من الله[2].

---

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

(٢) انظر المزيد من النبوءات الغيبية وتفاصيلها في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

وقد ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أن من المعجزات الغيبية التي استوقفته، وجعلته يراجع نفسه التحدي القرآني للمستقبل بأشياء لايمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهي خاضعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو Falsification tests أو مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشيء المراد اختباره.

فالقرآن ـــ مثلا ـــ يذكر أن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهذا مستمر الى وقتنا الحاضر، فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود.

وهذا يعتبر تحديا عظيما، ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين، ويقولون عندها:« ها نحن نعاملكم معاملة طيبة، والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم ، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة !! ولن يحدث، لأن هذا الكلام نزل من الذي يعلم الغيب وليس كلام إنسان »

التفت إلي، وقال: هل رأيت أن الآية التي تتكلم عن عداوة اليهود للمسلمين تعتبر تحديا للعقول، فالله ﷻ يقول:﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة:٨٢)

ومن الآيات التي ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أنها استوقفته تلك الآيات التي تنبئ عن وحي الله لرسول الله ﷺ بما في القرآن من الغيوب.. فالله ﷻ يقول:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران:٤٤)، ويقول:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (هود:٤٩)، ويقول:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (يوسف:١٠٢)

لقد قال لي الدكتور ميلر بعد أن قرأ علي هذه الآيات:« لا يوجد كتاب مما يسمى بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات ، على سبيل المثال الكتاب المقدس عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء وأسماءهم فلان وفلان..

والكتاب المقدس دائما يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أوالكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه.

وهذا كله بعكس القرآن الذي يمد القارئ بالمعلومة، ثم يقول: لك هذه معلومة جديدة.. بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت مترددا في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر.. والمذهل في الأمر هو أهل مكة في ذلك الوقت ـــ أي وقت نزول هذه الآيات ـــ ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدي بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها محمد ﷺ ولا قومه ،، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديدا بل نحن نعرفه ، أبدا لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات ، أيضا لم يحدث مثل هذا ، ولكن الذي حدث أن أحدا لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعلا معلومات جديدة كليا، وليست من عقل بشر، ولكنها من الله الذي يعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل »

قلت: أرى أن النبوءات التي ملأتك بالانبهار في القرآن؟

قال: ليست وحدها.. بل كل القرآن بهرني.. كل آية من آياته، بل كل كلمة من كلماته..

أذكر أنه قبل بضع سنوات، وصلتنا قصَّةٌ إلى تورونتو بكندا عن رجلٍ كان بحَّاراً في الأسطول التجاريّ، ويكسب رزقه من عمله في البحر، وقد أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقرأها، ولم يكن هذا البحَّار يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام، لكنَّه كان مهتمّاً بقراءة القرآن الكريم. وعندما أنهى قراءته، حمله وعاد به الى المسلم الَّذي أعطاه إياه، وسأله:« مُحمَّدٌ هذا.. أكان بحَّاراً؟»، فقد كان الرجل مندهشاً من تلك الدِّقَّة الَّتي يصف بها القرآن العاصفة على سطح البحر. وعندما جاءه الردُّ:« لا، في الحقيقة لم يكن. فمحمَّدٌ عاش في الصَّحراء »

لقد كان هذا كافياً له ليُعلن إسلامه على الفور، لقد كان مُتأثِّراً جدّاً بالوصف القرآنيِّ للعاصفة البحريَّة، لأنَّه بنفسه كان مرَّةً في خِضَمِّها، وكان لذلك يعلم أنَّه أيّاً من كان الَّذي كتب هذا الوصف، فإنَّه لا بُدَّ وقد عاش هذه العاصفة بنفسه، فالوصف الَّذي جاء في القرآن عن العاصفة لم يكن شيئاً يستطيع أن يكتبه أيُّ كاتبٍ من محض خياله، والموج الَّذي من فوقه موجٌ من فوقه سحاب لم يكن شيئاً يمكن لأحدهم تخيُّله والكتابة عنه، بل إنَّه وصفٌ كتبه من يعرف حقاًّ كيف تبدو العاصفة البحريَّة.

التفت إلي، وقال: هذا مثلٌ واحدٌ على أنَّ القرآن ليس مرتبطاً بزمان أو مكان، ومن المؤكد أنَّ الإشارات العلميَّة الَّتي يُعبِّر عنها لا يمكن أن يكون أصلها من الصَّحراء قبل أربعة عشر قرناً مضت.

لقرونٍ عدَّةٍ قبل ظهور رسالة محمَّدٍ ﷺ، كانت هناك نظريَّةٌ معروفةٌ عن الذرَّة وضعها الفيلسوف اليوناني ديموقريتوس، فهذا الفيلسوف والَّذين جاءوا من بعده افترضوا أنَّ المادَّة تتكوَّن من دقائق صغيرةٍ غير مرئيَّةٍ وغير قابلةٍ للانقسام تسمى الذرَّات. وكان العرب أيضاً قد أَلِفُوا هذا المفهوم، فكانت في الواقع كلمة (ذرَّة) في العربيَّة تعني أصغر جزء كان معروفاً للإنسان.

أمَّا الآن فإنَّ العلْم الحديث قد اكتشف بأنَّ هذه الوحدة الأصغر للمادَّة ــ وهي الذرَّة الَّتي تحمل نفس خصائص المادة الَّتي تنتمي إليها ــ يمكن تقسيمها إلى مُكوِّناتها.

وهذه حقيقةٌ جديدةٌ تُعدُّ نتاجاً للتطوُّر في القرن الماضي، فمن المثير جدّاً للاهتمام أنَّ هذه المعلومة كانت قد وُثِّقت فعلاً في القرآن الكريم قبل ذلك بأربعة عشر قرناً، والَّذي يقول الله تعالى فيه:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس: ٦١)

فبلا أدنى شك أنَّ مثل هذا التصريح لم يكن شيئاً مألوفاً حتَّى للعربيِّ في ذلك الوقت، فبالنسبة له كانت الذرَّة هي أصغر شيءٍ موجود، وهذا دليلٌ على أنَّ القرآن لم يعف عليه الزَّمن.

قلت: أرى لك اهتماما آخر بالإعجاز العلمي الذي يذكر المسلمون بأنه موجود في القرآن؟

قال: أجل.. إنَّ فهم القرآن الكريم بطريقةٍ علميَّةٍ حقيقيَّةٍ ممكنٌ للغاية، وذلك لأنَّ القرآن الكريم يقدِّم شيئاً لا تقدِّمه الكتب السماويَّة الأخرى خاصَّة أو الأديان الأخرى عامَّة. إنَّ في القرآن ما يطلبه العلماء. هناك الكثير

في هذه الأيَّام ممَّن لديهم نظريَّاتٍ عن طريقة عمل الكون، إنَّهم في كلِّ مكان من حولنا، لكنَّ مجتمع أهل العلم لا يكلِّف نفسه حتَّى بالاستماع إليهم. وذلك لأنَّ المجتمع العلميَّ -وخلال القرن الماضي- وضع شرطاً لقبول مناقشة النظريَّات الجديدة، وهو ما يُسمَّى (اختبار الزَّيف) فهم يقولون:« إن كانت لديك نظريَّة، فلا تزعجنا بها حتى تحضر لنا مع هذه النظريَّة طريقةً ما تُثبت إن كنت على صوابٍ أم على خطأ »

مثل هذا الاختبار كان بالتأكيد هو السَّبب الَّذي جعل العلماء يستمعون لإينشتاين في مطلع هذا القرن. لقد جاء بنظريَّةٍ جديدةٍ، وقال:« أنا أعتقد بأنَّ الكون يعمل بهذه الطَّريقة، وها هي ثلاث طُرُق لتُثبت إنْ كنت مخطئاً! » بعدئذٍ وضع العلماء نظريَّته تحت الاختبار لمدَّة ستِّ سنوات، فنَجَحَتْ في اجتياز الاختبارات، وبالطُّرق الثَّلاث كلِّها.

طبعاً، هذا لم يثبت أنَّه كان عظيماً، بل أثبت فقط أنَّه يستحقُّ أنْ يُستمع له، لأنَّه قال:« هذه هي نظريَّتي، وإنْ أردتم إثبات أنِّي مخطئٌ فافعلوا هذا أو جرِّبوا ذاك »

وهذا هو بالضَّبط ما يقدِّمه القرآن الكريم.. بعض هذه الاختبارات أصبحت مفروغاً منها حيث إنَّها أثبتت صحَّتها، والبعض الآخر ما زال قائماً إلى يومنا هذا. إنَّ القرآن يشير أساساً إلى أنَّه إذا لم يكن هذا الكتاب هو ما يدَّعيه، فما عليكم إلَّا أن تفعلوا هذا أو ذاك لتثبتوا أنَّه مُزيَّف، وخلال ألفٍ وأربعمائة سنة مرَّت لم يستطع أحد بالطبع أن يفعل هذا أو ذاك فيثبت ذلك، لذلك ما زال يعتبر صحيحاً وأصيلاً.

ولهذا أنا أقترح على من يريد أن يدخل في مناظرةٍ حول الإسلام مع أحد من غير المسلمين ـــ الَّذين يدَّعون أنَّ لديهم الحقيقة وأنَّ المسلمين على الباطل ـــ أن يضع بدايةً كلَّ الحُجَجِ الأخرى جانباً وأن يسأله ما يلي:« هل يوجد أيُّ اختبارٍ للزَّيف في دينك؟ هل يوجد في دينك ما يمكن أن يُبيِّن أنَّكم على خطأ إن استطعت أنا أن أُثبت ذلك؛ هل يوجد أيُّ شيء؟!

التفت إلي، وقال: أستطيع أن أعدك منذ الآن أنَّه لن يكون لدى أيٍّ منهم أيُّ اختبار أو إثبات؛ لا شيء!وذلك لأنَّهم ليس لديهم أدنى فكرةٍ أنَّه يتوجَّب عليهم حين عرضهم ما يؤمنون به على النَّاس أن يقدِّموا لهم الفرصة لإثبات أنَّهم مخطئون إن استطاعوا.

ومع هذا، فإنَّ الإسلام يقدِّم لهم ذلك. ومثالٌ رائعٌ على كيفيَّة تزويد القرآن الكريم الإنسان بفرصةٍ ليتثبَّت من أصالته، وأن (يثبت زيفه) جاء في السُّورة الرابعة. وأقول بصدق أنِّي كنت مندهشاً حين اكتشفت هذا التحدِّي لأوَّل مرَّة:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء ٨٢)

فهذا يمثِّل تحدِّياً واضحاً لغير المسلمين، لأنَّه (وبطريقةٍ غير مباشرة) يدعوهم لإيجاد أيِّ خطأ. وحقًّا -إن وضعنا الجديَّة أو الصُّعوبة في هذا التحدِّي جانباً- فإنَّ تقديم مثل هذا التحدِّي -في المقام الأوَّل- ليس حتَّى من طبيعة البشر، فهو يتعارض مع تكوين الشخصيَّة البشريَّة. فالإنسان لا يتقدَّم لاختبارٍ في المدرسة، ثمَّ بعد إنهاء الاختبار يكتب ملحوظةً للمُصَحِّحِ يقول فيها:« هذه الإجابات مثاليَّة، ولا يوجد فيها أيُّ خطأ. فجد خطأً واحداً إن استطعت! » فالإنسان ببساطةٍ لا يفعل ذلك. فذاك المعلِّم ما كان ليذوق طعم النَّوم حتى يجد خطأً ما! ومع ذلك فإنَّ هذه هي الطَّريقة الَّتي يصل بها القرآن إلى النَّاس.

سكت قليلا، ثم قال: موقفٌ آخرٌ مثيرٌ للدَّهشة يتكرَّر في القرآن كثيراً، ويتعامل مع نُصح القارئ، فالقرآن يُعْلِمُ القارئ عن حقائق مختلفةٍ ثمَّ يُعطيه النَّصيحة بأنَّه إن كان يريد أن يعرف أكثر عن هذا أو ذاك، أو إن كان يشكُّ فيما قيل، فما عليه عندئذٍ إلَّا أن يسأل أولئك الَّذين يملكون العلم والمعرفة. وهذا موقفٌ مدهش، فمن غير المعتاد أن يُؤلَّف كتابٌ من قِبَلِ إنسانٍ لا يملك أيَّ خلفيَّةٍ جغرافيَّة، أو نباتيَّة، أو أحيائيَّة، ويبحث فيه مثل هذه الموضوعات، وبعدئذٍ ينصح القارئ بأن يسأل أهل العلم إن كان في رَيْب من شيء. يقول الله تعالى في القرآن العظيم:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنبياء ٧)

في كلِّ عصرٍ من العصور السابقة ـــ وحتَّى الآن ـــ كان هناك علماء مسلمون يتتبَّعون إرشادات القرآن، وقد توصَّلوا إلى اكتشافاتٍ مذهلة، فإذا نظر أحدنا إلى أعمال العلماء المسلمين لعصورٍ عديدةٍ مضت، فسيجد أنَّهم كانوا ممتلئين بالاستشهادات القرآنيَّة، فأعمالهم تُبيِّن أنَّهم قاموا بالبحث في مكانٍ ما عن شيءٍ ما، وقد أكَّدوا أنَّ سبب بحثهم في مثل هذا المكان أو ذاك بالذَّات لأنَّ القرآن أرشدهم في ذلك الاتجاه.

فمثلاً يشير القرآن إلى خلق الإنسان، ثمَّ يحثُّ القارئ على البحث في ذلك، فهو يعطي القارئ لمحةً أين يبحث، ويخبره بأنَّه سيجد معلوماتٍ أكثر عن ذلك، وهذه هي نوعيَّة الأشياء الَّتي يبدو أنَّ المسلمين اليوم يبحثونها بتوسُّع.

سأضرب لك مثلا على ذلك.. قبل عدَّة سنوات، قام بعض المسلمين بجمع كلِّ الآيات القرآنيَّة الَّتي تتحدَّث عن علم الأجنَّة، وهو العلم الَّذي يدرس مراحل نموِّ الجنين في الرَّحم؛ ثمَّ قالوا:« هذا ما يقوله القرآن الكريم. فهل هو حقّ؟»

في الحقيقة، لقد أخذوا في هذا بنصيحة القرآن الكريم:﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(النحل: من الآية٤٣).. وحصل أن اختاروا أستاذاً جامعيّاً في علم الأجنَّة من جامعة تورونتو في كندا، و لم يكن مسلماً. هذا الأستاذ يُدعى (كيث موور)، وهو مؤلِّفٌ للعديد من الكتب في علم الأجنَّة، ويُعدُّ من الخبراء العالميِّين المُبرِّزين في هذا المجال، وجَّهوا له الدَّعوة، ثمَّ قالوا له:« هذا ما يقوله القرآن الكريم فيما يخصُّ تخصُّصَكم. فهل هو صحيح؟.. ماذا تستطيع أن تخبرنا عن ذلك؟».. وأثناء إقامته في بلاد المسلمين، قدَّموا له كلَّ المساعدة الَّتي احتاجها في الترجمة وكلَّ العون الَّذي كان يطلبه.

لقد كان مذهولاً جدّاً بما وجد بحيث أنَّه غيَّر بعض النُّصوص في كتبه، فقد قام في الطبعة الثانية من (تاريخ علم الأجنَّة) بإضافة بعض المواد الَّتي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى، وذلك لما وجده في القرآن الكريم، وحقّاً فإنَّ هذا يُصوِّر بوضوحٍ أن القرآن الكريم سابقٌ لزمانه، وأنَّ أولئك الَّذين يؤمنون به يعرفون ما لا يعرفه الآخرون[1].

ابتسم، ثم قال: لقد كان من دواعي سروري أنِّي أجريت لقاءً تلفازيّاً مع الدكتور كيث موور، وتحدَّثنا مُطوَّلاً حول هذا الموضوع، وكان ذلك بالاستعانة بالصور التوضيحيَّة وغيرها، وقد ذكر بأنَّ بعض الأشياء الَّتي ذكرها القرآن الكريم عن نموِّ الإنسان لم تكن معروفةً إلى ما قبل ثلاثين عاماً، لقد ذكر في الواقع موضوعاً مُعيَّناً

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذا، وبأقوال هذا الدكتور في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

بشكل خاص، وهو وصف القرآن الكريم للإنسان بالعلقة في إحدى مراحل نموِّه، وأنَّ هذا الوصف كان جديداً بالنسبة إليه، ولكنَّه عندما تفحَّص الأمر وجده حقيقة، وهكذا أضافه إلى كتابه. لقد قال:« لم يخطر ببالي ذلك أبداً من قبل »، ولهذا فقد ذهب إلى قسم علم الحيوان وطلب صورةً للعلقة، وعندما وجد أنَّها تشبه الجنين تماماً في هذه المرحلة من النموّ، قرَّر أن يضع الصورتين في أحد كتبه (صورة الجنين وصورة العلقة).

بعد ذلك قام الدكتور موور أيضاً بتأليف كتابٍ عن علم الأجنَّة السريريِّ، وعندما نشر هذه المعلومات في تورونتو سبَّبت ضجَّةً كبيرةً في كلِّ أنحاء كندا.

لقد كانت في بعض الصُّحف على الصَّفحات الأولى وفي جميع أنحاء كندا، وبعض العناوين الرئيسيَّة كانت شديدة الطَّرافة. فمثلاً، كان أحد العناوين الرئيسيَّة يقول:« شيءٌ مدهشٌ وُجِدَ في كتاب قديم! »

ويبدو واضحاً من هذا المثل أنَّ النَّاس لم يفهموا بوضوحٍ حول ماذا كانت كلُّ تلك الضجَّة، وأحد الأمور الَّتي حدثت حقّاً أنَّ أحد الصحفيين سأل الدكتور موور:« ألا تعتقد أنَّ العرب ربَّما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء، أي عن وصف الجنين، وعن شكله وكيف يتغيَّر وينمو؟ فربَّما لم يكن هناك علماء، ولكنَّهم ربَّما قاموا بشيءٍ من التشريح الوحشيِّ على طريقتهم – أي قاموا بتقطيع النَّاس وتفحُّص هذه الأشياء »

فأشار له الدكتور على الفور بأنَّه نسي شيئاً في غاية الأهميَّة، وهو أنَّ كلَّ صور الجنين الَّتي عُرضت في الفيلم قد جاءت من صور أُخِذت عن طريق المجهر؛ وأضاف قائلاً:« ليست المسألة هي إنْ كان أحد النَّاس قد حاول اكتشاف علم الأجنَّة قبل أربعة عشر قرناً مضت، ولكنَّها في أنَّه لو حاول ذلك فإنَّه لم يكن باستطاعته رؤية شيء على الإطلاق! »

فكلُّ ما يصفه القرآن الكريم عن شكل الجنين هو عندما يكون صغيراً جدّاً ولا يُرى بالعين المجرَّدة، لذا فالمرء بحاجةٍ إلى مجهرٍ ليرى ذلك، إلَّا أنَّ مثل هذه الآلة لم تُكتشف إلَّا قبل أكثر من مائتي عامٍ بقليل.

وأضاف الدكتور موور ساخراً:« ربَّما كان لدى أحدهم ــ قبل أربعة عشر قرناً مضت ــ مجهراً سرِّيّاً، فقام بعمل هذه الأبحاث، ولم يرتكب أثناء ذلك أيَّ خطأٍ يُذكر، ثمَّ علَّم محمَّداً ذلك بطريقةٍ ما، وأقنعه بأن يضع هذه المعلومات في كتابه؛ وبعدئذٍ حطَّم مجهره، واحتفظ بسرِّه للأبد.. فهل أنت تصدِّق ذلك؟! يجب عليك حقّاً ألَّا تفعل، حتَّى تحضر دليلاً للإثبات، لأنَّ مثل هذه النظريَّة ما هي إلَّا سخافة! »

وعندما سُئِل الدكتور موور:« كيف تفسِّر إذاً وجود مثل هذه المعلومات في القرآن؟ » كان ردُّه:« لم يكن هذا ممكناً إلَّا بوحيٍ من الله »

ومع أنَّ هذا المثل عن بحث الإنسان عن معلوماتٍ مُحتواةٍ في القرآن الكريم قام به عالمٌ غير مسلم، إلَّا أنَّه يعتبر صحيحاً، وذلك لأنَّ هذا الرَّجل واحدٌ من أهل الذِّكر في هذا المجال، فلو ادَّعى شخصٌ عاديٌّ بأنَّ ما يقوله القرآن حول علم الأجنَّة صحيح، لما كان لزاماً علينا قبول كلامه.

على أيَّة حال فإنَّ المركز المرموق والاحترام والتقدير الَّذي يكنُّه المرء للعلماء تجعل الإنسان يفترض تلقائيّاً صحَّة النتائج الَّتي يتوصَّلون اليها نتيجة البحث في موضوعٍ ما.

وهذا ما دفع أحد زملاء الدكتور موور ـــ يُدْعى مارشال جونسون، ويعمل بشكلٍ مُكثَّفٍ في مجال علم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) في جامعة تورونتو ـــ لكي يصبح مُهتمّاً جدّاً بالقرآن الكريم، لأنَّ الحقائق الَّتي ذكرها عن علم الأجنَّة كانت دقيقة، ولذلك سأل المسلمين أن يجمعوا له كلَّ شيءٍ في القرآن الكريم ممَّا له علاقة بتخصُّصه، ومرَّةً أخرى كان النَّاس مندهشين جدّاً من النتائج.

التفت إلي، وقال: إنَّ عدداً كبيراً من الموضوعات مذكورٌ في القرآن الكريم، ممَّا يتطلَّب بالتأكيد وقتاً طويلاً لتفصيل كلِّ موضوعٍ على حدة، فيكفي من أجل الهدف من هذا النِّقاش أن أقول بأنَّ القرآن الكريم يضع تصريحاتٍ واضحةٍ ودقيقةٍ حول موضوعاتٍ متنوِّعةٍ، وأثناء ذلك ينصح القارئ بالتثبُّت من صحَّتها بالبحث عند العلماء، وكلُّ ما صُوِّر في القرآن أثبت صحَّته بوضوح.

سكت قليلا، ثم قال: هناك أمرٌ في القرآن الكريم لا نجده في أيِّ كتابٍ آخر!

قلت: ما هو؟

قال: من المثير للاهتمام أنَّ القرآن الكريم حين يزوِّد القارئ بالمعلومات، فإنَّه كثيراً ما يخبره بأنَّه لم يكن يعلم ذلك من قبل.

اسمع قوله ﷻ:﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) (النساء:١١٣).. واسمع قوله ﷻ:﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)

وطبعاً لا يوجد أيُّ كتابٍ مقدَّسٍ يقوم بتقديم مثل هذا الزَّعم، فكلُّ الكتب المقدَّسة والمخطوطات القديمة الَّتي يملكها النَّاس تحوي بالفعل معلوماتٍ كثيرة، ولكنَّها تذكر دوماً من أين جاءت تلك المعلومات.

فمثلاً، عندما يناقش الإنجيل التاريخ القديم، فإنَّه يذكر بأنَّ هذا الملك عاش في المنطقة الفلانيَّة، وأنَّ ذاك خاض المعركة الفلانيَّة، وأنَّ الآخر كان له أبناء كثيرون.

وهو دائماً ينصُّ على أنَّك إنْ أردت الحصول على المزيد من المعلومات، فما عليك إلَّا أن تقرأ الكتاب الفلاني أو العلَّاني، لأنَّه من هناك جاءت المعلومات. وباختلافٍ كبيرٍ عن هذا الأسلوب، فإنَّ القرآن الكريم يزوِّد القارئ بالمعلومات، ثمَّ يقول له إنَّ هذه المعلومات شيءٌ جديدٌ لم يكن يعرفه أحدٌ حين نزوله.

وطبعاً كان هناك دائماً دعوةٌ للبحث في هذه المعلومات، للتأكُّد من صحَّتها وأصالتها (إنَّها وحيٌ من الله تعالى).

ومن المثير للدَّهشة أنَّ مثل هذا الطَّرْح لم يستطع أبداً أنْ يتحدَّاه أحدٌ من غير المسلمين قبل أربعة عشر قرناً مضت، فالواقع أنَّ أهل مكَّة الَّذين كانوا يكرهون المسلمين كرهاً شديداً، وكانوا يستمعون لهذا الوحي المرَّة تلو المرَّة وهو يدَّعي بأنَّ ما يسمعونه شيءٌ جديدٌ لم يعرفوه من قبل، لم يستطع أحدٌ منهم أن يرفع صوته قائلاً:« لا، ليس هذا بجديد. فنحن نعلم من أين جاء محمَّدٌ بهذه المعلومات، فقد تعلَّمناها في المدرسة »

إنَّهم لم يستطيعوا أبداً تحدِّي أصالة القرآن الكريم، لأنَّه فِعْلاً كان شيئاً جديداً.

سكت قليلا، وكأنه يسترجع ذكرياته، ثم قال: في إحدى المرَّات جاءني رجلٌ بعد أن أنهيت محاضرةً ألقيتها في جنوب إفريقيا، لقد كان غاضباً جدّاً لما قلتهُ، ولذلك ادَّعى قائلاً:« سأذهب إلى بيتي الليلة ولا بُدَّ أن أجد خطأً ما في القرآن »، فأجبته طبعاً:« أُهنِّئُك. فهذا هو الشيء الأكثر ذكاءً فيما قلته »

بالتأكيد، هذا هو الموقف الَّذي يجب أن يتَّخذه المسلمون مع أولئك الَّذين يشكُّون في أصالة القرآن الكريم، لأنَّ القرآن الكريم نفسه يُقدِّم هذا التحدِّي، فحتماً بعد القبول بهذا التحدِّي، والاكتشاف بأنَّ القرآن حقّ، فإنَّهم سيؤمنون به لأنَّهم لم يستطيعوا أن يجرِّدوه من صحَّته؛ بل سيكتسب احترامهم لأنَّهم تأكَّدوا من أصالته بأنفسهم.

والحقيقة الأساسيَّة الَّتي يجب أن تُكرَّر كثيراً بخصوص التثبّت من أصالة القرآن الكريم، هي أنَّ عدم قدرة أحدهم على توضيح أيِّ ظاهرةٍ بنفسه لا يلزمه بقبول وجود هذه الظاهرة، أو قبول تفسير شخصٍ آخر لها.

وهذا يعني أنَّ عدم قدرة الإنسان على تفسير شيءٍ ما لا يعني أنَّه يجب بالضرورة أن يقبل بتفسير الآخرين. ومع ذلك فإنَّ رفض الإنسان لتفسير الآخرين يعود بالعبء عليه نفسه ليجد جواباً مُقْنعاً. هذه النظريَّة العامَّة تنطبق على العديد من المفاهيم في الحياة، ولكنَّها تتناسب بشكلٍ كبيرٍ مع التحدِّي القرآني، لأنَّها تشكِّل صعوبةً كبيرةً لمن يقول:« أنا لا أومن بالقرآن »، ففي اللحظة الَّتي يرفضه فيها، يجد الإنسان نفسه ملزماً بأن يجد التفسير لذلك بنفسه، لأنَّه يشعر بأنَّ تفسيرات الآخرين ليست صحيحة.

في الحقيقة، وخاصَّةً في إحدى الآيات القرآنيَّة الَّتي اعتدت أن أرى أنَّها تُرجمت خطأً إلى الإنجليزيَّة، يذكر الله تعالى رجلاً كان يسمع آيات الله تتلى عليه، إلاَّ أنَّه كان يغادر دون أن يتفحص حقيقة ما سمع، أي أنَّ الإنسان ـــ بطريقةٍ أو بأخرى ـــ مذنبٌ إذا سمع شيئاً ولم يبحثه أو يتفحَّصه ليرى إن كان صحيحاً.

وهذا جاء في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان:٧)

فالإنسان يُفترض منه أن يُعْمِل عقله بكلِّ المعلومات الَّتي ترده، وأن يقرِّر ما هو الهراء منها ليُلْقِيه بعيداً، وما هو المفيد ليحتفظ به ويستفيد منه فيما بعد. فلا يستطيع المرء أن يترك الأمور على اختلاف أنواعها تزدحم في ذهنه هكذا فقط. بل يجب أن توضع الأمور في فئاتها المناسبة وأن تُفهم حسب ذلك.

فمثلاً، إذا كانت المعلومات ما تزال في حاجةٍ إلى تأمُّلٍ، فعندئذٍ يجب أن يُميِّز المرء إن كانت أقرب إلى الصواب، أم هي إلى الخطأ أقرب. ولكن إذا كانت كلُّ الحقائق قد عُرِضَت، فإنَّه عندئذٍ يجب عليه أن يُقرِّر تماماً بين هذين الأمرين. وحتَّى عندما لا يكون المرء إيجابياً بخصوص أصالة المعلومة، إلاَّ أنَّه ما زال مطلوباً منه أن يُعْمِل عقله في كلِّ المعلومات ليعترف بأنَّه فقط لا يعرف ذلك على وجه الدقَّة.

ومع أنَّ هذه النقطة الأخيرة تبدو وكأنَّها غير ذات قيمةٍ واقعياًّ، إلاَّ أنَّها مفيدةٌ للوصول إلى نتيجةٍ إيجابيَّةٍ فيما بعد، وذلك لأنَّها تُرغم المرء على الأقلِّ بأن يتعرَّف ويبحث ويعيد النظر في الحقائق. وهذا التآلف مع المعلومات سيزوِّد الإنسان بالحد الفاصل عندما تتمُّ الاكتشافات المستقبليَّة وتُعرض معلوماتٌ إضافيَّة، فالشيء المهمُّ هو أن يتعامل المرء مع الحقائق، لا أن ينبذها ـــ هكذا وببساطة ـــ وراء ظهره بدافع العاطفة أو اللامبالاة.

سكت قليلا، ثم قال: اليقين الحقيقيُّ بخصوص صحَّة القرآن الكريم واضحٌ من خلال الثِّقة الَّتي تُهَيْمِنُ خلال آياته، وهي الثِّقة الَّتي تأتي بطريقةٍ مختلفة، ألا وهي (استتراف البدائل)، فالقرآن الكريم أساساً يؤكِّد أنَّه وحيٌ يوحى، فإن كان هناك من لا يصدِّق ذلك، فليثبت له مصدراً آخر! وهذا هو التحدِّي.

لدينا هنا كتابٌ مصنوعٌ من الورق والحبر، فمن أين أتى؟ وهو يقول أنَّه وحيٌ إلهي؛ فإن لم يكن كذلك، فما هو مصدره؟ والحقيقة المثيرة هي أنَّه لا يوجد أحدٌ على الإطلاق لديه تفسيرٌ يصلح ليناقض ما جاء في القرآن الكريم.

في الواقع، لقد تمَّ استتراف كلِّ البدائل، وحيث أنَّ هذا الفكر قد أُسِّس من قِبَلِ غير المسلمين فقد اختزلت هذه البدائل لتصبح مقصورةً على مدرستين فكريَّتيْن تبادليّاً، مُصرِّين في ذلك على إحداهما أو على الأخرى. فمن ناحيةٍ توجد مجموعةٌ كبيرةٌ من الَّذين بحثوا في القرآن الكريم لمئات السنين والَّذين يدَّعون قائلين:« نحن متأكِّدون من شيءٍ واحد، وهو أن ذلك الرَّجل محمَّداً كان يتوهَّم أنَّه نبي.. فقد كان مجنوناً »، فهم مقتنعون بأنَّ محمَّداً ﷺ كانَ مخدوعاً بطريقةٍ ما.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هناك مجموعة أخرى تدَّعي:« بوجود هذا الدَّليل (الجنون)، فإنَّنا يقيناً نعرف شيئاً واحداً، وهو أنَّ ذلك الرَّجل محمَّداً كان كاذباً »

وما هو مدعاةٌ للسخرية أنَّ هاتين المجموعتين لا يبدو أبداً أنَّهما تجتمعان دون تناقض، وفي الواقع، فإنَّ العديد من المراجع الَّتي كُتبت عن الإسلام عادةً تدَّعي النظريَّتين معاً. فهم يبدأون بالقول بأنَّ محمَّداً ﷺ كان مجنوناً، وينتهون بأنَّه كان كاذباً.

ويبدو أنَّهم لا يدركون أبداً بأنَّه ﷺ لم يكن بالإمكان أن يكون الاثنين معاً! لكنَّ الكثير من المراجع في العادة تذكر هذيْن الأمريْن معاً.

فمثلاً، إذا جُنَّ أحد النَّاس وظنَّ حقاً أنَّه نبيّ، فإنَّه لن يقضي الليل بطوله مُخطِّطاً:« كيف سأخدع النَّاس غداً ليظنُّوا أنِّي نبيّ؟»، فلأنَّه يؤمن فعلاً بأنَّه نبيّ، هو واثقٌ بأنَّ الإجابة على أيِّ تساؤلٍ ستأتيه عن طريق الوحي.

وفي واقع الأمر، فإنَّ جزءاً كبيراً من القرآن الكريم نزل على شكل ردود على تساؤلات، فكان أحدهم يسأل رسول الله محمَّداً ﷺ سؤالاً، فيترل الوحي بالإجابة. ومؤكَّدٌ أنَّ أحد النَّاس إن كان مجنوناً ويعتقد بأنَّ ملاكاً سوف يلقي الإجابة في أُذُنه، فإنَّه عندئذ حين يسأله أحد النَّاس سؤالاً سيظنُّ بأنَّ ملاكاً سيأتيه بالإجابة. فلأنَّه مجنون، هو حقّاً سيظنُّ ذلك. ولن يطلب من السائل الانتظار بُرهةً، ثم يذهب إلى أصحابه ليسألهم:« هل يعرف أيٌّ منكم الإجابة؟» فهذا النَّوع من السُّلوك هو ميزةٌ لغير المؤمن بأنَّه نبي.

ما يرفض قبوله غير المسلمين هو أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يكون الاثنين معاً، فهو إمَّا أن يكون متوهِّماً وإمَّا كاذباً. وبطريقةٍ أخرى، فهو إمَّا أن يكون واحداً منهما أو لا يكون كلاهما؛ وقطعاً لا يمكنه أن يكون الاثنين معاً! ويجب التأكيد هنا على حقيقة أنَّ هاتين الصفتين ــ بديهيّاً ــ هما سمتان شخصيّتان تبادليَّتان.. أي حيث توجد إحداهما فلا وجود للأخرى.

التفت إلي، وقال: سأذكر لك حوارا يمثل هذه الحلقة المفرغة الَّتي يدور فيها غير المسلمين بشكلٍ دائم. فإذا سألت أحدهم:« ما هو مصدر القرآن الكريم؟»، فإنَّه سيجيبك بأنَّ مصدره هو عقل رجلٍ كان مصاباً بالجنون، وعندئذ تسأله:« إن كان قد جاء به من رأسه، فمن أين حصل على المعلومات المحتواة فيه؟ فمن المؤكَّد أنَّ القرآن الكريم يذكر أشياء كثيرة لم يكن العرب يعرفونها »، ولكي يستطيع أن يفسر الحقيقة الَّتي قدَّمتها له فإنَّه سيغيِّر موقفه ويقول:« حسناً، ربَّما لم يكن مجنوناً، بل ربَّما كان بعض الأعاجم يعطونه تلك المعلومات، وهكذا كذب على النَّاس وأخبرهم بأنَّه كان نبيّاً »

وعند هذه النقطة يجب أن تسأله:« إذا كان محمدٌ كاذباً، فمن أين حصل على ثقته بنفسه؟ ولماذا كان يتصرَّف وكأنَّه كان نبيّاً فِعلاً؟»

وفي النِّهاية ــ وعندما يكون قد حُشر في الزاوية ــ فإنَّه كالقطَّة سيندفع فجأةً وبسرعةٍ بأوَّل ردٍّ يخطر على باله ــ ومتناسياً أنَّه قبل ذلك استثنى ذاك الاحتمال ــ ليدَّعي:« حسناً، ربَّما لم يكن كاذباً. ربَّما كان مجنوناً وحقّاً كان يعتقد أنَّه نبيّ »، وهكذا يبدأ دورانه في الحلقة المفرغة من جديد.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، واعتبره من أساليب الكفار في جحد الحقائق، فالله ۵ يقول:﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(١٣)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(١٤)﴾ (الدخان)

سكت قليلا، وكأنه يسترجع ذكرياته مع أمثال هؤلاء الجاحدين الذين ملأوا الدنيا بالشبهات الجوفاء، ثم قال: قبل سبع سنواتٍ تقريباً، زارني أحد الرُّهبان في بيتي، وفي تلك الحجرة الَّتي كنَّا نجلس فيها كان هناك قرآنٌ على الطاولة ووجهه إلى الأسفل، فلم يعرف الرَّاهب أيّ كتاب هو.

وفي منتصف نقاشنا، أشرت إلى الكتاب قائلاً:« أنا لديَّ الثِّقة بهذا الكتاب»، فأجاب ناظراً إلى القرآن الكريم من غير أن يعرف ما هو:« حسناً، وأنا أقول لك بأنَّه إن كان ذلك الكتاب ليس الإنجيل، فقد أُلِّف من قِبَلِ الإنسان »، فكان ردِّي عليه:« دعني أُحدِّثك شيئاً عمَّا جاء في هذا الكتاب »، وخلال ثلاثٍ أو أربع دقائق فقط ذكرت له ما يتعلَّق ببعض الأمور الموجودة في القرآن الكريم.

وبعد تلك الثَّلاث أو الأربع دقائق فقط غيَّر موقفه تماماً وقال:« أنت على حقّ، فالإنسان لم يؤلِّف هذا الكتاب، بل الشيطان هو الَّذي ألَّفه! »

طبعاً، اتِّخاذ مثل هذا الموقف هو غايةٌ في سوء الطَّالع، وذلك لأسبابٍ عدَّة، منها أنَّه عُذْرٌ مُتسرِّعٌ ورخيصٌ كمَخْرَجٍ فوريٍّ من ذلك الوضع المزعج.

وفيما يتعلَّق بهذا الأمر، هناك قصَّةٌ مشهورةٌ في الإنجيل تذكر كيف أنَّ بعض اليهود في أحد الأيَّام كانوا شهوداً حين أقام يسوع رجلاً من الموت، كان ذلك الرَّجل ميتاً لأربعة أيَّام، وعندما وصل يسوع، قال ببساطة:« انهض »، فقام الرَّجل ومشى في طريقه. وحين رأوا هذا المشهد، قال بعض الشُّهود من اليهود مُنْكِرِيْن:« هذا هو الشيطان. الشيطان هو الَّذي ساعده »

وهذه القصَّة تُكرَّر الآن كثيراً في الكنائس في جميع أنحاء العالم، والنَّاس يذرفون دموعاً غزيرةً لسماعها قائلين:« آه، لو كنت هناك، فما كنت لأكون غبيّاً مثل اليهود!»، ويا للسخرية، فمع هذا فإنَّ هؤلاء النَّاس

يفعلون ما فعله اليهود تماماً حين تعرض عليهم ـــ في ثلاثٍ أو أربع دقائق ـــ جزءاً صغيراً فقط من القرآن الكريم؛ وكلٌ ما يستطيعون قوله هو:« آه، الشيطان فعل ذلك.. الشيطان هو الّذي ألّف هذا الكتاب! » لأنّهم حقّاً يكونون قد حُشِروا في الزّاوية؛ وحين لا يملكون أيَّ إجابةٍ مقبولة، فإنَّهم يلتجئون إلى أسرع وأرخص حُجَّةٍ مُتاحةٍ لهم.

ومثلٌ آخرٌ على استخدام النَّاس لهذا الموقف الضَّعيف يمكن إيجاده في تفسير كفَّار مكَّة لمصدر رسالة محمَّدٍ ﷺ فقد اعتادوا القول بأنَّ الشيطان هو الّذي يُملي عليه القرآن! لكنَّ القرآن ـــ كعادته مع أيِّ حُجَّةٍ لهم ـــ يقدِّم الإجابة على ذلك: فيقول الله ﷻ:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ(٢٥)فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦)إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ(٢٧)﴾ (التكوير)

وهكذا فإنَّ القرآن يعطي ردّاً جليّاً على هذا الادِّعاء، في الواقع، هناك العديد من البراهين في القرآن الكريم جاءت كردٍّ على الادِّعاء بأنَّ الشيطان هو الّذي أملى على محمَّدٍ ﷺ رسالته، فمثلاً في سورة الشعراء:﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠)وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١)إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ (الشعراء)

وفي مكانٍ آخرٍ في القرآن الكريم يعلّمنا الله ﷻ:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٩٨) ﴾(النحل)

فهل بهذه الطريقة يكتب الشيطان كتاباً؟.. وهل يقول للإنسان:« قبل أن تقرأ كتابي، اسأل الله أن يحفظك منّي؟ » فما هذا إلاَّ افتراءٌ كبير، كبيرٌ جدّاً.

سكت قليلا، ثم واصل حديثه عن الأساليب التي يمارسها أعداء الإسلام في عرض شبهاتهم، فقال: بالإضافة إلى الحجج الّتي يقدِّمها غير المسلمين في محاولاتهم التافهة لتبرير وجود الآيات الّتي لا يفهمونها في القرآن الكريم، فإنَّ هناك هجوماً آخر غالباً ما يظهر كمزيجٍ من النظريَّتين معاً، وهو أنَّ محمَّداً ﷺ كان مجنوناً وكاذباً، فأولئك النَّاس يقترحون أساساً بأنَّه ﷺ كان مخبولاً، وكنتيجةٍ لتوهُّمه فقد كذب وضلَّل النَّاس.

ولهذا اسمٌ في علم النّفس، وهو الميثومانيا Mythomania أو المسُّ الأساطيريّ، وهو نزوعٌ مفرطٌ أو غير سويٍّ إلى الكذب والمبالغة، وهو يعني ببساطة أنَّ الإنسان يكذب، ثمَّ يصدِّق ما كذب.

وهذا هو ما يدَّعيه غير المسلمين عمَّا كان يعاني منه محمَّدٌ ﷺ إلاَّ أن المشكل الوحيد الّذي يواجهونه بخصوص هذه الحُجَّة هو أنَّ الإنسان الّذي يعاني من الميثومانيا لا يمكنه التعامل مع الحقائق مطلقاً، مع أنَّ القرآن الكريم كلّه قائمٌ تماماً على الحقائق، فكلُّ ما فيه يمكن بحثه والتثبُّت من صحَّته، في حين أنَّ الحقائق تعتبر مشكلاً كبيراً للمصاب بالميثومانيا.

فعندما يحاول الطبيب النفسيُّ علاج أحد الّذين يعانون من هذا المرض، فإنَّه باستمرار يواجهه بالحقائق، فمثلاً، إذا كان أحدهم مريضاً نفسيّاً ويدَّعي قائلاً:« أنا ملك إنجلترا »، فإنَّ الطبيب النفسيَّ لا يقول له:« لا، أنت لست كذلك، بل أنت مجنون! » فالطبيب لا يفعل ذلك، بل بدلاً من ذلك يواجهه ببعض الحقائق قائلاً:« حسناً، أنت تقول بأنَّك ملك إنجلترا، لذا قل لي أين هي الملكة اليوم؟ وأين رئيس وزرائك؟ وأين هم حرَّاسك؟ »

وعندما يكون لدى هذا المريض مشكلٌ في محاولته التعامل مع هذه الأسئلة، سيحاول إيجاد الأعذار:« آه...الملكة...ذهبت إلى بيت أُمِّها.. آه...رئيس الوزراء....حسناً، لقد مات »

وفي النِّهاية سيشفى من مرضه تماماً لأنَّه لم يستطع التعامل مع الحقائق، فإذا استمرَّ الطبيب النفسيُّ بمواجهته بحقائق كافية، فإنَّه بالنِّهاية سيواجه الواقع قائلاً:« أظنُّ بأنِّي لست ملك إنجلترا »

والقرآن يصل إلى كلِّ إنسانٍ يقرأه بنفس الطريقة الَّتي يعالج بها الطبيب النفسيُّ مريضه بالميثومانيا. يقول الله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٥٧)

للوهلة الأولى قد يبدو هذا التصريح غامضاً، ولكنَّ المعنى لهذه الآية يتَّضح عندما يُنظر إليها على ضوء المثل السابق، فالإنسان يُشفى أساساً من أوهامه بقراءة القرآن الكريم. فهو في جوهره علاجٌ يشفي الضَّالِّين تماماً وذلك بمواجهتهم بالحقائق.

سكت قليلا، ثم قال: في الواقع، يوجد مرجعٌ مثيرٌ للاهتمام بخصوص هذا الموضوع في الموسوعة الكاثوليكيَّة الجديدة. ففي فقرةٍ بخصوص موضوع القرآن الكريم تُصرِّح الكنيسة الكاثوليكيَّة:« عبر القرون الماضية قُدِّمت نظرياتٌ كثيرةٌ عن أصل القرآن.. واليوم لا يوجد إنسانٌ عاقل يقبل بأيٍّ منها »

فها هي الكنيسة الكاثوليكيَّة الْمُعمِّرَة، والماثلة هنا وهناك لقرونٍ عديدة، تنكر تلك المواقف التافهة لدحض أصل القرآن الكريم.

القرآن الكريم بالطبع يمثِّل مشكلاً للكنيسة الكاثوليكيَّة، فهو يصرِّح بأنَّه وحيٌ من الله تعالى، ولذلك هم يدرسونه، ومن المؤكَّد أنَّهم يودُّون إيجاد برهانٍ على أنَّه ليس كذلك، ولكنَّهم لا يستطيعون، فهم لا يستطيعون إيجاد تفسيرٍ مقبول، لكنَّهم على الأقلِّ شرفاء في بحثهم، ولا يقبلون بأوَّل تفسيرٍ غير مدعومٍ بدليلٍ يأتي إليهم.

فالكنيسة تصرِّح بأنَّه ــ وخلال أربعة عشر قرناً ــ لم يُقدَّم بعد تفسيرٌ معقول. فهي بذلك على الأقلِّ تعترف بأنَّ القرآن الكريم ليس موضوعاً سهل الإنكار.

لكن هناك بالتأكيد آخرون ممَّن هم أقلُّ شرفاً حين يقولون على عَجَل:« آه، لقد جاء القرآن من هنا، أو من هناك »

وهم حتَّى لا يتفحَّصون مصداقية ما يصرِّحون به في معظم الأحيان. وطبعاً، فإنَّ مثل هذا التصريح من الكنيسة الكاثوليكيَّة يسبِّب للمسيحيِّ العاديِّ شيئاً من الصُّعوبة، وذلك لأنَّه ربَّما يكون لديه أفكاره الخاصَّة عن أصل القرآن، ولكنَّه كعضوٍ في الكنيسة لا يستطيع التصرُّف حقّاً حسب نظريَّته. فمثل هذا التصرُّف قد يكون مناقضاً للخضوع والإخلاص والولاء الَّذي تطلبه الكنيسة. فبموجب عضويَّته في الكنيسة، يتوَّجب عليه قبول ما تعلنه الكنيسة الكاثوليكيَّة دون سؤال، وأن يجعل تعاليمها كجزءٍ من روتينه اليوميّ. لذا، فجوهرياًّ إذا كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة في عمومها تقول:« لا تستمعوا لتلك التقارير غير المؤكَّدة حول القرآن »، فما يمكن أن يقال حول وجهة النَّظر الإسلاميَّة؟ فحتَّى غير المسلمين يعترفون بأنَّ هناك شيئاً في القرآن ــ شيئاً كان يجب أن يكون معترفاً به ــ إذاً فلماذا يكون النَّاس عنيدين، وهجوميِّين، وعدائيِّين، حين يقدِّم المسلمون نفس

النظريَّة؟ هذا بالتأكيد شيءٌ لأولي الألباب ليتأمَّلوا فيه.. شيءٌ للتأمُّل لأولئك الَّذين يعقلون!

قام حديثاً واحدٌ من المفكِّرين القياديِّين في الكنيسة الكاثوليكيَّة ـــ يدعى هانز ـــ بدراسة القرآن الكريم، وأدلى برأيه فيما قرأ. هذا الرَّجل أثبت حضوره القوي على الساحة ولزمنٍ طويل، وهو ذو منزلةٍ رفيعةٍ في الكنيسة الكاثوليكيَّة، وبعد تفحُّص دقيقٍ نشر ما وجده مستنتجاً:« إنَّ الله قد كلَّم الإنسان من خلال الإنسان، محمَّدٍ »

ومرَّةً أخرى يأتي هذا الاستنتاج من مصدرٍ غير مسلمٍ ـــ وهو مفكِّرٌ قياديٌّ كبيرٌ في الكنيسة الكاثوليكيَّة نفسها! أنا لا أظنُّ بأنَّ البابا يتَّفق معه، ولكن على الرغم من ذلك فإنَّ رأي مثل هذه الشخصيَّة العامَّة ذائعة الصِّيْت وذات السُّمعة الحسنة يجب أن يكون له وزنه في الدِّفاع عن الموقف الإسلاميّ. ويتوجَّب التَّصفيق له لمواجهته الواقع بأنَّ القرآن الكريم ليس شيئاً يمكن أن يلقى بعيداً بسهولة، وبأنَّ الله تعالى حقّاً هو مصدر كلماته.

التفت إلي، وقال: يتَّضح من كلِّ ما تقدَّم سابقاً بأنَّ كلَّ البدائل قد استنزفت، ولذا فالفرصة لإيجاد إمكانيَّةٍ أخرى لإنكار القرآن الكريم لا وجود لها، لأنَّ هذا الكتاب إن لم يكن وحياً، فإنَّه عندئذٍ خداع؛ وإن كان خداعاً، فإنَّ على الإنسان أن يتساءل:« فما هو مصدره؟ وفي أيِّ جزءٍ منه يقوم بخداعنا؟»

وطبعاً فإنَّ الإجابات الصحيحة على هذه التساؤلات تُلقي الضَّوء على أصالة القرآن الكريم، وتُسكت ادعاءات الكفَّار اللاذعة وغير القائمة على دليل.

ومن المؤكَّد أنَّه إذا استمرَّ أولئك النَّاس بالإصرار على أنَّ القرآن الكريم ما هو إلاَّ خداع، فإنَّه يتوَّجب عليهم تقديم البرهان الَّذي يدعم ادعاءهم. فعبء إيجاد البرهان يقع على عاتقهم، وليس على عاتقنا! فلا يُفترض من أحدهم أبداً أن يقدِّم نظريَّةً بدون حقائق كافية تعزِّزها؛ لذا فأنا أقول لهم:« أروني خداعاً واحداً! أروني أين يخدعني القرآن الكريم! أروني ذلك، وإن لم تفعلوا، فلا تقولوا لي بأنَّه خداع! »

فوزي صبحي سمعان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فوزي صبحي سمعان) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: التقيت به في مصر، وقد ذكر لي أن سبب إسلامه هو تلك الألغاز الكثيرة التي تمتلئ بها الكنيسة، ولا يطيق العقل أن يجد لها أي تفسير.

لقد ذكر لي أن هذه الخواطر المملوءة بالشبهات بدأته منذ صغره.. حيث كان يخدم كاتدرائية كنيسة (ماري جرجس) في مدينة الزقازيق المصرية.

فخلف أسوار تلك الكاتدرائية كان يجلس فوزي الشاب ـــ وهو يحلم بأن يحصل على رتبة (القس) ـــ يستمع إلى القس الأكبر.

ولكنه لم يكن منفعلا لما يسمع.. بل كان شارداً تتنازعه أفكار ثقيلة كلما انتبه لصوت قسيس الكنيسة

---

(١) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر ١٩٩٢.

مناجياً المسيح: (يا ابن الله يا مخلصنا وإلهنا)

وقد ذكر لي أنه كان ينتفض طارداً الفكرة، لكنها تلح عليه مرة أخرى.

لقد كان يقول لنفسه، أو كانت نفسه تقول له:« لقد قالوا لنا إن المسيح صلب وعذب و لم يكن قادراً على تخليص نفسه من الصلب والتعذيب المبرح.. فكيف يتأتى له أن يخلصنا ؟! »

و لم تتوقف مثل هذه الخواطر عند ذلك العمر وعند ذلك الحد..

لقد امتدت خواطره أو وساوسه إلى الأسرار السبعة متعجبا منها:

السر الأول، وهو (التعميد) ببئر داخل الكنيسة.. صلي عليها فحل بها الروح القدس.. الطفل يغمس فيها فيصبح مسيحيا بكل بساطة..

السر الثاني: وهو (الاعتراف) إذ يجلس النصراني المذنب أمام نصراني أكبر منه رتبة (قس – مطران – بطريك – بابا) ليعترف أمامه بكل شيء ويضع الأخير عصاه على رأسه ويتمتم ببعض الكلمات مانحاً إياه صك الغفران..

وقد أخبرني عن حوار دار بين بعض القسس، وبين طبيب نصراني، يقول الطبيب: القس يغفر لي، فمن يغفر للقس؟.. قال: البابا... قال: ومن يغفر للبابا؟ قال: الله.. قال: فلماذا لا نعترف لله مباشرة ليغفر لنا؟!.. لماذا نفضح أنفسنا أمام الناس وقد سترنا الله؟!

السر الثالث: هو الشرب من دم المسيح هكذا.. حيث يأتي النصراني بالنبيذ ليصلي عليه القس فيتحول إلى دم مبارك هو دم المسيح ليشربه النصراني بوَلَهٍ وخشوع.

ويتساءل صاحبنا: إذا كان المسيح مخلصنا، فلماذا نشرب من دمه؟ فنحن نشرب من دم عدونا فقط.

السر الرابع: هو أكل لحم المسيح، قرابين تصنع من الدقيق ليرتل عليها القس فتتحول إلى جزء من جسد المسيح يأكلونه، وتساءلت النفس المتمردة.. لماذا نأكل لحم المسيح وهو إلهنا وأبونا؟!

والأسرار الثلاثة الأخيرة هي الأب والابن والروح القدس.. ويقولون تثليث في توحيد.. وكل ذلك لا يمكن أن يقبله عقل.

وأخبرني أن نفسه كانت تتألم، وهو يسمع صوت القس ومعه جموع المخدوعين بقانون الإيمان.. وهم يقولون (بالحقيقة نؤمن).. بـــ (إله واحد).. الأب.. ضابط الكل.. خالق السماء والأرض.. ما يرى وما لا يرى.. نؤمن برب واحد يسوع المسيح.. ابن الله الوحيد.. المولود من الأب قبل كل الدهور.. نور من نور.. إله حق.. إله حق.. مولود غير مخلوق.. تساوى الأب في الجوهر.. هذا الذي كان به كل شيء.. هذا الذي كان من أجلنا – نحن البشر – نزل من السماء فتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء.. وصلب وقبر عنا.. وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتاب.. و.. و..

لقد كان يتعجب من ذلك التناقض، فهم يقولون: إله واحد، ثم يقولون المسيح ابن الله الوحيد؟!.. كيف وكل مولود مخلوق!!

ويقولون: صلب وقبر من أجلنا.. فكيف يليق بالرب خالق الكون أن يصلبه ويعذبه أحد خلقه؟!

وأخبرني عن كيفية دخوله الإسلام، فذكر أنه مضى إلى الهيكل مباشرة حيث لا يرى من بداخله.. وسجد مثلما يسجد المسلم.. وبكى بحرقة، وابتهل إلى رب الخلق أجمعين الواحد الأحد، وقال: ربي.. أنت تعلم أنني في حيرة شديدة، فإن كانت النصرانية هي الحق فاجعل روح القدس تحل عليّ الآن.. وإن كان الإسلام هو الحق فأدخله في قلبي.

وقد أخبرني أنه ما إن قال حتى انشرح صدره للإسلام.

وقبل أن يخرج من الكنيسة عرج على القس وألقى عليه بعض التساؤلات.. لم يجبه ولكن سأل: هل تقرأ القرآن؟ فقال: نعم.. اكفهر وجه القس وصرخ: نحن فقط الذين نقرأ القرآن أما أنت والعامة فلا.. وخرج و لم يعد للكنيسة.

وأخبرني بالبلاء الذي تعرض له بعد إسلامه، وبأنواع الفضل التي وهبها الله له هدية لإسلامه:

فقد اجتمع إخوته وتشاوروا واتخذوا القرار ووضعوا طريقة التنفيذ.. لا بد أن يقتل لقد عصى الرب وأهان الكنيسة.. وجاء من يخبره ويشير عليه.. وهرب الفتى من قريته، وقلبه على إخوته.. يدعو لهم بالهداية.

واستجاب الله دعاءه.. فأسلمت أخته.. و لم يمض وقت طويل حتى أشهر أبوه إسلامه ليموت على الإسلام بعد عام ونصف.

رحمة بورنومو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رحمة بورنومو)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان قبل إسلامه قسا وورئيساً للتبشير في كنيسة (بيتل إنجيل سبينوا)[2].. وهو من عائلة دينية[3]، فقد كان جده قسيساً ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه قسيساً على مذهب بانتي كوستا، وكانت والدته معلمة الإنجيل للنساء.

وقد كان حديثه ــ في بحثه عن الحق ــ يشبه حديث سلمان الفارسي، وسأورده عليك كما ذكره لي:

لقد ذكر لي أنه في البدء أنه كان قد امتلأ بما يمتلئ به الكثير من رواد الكنيسة والقائمين عليها من حقد على الإسلام.. قال: لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين، إذ أنني منذ نعومة أظفاري تلقيت التعليم من والدي الذي كان يقول لي دائماً:« إن محمداً رجل بدوي صحراوي ليس له علم ولا دراية، ولا يقرأ وأنه أمي »، هكذا علمني أبي، بل أكثر من ذلك فقد قرأت للبروفسور الدكتور ريكولدي النصراني الفرنسي قوله في كتاب له بأن محمداً رجل دجال يسكن في الدرك التاسع من النار، وهكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية الرسول ﷺ، ومنذ ذلك الحين تكونت لدي فكرة مغلوطة راسخة تدفعني إلى رفض الإسلام، وعدم اتخاذه ديناً.

---

(١) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر ١٩٩٢.

(٢) انظر: كتاب (علو الهمة) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (٢٣٩-٢٥٤) بتصرف.

(٣) ينتسب إلى أب هولندي وأم إندنوسية من مدينة (أمبون) الواقعة في جزيرة صغيرة في أقصى الشرق من جزر إندونيسيا، والمسيحية هي الدين الموروث لأسرته أباً عن جد.

وقد كانت هذه الشبهات هي السبب في تأخر إسلامه.. فهو لم يكتشف الإسلام إلا بعد أن مر على مذاهب مختلفة، وديانات مختلفة.

قلت: ما الذي جعله يفكر في تغيير دينه؟

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك، فقال:« في يوم من الأيام أرسلتني قيادة الكنيسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها في منطقة (دايري) التي تبعد عن عاصمة (ميدان) الواقعة في شمال جزيرة (سومطرة) بضع مئات من الكيلومترات، ولما انتهيت من أعمال التبشير والدعوة أويت إلى دار مسئول الكنيسة في تلك المنطقة، وكنت في انتظار وصول سيارة تقلني إلى موقع عملي، وإذا برجل يطلع علينا فجأة، لقد كان معلماً للقرآن، وهو ما يسمى في إندونيسيا مطوع في الكُتَّاب، وهو المدرسة البسيطة التي تعلم القرآن، لقد كان الرجل ملفتاً للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود يرتدي كوفية بيضاء بالية خلقة، ولباساً قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى أن نعله كان مربوطاً بأسلاك لشدة قدمه، اقترب الرجل مني، وبعد أن بادلني التحية بادرني بالسؤال التالي، وكان سؤالاً غريباً من نوعه، قال: (لقد ذكرت في حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على ألوهيته؟)، فقلت له: (سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمر لا يهمك: إن شئت فلتؤمن، وإن شئت فلتكفر) وهنا أدار الرجل ظهره لي، وانصرف، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد أخذت أفكر في قرارة نفسي، وأقول: هيهات هيهات أن يدخل هذا الرجل الجنة، لأنها مخصصة فقط لمن يؤمن بألوهية المسيح فحسب، هكذا كنت أعتقد جازماً آنذاك.

ولكن عندما عدت إلى بيتي وجدت أن صوت الرجل يجلجل في روعي، ويدق بقوة في أسماعي، مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثاً عن الجواب الصحيح على سؤاله »

ثم ذكر لي أنه أخذ يدرس الأناجيل الأربعة ليبحث فيها عن الدليل.. قال:« فماذا وجدت؟ هذا إنجيل متّى ماذا يقول عن المسيح عيسى عليه السلام؟ إننا نقرأ فيه ما يلي: (إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود.. إلخ) (١-١) إذن من هو عيسى؟ أليس من بني البشر؟ نعم إذن فهو إنسان، وهذا إنجيل لوقا يقول: (ويملك علي بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية) (١-٣٣)، وهذا إنجيل مرقس يقول: (هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح ابن الله) (١:) وأخيراً ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عليه السلام؟ إنه يقول: (في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله) (١:١)، ومعنى هذا النص هو في البدء كان المسيح، والمسيح عند الله، والمسيح هو الله.

قلت لنفسي: إذن هناك خلافا بارزا بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عيسى عليه السلام أهو إنسان أم ابن الله أم ملك أم هو الله؟ لقد أشكل عليَّ ذلك، و لم أعثر على جواب.

ثم واصلت البحث، فوجدت في إنجيل يوحنا نصوصاً تشير إلى دعاء المسيح عليه السلام وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى. فقلت في نفسي: لو كان عيسى هو الله القادر على كل شيء فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء الذي ورد في إنجيل يوحنا، هذا هو نص الدعاء: (هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته) (١٧-

٣-٤) وهو دعاء طويل يقول في نهايته: (أيها الرب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به) (١٧-٢٥-٢٦).

هذا الدعاء يمثل اعترافاً من عيسى عليه السلام بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأي قوم هم هؤلاء يا ترى؟ نقرأ جواب ذلك في إنجيل متّى (١٥-٢٤) حيث يقول: (لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)، إذن لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: (إن الله الواحد الأحد، وإن عيسى عليه السلام هو رسول الله إلى بني إسرائيل).

ثم واصلت البحث، فتذكرت أنني حين أكون في صلاتي أقرأ دائماً العبارات التالية: (الله الأب، الله الابن، الله الروح القدس، ثلاثة في أقنوم واحد)، قلت لنفسي: أمر غريب حقاً، فلو سألنا طالباً في الصف الأول الابتدائي (١+١+١=٣؟)، لقال: (نعم)، ثم إذا قلنا له: (ولكن أيضاً ٣=١)، لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضاً صريحاً فيما نقول، لأن عيسى عليه السلام يقول في الإنجيل كما رأينا بأن الله واحد، لا شريك له.

لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التي كانت راسخة في نفسي منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وهي: ثلاثة في واحد، وبين ما يعترف به المسيح عيسى نفسه في كتب الإنجيل الموجودة الآن بين أيدينا وهي أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهما هو أحق؟

لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقال، بأن الله واحد أحد، فأخذت أبحث في الإنجيل من جديد لعلي أقع على ما أريد، لقد وجدت في سفر أشعياء النص التالي: (اذكروا الأوليات منذ القديم، لأني أنا الله وليس آخر الإله، وليس مثلي) (٤٦:٩) ولشد ما كانت دهشتي عظيمة حين اعتنقت الإسلام فوجدت نفس هذا المعنى مطروقا في سورة الإخلاص.. نعم، مادام الكلام كلام الله فهو لا يختلف حيثما وجد، هذا هو التعليم الأول أو البديهية الأولى في ديانة المسيحية السابقة، إذن (ثلاثة في واحد) لم يعد لها وجود في نفسي »

هذا هو السبب الأول الذي جعله يعيد نظره في ديانته..

أما السبب الثاني، فهو البديهية الثانية في المسيحية، والتي تنص على أن هناك ما يسمى بالذنب الوراثي أو الخطيئة الأولى، ويُقصد بها أن الذنب الذي اقترفه آدم عليه السلام عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنة، هذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم يولد آثماً.

قال:« لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجأت إلى العهد القديم فوجدت في سفر حزقيال ما يلي: (الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه) (حزقيال ١٨:٢٠-٢١).

وهذا المعنى يتفق تماما مع ما ورد في القرآن الكريم الذي ينص على هذا في قوله ﷻ:﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر:١٨)، وقوله ﷺ:« يُولد ابن آدم على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

هذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: (إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل، وأن الإنسان يولد آثماً؟) »

أما السبب الثالث الذي دعاه إلى مراجعة معتقداته فهي البديهية الثالثة في التعاليم المسيحية، والتي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تغفر حتى يصلب عيسى عليه السلام، يقول:« لقد أخذت أفكر في هذه البديهية، وأتساءل: (هل هذا صحيح؟) وكان الجواب الذي لا مفر منه: بالطبع لا، لأن النص الآنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: (فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه)، أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد.

بالإضافة إلى هذا، فقد راوده ــ بناء على هذا ــ شك عيظم في المعنى الذي يفهمه المسيحيون من الخلاص المسيحي، قال:« من التعاليم البديهية في الديانة المسيحية أن عيسى عليه السلام هو المنقذ المخلّص للعالم، أي أنك إذا آمنت بألوهية عيسى فسوف تنجو، وهذا يعني أنك يمكنك أن تفعل ما تشاء غيرَ آبهٍ بالذنوب والمعاصي ما دمت تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون علي يقين بأنك من التابعين، قلت لنفسي: لا بد أن أبحث في الإنجيل وأعرف الحق من الباطل في ذلك، في سفر أعمال الرسل رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس يقول: الله قد أقام الرب وسيُقيمنا نحن أيضاً بقوته (٦:١٤)، والقصة كما وردت في التعاليم المسيحية فيه كالآتي: أنه لما قبضوا على السيد المسيح عرضوه أمام العدالة فحكم عليه بالصلب، ثم دُفن فهنا تأتي الآية مناسبة لتلك القصة.

لقد علق (رحمة بورنومو) على هذا بقوله:« لقد تأملت هذه الآية طويلاً ثم قلت: إذا لم يتدخل الله في إقامة المسيح من القبر لبقي مدفوناً تحت التراب إلى يوم القيامة، إذن ما دام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟ هل يليق بإله ــ كما يزعمون ــ أن يكون عاجزاً عن ذلك؟ »

قلت: كل ما ذكرته أسباب قوية يمكنها أن تزحزح أي مسيحي عن دينه.. فهل انتقل نتيجة لهذا إلا الإسلام؟

قال: لقد ذكرت لك ما امتلأ به الرجل من الشبهات.. ولهذا جعل الإسلام آخر تطوافه الباحث عن الحق.

لقد قال لي:« عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، كان ذلك في عام ١٩٦٩ حيث خرجت فعلاً و لم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أنني خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها، لأنه كما هو معلوم هناك كنائس ومذاهب شتى في الديانة النصرانية، فهناك الكاثوليك، والبروتستانت، والميثوديست، والبلاي كسلامتن، واليونيتاريان، وغيرها كثير، حتى أنني أستطيع أن أقول بأن هناك أكثر من ٣٦٠ مذهباً في الديانة النصرانية.

وذات يوم لقيت صديقاً لي فدعاني إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد مميزات لهذا المذهب لم أجد مثلها في مذهبي البروتستانتي، قال صديقي: (في هذا المذهب توجد حجرة الغفران، وهي عبارة عن غرفة في الكنيسة

يجلس فيها قس ذو لحية كثيفة يرتدي لباساً أسود، ويقعد على كرسي عال، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليه، ورددَ بعض الألفاظ الغير المفهومة، وما أن يكاد يفرغُ من قراءتها حتى يقال له بأنه برئ من ذنوبه، ويرجع كيوم ولدته أمه، وهكذا قال لي صديقي، وأضاف قائلاً: كل ما تقترف يداك من الذنوب خلال أيام الأسبوع كفيل بأن يُغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسة يوم الأحد، وحصولك على الغفران. فأنت لا تحتاج إلى الصلاة، ولا إلى العبادة، ولكن إذا تركت ذلك كله وذهبت إلى القس، واعترفت أمامه، غُفرت ذنوبك)

قال رحمة بورنومو:« لقد تذكرت ما يقرره الإسلام في ذلك، وهو أن البشر مهما علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يُوكَلَ إليه غفران ذنوب العباد، كما أن التوبة والمغفرة لا تُسقط التكاليف والفرائض، بل لا بد للتائب من أن يؤدي الصلوات الخمس اليومية في أوقاتها، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته وعليه إثم كبير لا يمكن أن يتحمله عنه غيره من الناس.

ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجرة الغفران في الكنيسة عليهم أمارات الحزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهه ابتسامة الفرح لاعتقاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزيناً وخرجت منها حزيناً، لأنني كنت أفكر وأتسائل: (هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هو؟) وهكذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

بعد ذلك تعرفت على طائفة مسيحية أخرى تسمى (شهود يهوه) وهي مذهب آخر من مذاهب المسيحية، لقيت رئيسهم، وسألته عن تعاليم مذهبه، وقلت له: (من تعبدون؟)، قال: (الله)، قلت: (ومن هو المسيح؟) فقال: (عيسى هو رسول الله)، فصادف ذلك موافقة لما كنت أومن به، وأميل إليه، ودخلت كنيستهم فلم أجد فيها صليباً واحداً، فسألته عن سر ذلك، فقال: (الصليب علامة الكفر، لذلك لا نعلقه في كنائسنا)

لقد وصف هذه الفترة من حياته، فقال: لقد أمضيت ثلاثة أشهر كاملة أتلقى تعاليم ذلك المذهب، وفي نهايتها كان لي الحوار التالي مع رئيس الكنيسة، وكان هولنديا، قلت له: (يا سيدي، إذا توفيت على هذا المذهب، فإلى أين مصيري؟) قال: (كالدخان الذي يزول في الهواء)، فقلت متعجباً: (ولكني لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير)، ثم سألته: (وأين أتجه بعد الممات؟)، فقال: (تُوضع في ميدان واسع)، قلت له: (وأين ذلك الميدان؟) قال: (لا أعلم)، قلت: (سيدي إذا كنت عبداً مطيعاً ملتزماً بهذا المذهب، فهل أدخل الجنة؟) قال: (لا)، قلت: (فإلى أين إذن؟) قال: (الذين يدخلون الجنة عددهم ١٤٤ ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تسكن الأرض مرة أخرى)، وهنا قاطعته قائلاً: (ولكن يا سيدي قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت)، قال: (أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسي وفوقه حشرات مؤذية، هل تحرق الكرسي لتتخلص من الحشرات؟) قلت: (لا)، قال: (بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليماً، وهكذا تبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار).

وهنا أعملت فكري جيداً، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير بترك المسيحية بجميع مذاهبها رسمياً، كان ذلك في عام ١٩٧٠، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير في طريقي بحثاً عن الحق، رأيت معبداً بوذياً جميلاً ضخماً فاقتربت منه فوجدت فيه عدة تماثيل وصور وفي السقف تمثال لتنين، وعلى الجدران مثل ذلك،

كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما أن دخلت من البوابة حتى جاءني رجل فأوقفني، وسأل: (إلى أين؟) قلت: (أريد أن أدخل)، قال: (اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا فاحترم مكان عبادتنا)

ثم يقول: (لقد جربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سرعان ما تركتها لإحساسي بأنني لم أجد الحق الذي أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التي بدأت ونشأت في الهند، والتي انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الإندونيسية، فأخذت أتنقل بين تلك الجزر التي يوجد فيها نشاط لأتباع هذا الدين، ومكثت معهم فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت في المرحلة الأولى إلى درجة أنني أخذت أجرى الخوارق كالعبور في النار، والمشي على المسامير الحادة، وإدخال المسامير في أعضاء الجسم إلى غير ذلك، ولكن أيضاً ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه)

ثم يضيف: وذات يوم سألت رئيس المعبد الهندوسي: (ماذا تعبدون؟)، قال: نعبد (برهما، ويشنو، وشيوا)، برهما: إله الخلق، ويشنو: إله الخير، وشيوا: إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت في جسد إنسان واحد اسمه كريشنا الذي يعتبر المنقذ للعالم عند الهندوس، قلت لنفسي: (إذن فلا فرق في أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء فهما يناديان ثلاثة في واحد).

قلت للكاهن الهندوسي: (اشرح لي نشأة كريشنا)، فقال: كان في الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولده الذكر خوفاً من أن يحتل عرشه غصباً، وفي إحدى الليالي الظلماء كان الملك جالساً أمام قصره، وإذا بكوكب مضئ يطلع في السماء فوق رأسه، وكان يسير بسرعة مذهلة، ثم توقف في الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين، راجعوا كتبهم المقدسة، فقالوا: إن ذلك دليل على تجلي الآلهة في جسم إنسان اسمه سري كريشنا، فقلت في نفسي: هذه القصة بحذافيرها مع تغيير الأشخاص موجودة في الديانة المسيحية، وكنت أحدث بها الناس وأنا قس، والفرق أن القرية المشار إليها هي بيت لحم، والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذن بين القصتين ولا بين العقيدتين في قضية أساسية هي قضية الألوهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.

لقد واصلت حواري مع الكاهن الهندوسي فقلت له: (يا سيدي إذا توفيت وأنا على دينكم، فإلى أين مصيري؟) قال: (لا أعلم، ولكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرها)، وقال: (قد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى)

ثم يقول: (وفي النهاية قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامي إلا الإسلام الذي لم أكن أريد اعتناقه لما غُرس في نفسي منذ طفولتي من نفور وكراهية لهذا الدين الذي لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول وهذا البحث يلزم الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتي: اعتباراً من هذه الليلة لا أريد أن يزعجني أحد، أريد أن أصلي وأتضرع إلى الله، وهكذا أقفلت باب حجرتي ورفعت يدي إلى الله خاشعاً متضرعاً قائلاً: (يا رب.. إذا كنت موجوداً حقاً فخذ بناصيتي إلى الهدى والنور، واهدني إلى دينك الحق الذي ارتضيته للناس)

لقد ذكر لي أنه استمر على ذلك زمناً طويلاً، حوالي ثمانية أشهر، قال: وفي ليلة الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٧١م الموافقة للعاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائي المعتاد رحت في نوم عميق، وعندها جاءني نور الهدى من الله عز وجل، إذ رأيت العالم حولي في ظلام دامس، ولم يكن بوسعي أن أرى شيئاً، وإذا بجسم شخص يظهر أمامي، فأمنعت النظر فيه، فإذا بنور حبيب يشع منه يبدد الظلمة من حولي، لقد تقدم الرجل المبارك نحوي، فرأيته يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باسم لم أر قط مثله من قبل جمالاً وإشراقاً، لقد خاطبني الرجل بصوت حبيب قائلاً: (ردد الشهادتين)، وما كنت حينئذٍ أعلم شيئاً اسمه الشهادتين، فقلت مستفسراً: (وما الشهادتان؟) فقال: (قل: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عني.

ولما استيقظت من نومي وجدت جسمي مبللاً بالعرق، وسألت أول مسلم قابلته: (ما هي الشهادتين، وما قيمتهما في الإسلام؟)، فقال: (الشهادتان هما الركن الأول في الإسلام، ما أن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلماً)، فاستفسرت منه عن معناهما فشرح لي المعنى.

وبعد عشرين يوماً من ذلك الحادث وكانت ليلة عيد الفطر سمعت صيحات التكبير يرددها المسلمون من المساجد القريبة من دارنا، فاقشعر بدني واهتز قلبي، ودمعت عيناي لا حزناً على شيء، بل شكراً لله على هذه النعمة، فالحمد لله الذي هداني أخيراً إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقد تم ذلك في عام ١٩٧١م وقد خَيَّرتُ زوجتي بين الإسلام والمسيحية، فاختارت الإسلام، والجدير بالذكر أنها كانت في طفولتها مسلمة ومن عائلة مسلمة تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، وتبعاً لجهلها بأمور دينها الحنيف، كما تبعنا أبناؤنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثاني من شهر فبراير عام ١٩٧٢م ونحن مسلمون والحمد لله.

عزت اسحاق معوض:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عزت اسحاق معوض) [١]، فسألت البابا عنه، فقال: وقد التقيت به في مصر.. وقد لاحظت في كلامه نفحات الصدق التي أخبرني عنها معلم السلام، فسألته عنه، فقال لي: كنت عزت اسحاق معوض.. وأنا الآن محمد أحمد الرفاعي.. وكنت قُمُّصاً مسيحيا لا أهدأولا أسكن عن الدعوة إلى المسيحية.. وأنا الآن بحمد الله مسلم لا أمارس إلا حرفة واحدة هي الدعوة إلى الله، وإلى الإسلام العظيم الذي شرفني الله به.

قلت: فما قصة إسلامك؟

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: نشأت في أسرة مسيحية مترابطة والتحقت بقداس الأحد وقد كان عمري حينها أربع سنوات.. وفي سن الثامنة كنت أحد شمامسة الكنيسة، وتميزت عن أقراني بإلمامي بالقبطية وقدرتي على القراءة من الكتاب المقدس على الجماهير.

ثم تمت إجراءات إعدادي للالتحاق بالكلية الأكليريكية، لأصبح بعدها كاهناً، ثم قُمُّصاً، ولكنني عندما

(١) انظر: صحيفة (المسلمون) ـــ الصادرة في ٤ / ١٠ / ١٩٩١ (بتصرف)

بلغت سن الشباب بدأت أرى ما يحدث من مهازل بين الشباب والشابات داخل الكنيسة وبعلم القساوسة[1]، وبدأت أشعر بسخط داخلي على الكنيسة، وتلفت حولي، فوجدت النساء يدخلن الكنيسة متبرجات ويجاورن الرجال، والجميع يصلي بلا طهارة وهم يرددون ما يقوله القس بدون أن يفهموا شيئاً على الإطلاق، وإنما هو مجرد تعود على سماع ذلك الكلام.

وعندما بدأت أقرأ أكثر عن المسيحية وجدت أن ما يسمى (القداس الإلهي) ـــ الذي يتردد في الصلوات ـــ ليس له دليل من الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى هذا الخلافات الكثيرة بين الطوائف المختلفة، بل وداخل كل طائفة على حدة،وذلك حول تفسير (الثالوث) وغيره..وكنت أشعر بنفور شديد من مسألة تناول النبيذ وقطعة القربان من يد القسيس والتي ترمز إلى دم المسيحوجسده.

قلت: فكيف انجذبت إلى الإسلام؟

قال: بينما كان الشك يراودني في المسيحية بسبب طقوسها وعقائدها وانحرافاتها كان يجذبني شكل المسلمين في الصلاة والخشوع والسكينة التي تحيط بالمكان برغم أنني كنت لا أفهم ما يرددون.. وكنت عندما يُقرأ القرآن يلفت انتباهي لسماعه وأحس بشئ غريب داخلي برغم أنني نشأت على كراهية المسلمين.. وكنت معجباً بصيام شهر رمضان وأجده أفضل من صيام الزيت الذي لم يرد ذكره في الكتاب المقدس، وبالفعل صمت أياماً من شهر رمضان قبل إسلامي.

ثم بعد ذلك.. بدأت الشعور بأن المسيحية دين غير كاملومشوه يشتد علي، غير أنني ظللت متأرجحاً بين المسيحية والإسلام ثلاث سنوات انقطعت خلالها عن الكنيسة تماماً، وبدأت أقرأ كثيراً وأقارن بين الأديان، وكانت لي حوارات مع إخوة مسلمين كان لها الدور الكبير في إحداث حركة فكرية لديّ.. وكنت أرى أن المسلم غير المتبحر في دينه يحمل من العلم والثقة بصدق دينه ما يفوق ما لدى أي مسيحي، حيث إن زاد الإسلام من القرآنوالسنة النبوية في متناول الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً، في حين أن هناك بعض الأسفار بالكتاب المقدس ممنوع أن يقرأها المسيحي قبل بلوغ سن الخامسةوالثلاثين، ويفضل أن يكون متزوجاً حين قراءتها[2].

قلت: فكيف بدأت نقطة التحول في حياتك؟.. أو كيف استطعت أن تقهر تلك السدود والحجب التي كانت تحول بينك وبين الإسلام؟

قال: كانت نقطة التحول في حياتي في أول شهر سبتمبر عام ١٩٨٨ عندما جلست إلى شيخيوأستاذي (رفاعي سرور) لأول مرة وناقشني وحاورني لأكثر من ساعة،وطلبت منه في آخر الجلسة أن يقرئني الشهادتين ويعلمني الصلاة، فطلب مني الاغتسال، فاغتسلت ونطقت بالشهادتين وأشهرت إسلامي وتسميت باسم (محمد

(١) انظر بعض الشهادات المرتبطة بهذا في الرسالة السابقة.
(٢) انظر فصل (الأدب) من رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

أحمد الرفاعي) بعد أن تبرأت من اسمي القديم (عزت إسحاق معوض)[1] وألغيته من جميع الوثائق الرسمية.. كما أزلت الصليب المرسوم على يدي بعملية جراحية[2]..

قلت: فهل ابتليت في دينك كما ابتلي الكثير ممن أعلنوا إسلامهم؟

قال: لقد كان أول بلاء لي في الإسلام هو مقاطعة أهلي لي.. ورفض أبي أن أحصل على حقوقي المادية وعن نصيبي في شركة كانت بيننا، ولكنني لم أكترث، ودخلت الإسلام صفر اليدين، ولكن الله عوضني عن ذلك بأخوة الإسلام، وبعمل يدر عليّ دخلاً طيباً.

قلت: فما الذي ترجو؟

قال: كل ما آمله من حياتي ألا أكون مسلماً إسلاماً يعود بالنفع عليّ وحدي فقط، ولكن أن أكون نافعاً لغيري وأساهم بما لديّ من علم بالمسيحية والإسلام في الدعوة لدين الله تعالى.

قال ذلك بروحانية أحسست تأثيرها في قلبي.. ثم انصرف بعد أن منحني أشعة جديدة من شمس محمد.

القس عيسي بياجو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (القس عيسي بياجو)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به في رحلة لي إلى الفلبين في مهمة تبشرية، وقد تعجبت من كثرة من يدخل الإسلام من الفلبينيين، وقد جرى لي معه هذا الحديث:

قلت: لقد سمعت أنك كنت قساً كاثوليكياً.

قال: أجل.. أنا كريسانتو بياجو.. هذا هو اسمي الأصلي.. وقد درست في المعهد اللاهوتي، وحصلت على درجة الليسانس في اللاهوت، وعملت كقس كاثوليكي.

قلت: إن الإسلام يتعرض في هذه البلاد لتشويهات كثيرة، فما الذي جعلك تنصرف عن تلك الشبهات؟.. أو ما الذي جعل الشبهات يضعف تأثيرها فيك؟

قال: صدقت.. وقد أثرت في تلك الشبهات تأثيرا كبيرا جعلت إسلامي يتأخر كثيرا.. لقد كنت أسمع عن المسلمين كمجموعة من الناس، و لم تكن عندي فكرة عما يدينون به.. وفي ذلك الحين كنت لا أطيق حتى مجرد سماع اسمهم نظراً للدعاية العالمية التي توجه ضدهم.. وحتى المسلمون المنتمون إلى (.. !؟) في الفلبين كان يُعطى الإيحاء بأنهم قراصنة وهمجيون، يسهل عليهم العدوان وسفك الدماء.

و لم يكن هذا الشعور خاصا بي.. بل كان يشاركني فيه معظم مسيحيي الفلبين الذين يمثلون ٩٠% من السكان.

وذات يوم حضرت محاضرة ألقاها منصّر أمريكي اسمه (بيتر جوينج) عن الإسلام، فأخذتني الرغبة في

---

(١) لقد ذكرنا أنه ليس ضروريا تغيير المنتمي للإسلام اسمه، فالنبي ﷺ لم يغير أسماء الكثير من الصحابة، والذين غير أسماءهم لم يغيرها إلا بإذنهم، بل هناك من الصحابة من لم يرض بتغيير اسمه.. فلا ينبغي على المسلمين التشدد في هذا، لأنه قد يكون حجابا من الحجب عن الإسلام.

(٢) وهذا أيضا ليس شرطا.. بل إنه يحرم إذا أدى ذلك إلى ضرر في بدنه.

التعرف على هذا الدين، وانطلقت لأقرأ بعض الرسائل عن أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وعن قصص الأنبياء، فدهشت من أن الإسلام يؤمن بالإنبياء الذين من أهمهم المسيح عليه السلام.. وقد كانت تلك المحاضرة هي بداية الشوق الذي وضعه الله في قلبي للبحث عن الإسلام.

وقد كانت مشكلتي نقص الكتب التي تتكلم عن الإسلام وعن القرآن ولكني لم أيأس، لأنني كنت أستحضر من كلام المبشر الأمريكي قوله (إن التوراة فيها أخطاء)، مما أدخل الشك في نفسي، فبدأت أكوّن فكرتي عن الدين الحق الذي أومن به.

و لم أجد الإجابات عن الأسئلة التي جالت آنئذٍ في صدري حول الإنجيل، وكلما حللت مشكلة أو أجبت عن سؤال، ظهرت مشاكل كثيرة وأسئلة أكثر.. فلجأت إلى تفريغ ذهني من كل فكرة مسبقة، ودعوت الله أن يهديني إلى الحق.

وكان من المفارقات العجيبة أنني كقسيس كنت أعلّم الناس ما لا أعتقده، فمثلاً لم أكن على الإطلاق مقتنعاً بفكرة الخطيئة الأصلية، والصّلب، إذ كيف يحمّل الله إنساناً ذنوب الآخرين؟هذا ظلم، ولماذا لا يغفرها الله ابتداءً؟وكيف يفعل الأب هذا بابنه؟ أليس هذا إيذاءً للأبناء بغير حق؟ وما الفرق بين هذا وبين ما يفعله الناس من إساءة معاملة الأطفال؟

بدأت أبحث عن الوحي الحقيقي، فتأملت نص التوراة فلم أجد إلا كلاماً مليئاً بالأخطاء والتناقضات لا ندري من كتبه ولا من جمعه، فأصل التوراة مفقود، وهناك أكثر من توراة.

اهتزت عقيدتي تماماً، ولكني كنت أمارس عملي، لئلا أفقد مصدر دخلي وكل امتيازاتي.. ومرت سنتان وأنا على هذا الحال حتى جاء يوم لقيت فيه جماعة من المسلمين يوزعون كتيبات عن الإسلام، فأخذت منهم واحداً قرأته بشغف، ثم سعيت إلى مناقشة تلك الجماعة التي كانت توزع تلك الكتيبات، فقد كنت أحب الجدال والمناظرة، وهذا ليس غريباً، ففي الفلبين جماعات مسيحية متصارعة يقارب عددها ٢٠ ألف جماعة وكثيراً ما كنت أمارس الجدال والمناظرة مع بعض تلك الجماعات.

فلما جلست مع ذلك الفريق المسلم في إحدى الحدائق فوجئت بأن الذي يحاورني كان قسيساً كبيراً دخل الإسلام، فأخذت أنصت لكلامه عن النظام السياسي في الإسلام، فأعجبني لأنني كنت أحب المساواة التي لم أجدها في النظم البشرية، ولكني حينئذٍ وجدتها في دين مبني على كلام الله ووحيه إلى خلقه.

سألت المتحدث عن سبب اعتناقه للإسلام، ثم عن الفرق بين القرآن والإنجيل فأعطاني كتاباً لرجل اسمه أحمد ديدات.. قرأت الكتاب فوجدت فيه الإجابة عن كل تساؤلاتي حول الإنجيل واقتنعت تماماً، ثم أخذت أقابل ذلك الرجل كل يوم جمعة بعد الظهر لأسأله عن كل شيء، وكان من فضولي أن سألته عن محمد ﷺ، وهل هو من نسل إسماعيل؟ فذكر لي أن في التوراة الموجودة حالياً ذكر محمد ﷺ، وأعطاني مقاطع كثيرة من التوراة في هذا الصدد.

أخذت أبحث لأقتنع، وكان من دواعي اطمئناني أن إيماني بعيسى عليه السلام يجعلني أقبل الإيمان بمحمد ﷺ، واستمر بحثي شهرين، شعرت بعدهما ببعض التردد، لخوفي على مستقبلي لأنني أعلم يقيناً أنني لو أسلمت

فسأخسر كل شيء: المال، ودرجتي العلمية، والكنيسة، وسأخسر والديّ وإخوتي، وكان الشيء الذي هزني هو عجزي عن تدريس الناس العقيدة المسيحية إذ أصبحت بارداً جداً وغير مقتنع بما أقول.

تركت قراءة التوراة حتى لاحظ والداي ذلك، ثم لقيت صديقي المسلم، وسألته عن الصلاة، فقال لى: الشهادة أولاً، فرفعت أصبعي بتلقائية وقلت خلفه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، و لم أكن أعرف معنى هذا القول حتى شرحه هو لي بعد ذلك، وقلت: وأشهد أن عيسى رسول الله.

كان في المجلس مسلمون كثيرون من جنسيات مختلفة فقام الجميع وعانقوني وهنأوني، فقلت في نفسي: كل هؤلاء مسلمون رغم اختلاف جنسياتهم وألوانهم، لقد جمعهم الإسلام بلا تمييز، فلماذا التمييز في المسيحية حتى تجد جماعات مسيحية للبيض وجماعات مسيحية للسود؟

فرجعت إلى بيتي ونطقت بالشهادة باللغة الانجليزية بيني وبين الله تعالى فليس يهمني الناس، بقيت على إسلامي من غير أن يعلم أحد من معارفي، وكنت أدخل الكنيسة لمدة ستة أسابيع، لأنزع بعد ذلك فتيل القنبلة وأعلن إسلامي، فغضب والداي أشد الغضب.

وجاء الكاهن الأكبر إلى المنـــزل ليناقشني، فعرضت عليه ما عندي من تناقضات الإنجيل، فكلمني عن بعض الشبهات التي تثار حول الإسلام فقلت له: أقنعني أولاً أن محمداً ليس رسولاً من عند الله، فوعدني ولكن لم يرجع، وسمعت بعد ذلك أن الكنيسة كلها تصلي من أجلي لأرجع إلى عقلي، وكأنني صرت مجنوناً.

بدأت بعد ذلك أثبّت قدمي في الإسلام ــ دراسة وتعلماً ــ وكنت ألقي بعد ذلك برامج إسلامية في التلفزيون والإذاعة المحلية التي تمولها الجهات الإسلامية.

واعتنق الإسلام بعد ذلك أبي وأمي وأختي وزوجها وابن أخي وبنت أختي .. وأحمد الله على أن كنت سبب هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

سألته عن المدى الذي ينتشر فيه الإسلام في الفلبين، فقال لي: يدخل في الإسلام كل شهر أكثر من أربعمائة من مسيحيي الفلبين حسب السجلات الرسمية، أما العدد الحقيقي فالمرجح أنه أكثر من ذلك.. ومعظم أهل الفلبين مسيحيون بالاسم فقط ولايجدون من يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم من يقتنع بالإسلام، ولكن يعوقه عن اعتناقه عامل الخوف من المستقبل لأنه سيفقد الأسرة وسيفقد العمل، فالناس هناك لا تقبل توظيف من ترك المسيحية.

سألته عن السر في هذا الإقبال الشديد على الإسلام في هذه البلاد، فقال: إنها المعاملة الطيبة.. إنها أخلاق الإسلام.. فكثير ممن أسلموا كان دافعهم إلى الاقتراب من عقيدة التوحيد معاملة المسلمين الحسنة لهم، كأن يكون صاحب العمل مسلماً حسن المعاملة، أو زميلاً لمسلم حسن الصحبة ودمث الأخلاق.. وكثير ممن أسلموا في الفلبين لم يسلموا إلا بعد أن عادوا إلى بلادهم بعد العمل في بلد إسلامي، إذ أحسوا بالفرق عندما فقدوا المناخ الإسلامي، فتبخرت كل أوهامهم وشكوكهم حول الإسلام، فأعلنوا إسلامهم بعيداً عن كل ضغط أو تأثير.

وقد ذكر لي أن من أسباب ذلك الإقبال الشديد على الإسلام هو تأثر الناس برؤية منظر المسلمين وهم

يصلّون.

وقد سألته عن سر انتشار الإسلام بين المثقفين ثقافة دينية، فقال: من السهل دعوة هؤلاء.. فيكفي مثل هذا أن نأخذ بيده، وندعوه إلى مقارنة أسفار الكتاب المقدس، ودراسة مقارنة الأديان، فتلك أفضل الوسائل لإقناعه.

وقد سألته عن العقبات التي تحول دون دخول الناس في الإسلام، فقال: أول ما يصد الناس هو الفكرة الخاطئة التي تعشش في أذهانهم عن الإسلام.. بالإضافة إلى سلوكيات كثير من المسلمين، الذين يعطون صورة سيئة عن الإسلام، ثم الفتاوى الجاهلة التي تصدر من بعض المسلمين من غير علم.. وأخيرا الشبهات التي تثار حول الإسلام من كونه يدعو إلى الإرهاب، ويسيء معاملة المرأة، فيدعو الرجل إلى طلاقها، وإلى الزواج بغيرها، وأنه يحرمها من حقوقها ويقهرها ولا يعطيها حريتها.

ماري واتسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماري واتسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه اسم امرأة أمريكية المولد، عاشت معظم شبابها بين لوس أنجلوس والفلبين، وقد التقيت بها ــ هي الأخرى ــ في الفلبين، وقد لاحظت في كلامها نفحات الصدق التي حدثني عنها معلم السلام، فسألتها عنها، فأجابت: لقد كنت ماري واتسون.. وأنا الآن خديجة.. إن السيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ كانت أرملة، وكذلك أنا كنت أرملة، وكان لديها أولاد، وأنا كذلك، وكانت تبلغ من العمر ٤٠ عاماً عندما تزوجت من النبي ﷺ، وآمنت بما أنزل عليه، وكذلك أنا كنت في الأربعينيات، عندما اعتنقت الإسلام، كما أنني معجبة جداً بشخصيتها، لأنها عندما نزل الوحي على محمد ﷺ آزرته وشجعته دون تردد، لذلك فأنا أحب شخصيتها.

قلت: فكيف رحلت من ماري إلى خديجة؟

قالت: لقد كانت رحلة قصيرة جدا.. تكاد في قصرها تشبه رحلة السحرة الذين أراداوا أن يتحدوا موسى ورب موسى، فلم يملكوا إلا أن يسجدوا لله.

قلت: فقد أسلمت تقليدا إذن.

قالت: لا.. بل لم أسلم إلا عن قناعة تامة.. لقد ابتدأت هذه القناعة من دراستي المعمقة للمسيحية.. فقد كان لديَّ ثلاث درجات علمية: درجة من كلية ثلاث سنوات في أمريكا، وبكالوريوس في علم اللاهوت بالفلبين، ومعلمة اللاهوت في كليتين.. فقد كنت لاهوتية وأستاذاً محاضراً وقسيسة ومنصِّرة، كذلك عملت في الإذاعة بمحطة الدين المسيحي لإذاعة الوعظ المسيحي، وكذلك ضيفة على برامج أخرى في التلفاز، وكتبت مقالات ضد وماذا عن أولادك؟

قلت: فكيف بدأ ذلك التحول المفاجئ من مختصة في المسيحية إلى مؤمنة بالإسلام؟

قالت: كنت في إحدى الحملات التنصيرية إلى الفلبين لإلقاء بعض المحاضرات، فإذا بأستاذ محاضر فلبيني جاء من إحدى الدول العربية، لاحظت عليه أموراً غريبة، فأخذت أسأله وألحّ عليه حتى عرفت أنه أسلم هناك، ولا أحد يعرف بإسلامه وقتئذ.

بعدما سمعت عن الإسلام من هذا الدكتور الفلبيني مقالته، راودتني أسئلة كثيرة: لماذا أسلم؟ ولماذا بدل دينه؟ لابد من أن هناك شيئاً في هذا الدين وفيما تقوله المسيحية عنه.. ففكرت في صديقة قديمة فلبينية أسلمت، وكانت تعمل بالجزيرة، فذهبت إليها، وبدأت أسألها عن الإسلام، وأول شيء سألتها عنه معاملة النساء، لأن المسيحية تعتقد أن النساء المسلمات وحقوقهن في المستوى الأدنى في دينهن، وهذا غير صحيح طبعاً، كما كنت أعتقد أن الإسلام يسمح للأزواج بضرب زوجاتهم، لذلك هن مختبئات وكائنات في منازلهن دائماً[1].

بعد ذلك ذهبت إلى المركز الإسلامي، فاندهشوا جداً من معلوماتي الغزيرة عن المسيحية ومعتقداتي الخاطئة عن الإسلام، وصححوا ذلك لي، وأعطوني كتيبات أخذت أقرأ فيها كل يوم، وأتحدث إليهم ثلاث ساعات يومياً لمدة أسبوع، كنت قد قرأت بنهايته ١٢ كتاباً، وكانت تلك المرة الأولى التي أقرأ فيها كتباً لمؤلفين مسلمين، والنتيجة أنني اكتشفت أن الكتب التي قد كنت قرأتها من قبل لمؤلفين نصارى ممتلئة بسوء الفهم والمغالطات عن الإسلام والمسلمين، لذلك عاودت السؤال مرة أخرى عن حقيقة القرآن الكريم، وهذه الكلمات التي تُقال في الصلاة.

وفي نهاية الأسبوع عرفت أنه دين الحق، وأن الله وحده لا شريك له، وأنه هو الذي يغفر الذنوب والخطايا، وينقذنا من عذاب الآخرة، لكن لم يكن الإسلام قد استقر في قلبي بعد، لأن الشيطان دائماً يشعل فتيل الخوف والقلق في النفـــــــس، فكثف لي مركز التوعية الإسلامي المحاضرات، وابتهلت إلى الله أن يهديني.

وفي خلال الشهر الثاني شعرت في ليلة ـــ وأنا مستلقية على فراشي وكاد النوم يقارب جفوني ـــ بشيء غريب استقر في قلبي، فاعتدلت من فوري وقلت: يا رب أنا مؤمنة لك وحدك، ونطقت بالشهادة، وشعرت بعدها باطمئنان وراحة تعم كل بدني، والحمد لله على الإسلام، ولم أندم أبداً على هذا اليوم الذي يعتبر يوم ميلادي.

قلت: ألم تلاقي أي ضغوط بعد إسلامك؟

قالت: بعد إسلامي تركت عملي كأستاذة في كليتي، وبعد شهور عدة طلب مني أن أنظم جلسات أو ندوات نسوية للدراسات الإسلامية في مركز إسلامي بالفلبين حيث موطن إقامتي، وظللت أعمل به تقريباً لمدة سنة ونصف، ثم عملت بمركز توعية الجاليات بالقصيم في القسم النسائي كداعية إسلامية خاصة متحدثة باللغة الفلبينية بجانب لغتي الأصلية.

قلت: وأهلك؟

قالت: لديَّ سبعة أبناء من زوج فلبيني.. وقد استعملت كل الوسائل لدعوتهم إلى الله.. فعندما كنت أعمل بالمركز الإسلامي بالفلبين كنت أحضر للبيت بعض الكتيبات والمجلات وأتركها بالمنزل على الطاولة متعمدة عسى أن يهدي الله ابني كريستوفر إلى الإسلام، إذ أنه الوحيد الذي يعيش معي، وبالفعل بدأ هو وصديقه يقرآنها ويتركانها كما هي تماماً، كذلك كان لديَّ منبه أذان فأخذ يستمع إليه مراراً وتكراراً وأنا

---

(١) انظر الشبهات المرتبطة بحقوق المرأة في الإسلام في (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

بالخارج، ثم أخبرني بعد ذلك برغبته في الإسلام، ففرحت جداً وشجعته، ثم جاء إخوة عدة من المركز الإسلامي لمناقشته في الإسلام وعلى أثرها أعلن الشهادة.

قلت: وسائر أهلك؟

قالت: بناتي جميعهن متزوجات في أمريكا، وعندما أسلمت كان رد ثلاث من بناتي عنيفاً إزاء اعتناقي الإسلام، والباقيات اعتبرنه حرية شخصية، كما أن بيتي وتليفوني روقبا، فقررت الاستقرار في الفلبين، لكن تنكر لي أهل زوجي، لأني من قبل كنت مرتبطة بهم لكون أبي وأمي ميتين، لذلك بكيت ثلاثة أيام، وعندما كنت أظهر في الشارع بهذا الزي كان الأطفال ينادون عليَّ بالشيخة أو الخيمة، فكنت أعتبر هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام، كما تجنبني كل من يعرفني تماماً.

قلت: فلم يسلم من أهلك إلا ابنك؟

قالت: أجل.. ذلك هو ابني الوحيد الذي اعتنق الإسلام في الوقت الحالي، وسمى نفسه عمر، وأدعو الله أن يمنَّ على باقي أولادي بنعمة الإسلام.

قلت: ذكرت لي سرعة انجذابك للإسلام.. فما الذي جذبك إليه؟

قالت: لقد رأيت أن الإسلام هو الطريق الأكمل والأمثل للحياة.. بل رأيت أنه البوصلة التي توجه كل مظاهر الحياة في الاقتصاد والاجتماع وغيرها حتى الأسرة وكيفية التعامل بين أفرادها.

قلت: عهدي بكل داخل إلى الإسلام ينجذب إلى آيات معينة، فما الآيات القرآنية التي جذبتك؟

قالت: كل القرآن جذبني.. ولكن آية خاصة امتلكتني، وهي تعني لي الكثير، وقد ساعدتني وقت الشدة.

قلت: ما هي؟

قالت: قوله ﷻ:﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران:١٦٣)

قلت: هل حاولت استخدام قناعتك لنشر الدعوة إلى الإسلام؟

قالت: لقد من الله علي، فألقيت العديد من المحاضرات عن الإسلام في الجامعات والكليات بالفلبين، وقد دعيت من قبل رؤساء بعض الدول لإجراء محاورات بين مسلمة ومسيحية لكن لا أحب هذه المحاورات لأن أسلوبها عنيف في النقاش، وأنا لا أحب هذه الطريقة في الدعوة، بل أفضل الأسلوب الهادئ لا سيما اهتمامنا بالشخص نفسه، أولاً ثم دعوته ثانياً.

قلت: لقد سمعت عن خطة عمرها ربع القرن المقبل لتنصير المسلمين؟

ابتسمت، وقالت: بعد قراءتي عن الإسلام علمت سر اضطهاد الإسلام من جميع الديانات..

قلت: ما ذاك؟

قالت: لأنه أكثر الديانات انتشاراً على مستوى العالم، وأن المسلمين أقوى ناس لأنهم لا يبدلون دينهم ولا يرضون غيره بديلاً، ذلك أن دين الإسلام هو دين الحق وأي دين آخر لن يعطيهم ما يعطيه لهم الإسلام.

قلت: فجهودهم إذن ستخيب في تنصير المسلمين؟

قالت: كما خابت جهود كل من سبقهم.

قلت: لم؟

قالت: ألم يحدثك (جابرييلي فرانشيسكو)[1] عن صمود الإسلام[2]؟

قلت: بلى.. وكيف عرفت ذلك؟

قالت: لقد أجابك.. وحسبك بإجابته.

قلت: قد سألتك كيف عرفت ذلك.

قالت:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: من الآية٢٨٢)

قالت ذلك، ثم انصرفت، لتتزل علي بعد انصرافها أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

كرست راجا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كرست راجا) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: هو رجل قرأ القرآن ليجعله وسيلة لبث الشبه عن الإسلام، ولكن الله هداه بتلك القراءة، فتحول إلى الإسلام.

وقد التقيت به في ولاية (تملنادو) بأقصى جنوب الهند ــ وذلك في فترة تواجدي بالهند، والتي حكيت لك بعض أخبارها ــ وقد وجدته عميق المعرفة بالكتاب المقدس، ومما ذكره لي من قصة إسلامه قوله: كنت في ولادتي الأولى أحمل اسم (كرست راجا).. وقد ولدت فى عائلة مسيحية فى قرية من ولاية تلمنادور، ولغتى التاميلية وأعرف عدداً من اللغات، منذ صغر سنى كنت أحب المسيحية.. وأمثلها أحب المسيح حباً شديداً.. وقد كنت أدعو الله دائما أن يحول المسلمين جميعا إلى المسيحية.

وفى أحد الأيام التقيت بعالم مسلم، فاعتبرتها فرصة عظيمة، لكى أناقشه في بعض الأمور المتعلقة بالإسلام والمسيحية، لكنه سرعان ما تحدانى قائلا: لن تجد شيئاً فى القرآن يخالف العقل، أو يخالف الفطرة.

لقد كان هذا التحدى سبباً لأقرأ القرآن الكريم، فقرأت ترجمة المعانى فى اللغة التاميلية مرتين، فعرفت أن الإسلام هو الدين الصحيح، وأن المسيحية محرفة، فقبلت الإسلام ديناً.

قلت: بهذه السهولة !؟

قال: أجل.. القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الأكبر.. لقد قال ﷻ فيه:﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (الفرقان:٥٢)

قلت: فهل تعرضت للبلاء كما تعرض الكثير من إخوانك ممن أسلموا؟

قال: البلاء سنة الله لتمحيص الصادقين.. وقد تعرضت بفضل الله لبعض البلاء الذي تجاوزته بحول الله وقوته.. فالناس كانوا ينظرون إلى نظرة السخرية، وكانوا يقولون لي: إنك صرت مجنونا، وقد ضحكوا على

---

(١) هو في الأصل abrieli Francesco. (١٩٠٤ ــ ١٩٩٧) مستشرق إيطالي، وقد اشتهر بمواقفه المعتدلة من التاريخ الإسلامي حتى إنه كتب عن صلاح الدين الأيوبي بوصفه بطلاً وشخصية عظيمة بالرغم مما تعرضت له هذه الشخصية من تشويه في الكتابات الغربية.

(٢) انظر الرسالة السابقة فصل (صمود)

(٣) انظر: المجلة الخيرية، العدد: ٧٤، محرم ١٤١٧ هــ.

لأنى أطلقت اللحية بعد أن كنت متعودا على حلقها[1]، وتحملت جميع هذه المشاكل من قومى، وصبرت عليها لأنى كنت أقرأ فى القرآن قصص الدعاة والمصلحين من الآنبياء والرسل وتحملهم الأذى والمصائب فى سبيل التبليغ الدعوة إلى الله.

قلت: وأهلك.. أقرب الناس إليك !؟

قال: لقد من الله عليهم، فأسلموا.. لقد أسلمت زوجتى، وثلاثة من أولادى، وقد أسلم على يدى بالإضافة إليهم بعض الأخوة الآخرين.

قلت: فما الحرفة التي اتخذها بعد إسلامك؟

قال: أنت تعلم جيدا أن أحبار النصارى وعلماءهم ودعاتهم يتمتعون بكل نعيم فى الدنيا، ويعيشون عيشة رضية بما يحصلون عليه من المعونات الهائلة من الدول المسيحية.

وقد تركت كل ذلك طمعا بما أعد الله لى فى الآخرة من نعيم فى الجنة، والآن أتجول فى القرى والمدن ماشيا، وألتقى بالناس أفراداً وجماعات أوجه الدعوة إليهم، وأدعوهم إلى الإسلام، وأبين لهم أباطيل دينهم، وأبذل جهدى لإيصال ترجمة معانى القرآن الكريم إلى كل شخص من غير المسلمين، لأنى على يقين أنهم إذا قرأوا القرآن مرة واحدة من أوله إلى آخره فسيدخلون فى دين الله.

قلت: فأنت تابع لبعض المراكز الإسلامية إذن؟

قال: أجل.. فأنا أشتغل ــ بحمد الله ــ كداعية فى مركز الدعوة للمسلمين الجدد التابع لجمعية أهل القرآن والحديث فى ولاية تملنادوا جنوب الهند، والتى تبذل جهدها فى نشر الدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم.

قلت: هل ترضيك جهود المسلمين الدعوية؟

نظر إلي بحزن، ثم قال: إن آلاف القلوب فى هذه المنطقة تنتظر الفرصة للدخول فى الإسلام، وعلى المسلمين مسئولية كبرى، يجب عليهم أن يتمثلوا صورة الإسلام الصحيحة أولا، ثم يقوموا بالدعوة المستمرة، ويبذلوا جهدهم فى تعريف الإسلام لغير المسلمين من النصارى والهندوس وغيرهم، وعلى المؤسسات والهيئات الإسلامية فى داخل البلاد وخارجها التى تهتم بالشئون الدينية أن تقوم بتوزيع ترجمة معانى القرآن بكية كبيرة.

وأعتقد أن المسلمين هم المسئولون أمام الله لتأخر دخولى فى الإسلام، فقد كنت جاهلا به أكثر من ثلاثين سنة، وذلك بسبب تقصير المسلمين فى دعوتى للإسلام وبيان معانيه، وإننى أخشى أن يقول الناس جميعاً يوم القيامة أمام الله تعالى مثل قولى هذا.

سيف الإسلام التهامي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سيف الإسلام التهامي)، فسألت البابا عنه، فقال: وقد التقيت به في القاهرة.. وهو شاب مسيحي كان أبوه من أرمن كاثوليك وكانت أمه إنجيلية، وقد

(١) لقد ذكرنا أنه لا ينبغي التشدد مع من أسلم في هذه الأمور، حتى لا تكون سببا في حجاب الناس عن الإسلام.

سألته عنه، فقال: نشأت نشأة مسيحية بحتة، فمنذ نعومة أظافرى، وأنا أذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، وفي الأعياد، وفي كل وقت أشاء حيث لم يكن علي رقيبٌ فيما يخص ذهابي للكنيسة، فقد أحببت الذهاب إليها،والاستمتا ع بكل ما فيها من شعائروصلوات وألعاب ومعسكرات ورحلات.

ثم التحقت بمدرسة (نوباريان) الأرمنية وهي مدرسة لا تقبل إلا النصارى الأرمن، فقد كان عدد طلاب المدرسة من حضانة إلى ثانوي ما يقرب من ١٢٥ طالبا فقط في جميع مراحل التعليم بها.

وكان أول ما نفعله صباحاً في طابور المدرسة هو الصلاة، ونحن واقفون في صفنا، وكانت بالمدرسة كنيسة، وكان أكثر المدرسين في المدرسة نصارى.

و لم يكن لدي أي إختلاط بالمسلمين إلا القليل من أصدقائي في الحي أو جيراني، بل كانت معظم أوقاتي أقضيها بالكنيسة ، وكنت أخدم كشماس في الكنيسة أساعد القسيس في مراسم القداسوالصلاة.

استمر بي الحال على ذلك حتى وصلت المرحلة الثانوية، وفي هذه المرحلة بدأت أرتبط بالكنيسة والقساوسة أكثر من ذي قبل، وكنت سعيداً جداً بهذه العلاقة لأني كنت من المقربين لديهم، وأصبحت أقوم بمعظم شعائر القداس من قراءة للإنجيل ورد على القسيس عندما يتلو أي شيء منه، بالإضافة إلى تحضير القربان والخمر للقداس.

وفي يوم من الأيام كنت جالسا مع أحد أصدقائي المسلمين، وكان من العوام البسطاء، فقال لي: ألن تسلم؟

فقلت له: و لم أسلم ؟.. و لم لا تتنصر أنت؟

فقال لي عبارة كانت هي أشد ما سمعت، وكانت ــ مع شدها ــ هي سبب إسلامي بعد ذلك.. لقد قال لي: (أنتم كلكم في النار)

لقد نزلت علي هذه الكلمة كالصاعقة..

قلت: لماذا أدخل أنا والنصارى جميعاً النار، وأنتم المسلمون تدخلون الجنة؟

فقال: لأنكم تقولون ثالث ثلاثة، وأن المسيح ابن الله وغيرها من الافتراءات على المسيح!

فقلت له: وكيف عرفت كل هذه الأشياء..هل قرأت الإنجيل؟

قال: لا.. بل قرأها عندنا في القرآن.

كان هذا من الأشياء العجيبة التي سمعتها أيضاً، فكيف يعرف القرآن ما هو في ديننا (سابقاً) وكيف يقر بأن هذه الأشياء التي نقولها على المسيح كلها كفر وتؤدي إلى النار؟

عندئذ احترت في أمري، وبدأت أفكر مليا في هذا الأمر، ثم بدأت أقرأ الإنجيل، ولأول مرة أقرؤه على بصيرة، فقد كان على قلبي عمى، وبدأت أجد الاختلافات الشديدة في ذكر نسب المسيح، وادعاء ألوهيته تارة ونبوته تارة أخرى.

وقد جعلني كل ذلك أتساءل من هو المسيح إذن.. أهو نبي، أم ابن الله، أم هو الله؟

وبدأت أضع بعض الأسئلة، ثم أذهب بها إلى القسيس، لكى أحصل على الإجابة الشافية، ولكني لم أجد

ما يثلج صدري في أي إجابة.

أتذكر أني ذات مرة سألت القسيس: لماذا الكتاب المقدس يذكر أن المسيح جالس على جبل الزيتون، وهو يدعو الله.. فإن كان هو الله حقاً فلمن يدعو.. ولمن يسجد؟

فأجابني إجابات لم أفهم منها شيئاً.

ثم بدأت أفكر فيما كنا نفعله في الكنيسة من اعتراف بالخطايا والذنوب للقسيس، وأخذت أفكر في المناولة.. ذلك الجلاش الطري الذي يوضع في الخمر، ليذكر القسيس أن هذين الشيئين صارا دم وجسد المسيح، ومن يأخذها يغفر له ويطهر من الداخل!

وقد تساءلت ــ حينها ــ كيف يغفر ذنوبي بشراً مثله مثلي.. وهو لمن يعترف.. ومن يغفر له.. وكيف يحل دم وجسد المسيح في هذه الكأس.. وهل هذه خرافة أم حقيقة.. وكيف يطهر ما في داخلي ويغفر ذنوبي[1] ؟!

بدأت الأسئلة تكثر داخلي، ولم أجد لها إجابة، فبدأت آخذ قراراتي من نفسي: مثل عدم الاعتراف للقسيس لأنه بشر مثلي، وأيضاً عدم أخذ المناولة،وآمنت أن المسيح عليه السلام نبياً لأنه بشر..

والإله له صفات الكمال الخاصة التي تتنافى مع صفات البشروبدأت أقرأ الإنجيل بدون أن أقول (ربنا يسوع المسيح)، ولكن أقول يسوع المسيح (فقط)، ولكن مع هذا لم أشعر بالراحة التي أريدها، ولم أشعر أن هذا هو الحل في هذا الدين الذي أعتنقه.

وأثناء ذلك، وفي تلك الحقبة من حياتي، كنت ذات يوم أراجع دروسي في غرفتي داخل منزل الأسرة الذي يقع خلفه تماماً مسجد، وكنا في شهر رمضان، وكانت مكبرات الصوت تعمل من بعد صلاة العشاء خلال صلاة التراويح، وكان صوت الإمام الذي يقرأ القرآن يصل إلى غرفتي..

لقد كان صوتا خافتا جميلا.. وكنت أشعر فيه بحلاوة تمس قلبي، ولم أكن قد علمت بعد أن هذه التلاوة هي القرآن الكريم.

ثم جاءت اللحظة التي شرح الله فيها صدري للإسلام، وكان ذلك يوم الأحد بالقداس داخل الكنيسة عندما كنت أقرأ الإنجيل، قبل القداس استعداداً لقراءته على الناس خلال الصلاة.

وأثناء استعدادي سألت نفسي: هل سأقول ربنا يسوع المسيح؟.. أم يسوع المسيح فقط لأنه نبي وليس بإله، ولكن إذا قلت ذلك سوف يدرك الحاضرون أني تجاوزت عن تلك الكلمة، ولكن كيف سأخالف ضميري..

وفي النهاية قررت أني سأقرأ الإنجيل كما هو دون تغيير مادمت أمام الناس، وأن أجعل هذا التغيير عندما أقرأه بمفردي.

وجاء ميعاد قراءتي للإنجيل خلال القداس.. وبدأت أقرأ بثبات كما هو مكتوب تماماً حتى وقفت عند كلمة: (ربنا يسوع المسيح).. فأبى لساني أن ينطق بها، ولم أشعر بنفسي إلاوأنا أتجاوز كلمة (ربنا) خلال

(١) انظر ما يتعلق بهذه الطقوس وانصرافها عن المسيحية الحقيقية في الرسالة السابقة من هذه السلسلة.

القراءة بالكلية، وتعجب القسيس من ذلك الموقف، فأشار إلي بالجلوس، فتوقفت عن القراءة، ثم جلست، ولكننا أكملنا الصلاة بشكل طبيعي، حتى إذا انتهت الصلاة توجهت للغرفة الخاصة بنا..

وهنالك سألني القسيس: لم فعلت ذلك ؟.. لماذا لم تقرأ الإنجيل كما هو ؟

فلم أجبه، وقلت له: إني أريد أن أذهب إلى البيت لأستريح!

وذهبت إلى غرفتي وأنا في غاية الدهشة لما فعلت.

منذ ذلك اليوم، صرت أنام قبل إتمام قراءة الإنجيل يومياً، كما كنت معتاداً من قبل، وأصبحت لا أشعر بالراحة لا في صلاة، ولا قراءة، ولا حتى الذهاب إلى الكنيسة..

وظللت أفكر في حالي.. وظلت (كلكم في النار..) تلك الكلمة القاسية التي قالها لي صديقي المسلم تخترق أذني.

بعدها.. أقبلت على القراءة الجادة في كتب المقارنات والكتب الإسلامية التي تتناول حياة المسيح، فعرفت من هو المسيح في الإسلام، وعلمت أيضاً ما لم أكن أعلم، وهو ذكر النبي ﷺ في العهدين القديموالحديث..

واكتشفت أن المسيح وأمه مريم (عليهما السلام)، مكرمان غاية التكريم في القرآن، وأن المسيح (نبيّ)، قال الله له كن، فكان، وهو (روح منه)، فتأكدت حينئذٍ أن الإنجيل الذي بين يديّ محرف، ويكثر فيه اللغط.

ثم علمت أن (الإسلام) هو دين الحق، وأن الله لا يرضى غير الإسلام ديناً، وأنه هو الطريق إلى الجنة والنجاة من النار.

فذهبت بعدها إلى إحدى المكتبات واشتريت مصحفاً، وعندما قرأته لم أكن ـــ حينها ـــ أفهم منه شيئاً، ولكني أحسست براحة غريبة في صدري.

لقد انشرح صدري لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده وكرمهم به، وأرشدهم إليه، فالحمد لله أولاً، والحمد لله آخراً ،والحمد لله أبداً أبداً، الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

قلت: وأهلك.. ألم يقاطعوك بسبب إسلامك؟

قال: من المدهش أني عندما أخبرت أخواتي بالإسلام وجدتهن قد سبقاني إليه، ولم يعارضني منهن أحد، فالحمد لله الذي منَّ علينا جميعاً بالإسلام..

فاليوم الذي نطقت فيه بالشهادتين ولدت من جديد.. فما أجمله من دين، وما أعظمه من إله واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فلك الحمد يا إلهي، أنت عزي وأنت جاهي، فمن يستعين بسؤالك وأنت لا تخيب من رجاك.

جي ميشيل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جي ميشيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من أهل بلدي، وهو طبيب التقيت به في الصومال، ولاحظت في كلامه نفحات الصدق، فسألته: من أنت؟

قال: كنت جي ميشيل.. وأنا اليوم عبد الجبار.

قلت: فحدثني عن رحلة جي ميشيل إلى عبد الجبار.

قال: تبدأ قصتي عندما اختارتني منظمة تنصيرية بألمانيا الغربية لكي أكون رئيساً للبعثة التنصيرية في الصومال، بجانب عملي كطبيب لأمراض العيون..

وقد كانت هذه البعثة اتخذت في خطتها مشروع تنصير القرن الافريقي، على أن تكون الصومال هي نقطة الانطلاق لعمليات التنصير.. وقد اتخذت هذه البعثة مشروعاً خيريّاً كستار تخفي من ورائه نشاطها التنصيري.. وكان هذا المشروع هو علاج أمراض العيون كي تنفذ من خلاله إلى المواطنين، والتأثير عليهم بترغيبهم في المسيحية.

وبعد خمسة أشهر تلقت المنظمة تقارير تفيد بتفاني في عملي كطبيب، وإهمالي للشق الآخر من مهمتي، وهو التنصير.. ونتيجة لذلك تلقيت برقية من رئاسة المنظمة تطلب مني ضرورة ذهابي إلى إنجلترا لقضاء فترة تدريبية لمدة شهر، ثم السفر منها إلى تترانيا.

وفي انجلترا تعرّفت على صديق مسلم من الصومال يدعى (محمد باهور) الذي وطد صداقته معي، وحدث أن دعاني ذات يوم لزيارة مترله.. فلبيت دعوته، وكان الترحيب من أسرته.. وأثناء الزيارة فوجئت برجل يتكلم الإنجليزية بطلاقة مدهشة.. وعلمت أنه والد صديقي محمد، وفرحت به، وتمنيت أن أجذبه إلى الدين المسيحي حتى تتحقق عملية التنصير.. وبدأت مع هذا الرجل عملية جذبه للمسيحية بالحديث عنها معه.. وهو ينصت إليّ بإصغاء تام، توقعت اقتناعه بما أقول، وبالتالي سيكون مفتاح التنصير في المنطقة كلها.

وبعد أن أسهبت في الكلام عن المسيحية كدين لا يرقى في مكانته أية ديانة أخرى، وأنا أتعرض لعظمة الإنجيل والمسيح عيسى ابن الله.. فوجئت بوالد صديقي ممسكاً بنسخة من القرآن في يديه، وسألني: أتعرف هذا الكتاب؟.. فابتسمت و لم أجب، خشية إثارته أو التلميح له بمهمتي، ولكني أحسست أن هذا الرجل يدرك ما يدور بعقلي، فمنحني فرصة الخروج من المأزق.. وبدأ هو يتحدث عن الإنجيل وعن المسيح.. ومن خلال حديثه أدركت تماماً أن المسلمين جميعاً يحبونه ويعترفون به، وخصوصاً أن الإسلام ذاته يدعو إلى الإيمان به وبغيره من الرسل والأنبياء، بل جعل ذلك من دعائم الإيمان بالإسلام.

ثم طلب مني والد صديقي أن أوجه له أي سؤال في الإنجيل أو في القرآن.. فقلت له: كيف؟! قال: في القرآن كل شيء.

صمت برهة يستعيد ذكرياته، ثم قال: وتعددت زياراتي لوالد صديقي.. وكنت مُراقباً من أفراد البعثة الذين طلبوا مني عدم الذهاب إلى هذا المترل، وفوجئت بعد ذلك بقرار نقل صديقي، ثم اعتقاله بدون سبب.. أما بالنسبة لي فقد طلبوا مني الانتقال إلى كينيا لقضاء اجازة ممتعة على حد تعبير منظمة التنصير.. ووصلتني رسالة ساخنة من والدي يطالبني فيها بالعودة إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن.

ولكني ــ وأنا رئيس بعثة التنصير ــ رفضت الاستجابة لتعليمات رئاستي في ألمانيا.. كما رفضت الاستجابه لطلب والدي.. بل كتبت برقية إلى كل منهما أقول فيها (اطمئنوا تماماً.. كل شيء على ما يرام، وسأعتنق الإسلام)

بعدها عكفت على دراسة الإسلام وتفهم تعاليمه وأركانه التي حث عليها.. ثم أعلنت اعتناقي للإسلام.

قلت: فهل عدت لبلدنا؟

قال: لا.. لقد صممت أن أبقى في الصومال أؤدي رسالتي كطبيب مسلم يعرف حق الله وحق مرضاه.

آرثر ميلاستنوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر ميلاستنوس) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: وهو دكتور في اللاهوت، وكان الرجل الثالث في مجمع كنائس قارة آسيا، وقد التقيت به في بعض رحلاتي، فلاحظت في كلامه نفحات الصدق، فسألته عن سرها، فقال: في أثناء عملي بالتنصير عام ١٩٨٣ خطر على بالي خاطر يقول لي: أي ضير في قراءة القرآن من أجل الرد على المسلمين؟

وتلبية لهذا الخاطر توجهت إلى أحد المسلمين سائلاً إياه أن يعيرني كتابهم المقدس، فوافق المسلم مشترطاً علي أن أتوضأ قبل كل قراءة[2].

وعندما قرأت القرآن أول مرة، شعرت بصراع عنيف في أعماقي، فثمة صوت يناديني ويحثني على اعتناق هذا الدين، الذي يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وساطات القسس، ولا تباع فيها صكوك الغفران.

وفي يوم توضأت، ثم أمسكت بالقرآن فقرأت:﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد:٢٤)، فأحسستُ بقشعريرة، ثم قرأت:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾(المائدة: من الآية٣)، فحلّت السكينة في روحي الحيرى، وشعرت أني قد خُلقت من جديد.

في تلك الليلة لم أصبر حتى تطلع الشمس، بل اتجهت حالاً إلى منزل صديقي المسلم لأسأله عن كيفية الدخول في الإسلام، وبين حيرة الصديق ودهشته نطقت بالشهادتين.

عبدالأحد داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالأحد داود)، فسألت البابا عنه، فقال: لم ألتق به، ولكني التقيت بعض أحفاده، وقد حدثني عنه، فذكر أن اسمه قبل إسلامه كان (دافيد بنجامين الكلداني)[3] .. وكان أستاذا في علم اللاهوت، وكان قسيس الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانيين الموحدة، وكان يتكلم عدة لغات.

وقد ولد عام ١٨٦٨م، في أروميا من بلاد فارس، وتلقى تعليمه الابتدائي في تلك المدينة، وبين عامي ١٨٨٦ – ١٨٨٩م كان أحد موظفي التعليم في إرسالية أساقفة (كانتر بوري) المبعوثة إلى النصارى النسطوريين في بلدته.. وفي عام ١٨٩٢م أرسل إلى روما حيث تلقى تدريبا منتظما في الدراسات الفلسفية واللاهوتية في كلية (بروبوغاندافيد).. وفي عام ١٨٩٥م تم ترسيمه كاهنا، وفي هذه الفترة شارك في كتابة

---

(١) انظر: ربحت محمداً ولم أخسر المسيح، د.عبدالمعطي الدالاتي.

(٢) ذكرنا في المباحث الفقهية المرتبطة بهذا أنه لا ينبغي التشدد مع غير المسلمين في مثل هذا إلا إذا رأينا ذلك في مصلحة الدعوة الإسلامية كتعريفهم بحرص الإسلام على الطهارة.

(٣) انظر: (محمد في الكتاب المقدس) عبد الأحد داود ص (١٦٢) – (عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام) محمد طماشي.

سلسلة من المقالات التي تم نشرها في بعض الصحف المتخصصة، وبعد عودته من روما توقف في إستانبول عام ١٨٩٥م، وأسهم في كتابة ونشر بعض المقالات عن الكنائس الشرقية في الصحف اليومية الإنجليزية والفرنسية.

لم يمكث طويلا في إستانبول، بل عاد في نفس العام إلى بلدته، وانضم إلى إرسالية (لازارست) الفرنسية، ونشر لأول مرة في تأريخ الإرسالية منشورات فصلية دورية باللغة السريانية.

وبعد ذلك بعامين انتدب من قبل اثنين من رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية في بلده لتمثيل الكاثوليك الشرقيين في مؤتمر (القربان المقدس) الذي عقد في مدينة (باري لو مونيال) في فرنسا، وفي عام ١٨٩٨م عاد إلى قريته ديجالا وافتتح مدرسة بالمجان.

وفي عام ١٨٩٩م أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس، لتحمل المسئولية، حيث يوجد نزاعات بين بعض القياديين النصارى هناك، وفي عام ١٩٠٠م ألقى موعظة بليغة شهيرة، حضرها جمع غفير من طائفته وغيرها، وكان موضوعها (عصر جديد ورجال جدد) انتقد فيها تواني بني قومه عن واجبهم الدعوي.

وقد أخبرني حفيده هذا، بأنه كتب رسالة يجيب فيها من سأله عن دوافع إسلامه، وقد رأيت تلك الرسالة، ومما ورد فيها قوله: إن اهتدائي للإسلام لا يمكن أن يعزى لأي سبب سوى عناية الله عز وجل بي، وبدون هداية الله فإن كل القراءات والأبحاث، ومختلف الجهود التي تبذل للوصول إلى الحقيقة لن تكون مجدية، واللحظة التي آمنت بها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، أصبحت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.

ومن الأسباب التي ذكرها في تلك الرسالة، والتي جعلته يعلن عصيانه على الكنيسة، ما تطلبه ممن يؤمن بها من الشفاعة بين الله وبين خلقه في عدد من الأمور، كالشفاعة للخلاص من الجحيم، وكافتقار البشر إلى الشفيع المطلق بصورة مطلقة، وأن هذا الشفيع إله تام وإنسان تام، وأن رهبان الكنيسة أيضا شفعاء مطلقون، كما تأمره الكنيسة بالتوسل إلى شفعاء لا يمكن حصرهم.

وقد ذكر فيها أنه من واقع دراسته لعقيدة الصلب وجد أن القرآن ينكرها والإنجيل المتداول يثبتها، وكلاهما في الأصل من مصدر واحد، فمن الطبيعي ألا يكون بينهما اختلاف، ولكن وقع بينهماالاختلاف والتضاد، فلا بد من الحكم على أحدهما بالتحريف، فاستمر في بحثه وتحقيقه لهذه المسألة حتى توصل إلى الحقيقة، حيث يقول:« ولقد كانت نتيجة تتبعاتي وتحقيقي أن اقتنعت وأيقنت أن قصة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات قصة خرافية »

ومن الأسباب التي ذكرها اعتقاد النصارى بالتثليث، وادعاؤهم أن الصفة تسبق الموصوف..

بالإضافة إلى هذا كله فقد ذكر أنه التقى بعدد من العلماء المسلمين، وبعد مواجهات عديدة معهم اقتنع بالإسلام واعتنقه.

وقد ذكر أنه نتيجة لذلك اعتزل الدنيا في منزله شهراً كاملاً، يعيد قراءة الكتب المقدسة بلغاتها القديمة وبنصوصها الأصلية مرة بعد مرة، ويدرسها دراسة متعمقة مقارنة ضمّن بعضها في كتابه الفذ (محمد في الكتاب المقدس)

وقد أدته تلك العزلة الباحثة إلى اعتناق الإسلام في مدينة استانبول.. وقد ذكر في ختام رسالته قوله (في اللحظة التي آمنت فيها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، بدأت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.. فـــ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذه العقيدة سوف تظل عقيدة كل مؤمن حقيقي بالله حتى يوم الدين ... وأنا مقتنع بأن السبيل الوحيد لفهم معنى الكتاب المقدس وروحه، هو دراسته من وجهة النظر الإسلامية)

محمد فؤاد الهاشمي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (محمد فؤاد الهاشمي) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: وهو صاحب كتاب (الأديان في كفة الميزان).. وقد ذكر لي سبب إسلامه، فقال:« لقد كان قصدي من البحث في الإسلام استخراج العيوب التي أوحى إلي بها أساتذتي، لكن وجدت أن ما زعموه في الإسلام عيوباً هو في الحقيقة مزايا، فأخذ الإسلام بلبي، فانقدت إليه، وآمنت به عن تفكّر ودراسة وتمحيص، وبها كلها رجحت كفة الإسلام، وشالت كفة سواه »

فردريك دولامارك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فردريك دولامارك)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل كبير أساقفة جوهانسبرج، وقد اهتزت دوائر التبشير العالمية بعد إسلامه، فقد أعلن في صحن المركز الإسلامي الكبير بجنيف عن إسلامه، مؤكداً إستعداده للبدء فوراً في قيامه بالتعريف بحقيقة الإسلام، والعمل على نشر تعاليمه في أنحاء القارة الإفريقية.

وسادت الدهشة والذهول أركان الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن أعلن أنه عندما درس الإسلام وجد صورة أخرى مختلفة للمسيح عليه السلام مما أحدث في نفسه أعمق الأثر..

وقد خشيت الكنيسة من تأثر عدد كبير من قادة العمل التبشيري بتلك المفاجأة، حيث اشتهر (فردريك) برجاحة عقله وإنصافه للحقيقة.

والمثير للانتباه أن (فردريك) قد وصلت غيرته على الإسلام إلى حد التأكيد على ضرورة تطوير أساليب الدعوة والاهتمام بدعمها، حيث أن هناك قصوراً في هذا الصدد ينبغي معالجته.. وقد صرح بهذا المعنى في قوله:« من المؤسف حقاً أن الجهود التنصيرية لا تشكو من أي نقص تنظيمي أو حركي أو مالي أو معنوي، وهذا ما نفتقده عند دعاة الإسلام، فضلاً عن المصاعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية »

مصطفى مولاني:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مصطفى مولاني) [2]، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) عن (الإسلام) الدكتور أحمد شلبي ص (٢٨٨)

(٢) انظر:الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد.

لقيت هذا القس الأيرلندي في مصر، و لم يذكر لي اسمه الحقيقي، أو لست أذكر اسمه الحقيقي، ولكنه كان عالما من علماء المسيحية، وقد وفد إلى مصر بعد أن استقال من منصبه كأسقف في إحدى الولايات الأمريكية، ليدرس الإسلام على يد شيوخ الأزهر وعلمائه.

وقد جمعني وإياه مجلس طويل حدثني فيه عن رحلته للإسلام، والتي بدأها بقوله:« "أنا إيرلندي الأصل، نشأتُ في بيئة كاثوليكية متمسكة بعقيدتها.. وكل الآباء هناك يتمنون أن يكون من أبنائهم قسيس يخدم الدين المسيحي، لأن هذا شرف كبير للعائلة، لذلك درست في مدرسة ثانوية دينية، ثم التحقت بكلية خاصة بالقسس بجامعة (سانت باتريك) لدراسة الفلسفة واللاهوت لمدة ست سنوات.. وخلال فترة دراستي لم أسمع كلمة واحدة عن الإسلام.

وبعد تخرجي بشهرين فقط.. أي عام ١٩٧١.. ذهبت إلى أمريكا للتبشير، حيث تُخرج الكلية مائتي قسيس كل عام.. ويأتي الأساقفة الأمريكيون فيأخذون أغلبهم إلى أمريكا للعمل بالتبشير في مناطق مختلفة.. وقد أتيح لي أن أعمل أسقفاً بولاية (نيو جيرسي).. وأصبحت مسئولاً عن إعداد برامج التوجيه الديني لكل المستويات وتدريب القائمين بهذا العمل، وإلى جانب ذلك عملت مدرساً للمواد الدينية بالمدرسة الثانوية الكاثوليكية.. وكنت مشغوفاً بالبحث والدراسة حتى أستطيع أن أؤدي واجبي تجاه إرشاد الناس.

ولكني كنت كلما تعمقت في البحث والدراسة انتابني شعور غريب بالشك في عقيدتي.. و لم أستطع أن أكتم شكوكي، فقررت مفاتحة رئيس الأساقفة، وقلت له: لدي شك في عملي، بل وفي إيماني بالله حسب عقيدتنا، فنصحني بالتريّث والتفكير، وأعطاني مهلة لمدة عام ريثما أفكر في الموضوع بهدوء.

وخلال هذا العام عكفتُ على البحث والدراسة، وتوجت بحثي بالحصول على درجتين للماجستير، إحداهما في التربية الدينية، والأخرى في اللاهوت والكتاب.. ولكن هذه الدراسات والبحوث لم تزدني إلا شكاً في عقيدتي وعملي.. وعدت إلى رئيس الأساقفة ومعي استقالتي من عملي فوافق.

قلت: هل معرفتك بالإسلام هي السر في هذا الشك الذي عرض لك نحو المسيحية؟

قال: لا.. فلم أكن إلى تلك اللحظة قد عرفت أي شيء عن الإسلام.

قلت: فما أسباب ذلك الشك إذن؟

قال: هناك اسباب كثيرة، فقد كان انتقالي من (إيرلندا) حيث المجتمع الريفي المتماسك، إلى أمريكا حيث المجتمع الصناعي المادي، وما يتميز به من أمور غريبة، من ذلك مثلاً عدد المذاهب المسيحية الذي يربو على ثلثمائة مذهب.. كل واحد منها يزعم أنه على الحق دون غيره، مما جعلني أشك في صدق هؤلاء.

كما أن هناك أشياء أخرى لم أكن مقتنعاً بها، مثل السلطة البابوية المطلقة على الناس، والتعسف في معالجة الأمور، مثلما حدث من جدال طويل قد ثار حول موقف البابا من تنظيم النسل.. فهم يرفضون التنظيم مع أنه لا يوجد في الأناجيل ما يمنع ذلك.

كما أنني لم أكن مقتنعاً بفكرة الرهبنة، حيث كثير من رجال الدين في المسيحية ممنوعون من الزواج بأمر البابا.. وهذا شيء ضد طبيعة الإنسان وفطرته.

هذه هي بعض الأسباب التي ضاعفت شكوكي، وجعلتني أعيش في حيرة.. كيف أعظ الناس وأنا غير مقتنع بما أقول.. لذلك قررتُ الإستقالة دون أن أعرف شيئاً عن الإسلام.

وبعد أن استقلت من عملي قررت أن أستأنف دراستي للحصول على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وذلك بعد أن اشتغلت في الكنيسة تسع سنوات.

وفي فترة دراستي تلك كانت توافيني معلومات وبيانات عن الإسلام، فأردت أن أعرف المزيد منها، فدرست تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. كما حرصت على حضور بعض المحاضرات لعدد من علماء المسلمين الذين يحاضرون في القرآن والحديث وأركان الإسلام، وكل ما يتصل به. وذلك من باب حب الاستطلاع.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: أذكر في ذلك الوقت أنني قد سمعتُ عن مصر والأزهر ودوره الإسلامي الكبير.. والغريب الذي أعجب منه كلما استرجعه أن بداية معرفتي بالأزهر جاءت بعد رؤيتي لعرض تقدّمه شيخان من الأزهر بزيهما الديني المميز إعترافاً وتقديراً لدور الأزهر كأقدم جامعة في العالم، وذلك في أثناء الإحتفال بمرور ثلاثمائة عام على إنشاء جامعة هارفارد، حضره مندوبون من جامعات العالم العريقة.

وهذه الصورة محفوظة في سجل الجامعة هناك.. ولذلك قررت أن يكون موضوع رسالتي للدكتوراه عن (علماء الدين الإسلامي: ودورهم في المجتمع المصري من أيام الشيخ عبد المجيد سليم وحتى الآن)

وحتى ذلك الوقت لم أكن قد قررت اعتناق الإسلام، وإنما كان اهتمامي منصبا على الدراسة فقط، والتي كانت تستدعي منه مجيئي إلى مصر لأقوم بدراسة الإسلام من كليات الأزهر المتخصصة، مثل كلية أصول الدين، والتقائي بأساتذها، وعلماء الإسلام، فضلاً عن قراءاتي المستفيضة لعدد كبير من الكتب الإسلامية.

وعندما حضرت إلى مصر وشاء قَدَرُ الله أن يكون ذلك في شهر رمضان، استرعى انتباهي ظاهرة غريبة بالنسبة لي كأجنبي.. حيث شاهدت المجتمع المصري منتظماً في أسلوب حياته القائم على أساس من الدين.. فالناس يذهبون إلى المسجد عند سماع الأذان، ويتطهرون بماء الوضوء، ثم يقفون في صفوف منتظمة.. وعند الإفطار تخلو الشوارع من المارة.

ابتسم قليلا، ثم قال: ظننت في بداية الأمر أن هناك قانوناً يقضي بحظر التجوال بعد الغروب.. ولكنني عرفت السبب بعد ذلك.

ومما شد انتباهي رؤيتي للمسلمين، وهم يُصلُّون العشاء والتراويح.. ويذهب بعضهم إلى أعمالهم ومتاجرهم حتى ساعة متأخرة، يقال عنها (السحور).. ثم يصلون الفجر وينامون.

قلت: ما الذي شدك في كل هذا؟

قال: لقد رأيت المجتمع المصري مجتمعا منظما على أساس من الدين.. يكفي أنه قد شد انتباهي أن الأمن والأمان سائدان في شوارع القاهرة بشكل لم أرهما من قبل في أي مكان.. فالناس يسيرون في الشوارع ليلاً في أمنٍ واطمئنان بدون أن يتعرضوا للاعتداء عليهم بالقتل أو غيره.. في حين أنّ عندنا في نيويورك مثلاً يوجد كل يومٍ ثمانية قتلى في الشوارع، مع أن الأمريكيين لا يسيرون في الشوارع والطرقات ليلاً خوفاً على حياقم ليس

ذلك في نيويورك وحدها، بل في باقي الولايات الأمريكية.. فبرغم القوانين والعقوبات تنتشر الجرائم والانحرافات انتشاراً مخيفاً، ولكن الأمر يختلف في المجتمع المسلم، كما هو الحال في مصر، فإيمان الناس بدينهم يجعلهم يطبقون تعاليمه بدون خوف من عقوبة أو قانون، بل احتراماً لمبادئهم وعقيدتهم، وهذا هو الفرق بين المجتمع هنا والمجتمع في الغرب حيث لا أمن ولا أمان.

سكت قليلا، ثم قال: ولكني برغم اقتناعي بالإسلام كمنهج حياة ينظم للبشر أسلوب معيشتهم وسلوكياتهم، وبرغم قراءاتي في الكتب الإسلامية المترجمة، ولا سيما ترجمة معاني القرآن الكريم وغيرها من كتب، وبرغم مقابلاتي مع شيوخ وعلماء الأزهر.. برغم ذلك كله لم أعلن إسلامه على الفور.. وليس ذلك عن عناد فكرٍ وغشاوة قلب.. وإنما لسبب آخر..

قلت: ما هو؟

قال: برغم اقتناعي الكامل بالإسلام كدين خاتم يجب أن يؤمن به الناس جميعاً، فإنني ترددت أربعة أشهر قبل أن أعلن إسلامي، لأدرس القرار في تأنٍّ من جميع جوانبه.. لأنه من الصعب على الإنسان أن يغير دينه..

بعدها شرح الله صدري للإسلام، فدخلت في دين الله الحق.. وسميت نفسي مصطفى مولاني تيمناً باسم الرسول محمد ﷺ.

قلت: فكيف شعرت عندما دخلت للإسلام؟

قال: في لحظة اعتناقي للإسلام شعرتُ أنني أدخل عالماً نورانياً يسمو بالروح والنفس.. وذلك حينما تسلمت شهادة إشهاري الإسلام.. قد شعرت بأنني حصلت على أعلى شهادة في الدنيا.. وأحسست في الوقت ذاته أنني ألقيتُ عن كاهلي عبئاً ثقيلاً من الهموم والقلق والشكوك والشقاء.. نعم شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل.

قلت: ومحمد.. لقد سمعت بأنك كلت له بعض الهجوم عندما كنت قسيساً!؟

قال: لقد اقتنعتُ تماماً بأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين.. واقتنعت بسنته وتشريعاته التي اتخذها الغرب مدخلاً للطعن في رسالته مثل تعدد الزوجات التي اقتنعت تماماً بحكمتها [1].

سكت قليلا، ثم قال: لقد قمت بأداء عُمرة، وزُرتُ البيت الحرام، والروضة الشريفة، وفاضت عيناي بالدموع أمام قبر المصطفى ﷺ، وقلت لنفسي حينئذ: من أنا حتى أقف أمام قبر أعظم إنسان عرفته البشرية.. وشكرت الله تعالى أن هداني للإسلام.

أشوك كولن يانج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أشوك كولن يانج) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الكاردينال أشوك كولن يانج.. وقد كان أمين عام مجلس الكنائس العالمي لوسط وشرق إفريقيا، وقد احتفظ باسمه، وذكر لي أن سبب ذلك يعود إلى ما ذكره الفقهاء من أنه لا حرج في احتفاظ المسلم باسمه القديم

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة برد هذا النوع من الشبهات في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.
(٢) انظر: مجلة المجتمع العدد ١٦٤٤.

ما لم يحو على دلائل الكفر.. والثاني، هو تحقيق أهداف دعوية، تجعل المسيحيين يثقون فيه، ويقبلون قوله.

وقد التقيت به بعد اعتناقه الإسلام، وسألته عن رحلته للإسلام، فقلت: تغيير الإنسان عقيدته ليس أمراً سهلاً، خاصة إذا كان هذا الإنسان يحتل قمة الهرم الذي يدعو إلى هذه العقيدة.. فما الذي قادك إلى التغيير، ومن ثم اعتناق الإسلام؟

تأمل قليلا فيما ذكرته له، ثم قال: الإنسان ــ مهما علا شأنه ــ إذا كان صادقاً وجاداً في البحث عن الحقيقة، فإنه حتماً سيصل إليها يوماً ما، وهذه الحقيقة التي سيصل إليها إما أنها تعزز ما يؤمن به، أو تهديه إلى سبيل آخر..

قلت: أعلم تأثير الصدق ودوره الخطير في الوصول إلى النتائج العظيمة.. وقد قال الصالحون (من صدق وجد).. ولكني أسألك عن طريق ذلك الصدق.

قال: تلك قصة طويلة..

قلت: من أين تبدأ؟

قال: من الأناجيل.. فمن صدق في قراءة الإنجيل.. فستهديه لا محالة إلى القرآن.

قلت: هذه الأناجيل التي بين أيدينا !؟

قال: أجل.. هذه الأناجيل التي بين أيدينا.. فقد كانت هي النور الأول الذي وصلت به إلى شمس محمد.

قلت: كيف تم ذلك؟

قال: من خلال أقوال المسيح التي وردت في الأناجيل، فقد جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الثامن فقرة ٤٠ عندما همَّ اليهود بقتله:« ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله ».. لقد لاحظت أن المسيح في هذا النص يخبر أنه إنسان اختاره الله وحمّله رسالة وجعله نبياً، ولذلك يقول ــ كما جاء في الإصحاح الثامن فقرة ٤٢ ــ:« لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي بل ذلك أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي؟»

بل صرحت بعض الأناجيل بنبوة عيسى كما جاء في لوقا ــ الإصحاح السابع فقرة ١٦ ــ:« فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم »، وجاء في متى ــ الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (٩، ١٠، ١١) ــ:« ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا النبي الذي من ناصرة الجليل »[1]

وهذه النصوص تتفق مع قوله تعالى في القرآن الكريم:﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:٧٥)

قلت: فأنت ترى أن هذه النصوص التي وردت في الأناجيل كفيلة بتغيير عقيدة المسيحيين من المسيحية إلى الإسلام؟

قال: ذلك صحيح لمن صدق في البحث.. و لم يتوقف عند هذا..

---

(١) سنرى النصوص الكثيرة المثبتة لبشرية المسيح ونبوته في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: الإيمان برسالة سيدنا عيسى عليه السلام يكون بتصديقه فيما أخبر، فلا نرد خبره ولا نكذب قوله ولا نخالفه.

قلت: كل المسيحيين يزعمون أنهم يعتقدون هذا.

قال: لقد جاء المسيح عليه السلام لأمرين مهمين.. كلاهما غفل عنه إخواننا المسيحيون.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما، فهو تعلم الأمة التي بعث إليها كيف تتقرب إلى الله وتعبده، أما معرفة الله فيذكر المسيح عليه السلام أن الله واحد لا شريك له ولا نظير له ولا شبيه له، فقد جاء في إنجيل (مرقص:١٢/٣٠) لما سأله الكتبة: أي وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع:« إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب: صحيح يا معلم حسب الحق تكلمت فإن الله واحد لا آخر سواه »، وتتأكد هذه الحقيقة عن ذات الله بما جاء في إنجيل (متى: ٢٣ /٨) حيث يقول المسيح عليه السلام:« وأما أنتم فلا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماء ».. وجاء في يوحنا في (٢٠ /١٨) قال المسيح:« إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم »، وكلمة الأب (أبي وأبيكم) تعني في لغة الإنجيل الرب أي ربي وربكم.

التفت إلي، وقال: ولهذا تجدني أخاطب دائما محبي المسيح قائلا لهم: ألم تتضمن وصايا المسيح عليه السلام تعريفاً واضحاً لذات الله العلي الكبير المتفرد، وهو يوافق تماما ما جاء في القرآن، فالله ۞ يقول:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(الإخلاص)، كما جاء في القرآن الكريم أيضاً:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء:٢٥)

قلت: علمت المهمة الأولى.. فما المهمة الثانية؟

قال: المهمة الثانية للمسيح عيسى عليه السلام هي أن يهدي الأمة التي بعث إليها إلى عبادة الله، وهي أمة بني إسرائيل، أما غيرهم من الأمم فلا تعنيهم شريعة عيسى، وهذا ما تقرره الأناجيل المسيحية، فقد جاء في إنجيل متى (١٥ /٥) قول يسوع:« لم أُرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالة »، وجاء في متى (١٠ /٥):« هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً:« إلى طرق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة »

قلت: فما تفيد هذه المعرفة؟

قال: هذه المعرفة تجعل كل مسيحي يبحث عن الرسول الخاتم الذي أرسل للبشر جميعا.. وكل من بحث عن هذا الرسول.. فلن يجد غير محمد، فهو الوحيد الذي جاء في كتابه المقدس:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ:٢٨)، وجاء فيه:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء:١٠٧)

قلت: حدثني عن تلك اللحظة الخطيرة التي اتخذت فيها أخطر قرار يمكن أن يتخذه إنسان.

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قال: حينما قررت اعتناق الإسلام، ذهبت إلى الكنيسة وتقدمت بطلب إجازة لكي أقضيها مع أسرتي، فطلب مني أن أنتظر حتى تعتمد لي الكنيسة من ٥٠ إلى ١٠٠ ألف دولار، لكي أنفقها على أولادي، فقلت لهم أنا لا أريد مالكم، وكانت عندي للكنيسة عمارتان وأموال تبلغ مليونين و٤٠٠ ألف دولار أمريكي، و٣٢٠ مليون جنيه سوداني، فقمت بتسليمها إلى راعي ميزانية التنصير، فكانت مفاجأة كبيرة للكنيسة.

وبعد ذلك قضيت يومين مع أسرتي نفكر في هذا الأمر ونناقشه، وقد كانت أسرتي المكونة من زوجتي وأربعة أبناء تدرك أنني أفكر في اعتناق الإسلام، وحينما أبلغتهم أن الوقت قد حان، كان ردهم أنت أعلم منا ونحن نثق بك وقرارك قرارنا، وبالفعل ذهبنا إلى أحد المساجد المجاورة.. وهو مسجد النور.. وأشهرنا الإسلام.

قلت: فهل خسرت جميع تلك الثروة؟

قال: صحيح أنني خسرت أموالاً كثيرة غير أنني كسبت الإيمان والراحة النفسية بعد ٤٠ سنة قضيتها في الباطل.

قلت: فما فعلت الكنيسة بعد علمها بإسلامك؟

قال: لقد فعلت ما تعودت أن تفعله مع أمثالي.

قلت: ألم تكتف بما أخذته منك من مال؟

قال: لقد رمتني بالجنون.. وهذه سنة قديمة أخبر القرآن أنها ديدن جميع الغافلين.

قلت: أنت إلى الآن لم تحدثني عن الطريق الذي سلكته للتعرف على الإسلام.. أم أنك تتهرب من ذكر ذلك.

ابتسم، وقال: أنا لا أتهرب.. ولكن تلك الذكريات المريرة التي كنت فيها بعيدا عن الإسلام من الصعب اجترارها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: لقد شاء الله أن أدرس مقارنة الأديان، وكان الهدف منها أن أتعرف على الأديان السماوية وغير السماوية من أجل ممارسة التنصير بعلم وخبرة ومنهجية، لكن الله أراد شيئاً آخر، فقد درست الأديان السماوية وهي معروفة، كما درست غير السماوية وهي البوذية والهندوسية وعبادة النار والشمس والشيطان والأصنام.

وخلال مرحلة الدراسة كانت تتكشف أمامي الحقائق عن الإسلام أولاً بأول، وبدأ تكويني الديني يتشكل وأفكاري تتغير وتتداخل.

وفي إحدى مراحل الدراسة أيقنت أن الإسلام هو الدين الصحيح، فكنت حينما أسمع الأذان أتوقف عن إلقاء المحاضرة احتراماً للنداء الإلهي، وحينئذ أصبحت شخصاً بوجهين، وجه يرى أن الإسلام الدين الحق، وأن الله واحد لا شريك له، ووجه يغالط نفسه ويواصل انخراطه في الأعمال الكنسية والتمتع بأموالها الطائلة.

ولما بدا تعاطفي مع الإسلام اجتمع مجالس القساوسة والرهبان والكاردينالات، واجتمع رأيهم على أنني

أميل للإسلام.. وهنا مارس مجلس الكنائس ضغوطاً كثيرة عليَّ، ولما فشل قرر إيقافي عن العمل بالكنيسة، وصدر قرار من الكنائس بأن الجنون قد أصابني، قلت لهم: إنني لست مجنوناً، فأنا أخاف الله الواحد ربي وربكم ورب محمد وعيسى، إنني أخاف من عذاب الله، إنني أخاف من الله، وعلمت بعد ذلك أن تقرير الأطباء أثبت أنني لست مجنوناً، ولكنني أتطلع إلى اعتناق الإسلام.

قلت: لقد وصلت في الكنيسة إلى درجة كاردينال، كما احتل والدكم هذا المنصب.. فماذا يعني هذا المنصب.. وما وظيفته في الكنيسة؟

قال: لقد تقلدت مناصب كبيرة في الكنيسة، ومن بين ذلك أني كنت كاردينالاً كما كان والدي كذلك، وهذا المنصب في الكنيسة الكاثوليكية يوازي وظيفة المفتي في الإسلام.

قلت: هذا منصب رفيع..

قال: ولهذا.. فأنا أتحدى أياً كان من كبار القساوسة الشرقيين أو الغربيين أن يحاججني، بل أنا على استعداد لمناظرة صاحب أي درجة عالية في الكنيسة لإثبات صحة الإسلام وأحقيته بالاتباع، فأنا لم أسلم عاطفياً أو عبثاً، وإنما أسلمت بعد دراسة معمقة للأديان، وصلت في نهاية الدراسة إلى أن الإسلام هو الدين السماوي الذي ختم الله به الرسالات السماوية، وأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن عيسى عليه السلام إنسان من البشر وهو نبي ورسول وليس أكثر من ذلك، قال تعالى في القرآن الكريم:﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة:٧٥)

وأنا لست أول من يسلم من القساوسة، فقد سبقني إلى الإسلام عدد كبير من القساوسة والمبشرين، وعلى رأسهم الأمين العام لمجلس مؤتمر المطارنة في الكنيسة الكاثوليكية، ورئيس القساوسة في الولاية الشرقية.

قلت: ما الفرق بين وظيفتك الجديدة كداعية للإسلام.. وبين وظيفتك السابقة كداعية للمسيحية؟

قال: في السابق كان كل همي تنصير المسلمين أو إبعادهم عن دينهم حتى لو فسدوا وارتكبوا كل الموبقات، فلم يكن مهماً أن يكون المسلم إنساناً صالحاً أو سوياً في المجتمع حتى بعد تحوله عن الإسلام، والكنيسة لا تهتم بدعوة النصارى إلى الالتزام، فجل اهتمامها أن يحمل الإنسان كلمة مسيحي، وليس شرطاً أن يكون متديناً أو ملتزماً، أما الآن فالمرء في الإسلام محاسب على كل صغيرة وكبيرة، وكل من يعتنق الإسلام عليه أن يكون صاحب عقيدة سليمة وعبادة صحيحة.

قلت: ألا ترى ازدوجية في معايير المسلمين الذين ينتقدون أعمال المبشرين، بينما هم يمارسون الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين؟

قال: هناك فرق كبير بين الدعوة للإسلام والدعوة للمسيحية، فدعاة الإسلام يوضحون مبادئه وتعاليمه ويعكسون الصورة الصحيحة للإسلام، ولا يجبرون أحداً على الدخول فيه، لأن الإنسان إذا لم يعبد الله عن قناعة واعتقاد لا ريب فيهما فلا قيمة لإسلامه.

أما المبشرون، فهم للأسف ينتهزون حاجة الفقراء والمعوزين ويقدمون لهم الغذاء والدواء أو فرص التعليم

مقابل اعتناق المسيحية، فهؤلاء المنصرون لا يقنعون أحداً بعقيدة لأنه لا توجد تعاليم مسيحية مقنعة، وكل ما هنالك أن هؤلاء لديهم ميزانيات كبيرة، راحوا يستغلونها في هذه المهمة.

قلت: ما دورك الآن في مجال الدعوة الإسلامية؟

قال: نحن نرعى عشرات الآلاف من الذين اعتنقوا الإسلام من خلال نشاطاتنا في (.. !؟) ومن بينهم مثقفون وضباط ومسؤولون في قطاعات مختلفة حيث نقيم لهم المدارس والخلاوي القرآنية، فهناك أكثر من ١٢ ألفاً من المسلمين الجدد من النساء والرجال ينتظمون في خلاوي تحفيظ القرآن الكريم، وتضم كل واحدة منها من ٣٠٠ ٤٠٠ رجل وامرأة يحفظون القرآن ويدرسون السيرة والحديث الشريف والفقه الإسلامي.

ونحن نهتم بقيادات القبائل والسلاطين، فهؤلاء يتمتعون باحترام أتباعهم وأنصارهم فإذا أسلموا، أسلم من خلفهم، وقد لاحظنا أن الكثير من النصارى في الجنوب ينحدرون من أسر مسلمة، وكان الإنجليز أثناء احتلالهم للسودان قد نصروهم، ومن ثم فنحن نعمل على إعادتهم إلى أصولهم الإسلامية.

ثاني أكبر قسيس في غانا:

شد انتباهي في هذا الفصل عنوان يحمل اسم (ثاني أكبر قسيس في غانا)، فسألت البابا عنه، فقال: لا أذكر اسم هذا الرجل، ولكني أذكر جيدا الوظيفة الخطيرة التي كان يتولاها.. وقد التقيت به في غانا، و لم أعلم منه، أو من الجمع الذين كانوا يتحدثون عنه إلا أنه كان ثاني أكبر قسيس في غانا كلها، وقد حدثني عن قصته مع الكنيسة والإسلام، فقال: في صغري كنت طفلا فقيرا معدما ألبس الرث من الثياب، وبالكاد أجد لقمة يومي، وقد أخذني بعض المبشرين، وربوني في ملاجئهم، ودرسوني في مدارسهم، وما إن لحظوا مني نباهة حتى جعلوني من أولويات اهتماماتهم.

تعلمت في مدارسهم حتى نلت أكبر الشهادات.. وكان ذلك مقابل ديني الذي أعرف انتمائي له، لكني تلفت يمنةً ويسرةً في وقت العوز والحاجة، فما وجدت أحدا إلا المبشرين..

بعد مدة أصبحت قسيسا لامعا في بلدي، لي ــ كما يقولون ــ لسان ساحر وأسلوب جذاب ومظهر لامع، وبريق عيني يقود من رآني لا محالة إلى المسيحية.

وفي ذلك اليوم الذي أراد الله فيه هدايتي أخذت أتساءل بيني وبين وبين نفسي، وأقول: أنا لم أترك ديني لقناعة في الديانة المسيحية، وإنما الجوع هو الذي قادني، والحاجة هي التي دفعتني، والعوز هو الذي ساقني، وعلى الرغم من رغد العيش الذي أنا فيه، والرفاهية التي أتمتع بها إلا أنني لم أجد الانشراح و لم أشعر وأنعم بالراحة والسعادة والطمأنينة إذ ما فتئت أقلق من المصير بعد الموت، و لم أرس على بر أمان أو قاعدة صلبة تريح الضمير حول ما في الآخرة من مصير.

لماذا لا أتعرف على الإسلام أكثر؟.. لماذا لا أقرأ القرآن مباشرة، بدلا من الاكتفاء بمعلوماتي عن الإسلام من المصادر المسيحية التي ربما لم تعرض الإسلام بصورته الحقيقة.

وهنا شرعت أقرأ القرآن، وأتأمل وأقارن، فوجدت فيه الإنشراح والإطمئنان، وانفرجت أساريري وعرفت طريق الحق وسبيل النور:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ (المائدة)

وهنا اتخذت قراري الحاسم، وعزمت على التصدي لكل عقبة تحول دون إسلامي.. لقد ذهبت إلى الكنيسة، وقابلت الرجل الأول فيها القسيس الأوروبي الكبير، وأخبرته بقراري، فظن أنني أمزح.. لكني عندما أكّدت له أني جاد في رغبتي هذه، جن جنونه وأخذ يزبد ويرعد ويهدد.. ثم لما هدأ، أخذ يذكرني بما كنت عليه، وما صرت إليه، وما فيه أنا الآن من نعمة ويسر، وحاول إغرائي بالمال، وأنه سيزيد راتبي، ويعطيني منحة حالا، ويزيد من المنحة السنوية، ويزيد من صلاحياتي، وغيرها كثير.

ولكن دون جدوى.. فجذوة الإيمان قد تغلغلت في شغاف القلب، واستقرت في سويداء الضمير، وكذلك بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب استقرت.

لم يجد كبير القسس إلا أن قال لي: إذن تـــُرجع لنا كل ما أعطيناك وتتجرد من كل ما تملك.

فقلت: أما ما فات فليس لي سبيل إرجاعه، وأما ما لدي الآن فخذوه كله، وكان تحت يدي أربع سيارات لخدمتي، وفيلا كبيرة وغيرها، فوقعت تنازلا عن كل ما أملك، لقد كنت أقتدي في هذا بصهيب الرومي الذي قال له الرسول الكريم ﷺ:« ربح البيع أبا يحيى »، وذلك عندما استوقفه مشركو قريش في طريق هجرته، وقالوا له: جئتنا معدما فقيرا، ثم استغنيت فوالله لا ندعك حتى تخرج من مالك، فاشترى نفسه منهم بأن دلهم على ماله على أن يدعوه.. وقد أنزل الله فيه قوله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:١١١)

اغتاظ القسيس الكبير وجردني حتى من ملابسي، وطردني من الكنيسة شر طردة، وظن أنني سأكابد الفقر يومين، ثم أعود مستسمحا، كيف لا يظن ذلك وهم الماديّون حتى الثمالة.

لكني خرجت من الكنيسة، وأنا لا ألبس سوى ما يستر عورتي، ولا أملك سوى هذا الدين العظيم الإسلام، وشعرت حينئذٍ أنني أسعد مخلوق على هذه البسيطة.

سرت ماشيا باتجاه المسجد الكبير وسط البلد، وفي الطريق أخذ الناس يمشون بجانبي مستغربين، ويقول بعضهم: لقد جن القسيس، وأنا لا يرد على أحد حتى وصلت المسجد، فلما هممت بالدخول حاولوا منعي متسائلين: إلى أين؟ وإذا بالجواب الصاعقة: جئت أُعلن إسلامي.

فتعجب الجميع قائلين (القسيس الأشهر في البلاد الذي تنصر على يديه المئات، الذي يظهر في شاشة التلفاز مرتين أسبوعيا، الذي يمثل المسيحية في البلد، يأتي اليوم لُيعلن إسلامه.. إنها سعادةٌ لا توصف، وفرحة لا تعبر عنها الكلمات، ولا تقدر على تصويرها الجمل والعبارات، إنه أنسٌ غامر، وإشراقة منيرة)

لقد فرح المسلمون فرحا شديدا بإسلامي، ثم أعطوني من الألبسة ما دخلت به المسجد، وألقيت بالمسلمين المتواجدين خطبة أعلنت فيها إسلامي، وقد انطلقت على إثرها صيحات التكبير، وارتفعت خلالها أصوات التهليل والتسبيح، استبشارا وفرحا بإسلام مَن طالما دعاهم إلى الضلال، إذا به اليوم يدعوهم إلى الهداية

والإسلام.

وخلال يومين رجع الكثير الكثير ممن تنصروا إلى واحة دينهم الإسلام الوارفة الظلال، حيث ينعمون في ظله وكنفه بآثار الهداية وطمأنينة سلوك السبيل القويم وراحة البال والضمير والخير العميم:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)

بعد يومين من إعلان إسلامي بدأ الحاقدون من المسيحيين يبحثون عني ليقتلوني وهددوا وتوعّدوا، فقام المسلمون بتهريبي إلى سيراليون سرا، حيث أُعلِن عبر الإذاعة التي تملكها لجنة مسلمي أفريقيا الكويتية أني سأُلقي خطابا للأمة بمناسبة إسلامي، وأخذ الجميع يترقّب هذا الخطاب والكنيسة كانت ضمن المترقبين، وقد توقعت أن أقوم بمهاجمتها أشد المهاجمة وإخراج كثير من أسرارها أمام الملأ والتجني عليها، هذا ما كانت تتوقعه، وقد أعدّت قبل خطابي مسودة لبيان سوف تنشره، وكان يرتكز على أنها وجدتني معدما فقيرا، وقامت بمساعدتي وتربيتي، وتكفلت بتعليمي حتى بلغت أعلى المستويات العلمية، ثم ها أنا أقوم بنكران الجميل وخيانة الأمانة ورد المعروف بالإساءة.

لكن الله خيّب فألهم وأغلق عليهم الطرق، حيث قمت بإلقاء خطاب خلاف توقعهم بدأ فيه بشكرهم على كل ما قدّموا له، وذكرت ما قدّموا لي من رعاية ومأوى وتعليم وغيرها بالتفصيل، ودنت لهم بعد الله بالفضل، إلا أني أشرت بطريقة لبقة إلى أن العقيدة وحرية الدين لا تسير وفق العواطف وفضل الله تعالى فوق كل فضل، ونعمة الله تعالى فوق كل نعمة، وذلك بصياغة تجعل كل مَن خَدَمَتهُ الكنيسة يُعِيدُ النظرَ في هذه الخدمة والرعاية وأنها ليست مقياسا لصحة العقيدة، وليست العامل المرجّح لاختيار الدين.

بعد الخطاب بيومين كان هناك حفل افتتاح مسجد الجامعة، حيث حضر هذا الحفل في باحة الجامعة رئيس جمهورية سيراليون وجمع من المسئولين وبعض رجال الكنيسة الذين دعتهم الجامعة لتكريس التسامح الديني ولتلطيف الجو بعد الخطاب الذي ألقاه القس الذي أسلم.

وفي الحفل بعد تلاوة القرآن الكريم قام الشيخ طايس الجميلي ممثل لجنة مسلمي إفريقيا التي تكفلت ببناء المسجد بألقاء كلمة أشار فيها إلى إسلامي وضمنها قوله ﷻ:﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: من الآية٨٢)

وعندما شرع في شرح هذه الآية ووصل بشرحه عند الآية ترى أعينهم تفيض من الدمع والمترجم يترجم على الفور، رأيت القساوسة الذين حضروا أخرجوا مناديلهم يمسحون دموعهم.

وقد قال أحد القساوسة لزميله الذي بجانبه: أقسم أن هذا هو من أرشد ذلك القسيس ليجعل خطابه بالصورة التي ظهر عليها وأحرجنا.

ثامنا ــــ المفكرون

فتحت دفتر البابا على فصله الثامن، فوجدت عنوانه (المفكرون)، فقلت: أليس المفكرون هم العلماء؟

قال: لا يكون العالم عالما حتى يكون مفكرا.

قلت: فقد تحدثنا عن العلماء.

قال: أولئك هم الذين انصرف تفكيرهم إلى العمران.

قلت: والمفكرون؟

قال: من انصرف تفكيرهم إلى الإنسان.

قلت: تقصد العلماء بالعلوم الإنسانية.

قالت: يمكنك أن تقول ذلك، ويمكن أن يمزج هؤلاء بين علوم العمران وعلوم الإنسان.

قلت: فكيف يهتدي هؤلاء إلى الإسلام؟

قال: يهديهم الله بواسطة عقولهم التي لم يضيعوها.

قلت: أعلم أن الفكر يحتل في الإسلام مترلة رفيعة، فلا يعبد الله بأفضل من الفكر، بل إن الله ﷻ حث العقول على استعمال الفكر للتعرف على حقيقة ما جاء به رسول الله ﷺ، فقال ﷻ:﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام:٥٠)، وقال ﷻ:﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (لأعراف:١٨٤)، وقال ﷻ:﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)، وقال ﷻ:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سـبأ:٤٦)، وقال ﷻ:﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر:٢١)

قال: العبرة بالفكر الصادق.. لا بأي فكر.

قلت: ماذا تعني؟

قال: هناك من يفكر كما يفكر الشياطين.

قلت: تقصد أنه يستعمل عقله في الغواية والإضلال؟

قال: ويستعمله في الخداع والتمويه وتزييف الحقائق.

قلت: وهل يمكن للعقل أن يؤدي هذا الدور الرذيل؟

قال: العقل آلة مطيعة لصاحبها.. وهي تتحرك بتحركه، وتسكن بسكونه.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷻ إخبارا عن هذا النوع من المفكرين:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)﴾(المدثر)

قال: هذه الآيات نزلت في ماركس وفرويد ودوركايم..

قاطعته قائلا: بل نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال: لم يكن الوليد إلا وليدا مع هؤلاء.. أما هؤلاء، فهم الذين فكروا ودبروا، ثم راحوا يتلاعبون بإنسانية الإنسانية ويحولونها إلى أسفل سافلين.

قلت: عرفنا خبر هؤلاء في الرحلة الماضية.. فهلم بنا إلى خبر الذين قال فيهم الله ۵:﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: ١٩١)

عبدالكريم جرمانيوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالكريم جرمانيوس)[١]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا عالم من علماء المجر الكبار، وصفه العقاد بأنه (عشرة علماء في واحد)

وقد وُلد في بودابست، وتعلّم اللّغات الغربيّة: اليونانيّة، واللاتينيّة، الإنجليزيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة، والمجريّة، ومن اللّغات الشرقيّة: الفارسيّة والأورديّة، وأتقن العربيّة والتركيّة على أستاذيه: فامبيري، وغولد زيهر اللّذين ورث عنهما ولَعهما بالشرق الإسلاميّ، ثمّ تابع دراستهما بعد عام ١٩٠٥م في جامعتي استانبول وفينّا. وصنّف كتاباً بالألمانيّة عن الأدب العثمانيّ (١٩٠٦)، وآخر عن تاريخ أصناف الأتراك في القرن السابع عشر، فنال عليه جائزة مكّنته من قضاء فترة مديدة في لندن، حيث استكمل دراسته في المتحف البريطانيّ.

وفي عام ١٩١٢م عاد إلى بودابست، فعُيِّن أستاذاً للّغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، وتاريخ الإسلام وثقافته في المدرسة العليا الشرقيّة. ثمّ في القسم الشرقيّ من الجامعة الاقتصاديّة، ثمّ أستاذاً ورئيساً للقسم العربيّ في جامعة بودابست (١٩٤٨)، وظلّ يقوم فيه بتدريس اللّغة العربيّة، وتاريخ الحضارة الإسلاميّة، والأدب العربي قديمه وحديثه، محاولاً إيجاد حلقات اتصال بين نهضات الأُمم الإسلاميّة الاجتماعيّة والسيكولوجيّة، حتّى أُحيل على التقاعد (١٩٦٥).

وقد دعاه طاغور إلى الهند أستاذاً للتاريخ الإسلاميّ، فعلمه في جامعات دلهي، ولاهور، وحيدر آباد (١٩٢٩ــ١٩٣٢)، وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الأكبر، وألقى خطبة الجمعة، وتسمّى ب (عبد الكريم)، وقدم القاهرة وتعمّق في دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثمّ قصد مكّة حاجّاً وزار قبر الرسول ﷺ، وصنّف في حجّته كتابه: الله أكبر، وقد نُشر في عدّة لغات (١٩٤٠)، وقام بتحرِّيات علميّة (١٩٣٩ــ١٩٤١) في القاهرة والسعوديّة نشر نتائجها في مجلّدين: شوامخ الأدب العربي (١٩٥٢)، ودراسات في التركيبات اللّغوية العربيّة (١٩٥٤)

(١) انظر: مقالة عنه من كتاب الإسلام والغرب، الوجه الآخر — حسن السعيد.

وربيع عام ١٩٥٥ عاد ليقضي بضعة أشهر في القاهرة والإسكندريّة ودمشق بدعوة من الحكومة ليحاضر بالعربيّة عن الفكر العربيّ المعاصر، وعن صور من الأدب المجريّ، ثمّ رجع إلى الشرق العربيّ في شتاء ١٩٥٨، لاستكمال مصادر كتابه الجديد عن أدبائه المعاصرين. والذي صدرت بعض فصوله، وفيها قصص الكتّاب المعاصرين. وقد انتخب عضواً في المجمع الإيطالي(١٩٥٢)، ومراسلاً للمجمع اللّغويّ بالقاهرة (١٩٥٦)، وفي المجمع العلميّ العراقي (١٩٦٢)

وقد ترك تراثاً علميّاً زاخراً بالعمق والتنوّع، منه: قواعد اللّغة التركيّة (١٩٢٥)، والثورة التركيّة، والقوميّة العربيّة (١٩٢٨)، والأدب التركيّ الحديث (١٩٣١)، والتيّارات الحديثة في الإسلام (١٩٣٢)، واكتشاف الجزيرة العربيّة وسوريا والعراق وغزوها (١٩٤٠)، ونهضة الثقافة العربيّة (١٩٤٤)، ودراسات في التركيبات اللّغويّة العربيّة (١٩٥٤)، وابن الروميّ (١٩٥٦)، وبين المفكّرين (١٩٥٨)، ونحو أنوار الشرق، ومنتخب الشعراء العرب (١٩٦١)، وفي الثقافة الإسلامية، وأدب المغرب (١٩٦٤)، وكان يعدّ ثلاثة كتب عن: أدب الهجرة، والرحّالة العرب وابن بطّوطة، وتاريخ الأدب العربيّ.

وقد شرفني الله بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ومما ذكره لي قوله:« كان ذلك في عصر يوم مطير، وكنتُ ما أزال في سنّ المراهقة، عندما كنتُ أقلّب صحائف مجلّة مصوّرة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية؛ بقيت بعض الوقت أقلّب الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجأة على صورة لوحة خشبيّة محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخلّلها هنا وهناك قباب مستديرة ترتفع برفق إلى السماء المظلمة التي شقّ الهلال ظلمتها..

ملكت الصورة عليَّ خيالي.. وأحسستُ بشوق غلاّب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذي كان يُغالب الظّلام في اللّوحة.. بدأتُ أدرس اللّغة التركيّة، ومن ثمّ الفارسيّة فالعربيّة، وحاولتُ أن أتمكّن من هذه اللّغات الثلاث حتّى أستطيع خوض هذا العالم الروحيّ الذي نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشريّة.

وفي إجازة صيف قدر الله أن أُسافر إلى البوسنة وهي أقرب بلد شرقيّ إلى بلادي. وما كدت أنزل أحد الفنادق حتّى سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين في واقع حياتهم.. وقد خرجت بانطباع مُخالف لما يُقال حول المسلمين.. وكان هذا هو أوّل لقاء لي مع المسلمين. ثمّ مرّت سنوات وسنوات في حياة حافلة بالأسفار والدراسات، وكان مع مرور الزّمن تتفتّح عيوني على آفاق عجيبة وجديدة.

ورغم تطوافي الواسع في دنيا الله، واستمتاعي بمشاهدة روائع الآثار في آسيا الصغرى وسوريا، وتعلّمي اللّغات العديدة وقراءاتي لآلاف الصفحات من كتب العلماء، رغم كلّ ذلك فقد ظلّت روحي ظمأى.

سكت قليلا يسترجع ذكرياته، ثم قال: أثناء وجودي في الهند، وفي ذات ليلة رأيت ــ فيما يرى النائم ــ كأنّ محمّداً رسول الله ﷺ يخاطبني بصوت عطوف: لماذا الحيرة؟ إنّ الطريق المستقيم أمامك مأمون ممهّد مثل سطح الأرض، سرْ بخطى ثابتة وبقوّة الإيمان.. وفي يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم في مسجد الجمعة في دلهيّ.. حينما أشهرت إسلامي على رؤوس الأشهاد..

ابتسم، وقال: كان التأثّر والحماس يعمّان المكان، ولا أستطيع أن أتذكّر ماذا كان في ذلك الحين.. وقف

الناس أمامي يتلقّفونني بالأحضان، كم من مسكين مجهد نظر إليَّ في ضراعة، يسألني الدعوات، ويريد تقبيل رأسي، فابتهلتُ إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إليَّ وكأنّي أرفع منها قدراً، فما أنا إلاّ حشرة من بين حشرات الأرض، أو تائه جادّ في البحث عن النور، لا حول لي ولا قوة، مثل غيري من المخلوقات التعيسة.. لقد خجلتُ أمام أنّات وآمال هؤلاء الناس الطيِّبين.. وفي اليوم التالي وما يليه كان الناس يفدون عليَّ في جماعات لتهنئتي، ونالني من محبّتهم وعواطفهم ما يكفيني زاداً مدى حياتي.

ومن أقواله التي قد تدلك على سر اعتناقه للإسلام قوله:(حَبّب لي الإسلام أنه دين الطهر والنظافة: نظافة الجسم والسلوك الاجتماعي والشعور الإنساني، ولا تستهن بالنظافة الجسمية فهي رمز ولها دلالتها)[1]

ومنها:(كم ألفيت في قلوب المسلمين كنوزاً تفوق في قيمتها الذهب، فقد منحوني إحساس الحب والتآخي، ولقّنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وعلى المسلمين أن يعضّوا بالنواجذ على القيم الخلقية التي يمتازون بها، ولا ينبهروا ببريق الغرب، لأنه ليس أكثر من بريق خاوٍ زائف)[2]

ومنها:(لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة تعوق تقدم المسلم، أو تمنع زيادة حظه من الثروة أو القوة أو المعرفة.. وليس في تعاليم الإسلام ما لا يمكن تحقيقه عمليا، وهي معجزة عظيمة يتميز بها عن سواه، فالإسلام دين الذهن المستنير، وسيكون الإسلام معتقد الأحرار)

ومنها:(لقد تمنيت أن أعيش مائة عام، لأحقق كل ما أرجوه لخدمة لغة القرآن الكريم، فدراسة لغة الضاد تحتاج إلى قرن كامل من الترحال في دروب جمالها وثقافتها)[3]

مارتن لنجز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارتن لنجز)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر إنجليزي أشهر إسلامه على يد شيخ جزائري اسمه الشيخ أحمد العلوي، التقى به في سويسرا التي كان يعمل بها مدرساً، بعدها قام بتغيير اسمه من (مارتن لنجز) الى اسم (أبي بكر سراج الدين)

وقد التقيت به في رحلة لي إلى سويسرا، وقد كان أول سؤال سألته: كيف رحلة من (مارتن لنجز) الى (أبي بكر سراج الدين)

نظر إلي متعجبا من هذا السؤال، ثم قال: كنت أدين بالمسيحية، كما تدين بها أسرتي التي لا تعرف عن الدين شيئاً إلا أنها مسيحية بالوراثة.. وهكذا نشأت خالي النفس من أي عقيدة يؤمن بها حق الإيمان..

لكن.. وبعد حصولي على شهادة الــ (A-B) في الآداب الإنجليزية حيث كنت أدرس الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد إنجلترا.. أخذت أنقب في كتب التراث عن الديانات المنتشرة في العالم لأقرأ عنها جميعاً.

وكان من أهم ما استوقفني دين الإسلام كشريعة لها منهاج يتفق مع المنطق والعقل، وآداب تستسيغها النفس والوجدان.

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي: ٢ / ٤٢١.

(٢) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص ٣٥.

(٣) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص ٣٦.

سكت قليلا، ثم قال: (لقد وجَدتُ في الإسلام ذاتي التي افتقدتها طوال حياتي، وأحسست وقتها أني إنسان لأول مرة، فهو دين يرجع بالإنسان إلى طبيعته حيث يتفق مع فطرة الإنسان)

ثم أردف قائلاً وقد امتلأت أساريره بابتسامة عذبة: (شاء الله لي أن أكون مسلماً، وعندما يشاء الله فلا رَادَّ لقضائه.. وهذا هو سبب إسلامي أولاً وقبل كل شيء)

قلت: هل هناك من العقول من ملأ عقلك بالفكر الذي هداك إلى الإسلام؟

قال: لابد من ذلك..

قلت: من هو؟

قال: إن ما أثر عليَّ، وجعلني أهتم بالإسلام هو كتب مؤلف كبير كان مثلي اعتنق الإسلام وأصبح من قمم المتصوفة، إنه الشيخ عبد الواحد يحيى.. لقد تأثرت بكتبه التي صنفها عن الإسلام، حتى أنني لم أقرأ كتباً من قبل في مثل عظمة كُتُبِه، مما دفعني لأن أسعى لمقابلة مَن كان سبباً في إسلامي، فجئت إلى مصر حيث كان يعيش فيها وقتئذ.

لقد استفدت منه كثيراً.. فقد كان بحق عالماً عاملاً بعلمه.. وأكثر ما تعلمته منه الزهد في الدنيا، وهو ما تسمونه أنتم (التصوف)

قلت: هل أنت متصوف؟

قال: نعم.. ولكن مفهومي للتصوف أنه ليس انعزالاً عن الدنيا، ولكنه أخذٌ بأسباب الحياة في الظاهر، والإعراض عنها بالقلب.

إن الرسول محمد ﷺ لخص معنى التصوف كله في حديثه الشريف: (كُن في الدُّنيا كأنَّك غَريبٌ أو كعابر سبيل).. أو ما قاله في حديث شريف آخر: (إنَّما أنا والدنيا كَراكب استظل تحت شجرة ثمَّ راح وتركها).. هذا هو مفهوم التصوف الذي تعلمته من الشيخ عبد الواحد يحيى.

قلت: إلى أي شيء قَادَكَ التصوف؟

نظر إلى الأفق البعيد بعمق، ثم قال بكل هدوء: إلى العبودية الخالصة لله.

الدكتورحامد ماركوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتورحامد ماركوس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم وصحفي ومؤلف ألماني.. وقد التقيت به في بلدي ألمانيا، وكان من حديثه لي عن سر إسلامه قوله: منذ طفولتي، وأنا أشعر بدافع في داخل نفسي لدراسة الإسلام ما وجدت الى ذلك سبيلا، وعنيت بقراءة نسخة مترجمة للقرآن في مكتبة المدينة التي نشأت فيها، وكانت هي الطبعة التي حصل منها جوته على معلوماته عن الإسلام.

أخذ مني الاعجاب كل مأخذ لما رأيته في هذا القرآن من أسلوب عقلي رائع، في نفس الوقت الذي يفرض فيه التعاليم الإسلامية، كما أدهشني تلك الروح الثابرة الوثابة العظيمة التي أثارتها وأذكتها هذه التعاليم في قلوب المسلمين الأوائل.

ثم أتيحت لي في برلين فرصة العمل مع المسلمين والاستمتاع الى الأحاديث الحماسية المثيرة التي كان يقدمها مؤسس أول جمعية اسلامية في برلين ومنشئ مسجد برلين، عن القرآن الكريم، وبعد سنوات من التعاون العملي مع هذه الشخصية الفذة لمست فيها ما يبذله من ذات نفسه وروحه، آمنت بالإسلام، اذ رأيت في مبادئه السامية والتي تعتبر القمة في تاريخ الفكـــــر البشري، ما يكمل آرائي شخصيا.

قلت: ما المبادئ التي أثارت اهتمامك، أو رأيت أنها تتوافق مع طريقة تفكيرك؟

قال: أولها الايمان بالله.. فهو عقيدة أصيلة في الإسلام، ولكن الإسلام في سبيل تقريرها لا يدعوا الى مبادئ أو عقائد تتنافى مع العلم الحديث، وعلى هذا فليس ثمت تناقض ما بين العقيدة من جانب وبين العلم من الجانب الآخـــــر، وهذه ولا شك ميزة عظيمة فريدة في نظر رجل أسهم بكل طاقته في البحث العلمي.

وميزة أخرى يمتاز بها الإسلام، تلك أنه ليس مجرد تعاليم نظرية صماء تسير على غير بصيرة وعلى هامش الحياة، انما هو يدعو الى نظام تطبيقي يصبغ حياة البشر، وقوانين الإسلام ليست بالتعاليم الجبرية التي تحتجز الحريات الشخصية، ولكنها توجيهات وارشادات تؤدي الى حرية فردية منظمة.

ومع توالي السنين كنت أزداد اقتناعا بما يتبين لي من الأدلة على أن الإسلام يسلك أقوم سبيل في الملائمة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة، ويربط بينهما برباط قوي متين.

إنه دين الاستقامة والتسامح، إنه دائم الدعوة الى الخير، يحض عليه ويرفع من شأنه في جميع الأحوال والمناسبات.

روجيه دوباكييه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روجيه دوباكييه)[١]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر سويسري اعتنق الإسلام، التقيت به في سويسرا، وقد سألته عن رحلته إلى الإسلام، فقال: نشأت في بيئة مسيحية بروتستانتية، غير أني لم أكن مهتما بها.. بل كنت متأثرا بالفلسفة الحديثة، ولا سيما الفلسفة الوجودية، ولهذا فقد كنت أعتقد أن الأديان مجرد معتقدات خرافية.

وعندما اشتغلت بالصحافة بدأت أسافر إلى أكثر من بلد.. فسافرت إلى السويد، وعملت بها مراسلاً صحفيّاً في نهاية الحرب العالمية الثانية لأكثر من خمس سنوات، لكني اكتشفت أن الناس تعساء، برغم التقدم والرخاء الذي يعيشون فيه، على حين اكتشفت عكس ذلك عندما سافرت إلى بعض الدول الإسلامية في الشرق، فقد وجدت المسلمين ــ رغم فقرهم الشديد ــ يشعرون بسعادة أكثر، وأن حياتهم لها معنى.. وهذه الملاحظة جعلتني أفكر مليّاً في معنى الحياة، وأتأملها من خلال هذين النموذجين.

لقد كنت أسأل نفسي: لماذا يشعر المسلمون بسعادة تغمر حياتهم برغم فقرهم وتخلفهم؟!.. ولماذا يشعر السويديون بالتعاسة والضيق برغم سعة العيش والرفاهية والتقدم الذي يعيشون فيه؟! حتى بلدي (سويسرا) كنت أشعر فيه بنفس ما شعرت به في السويد، برغم أنه بلد ذو رخاء، ومستوى المعيشة فيه مرتفع!

---

(١) انظر: اللواء الإسلامي: من حديث أجراه محمد صبره ورضا عكاشه في إحدى أعدادها الأسبوعية.

وأمام هذا كله وجدت نفسي في حاجة لأن أدرس ديانات الشرق.. وبدأت بدراسة الديانة الهندوكية فلم أقتنع كثيراً بها، حتى بدأت أدرس الدين الإسلامي فشدني إليه أنه لا يتعارض مع الديانات الأخرى، بل إنه يتسع لها جميعاً.. فهو خاتم الأديان..

وهذه حقيقة كانت تزداد يقيناً عندي باتساع قراءاتي، حتى رسخت في ذهني تماماً بعد ما اطلعت على مؤلفات الفيلسوف الفرنسي المعاصر رينيه جينو الذي اعتنق الإسلام.

لقد اكتشفت كما اكتشف الكثيرون ممن تأثروا بكتابات الفيلسوف الفرنسي الذي أسلم وتحولوا إلى الإسلام.. اكتشفت أن الإسلام يعطي معنى للحياة، على عكس الحضارة الغربية التي تسيطر عليها المادية، ولا تؤمن بالآخرة، وإنما تؤمن بهذه الدنيا فقط.

قلت: لقد كان فكر الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو الذي أسلم، هو حاديك إلى الإسلام.

قال: يمكنك أن تقول ذلك.. بالإضافة إلى أني ــ كما ذكرت لك ــ تأثرت بزياراتي للدول الإسلامية، فبرغم الظروف المادية السيئة في تلك الدول فإن أهلها يتمتعون بقدر كبير من الإيمان الراسخ في نفوسهم، ولا توجد عندهم أزمات أخلاقية كالتي توجد بالغرب، وجعلت كثيراً من الشباب ينتحر أو يهرب من الحياة بتعاطي المخدرات، مما يعني في نظرهم أن الحياة ليس لها معنى أو قيمة.

قلت: فهل رأيت أن الإسلام هو الذي يقف خلف تلك السكينة النفسية التي يعيشها المسلمون؟

قال: أجل.. لقد تبينت أن الإسلام بمبادئه يَبسُط السكينة في النفس.. أما الحضارة المادية فتقود أصحابها إلى اليأس، لأنهم لا يؤمنون بأي شيء.. كما تبينت أن الأوربيين لم يدركوا حقيقة الإسلام، لأنهم يحكمون عليه بمقاييسهم المادية.

قلت: أهذا ما جذبك إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبني إلى الإسلام هو شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله.. فقد اكتشفت أن الإسلام دين متكامل، وكل شيء فيه مرتبط بالقرآن والسنة.. وفي اعتقادي أن الإنسان يمكن أن يتأمل في هذه الشهادة طيلة الحياة.

الشهادة تقول لا إله إلا الله.. وهذا يعني أنه ليس هناك حقيقة نهائية ودائمة سوى الله.. أما الفلسفة الحديثة فتقول إنه ليس هناك حقيقة سوى هذه الدنيا، ذلك ما تقوله الفلسفة الوجودية وغيرها..

وقد دهشت لأن الإسلام يعبر عن الحقيقة التي تناساها العلم والفلسفة الحديثة.

سكت قليلا، ثم قال: لقد تأثرتُ بالقرآن الكريم كثيراً عندما بدأت أدرسه، وتعلمتُ وحفظتُ بعض آياته.. والحمد لله فأنا أستطيع أن أقرأ فيه، وتستوقفني كثيراً الآية الكريمة التي يقول فيها الله ﷻ:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران:٨٥)، وقوله ﷻ:﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)(البقرة: من الآية٢٥٦)

سكت قليلا، ثم قال: والسنة النبوية الشريفة قرأتها أيضاً، وتأثرت بما فيها من حِكَم وبيان دقيق.

قلت: فكيف واجهت قومك وتحديت أعرافك ورحت تعلن إسلامك؟

قال: لمّا عُدتُ إلى سويسرا لم يكن هناك مبرر لأن أخفي إسلامي، لذلك فقد نشرتُ مقالات كثيرة عن الإسلام في (جورنال دى جنيف)، وصحيفة (جازيت دي لوزان)، وهي صحف غير إسلامية.. كما ترجمت بعض الكتب التي تتناول موضوعات إسلامية.. ودافعتُ في كتاباتي كلها عن قضايا الإسلام كمسلم وَجَدَ طريقه في دين الإسلام.

وأنا أحاول ـــ الآن ـــ أن أكثف كتاباتي عن الإسلام، وأشرح للقراء الغربيين ما يدور في العالم الإسلامي.. وأنا أركز على مسألة أن الإسلام يُقدم حُلولاً لمشاكل كثيرة وصلوا معها إلى طريق مسدود، في حين فتح الإسلام لها أبواباً كثيرة.

قلت: إن الكثير من قومنا يعتبرون الإسلام قومية لا أيديولوجية.. ويحكمون عليه على أساس ذلك.. و

قاطعني قائلا: أنا أختلف مع بعض الأشخاص الذين ينظرون إلى الإسلام باعتباره قومية ـــ وهذا اعتقاد خاطىء لدى كثير من المسلمين.. إنهم يعتبرون الإسلام أيديولوجية وهو خطأ.. إنّما الإسلام طريق إلى الله، وأفضل طريقة للوصول إلى معرفة الله والتصالح والوئام بين الخالق والخلق.

قلت: إن البعض يذكر أن الإسلام دين تخلّف لا يقود إلى التقدم.

ابتسم، وقال: الحمد لله.. إن الإسلام ليس متقدماً بمعنى التقدم الذي يعيشون فيه ويقودهم إلى الهاوية.. والحمد لله.. إن الإسلام لم يتجه إلى هذا التقدم المادي الذي يقصدونه.. ولو كان كذلك لما أثار انتباهي ولا انتباه هؤلاء المفكرين الذين وجدوا فيه الخير والسعادة للبشرية، أمثال (رجاء غارودى) وغيره.

إن الإسلام يعبر عن شيء خالد، ومن السخف أن نقول إنه متخلف، ولذلك يجب تغييره أو استبداله.. إن التقدم الذي ينادون به قادهم إلى اليأس والضياع.. الحضارة والمدنية الحديثة تعبر عن صراع الإنسان مع المادة والحياة.. في حين يعبر الإسلام عن الحقيقة، ولذلك فلا داعي لأن يتجه الإسلام نحو التقدم بالمعنى الذي يريدونه، وهو الفوضى والدمار واليأس.

قلت: هناك من يفرق بين الإسلام كدين، والمسلمين كأشخاص.. فهل ذلك صحيح.. أم..

قاطعني قائلا، والابتسامة تملأه فمه: هناك قصة فيها رد على ذلك.. فأنا أعرف صديقاً منذ فترة اعتنق الإسلام في السادسة والعشرين من عمره اسمه محمد أسد[1]، كان يهوديّاً واعتنق الإسلام عام ١٩٢٦، وألف كتاباً بعنوان (الطريق إلى مكة)، وأصبح من علماء الإسلام، وله مؤلفات أخرى كثيرة.. قابلته منذ فترة في باكستان حيث يعيش هناك.. وسألته نفس هذا السؤال: هل هناك فرق بين الإسلام كدين والمسلمين كأشخاص؟

فقال لي: إذا كنا قد اعتنقنا الإسلام فليس هذا بسبب المسلمين.. ولكن السبب أن الإسلام حقيقة لا ينكرها أحد.

ثم نظر إلي، وقال: صحيح أن هناك تدهورا في حال المسلمين.. ولكني أصارحك القول بأن التدهور في حال أصحاب الأديان الأخرى أكثر مما هو في المسلمين.. إن الإسلام آخر تعبير عن الرحمة الإلهية.. وما زال

---

(١) سنتحدث عنه في هذا الفصل.

قادراً على العطاء.. عطاء كل ما يُخَلّص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها ومتاعبها.. إن الإسلام يجدد الصلة بين المرء وربه التي قطعها إنسان اليوم.

حتى إذا كان المسلمون في حالة تدهور أو انهيار، فإن دينهم قادر على منحهم الحياة السعيدة المطمئنة التي تعينهم على التغلب على تلك الأزمات الأخلاقية التي يعيشها الغرب.

قلت: كيف تفسر ظاهرة الإقبال على اعتناق الإسلام من جانب الأوربيين؟

قال: السبب ــ كما قلت ــ الأزمة التي قادتهم إليها الحضارة والمدنية الحديثة.. لقد أصبح الأوربيون يعيشون في حالة يأس لأنهم لا يؤمنون بشيء، ولذلك فهم يبحثون عن معنى لحياتهم، وقد وجدوا هذا المعنى في الإسلام فأقبلوا عليه.

الكولونيل دونالدس روكويل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الكولونيل دونالدس روكويل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتب أمريكي اعتنق الإسلام، وقد التقيت به في بعض المؤتمرات، وقد بادرني بالحديث عن الدوافع التي جعلته يختار الإسلام، فقال يعددها: ثمانية أمور في الإسلام دفعتني إليه دفعا لم أتمكن من التفلت منه.

قلت: فما أولها؟

قال: البساطة.. إن بساطة الإسلام، ومساجد المسلمين بجاذبيتها، وبما في أجوائها من روعة وجلال ووقار، وما يتميز به المسلمون المؤمنون من ثقة باعثة على اليقين تجعلهم يستجيبون لنداء الصلاة خمس مرات في اليوم، كل هذه الأمور ملكت عليَّ مشاعري منذ البداية...

قلت: فما الثاني؟

قال: ذلك الإدراك الناضج للحياة، والذي هو من ثمار السنة المحمدية التي تجمع بين الرأي السديد، والقدوة العملية، في أسلوب من التوجيه الحكيم في أمور كثيرة تدلل على واقعية هذا الدين، وحكمة أخَّاذة سديدة في أقوال محمد ﷺ.. خُذْ مثلاً قوله ﷺ:« إعقلها وتوكل ».. لقد قرر في هاتين الكلمتين نظاماً دينيّاً في أعمالنا المعتادة، فلم يطلب إلينا التصديق الأعمى بوجود قوى غيبية تحفظنا برغم تقصيرنا وإهمالنا، بل يدعونا إلى الثقة في الله، والرضا بإرادته في عاقبة أمرنا، إذا نحن طرقنا الأمور من أبوابها الصحيحة، وبذلنا في ذلك قصارى جهدنا.

قلت: فما الثالث؟

قال: سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى ــ والذي هو نابع من اتساع الأفق الفكري ــ تجعله قريباً إلى قلوب أولئك الذين يتعشقون الحرية، فقد دعا محمد ﷺ أتباعه إلى أن يحسنوا معاملة المؤمنين بالتوراة والإنجيل، وإلى الإيمان بأن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم رُسُلٌ من عند الله الواحد الأحد.. هذه سماحة يمتاز بها الإسلام عن الأديان الأخرى.

قلت: فما الرابع؟

قال: التحرر الكامل من عبادة الأوثان، وهو دليل على سلامة دعائم العقيدة الإسلامية، وعلى نقائها، فالتعاليم الأصلية التي جاء بها محمد ﷺ لم يغيرها المشرعون بتعديلات أو إضافات، فها هو ذا القرآن الكريم على الحالة التي أنزل بها على محمد ﷺ لهداية المشركين والكفار في بداية دعوته ظل ثابتاً راسخاً حتى الآن.

قلت: فما الخامس؟

قال: الاعتدال والتوسط في كل شئ.. فهما دعامتان أساسيتان في الإسلام، قد استحوذتا على كل إعجابي وتقديري.

لقد آمنت أن الرسول محمد ﷺ كان حريصاً على صحة قومه، فأمرهم بالتزام النظافة إلى أبعد الحدود، كما أمرهم بالصوم والسيطرة على الشهوات الجنسية.. وأذكر أنني كنت ــ عندما أقف في مساجد أسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة وغيرها من المدن ــ أحس شعوراً عميقاً بقدرة الإسلام في بساطته، على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا، بدون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية.. فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى، في ذكر الله الأحد:

قلت: فما السادس؟

قال: ديمقراطية الإسلام.. فقد أثار إعجابي تساوي الحقوق بين الملك صاحب السلطان، وبين الفقير المتسول داخل جدران المسجد، فهم يسجدون جميعاً لله، ليست هناك مقاعد تستأجر، ولا أماكن تحجز لفئة دون أخرى.

قلت: فما السابع؟

قال: لا يؤمن المسلم بوسيط بينه وبين ربه، بل يتجه رأساً إلى الله، خالق الخلق، وواهب الحياة، وهو لا يراه دون التجاء إلى صكوك غفران، أو إلى أحد لمنحه منحة الخلاص.

قلت: فما الثامن؟

قال: الأخوة العالمية الشاملة في الإسلام، بغض النظر عن اختلاف العنصر أو المذهب السياسي أو اللون أو الإقليم فقد ثبت ذلك عندي بكل يقين واقتناع مرات ومرات..

رينيه جينو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رينيه جينو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الاسم الأصلي للعالم والفيلسوف والحكيم عبدالواحد يحيي، الذي درس الأديان عامة، ثم اعتنق الإسلام، فأحدث إسلامه ضجة كبرى في أوربة وأمريكا، وكان سبباً في دخول الكثيرين إلى الإسلام.

وقد ألف الكثير من الكتب التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر الإسلام، منها (أزمة العالم الحديث) و(الشرق والغرب) و(الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب)، كما أصدر مجلة سماها (المعرفة)، وقد ترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الحية.

وبسبب قدرة أفكاره على الاكتساح فقد حرَّمت الكنيسة قراءة كتبه.. ولكن ذلك لم يمنع من انتشار

كتبه في جميع أرجاء العالم.

وممن تأثر بكتاباته الكاتب الفرنسي المشهور أندريه جيد الذي كتب يقول:« لقد علمتني كتب جينو الكثير، وإن آراءه لا تُنقَض »

قلت: أعرفه جيدا.. وأعرف احترام شيخ الأزهر عبد الحليم محمود له، فهل التقيت به؟

قال: أجل.. ولكن على عجل.. فلم يكن له من الوقت ما يحادثني فيه.

قلت: فما قال لك؟

قال: لقد قال لي عن سؤالي عن سبب إسلامه: (أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة، سوى القرآن).. وقال لي:(لقد ابتعدت أوربة عن طريق الله فغرقت في الانحلال والدمار الخلقي والإلحاد، ولولا علماء الإسلام لظل الغربيون يتخبطون في دياجير الجهل والظلام)

حمزة يوسف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (حمزة يوسف)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أمريكي ولد في واشنطن لأسرة أرثوذكسية عام ١٩٦٠، وهو من عائلة مثقفة؛ فوالده أستاذ لمادة الإنسانيات في جامعة هارفارد، وأمه خريجة جامعة بيركلي العريقة، أما جده فكان عمدة لإحدى مدن كاليفورنيا.

فجأة قرر في السابعة عشرة من عمره أن يسلم، فترك دراسته الجامعية التي كان قد أوشك على الانتهاء منها ليذهب في جولة لعشر سنوات في المنطقة العربية.. تعلم الفقه في الإمارات.. وحفظ القرآن الكريم في المدينة المنورة.. ودرس اللغة والشعر العربي في المغرب والجزائر، وعاش التصوف مع مرابطي موريتانيا.

أمضى عشر سنوات كاملة في التعلم قبل أن يعود لوطنه أمريكا، ليحصل على البكالوريوس في التمريض من Imperial Valley College ودرجة علمية أخرى في الدراسات الدينية من جامعة San Jose State.

في بدايات ١٩٩٠ بدأ التدريس لبعض التجمعات الإسلامية في سان فرانسيسكو، وفي ١٩٩٦ أسس معهد الزيتونة الذي يقول عنه إن من رسالته إحياء العلوم الإسلامية وكذلك طريقة التعليم القديمة (الشيخ والتلميذ).. يصدر معهد الزيتونة الكتب والمواد الصوتية التي تتحدث في القضايا المعاصرة التي تواجه الأمريكيين.

يدرس بها ألف طالب، ولها فروع في ٦ مدن أمريكية، منها نيويورك وفيلادلفيا هي مجموعة ثمار زيتونة يوسف.. كما أن لدروسه ومواعظه الدينية تأثيرا كبيرا على مستمعيه؛ فقد وزع آلاف النسخ من دروسه التي ألقاها حول سيرة الرسول ﷺ التي شرحها في ٢٤ ساعة، بالإضافة لذلك فهو يسافر إلى عواصم كثيرة في دول مختلفة في أمريكا الشمالية وأوربا ليخاطب المسلمين وغير المسلمين معا.

وقد سألته عن سبب اختياره لاسم الزيتونة، فأجابني: إنها شجرة غريبة جدا، فليس لها سحر معين في

---

(١) انظر: مقال لأحمد زين، بعنوان (حمزة يوسف.. الداعية الأمريكي المزدوج)، ولتفاصيل أكثر انظر موقع: http://www.zaytuna.org

مظهرها، فهي ليست سامقة ولا وارفة الظلال ولا تتميز بوفرة الخشب، ولها مظهر ذابل مما يعطي إحساسا بالشيخوخة.. لكن على الرغم من كل ذلك.. تمتد جذورها تمتد عشرين قدما تحت الأرض، وفي الوقت الذي تموت فيه الأشجار الأخرى تبقى الزيتونة حية نابضة، أما الثمار فإنها مفيدة جدا للإنسان، كما أن هذه الشجرة بتفرد تظل تثمر مئات السنين.

قلت: لقد التقيت به إذن؟

قال: أجل.. لقد شرفني الله بذلك، وفور لقائي به سألته عن سر استعجاله باعتناق الإسلام.. فقد أسلم كما ذكرت لك صغيرا، فقال لي: أنا لا أدري، سئلت هذا السؤال كثيرا، وكانت إجاباتي ليست هي الواقع دائما.. وهذا يحيرني، كل ما أستطيع قوله: إنني سمعت عن الإسلام فانشرح صدري، وبدأت الطريق.

قلت: لقد سمعت أن بعض المسلمين اتهمك بانحيازك للغرب.

قال: أنا منحاز لما أعتقد أنه صائب وعادل، إذا كان ذلك على جانب المسلمين، فأنا مع المسلمين، وإذا كان مع الغرب فأنا مع الغرب.. أنا مسلم ولست قبلياً.

وفي حديث الشيخ حمزة ــ كما صار يسمى ــ تكثر استشهاداته بالفلاسفة والمفكرين الغربيين، فيتحدث عن أرسطوطاليس وتعريفه للسعادة، وأفلاطون وآرائه في المدينة الفاضلة وبرنارد شو وآرائه في الإسلام، وآرنولد توينبي حين يتحدث عن فرضيته بأن أزمة حادة ستقع في العالم بين نصفه الشمالي ونصفه الجنوبي.

وهو يهاجم المسلمين بقدر ما يهاجم أمريكا.. فهو أمريكي ثائر على مساوئ مواطنيه، ومسلم ثائر على مساوئ أهل دينه.. سمعته مرة يقول: إذا كان الناس في أمريكا يعتقدون أن أمريكا هي المجتمع المثالي، فلا أعتقد أنهم يطالعون نفس المصادر التي أطالعها، معدلات الاكتئاب والانتحار والاغتصاب والجريمة ووضع المدارس والإجهاض والتفسخ الأسري والطلاق.

وقد عمل مستشارا للبيت الأبيض، لكن ذلك لم يمنعه من مهاجمة بوش، فقد سمعته يقول على الملأ: الناس يظنون أننا في أمريكا نعيش في ديمقراطية، هذه كلها أكاذيب.. من الذي أوصل بوش لكرسي الرئاسة.. الشركات الاحتكارية الكبرى هي التي أوصلته.

وعندما سأله فرانك جاردنر مراسل البي بي سي قائلا: برأيك هل كان بوش صائبا حين حارب الإرهاب؟

فأجاب حمزة: أعتقد أنه إرهاب دولة مقارنة بإرهاب الأفراد.

وبشجاعة يعيد حمزة تعريف الحرب على الإرهاب، فيقول: الحرب على الإرهاب ينبغي أن تكون حربا على الحرب.. ويهز رأسه قائلا: هذا كل شيء.

لكنه في ذات الوقت لا ينافق المسلمين ولا يجاملهم تخديرا لمشاعرهم، فهو يرى بوضوح أن (العقبة الأساسية أمام الدعوة الإسلامية في هذه الأراضي هم المسلمون أنفسهم بسلوكياتهم)

ويشخص مرضهم فيقول: صراحة إن الذين هاجروا هاجروا بمشاكلهم، وعمروا مساجدهم بها، والمسلم الجديد يتعب جدا من هذه التناقضات.

وقد رأيت ألمه الشديد بعد أحداث ١١ سبتمبر التي صدمته تماما، وكان أقرب إلى المفجوع حتى إنه أخذ

قرارا بإغلاق معهد الزيتونة مؤقتا ليتفرغ لمخاطبة صناع القرار والمسئولين المحليين والظهور في القنوات التلفزيونية لمحاولة توضيح الحقائق عن الإسلام.

وهو يحب التجديد ويجيد مخاطبة الجمهور، وهو صاحب فكرة برنامج (يللا شباب) الذي يذاع على mbc، وهو البرنامج الذي نجح في مخاطبة جماهير الشباب من خلال محتوى ديني جذاب.. وهو ما أكده خالد طاش أحد معدي البرنامج لجريدة الوطن السعودية، حيث أشار إلى أن فكرة البرنامج نبعت من نصيحة قدمها الشيخ حمزة يوسف أشار فيها إلى ضرورة البحث عن وسيلة إعلامية جادة تتصل بالشباب المسلم، وتقدم له جرعات ثقافية ومعرفية، بعيدا عن الإعلام الاستهلاكي.

ومن المعروف أن الشيخ حمزة يقدم برنامجا اسمه (رحلة مع حمزة يوسف)، واشترك في بعض حلقات (يللا شباب)، حيث تجول مع فريق البرنامج في عدد من المدن الأسبانية للحديث عن حضارة المسلمين ومعالمها.. وكذلك التقى مع عدد من الشخصيات المؤثرة في مسلمي الغرب، مثل يوسف إسلام الفنان البريطاني.

ورغم هذا التجديد في الخطاب، فهو يقول: ليس من حق الجاهل أن يتكلم في الدين، لا بد أن يتعلم المسلم على يد الشيوخ، الآن كل واحد يفتح كتابا ويفتي.. أنا لا يمكن أن أذهب إلى الطبيب وأسأله أين تعلمت الطب فيقول من الكتب.. هذا لا يمكن أن أسلمه بدني. لا بد أن يتعلم على يد أطباء حتى يتعلم كيف يجري العملية.. كل علم لا بد أن يؤخذ عن الشيوخ.. الآن الإسلام يؤخذ من الكتب فقط.

ويدافع عن رأيه بقوله: هذا ليس احتكارا، وإنما بحكم:﴿ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(النحل: من الآية٤٣)، بين الصحابة قليل جدا من كان يفتي مع أنهم تربوا عند رسول الله، هذا لم يكن احتكارا.

والجانب الملفت في شخصية الشيخ يوسف هو صوفيته، فللتصوف تأثير كبير عليه، يظهر ذلك في استشهاداته بكثير من آراء أهل التصوف، كما أن أحد مشروعاته المهمة التي أنجزها بعد سنوات من العمل المتحمس ترجمة بردة البوصيري إلى الإنجليزية، والتي تمت في يونيو ٢٠٠٢.

وهو يرد على من ينكر التصوف فيقول: التصوف كعلم.. علم السلوك والأخلاقيات من لب الإسلام، أما الطرق والشيوخ فهذا شيء آخر.

ويرد على الشبهات التي تثار حول هذا، فيقول: يقولون ما من أحد من الصحابة كانوا يعرفون كلمة تصوف، وهل كان منهم من يعرف النحو، أو التجويد، أو أصول الدين أو أصول الفقه؟ كلها مصطلحات ومسميات استجدت لتقنين العلوم.

جان مونرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جان مونرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة الامريكية ببيروت، والذي درس في جامعات (نورث كارولينا) و(لندن) و(تورنتو)، ووضع خمسة عشر كتاباً معظمها يدور حول المواضع التي يدرسها، فضلاً عن أنه كتب حول موضوعات متنوعة تتعلق بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وآخر كتبه هو (التجارة والإسلام في منطقة الشرق الأوسط)

وقد عاش بين المسلمين في لبنان عشرين عاماً بحكم عمله رئيساً لقسم الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية في بيروت.. عرف في أثنائها طبيعة وسلوك المسلمين، وتبين له خطأ التصوّر الذي كان يحمله معه عند ذهابه إلى لبنان، فقد كان يسيطر على مخيلته بعض الأضاليل والافتراءات على الإسلام والمسلمين، والتي كانت منتشرة بصورة كبيرة في الغرب، مثال ذلك أن الحرب المقدسة عند المسلمين هي العدوان على كل من لا يؤمن بعقيدتهم الإسلامية[1].

لكنه بعد أن قرأ بإمعان التاريخ الإسلامي، اتضح له بجلاء أن الإسلام عقيدة متسامحة، ودين لا يُفرض على الآخرين بالإكراه.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في بيروت، وكان من جوابه لي عن سر اعتناقه للإسلام قوله: أريد القول: إن حظّي كان كبيراً، لأن الفرصة قد أتاحت لي الدراسة، ولكن ليس بطريقة أكاديمية، وإنما عن طريق اتصالات الصداقة مع مجموعة من الناس الذين كانت مهمتهم تنوير الناطقين بالإنجليزية بحقيقة طبيعة العقيدة الإسلامية، فضلاً عن ذلك أنني قرأت كل ما وصلت إليه يداي، كما أنني ناقشتُ مع الذين أعمل معهم بعض القضايا التي يُثار الجدل حولها.. وبهذه الطريقة توصلت إلى طبيعة وحقيقة الإسلام، ليس على أنه نظام يجب دراسته ـــ وهي الطريقة التي يتبعها معظم الغربيين في معرفة الإسلام ـــ ولكن كعقيدة فعالة، ومنهج وطريق للحياة، وكنت في بداية الأمر مهتماً بهذه الأمور.. أمّا الآن فإنني أُكنُّ كل احترام وتقدير للإسلام وأتعاطف معه.

قلت: فما أثر الإسلام في حياتك؟

قال: إنني أعتقد أن تجربتي المشتركة مع المسلمين قد جعلتني أكثر تسامحاً من قبل.. كما أن تلك التجربة قد جعلتني مدركاً لبعض الأمور التي تحيط بي أكثر من الماضي.

بالإضافة إلى هذا، أصبحتُ متفهماً لوضع المرأة في الإسلام، على عكس ما يعتقد الغربيون ـــ بصورة خاطئة ـــ من أن المسلمين يعتبرون النساء كائنات دنيا ووضيعة، في حين أن الحقيقة أن النساء في ظل الإسلام يتمتعن بتلك الحقوق والامتيازات التي يجب أن يتمتعن بها، يكفي أن هناك سُوَراً عديدة في القرآن الكريم تثبت وجهة نظري هذه.

قلت: فما أهم الدروس التي تعلمتها من الإسلام؟

قال: كثيرة جدا.. لا يمكنني إحصاؤها..

ثم تأمل قليلا، وقال: لعل أهم درس تعلمته من الإسلام هو عدم الجدوى من التذمر من أمور هي فوق طاقتنا لتغييرها أو تبديلها، فالإنسان ليس قادراً على كل شيء، مع أنه يتمتع بصفات خارقة تميزه عن بقية المخلوقات، ولكن عليه إدراك ضرورة الإذعان إلى قوة خارج طاقته، وأن التذمر من ذلك يؤدي إلى الفشل والإخفاق والحزن، في حين أن الإنسان الذي يدرك مكانه الحقيقي في هذا الكون يكون هادئاً مطمئناً يشعر

---

(١) انظر تفاصيل الرد على الشبهات المرتبطة بهذا في رسالة (سلام للعالمين)، ورسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

بالراحة مع نفسه وعالمه المحيط به.

سكت قليلا، ثو قال: إنَّ فَهمَ الإسلام لا يكون إلا بمعايشته، وما يؤخذ على الأوربيين هو أنهم لا يُعايشونه، لذلك فإنهم عندما يصلون إلى مرحلة التقييم الفكري للإسلام فإنهم يصلون إلى ذلك بواسطة طريقة أكاديمية، ولذلك فإن العديد من علماء الغرب الذين يعتنقون الإسلام يعتبرهم زملاؤهم شواذاً، لأن الأوربي العادي يعتبر الإسلام ديناً دخيلاً وغريباً أكثر من اعتباره عقيدة حيوية.

ميجيل بيرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ميجيل بيرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ جامعي إسباني كره الحرية المنفلتة في أوربا، والانحلال، وعدم الترابط الأسري، وكثرة الجرائم والانحرافات التي سادت المجتمعات الغربية، وأتيح له أن يقرأ عن وضع الإسلام لضوابط السلوك وللمعايير الأخلاقية في المعاملات.

وأتيح له بعد ذلك أن يلتقي بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أتيح له إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن بالأسبانية، فاستشعر بميل قوي تجاه الإسلام، فواصل قراءاته المكثفة عنه حتى اقتنع تماماً بتعاليمه ومنهاجه، بعدها قرر أن يشهر إسلامه، ويختار لنفسه اسم (نصر الدين)

قلت: فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في القاهرة التي كان يعمل أستاذا بجامعتها، وقد سألته عن سر إسلامه، فقال: لقد التقيت بمجموعة من الإسبانيين المسلمين، وعن طريقهم أُتيحت لي إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن، كما قرأت عن التراث العربي القديم فأُعجبت به، بعدها قررت أن يكون الإسلام ديني.

وقد قام أحد أصدقائي بترجمة كتاب (المحظورات) للشيخ (ياسين رشدي) واستفدت منه كثيراً، وسمعت صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في قراءة القرآن وأحببته كثيراً.

وبالرغم من القليل الذي عرفته عن الإسلام فإنني أتمنى من كل قلبي أن يهتدي إليه الناسُ أجمعون، وسأعمل على الدعوة إلى الإسلام، وسوف ابتدىء بعائلتي والمقربين إليَّ إن شاء الله.

سكت قليلا، ثم قال: إنني أحافظ على أداء الفروض في مواقيتها، وعلى صلاة الجمعة التي أشعر براحة نفسية كبيرة عند أدائها.. وإنني أعرف أهمية خطيب المسجد، والدور الكبير الذي يقوم به تجاه المسلمين، مثل مساعدتهم على فهم القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية، بجانب إرشادهم وتجميعهم على طريق الخير والصلاح.

وعند سؤالي له عن أحلامه المستقبلية قال: إنني حريص على تعلم اللغة العربية وإتقانها حتى يتسنى لي قراءة القرآن بلغته الأصلية، وبالتالي محاولة فهم معانيه، لأن ترجمته إلى اللغات المختلفة تؤدي إلى تضارب المعنى وعدم الوضوح.

وبهذه المناسبة أنبه إلى أن الكتب التي تُرجمت إلى الأسبانية عن الإسلام ليست دقيقة في مضمونها، خصوصاً بعد ما ترجم أحد الأسبان ــ وهو مسيحي يدعى (جان فونت) ــ معاني القرآن إلى الأسبانية بطريقة

بعيدة كل البعد عن النص القرآني أو معناه، مما جعل الذين اطلعوا على هذه الترجمة من الأسبان يقولون: إن الإسلام دين غريب، ومما يدعو للأسف والأسى ما جاء في تلك الترجمة الأسبانية على يد ذلك المترجم، وعلى الأخص (سورة الناس) التي ترجمها إلى (سورة الرجال) وأخلّ بمعناها وبمضمونها[1].

وعن سؤال حول المسلمين في إسبانيا أجابني بقوله: بالرغم من أن المسيحية هي الديانة المنتشرة في إسبانيا، فإن حرية الأديان متاحة للجميع، ولكن الإسلام ــ كما في كثير من الدول الأوربية ــ يظل محدود الانتشار، ممّا يتطلب تنشيط حركة الدعوة الإسلامية ودعم أنشطتها ووضع كافة الإمكانيات في سبيلها.

فيلي بوتولو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فيلي بوتولو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم نفس ألماني، وهو أستاذ علم النفس بجامعة (ميونيخ) بألمانيا الغربية، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه باسم (أبي الحسن) لحبه لأبي الحسن الشاذلي.

وقد درس القرآن الكريم، وتعمق في دراسة التصوف الإسلامي بحكم تخصصه كباحث في الظواهر المختلفة في الأديان، وقد التقيت به وسألته عن سر إسلامه، وكان من جوابه لي قوله: إنني وجدتُ في الإسلام راحة نفسية، لم تفتقدها ألمانيا الغربية فحسب، وإنما تفتقدها أوربا كلها.

ثم قال لي: إن شعوري بانجذاب للإسلام كان منذ فترة طويلة، ولكن أراد الله تعالى أن يكون عملي كأستاذ لعلم النفس بجامعة (ميونيخ) مدخلاً لاعتناقي دين الإسلام.. فمن خلال عملي بدأت مرحلة البحث والدراسة حول الأديان كافة لمختلف دول العالم، والظواهر الغربية في كل الأديان.

وعند دراسة الإسلام شد انتباهي ما وجدته في القرآن أولاً، وفي كتب التصوف ثانياً، من شرح لأصول العقيدة ومناهج الإسلام، فعكفت على دراسة التصوف فترة غير قصيرة، حتى انتهيت إلى حقيقة مهمة وهي أن الإسلام يهتم بعلاج الإنسان ظاهراً وباطناً، فهو دين يدعو إلى نظافة الظاهر وطهارة الباطن، ويربي في الإنسان حب الأخوة والترابط والتآلف، بعكس ما نجده في المجتمعات الغربية، حيث يعيش كل إنسان في عالمه الخاص، لا تربطه بالمجتمع روابط روحية أو علاقات دينية، كما يحدث عند المسلمين.

وعرفت من خلال دراستي للتصوف أن المتصوفة يجتمعون لذكر الله، ويلتقون على حُبّه، ويسيرون في طريق النقاء الروحي والوجداني، ويتلون أوراداً معينة بعد كل صلاة، مما يجعلهم مشدودين دائماً إلى تعاليم السماء.

قلت: ألم تجد في مجتمع الكنيسة مثل هذا المجتمع؟

---

(١) نتعجب من هيئات الرقابة على المصاحف في الدول الإسلامية من اهتمامها الشديد بالنسخ العربية مع الإهمال الشديد للترجمات المختلفة، وكأنها لا تمت بصلة للقرآن.

وبهذه المناسبة ندعو أولياء الأمور إلى أن يخضعوا تراجم القرآن إلى هيئات رقابة مشددة بحيث تصادر كل الترجمات التي لا تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم، مثلما تصادر النسخ العربية التي تحتوي على أخطاء.

وهذا لا يصطدم مع حرية التعبير، لأنه لم يتكلف أحد من المسلمين بترجمة الكتاب المقدس، بل تركوه للمسيحيين، احتراماً لهم.

قال: من الصعب أن تجد في أوربا مجتمعاً يتسم بهذه الصفات، ولهذا وجدتُ نفسي مدفوعاً الى اعتناق الإسلام.. ولكنني رأيت من الضروري والضروري جداً ــ أن أظل مسلماً في السر لمدة عام كامل، لأنك إن أردت أن تدخل الإسلام في بلد كل وسائل الإعلام فيه موجهة ضد هذا الدين الحنيف، لكان ذلك صعباً جداً، ولكن بعد أن رسخت العقيدة في نفسي أعلنت إسلامي بصراحة، و لم أخش الذين يُحاربون الإسلام.

ثم اختتم قوله بحماس ــ وهو يشير بأصبعه إلى بعيد ــ: إنني أؤكد أنه بدون القرآن، وبدون التصوف[1] الذي يُعَدُّ فرعاً من علم النفس الذي أدرسه في الجامعة لم يكن بمستطاعي أن أُغيرَ ديني ولذا فلقد غيرت ديني عن ثقة واقتناع تام.

قلت: فما أثر الإسلام فيك؟

قال: لقد تغيرت حياتي اليومية بعد الإسلام تماماً، وانتظمت انتظاماً عجيباً، فقد كانت في الماضي بلا هدف، أما الآن فقد أصبح لها معنى، ولها هدف ولها حلاوة.. لقد أصبحتُ أخاف الله في كل تصرفاتي، وأعرف أن لي ربّاً سوف يحاسبني فيما أفعله في أي وقت.

عبد الله كويليام:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبد الله كويليام)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية)، و(أحسن الأجوبة)

قلت: لا شك أنك لم تلتق به.

قال: لا شك في ذلك.. ولكني من خلال كتبه استطعت أن أتعرف على سر إسلامه، فمن مقولاته في كتبه:(من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. وهو حافل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة)[2]

ومنها قوله:(أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف ماديًا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعديمة التأثير)[3]

ومنها قوله: (لقد عثرت في دائرة المعارف العامة **popular Encyclopedia** على نبذة نصها كما يأتي

---

(١)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١١٩ — ١٢٠.

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ١٢٢ — ١٢٣.

(أن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيًا بلا تقليد ودون مثيل. أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية)[١]

ومنها قوله: (هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقًا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبًا كذلك يرى موافقًا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقّت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجده جامعًا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضًا ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول)[٢]

ومنها قوله: (إن من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جدًا أحدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائمًا على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون إليه.. والثاني خلوّه من القصص والخرافات وذكر العيوب والسيئات وإلى آخره، الأمر الذي يؤسف عليه كثيرًا لوقوعه بكثرة فيما يسميه المسيحيون (العهد القديم)[٣]

ومنها قوله:(كان محمد على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحساس.. وكان حائزًا لقوة إدراك عجيبة وذكاء مفرط وعواطف رقيقة شريفة. وكان على خلق عظيم وشيم مرضية مطبوعًا على الإحساس)[٤] ومنها قوله:(إن بعض كتاب هذا العصر الحاضر كادوا أن يعرفوا بأن الطعن والقدح والشتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان فسلموا بذكر كثير من صفات النبي السامية وجليل أعماله الفاخرة)[٥]

ومنها قوله:(ما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستورًا لن يضلوا بعده أبدًا وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم)[٦]

ومنها قوله:(لما شرف محمد ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ١٣٨.
(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١٣٩ — ١٤٠.
(٣) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبة، ص ٢٣ — ٢٦.
(٤) العقيدة الإسلامية، ص ٩٦ — ٩٧.
(٥) العقيدة الإسلامية، ص ١١٣ — ١١٤.
(٦) العقيدة الإسلامية، ص ٣٨ (عن لوزون في خطبته المذكورة).

اعتلاء النوع الإنساني وترقيه في درجات المدنية أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة. ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله عليه الصلاة والسلام وما كانوا عليه من الضلالة.. ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقّي العظيم رأى بين الحالين فرقًا عظيمًا كما بين الثريا والثرى)[1]

ومنها قوله:(امتدت أنوار المدنية بعد محمد في قليل من الزمان ساطعة في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب حتى إن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العلية من المدنية قد حيّر عقول أولي الألباب. وما السبب في ذلك إلا كون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة)[2]

ومنها قوله:(ليس بين الأديان أقرب للفهم من الدين الإسلامي للذين يفقهونه، كما أنه ليس بينها أثبت ولا أرفق منه. فهو بقاعدتيه: وحدانية الله والجزاء الآجل، يمنح القلوب حقوقها من السكينة والارتياح ويذهب بالإرادة المذهب الذي يلائمها وتحتاج إليه بدون أن تسوم العقل قيود هو بالطبع يأباها. وليس في الاكتشافات العلمية الحديثة، ولا في المسائل التي انتهى حلها والتي تحت الحلّ ما يغاير مثل هذه الحقائق الإسلامية الوضاءة والسهلة المأخذ. ولهذا فإن التوفيق الذي نبذل كل جهدنا معاشر المسيحيين لإيجاده بين العقل والاعتقاد في ديننا المسيحي هو سابق موجود في الديانة الإسلامية. وإنني بكلامي هذا عن الدين المسيحي إنما أشير إلى تلك الزيادات الموافقة وغير الموافقة التي أدخلت على نصرانية الإنجيل التي هي في الحقيقة كإسلام القرآن)

ومنها قوله:(إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعًا في أحكامها، من أعظم ملك إلى أقلّ صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكم وأعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالم)[3]

ومنها قوله:(إن الأساس المهم والمبدأ العظيم في الإسلام هو الاعتقاد بإله واحد في وحدانيته ونبذ الخرافات بأي وجه كانت)[4]

ومنها قوله:(مهما ارتقى العقل في درجات الكمال فليرتقِ فإنه لا يخرج عن حدّ تلك الأحكام الجليلة، أعني الأحكام التي انطوت عليها الشريعة الإسلامية، فاتباعها في كل زمان ضروري لا محيص للعقل عنه)[5]

ومنها قوله:(إن سرعة انتشار الإسلام في العصر الحديث يرجع إلى عدم الخلط والخبط في أصوله وبنيانه الأمر الذي جعل له مكانًا ثابتًا في قلوب أهله وكل من تدين به بخلاف النصرانية فإنها مزعزعة الأركان قلّما يكون لها ثبات عند الإنسان لما فيها من التبديل والتغيير والتحريف والتحوير.. لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية ونشر راية المساواة والأخوة، وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين من الإنكليز. وعن ما كتبه أغلب السيّاح عن النتائج الحسنة التي نتجت من الدين الإسلامي، فإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السودانية الأفريقية تختفي من بينها في الحال عبادة الأوثان واتباع الشيطان والشرك، وتحرم أكل لحم الإنسان

---

(١) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢١ – ٢٢.

(٢) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢٢– ٢٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٢، (عن لوازون في خطبته المذكورة)

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢٣، (عن كتاب شكوى وارن هاستنج، لادماند بورك)

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢٩ – ٣٠.

وقتل الرجال ووأد الأطفال وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها في أسباب الإصلاح وحبّ الطهارة اجتناب الخبائث والرجس، والسعي نحو إحراز المعالي وشرف النفس، ويصبح عندهم قِرى الضيف من الواجبات الدينية وشرب الخمر ولعب الميسر من المحرمات، والرقص القبيح ومخالطة النساء دون تمييز منعدمة، يحسبون عفة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن الشمائل)[1]

ومنها قوله:(زعم عدد من الكتاب الغربيين أن الإسلام في شرقي أفريقيا قائمة قواعده الأساسية على التجارة في الرقيق وجميع وسائل القسوة والانحطاط. إن روايات كهذه مجردة بالمرة عن الحقيقة، لا يمكن تصديقها وتصور وقوعها وإني بدون تردد أثبت وأقول عن سعة خبرة واطلاع عن شرقي أفريقيا وأواسطها بما ليس في إمكان أولئك الكتاب أن يأتوا بمثله: أنه لو كان للنخاسة وجود في هذه البقاع فما ذلك إلا لأن الإسلام لم يدخل فيها وبرهان ذلك أن الإسلام من خصائصه إبطال النخاسة إبطالاً دائمًا)[2]

ومنها قوله:(لنزدلف الآن إلى غربي أفريقيا والسودان الأوسط — حيث أتاحت لي الفرص زيارة هذه الجهات — فأقول إننا إذا قلبنا الطرق وأجلنا النظر نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط وتتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى. فترى الناس تدخل فيه أفواجًا أفواجًا وتقبل عليه بإقبال عجيب يشبه أيامه السالفة.. وأن دعاة الدين المسيحي يحاولون قلب الحقائق وإلقاء تبعة آثام النخاسة على عاتق الإسلام.. وتراهم لقصورهم عن إدراك مزايا هذا الدين المبين يصفون انتشاره بداهية دهماء على الأفريقيين ويقولون — كما لقن إليهم في حداثتهم — بأن دين محمد لم تقم له قائمة إلا بقوة النار والسيف.. هذه هي التخيلات المطبوعة في أذهانهم والتي يشيعونها عن انتشار الإسلام، وهي على ما أظن تصورات توارثوها جيلاً عن جيل)[3]

ومنها قوله:(على هذا المنوال انغرست بذور المدنية بين عدة قبائل همجية في أفريقيا ونما فيه الإسلام نموًا هائلاً إلى حد رنّ فيه صدى هذه البلاد وملأ الآفاق، وهاهو يقام فيها في الصباح والظهر وما يلي ذلك من الأوقات كلمة النداء في الإسلام — الأذان — فبعد ما كان الناس يسجدون للأشجار ويعبدون الأحجار صاروا يسجدون الآن لله الواحد القهار)[4]

ومنها قوله:(أضاء نور الحضارة الإسلامية على العالم من سماء بغداد ومن قرطبة. إذ من المعلوم أنه في ذلك العهد الذي بلغت فيه تلك الحضارة إلى الغاية التي لا تدرك كانت أوروبا في دياجي الجهالة وكان الرهبان يرحلون لأخذ العلم بالبلاد الأندلسية.. وبالجملة فديانة الرجل الذي يقول (اطلب العلم ولو في الصين) تحرص

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ١٥ — ١٧ عن: (كانن إسحاق تيلي في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنكليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التايمس في اليوم التالي)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ٢٦ — ٢٧ عن: _المستر جوزيف تومبسن J. Tompson الرحالة الإنكليزي الشهير، جريدة التايمز، ١٤ نوفمبر ١٨٨٧)

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ٢٩ — ٣٠ (عن مقال تومبسن المذكور)

(٤) العقيدة الإسلامية، ص ٣٢ — ٣٣ (عن مقال تومبسن المذكور)

على السعي.. لا على السكون)[1]

ومنها قوله:(هاهي الحوادث والأحوال قد برهنت على ما للقرآن أمام أعين الذين يفقهونه من صفات القابلية للعلم والترقي والحضارة حيث قامت في العالم الإسلامي حضارات فاخرة باهرة مثل حضارة بغداد وتمدن قرطبة الذي فات بكثير ما كان يعاصره من تمدن الغرب إن صحّ أن لا نسمّي ما كانت عليه حالة الغرب وقتئذ بالهمجية. وحينذاك لم يهدم المسلمون آثار اليونان العلمية بحريق مكتبة الإسكندرية الموهوم، بل هم نقلوا إلى لغتهم آثار أرسطو التي عادت بأحسن الفوائد على مدارسنا الغربية في القرون الوسطى التي لم تصلنا إلا بواسطة المسلمين وعن أيديهم فضلاً عن أن علماء العرب كانوا أساتذتنا في سائر أنواع المعارف من الجبر (والاسم نفسه يرشد لذلك) إلى الطب، حتى إن أحد أعاظم باباواتنا (سلفستر) رحل إلى الأندلس فحصل فيها من العلوم والمعارف ما أدهش وبهر سائر معاصريه)[2]

ومنها قوله:(إن زعماء النصرانية أبدلوا دين المسيح بما كانت ترمي إليه أهواؤهم وأوجدوا عقائد أخرى من تلقاء ذاتهم وتظاهروا في مقاومة الشهوات البشرية بالرهبنة والعزوبية.. واتخذوهما ستارًا للفسق ولأعمالهم التضليلية حتى ضل الناس وأشركوا بالواحد القهار واتخذوا لفيفًا من هؤلاء القديسين والرهبان أربابًا من دون الله فلما جاء الإسلام استأصل شأفة هذه الخزعبلات وقضى على جميع الأباطيل والترهات، وأقيمت الحجة الثابتة على استهجان العزوبية واعتبار الزواج كدليل للتقوى الحقيقة وأنه من أوليات القواعد الدينية إذ فيه بيان قدره الخالق ووحدانيته وجلاله.. فالإسلام هو الذي حضّ على الزواج وأبطال الرهبنة)[3]

ومنها قوله:(أما تعدد الزوجات فإن موسى لم يحرمها وداود أتاها وقال بها و لم تحرم في العهد الجديد (أي الإنجيل) إلا من عهد غير بعيد. ولقد أوقف محمد الغلوّ فيها عند حدّ معلوم. وعلى كل حال فإن مسألة تعدد الزوجات أمر شاذّ كثيرًا عن الدستور المعمول به في البلاد الإسلامية المتمدنة.. وهو بكل ما قيل فيه من القول الهراء لا يخلو من الفائدة فقد ساعد على حفظ حياة المرأة وأوجد لها في الشريعة حسن المساعدة. وتعدد الزوجات في البلاد الإسلامية أقلّ إثمًا وأخفّ ضررًا من الخبائث التي ترتكبها الأمم المسيحية تحت ستار المدنية.. فلنخرج الخشبة التي في أعيننا أولاً ومن ثم نتقدم لإخراج القذى من أعين غيرنا)[4]

ومنها قوله:(جاء في القرآن {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً}(٣). فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات التي تنتقدون فيها على المسلمين ظلمًا وعدوانًا. إذ لا شك في أنكم تجهلون عدل النبي بين أزواجه (رضوان الله عليهن) وحبه فيهن حبًّا مساويًا مما علم المسلمين الانتماء والإنصاف بينهن. على أن القرآن لم يأمر بتعدد الزوجات بل جاء بالحظر مع الوعيد لمن لا يعدل في الآية المتقدمة، ولذلك ترى اليوم جميع المسلمين منهم القليل

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ٤٠، عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس ونشرت بجريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ٦٢ — ٦٣.

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ١٩، (كانن اسحق تيلر في خطبة له بمؤتمر الكنسية الإنكليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التايمس في اليوم التالي)

(٤) العقيدة الإسلامية،، ص٢٢ — ٢٣ عن (تيلر في خطبته المذكورة)

لا يتزوجون إلا امرأة واحدة خوف الوقوع تحت طائلة ما جاء من الإنذار في القرآن المجيد. وإذا سلّمنا على العموم بأن عدم تعدد الزوجات أوفق للمعاشرة الدنيوية من تكررهن، فلا نسلم بالاعتراف بذلك على الوجه المتعارف اليوم بأوروبا من حصر الزواج في امرأة واحدة إذعانا للقانون واتخاذ عدة أزواج أخرى غير شرعيات من وراء الجدار)[1]

ومنها قوله:(ورد في القرآن نصوص كثيرة تثبت أن النساء لا يعاقبن في الدار الآخرة فقط على ما أتين من سيئ الأعمال بل كذلك يجازين خير الجزاء على ما يعلنه من طيب أعمالهن بمثل ما يكون للرجال. وعلى ذلك نرى أن الله سبحانه لا تمييز عنده في الإسلام بين الأجناس)[2]

مارك شليفر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارك شليفر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ لعلم الصحافة بجامعة (نيويورك)، وقد عمل فترة بالمغرب مراسلاً للإذاعة الأمريكية، ولعدد من المجلات في (نيويورك).. وقد اعتنق الإسلام، وقد سألته ــ في لقائي به عن سر اعتناقه للإسلام، فكان من جوابه لي قوله: لم أكن ملتزماً بدين معين، مع أنني أنتمي إلى أسرة مسيحية كاثوليكية.. وكانت فترة إقامتي بالمغرب مفتاح السعادة لي ولأسرتي، فقد رأيتُ عالماً جديداً يختلف كليةً عن العالم الذي تركته خلفي في الولايات المتحدة الأمريكية، وما لمسته عن كثب من جمال وروعة السلوك الإسلامي شدني إلى شريعة الحق.

لقد تعثرت قدمي في حفرة ذات يوم حينما خرجت لأول مرة إلى سُوق شعبي بمدينة الرباط، وعلى الفور وجدتُ عدداً من المغاربة يسارعون إليَّ لمساعدتي على النهوض، ويسألونني في لهفة عمّا إذا كنت قد أُصبت بسوء.

ومرضتُ ذات مرة، فوجدت عشرات من جيراني ومعارفي يأتون لزيارتي، ويحاول كل منهم أن يصنع لي شيئاً، فدهشت لهذا السلوك الإنساني الذي لم أجد له نظيراً في بلدي أمريكا، حيث الكل لا يهتم إلا بنفسه، وطابع الحياة المادية البحتة هناك يصبغهم جميعاً بالأنانية، ولهذا لايكترثون بما يصب الآخرين، فالمرء عندنا يكون محظوظاً إذا ساعده أحدٌ أو زاره أهله في أثناء مرضه، أو حتى سألوا عنه.

ولذا فإنني حين سألتهم عن الدافع الذي يحملهم على صنع كل هذا من أجلي بدون مقابل أجابوا جميعاً: إن هذا هو ما يفرضه عليهم دينهم الإسلامي، ويأمرهم به رسولهم العظيم محمد ﷺ.

قلت: لقد كان سلوك المسلمين الطيب هو الذي جذبك إلى الإسلام إذن؟

قال: لقد كان ذلك دافعا.. ولم أكتف به.. بل رحت أبحث عن الحقيقة من مصادرها.. وبعد مناقشات طويلة واسعة مع عشرات من علماء الإسلام تعلمت خلالها الكثير من أمور الإسلام، ازداد إعجابي به أكثر، ومع مرور الوقت وجدت عقيدة التوحيد تملأ عقلي وقلبي.. ومن ثم انكببت أدرس ترجمة لمعاني القرآن الكريم،

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ٣٨ – ٣٩ عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس، ونشرت في جريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١٤٣.

وأستوعب ما بها حتى وجدت نفسي تتوجه إلى الله أن يهديني إلى الطريق المستقيم.

وبينما أنا أقلب صفحات القرآن الكريم ذات يوم إذا بي أطالع تفسير الآيتين الكريمتين:﴿ لا تُدركُهُ الأبصارُ وهُوَ يُدركُ الأبصارَ وهوَ اللَّطيفُ الخبيرُ قد جاءَكُم بصائر من ربّكُم فَمَن أبصرَ فلِنفسهِ ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكُم بحفيظٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٣ــ١٠٤)

عندئذ لم أتمالك نفسي، ووجدت الدموع تنهمر من عيني، ومن ثم أيقنت أن هذه إشارة صريحة من الله عز وجل ترشدني إلى الإسراع في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، واللحاق بركب الموحدين، وعلى الفور حزمت حقائبي، وسافرت إلى أمريكا حيث أشهرتُ إسلامي أنا وزوجتي وولدي بالمسجد الكبير في نيويورك.

ليوبولد فايس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليوبولد فايس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الاسم الذي ولد به محمد أسد.

قلت: أعرفه.. لقد ولد سنة ١٩٠٠، وتوفي سنة ١٩٩٢م.. وهو صحفى نمساوى يهودى وُلِد بإقليم من أقاليم بولندا كان تابعا آنذاك للإمبراطورية النمساوية، وكان يسمى ليوبولد فايس، ثم دخل فى الإسلام سنة ١٩٢٦م بعد أن رحل إلى الجزيرة العربية أيام الملك عبد العزيز آل سعود، ثم انتقل بعد ذلك إلى شبه القارة الهندية حيث توثقت بينه وبين العلامة إقبال عُرَى الصداقة، وظل يساعد فى إذكاء نهضة الإسلام فى تلك البلاد إلى أن انفصلت الباكستان عنها فانتقل إلى الإقامة فى الدولة المسلمة الجديدة واكتسب جنسيتها وأصبح مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة حتى عام ١٩٥٣م.

وقد ترك عدة كتب تُرْجم بعضها إلى العربية، منها (الطريق إلى مكة)، و(الإسلام فى مفترق الطرق)، و(منهاج الحكم فى الإسلام)، وله ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم، اسمها The Message of the Quran، وله ترجمة لقسم من صحيح البخارى بعنوان Sahih al-Bukhari- The Early Years of Islam، وبقية سيرته الذاتية، وعنوانها Coming Home of the Heart

قال: فلا تحتاج إلى أن نتحدث عنه إذن؟

قلت: لا.. بل أحتاج إلى ذلك.. فليس الخبر كالعيان.. فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في باكستان، وقد سألته عن طريقه للإسلام، فسرد لي أكثر ما ذكره في كتابه (الطريق إلى مكة)[1]

لقد بدأ بأفغانستان شتاء ١٩٢٦.. قال: كنت فى طريقى راكبا من هرات لكابول بصحبة إبراهيم، ودليل أفغانى الجنسية، نسير خلال جبال مدفونة مغطاة بالجليد، ووديان وطرق فى (هندو- كش) فى وسط أفغانستان، كان الطقس باردا والجليد يتألق، وتقف على كل الجوانب جبال بيضاء، وأخرى سوداء.

كنت حزينا، وفى نفس الوقت بشكل غريب كنت سعيدا هذا اليوم!أما حزنى، فقد كان لأن من كنت

(١) ما نذكره هنا منقول من كتابه (الطريق إلى مكة) من صفحة ٢٩٥ إلى ٣١١ بتصرف يقتضيه المقام.

أعيش معهم فى الشهور السابقة، كانوا محجوبين ببلادة، عن حقيقة النور، والقوة، والتقدم، الذى يعطيه لهم إيمانهم، وفى نفس الوقت كانت سعادتى، بأن هذه الحقيقة والنور، والقوة والتقدم، فى متناول يدى تقريبا الآن، وأمام عينى، كهذه الجبال الشامخة البضاء والسوداء التى أمامى.

بدأ حصانى يعرج وكأن شيئا فى حافره، ووجدت أن الحدوة الحديدية أصبحت معلقة فقط بمسمارين.

سألت رفيقنا الأفغانى، هل هناك قرية قريبة نجد فيها حدادا؟

فقال: نعم، قرية (ديهزانجى) التى تقع على بعد أقل من ثلاثة أميال، يوجد بها حداد هناك، وبها قصر حاكم (هزرجات)

وهكذا اتجهنا إلى هذه القرية، وتمهلنا فى المسير حتى لا نرهق الحصان.. لقد كان حاكم المنطقة قصير القامة، وكان مرح الطلعة، ودودا، وكان سعيدا أن يستضيف أجنبيا عنده فى قصره البعيد عن العمران، والمتواضع. وقد كان هذا الحاكم قريبا للملك (أمان الله)، ومن المقربين له.. وقد كان من أكثر من قابلت تواضعا فى أفغانستان، وقد أصر على بقائى فى ضيافته ليومين.

وفى مساء اليوم الثانى، جلسنا كالعادة لعشاء دسم، وبعد العشاء حضر رجل من القرية ليطربنا بأغان شعبية، مصطحبا قيثارة بثلاث أوتار، وكان يغنى بلغة الباشتو التى لم أفهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية كانت تخللها بوضوح، فى الغرفة الدافئة المغطاة بالسجاجيد، بينما وميض الثلج البارد يظهر من خلال النوافذ. أتذكر أنه كان يغنى عن المعركة بين داوود وجالوت، وبدأها بنغمة متواضعة، ثم تدرجت إلى بعض العنف، وانتهت بروح الإنتصار.

وبعد أن انتهت، قال الحاكم: إن داوود كان شابا، ولكن إيمانه كان قويا...

و لم أتمالك من التعليق، فقلت: كذلك أنتم.. كثيرون، ولكن إيمانكم ضعيف.

نظر إلى المضيف بدهشة، وارتباك لما تطوعت وذكرته، فأسرعت لأوضح قولى، وأخذ توضيحى شكل سيل من الأسئلة.. لقد قلت: لماذا فقدتم أنتم المسلمون ثقتكم بأنفسكم، التى فى القديم ساعدت على نشر الإيمان بالإسلام فى أقل من مائة عام، من الجزيرة العربية غربا إلى المحيط الأطلسى، وشرقا فى العمق إلى الصين، والآن تستسلمون بضعف إلى الأفكار والعادات الغربية؟.. لماذا لا تستطيعون أنتم يا من كان أباؤكم الأوائل أناروا العالم بعلمهم وفنهم، بينما كانت أوروبا تغض فى بربرية وجهل مدقع، فلتعملوا من الآن على أن تعودوا لإيمانكم الخلاق؟.. كيف أن هذا الأتاتورك التافه، الذى ينكر كل قيم الإسلام قد أصبح عندكم رمزا لإحياء الإسلام؟

استمر مضيفى فى صمته، وبدأ الجليد ينهمر فى الخارج، ومرة ثانية غمرنى الشعور المزدوج بالحزن والسعادة، الذى انتابنى حينما اقتربت من (ديهزانجى).. لقد أحسست بالفخار لما قد كان، وبالخجل لما عليه أبناء حضارة عظيمة.

قلت لمضيفي: هل لك أن تدلنى كيف أن الإيمان الذى دلكم عليه نبيكم، وكل هذا الوضوح والبساطة، قد دفنت تحت أنقاض الثرثرة المتحزلقة، والشجار بين علمائكم؟.. كيف أن أمراءكم والإقطاعيين يعيشون فى

رفاهية، بينما إخوانهم من المسلمين، يذوقون الفاقة والفقر المدقع، فى حين أن نبيكم يقول أنه (لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع)؟.. هل لك أن تشرح لى كيف نبذتم النساء خلفكم، بينما نساء الرسول ﷺ وصحابته كن يشاركن الرجال فى أمورهم الهامة؟.. كيف وصل الحال بكم أنتم المسلمين إلى الجهل والأمية، فى حين يقول نبيكم أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، و(فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر النجوم)؟

ظل مضيفى يحملق فى دون كلام، وابتدأت أشعر أن ملحوظاتى قد أحبطته، أما الرجل ذو القيثارة الذي كان لا يعرف الفارسية بدرجة تجعله يتتبع كلامى، فقد أخذ يتعجب من هذا الغريب الذى يتكلم بهذه النغمة مع الحاكم.

وفى النهاية، أخذ الحاكم رداءه المصنوع من جلد الغنم وتدثر به، كما يكون قد أحس بالبرد!وهمس لى:« لكنك أنت مسلم »

أخذنى الضحك، وأجبت: لا، أنا لست مسلما، ولكنى ألممت ببعض القيم فى الإسلام التى تجعلنى أغضب فى بعض الأحيان، كيف أنكم أنتم أيها المسلمون تضيعونها، اعذرنى إذا كنت قد أسأت فى الكلام، أنا لا أتكلم معك كعدو.

لكن مضيفى هز رأسه قائلا:« لا.. فكما قلت لك، أنت مسلم، ولكنك لا تعرف نفسك.. لماذا لا تنطق الآن، وهنا بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتصبح مسلما فى حقيقة الأمر، فإنك مسلم قلبيا.. قلها يا أخى، قلها الآن، وسأصطحبك غدا لكابول لملاقاة الأمير، الذى سيستقبلك بذراعين مفتوحتين كشخص مثلنا، سيمنحك منازل وحدائق وأغنام، وسيحبك، قلها يا أخى.. »

قلت: إذا قلت ذلك، سيكون نتيجة لأن عقلى قد استراح، وليس نتيجة لأن الأمير منحنى المنازل والحدائق.

لكن مضيفى أصر قائلا: أنت تعرف كثيرا عن الإسلام ز ربما أكثر من بعض المسلمين، ما هو الذى ما زلت تريد أن تعرفه؟

قلت: المسألة ليست مسألة فهم، إنها مسألة إقتناع، الإقتناع بأن القرآن الكريم هو فعلا كلمة الله، وليس مجرد كلمات من شخص نابه ذكى ذو عقلية متفوقة.

لكن كلمات صديقى الأفغانى أخذت تراودنى و لم تتركنى لشهور عدة.

أكملت رحلتى عبر أفغانستان عائدا مرة ثانية إلى هرات التى كنت قد ابتدأت منها، وكنا نقترب من الشتاء عام ١٩٢٦، وهكذا تركت هرات فى المرحلة الأولى لطريق العودة للوطن، مستقلا القطار من الحدود الأفغانية إلى (ماف) فى التركستان الروسية، ثم إلى سمرقند، ثم إلى بخارى ثم إلى طشقند.. ومن ثم مارا بسهول التركمان إلى جبال الأورال، ثم موسكو.

وهالنى الدعاية والمعلقات التى تهاجم الدين والألوهية أينما أحل أو أرتحل[1]، وسأتوقف عن ذكرها لأنها

(١) كتب ذلك في عهود الشيوعية.

مقززة.

وبشعور بالراحة، عبرت الحدود البولندية بعد أسابيع أمضيتها فى آسيا، وروسيا الأوروبية، واتجهت مباشرة لفرانكوفرت حيث الجريدة التى أعمل بها حيث استلمت عملى.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه أثناء غيابى، أصبح اسمى مشهورا، وأنى الآن أعتبر من المراسلين المرموقين فى وسط أوروبا، فبعض مقالاتى ــ خصوصا تلك التى تناولت النفسية الدينية المعقدة للإيرانيين ــ والتى قد جاءت نتيجة لملاحظات علماء شرقيين بارزين، واستقبلت أكثر من أنها معارف عابرة.

ونتيجة لأهمية هذا الإنجاز، فقد دعيت لإلقاء مجموعة من المحاضرات فى أكاديمية الجغرافيا السياسية ببرلين – حيث قيل لى أنه لم يسبق أن حدث من قبل أن شخصا فى حداثة السن مثلى ــ حيث كنت حينئذ فى السادسة والعشرين ــ قد منح هذا الإمتياز، كما قمت بتدبيج مقالات أخرى عامة بتصريح من مجلة (فرانكفورت زيتنج)، فى صحف أخرى ؛ وقد أعيد طبع إحدى المقالات كما أعلم ثلاثون مرة تقريبا، وبمعنى آخر، فإن رحلاتى الإيرانية قد أثمرت.

وفى هذا الوقت تزوجت (إلسا).. فالسنتان اللتان أمضيتهما فى الخارج، لم يضعفا من حبنا البعض، بل زادته قوة، وبسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل، استقبلت تعليقاتها على الفرق الكبير فى السن بيننا.

قالت: ولكن كيف تتزوجنى؟، بدأت فى النقاش معى، قالت: أنت لم تصل بعد للست والعشرين عاما، وأنا فوق الأربعين، ألا تفكر فى ذلك، حينما تصل للثلاثين، سأكون أنا فى الخامسة والأربعون، وحينما تصل أنت للأربعين، سأكون امرأة عجوزا.

أخذت فى الضحك، وقلت: وما فى ذلك؟، إننى لا أرى مستقبلا بدونك.

وأخيرا سلمت للأمر.

لم أبالغ حينما قلت لها: إننى لا أرى مستقبلا بدونك.. جمالها.. ورقتها الفطرية، جذبتنى إليها بحيث لا أرى أى امرأة أخرى ؛ وحساسيتها فى فهم ماذا أريد من الحياة أضاء أمالى، ورغباتى، وأصبحت من الصلابة بمكان وأكثر إدراكا، وطغت على تفكيرى فى ماذا أعمل ؟

فى أحد المناسبات – بعد حوالى أسبوع من زواجنا، أبدت لى هذه الملاحظة، لقد قالت لي: كم أنت غريب الأطوار عن كل الناس؟ يجب عليك أن تخفض من الروحانيات فى الدين.. أنت صوفى الترعة.. حساس فى صوفيتك.. تشير بأصابعك إلى ما حولك فى الحياة، ولك رؤية متعمقة روحانية فيما يدور حولك يوميا من أشياء، بينما تمر مثل هذه الأشياء على الآخرين بلا اكتراث.. ولكنك حينما تتجه إلى الدين، فكلك تركيز.. مع الناس الآخرين فالوضع بالعكس تماما..

لكن إلسا لم تكن فى حيرة، فهى تعلم عما أبحث حينما أتكلم معها عن الإسلام ؛ وبالرغم من أنها لم تكن فى نفس درجتى من الإضطراب، إلا أن حبها لى جعلها تشاركنى تساؤلاتى.

كثيرا ما كنا نقرأ القرآن سويا، ونتناقش أفكاره ؛ وكانت إلسا كما كنت أنا، معجبين بالتماسك الداخلى بين تعاليمه الأخلاقية، وإرشاداته العملية. فاستنادا إلى القرآن الكريم، فالله لم يدع الإنسان إلى أن

يتضرع إليه معصوب العينين، بل لابد له أن يعمل عقله ؛ لم يتنح الله بعيدا عن الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد ؛ لم يخط الله خطا فاصلا بين الإيمان والسلوك الإجتماعى.

والشئ الذى يعتبر فى غاية الأهمية، أن الإسلام لم يبدأ من بديهية أن الحياة محملة بالصراع بين الروح والجسد، وأن النجاة هى فى تحرير الإنسان من قيود الجسد.. كل مظهر من مظاهر أنكار الحياة، وتحقير الإنسان لنفسه، أدانها الإسلام فى أحاديث لرسول الله ﷺ.. مثل ما ورد في حديث الثلاثة الذين قال لهم رسول الله ﷺ:« من رغب عن سنتى فليس منى »

فالإنسان مطالب بأن يعيش حياته كاملة وبشكل إيجابى، فما منحت غرائزه إلا لتؤدى ثمرها، ولكن ليستخدمها بطهر وأخلاق وفى محلها الصحيح. ومن التعاليم للإنسان: أنه ليس لك فقط أن تعيش حياتك، بل المفروض عليك أن تعيشها بكل أبعادها.

صورة متكاملة للإسلام تنبثق فى ذهنى وبشكلها النهائى وبتحديد، مما أدهشنى، أحيانا كانت تتشكل فى عملية من الممكن أن أسميها تفاعلات ذهنية، وبدون وعى منى، فقد بدأت تتجمع من أجزاء متفرقة ومنتظمة، فإذا وضعت هذه المتناثرات بعضها إلى بعض، رأيت نظاما هندسيا دقيقا، أخذ ذهنى يجمعه فى السنوات الأربع الماضية، لأرى بناء كل عناصره متناسقة منسجمة، تتجمع لتتمم وتعاضد بعضها البعض، لا شئ فيه ينقصه، ولا شئ يزيد عن متطلباته متزن وهادئ، يعطى الإنطباع بأن مسلمات الإسلام كلها فى وضعها الصحيح.

منذ ثلاثة عشر قرنا مضت[1]، وقف رجل يقول :« ما أنا إلا رجل هالك، ولكن الذى خلق الكون أوحى إلى أن أحمل رسالته لكم، حتى تعيشوا منسجمين مع كل خلقه، وقد أمرنى بأن أذكركم بوجوده إلها له كل القدرة وكل العلم، وقد وضع لكم منهاجا للسلوك الصحيح، إذا قبلتموه فلتتبعونى.. هذا كان هو الرسول محمد ﷺ، وهذه كانت رسالته.

النظام الإجتماعى الذى أعلنه، كان من البساطة التى تربط مفرداته بالعظمة الحقيقية، بدأ بالتسليم بأن الإنسان كائن حى له متطلبات حيوية، وهذه المتطلبات تخضع للحل والحرمة اللذان يقرهما الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان اجتماعى بطبعه يحتاج إلى مجتمع يحيط به، ولكى يحقق إحتياجاته الثقافية والأخلاقية والطبيعية، فلابد أن يعتمد كل على الآخر.

إن ازدهار القوام الروحى للإنسان ــــ وهو هدف كل الأديان ــــ يعتمد عما إذا كان يتلقى دعما وتشجيعا وحماية له ممن حوله.

هذا التكافل الإجتماعى يظهر سبب اهتمام الإسلام بالنواحى العامة الإقتصادية والسياسية، ولا ينفصل عنها، ولتنظيم علاقات إنسانية بطريقة عملية بحيث لو قابل أى فرد بعض العقبات، يجد التشجيع اللازم لتنمية شخصيته: هذا، ولا شئ آخر، يبدو أنه هو مفهوم الإسلام للوظيفة الحقيقة للمجتمع.

وهكذا كان من الطبيعى أن التشريع الذى أتى به سيدنا محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرون عاما من مبعثه لا يرتبط فقط بالنواحى الروحية، بل يمتد ليشمل الإطار لكل الأفراد وللمجتمع أيضا. يشمل ليس فقط مفهوم

---

(١) بناء على الوقت الذي يؤرخ له المؤلف.

النقاء الفردى، ولكن يتضمن المجتمع العادل الذى يؤدى هذا النقاء إليه، كذلك يتضمن الخطوط العريضة للمجتمع السياسى، أما التفاصيل فمتروكة للتطورات التى تحدث مع الزمن المتغير، كما يحدد حقوق الأفراد وواجباتهم نحو المجتمع اذى يعيشون فيه آخذا بعين الإعتبار حقيقة ما يجد من أمور.

الشريعة الإسلامية تتضمن كل مناحى الحياة، أخلاقية، طبيعية، فردية، اجتماعية، العلاقة بين الجسد والروح والعقل، الجنس، الإقتصاد، كل ذلك جنبا إلى جنب، مع اللاهوت والعبادة، كل أمر من الأمور له وضعه فى تعليمات النبى ﷺ، ولا شئ يخص الحياة ينظر إليه على أنه تافه ليخرج من دائرة التصور الدينى.. ليس حتى مثل هذه القضايا الدنيوية، كالتجارة، والميراث، وحق الملكية، وامتلاك الأراضى.

كل مفردات الشريعة وضعت للانتفاع المتساوى بين أفراد المجتمع، بدون تمييز بين مكان المولد والأعراق والجنس أو ولاء اجتماعى سابق.. لا منافع خاصة حجزت لمؤسس المجتمع أو أحفاده.. لا توجد طبقات عليا وطبقات دنيا فى المفهوم الإجتماعى، ليست من مفردات القاموس الإسلامى ؛ ولا أثر لها فى الشريعة الغراء.. كل الحقوق والواجبات والفرص، موزعة بين أفراد المجتمع المؤمن بالتساوى.

لا يوجد كهنة بين الله والإنسان، لأن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، لا ولاء إلا لله ورسوله، وبأمر من الله للوالدين، وللمجتمع المسلم المنوط بتحقيق مملكة الله على الأرض ؛ وبذلك فلا يجوز الذى يعلى كلمة (بلادى أو أمتى)، ولتوضيح هذا المفهوم، فإن رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة، قال بوضوح :« ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية »

كل المنظمات قبل الإسلام.. حتى الدينية أو شبه الدينية.. كانت تنهج المفهوم الضيق للعصبية القبلية والعشائرية، فمثلا الملوك المتألهين، الفراعنة فى مصر، لا يفكرون إلا فى أضيق الحدود التى يعيش فيها المصريون ؛ وحتى إله بنى إسرائيل فهو إله فقط للشعب المختار، بالعكس فالمفاهيم المستقاة من القرآن الكريم ترفض رفضا باتا التمسك بالعشيرة أو القبيلة.

الإسلام افترض مجتمعا سياسيا بعيدا عن الإنقسامات العرقية والقبلية، وفى هذا المجال فإن الإسلام والنصرانية يتفقان فى الدعوة العالمية بعيدا عن القبلية[1]، وفى حين أن النصرانية قد حددت نفسها فى مفهوم (اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، إلا أن مفهوم الإسلام أوسع من ذلك، فقد دعا كل الأمم أن يكون الولاء لله فقط.

---

(١) هذا من حيث الواقع.. أما في الجانب النظري فإن النصرانية في أصلها دين خاص ببني إسرائيل كما ورد في النصوص الكثيرة في الكتاب المقدس، فالمسيح عندما أرسل تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود كرر لهم الوصية في أن يقصروا الدعوة على اليهود، بل إنه حذرهم من دخول مدن الأمم الأخرى، ولو كانوا جيراناً لليهود، وقد ذكر إنجيل متى (١٠: ٥) ذلك، فقال:« هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »

ليس ذلك فقط.. بل إن المسيح لما بدأ الدعوة إلى الله أعلن أنها قاصرة على بني إسرائيل، ولا تمتد إلى غيرهم، لذلك تجده يقول في متى (١٥: ٢٤):« لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »، فـ (إلا) أداة للحصر، وهي تدل على انحصار رسالة المسيح ضمن الشعب الاسرائيلي.

وبذلك.. لتحقيق ما لم تحققه النصرانية.. فقد أضاف الإسلام منظورا آخر فى تطوير الإنسان .. لقد دعا إلى مجتمع مفتوح عقائديا، بالمقارنة مع المجتمعات المغلقة التى نشأت فى الماضى ، عرقيا، وجغرافيا.

لقد أعطت رسالة الإسلام تصورا ومنحت البشرية حضارة لا مكان فيها للقومية، لا مصالح شخصية، لا طبقية، لا كنيسة، لا كهنة، لا طبقة نبلاء متوارثة، فى الحقيقة، لا شئ متوارث على الإطلاق.

ومن أهم الميزات فى هذه الحضارة.. ميزة لم توجد فى أى تحركات للإنسان عبر التاريخ.. إنما نشأت عن قناعة واتفاق تطوعى بين معتنقيها والله.

هنا التقدم الإجتماعى.. مخالف عما حدث فى المجتمعات الأخرى.. لم يحدث نتيجة لضغوط، ومقاومة لهذه الضغوط، نتيجة للمصالح المتعارضة، ولكن كجزء لا يتجزأ من تعليمات أصيلة. وبكلمات أخرى، هناك عقد إجتماعى متأصل فى النفوس، يسيطر على جذور الأعمال.. ليس نتيجة أوامر صاغها من بيدهم الأمر دفاعا عن مكتسباتهم.. بل حقيقة متأصل جذورها فى الحضارة الإسلامية.

فقد ذكر القرآن الكريم :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:١١١)

عرفت من تتبعى لقراءة الحضارة الإسلامية أن هذا العقد الذى سجله التاريخ.. قد تحقق لفترة وجيزة جدا، أو بالأحرى فخلال فترة وجيزة جدا كانت هناك محاولات جادة لتحقيقه فيما أقل من قرن بعد موت النبى ﷺ، النظام النقى للإسلام بدأ فى الفساد السياسى، ودفع فى القرون التالية إلى الخلف، ظهرت التطلعات العشائرية لامتلاك القوة بديلا عن الرأى الحر للرجال والنساء، الملكية الوراثية بديلا عن المفهوم السياسى فى الإسلام كنوع من الشرك فى المفهوم الإسلامى.

ومع هذا أيضا ظهرت الدسائس والصراعات القبلية والظلم، واضمحلال الوازع الدينى، والمهانة فى خدمة من بيده السلطة.. باختصار حلت المصالح الشخصية التى عرفت فى التاريخ.

ولوقت من الزمن حاول علماء ومفكرون عظام، أن يعيدوا للإسلام رونقه ويذكروا الناس بمفاهيمه النقية، ولكن جاء من بعدهم أقوام دأبوا على تقليد الأجيال السابقة، وانتكسوا بعد قرنين أو ثلاثة قرون، وتوقفوا عن التفكير لأنفسهم متناسين أن كل عصر يختلف عن سابقه، وكل عصر له احتياجاته الخاصة التى تحتاج إلى التجديد.

لقد كان الدفع الأصلى للإسلام فى بدايته عظيما، ورفع الأمة الإسلامية إلى مستويات عالية من الثقافة والحضارة العظيمة.. حتى أن المؤرخين يسمون ذلك العصر الذى تحقق، بالعصر الذهبى للإسلام، من الناحية الأدبية، والفنية، والعلمية، والثقافية، ولكن بعد ذلك العصر بقرون بسيطة خمد الحافز الإيمانى الذى كان يغذى هذا التقدم، وأصبحت الحضارة الإسلامية راكدة، ومجردة من قوتها المبدعة.

سألته: لم تتأثر التاريخ الإسلامي إذن، وما حصل فيه من نكسات؟

قال: مثلما لم أتأثر بالتاريخ لم أتأثر بالوضع الحالى للعالم الإسلامى.. فالسنوات الأربع التى قضيتها فى

البلدان الإسلامية، أوضحت لى، بأنه بالرغم من أن الإسلام ما زال حيا، كما هو فى عيون العالم، يؤثر من الناحية الأخلاقية فى أتباعه، غير أنهم قد أصابهم الشلل، بحيث لم يترجموا مبادئه إلى عمل مثمر.

لكن ما شد انتباهى، بعيدا عن حالة المسلمين فى عهدنا هذا، هو القوة الكامنة فى تعاليم الإسلام نفسه، لقد كان كافيا لى أن أعلم أنه فى مدة قصيرة فى بداية التاريخ الإسلامى، محاولة ناجحة قد تمت لتطبيق هذا النظام إلى عمل ؛ وبالتالى، ما كان ممكنا فى وقت من الأوقات، يظل ممكنا فى غيره من الأوقات. ماذا يهم.. قلت لنفسى.. إن كان المسلمين قد انحرفوا عن تعاليم دينهم الأصلية، وركنوا إلى الكسل والجهل؟.. ماذا يهم إذا كانوا لا يأخذون بالتعاليم المثالية التى أمامهم، والتى جاءت على لسان النبى ﷺ منذ ثلاثة عشر قرنا مضت.. إذا كانت هذه التعاليم ما زالت متاحة للجميع ولكل من يرغب ليستمع إليها؟

ربما نكون.. أخذت أفكر.. نحن المتأخرين أشد حاجة لهذه الرسالة من المسلمين فى عهد رسول الله ﷺ.. لقد عاشوا هم فى مناخ أبسط بكثير من المناخ الذى نعيش نحن فيه، وكانت مشاكلهم والصعوبات التى يواجهونها أبسط من تلك التى نواجهها، وتحتاج إلى حلول غير معقدة كما نواجه.

العالم الذى أعيش فيه.. كل العالم الآن.. يتململ لعدم وجود أية قواعد روحانية تفصل بين الخير والشر، وبالتالى، اقتصاديا واجتماعيا.

لا أعتقد أن الإنسان الفرد فى حاجة إلى خلاص، بل المجتمع هو الذى فى حاجة إلى مخلص[1].

أكثر من أى وقت مضى، أخذت أشعر بيقين متزايد، أن وقتنا هذا فى أشد الحاجة إلى قاعدة أيدلوجية، وإلى عقد إجتماعى جديد: فى حاجة إلى الإيمان بالله، وتفهم مدى الفراغ الذى يحدثه التقدم المادى فقط.. ومن ثم نعطى الحياة حقها ؛ كيف نوازن بين احتياجات الروح والجسد، ويكون فى ذلك الإنقاذ من كارثة محققة نسرع إليها متهورين.

سكت قليلا، ثم قال: غنى عن القول أن الإسلام شكلا أمرا ذا أهمية كبيرة لي في ذلك الوقت بحيث شغل تفكيرى أكثر من أى شئ آخر.

وفي ذلك الحين عهدت إلي جريدتى بكتابة كتاب له علاقة بوظيفتي.. لكني بسبب سيطرة التفكير في الإسلام على عقلي وكياني لم أستطع إكمال ما بدأته من الكتاب.

فى البداية كانت نظرة دكتور سيمون ـــ مديري ـــ متساهلة، لترددى فى الإستمرار فى إنهاء الكتاب، فقد عدت من رحلة طويلة تستحق نوعا من الأجازة، وزواجى الحديث يعطينى بعض الحق فى التراخى فى الكتابة الروتينة، ولكن حينما تماديت فى التراخى، ونظرا لأن دكتور سيمون يتحمل المسئولية عن الكتاب، فقد طلب منى أنه قد حان الوقت لأنزل إلى الأرض.

فى الماضى، كنت أرى أنه متفهم للوضع، ولكنى الآن أرى غير ذلك. ملاحظاته المستمرة، وتساؤلاته اللحوحة عن تقدمى فى تحرير الكتاب، أدت أثرها المعاكس لما كان ينشده، فقد شعرت بأن الأمر مفروض على مما جعلنى أمقت فكرة الكتاب نفسها.

---

(١) وطبعا لا يمكن تخليص المجتمع إلا بتخليص الفرد.

فى نهاية الأمر قال لي دكتور سيمون هذه الملاحظة: أعتقد أنك لن تنتهى من الكتاب البتة، أنت تعيش فى داخلك فى رعب ما.

وكالململدوغ رددت عليه: ربما المرض الذى أعانيه أكثر من الرعب.

قال لي بحدة: إذا فما دمت فى هذا العناء، فهل تعتقد أن الصحيفة هى المكان المناسب لك؟

كلمة منه وكلمة منى، تحول الأمر إلى شجار، وفى نفس اليوم قدمت استقالتى من الصحيفة، وبعد أسبوع سافرت أنا وإلسا إلى برلين.

لم أكن بالطبع أنوى ترك الصحافة، فقد كانت جزءا من راحتى النفسية وسعادتى فيها وفى الكتابة.. بعدت عنهما مؤقتا نتيجة للكتاب.. وكيف لا؟ وهى التى أعادتنى للعالم الإسلامى، وهذه العودة كنت حريصا عليها بأى ثمن.

ولكن بالنسبة للشهرة التى اكتسبتها فى الأعوام الأربعة الماضية، لم يكن من الصعب علي العودة إلى الصحافة ثانيا، فبسرعة جدا حصلت على عقد مجز ومريح مع ثلاثة صحف بزيورخ، وبالرغم من أنها لم تكن فى مستوى الصحيفة السابقة إلا أنها كانت من الصحف الشهيرة بأوروبا.

ومنذ ذلك الحين، بقيت أنا وإلسا فى برلين، لأكمل محاضراتى عن الإسلام فى أكاديمية الجغرافية السياسية.

أصدقائى الأدباء السابقين فرحوا بعودتى لهم، ولكن لم تكن العلاقة الجديدة فى نفس المتانة التى تركتهم بها قبل سفرى للشرق الأوسط، فقد صارت لغتنا الثقافية مختلفة عما سبق. وبالتحديد، لم أكن أستطع استخراج أية معلومات من مناقشاتى معهم عن الإسلام. كانوا يهزون رؤوسهم، بحيرة حينما كنت أقول لهم أن الثقافة الإسلامية يمكنها أن تنافس أيدلوجيات أخرى.

وبالرغم أنه فى بعض الحالات، كانوا يوافقون على رأى من هنا أو هناك من مفاهيم الإسلام، إلا أنهم فى العموم يقولون أن الأديان الماضية هى جزء من الماضى، وأننا فى حاجة إلى تجديد فى المفاهيم، ونظرة إنسانية جديدة.

وحتى أولئك الذين لا ينكرون أهمية المؤسسات الدينية لم يكونوا مستعدين للتخلى عن النظرة الأوربية للإسلام، بأنه يفتقد إلى الوضوح الذى يتوقع من الأديان.

وقد أدهشنى أن سمة الإسلام التى اكتشفتها من أول لحظة، وهى عدم وجود فصل بين الروح والجسد، وأن التأكيد على أن العقل هو الطريق للإيمان.. لم تكن واضحة عند المثقفين، الذين ما فتئوا يقولون بأن العقل هو المهيمن على كل شئ فى الحياة، فالعقلانية والواقعية ليس لهما مكان فى مجال الدين عندهم، وفى هذا الخصوص لم أجد فرقا بين هؤلاء المتدينين، وهؤلاء الذين طرحوا الدين وراءهم.

مع الوقت، فهمت أين تكمن فيهم هذه الصعوبة، فقد بدأت أدرك أنه فى عيون أولئك الذين يدورون فى مدار النصرانية بضغوطها على عالم (ما وراء الطبيعة) المتأصلة زعما فى كل تجربة دينية حقيقية.. فإنه من الدرجة الأولى فكل نظرة عقلانية، تكون سببا فى الإنتقاص من القيمة الروحية، وذلك ليس خاصا بمؤمنى النصارى فقط.

وذلك يرجع لطول العهد بالأوروبيين فى ظل النصرانية، فمن حيث لا يدرون وبلا شعور، تعلموا أن ينظروا للدين من خلا المنظار النصرانى، ومفاهيم النصرانية، ويعتبرون فقط أنها صحيحة إذا كانت مصحوبة بآثار الرهبنة والخشوع، بعيدا عن الفهم الثقافى.

الإسلام لا يحقق هذه الفرضية، فالإسلام يصر على التعاون بين السمات الروحانية والمادية للحياة، وذلك على قاعدة متينة طبيعية من المنهاج، فنظرته للحياة تختلف جذريا عن مفاهيم النصرانية، وهذه المفاهيم هى التى اعتمدها الغرب كأساس للحياة، وبذلك يقيسيون صلاحية الآخر بهذه المقاييس.

أما بالنسبة لى، فقد كنت أعرف أننى منجذب إلى الإسلام لا محالة، ولكن التردد جعلنى أؤجل القرار الأخير، القرار الذى لا رجعة فيه، فكرة إعتناق الإسلام، هى كرحلة على جسر طويل جدا بين عالمين مختلفين، جسر إذا وصلت لنهايته، فلن ترى بدايته.

كنت على بينة، بأنى لو أسلمت، فسأفصل نفسى عن العالم الذى نشأت فيه، لا دخل آخر سأعيش به، فلا يمكن لمن يجيب حقيقة دعوة الرسول ﷺ أن يبقى صلة داخلية مع المجتمع الذى يعيش على مفاهيم مغايرة.

فى أحد الأيام ــ كان ذلك فى سبتمبر ١٩٢٦ ــ كنت أنا وإلسا نستقل مترو الأنفاق فى برلين، كنا فى الدرجة الأولى. وقعت عينى بالصدفة على رجل أنيق، يظهر أنه من رجال الأعمال، ويحمل حقيبة جميلة على رجليه، وبيده خاتم كبير الحجم من الماس.

و لم يكن هذا المنظر للرجل غريبا فى هذه الأيام، وهو يعكس الرخاء الذى حل بوسط أوروبا، بعد سنوات التضخم التى قلبن الموازين رأسا على عقب، معظم الناس الآن يلبسون ثيابا جيدة، ويأكلون الطيب من الطعام، ولذلك فالرجل الجالس قبالتى ليسا بدعا فى ذلك.

لكنى عندما تحققت فى وجهه، وجدت الكآبة عليه!كان يظهر عليه القلق، وليس فقط القلق، بل التعاسة أيضا، عيونه تحملق إلى أعلى، وزوايا فمه تتحرك كأن به ألما، ليس ألما جسمانى، وحتى لا أتهم بالوقاحة فقد صرفت عينى عنه، لتقع على سيدة أنيقة، فوجدت أيضا التعاسة على وجهها، وكأنها عانت من شئ ما، ولكن الابتسامة على وجهها كانت ابتسامة متكلفة.

وهكذا بلا وعى أصبحت أتلفت حولى فى الوجوه التى بالمقصورة، لأرى أن الغالبية من الوجوه، تعكس عن معاناة مخبوءة فى العقل الباطن لهم، وهم لا يشعرون بذلك.

فى الحقيقة كان شيئا غريبا بالنسبة لى.. لم أر من قبل مثل هذا العدد من التعساء، وربما لأنه لم يسبق لى أن تفحصت مثل هذه الوجوه، لأجد هذه الظاهرة تصرخ بأعلى صوت فى وجوههم، الانطباع كان قويا في داخلى، حتى أننى ذكرته لإلسا، والتى بدأت هى الأخرى تجول فى الوجوه التعسة بعناية، وهى الرسامة المتعودة على كشف تعبيرات الوجوه البشرية.

التفتت نحوى مستغربة قائلة: أنت على حق، كلهم يظهر عليهم كأنهم يعانون من عذاب الجحيم.. أتساءل هل ياترى هل يدرون ما يدور فى نفوسهم؟

أنا أعرف أنهم بالطبع لا يعلمون شيئا عن ذلك، وإلا لأنقذوا أنفسهم من تضييع حياتهم فيما يتعسها، بلا

إيمان، وبعيدا عن الحقيقة، بلا هدف غير جمع الأموال، والثروة والجاه، ورفع مستوى معيشتهم، بلا أمل غير امتلاك وسائل للراحة أكثر، وأمور مادية أكثر، وامتلاك للقوة أكثر..

حينما عدنا للمترل، ألقيت نظرة على مكتبي، وعليه نسخة من القرآن الكريم، فأردت أن أضعها فى المكتبة، ولكنى بطريقة تلقائية فتحته لأقرأ فيه، فوقعت عيني على سورة التكاثر، فأخذت أقرأها:﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (سورة التكاثر)

فى تلك اللحظة انعقد لسانى عن الكلام، واهتز الكتاب فى يدي، وناولته لإلسا قائلا: إقرئى هذا.. أليست هذه هى الإجابة على ما شاهدناه فى مترو الأنفاق !؟

نعم إنها الإجابة.. نعم إنها الإجابة القاطعة، والتى أزالت أى شك عندى أن هذا الكتاب الذى بين يدى الآن هو وحى من عند الله العليم بالنفوس، فمنذ ثلاثة عشر قرنا أنزل على رجل لا يعلم دخائل النفوس، ولا يتوقع هذه الصورة التى رأيناها اليوم فى مترو الأنفاق، والوضع المعقد الذى نعيشه الآن.

فى كل الأوقات كان الجشع موجودا، ولكنه لم يكن فى وقت من الأقات من قبل بمثل هذه البشاعة.. كان مجرد رغبة فى امتلاك الأشياء.. ولكن أن يصبح ذلك هوسا يغطى على كل شئ آخر: شهوة لا تقاوم، لتعمل ولتدبر أكثر فأكثر، اليوم أكثر من أمس، والغد أكثر من اليوم.. شيطان يلوى أعناق الرجال ويلهب قلوبهم بالسياط لينفذوا مآربهم التى تبرق أمامهم، ولكن حين يصلوا إليها لا يجدوها إلا شيئا حقيرا، وما إن تقع فى أيديهم حتى يتطلعوا إلى مآرب جديدة أخرى براقة، ذات إغراء أكثر، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. هذا الجوع، والجوع النهم سيظل دائما موجود، لن يصلوا إلى الشبع مطلقا ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر:٥-٨)

الآن رأيت أن هذه ليست حكمة رجل فى التاريخ الغابر فى الجزيرة العربية مهما كان من الحكمة، فهو لن يتنبأ بالجحيم الذى نعايشه فى القرن العشرين.

لقد وجدت أن القرآن يتكلم بصوت أكبر من صوت محمد ﷺ.

سكت قليلا يستعيد ذكرياته، فجأة راح يقول بنشوة عظيمة: في ذلك الحين بحثت عن صديق لى مسلم، كان هنديا، رئيسا لمجموعة مسلمة فى برلين، وذكرت له أننى أريد اعتناق الإسلام.. مد يديه فى اتجاهى.. فوضعت يدي فيهما، ونطقت بالشهادتين، وبعد بضعة أسابيع أعلنت زوجتى إسلامها.

لقد اختصر للسائلين الكثيرين الذين طلبوا منه أن يحدثهم عن سر إسلامه، بقوله: (يجب أن أعترف بأنّني لا أعرف جواباً شافياً. لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصّاً من التعاليم، بل ذلك البناء المجموع العجيب المتراصّ بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقيّة بالإضافة الى منهاج الحياة العمليّة. ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فانّ الإسلام على ما يبدو لي، بناء تام الصّنعة، وكلّ أجزائه قد صيغت ليتمّم بعضها بعضاً ويشدّ بعضها بعضاً. فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هنالك نقص في شيء، فنتج عن ذلك كلّه ائتلاف متّزن مرصوص. ولعلّ هذا الشعور من أنّ جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد

وُضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي، وربّما كانت مع هذا كلّه أيضاً مؤثّرات أخرى يصعب عليَّ الآن أن أحلّلها)

ومنذ ذلك الحين سعى الى أن يتعلّم من الإسلام كلّ ما يقدر عليه: لقد درس القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، ودرس لغة الإسلام، وتاريخ الإسلام وكثيراً ممّا كُتِبَ عنه أو كُتِبَ في الردّ عليه، وقد قضى أكثر من خمس سنوات في الحجاز، ونجد ــوأكثر ذلك في المدينة ــ ليطمئنّ قلبه بشيء من البيئة الأصليّة للدّين الذي قام النبيّ ﷺ بالدعوة اليه فيها.

وبما أنّ الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار، فقد تمكّن من المقارنة بين أكثر من وجهات النظر الدينيّة والاجتماعيّة التي تسود العالم الإسلاميّ.

بعد سنوات من الانقطاع لدراسة الإسلام، صار علماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث، وبعد قيام باكستان اشتغل مديراً لدائرة (إحياء النظم الإسلامية) في البنجاب الغربيّة، ثمّ صار فيما بعد مندوباً مناوباً لباكستان في الأمم المتّحدة، وفي عام ١٩٥٣م استقال من منصبه، لينكبّ على الكتابة والتأليف. ومنذ عام ١٩٦٤ حتّى عام ١٩٨٠ يكون قد أنجز مشروع العمر، وهو ترجمة معاني القرآن، باسلوب عصريّ خاطب فيه العقل الأوروبي مباشرة بلغة يفهمها.

وقد أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) الذي أسلم هو الآخر، مجلّة الثقافة الإسلامية في حيدر آباد الدكن (١٩٢٧)، وكتب فيها دراسات وافرة في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، كما ترجم صحيح البخاري (١٩٣٥)، وألّف أصول الفقه الإسلاميّ، والطريق الى مكّة، والإسلام على مفترق الطّرق، ومنهاج الإسلام في الحكم، وشريعتنا هذه، وعودة القلب الى وطنه (مذكّرات)..وغيرها[1].

روجيه جارودي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روجيه جارودي)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم المفكر الفرنسي المعروف، وأحد كبار زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي، سابقًا، وهو رجل تتميز ثقافته بالعمق والشمولية، والرغبة الجادة في البحث عن الحق مهما كان الثمن الذي يكلفه.

وقد أتيح له منذ مطلع الأربعينات أن يحتك بالفكر الإسلامي والحياة الإسلامية، وقد ازداد هذا الاحتكاك بمرور الوقت، وتمخض عن اهتزاز قناعاته المادية وتحوله بالتدريج إلى خط الإيمان، الأمر الذي انتهى به إلى فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي، كما قاده في نهاية الأمر (أواخر السبعينات) إلى اعتناق الإسلام، حيث تسمى بــ(رجاء جارودي).

وقد كتب العديد من المؤلفات منها: (حوار الحضارات)، (منعطف الاشتراكية الكبير)، (البديل)، (واقعية بلا ضفاف)، وبعد إسلامه أنجز سيرة ذاتية خصبة وعددًا من المؤلفات، أبرزها: (وعود الإسلام)، فضلاً عن العديد من المحاضرات التي ألقاها في أكثر من بلد.

---

(١) انظر: الإسلام والغرب، الوجه الآخر، حسن السعيد.

قلت: لا شك أنك التقيت به، فقد كان له ــ مثلك ــ رحلات كثيرة، وهو يحضر المؤتمرات والندوات، ولا يقصر في ذلك.

قال: أجل.. لقد التقيت به مرات عديدة.. وفي كل مرة كنت أسمع شيئا جديدا، ولم أكن السائل بل كنت المستمع المتنصت.

في أحد تلك المؤتمرات سأله بعضهم قائلا: نسمع كلاما كثيرا عن الإسلام.. فما هو الإسلام؟

التفت روجيه إلى السائل، وقال: (إن الإسلام لم يعد ذلك (الكافر) في زمن الصليبيين أو الـــ (إرهابي) في حرب التحرير الجزائرية، ولم يعد ذلك الأثر في المتحف الذي يتفحصه المستشرق بعين العالم الاختصاصي بعاديات الحضارات، انطلاقاً من الحكم السبقي بامتيازية الغرب.. بل لم يعد أكثر من هذا، ذلك الانفجار العلمي المذهل الذي كان، عند الخروج من العصور الوسطى قد فتح الطريق ببساطة لعلومنا (الحديثة).. إنما الإسلام هو تلك الرؤية لله وللعالم وللإنسان، التي تنيط بالعلوم وبالفنون وبكل إنسان وبكل مجتمع مشروع بناء عالم إلهي وإنساني لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين، المفارقة والجماعة، التسامي والأمة)[1]

ثم استغرق في خشوع عظيم، وقال: (إن الله أكبر من أعظم الملوك، وإليه وحده يدان بالإجلال المطلق، فها هنا المبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه، بالصمود في وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة، الأساس الإلهي للمساواة بين جميع الناس من وراء أي تسلسل في المراتب الاجتماعية)[2]

ثم قال: (بفضل مبدأي الإسلام الأساسيين: مبدأ السلطة لله وحده وهو الذي يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية، ومبدأ الشورى الذي يستبعد أية وساطة بين الله والشعب، يزال، في آن واحد، أي استبداد مطلق يضفي القداسة على السلطة، ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهًا على الأرض)[3]

في مؤتمر آخر سأله بعضهم عن موقفه من الجهاد في الإسلام، فقال:(إن الجهاد الأكبر في الإسلام هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التي تجذب الإنسان بعيدًا عن مركزه. وهو ما يقوده، باجتذابه نحو رغبات جزئية، إلى أن يصطنع لنفسه (أوثانًا) وبالنتيجة يمنع عن الاعتراف بوحدانية الله. والانتصار على هذه (الوثنية) الداخلية أصعب كثيرًا أيضًا من الانتصار على المشركين في الخارج. ومازلنا نجد اليوم في هذا درسًا عظيمًا لكثير من (الثوريين) الذين يطمعون بتغيير كل شيء إلا أنفسهم. كما كان، فيما مضى، شأن الكثير من (الصليبيين)، الذين كانوا في القدس وفي أسبانيا (المراد استردادها)، أو ضد هنود أمريكا، يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزؤون منها بكل عمل من أعمالهم)[4]

سأله آخر عن اتهام الغرب للفتوح الإسلامية بكونها هجمات بربرية، فقال: (أسطورة أخرى ينبغي القضاء عليها: تلك التي أراد الاستعمار الفرنسي فرضها حين صوّر التوسع العربي بدءاً من القرن الميلادي الثامن على

---

(١) دعوة الإسلام، ص ٢٢.
(٢) دعوة الإسلام، ص ٣١.
(٣) دعوة الإسلام، ص ٣٦.
(٤) دعوة الإسلام، ص ٤٥.

أنه تدفق (الهمجية الآسيوية) على الغرب)[١]

ثم قال: (إن ما يطلقون عليه اسم (غزو إسبانية) لم يكن غزوًا عسكريًا. لقد كان عدد سكان إسبانية في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة و لم يزد عدد الفرسان العرب في الأراضي الإسبانية البتة على سبعين ألفًا وإنما لعب التفوق الحضاري دورًا حاسمًا)[٢]

(إن ما حققه العرب في إسبانيا يجعلنا نفكر في الحرب الثورية التي نهض بها ماو في الصين فقد جلبوا معهم نظامًا اجتماعيًا أعلى جدًا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر محررين. أولاً بإنقاذ الأقنان من وصاية ملوك القوط في عصر انحطاطهم. ثم بعدم امتلاكهم الأراضي – والقرآن يمنع ذلك – ولكن بالاكتفاء بالخراج)[٣]

(لماذا هبّ هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي؟ إن العامل الحاسم هو أن (العربي) قد جلب معه أشكالاً أعلى في مجالات التنظيم الاجتماعية وحتى الاقتصادية، ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير في عالم يقر نظام الرق وهو في حالة تفسّخ تام)[٤]

وعندما سئل عن سر انتشار الإسلام بقوة تفوق انتشار المسيحية، قال: (حدثني مبشر في كميرون وهو يائس فقال: (إن بعثاتنا تقدم المسيحية على نحو كما لو أن الله لم يظهر في صورة إنسان وإنما ظهر في صورة غربي). فكيف ندهش أمام تقدم الإسلام المذهل في أفريقية السوداء في عصر الاستقلال إعرابًا عن رفض المستعمر؟)[٥]

وعن الحضارة الإسلامية التي أعجب بها كثيرا قال: (افترى الاستعمار الإنكليزي والإسباني والفرنسي، بنتيجة الدور الذي قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراءً منهجيًا لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية)[٦]

(يقول (أناتول فرانس) في (الحياة الجميلة): سأل السيد (دوابوا) السيدة (نوزير) عن أشأم يوم في تاريخ فرنسة. ولكن السيدة (نوزير) لم تكن تعرف. فقال السيد (دوبوا): أنه يوم معركة (بواتيه) عندما تراجع العلم العربي، والفن العربي، والحضارة العربية، سنة ٧٣٢/ أمام همجية الفرنجة)[٧]

(إن ذاكرتي ستحتفظ دومًا بهذا النصّ الذي سبّب طردي من (تونس) سنة ١٩٤٥ بذريعة الدعاوة المضادة لفرنسة! فقد كان من المحظور تأكيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر إلى حدّ كبير على الحضارة الأوروبية

---

(١) حوار الحضارات، ص ٩٦.
(٢) حوار الحضارات، ص ٩٧.
(٣) حوار الحضارات، ص ٩٧.
(٤) حوار الحضارات، ص ١٠١.
(٥) حوار الحضارات، ص ٢٦٧.
(٦) حوار الحضارات، ص ٩٦.
(٧) حوار الحضارات، ص ٩٨.

حتى القرن الرابع عشر)[1]

(إننا نصطدم براي مبيّت استعماري قديم وجدت خلاصة كاريكاتورية عنه في كتاب كان متوافرًا في جميع مكتبات الجزائر سنة ١٩٤٥ وعنوانه: (كتاب السياسة الإسلامية)، وهو أشبه شيء بكتاب صلاة كامل للمستعمرين ومما جاء فيها خاصة: (أن العلم العربي الذي بلي ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود في العصر الوسيط!)[2]

(يوضح الكاتب (بلاسكو إيبانز) في كتابه (في ظل الكاتدرائية) أن انتعاش إسبانية لم يأت من الشمال، حيث القبائل البربرية، بل من الجنوب مع العرب الغزاة.. لقد استولى العرب خلال سنتين على ما بذل الآخرون لاسترجاعه منهم سبعة قرون. إن ذلك لم يكن فتحًا يفرض ذاته بقوة السلاح، بل كان مجتمعًا جديدًا يمدّ من كل جانب جذوره القوية)[3]

(إنما يدين (الغرب) بعصر النهضة للـــ(غزو) العربي الذي عرف كيف يخلق الشروط الفكرية اللازمة لتفتحه. وهذا الغزو قد جعل من الممكن، أولاً، ابنثاق الثقافات القديمة بدءً من الثقافة الهلينية.. بيد أن العرب لم يقتصروا على ذلك وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم في الثقافة العالمية)[4]

وفي أحد المؤتمرات النسوية سألته بعض النساء عن موقف الإسلام من المرأة، فقال: (إن القرآن، من وجهة نظر اللاهوتية، لا يحدّد بين الرجل والمرأة علاقة من التبعية الميتافيزيقية: فالمرأة في القرآن توأم وشريكة للرجل لأن الله خلق البشر ككل شي:﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذريات:٤٩) والقرآن لا يحمّل المرأة المسؤولية الأولى للخطيئة)[5]

(إذا نحن قارنّا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدّمًا لا مراء فيه ولا سيما بالنسبة لأثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة)[6]

(في القرآن تستطيع المرأة التصرف بما تملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية ولا سيما في فرنسا إلا في القرن التاسع عشر والعشرون. أما في الإرث فصحيح أن للأنثى نصف ما لذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر. المرأة معفاة من كل ذلك. والقرآن يعطي المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرنا)[7]

(في القرآن إقرار بتعدّد الزوجات. إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، كان موجودًا من قبل (وهو موجود

---

(١) حوار الحضارات، ص ٩٩.
(٢) حوار الحضارات، ص ١٠١.
(٣) حوار الحضارات، ص ١٠٢ – ١٠٣
(٤) حوار الحضارات، ص ١٠٣.
(٥) وعود الإسلام، ص ٧٨.
(٦) وعود الإسلام، ص ٧٨.
(٧) وعود الإسلام، ص ٧٨-٧٩.

كذلك في التوراة وفي الأناجيل)، وقد فرض عليه، على العكس، حدودًا مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في الإنفاق والمحبة والمعاشرة الجنسية، وهي قواعد إذا ما جرى تطبيقها بحرفيّتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلاً)[1]

(يحسن ألا ننسى بأن جميع ألوان الرّقّة في الحب والشفافية فيه.. على نحو ما ظهر في الغرب لدى شعراء التروبادور.. وفي قصائد دانتي.. من أصول عربية إسلامية)[2]

بربارا براون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (بربارا براون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتبة أمريكية اعتنقت الإسلام في التسعينات.

قلت: فهل التقيت بها؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، ومن جوابها لي عن سر اعتناقها الإسلام، قالت: لقد نشأتُ كمسيحيّة وترعرعتُ في كنف طائفة بروتستانتيّة تُعرف بـــ (عقيدة المسيحية الاصلاحية) CHRISTIAN REFORMED FAITH.

ورغم الخلفية الدينيّة الشاملة من صلاة في الكنيسة مرتين كلّ يوم أحد وفي العطلات، وتعليم مسيحي خاص يوم الأحد، ومدارس صيفيّة لدراسة الكتاب المقدّس، ومعسكرات دينيّة، ودروس عقائديّة كنسيّة ومجموعات شباب مسيحيّة، فقد وجدتُ نفسي أواجه أسئلة عديدة، بخصوص أُسس عقيدتي، لم يستطيع أي شخص ولا أيّة طريقة من التعليم الدينيّ أن تجيب عليها.

ولمدّة سبع وثلاثين سنة، كنتُ تائهة في ضباب هذا الارتياب بخصوص الله والطريقة الصحيحة لعبادته حتّى استطعت في عام ١٩٩١م أن أكتشف الإسلام.

سكتت قليلا تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: لقد كان نزاع (عاصفة الصحراء) في الشرق الأوسط على أشدّه. وبجوار كتب استراتيجيّة الحروب والأسلحة في مكتبة محليّة، كان هناك كتاب صغير عنوانه (فَهمُ الإسلام) (UNDERSTANDING ISLAM)، وتصفّحت الكتاب بنفس فضول البعض، في ذلك الوقت، حول هذا الدّين (الغامض) من الشرق الأوسط، وتحوّل الفضول بسرعة الى اندهاش، عندما عرفتُ من خلال صفحات ذلك الكتاب أنّ الإسلام أعطاني الأجوبة لتلك الأسئلة التي كانت تنتابني طيلة تلك السنين.

لم أضيّع كثيراً في الوقت.. لقد أصبحتُ مسلمة.. وأخيراً فلقد توصّلتُ الى ذلك الهدف، وهو أن أكون في سلام داخلي نفسي بخصوص علاقتي مع الله.

التفت البابا إلي، وقال: وبما أنّ الله قد وهب هذه المرأة الفاضلة الإمكانيّة لأن تُعبّر عن نفسها وأفكارها ببلاغة، فإنّها حاولت أن تُخاطب الآخرين الذين يعانون من نفس تلك الشكوك التي تطوف في مخيّلاتهم بخصوص الدِّين؛ وكان الأمل الذي يحدوها هو كما ذكرت لي:(أنّني ربّما أستطيع أن أوجّههم نحو بعض الأجوبة، أنّ المادّة التي أقدّمها هنا يمكن أن تفاجىء البعض وربما تصدمهم عندما يقرؤونها، ولكن البحث عن

---

(١) وعود الإسلام، ص ٨٠.

(٢) وعود الإسلام، ص ٧٩.

الحقيقة ليس سهلاً، وخصوصاً في مواجهة العقائد والمبادىء التي اعتنقناها لآماد طويلة)

وفي هذا الاتجاه، بدأت عملها بكتابة بعض المقالات، وأبرزها مقالة بعنوان (ثلاثة في واحد: نظرة الى العقيدة المسيحيّة في التثليث)، وقد طُبعت في بداية عام ١٩٩٣، من قِبَل مدرسة شيكاغو المفتوحة THE OPEN SCHOOL OF CHIAGO

ومنها مقالة عنوانها (نظرة عن قرب نحو الدّيانة المسيحيّة)، وهي دراسة عن العقائد المسيحيّة.

ومنها مقالة عنوانها (حالة في الفساد)، وهي دراسة في تحريف النص في الكتاب المقدّس.

وفي آذار (مارس) ١٩٩٣م، أقدمت هذه الكاتبة الفاضلة على تجميع المقالات الآنفة الذكر مع بحوث اضافية، وطبعتها في كتاب صدر بالانجليزيّة عام ١٩٩٣م تحت عنوان: A CLOSER LOOK AT CHRISTLANITY وتُرجم الى العربية عام ١٩٩٥م، بعنوان (نظرة عن قرب في المسيحيّة)

وقد صدرت كتابها القيم بقولها: (أن نكون في سلام مع أنفسنا بخصوص الله: هذه ببساطة، هي الفكرة وراء هذا البحث كلّه)

ثم تقول:(إنّ الكثير منّا يعيش حياته راضياً بقبول الأشياء (كما هي)، فنضرب صفحاً عن الأسئلة الصغيرة المنكّدة والشكوك التي تتوارد على أذهاننا وخصوصاً في القضايا المتعلّقة بالدّين. نعم إنّنا نستطيع أن نمضي هكذا في رحلة الحياة، ولكنّنا لا نستطيع أبداً أن نصل الى تلك الحالة من السّلام داخل نفوسنا.

والبعض منّا، مع ذلك لا يكتفون أن يأخذوا الأشياء بسطحيّة، فيبحثون بجدّ عن أجوبة تلك الأسئلة التي تعترضنا في طريق الحياة. فنحن نضع موضع التساؤل عقائد آبائنا ولسنا مستعدّين لأن نقنع بالقبول الأعمى. وهذا الطريق ليس من السّهل أن نسير عليه بأي حال، ولكن المكافأة هي التي تستأهل منّا هذا الجهد)

وتختتم بقولها:(إنّي لآمل في الصفحات التالية أن تُتاح الفرصة للقرّاء ليُبصروا وجهة النظر حول المسيحيّة كما تيسّر لي أن أفهمها)

وفي حديثها عن مرحلة ارهاصات ظهور المسيح، قالت:(لأجل أن نفهم الرسالة الحقيقية للمسيح، يجب علينا أن نعود الى التاريخ قبل ظهور المسيح لنجد لماذا أُرسل المسيح أصلاً، لنخلص الى أنّ اليهود قد انحرفوا، مرّة أخرى، عن التوحيد، ولكنّ انحرافهم عن التوحيد في هذه المرّة قد تمّ تحت غطاء كثيف من الطقوس والشعائر المعقّدة. انّ هذا كان هو الموقف السائد في العالم عندما تلقّى عيسى دعوته من الله)

وعن رسالة المسيح السماويّة، وكيف طرأ عليها التغيير أو التحريف فجأة عندما ظهر على المسرح واعظ ادّعى بأنّه يتكلّم باسم المسيح، بعد سنوات قليلة فقط من رحيل المسيح. ذلك هو الشاب اليهوديّ شاؤول المولود في طرطوس، والعضو في طائفة يهوديّة تسمّى الفريسيين التي تتميّز بتمسّكها الأعمى بالمظاهر والطقوس:(وبالرغم من أنّ الديانة المسيحيّة تأخذ اسمها من عيسى المسيح، فانّ شاؤول الذي غيّر اسمه الى بولس يجب أن يُعتبر هو مؤسّسها الحقيقيّ.. والمسيحيّون لا ينكرون ذلك أيضاً.. ولكن هناك مشكلة كبيرة.. وهي أنّ تعاليم بولس ـــ المؤسس الحقيقي للمسيحيّة ـــ لا يمكن العثور عليها في أيّ مكان من تعاليم عيسى أو في تعاليم الأنبياء الذين سبقوه. ليس هذا فقط ولكنّ بولس لم يكن له إلاّ اتصال قليل مع الحواريين الحقيقيين

لعيسى والذين كان من الممكن أن يوجّهوه الى الطريق الصحيح. فهؤلاء لم يكونوا على وفاق مع تعاليم بولس المبتكرة وأخبروه بذلك كلّما كان ذلك ممكناً.

وفي النهاية، على أيّ حال، فإنّ نوع المسيحيّة التي نادى بها بولس إنّما أحرز فيها النجاح بفضل شخصيّته السّاحرة، إضافة الى حقيقة أنّه وأصحابه غلبوا الحواريين الحقيقيين لعيسى في أمور مهمّة كالوجاهة الاجتماعيّة والثروة والتعليم، ولذلك حصل على أتباع كثيرين من بين السكّان غير اليهود. فالمسيحيّة ــ اليهوديّة، أي عقيدة حواريي عيسى لم تكن لها أيّة فرصة للنهوض)

وفي حديثها عن البدع التي أدخلها بولس في ديانته المسيحيّة كالتثليث، والخطيئة، وإلوهيّة عيسى وموته، والخلاص انتهت إلى أنّ الإسلام هو الدين الحق، فهو دين بسيط ليس مدفوناً تحت تعقيدات غامضة وغير منطقيّة من العقائد، وليس في الإسلام كهنوت ولا قدّيسين ولا مراتب دينيّة ولا قرابين مقدّسة.. فاللاهوت لا مكان له في الإسلام[1]، لأنّ الإسلام طريقة حياة وليس حفنة من الكلمات.

ماريا ألاسترا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماريا ألاسترا) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكرة إسبانية، ولدت في الأندلس عام ١٩٤٩م، وحصلت على إجازة في الفلسفة وعلم النفس من جامعة مدريد، واعتنقت الإسلام عام ١٩٧٨م، وكانت تدير مركز التوثيق والنشر في المجلس الإسلامي، وقد كتب الله أن تختم حياتها بالشهادة في غرناطة عام ١٩٩٨م على يد حاقد إسباني بعد لحظات من إنجاز مقالها (مسلمة في القرية العالمية)

وكان مما كتبته في هذا المقال الذي ختمت به حياتها: (إنني أؤمن بالله الواحد، وأؤمن بمحمد نبياً ورسولاً، وبنهجه نهج السلام والخير ... وفي الإسلام يولد الإنسان نقياً وحراً دون خطيئة موروثة ليقبل موقعه وقَدره ودوره في العالم)

وورد فيه:(إن الأمة العربية ينتمي بعض الناس إليها، أما اللغة العربية فننتمي إليها جميعاً، وتحتل لدينا مكاناً خاصاً، فالقرآن قد نزل بحروفها، وهي أداة التبليغ التي استخدمها الرسول محمد ﷺ)

وفيه:(تُعد التربية اليوم أكثر من أي وقت آخر، شرطاً ضرورياً ضد الغرق في المحيط الإعلامي، فصحافتنا موبوئة بأخبار رهيبة، لأن المواطن المذعور سيكون أسلس قياداً، وسيعتقد خاشعاً بما يُمليه العَقَديّون)

مارجريت ماركوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارجريت ماركوس)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مفكرة أمريكية من أصل يهودي، أسلمت، وتمست بعد إسلامها مريـــــم جميلـــــة، وقد وضعت كتباً منها (الإسلام في مواجهة الغرب)، و(رحلتي من الكفر إلى الإيمان) و(الإسلام والتجدد) و(الإسلام في

---

(١) بمعناه المسيحي.
(٢) انظر: مقال (مسلمة في القرية العالمية) ترجمة صلاح يحياوي، مجلة (الفيصل) العدد (٢٩١) عام ٢٠٠٠م.
(٣) مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (مجلد٦/ ص١٩٩)

النظرية والتطبيق)

وقد ذكرت في هذه الكتب سر اعتناقها للإسلام، ومما جاء فيها:(لقد وضع الإسلام حلولاً لكل مشكلاتي وتساؤلاتي الحائرة حول الموت والحياة وأعتقد أن الإسلام هو السبيل الوحيد للصدق، وهو أنجع علاج للنفس الإنسانية)

وفيها:(منذ بدأت أقرأ القرآن عرفت أن الدين ليس ضرورياً للحياة فحسب، بل هو الحياة بعينها، وكنت كلما تعمقت في دراسته ازددت يقيناً أن الإسلام وحده هو الذي جعل من العرب أمة عظيمة متحضرة قد سادت العالم)

وفيها:(كيف يمكن الدخول إلى القرآن الكريم إلا من خلال السنة النبوية ؟! فمن يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن)

وفيها:(على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك ومن ضياع الأسرة)

روبرت بيرجوزيف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روبرت بيرجوزيف)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لأستاذ سابق للفلسفة بالجامعات الفرنسية، وله العديد من الكتب في مجال الفلسفة والتوحيد، وقد اعتنق الإسلام بعد دراسة جادة مضنية أوصلته إلى اقتناع كامل به كدين قائم على التوحيد.

قلت: هل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد من الله علي بذلك، وكان من جوابه لي عن سر إسلامه قوله: بلا شك أن الإسلام ــ وهو دين العلم والمعرفة ــ يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم به، ولا غَروَ في ذلك، فإن أول آية من القرآن الكريم هي قوله تعالى لرسوله الكريم:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:١)، والنبي الكريم يقول:« اطلبوا العِلمَ ولو كان في الصين »

قلت: فما علاقة هذا بإسلامك؟

قال: من تجاربي الشخصية وصلت إلى إيمان لا يتزعزع بأن الفرد الذي يخلص في أبحاثه للحصول على العلم في أي فرع من فروعه لخدمة المجتمع، ولخير البشرية جمعاء، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه خير الجزاء على كل ما يقدمه من خير لمجتمعه، فالله يقول في سورة الزلزلة:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة:٧)، وبالنسبة لي فإنني لم أكتف بدراستي الخاصة في الفلسفة، بل إنني حاولت في شتى فروع المعرفة، وخاصة في إثبات وحدانية الله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء في هذا الكون، الذي تهدده الحضارة المادية الإلحادية التي تكاد تقضي على كل ما توارثته الأجيال الماضية والحاضرة من تقدم وازدهار. فسلاح العلم وحده لا يُستخدم إلا في الخير والبناء، لا في الدمار والخراب، وذلك هو الأمل لأبناء البشرية جمعاء للوصول إلى الحقيقة الكبرى، وإلى خلاص العالم من مشاكله.

فالعلم والبحث كانا سبباً في انبثاق إشراقة الأمل ونور الحق، وإنارة الطريق أمامي.. ليهديني ربي إلى

الصراط المستقيم، ويرشدني إلى بر الامان، وينقذني من العذاب الشديد الذي كنت أعانيه نتيجة الصراع العنيف الذي كان يدور في نفسي، ولا ريب في هذا الكلام، فإنني أعتقد بأن الإسلام ــوهو شريعة الله والحق ــ معناه السلام، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معانٍ كبيرة، وأولها السلام بين الشخص ونفسه.

فالنفس ــ وهي الأمارة بالسوء ــ لا تستطيع أن تسيطر عليها وتوجهها إلى خير الفرد والمجتمع، إلا الشريعة الإسلامية ومبادئها السمحاء.

فالشهادة تعني أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. تعني أن الناس جميعاً متساوون، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى..

واتصال العبد مباشرة بخالقه خمس مرات يوميّاً ــ في صلاته ــ زادٌ يومي يُذَكّرَهُ بوجود الخالق، ويدعوه إلى إتباع ما دَعَا إليه، واجتناب ما نَهى عنه.. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

والزكاة تُوحدُ بين القلوب، وتقضي على الحقد والبغض والحسد، فتقرب بين المسلمين وتجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وصيام رمضان يعتبر تدريباً للنفس لكبح جماحها..

وخروج الفرد من زينة الدنيا في الحج يذكره بيوم الحشر والحساب..

فهذه المباديء تستطيع إقامة المجتمع المثالي الذي ظللت أبحث عنه منذ نشأتي..

ولذا فإنني أدعو كل إنسان أن يبحث عن حقيقة الإسلام ومبادئه المختلفة، ولا يتأثر بالادعاءات الكاذبة التي يرددها المغرضون وأصحاب الأغراض الشخصية، فالطريق مفتوح أمام كل إنسان للنظر في كتاب الله وسنة رسوله، وليحكم بعد ذلك بما يمليه عليه ضميره.

قلت: فماذا فعلت بعد إسلامك؟

قال: أول ما فعلته بعد اعتناقي للإسلام، هو محاولة زيارة الدول الإسلامية لدراسة أحوال معيشتهم، والتعرف عليهم، ولقد سعدت كثيراً بزيارة المملكة العربية السعودية، والكويت، ومصر وغيرها، وكنت دائماً أحس بالبيئة الإسلامية التي أفتقدها ويفتقدها كل مسلم يعيش في بلاد الغرب.

قلت: فهل تنوي خدمة الإسلام بما تعلمته من علوم؟

قال: لا بد من ذلك.. إنني الآن أقوم بمحاولة إعداد كتاب باللغة الفرنسية عن الشريعة الإسلامية، وتاريخ الإسلام والمسلمين، ودور علماء المسلمين الاوائل في العلوم والفنون المختلفة.

قال ذلك، ثم توجه لبعض المستمعين من المسلمين يقول: أود أن أطلب من المسلمين أن يفتخروا بأنهم مسلمون، وأن يكونوا خير مثلٍ لهذه الشريعة الخالدة، وأن يكونوا جديرين بأن يحملوا هذه العقيدة.

وأحب أن أذكر هنا مثلاً يبين لهم أهمية تمسكهم بدينهم دون التأثر بما يجري من حولهم، وهو أن أصحاب الأعمال هنا يفضلون المسلمين المتمسكين بدينهم، نظراً لأنهم يكونون على خُلُق طَيّبٍ، وإخلاص تام للأعمال

التي يقومون بها، فضلاً عن أن سلوكهم الاجتماعي يجبر الجميع على احترامهم وتقديرهم، واحترام وتقدير عقيدتهم.

كما أطلب من الدول الإسلامية ـــ وخاصة مصر ـــ أن تتحمل المسئولية الكبرى لخدمة الإسلام والمسلمين في العالم أجمع، كأن تهتم مثلاً بتوزيع المطبوعات الإسلامية التي تتناول الأسس والمبادىء الإسلامية بالأسلوب العلمي المبسط، وباللغات المختلفة.. وأن تهتم بالقرآن الكريم وترجمته للشعوب غير الناطقة بالعربية، والاهتمام أيضاً بأسطوانات وتسجيلات تعليم الصلاة للمسلمين في الدول الغربية بصفة عامة، وفي فرنسا بصفة خاصة، حتى يمكننا ـــ نحن الأوربيين ـــ دراسة هذا الدين الحنيف.. كما يمكننا نحن الذين أسلمنا أن نُعَرّف إخواننا غير المسلمين به، ولكل طالب علم ومعرفة، والله يهدي من يشاء من عباده.

تاسعا ــ الأصدقاء

فتحت دفتر البابا على فصله التاسع، فوجدت عنوانه (الأصدقاء)، فقلت: ما الذي تقصده بالأصدقاء.

قال: هذا مصطلح أردت به قوما من الناس أحبوا الإسلام، أو أحبوا أشياء في الإسلام، ولكنهم قصروا عن أن يكونوا أتباعا له.

قلت: فكيف صاروا أصدقاء إذن ما داموا لم يتنعموا بنعيمه؟

قال: لقد فتح الله بسببهم عيونا عميا، وأسماعا صما، فلذلك خدموا الإسلام.. والإسلام لا يعادي من يخادمه.

قلت: ولكني عرفت أن من ركائز الإسلام ما يسمى بالولاء والبراء.. والناس بذلك إما مسلمين نكن لهم كل المودة، وإما كفار نكن لهم كل العداوة.

قال: من قال ذلك؟

قلت: كلهم يقولون ذلك.

قال: أخطأ من قال ذلك..

قلت: هم يقرؤون لذلك قرآنا.

قال: وما يقرؤون؟

قلت: يقرؤون قوله ﷻ:﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (آل عمران:٢٨)، وقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً) (النساء:١٤٤)، وقبل ذلك بآيات قوله ﷻ:﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨)الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩)﴾(النساء)، وقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ(٥٢)﴾ (المائدة)

قاطعني، وقال: وقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (التوبة:٢٣)، وقوله ﷻ:﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (المجادلة:٢٢)، وقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا

أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة:١)

قلت: أجل.. ألا تكفي هذه الآيات لتضع بيننا وبينهم أسوارا من العداوة لا نلتقي بعدها أبدا؟

ابتسم، وقال: أرأيت لو أن كل أولئك الذين أخبرتك عن إسلامهم لاقوا أجلافا غلاظا لا يعرفون منهم إلا العداوة.. هل تراهم يقبلون على الإسلام بذلك الشغف الذي أقبلوا به؟

سكت قليلا، ثم قال: ولماذا نذهب بعيدا.. هو ذا أنا أمامك.. لو أني لاقيت مثل هؤلاء الناس لما فعلت بهم إلا ما فعل سلفي من البابوات.. إن الحرب لا تجر إلا الحرب.. والعداوة لا تجر إلا إلى العداوة.

قلت: ولكن كيف نفعل بالنصوص التي كنا نقرؤها؟

قال: نفهمها..

قلت: على ضوء كلام المفسرين.. أم على ضوء كلام الفقهاء؟

قال: على ضوء القرآن الكريم.. فخير ما فسر القرآن القرآن.. وعلى ضوء كلام رسول الله، فخير من فهم كلام الله رسول الله.

قلت: فأين تفسير تلك الآيات؟

قال: في قوله ﷻ ــ وهو يضع الضابط الذي تفسر من خلاله جميع ما يسمونه نصوص الولاء والبراء ــ:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩)﴾ (الممتحنة)

فهاتان الآيتان تضعان إطار العداوة والصداقة.

قلت: ما هو هذا الإطار؟

قال: أن نصادق من صادقنا، وأن لا يوالي من يعاديه.

قلت: ما معنى عدم موالاته؟

قال: أن لا تمده بالمعونة التي تجعله يحاربك بها.. هذا هو وحده إطار البراء الذي يرسمه القرآن.. وهو لا يمنعك من أن تدعوهم، وتحب لهم من الخير ما تحبه لكل مؤمن، بل تحزن لهم إن ماتوا وهم لا يعرفون الله.

قلت: إنك تقضي بهذا على مفهوم البراء الذي ينشره كثير من قومنا.

قال: بسوء فهمهم.. وببعدهم عن القرآن.. وعن شمس محمد.

قلت: ولكن محمدا حارب الكفار.

قال: ولكنه كان يحب لهم كل الخير.. بل يحزن عليهم.. بل كاد يقتله الحزن عليهم.. ألم تقرأ قوله ﷻ:﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (الكهف:٦)، وقوله ﷻ:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (الشعراء:٣).. وهو في حربه لهم كان يدافع عن دينه، وكم تمنى أن لا يريق دما من دمائهم.. ولولا أنهم اضطروه لذلك ما حمل عليهم سيفا.

قلت: صدقت في هذا.. وفي القرآن الآيات الكثيرة الدالة على ما ذكرت.. وفي حياة الرسول ﷺ

النصوص الكثيرة المؤيدة لذلك.

قال: فاقتدوا بمحمد.. ولا تقتدوا بأولئك المجرمين الذي امتلأت قلوبهم ظلمة، فراحوا يرمون بها الإسلام.

قلت: عد بنا إلى الأصدقاء.. إن من قومي من يرفض هذه التسمية.

قال: عندما أرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى النجاشي.. هل كان النجاشي مسلما أو كافرا؟

قلت: لم يكن النجاشي حينها مسلما.

قال: فماذا قال لهم رسول الله ﷺ ؟

قلت: قال لهم:« إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل بفرح منه، ويجعل لي ولكم مخرجاً »[1]

قال: فقد أثنى عليه رسول الله ﷺ ثناء حسنا، واعتبر أرضه أرض صدق؟

قلت: أجل..

قال: فاعتبروا بهذا.. وحولوا العالم كله أصدقاء لكم.. فلا خير فيمن يبحث عن العداوة، وينشر عقيدة العداوة.

قلت: اقتنعت بما ذكرت.. فهلم بنا إلى سفرك.. لتقص علي أنباء هؤلاء الأصدقاء.

قال: قبل أن أذكر لك شهاداتهم[2] أريد أن أخبرك بأن هؤلاء صنفين:

---

(١) رواه ابن إسحق.

(٢) اعتمدنا في أكثر الشهادات الواردة في هذا الفصل الطويل على ما أعده الدكتور عماد الدين خليل من جمع للشهادات الكثيرة التي شهد بها المستشرقون وغيرهم حول القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية، والذي جمع فيما بعد في كتاب واحد تحت عنوان (قالوا عن الإسلام).

وقد جمع هذا الكاتب الفاضل تلك النقول الكثيرة بطلب من الندوة العالمية للشباب.

وقد بدأت فكرة هذا الكتاب عندما أعدت الندوة عددًا من النشرات باللغة الإنجليزية للتعريف بالإسلام لغير المسلمين كان من بينها ثلاث مطويات هي:(ماذا قالوا عن الإسلام)، و(ماذا قالوا عن القرآن)، و(ماذا قالوا عن الرسول)

وقد لاقت تلك النشرات استحسانًا كبيرًا، كما تذكر الندوة، بل أصبحت مادة الدعوة للإسلام داخل المملكة وخارجها، وترجمت إلى عدد كبير من اللغات الحية، ومن هنا نشأت فكرة تأليف كتاب جامع لهذه الشهادات.

وتذكر الندوة أنها فكرت طويلاً في الفكرة ثم أعدت ورقة العمل التي توضح أمرها واستشارت فيها عددًا من العلماء في الداخل والخارج فجاءت الردود مشجعة جدًا، مما يدل على أن هذا الكتاب المقترح سوف يسد ثغرة يحتاج المسلمون إلى سدها.

فطلبت الندوة من الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل أن يقوم بتحمل هذا العبء الكبير، فقام به خير قيام.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الشهادات المنصفة في حق الإسلام، وقرآنه الكريم ونبيه العظيم، وتاريخه وحضارته ورجاله، وهذه الشهادات صدرت عن أعلام معظمهم من غير المسلمين، فيهم السياسي والأديب والشاعر والعالم، والعسكري، والرجل والمرأة.

ومع هذه النقول الكثيرة، فإن الكاتب اقتصر على الاستشهاد بأقوال الغربيين الذين سبقوا عشر السنوات الماضية، كما اقتصر على الرجوع للترجمات العربية.

وتذكر الندوة أن المؤلف جمع مادة ضخمة من الشهادات والنقول التي رأت جمال الإسلام وكماله، ولكن الندوة تريد أن يحقق الكتاب هدفه بأيسر الطرق فاقترحت على المؤلف أن يختصر اختصارًا لا يخل بالمنهج وذلك بالإبقاء على عدد محدود من الشهادات لكل صاحب شهادة يفي بالهدف الذي اختيرت الشهادات من أجله وهذا الذي كان.

قلت: فما الصنف الأول؟

قال: قوم امتلأوا بحب الإسلام، فلم يدعوا مناسبة يثنون بها عليه إلا فعلوا.. وهؤلاء أرى أن نكل أمرهم إلى الله.. فقد يكونون من المسلمين الذي كتموا إسلامهم، فلذلك يستحقون منا كل الاحترام.

قلت: صدقت.. وقد عرفنا في رحلتك السابقة خبر بعضهم.. فما الصنف الثاني؟

قال: قوم مذبذبون.. فمرة يغلبهم الصدق، فينطقون بالحق، شعروا أو لم يشعروا.. ومرة يحنون إلى حياتهم وأقوامهم ومذاهبهم، فينطقون بالباطل.

قلت: فهؤلاء أعداء وليسوا أصدقاء.

قال: لا.. هؤلاء أصدقاء في الحق الذي نطقوا به، ألم تقرأ قوله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾(النساء: من الآية٤٠)، وقوله ﷻ:﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) (الزلزلة:٧)

قلت: ولكن الله ﷻ قال:﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (الزلزلة:٨)

قال: نحن نبحث عن الخير لنبشر به.. أما الدينونة، فندعها لله.. ألم يعلمك معلم السلام هذا؟

قلت: بلى.. جزاه الله خيرا.. وجزاك الله كل خير.. لقد أضر بنا الصراع.. فصرنا لا نرى إلا الصراع.

فتحت الدفتر.. فرأيت أسماء لدول مختلفة، فقلت: ما هذه الأسماء؟

قال: لقد وفقني الله، فقمت برحلات مختلفة إلى كثير من دول العالم، أحضر مؤتمراتها وندواتها، وقد سجلت في كل رحلة من تلك الرحلات بعض ما سمعته من شهادات.

قلت: ألم تسجل كل الشهادات؟

قال: يستحيل ذلك.. فسمعة الإسلام ــ بحمد الله ــ في قمة الطيبة بين العلماء والمثقفين رغم ما تمارسه وسائل الإعلام من حملات تشويه.

ولذلك فإن الكتاب ــ الذي استفدنا منه هذه النقول ــ هو الطبعة المختصرة من المشروع الأصلي للكتاب.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنا سنذكر في الهوامش المصادر الأصلية التي ذكرت فيها تلك النقول ثقة منا بالذي جمعها، وقد أشرنا إلى هذا هنا حتى لا نضطر كل مرة إلى الإيعاز إليه.

١ ـــ أصدقاء من العرب

كان أول ما رأيته في هذا الفصل عنوان (أصدقاء من العرب)، فسألت البابا قائلا: من تقصد بأصدقاء الإسلام من العرب؟

قال: رجال من أهل الكتاب، ولدوا في أرض العرب، وعاشوا بين المسلمين.

قلت: ألا تعتبر شهادة هؤلاء مرفوضة عند غير المسلمين؟

قال: لا.. بل هذه الشهادات أشرف الشهادات، لأنها جاءت من قوم معايشين للمسلمين، وبالتالي تكون أحكامهم في منتهى الوثوق والدقة.

قلت: صدقت.. فأعظم ما يدل على تسامح المسلمين هو وجود أهل الكتاب بينهم من قديم العصور.. فهم بذواتهم وبيوتهم وممتلكاتهم من أعظم الشهادات على مصداقية الإسلام ورقيه.

قال: ولهذا أوصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة.. وبمثل ذلك أوصى من بعده.

د. فيليب حتي:

كان (د. فيليب حتي) [1] هو أول الأسماء المثبتة في قائمة العرب، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحيي لبنان، وقد درس في كبريات جامعات العالم، وله مصنفات ترتبط بالإسلام.

قلت: فهل ستذكر لي بعض شهاداته؟

قال: شهاداته كثيرة.. وسأذكر لك منها ما تقر به عينك.

كنا في لبنان، وكان الجمع يتحدث عن اللغة العربية وأساليبها وجمالها، وفجأة نطق د. فيليب حتي يقول[2]: (إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى)[3]

ثم أضاف يقول: (إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة

---

(١) د. فيليب حتي P. Hitti ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م)، وعين معيدًا في قسمها الشرقي (١٩١٥-١٩١٩)، وأستاذاً لتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩-١٩٢٥)، وأستاذاً مساعدًا للآداب السامية في جامع برنستون (١٩٢٦-١٩٢٩م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسي ثم رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩-١٩٥٤م)، حين أحيل على التقاعد، أنتخب عضوًا في جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: (أصول الدولة الإسلامية) (١٩١٦م)، (تاريخ العرب) (١٩٢٧م)، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) (١٩٥١م)، (لبنان في التاريخ) (١٩٦١م)، وغيرها.

(٢) الشهادات المذكورة في هذا الفصل هي الموضوعة فقط بين قوسين، وما عداها تصرف من المؤلف ليقرب المعنى، وترتبط الشهادة بأحداث الرواية.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص ٦٢.

الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجات)[1]

وهو يعتبر القرآن الكريم السبب المباشر الذي حفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامية، فقال: (إن اللغة العربية هي لغة القرآن التي كانت الأساس الذي قامت عليه أمة جديدة أخرجت للناس، أمة جاءت بها بعثة محمد من قبائل متنافرة متنازعة لم يقدّر لها من قبل أن تجتمع على رأي واحد. وهكذا استطاع رسول الإسلام أن يضيف حدًا جديدًا (رابعًا) إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان (إيجاد أمة ذات لغة فوق اللغات)[2]

وفي مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن العلاقات الاجتماعية قال: (إن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصبية الجاهلية (القائمة على الدم والقرابة) للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئًا جديدًا قام به النبي العربي)[3]

وفي مناسبة أخرى تحدث ناقدا الذين يستعملون أساليب مشبوهة في تحليل شخصية رسول الله ﷺ، فقال: (في الكتاب المعاصرين لنا نفرٌ يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة (التي حققها محمد) أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكامًا من زيف العلم)[4]

وقد أرشد إلى النظر إلى الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف من خلاله على رسول الله ﷺ، فقالك (صفات محمد مثبتة في القرآن بدقة بالغة فوق ما نجد في كل مصدر آخر. إن المعارك التي خاضها والأحكام التي أبرمها والأعمال التي قام بها لا تترك مجالاً للريب في الشخصية القوية والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ. ومع أنه كان في دور من أدوار حياته يتيمًا فقيرًا، فقد كان في قلبه دائمًا سعة لمؤاساة المحرومين في الحياة)[5]

وهو يثني ثناء عطرا على رسول الله ﷺ فيقول لمن سأله عن تقييمه للدور الذي قام به رسول الله ﷺ: (إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر)[6]

وهو يثني على الإسلام ثناء عطرا، بل يعتبره منهج حياة، فيقول: (الإسلام منهج حياة. وهو — بهذا النظر

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص ٢٨٧ – ٢٨٨.
(٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٩ – ٢٠.
(٣) الإسلام منهج حياة، ص ٥١.
(٤) الإسلام منهج حياة، ص ٥٤.
(٥) الإسلام منهج حياة، ص ٥٤.
(٦) الإسلام منهج حياة، ص ٥٦.

— يتألف من ثلاثة جوانب أساسية، الجانب الديني والجانب السياسي والجانب الثقافي. هذه الجوانب الثلاثة تتشابك وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلحظ ذلك)[1]

وهو يتحدث عن انتشار الإسلام بمؤسساته المختلفة محافظا على أصالته، فيقول: (الإسلام — بما هو دولة — وحدة سياسية تضمّ مجموعًا من المؤسسات القائمة على الشريعة، على المبادئ القرآنية، أنشأها محمد في المدينة، ثم تطورت في أيام خلفائه على أنقاض الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ثم بلغت هذه الدولة الإسلامية ذروة لم تبلغ إليها دولة في العصور الوسطى، ولا في العصور القديمة)[2]

وذات مرة سمعته مع بعض القسس ستحدث عن المقارنة بين المسيح ومحمد، وكان من ضمن أقواله هذه الشهادة: (لا سبيل إلى الموازنة بين محمد رسول الإسلام وبين عيسى مؤسس النصرانية (في رأي النصارى). إن محمدًا لم يكن فيه صفة ذاتية غير طبيعية ولا جاء مسيطرًا على البشر بقوة خارقة، ولكنه كان مبلغًا لرسالة ربه. ويجب أن نذكر أن هذا الرأي هو الرأي الشرعي العلمي في الإسلام.. من أجل هذا كله نجد المسلمين يأبون أن يسموا (محمديين) بالمعنى الذي يسمى به النصارى (مسيحيين)، وهؤلاء المستشرقون المتأخرون الذين لا يزالون يطلقون هذه التسمية غير المقبولة (الخاطئة) على المسلمين إطلاقًا هينًا يجب أن يعلموا أنه لا يحق لهم أن يسمّوا أمة باسم لا تحبه. إن المسلم، في اللغة، هو الذي (أسلم نفسه لله) (خضع لإرادة الله)، فالإسلام — من أجل ذلك — ليس دينًا محمديًا ولكنه دين التسليم بإرادة الله)[3]

وفي مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن مزايا الشريعة الإسلامية، قال: (الشريعة [الإسلامية] لا تفرّق بين ما هو ديني وبين ما هو دنيوي. إنها تنص على صلات الإنسان بالله وعلى واجباته نحو الله وتنظّمها كما تفعل في شأن صلات الإنسان بأخيه الإنسان. وجميع أوامر الله ونواهيه — فيما يتعلق بالأمور الدينية والمدنية وسواها — مثبتة في القرآن. وفي القرآن ستة آلاف آية أو تزيد يتعلق نحو ألف آية منها بالتشريع)[4]

وفي مناسبة أخرى جرى فيها الحديث عن مدى أصالة الفقه الإسلامي قال: (الفقه يمكن أن ينظر إليه على أنه علم إسلامي خالص. وهو — بخلاف عدد كبير من العلوم كالرياضيات والطب والفلسفة — كله نتاج البيئة الإسلامية نفسها. ثم إننا لا نكاد نلحظ في تطوره أثرًا من الفكر الهندي الإيراني أو الفكر الهندي الأوروبي. ومؤسس علم الفقه في الإسلام لم يلتفت إلى الاستعانة بالقانون الروماني ولا بالفلسفة اليونانية)[5]

وفي مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن الفتوحات الإسلامية وصلتها بالاستعمار سمعت منه هذه الشهادات: (إن المدهش حقًا أن دولة تدعو إلى دين غريب تظهر في شبه جزيرة العرب التي كانت مغمورة في التاريخ، استطاعت أن تجرد إحدى الإمبراطوريات العالميتين من أغنى مقاطعاتها في آسيا وأفريقيا، وأن تقضي على الأخرى، قضاء مبرمًا، في مدى عشر سنين.. أما كيف اتفق هذا الحدث المذهل ولماذا اتفق، فذلك لأن

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص ٩.
(٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٠.
(٣) الإسلام منهج حياة، ص ٥٣.
(٤) الإسلام منهج حياة، ص ٩٥ — ٩٦.
(٥) الإسلام منهج حياة، ص ١٠٠ — ١٠١.

وراءه قصة من أروع القصص في العصور الوسطى كلها)[1]

(إن أبرز ما يلفت النظر في الفتوح العربية ليس تلك السرعة وذلك النظام اللذين تمت بهما — بغير دمار لا مبرر له إلا قليلاً — ولكن تلك السهولة التي انتقلت بها البلاد المفتوحة من حال الحرب إلى حال السلم، ومن التغلّب إلى الإدارة)[2]

(لقد ساعد فتح البلاد الإسلامية ودخول عدد كبير من سكان البلاد المفتوحة في الإسلام على ازدهار العلم وزيادة ثقافته. وقد امتازت هذه الثقافة بأنها ظلت منذ أواسط القرن الثامن للميلاد (الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة) إلى آخر القرن الثاني عشر للميلاد (وآخر القرن السادس للهجرة) لا تدانيه ثقافة أخرى في الازدهار ولا يفوقه في النتاج الأدبي والعلمي والفلسفي نتاج آخر)[3]

وفي مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن الحضارة الإسلامية، قال: (إن فترة النقل تلك (في العصر العباسي) قد استمرت نحو قرن من الزمن وانتهت في نحو عام ٨٥٠ للميلاد (٢٣٦هـ). ولكن تبعها دور من الابتكار، دور عبر فيه العرب عن فكرهم الأصيل وازدهر في بغداد ثم امتد قرنين كاملين. وكثر الابتكار في عدد من ميادين المعرفة كعلم الكلام والفقه وفقه اللغة والبحوث اللغوية الأخرى والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. ذلك كان دورًا لا مثيل له في جميع أدوار التاريخ العربي. بل أن بإمكاننا أن نقول أكثر من ذلك: أننا على ثقة من أن العلماء الذين برعوا في الرياضيات والفلك، والأطباء من الذين عاشوا في بغداد في القرنين التاسع والعاشر للميلاد (الثالث والرابع للهجرة) لم يكن لهم مثيل (يومذاك) في قارتي أوروبة وآسيا. لقد جعل هؤلاء من مدينتهم عاصمة للعلم في العالم، كما كانت (من قبل) أثينا عاصمة الفلسفة ورومية عاصمة التشريع والقدس عاصمة الأديان.. وخلقوا حضارة ذات هبات غنية يغلب فيها عنصر الابتكار، وأقاموا في الإسلام عصرًا ذهبيًا (في العلوم الكونية)[4]

وقال: (لم يدرك العرب وجود المعارف العلمية إلا بعد أن جاءهم الإسلام وبعد أن احتكوا بأهل الثقافات القديمة. أن الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام هي التي أدّت إلى هذا الاحتكاك الحيوي للعرب بالتراث الثقافي النفيس الذي خلّفه اليونان والسريان والفرس والمصريون القدماء.. لقد كان من أفضال [العرب] أنهم شجعوا كل جماعة من رعاياهم على أن تحافظ على تراثها القومي وعلى أن توسعه ما دام هذا التراث ليس مخالفًا للإسلام)[5]

وقال: (فيما كان بناء المساجد ينتشر شرقًا حتى بلغ الصين وغربًا حتى وصل إلى الأندلس كان نمط البناء يتأثر بعناصر محلية من غير أن تتبدل خطته الأساسية تبدلاً يذكر. وبما كان المسجد مكانًا للعبادة فإن بناءه عمومًا ظل على بساطة وجلال. ومع أنه استعار من أنماط البناء الأخرى فإنه ظل معبرًا عن الإسلام تعبيرًا

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص ١٥٣ — ١٥٤.

(٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٦٢.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص ١٠ — ١١.

(٤) الإسلام منهج حياة، ص ١٨٩.

(٥) الإسلام منهج حياة، ص ٢٠٩ — ٢١٠.

عظيمًا. وأما في أثناء تطوره في التاريخ، من ناحية العمارة، فإنه كان صورة مصغرة لتطور الثقافة الإسلامية: تلك الثقافة التي كان المسجد تعبيرًا صحيحًا عنها — فيما يتعلق بالأمم المختلفة وبأعراق البشر المختلفة — إذ هو يمثل بصورة ملموسة ذلك التفاعل بين الإسلام وبين جيرانه. والمؤمن ذو الاتجاه الروحي، على كل حال، لا يقلقه ذلك التطور. أنه ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الأروقة حتى يجد في نفسه ميلاً شديدًا إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعًا، في الوقت نفسه، إلى السّموّ نحو الملأ الأعلى. وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة فإنها أشبه بالإصبع التي تنتصب مشيرة إلى السماء وأما في جوف المسجد فإن القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء. وكذلك المحراب المزخرف (بالأشكال والأغصان والمزين بالآيات الكريمة) فإنه يوجه القلب إلى مصدر الهدى والإيمان. والأعمدة التي تتوالى في صفوف لا تكاد العين أن ترى آخرها توحي بأنها لا تتناهى. وهؤلاء المصلون حولك (معًا أو فرادى، في كل مكان من المسجد) يولّدون في النفس شعورًا بمشاركة في أخوة تسع العالم كله)[1]

(أنه جاء يوم بلغت فيه الثقافة الإسلامية درجة من السّموّ والتقدم لم يقابلها فيها غيرها من الثقافات الهندية والصينية في الشرق أو اليونانية واللاتينية في الغرب. والذي نعنيه بالثقافة الإسلامية تلك المجموعة من العلوم والفنون والفلسفات التي نشأت في ظل الإسلام.. تمتعت هذه الثقافة بعصرها الذهبي من منتصف القرن الثامن للميلاد إلى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت اللغة العربية أداة التعبير عنها، ويوم كانت الشعوب العربية اللسان — وبينهم السوري والعراقي والمصري والفارسي والتركي وغيرهم — في مقدمة مشعل الحضارة في العالم قاطبة، وجاء عدد المؤلفات في هذه اللغة في تلك الحقبة، المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية، أكثر من عددها بأي لغة أخرى من آسيوية أو أوروبية. والغريب في أمر العربية التي كانت إلى أواسط القرن الثامن لغة شعر ودين فحسب، أنها في خلال قرن واحد تطورت وتقدمت إلى أن أصبحت أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون. وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة في تاريخ نشوء اللغات وبفضل جهود أبناء هذه اللغة.. تسنى لعلوم الأقدمين، من هنود وساميين ويونان ولاتين، مضافًا إليها ما ابتكره هؤلاء الأبناء، على اختلاف عناصرهم القومية، أن تنتهي بعد أجيال عديدة إلى غربي أوروبا، وذلك عن طريق سورية الصليبية وصقلية وإسبانيا المسلمتين، فتصبح أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوروبي في القرون الوسطى، ورائد السبل لنشوء النهضة الحديثة في أوروبا الغربية التي لا يزال إلى اليوم أبناء أوروبا وأمريكا ينعمون ببركاتها فبينا كان الأوروبي يتخبط في ديجور العصور — التي أطلقوا عليها بحق العصور المظلمة — كان كتبة العربية — وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الإسلامي — يرتعون في عصرهم العلمي الذهبي)[2]

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص ٣٠٦ — ٣٠٨، ونحب أن ننبه هنا إلى أن هذا المستشرق كسائر المستشرقين وقع في بعض الأوهام.. وقد كتب الباحثون في الرد على تلك الأوهام، انظر كتاب.عبد الكريم علي باز، افتراءات فيليب حتّي وكار بروكلمان على التاريخ الإسلامي. (جدة:تهامة للنشر، ١٤٠٣-١٩٨٣)

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم، محمد خلف الله، ص٥٥٠-٥٥١.

د. جورج حنا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. جورج حنا) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحيي لبنان، وهو صاحب الكتاب المعروف (قصة الإنسان).. وقد سمعت له بعض الشهادات، منها قوله: (إنه لابد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة) [2]

ومنها قوله: (كان محمد يخرج من سويعات [لقائه مع جبريل] بآيات تنطق بالحكمة، داعيًا قومه إلى الرجوع عن غيّهم، والإيمان بالإله الواحد الكليّ القدرة، صابًا النقمة على الآلهة الصنمية، التي كان القوم يعبدونها فكان طبيعيًا أن يحقد عليه أشراف العرب ويضمروا له الشر، لما كان في دعوته من خطر على زعامتهم، وهي ما كانت قائمة إلا على التعبد للأصنام التي جاء هذا الرجل يدعو إلى تحطيمها. لكن محمدًا لم يكن يهادن في بث دعوته، و لم يكن يسكت عن اضطهاد أشراف قريش له، بل كان يتحداهم، فيزدادون حقدًا عليه وتآمرًا على حياته. فلم تلبث دعوته حتى تحولت من دعوة سلمية إلى دعوة نضالية. إنه لم يرض بأن يحوّل خدّه الأيسر لمن يضربه على خدّه الأيمن.. بل مشى في طريقه غير هيّاب، في يده الواحدة رسالة هداية، يهدي بها من سالموه، وفي يده الثانية سيف يحارب به من يحاربوه. لقد آمن به نفر قليل في بداية الدعوة، وكان نصيب هذا النفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير.. كان هؤلاء باكورة الديانة الإسلامية، والشعلة التي انطلقت منها رسالة محمد) [3]

ومنها قوله: (كان محمد في المدينة أكثر اطمئنانًا على نفسه وعلى أتباعه ورسالته مما كان في مكة.. كانت يثرب مدينة العامة التابعة، لا مدينة الخاصة المتبوعة. والعامة دائمًا أقرب إلى اقتباس كلمة الحق من الخاصة، لا سيما إذا كانت كلمة الحق هذه، تحررها من عبوديتها للخاصة) [4]

ومنها قوله: (محمد بن عبد الله كان ثائرًا، عندما أبى أن يماشي أهل الصحراء في عبادة الأصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري. فأضرمها حربًا لا هوادة فيها على جاهلية المشركين وأسيادهم وآلهتهم. فكفره قومه واضطهدوه وأضمروا له الموت. فهاجر تحت جنح الليل مع نفر من أتباعه، وما تخلى عن النضال في نشر دعوته، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها. فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين

---

(١) الدكتور جورج حنا G. Hanna (John) مسيحي من لبنان، من كتبه (قصة الإنسان).

(٢) قصة الإنسان، ص ٧٩ – ٨٠.

(٣) قصة الإنسان، ص ٧٦.

(٤) قصة الإنسان، ص ٧٧.

مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة)[1]

ومن شهاداته العظمى التي يحترم عليها شهادته على مدى تسامح المسلمين مع جيرانهم المسيحيين، فيقول: (أن المسلمين العرب لم يعرف عنهم القسوة والجور في معاملتهم للمسيحيين بل كانوا يتركون لأهل الكتاب حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية، مكتفين بأخذ الجزية منهم[2])[3]

وقال: (لم يرو المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية [التي مارسها الصليبيون] على المسلمين. لم يكن هؤلاء وحشيين في معاملة الأسرى الأهلين المسيحيين. فإذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظّعون بهم. بعد معركة طبرية التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على خصمه الملك (غي ده لوسينيان).. عف صلاح الدين عن التفظيع بالأسرى الذين نجوا من الموت المريع أثناء المعركة، وجردهم من السلاح وضرب عليهم الجزية وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك (غي). وليست هذه الحادثة وحدها هي الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لأعدائهم، وبين معاملة أعدائهم.. هي واحدة من المئات التي جاءت في كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ومعظمها من تأليف المؤرخين المسيحيين من الفرنج بالذات)[4]

ومن شهاداته شهادته بعظم الحضارة الإسلامية، وفضلها على البشرية، يقول: (لم تنحصر الفتوحات العربية في الناحية العسكرية فقط، بل تعدّهما إلى الناحية الثقافية. لقد كان في العرب علماء وفلاسفة وحكماء، درسوا الفلسفة اليونانية وعلومها ونبشوا منها ما كان الحكم الروماني قد أقفل عليه الأبواب. فكان للعلماء والفلاسفة العرب الفضل في إعادة الثقافة اليونانية إلى رونقها. فعندما كانت السلطات الغربية في القرون الوسطى المظلمة، في خضوعها المطلق للكنيسة الرومانية، تنصاع، مسيّرة أو مخيّرة لأحكامها، وتنفذ إرادة الكنيسة دونما بحث أو جدل، وعندما كانت محاكم التفتيش تحكم بالموت والإحراق والتشريد على كل من نازع السلطة البابوية تعاليمها وعقائدها. وعندما كان الجهل مخيّمًا على ربوع وحياة الغرب، كان علماء العرب يبحثون عن المعرفة أينما وجدت. وكان خلفاء العرب يسهّلون لهؤلاء العلماء مهماتهم، ويقدمون لهم المساعدات. فعكف الباحثون على إخراج العلوم اليونانية من مدفنها ونقولها إلى العربية، وزادوا عليها من اختباراتهم ونظرياتهم ومشاهداتهم، ووضعوا كتبًا قيمة في الفلسفة والطب والجبر والكيمياء والرياضيات والفلك، وقام منهم رحالون إلى بلاد المغرب والشرق، ودرسوا اللغات المنتشرة فيها وترجموا من كتبها ما لا يزال إلى يومنا هذا يدرس للطلاب)[5]

ويتحدث عن الدور الكبير الذي قام به العرب في حفظ التراث الإنساني وتهذيبه، فيقول: (لولا العرب لبقيت الثقافة اليونانية مطموسة، ولما أخرجت هذه الثقافة من مدفنها الذي زجها فيها الرومانيون.. فما إن أخذت الإمبراطورية الرومانية في الانحلال حتى عادت الثقافة اليونانية إلى الظهور مرة ثانية، و لم يكن ظهورها

---

(١) قصة الإنسان، ص ٢٥٢.

(٢) انظر الشبهات المرتبطة بالجزية في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، وغيرها من الرسائل.

(٣) قصة الإنسان، ص ٨٩ – ٩٠.

(٤) قصة الإنسان، ص ٩٢ – ٩٣.

(٥) قصة الإنسان، ص ٨١.

في الغرب بل في الشرق.. وإذا كان النسطوريون هم الذين كشفوا عنها الغطاء فالعرب هم الذين نشروها في الشرق ثم بعثوها إلى الغرب)[1]

ويتحدث عن العصور الزاهرة التي مر بها العرب في ظل الإسلام، فيقول: (إن الحقبة التاريخية الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر [الميلادي] هي بحق عصر العرب الذهبي. ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيدين. وعلى الرغم من أن فتوحات العرب العسكرية نحو الغرب، لم تمتد إلى أكثر من مائة سنة، وانتهت بهزيمتهم في موقعة (بواتييه) على يد شارل مارتل فإن التوسع الثقافي العربي استمر في امتداده نحو الغرب، وبقي الفكر العربي يصدر إنتاجه الخصب من الأندلس وشواطئ أفريقيا إلى سواحل أوروبا الجنوبية، ومن هناك يغزو أوروبا كلها، ويضع أساسًا لنهضتها)[2]

وهو يرد على المكابرين المتكبرين الذين أرادوا أن يلغوا الحضارة الإسلامية ودورها العظيم في حياة البشرية، فيقول: (لا يسعنا إلا أن نسجل استغرابنا مما يدّعيه بعض المكابرين، الذين ينكرون قيام حضارة عربية في التاريخ، فإذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية مضافًا إليها الأعمال الفنية، وما تنطوي عليه كل هذه الشؤون من قيم، لا تشكل حضارة ذات شأن، فماذا تكون إذن الدعائم التي تقوم عليها الحضارات؟ صحيح أن العرب نقلوا عن اليونان والفرس والهنود والرومان، ولكن هل ينكر عليهم ما رادوه على ذلك باكتشافاتهم في الطب والكيمياء والجبر والفلك والرياضيات، وفي الفن أيضًا؟ وهل من الإنصاف أن ينكر على فلاسفتهم وحكمائهم، نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والإدارة؟ ثم ماذا يضير العرب إذا كانوا نبشوا ما كان دفينًا من فلسفة اليونان وحضارتهم وأظهروه إلى النور؟ إن من يطالع الكتب الغربية التي أنتجها عصر النهضة، يجد فيها أثر علماء العرب واضحًا فما جاء به (مونتسكيو) و(باكون) وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر، تجده، أو تجد له تمهيدًا على الأقل، في مقدمة ابن خلدون، هذه المقدمة التي لم تترك حقلاً من حقول البحث الاجتماعي إلا وطرقته، حتى شهد علماء الغرب أنفسهم أنها أعظم مؤلف علمي واجتماعي. وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات العربية التي لم يجد علماء الفلك الغربيون بدًا من تبنيها.. والأرقام الغربية ليست إلا أرقامًا عربية. كل هذا إنما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية. إن ما تحويه المؤلفات العلمية والفلسفية الغربية من أمثال هذه الشواهد لدليل على أن النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها، إنما كان متأثرًا إلى حد بعيد بالنضج الفكري والعلمي عند العرب، بل كان مؤسسًا عليه ومقتبسًا منه)[3]

ويتحدث عن جسر من الجسور المهمة التي انتقلت بها الحضارة الإسلامية للغرب، فيقول: (لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق. فكانوا عندما يعودون إلى بلادهم، يروون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه، ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه.. وعندما عاد الإمبراطور [النورماني] فردريك الثاني إلى

---

(١) قصة الإنسان،ص٨٣.
(٢) قصة الإنسان، ص ٨٤.
(٣) قصة الإنسان، ص ٨٦ — ٨٧.

بلاده، أسس جامعة نابولي وجامعة ساليرنو الطبية، واعتمد في هاتين الجامعتين الدروس التي وضعها ابن سيناء والرازي وابن رشد وابن خلدون وسائر أقطاب العلم والفلسفة العرب.. وهو الذي أدخل الأرقام العربية وعلم الجبر إلى أوروبا. إن جامعتي نابولي وساليرنو كانتا النافذة الأولى التي تسرّبت منها النهضة الفكرية إلى أوروبا، ووضعت أساسًا للنهضة الفكرية فيها، في العهد الذي عرف بعهد الانبعاث)[1]

نصري سلهب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (نصري سلهب) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحي من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة، كما عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع.

وعبر الستينات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخيًا هذا الهدف.

وقد التقيت به في بعض تلك المناسبات، وكان من شهاداته فيها قوله: (إن الآية التي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحًا إذ تقول:﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلا بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنا جميعًا، مسيحيين ومسلمين، أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المترلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حينًا (أم الكتاب) وحينًا آخر (اللوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)[3]

وعبر عن إعجابه الشديد برسول الله ﷺ، فقال: (إن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب. فإذا بهذا الأمي يهدي إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين)[4]

وقال: (في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمة، ساعة ولادته، أنه سيكون أحمد أعظم الرجال في العالم بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقًا)[5]

وقال: (هنا عظمة محمد. لقد استطاع، خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة)[6]

وقال: (هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج،

---

(١) قصة الإنسان، ص ٩٦.
(٢) من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (١٩٧٠)، و(في خطى محمد) (١٩٧٠).
(٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٢.
(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٢.
(٥) في خطى محمد، ص ٤٢.
(٦) في خطى محمد، ص ١٩٦.

أن يرسي قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين ويسنّ أنظمة، ويجود بالتفسير والاجتهادات.. و لم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالمًا قائمًا بنفسه)[١]

وقال: (تراثك يا ابن عبد الله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، في ما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقى على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب. كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاً)[٢]

وقال: (لم يكن النبي رسولاً وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيمًا وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس. وكان له ما أراد)[٣]

وتحدث عن القيم النبيلة التي يمتلئ بها الإسلام، فقال: (الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة. ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير)[٤]

وقال: (انطلاقًا من وجوب قول الحقيقة، أرى لزامًا عليّ أن أعلن أننا - نحن المسيحيين بصورة عامة - نجهل الإسلام كل الجهل، دينًا وحضارة)[٥]

وقال: (ليس كالإسلام دين يكرم الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي العربي، وهو يفرض على المؤمنين به إكرام هؤلاء والإيمان بهم، وليس كالإسلام دين يحترم الأديان الأخرى المنزلة الموحى بها التي سبقته في النزول والوحي)[٦]

وقال: (الإسلام دين الأزمنة جميعها، وقد أعدّ لجميع الشعوب. فهو ليس للمسلمين فحسب، ولا لعرب الجزيرة الذين عايشوا النبي وعاصروه فحسب، وليس النبي نفسه نبي العرب والمسلمين فحسب، بل هو نبي كل مؤمن بالله واليوم الآخر والنبيين والكتب المنزلة)[٧]

وقال: (في الدين الإسلامي من الشمول والرحب ما يجعله يفتح ذراعيه لجميع البشر دون أن يؤثر في قوميتهم وولائهم لأمة إليها ينتسبون)[٨]

وتحدث عن القرآن وحفظ الله له، فقال: (لم يقدّر لأي سفر، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن

---

(١) في خطى محمد، ص ٢٧٣ — ٢٧٤.
(٢) في خطى محمد، ص ٣٩٦.
(٣) في خطى محمد، ص ٤٠٩.
(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ١٢١.
(٥) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٠.
(٦) لقاء المسيحية والإسلام، ص٢٨.
(٧) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٠٣.
(٨) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٠٣.

يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب)[1]

وتحدث عن القيمة البلاغية للقرآن، فقال:(تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله)[2]

وتحدث عن قيمة العلم في الإسلام، فقال: (أولى الآيات البيّنات.. كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة.. (اقرأ).. وقول الله هذا لم يكن لمحمد فحسب، بل لجميع الناس، ليوضح لهم، منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى أن الإسلام جاء يمحو الجهل وينشر العلم والمعرفة)[3]

وكانت له أحاديث كثيرة في أسرار التسامح الذي تمتلئ به نفوس المسلمين نحو جيرانهم من المسيحيين، كان منها قوله: (إن المسيح وأمه والمسيحيين يحتلون في آيات القرآن الكريم منزلة فريدة وبالتالي في نفوس المسلمين وقلوبهم. ذلك أن المسلمين يحفظون كلام الله في كتابه ويؤمنون به كل الإيمان، وربما كانوا في إيمانهم العميق هذا أكثر تكريمًا للمسيح ولأمه من بعض المسيحيين أنفسهم، وإذا كان التاريخ قد سجل في صفحاته نزاعات وحروبًا مؤسفة وقعت بين مسيحيين ومسلمين، فليس من المحتوم أن تكون الأسباب العميقة والخفية لتلك الحروب ذوات طابع ديني.. ومهما يكن من أمر فإن حروبًا أخرى أوسع نطاقًا وأعمق أثرًا وأكثر عددًا وأبلغ ضرراً قد وقعت مسيحيين ومسيحيين، وهي - كما لا نجهل - أفظع الحروب على إطلاقها وأكثرها هولاً)[4]

ومنها قوله ــ وهو يقارن بين موقف عمر الخليفة، وموقف الصليبيين ــ: (خاضت المسيحية الحروب الصليبية ضد الإسلام لإنقاذ الأماكن المقدسة كما يحلو للمؤرخين أن يرددوا، والحروب الصليبية هذه كانت إحدى الأخطاء التاريخية العظمى.. فالأماكن المقدسة لم تكن في خطر ولم يحاول واحد من الحكام المسلمين أن يمحوها أو أن يزيلها من الوجود. بل على العكس من ذلك فقد تجنب الخليفة عمر رضي الله عنه، في فجر الإسلام، الصلاة في كنيسة القيامة بغية الحفاظ على طابعها المسيحي. وكذلك فعل الآخرون، على مرّ الزمن)[5]

ويقول: (العهدة العمرية التي منحها ابن الخطاب لأهل بيت المقدس هل تعدلها عهدة في التاريخ نبلاً وعدلاً وتسامحًا: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل القدس من أمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..). أي خاسر حربًا من حروب التاريخ حظي بمثل هذه العهدة من غالب منتصر؟.. ويبقى المسلمون في الشرق، وفي فلسطين بالذات، ثلاثمائة سنة وألفًا، فلا يمس فيها للمسيحي أثر، بل تستمر الكنائس والأماكن المقدسة في حرمة ومنعة)[1]

---

(١) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٣٧.
(٢) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٤٢.
(٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٩٢.
(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤١.
(٥) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥٤.
(١) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٣١.

ومن شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية قوله: (لابد من الإشارة إلى المداميك الكثيرة التي رصفها الإسلام في بناء الحضارة وبتعبير آخر إلى إسهام الإسلام في تراث البشرية الحضاري، في حقلي الفكر والعلم بمختلف فروعهما من فلسفة وشعر وموسيقى وطب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وهندسة إلى آخر سلسلة معطيات وعناصر جعلت الإنسانية ترتفع إلى مستوى خليق بها وجعلتها تنعم بما تنعم به اليوم. إن ذلك ضروري.. لأن كثيرين من المسيحيين يجهلون مدى وأهمية إسهام الإسلام، كدين ودولة، في الحضارة.. وأن الغرب فيما ينعم به اليوم من أسباب الحضارة والرقي والتفوق مدين به لنفسه، أي للفكر الغربي دون سواه. وذلك خطأ كبير.. لأن الغرب مدين لهذا الشرق – وبتعبير آخر – أن المسيحية مدينة للإسلام بأشياء كثيرة مهمة، وأن الشرق اليوم ليس سوى دائن يستوفي دينه من مدين قديم.. تلك إرادة الله وسنة الوجود)[1]

ويقارن بين التقدم العلمي للمسلمين بالتخلف الذي كانت تعيشه أوروبا، فيقول: (فيما كان البيروني، في نهاية القرن العاشر الميلادي يضع مؤلفاته في علوم الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ والفلسفة، وينشئ النظريات العلمية ويقوم بالاختراعات، كانت أوروبا، مذعورة قلقة، خائفة، تنتظر نهاية العالم في حلول العام الألف)[2]

ويتحدث عن أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، فيقول: (متى ذكرنا أن عشرات الكلمات الفرنسية هي من أصل عربي صريح، بل تكاد تكون منقولة بحرفيّتها، فيصبح باستطاعتنا أن ندرك تأثير الإسلام في الغرب.. وتلاحظ أن هذه الكلمات لها طابع علمي أو فكري، وهي، على كل حال، لم تنتقل إلى أوروبا كمجرد كلمات فقط بل كأسماء لمسميات انتقلت هي أيضًا معها)[3]

وهو لا ينسى أن ينسب الحضارة الإسلامية إلى مصدرها الأكبر، وهو الدين بمصادره الكبرى، فيقول: (أية قمة شماء بلغ إليها العقل الإسلامي والعربي في حقبة من حقب تاريخه، بل من حقب التاريخ على إطلاقه؟ ذلك كله كان نتيجة طبيعية محتومة لما أوصى به القرآن الكريم.. ومحمد رسول الله إلى العالمين)[4]

ويقول: (حضارة الإسلام – التي سيطرت على العالم مئات خمسًا من السنين – كانت وليدة الإيمان، والإيمان وحده)[5]

بعد أن أنهى البابا حديثه عن هذا الرجل الفاضل، قلت من غير شعور: لقد أسلمت شهادات هذا الرجل..

قال: صدقت.. فلا يقول مثل هذا إلا من امتلأ قلبه بالإسلام.

نظمي لوقا:

---

(١) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٤.
(٢) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥٠.
(٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥١،٥٢.
(٤) في خطى محمد، ص ٤٦٩.
(٥) في خطى محمد، ص ٤٧٠.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. نظمي لوقا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحي من مصر، وهو يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق.

وقد كان ــ رغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًا ــ مقبلا إقبالا عظيما على الإسلام، ولهذا كان كثيرًا ما يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم و لم يتجاوز العاشرة من عمره.

وقد ألف ــ نتيجة هذا الاهتمام ــ عددًا من الكتب أبرزها (محمد: الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة)

وقد التقيت به.. ومن شهاداته ــ التي سمعتها منه ــ والمرتبطة بمحمد ﷺ قوله: (ما كان محمد كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل عليهم السلام، وهمة البطل، فكان حقًا على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيّي فيه الرجل)[1]

وقوله في الفرق بين نظرة المسلمين إلى رسول الله ﷺ ونظرة المسيحيين إلى المسيح: (لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية.. وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضًا معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشرًا كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد توكيد هذا التنبيه متواترًا مكررًا في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي تخير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى:﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾(الشورى: ٤٨)، وظاهر في هذه الآية تعمد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها)[2]

ويتحدث بإعجاب شديد عن تواضع رسول الله ﷺ وعبوديته، فيقول: (رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر. بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتزّ، لما كان عليه جناح من أحد، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله. ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيمًا له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: لا تقوموا كما يقوم

---

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٢٨.

(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٨٥ – ٨٦.

الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا)[1]

ويتحدث عن نزاهة رسول الله ﷺ، وكونه فوق كل الشبهات التي يزعمها الزاعمون، فيقول: (ماذا بقي من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقعًا أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام.. ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع. لم يفد. ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أي قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذ المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى.. وما ضلّ وما غوى.. وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين)[2]

ويتحدث عن الأثر العظيم الذي خلفه رسول الله ﷺ، فيقول: (أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من (أبي القاسم) الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئًا مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟)[3]

ويتحدث عن عظم شخصية رسول الله ﷺ، فيقول: (كان محمد يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفًا يعد في نقائصه. لم يكن معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به، لأنه يسخرها في كيانه في المستوى الذي يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة التي لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وطهره. وبيان ذلك في أمر بنائه بزوجاته التسع)[4]

وفي مناسبة من المناسبة أساء فيها بعضهم الحديث عن الشريعة الإسلامية، وكان حاضرا، فغضب غضبا شديدا، وقال: (ما أرى شريعة أدعى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول:﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾(المائدة: من الآية٨)، فأي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل منه تساميًا واستقامة؟)[5]

وقال: (عقيدة الإسلام عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة في كل نفس. وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يصدّ عنها أحد بسبب جنسه أو لونه.. وهكذا يجد كل إنسان له مكانًا في ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة، التي لا تفاضل معها

---

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ١٧٩ – ١٨٠.
(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ١٨٣ – ١٨٦.
(٣) محمد في حياته الخاصة، ص ١٢.
(٤) محمد في حياته الخاصة، ص ٣٩ – ٤٠.
(٥) محمد الرسالة والرسول، ص ٢٦.

إلا بالتقوى، تقوى الله رب (العالمين)[1]

ويقارن بين عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحيين، فيقول: (كان لابدّ من عقيدة ترفع عن كاهل البشر لعنة الخطيئة الأولى، وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالمجرم، أو تحمّل الولد وزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة. ويحسم القرآن هذا الأمر.. حين يجعل المسؤولية أساس الكرامة الإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق ممكنة. وهذا ما قطع به الإسلام ووضع به حجر الأساس لكرامة بني آدم.. والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القائمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضيّ المريب المتردّد، ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث. إن تلك الفكرة القاسية تسمّم ينابيع الحياة كلها. ورفعها عن كاهل الإنسان منّة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقًا، وردّ اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه)[2]

ويتحدث عن البناء الإسلامي للشخصية الإنسانية مقارنة بغيره، فيقول: (هكذا يكون الإنسان في الإسلام متكامل الجوانب، لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذي عانى منه الكثيرون. ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده. وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقًا، لا ينظر إلى طيّباتها نظرة الحسير، ولا يمشي في جنباتها مشية الأسير، ولا يثقل كاهله الخزي من نوازعه، في يده زمام نفسه. وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم، تقرّ به عينه في غير حرج ولا غضاضة)[3]

ويتحدث عن أهمية الصلاة في الإسلام، فيقول: (نظام واحد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية.. إن الصلاة التي تتكرر في اليوم جملة مرات، لا يلهي عنها بيع ولا شراء، سبب قوي بين الإنسان والله.. ولكن أين تكون تلك الصلاة؟ هل لابدّ فيها من وساطة رجال الدين؟ هنا تبرز خصوصية الإسلام.. فكل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجدًا ومحرابًا لا هياكل ولا كهانة ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم! ولا وصاية على ضمائر الناس! فكلهم أمام الرحمن سواء. والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء.. وليس من حق أحد كائنًا من كان أن يتدخل بين المرء وربه، أو يدعي لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته)[4]

وفي مناسبة من المناسبات جرى فيها الحديث عن المرأة، نهض يقول: (المرأة في الإسلام إنسان له حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية فهي في ذلك صنو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه، أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس.. وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور. ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحيانًا كثيرة كما تباع السلعة.. وكانت في كثير من الأحيان منقوصة

---

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٧٢ – ٧٣.
(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٧٦ – ٧٨.
(٣) محمد الرسالة والرسول، ص ٨٤.
(٤) محمد الرسالة والرسول، ص ١٤٧ – ١٤٩.

الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقته، بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص، وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه. وأكثر من هذا، كانت قبائل العرب في الجاهلية تئد البنات كراهة لهن وازدراء لشأنهن، ومن لم يئدهن كان يضيق بهن ضيقًا شديدًا)[1]

وقال: (في سور القرآن أشار إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفريق في التكليف أو الجزاء، وإشارة صريحة مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود.. وفي بعض الأمم القديمة، والحديثة، كانت المرأة تحرم غالبًا من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش)[2]

وقال: (ليس الإسلام – على حقيقته – عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة. بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة. لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مطل أو مراء وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الجسدية والنفسية على كل حال. وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الأطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسمًا أوفق من (تكافؤ الفرص)، الذي يلغي كل تفريق، ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تميّز إلا بامتياز ثابت صحيح)[3]

وتحدث عن سمو العلاقة الزوجية في الإسلام، وكما يصورها القرآن، فيقول: (العلاقة الزوجية في الإسلام ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١) هكذا جاء في سورة الروم، وإني لأرى في قوله (من أنفسكم) لمسة تمس شغاف القلب وتذكر بما في الزواج من قربى تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكنية النفس لا من مساكنة الأجساد! بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلبًا شهويًّا جسديًّا وإن كان له أساس جسدي)[4]

وقال: (كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا، وقد نهض بهذا الإسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر والخزي وعقدة الإثم الشوهاء التي كبّلته و لم تزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة)

قلت: إن نفحات الصدق التي نطق بها هذا الرجل أعظم من أن تنحصر في كونها مجرد شهادات عالم موضوعي..

---

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٩٥ – ٩٦.
(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٩٦.
(٣) محمد الرسالة والرسول، ص ١٠٠-١٠١.
(٤) محمد الرسالة والرسول، ص ١١٥ – ١١٦.

قال: أجل.. فغيرته على الإسلام وحبه له ودفاعه عنه لا يمكن إلا أن يكون من قلب ذاق طعم الإسلام، وعقل قد امتلأت به معانيه.

٢ ـــ أصدقاء من فرنسا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من فرنسا)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: كيف تعتبر الفرنسيين أصدقاء لنا، وقد استعمروا أرضنا، وقهروا شعبنا، و لم يتركوا مناسبة يسيئوا فيها إلينا إلا فعلوا؟

نظر إلي البابا، وقال: ألم تقرأ قوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

قلت: بلى.. فما فيها مما نحن فيه؟

قال: أجبني أولا.. ألم تعلن قريش لرسول الله ﷺ العداوة منذ بدأت دعوته؟

قلت: بلى.. حصل ذلك.

قال: فهل امتلأت قلوب المسلمين حقدا على كل قرشي بسبب ذلك؟

قلت: لا.. بل توجهت الأحقاد إلى المحاربين.

قال: بل لم تكن للمسلمين أحقاد أصلا، فحتى المحاربين ما إن كفوا عن حرهم حتى استقبلهم المسلمون بالأحضان.

قلت: صحيح ذلك.. ولكن..

قال: فهمت قصدك.. لا ينبغي أن ينسى العاقل عداوة عدوه.. ولكن مع ذلك لا ينبغي أن تحمله عداوة عدوه على أن يتوجه بالعداوة لغيره.. هذا ما نطق به القرآن..

قلت: تقصد أن العداوة تنحصر في الأعداء..

قال: وتنحصر في وقت العداوة.. فإن تحول العدو إلى صديق زال عنه اسم العداوة.

قلت: صدقت في هذا.. فهلم بنا إلى أصدقائنا من الفرنسيين.

كوستاف لوبون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كوستاف لوبون) [١]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية، من آثاره: (حضارة العرب)[٢] (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس)

وقد أخبرتك خبره في الرحلة الماضية [٣]، وسأذكر لك اليوم بعض شهاداته التي نطق بها حول الإسلام

---

(١) كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام ١٨٤١م.

(٢) نرى أن كوستاف لوبون يعبر في الشهادات التي نذكرها عن المسلمين باسم (العرب)، باعتبار أن اللقب الشائع عن المسلمين في ذلك الوقت هو العرب.. وخاصة عند الفرنسيين.

ولا زال عندنا في الجزائر هذا التعبير حتى أن العامة عندنا يسمون المسلمين ــ ولو كانوا من غير العرب ــ بالعرب.

وليس مقصده ــ كما قد يتوهم ــ هو نسبة الحضارة الإسلامية للعرب بدل الإسلام، بدليل ما يذكره عن الإسلام من شهادات.

(٣) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (الحضارة)

والحضارة الإسلامية.

فمنها قوله، وهو يقارن بين أصول الأخلاق في القرآن وأصولها في كتب سائر الديانات: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام.. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة)[1]

ويتحدث عن عظمة القرآن وتأثيره الممتد في التاريخ الإسلامي، فيقول: (إن هذا الكتاب القرآن تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون)[2]

وله أحاديث كثيرة طيبة عن رسول الله ﷺ وتأثيره في العرب والعالم من النواحي المختلفة، منها قوله: (جمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى.. ومما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا)[3]

ويتحدث عن المكانة الرفيعة التي يحتلها محمد ﷺ بين العظماء، فيقول: (إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله)[4]

ويتحدث عن المثل العليا التي أشاعها رسول الله ﷺ، فيقول: (استطاع محمد أن يبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى)[5]

ويتحدث عن الاستراتيجية المثلى التي استعملها النبي ﷺ في توحيد الجزيرة العربية، فقال: (لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد)[6]

وهو يقارن مقارنة موضوعية بين الإسلام والمسيحية على المستويات المختلفة، فيقول: (إن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيّما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد

---

(١) حضارة العرب، ص ٤٣١ – ٤٣٢.
(٢) النتائج الأولى للحرب (عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ١/٧٤)
(٣) دين الإسلام، ص ١٦.
(٤) حضارة العرب، ص ١١٥.
(٥) حضارة العرب، ص ١١٦.
(٦) حضارة العرب، ص ٣٩٣ – ٣٩٤.

الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسه، وللإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم. إن سهولة الإسلام العظيمة تشتق من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالبًا، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله.. وأنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت)[1]

وهو يتحدث عن القابلية التي يتمتع بها الإسلام، بحيث تجعل الكل مقبلا عليه، فيقول: (الإسلام يعدّ من أشد الأديان تأثيرًا في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة.. إلخ، يعلّم هذه الأمور بسهولة يستمرئها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيمانًا ثابتًا لا تزعزعه الشبهات)[2]

ويتحدث عن أسرار تلك القابلية، فيقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال الأعراف المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا)[3]

ويقول: (ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة)[4]

ولهذا، فهو يشهد بأن الإسلام لم ينتشر بالقوة على عكس ما يذكر المغرضون، فيقول: (إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل)[5]

ويتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم مقارنة بغيره من الديانات، فيقول: (الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيبًا للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح)[6]

ويتحدث عن الأخوة التي أشاعها الإسلام بين الشعوب المختلفة، فيقول: (ليس المسلمون أجانب في نظر

---

(١) حضارة العرب، ص ١٢٥.
(٢) حضارة العرب، ص ١٢٥ – ١٢٦.
(٣) حضارة العرب، ص ٤١٧.
(٤) حضارة العرب، ص ١٢٥
(٥) حضارة العرب، ص ١٢٧ – ١٢٨.
(٦) حضارة العرب، ص ١٢٦.

بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبية اختلافًا أساسيًا)[1]

وهو يتحدث بتفاصيل كثيرة عن تأثير الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالإسلام، وعلاقتها بعد ذلك بالشعوب المختلفة، فيقول: (ثبتت أصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلت، ولم يدر في خلد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية له لغة، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند ديانات قديمة، وجعل الإسلام مصر الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربية تامة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وأفريقية لهم سادة غير أتباع محمد فيما مضى ولم يعرفوا لهم سادة غير المسلمين بعد أن رضوا بالإسلام دينًا)[2]

ويقول: (لو وفق موسى بن نصير في اجتياز أوربا لجعل أوربا مسلمة، لحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوربا، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب)[3]

ويقول: (كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الابتداع الفني)[4]

ويقول: (تأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة في العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات. والعرب، وإن تواروا أيضًا، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حية)[5]

ويقول: (وسّعت دائرة التعليم العام، واستدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم ينته إليه الأوروبيون إلا في العصر الحاضر.. ونقلت إلى العربية كتب علماء اليونان واللاتين وصارت تدرس في جميع المدارس، وبحث العرب في آثار القدماء فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك ببضعة قرون. وأقدم العرب على تلك المباحث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق: ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم)[1]

---

(١) حضارة العرب، ص ٣٨٩.
(٢) حضارة العرب، ص ٢٧.
(٣) حضارة العرب، ص ٢٦٧.
(٤) حضارة العرب، ص ٢٦.
(٥) حضارة العرب، ص ٢٦ — ٢٧.
(١) حضارة العرب، ص ١٧٣.

ويقول: (كلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا، بوضوح، أمران جوهريان.. وهما: أن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها. وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة.. أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أممًا قديمة قدم العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة)[1]

بل إنه يتجرأ، فيصرح بهذا التصريح الخطير: (لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب في جنوب فرنسا فماذا كان يصيب أوروبا؟ كان يصيب أوروبة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوروبة التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرّجت أوروبة بالدماء عدة قرون. ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقًا ليوافق على ما زعمه المؤرخ هنري مارتن في كتابه عن (تاريخ فرنسة الشعبي) من (أن أوروبة والدنيا كانت تخسران مستقبلهما). فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يُعلم أن التمدن اللامع حلّ بالبلاد التي خضعت لأتباع الرسول محل الهمجية، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قويًا في أمة مثل قوته في العرب)[2]

وهو يتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام، ويرد بذلك على الشبهات التي يثيرها المغرضون، ومن تلك الشهادات قوله: (تعد مبادئ المواريث التي نصّ عليها القرآن بالغة العدد والإنصاف.. ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات، اللائي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف، حقوقًا في المواريث لا تجد مثلها في قوانيننا)[3]

ومنها قوله: (لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذي كان موجودًا قبل ظهوره، بل كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأنها رفعًا عظيمًا بدلاً من خفضهما خلافًا للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقًا إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية.. أجل أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوربة التي قالت به، ولكنه اشترط أن يكون ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١).. وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهن قبل القرآن وبعده)[4]

ومنها قوله: (إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب، وقد ظهر مما قصّه المؤرخون انه كان لهن من الشأن ما اتفق لأخواتهن حديثًا في أوربة.. إن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة. فالإسلام، إذن، لا النصرانية، هو

---

(١) حضارة العرب، ص ٢٧.
(٢) حضارة العرب، ص ١٨٠.
(٣) حضارة العرب، ص ٣٨٩.
(٤) حضارة العرب، ص ٤٠١.

الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافًا للاعتقاد الشائع. وإذا نظرت إلى نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئًا من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب التاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظًا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى)[1]

ومنها قوله: (إن حالة النساء المسلمات الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوربة حتى عند الترك.. وأن نقصان شأنهن حدث خلافًا للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.. إن الإسلام، الذي رفع المرأة كثيرًا، بعيدًا من خفضها، و لم نكن أول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا إليه كثيرون)[2]

ومنها قوله: (إن تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوروبيين، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين)[3]

ومنها قوله: (إن النساء المسلمات قد أخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر تخرج مدارس الإناث في الغرب اليوم)[4]

ويتحدث عن صمود الإسلام في وجه كل التيارات التي حاولت أن تقضي عليه، فقال: (مع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها: لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتها.. وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحدة اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي. وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام)[5]

ويقول: (كان سلطان الإسلام السياسي والديني قويًا في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائمًا في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدمًا نحو الاتساع)[6]

ويقول: (دخلت حضارة العرب في ذمة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك أنهم ماتوا تمامًا، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشارًا مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم.. ولا يزال الإسلام جادًا في تقدمه.. واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسورية وتركية وآسية

(١) حضارة العرب، ص ٤٠٣.
(٢) حضارة العرب، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.
(٣) روح السياسة، عن (محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ١/٨٣).
(٤) روح السياسة، عن (محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ١/٨٣).
(٥) حضارة العرب، ص ١٢٦.
(٦) حضارة العرب، ص ١٨٦.

الصغرى وفارس وقسم مهم من روسية وأفريقية والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وأفريقية الجنوبية، وعرف في جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة وتقدم إلى غينيا الجديدة، ودخل أمريكا مع زنوج أفريقية.. ويتقدم الإسلام في الصين تقدمًا يقضي بالعجب.. حيث اضطر المبشرون الأوروبيون إلى الاعتراف بالحدود وسيقوم الإسلام – كما يقول وازيليف – مقام البوذية، ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرًا عظيمًا وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد)[1]

قلت: هذا رجل فاضل.. وشهاداته تعبر عن الموضوعية العلمية التي أوتيها.

قال: ولذلك تلقاه الكل بالقبول.. وقد رأيت في عينيه من الصدق ما يحيل أن تكون تلك الشهادات مجرد شهادات.

مارسيل بوازار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارسيل بوازار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مفكر وقانوني فرنسي معاصر، وقد أولى اهتمامًا كبيرًا لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين.

وله كتاب يسمى (إنسانية الإسلام)، وهو من أهم الكتب، ويعتبر علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

ولهذا، فإن شهاداته تعد بمثابة واحدة من أكثر الشهادات الغربية عمقًا وموضوعية ووضوح رؤية للإسلام.

قلت: عرفته.. لقد سبق أن حدثتني عنه في رحلتك السابقة[2].

قال: وسأحدثك اليوم عن بعض شهاداته الصادقة التي شهد بها للإسلام ونبي الإسلام.

فهو يتحدث عن رسول الله ﷺ رادا على ذلك التشويه المتعمد، فيقول: (سبق أن كتب كل شيء عن نبي الإسلام، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها. والصورة التي خلفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمته الحقيقية)[3]

ويتحدث عن الأعمال التي حوتها رسالة رسول الله ﷺ مقارنة بغيره، فيقول: (لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشرًا بدين وحسب بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)[1]

---

(١) حضارة العرب، ص ٦١٦ – ٦١ ٧.

(٢) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (إنسانية)

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٤٠ – ٤١.

(١) إنسانية الإسلام، ص ٤٢.

يوتحدث عن الكثير من خصائص رسول الله ﷺ، فيقول: (منذ استقر النبي محمد في المدينة، غدت حياته جزءاً لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها.. ولما كان منظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام.. وكما يظهر التاريخ الرسول قائدًا عظيم ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيرًا على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابدّ أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله)[1]

بل إنه لا يكتفي في ذلك، فهو يشهد لمحمد بالنبوة، رادا بذلك على من يزعم أن محمدا ﷺ هو مجرد مصلح اجتماعي، فيقول:(لقد كان محمد نبيًا لا مصلحًا اجتماعيًا. وأحدثت رسالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية ما تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر)[2]

ويقول: (مما لا ريب فيه أن محمدًا قد اعتبر، بل كان في الواقع، ثائرًا في النطاق الذي كان فيه كل نبي ثائرًا بوصفه نبيًا، أي بمحاولته تغيير المحيط الذي يعيش فيه)[3]

ويعرف القرآن الكريم، ويتحدث عن مزاياه وآثاره، فيقول: (لابدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب مترل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعًا أصليًا، وينبوع إلهام أساسي.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب)[4]

ويتحدث عن النظام الاجتماعي الذي جاء به القرآن، فيقول: (لقد أثبت التتريل برفضه الفصل بين الروحي والزمني أنه دين ونظام اجتماعي.. ومن البديهي أن التتريل والسبيل الذي ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق)[1]

---

(١) إنسانية الإسلام، ص ٤٦.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ٦١.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ٦٦.
(٤) إنسانية الإسلام، ص ٥٢ — ٥٣.
(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٠٦ — ٢٠٧.

ويتحدث عن الخصائص الكثيرة للنظم التي جاء بها القرآن، والتي تنفي عنه ارتباطه بزمن معين، فيقول: (إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة)[1]

ويقول: (يخلق الروح القرآني مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوابع الإيديولوجية التي تسند إلى الدول. ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الإسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير)[2]

بل إنه يصرح تصريحا خطيرا، فيقول: (إن الأدوات التي يوفرها التتريل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث)[3]

وهو يدعو المؤرخين ــ بدل بذل الجهد في تفاصيل الأحداث ــ إلى البحث عن الأصول الحقيقية التي ينبني عليها الإسلام من خلال مصادره الأصلية ليعرف مدى انسجام الإسلام مع المعاصرة [4]: (إن من حق المؤرخ أن يعرف أسس ثقافة دينية المرتكز وسمت تطور الإنسانية بميسمها، و لم تزل حتى اليوم مرجعًا خلقيًا وسياسيًا لملايين البشر. ومن الأهمية بمكان تحليل أفكارها الأساسية وتطور هذه الأفكار المحتمل، والكشف عن الطريقة التي حدّد بها ذلك الدين العالمي الطموح مكانة الفرد في المجتمع وتصوّر تنظيم العلاقات بين الشعوب.. إن تقديم الإسلام على أنه مجرد خصم متصارع من النظريات والبنى التشريعية المعاصرة، أمر غير معقول)[5]

ويتحدث بإعجاب عن الاقتران بين التوجيه والتشريع في الإسلام، فيقول: (لا تمييز في العقيدة الإسلامية[6] بين الموجب القانوني والواجب الخلقي.. وهذا الجمع المحكم بين القانون والخلق يؤكد قوة النظام منذ البداية)[7]

ويتحدث ــ على عكس العلمانيين من المسلمين ــ عن واقيعة وتقدمية الشريعة الإسلامية، فيقول: (أليس من الواقعية والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب الانضواء تحت لوائه؟ لسوف يسهم الإسلام في إنشاء ذلك القانون)[8]

ويقول: (لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدمية بشكل جوهري، وتفسّر هذه الخصائص انتشار الإسلام السريع بصورة خارقة خلال القرون الأولى من تاريخه)[1]

ويتحدث عن صلاحية الإسلام لكل الأزمان، فيقول: (إن القضية تتمثل في استرجاع فكرة صلاح

---

(١) إنسانية الإسلام، ص ١٠٩.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٤٣.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ٣٤٥.
(٤) وهو اقتراح أصيل، وفكرة رائدة، لأنه لا ينبغي أن يحمل الإسلام مواريث الأخطاء التي ارتكبت في تاريخه الطويل.
(٥) إنسانية الإسلام، ص ١٤، ١٥.
(٦) يقصد بالعقيدة الإسلامية هنا على حسب ما يبدو الإسلام جميعا، لا عقيدته وحدها.
(٧) إنسانية الإسلام، ص ١٨، ١٩.
(٨) إنسانية الإسلام، ص ٢٤.
(١) إنسانية الإسلام، ص ٧٤.

الإسلام لكل حين من خلال تجلياته الأبدية والماضية والمستقبلية)[1]

ويرد على الغربيين الذين يرمون الإسلام بالعجز عن تنمية نظام سياسي صالح، فيقول: (من نوافل الأمور رفض الادّعاء المتكرر آلاف المرات في الغرب عن عجز الإسلام عن تنمية نظام سياسي دايناميي. فالتاريخ يكذبه تكذيبًا مرًا وقاطعًا)[2]

ويتحدث عن الوظيفة التصحيحية التي جاء بها الإسلام، ومارسها مع الكتب السماوية، فيقول: (لم يكن من ضمن رسالة أن يبطل ما أنزل من قبله، بل أن يصدّقه ناقضًا ما لحق الكتب السماوية من تحريف وانتهاك. وكلف تطهير تعاليم الرسل السابقين من كل مخالفة، والتوسع فيها وتتميمها لتغدو ملائمة للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان)[3]

ويتحدث عن سماحة الإسلام مع الديانات والأمم الأخرى، فيقول: (فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المترلة من قبل على بعض الشعوب.. لكنه بدا أنه يرفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي حين.. أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفًا مخالفًا للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة. وأتاح منطق تعاليمه القوي وبساطة عقيدته وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية نفسها)[4]

ويقول: (لقد تألفت (أمم) من نوع معين، واتحدت، وخضعت لنظامها الديني الخاص وانخرطت في البنية الاجتماعية للمجتمع الإسلامي الذي يحميها)[5]

ويذكر مدى نجاعة الحلول الإسلامية التي وضعها للأقليات [6]، فيقول: (حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلاً لمشكلة الأقليات فريدًا في نوعه. وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن تتناول بالتحليل، لأنه ثبت أنها نهج لا مثيل له، في الوقت الذي كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور الوسطى وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحدودة للعلاقات مع الغرباء)[7]

ويتحدث عن التسامح الذي تحلى به المسلمون في تاريخهم الطويل، فيقول: (منذ بدء الفتح العربي الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحًا من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب المغلوبة. وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعًا ولا عاطفة، أصدر أبو بكر أول خليفة للنبي إلى جنوده

(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٨.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٦٥.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ٤٣.
(٤) إنسانية الإسلام، ص ١٨٤.
(٥) إنسانية الإسلام، ص ١٨٦.
(٦) انظر تفاصيل أخرى عن هذه الحلول في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، و(سلام للعالمين) من هذه السلسلة.
(٧) إنسانية الإسلام، ص ١٨٧.

التعليمات المشهورة المرنة كثيرًا التي تختصر الروح الخلقي للقانون الإسلامي)[1]

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها الزماني والمكاني، فيقول: (أن الموضوعية التاريخية — بل مجرد العدل — تدفع إلى التذكير بأن الحضارة التي تعهّدت الثقافة المتوسطة خلال القرون السبعة التي تتألف منها العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية ويعترف معظم المؤلفين اليوم بهذا الواقع)[2]

ويقول: (ألم يكن العالم الإسلامي هو الذي جمع أعمال العصور القديمة وترجمها وعلّق عليها تاركًا في أثنائها بصمات عبقريته الخاصة، قبل أن ينقلها إلى الغرب المسيحي؟ ألم يكن ابن رشد وابن سينا وغيرهما أساتذة الفكر لعدّة أجيال أوروبية؟ ألم تتخلص الفلسفة العبرية على يد الثقافة الإسلامية، من وطأة العقيدة التلمودية التي كانت قد سحقتها زمنًا طويلاً؟)[3]

ويتحدث عن بعض مزايا الحضارة الإسلامية التي أهلتها لذلك الدور العظيم الذي قامت به، فيقول: (يبدو الإسلام واقعًا سياسيًا واجتماعيًا متناغمًا، وظاهرة تاريخية جديرة بالملاحظة، وبالاختصار حضارة قدّمت مفهومًا خاصًا بالفرد، وبيّنت مكانته في المجتمع، ودفعت قدمًا ببعض المسلّمات التي تنظم اتصال الشعوب بعضها ببعض. ولم يكن من شأن هذه الحضارة، من جهة ثانية، أن أسهمت إسهامًا تاريخيًا في الثقافة الكونية وحسب، بل كان أن طمحت كذلك، وبحق، إلى تقديم حلول لأهم المعضلات الفردية والاجتماعية والدولية التي تزعج العالم المعاصر وتقلقه)[4]

ويتحدث عن ربانية المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، فيقول: (يدل التاريخ على وجود ثابتة مطلقة في الحضارة الإسلامية كانت متمحورة منذ البدء تمحورًا تامًا حول الله، وما تزال كذلك. وهذه الظاهرة التي غالبًا ما تخفى على الفكر والتحليل الغربيين الحديثين تضفي على الإسلام طابع الديمومة)[5]

ويتحدث عن الأصول التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، فيقول: (ما كان الإسلام يستقر، متأثرًا بالمبادئ القرآنية الخلقية الجوهرية ومفيدًا من الثقافة المرهفة لبعض الشعوب المفتوحة بلادها، حتى ظهر على أنه مشعل حضارة)[6]

وفي مؤتمر من المؤتمات كان الحديث عن المرأة، وقد وقف بعض المحاضرين موقفا سيئا من موقف الإسلام من المرأة، فقام هذا الأستاذ الفاضل ليعقب عليه، وقد سجلت من تعقيباته قوله: (ليس في التعاليم القرآنية ما يسوّغ وضع المرأة الراهن في العالم الإسلامي. والجهل وحده، جهل المسلمة حقوقها بصورة خاصة، هو الذي

(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٧٨.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ١٢.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ١٢ — ١٣.
(٤) إنسانية الإسلام، ص ٣٣.
(٥) إنسانية الإسلام، ص ٣٦ — ٣٧.
(٦) إنسانية الإسلام، ص ٢٥٣.

يسوّغه)[1]

وقوله: (أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد أنها حامية حمى حقوق المرأة التي لا تكلّ)[2]

وقوله: (كانت المرأة تتمتع بالاحترام والحرية في ظل الخلافة الأموية بإسبانيا، فقد كانت يومئذ تشارك مشاركة تامة في الحياة الاجتماعية والثقافية، وكان الرجل يتودّد لـــ(السيدة) للفوز بالحظوة لديها.. إن الشعراء المسلمين هم الذين علموا مسيحي أوروبا عبر إسبانيا احترام المرأة)[3]

وقوله:(إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء ويعاملهم بطريقة (شبه متساوية)، وتهدف الشريعة الإسلامية بشكل عام إلى غاية متميزة هي الحماية، ويقدّم التشريع للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق ويبدي اهتمامًا شديدًا بضمانها. فالقرآن والسنة يحضّان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف، وقد أدخلا مفهومًا أشد خلقية عن الزواج، وسعيًا أخيرًا إلى رفع وضع المؤمنة بمنحها عددًا من الطموحات القانونية. وتشمل حقوق المرأة – وهي (مقدسة) وفقًا لحديث نبوي – بشكل أساسي: المساواة أمام القانونوالملكية الخاصة الشخصية، والإرث)[4]

وقوله: (لقد خلقت المرأة في نظر القرآن من الجوهر الذي خلق منه الرجل. وهي ليست من ضلعه، بل (نصفه الشقيق) كما يقول الحديث النبوي (النساء شقائق الرجال)[5]المطابق كل المطابقة للتعاليم القرآنية التي تنص على أن الله قد خلق من كل شي زوجين. ولا يذكر التزيل أن المرأة دفعت الرجل إلى ارتكاب الخطيئة الأصلية، كما يقول سفر التكوين. وهكذا فإن العقيدة الإسلامية لم تستخدم ألفاظًا للتقليل من احترامها، كما فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها (عميلة الشيطان). بل إن القرآن يضفي آيات الكمال على امرأتين: امرأة فرعون ومريم ابنة عمران أم المسيح)[6]

وفي موقف آخر جرى الحديث فيه عن انتشار الإسلام وصموده، قال فيه: (هاهو الإسلام يؤكد طموحه السياسي على المستوى العالمي ويتابع انتشاره بانتظام، ولا سيما في أفريقيا السوداء. وإذا نُظر إلى قيام الإسلام ووحدته، تبين أنه ليس مجرد جسم ميّت نقشت عليه ذكرى ماضي مجيد، وإنما هو واقع حيّ حقًا)[7]

وهو يبين حقيقة أن الإسلام هو وراء حفظ المسلمين، وحفظ البلاد الإسلامية من كل دخيل، فيقول: (ثبت أن الإسلام روح كل مقاومة يبديها شعب مغلوب سياسيًا.. ومحكّ كل مقاومة.. وفي أفريقيا ساهم الدين في إقامة مجتمع جديد خارج النطاق القبلي أكثر جدارة بمقاومة التأثير الأجنبي. وفي آسيا تماسك الإسلام

---

(١) إنسانية الإسلام، ص ١١٤.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ١٤٠.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ١٠٨.
(٤) إنسانية الإسلام، ص ١٠٩-١١٠.
(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.
(٦) إنسانية الإسلام، ص ١١٣.
(٧) إنسانية الإسلام، ص ٣٥.

المرن ونما في وجه النفوذ الاستعماري.. وقد حمل الإسلام في أكثر الأحيان راية الصراع مع الاستعمار)[1]

ويتحدث عن ضروة الإسلام للنهضة الإسلامية، فيقول: (يتمثل الذي يجد فيه العالم الإسلامي المعاصر نفسه في قدرته.. على إيجاد الوسائل اللازمة لتحقيق (نهضة) فكرية وسياسية، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة من دون الإسلام)[2]

ويقول: (يظهر أن التغيير السياسي – الاجتماعي اللازم للتكيف مع العالم العصري يظل مشروطًا، بشكل واسع، بقيام (نهضة) دينية، لأن الإسلام الراشد يرفض فصل الروحي عن الزمني)[3]

وهو يبرئ الإسلام من الجمود الذي يقع فيه المسلمون، فيقول: (إن هناك إجماعًا على الجهر بأنه لا يمكن اعتبار الإسلام مسؤولاً عن جمود العالم الإسلامي الطويل وانحطاطه الواضح. بل تعزى الأمراض الحاضرة على العكس من ذلك إلى المسلمين الذين أهملوا العيش وفق مبادئ دينهم. وإذا كانوا قد فقدوا الرخاء المادي الذي كانوا ينعمون به تاريخيًا، فلأنهم بالتحديد أهملوا التقيد بـــ (نصف الشريعة الإلهية) ولكشف النقاب الذي انسدل على العالم الإسلامي ينبغي أن نلحّ على الطابع العقلاني الكامل للتنزيل وعلى الطاقات اللامحدودة الكامنة في السّنّة النبوية. فحين كان المسلمون يحيون حسب إرشادات الدين التي تحضّ على التفكير وتشجع الروح النقدي، أثبت الإسلام أنه حامل مشعل التقدم والرقي)[4]

قلت: ما أصدق هذا الرجل.. وما أعظم فهمه للإسلام.. إن كثيرا من المسلمين يحتاجون إلى التتلمذ عليه ليعرفوا قيمة دينهم.

قال: صدقت.. لقد رأيت من المسلمين من يناقشه مناقشة شديدة، حتى خلت المسلم كافرا والكافر مسلما.

قلت: الإسلام والكفر حكمان لله.. ولعل فضل الله يكون قد تدارك هذا الرجل الفاضل ليكتب في قلبه الإيمان الذي عاش يدافع عنه.. وقد قال ﷺ:« إن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة »[5]

ريجيس بلاشير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ريجيس بلاشير) [6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

---

(١) إنسانية الإسلام، ص ٣٠٠ – ٣٠١.
(٢) إنسانية الإسلام، ص ٧٥.
(٣) إنسانية الإسلام، ص ٧٨.
(٤) إنسانية الإسلام، ص ٣٠٥.
(٥) رواه البخاري ومسلم، وهذه رواية من روايات الحديث.
(٦) بلاشير ١٩٠٠-١٩٧٣ (R. L. Blachere)، ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر (١٩٢٢)، وعين أستاذًا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديرًا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (١٩٢٤-١٩٣٥)، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذًا لكرسي الآداب العربي

باحث فرنسي اهتم باللغة العربية وبالأدب الإسلامي، وقد قاده ذلك إلى الاهتمام بالقرآن، وقد سمعت له بعض الشهادات الطيبة عن القرآن وحفظه وإعجازه، سأكتفي بأن أسردها لك سردا:

(إن الفضل يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان لإسهامه قبل سنة ٦٥٥هـ في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نصّ كتابهم المترل، على مدى الأجيال القادمة)[١]

(لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني اللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المترلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد قد أخطئوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم — استقرائيًا فقط — بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول ذكرها في هذه السور اندفاعًا وألقًا وجلالة تخلّف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا)[٢]

(إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضًا ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجّلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رتّله المؤمنون)[٣]

(الإعجاز هو المعجزة المصدقة لدعوة محمد الذي لم يرتفع في أحاديثه الدنيوية إلى مستوى الجلال القرآني)[٤]

(في جميع المجالات التي أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التي فرضها إخراج الشريعة الإسلامية. وهناك مجالات أخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل أساسي.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية)[٥]

(إن معجزة النبي الحقيقية والوحيدة هي إبلاغه الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلّف بالمهام الثقيلة العبء وهي حمل النور إلى عرب الحجاز في أوائل القرن السابع؟إن محمدًا لا يبدو في القرآن إطلاقًا، منعمًا عليه بمواهب تترهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع في نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يصرّح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق فإن:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا

(١٩٣٥-١٩٥١)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦)، وعين أستاذًا محاضرًا في السوربون (١٩٣٨٩)، ومشرفًا على مجلة (المعرفة)، التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧-١٩٥٢)، وغيرها.

(١) تاريخ الأدب العربي ٢/٢٢.
(٢) تاريخ الأدب العربي، ٢ / ٣١.
(٣) القرآن الكريم، ص ١٠٢ — ١٠٣.
(٤) القرآن الكريم، ص ١٠٤ — ١٠٥.
(٥) القرآن الكريم، ص ١٠٤.

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الكهف: ١١٠) وهو لم يتلق أي قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتخب ليكون منذرًا ومبشرًا للكافرين. إن نجاح رسالته مرتبط إذن في قيمتها الإحيائية وإلى شكلها المنقطع النظير. و لم يكن محمد رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعرًا، فإن الأخبار التي روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما إذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فنّ ارتجال الشعر. وعندما قال عنه المكّيّون المشركون أنه شاعر، أو حين عرّضوا بأن مصدر الوحي جنّي معروف أزال الله عنه هذه التهمة:﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ، لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (يس: ٦٩—٧٠) وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حد الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، كظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر)[١]

(أما عن انتصار الإسلام فثمَّة أسباب تداخلت وفي طليعتها القرآن والسنة وحالة الحجاز الدينية، ونصح وبيان وأمانة الرجل المرسل لإبلاغ الرسالة المترلة عليه)[٢]

إميل درمنغم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إميل درمنغم E. Dermenghem فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر إبان الاستعمار، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس ١٩٥٥م)، ونشر عددًا من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية) وغيرها.

ولهذا الرجل الفاضل شهادات قيمة عن القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية سأبث لك منها ما يسمح به الوقت:

فهو يشهد بالاحترام العظيم الذي ناله المسيح في المصادر الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم، فيقول: (للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يَذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم)[٣]

وهو يرد على المقولة التي كانت تردد في ذلك الوقت عن كون الدين أفيون الشعوب، بقوله: (سيكون القرآن حافزًا للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضًا على القتال جامعًا لشؤونه، محركًا

---

(١) تاريخ الأدب العربي: ٢ / ١٤ — ١٥.
(٢)تاريخ الأدب العربي: ٢ / ٥٠.
(٣) حياة محمد، ص ١٣١ — ١٣٢.

لفاتري الهمم، فاضحًا للمخلّفين مخربًا للمنافقين، واعدًا الشهداء بجنات عدن)[1]

ويتحدث عن القرآن ومدى الجدية التي نالت حفظه، فيقول: (كان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أمينًا مصغيًا أو سجلاً صادقًا أو حاكيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة.. ولابد لكل نبي من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة [2]، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياة الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه)[3]

ويتحدث عن مظاهر الصدق التي تدل على أن القرآن الكريم ليس افتراء من محمد ﷺ، فيقول: (كان لمحمد بالوحي آلام كبيرة.. وحالات مؤثرة كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر ذات يوم، والحزن ملء قلبه، بدء الشيب في لحية النبي فقال له النبي: (شيّبتني هود وأخواها: الواقعة والحاقة والقارعة). وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيطبه بالمراهم، وكان يدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين. وكان إذا نزل الوحي عليه يتحدر جبينه عرقًا في البرد)[4]

ويقول: (كان محمد، وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحي إليه أحيانًا على غير جدوى، فيألم من ذلك، ويود لو يأتيه الملك متواترًا)[5]

ويتحدث عن بعض مواقف رسول الله ﷺ الدالة على صدقه بإعجاب، فيقول: (ولد لمحمد، من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيرًا ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنما انكسفت لموته، ولكن محمدًا كان من سموّ النفس ما رأى به ردّ ذلك فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد..)[6] فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال)[7]

ويقول: (إن محمدًا الذي خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلّغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين.. وكان ينهى عن عدّه ملكًا.. ولقد نال

---

(١) حياة محمد، ص ١٩٥.

(٢) وهذا لا يعني أنه ليس لرسول الله ﷺ معجزات حسية، وقد سبق تفصيل ذلك والمقارنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات المسيح في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

(٣) حياة محمد، ص ٢٨٩ – ٢٨٠.

(٤) حياة محمد، ص ٢٨٣.

(٥) حياة محمد، ص ٢٨٥.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) حياة محمد، ص ٣١٨.

السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته)[1]

ويتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل نجاح الدعوة، فيقول: (تجلت بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أنهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة)[2]

ويقول: (الحق أن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي. وليس لدينا ما نعرف به أن محمدًا أبصر، حين أفاض من جبل عرفات، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحسّ ببصيرته أن العرب الذين ألّف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية وإسبانية)[3]

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الإسلام ينتشر بدل خرافة السيف، فيقول: (إن الذي أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلّب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد في القرن السابع من الميلاد، وفرق النصرانية الضالة هي التي كان محمد شاهدًا عليها، وهو الذي لم يعرف غيرها، والمسائل المشكوك فيها الكثيرة التي مصدرها ما أدخله اليهود على التلمود وغيره)[4]

ويقول: (لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففي القرآن:﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبأن لا يبدؤوا بالاعتداء)[5]

ويقول: (كتب الفوز للعرب لأنهم كانوا أهلاً للفوز، وتمّ النصر للإسلام لأنه عنوان رسالة كان الشرق كثير الاحتياج إليها، واحتمل المسلمون ضروب العذاب قبل الهجرة ولم يستطيعوا لها ردًا، فلما كانت الهجرة وكان ما أبدوه من المقاومة، والنصر، اتخذوا التسامح الواسع دستورًا لهم. أجل لم يبق للمشركين مقام في دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيها حق الحماية وحرية العبادة وما إليهما وصاروا من المجتمع إذا ما أعطوا الجزية. قال النبي: (من آذى ذميًا فأنا خصمه)، وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحي الإسلام بذلك ولم يرو التاريخ أن المسلمين قتلوا شعبًا، وما دخول الناس أفواجًا في الإسلام إلا عن رغبة فيه، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فاتحًا أمر بأن لا يمسّ النصارى بسوء وبأن تترك لهم كنائسهم، وشمل البطرك بكل رعاية رفض الصلاة في الكنيسة خوفًا من أن يتخذ

---

(١) حياة محمد، ص ٣٦٠.
(٢) حياة محمد، ص ٣٥٩.
(٣) حياة محمد، ص ٣٦٨ – ٣٦٩.
(٤) حياة محمد، ص ١٣٧.
(٥) حياة محمد، ص ١٩٦.

المسلمين ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد. وهنا نقول ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزاة ما بلغت به ركبهم. وعقد النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى)[1]

ويتحدث عن عدالة الشريعة الإسلامية ورحمتها وآثارها، فيقول: (كان للدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع وفي تقدم الصحة أيضًا، فقد حسن بها مصير المرأة، وحرّم بها الزنا والمتعة وحياة الغرام، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادتهن. والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامه فعدّ فك الرقاب من الحسنات ومكفرًا لبعض السيئات)[2]

ويقارن بين موقف الإسلام من الغرائز مع موقف المسيحية، فيقول: (تُعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصراني أحيانًا معارضة مصنوعة فالإسلام وإن بدا أكثر تسامحًا في الميل الجنسي، لم يكلف نفسًا إلا وسعها ويرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي، ولكن زهد الصوفية المسلمين يعدل زهد نساك جميع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمر وفرض الصوم الصارم الذي لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكن المسلمات ملزمات بهندام وزي يبتعدان كثيرًا عن الأزياء الأوروبية العصرية، فمن العبث إذن أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأدبين مع اختلاف في النظر والعمل وتباين في النظريات نفسها)[3]

ويقول: (كان كثير من المسلمين يكثرون من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط. فأشار بالاعتدال في التقشف وبترك كل ما يميت النفس، وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجدع الأنوف)[4]

ويتحدث عن امتزاج الدنيا بالآخرة والعبادة بالحياة في القرآن الكريم، فيقول: (على ما تراه في دعوة النبي من المبادئ الأخروية لم يأل النبي جهدًا في تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيمًا عمليًا، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب الزبور)[5]

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية في التنوير الذي حصل لأوروبا والمسيحية[6]، فيقول: (كانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدرًا وخزيًا كبيرًا على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة.. وكان سلطان العرب غلاً أكرهت به أوروبا على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقي)[7]

ويتحدث عن الخلاص الذي قدمه الإسلام للبشرية، فيقول: (إن العرب إذ صار لهم سيد دان له الجميع..

---

(١) حياة محمد، ص ٣٦٩ — ٣٧٠.
(٢) حياة محمد، ص ٢٩٠.
(٣) حياة محمد، ص ٢٩٢.
(٤) حياة محمد، ص ٢٩٧ — ٢٩٨.
(٥) حياة محمد، ص ٢٩٧ — ٢٩٨.
(٦) انظر ما يثبت ذلك في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص) من هذه السلسلة.
(٧) حياة محمد، ص ١٤٤.

وصارت لهم روح عامة ومبدأ واحد، أصبحوا من القوة ما استطاعوا به أن يكونوا ذوي شأن في العالم.. وكانوا مستعدين ليرثوا الدول العالمية المتحضرة. [وهم] على خلاف الجرمان والوندال والبرابرة بدوا وارثين مستعدين لتمثيل دورهم في التاريخ والصعود توًا في سلّم الحضارة. وكان ظهورهم في الوقت المناسب.. فأنقذوا العالم من الانهيار، وأخذوا المصباح من أيدي البيزنطيين والفرس العاجزة فكان دور خلفاء بني أمية وبني العباس الذي يعد من أنضر أدوار التاريخ، وذلك قبل أن ينتقل هذا المصباح في القرن الثالث عشر إلى ما بين البارتنون وشارتر. والعرب لو تركت حبالهم على غواربهم ما قاموا بغير التخريب.. ولكنهم جلبوا معهم الإسلام والمروءة حين قبضوا على زمام المدنيات القديمة التي كادت تنحلّ فازدهرت بفضلهم)[1]

وفي حديث له عن المرأة قال: (مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسّن حالها، قال عمر بن الخطاب:« ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى في أمرهن مبينًا لهن »، وقال النبي: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم). أجل، إن النبي أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرها وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق.. ولم يكن للنساء نصيب في المواريث أيام الجاهلية.. فأنزلت الآية التي تورّث النساء. وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأمرٌ بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء.. وأباح تعدد الزوجات.. ولم يوصي الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات فيهب لإحداهن إبرة دون الأخرى.. وأباح الطلاق أيضاً مع قوله: (أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق). وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك، ولم يفرضه كتاب العهد القديم على الآباء، وإذا كان هذا قد أصبح سنة في النصرانية فذلك لسابق انتشاره في بلاد الغرب، وذلك من غير أن يحمله رعايا نيرون إلى بلاد إبراهيم ويعقوب.. وأيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعي أم تعدد الزوجات السّرّي؟.. إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر »[2]

ويرد على بعض الشبه المرتبطة بهذا، فيقول: (من المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة في الإسلام قد جردت من نفوذها زوجة وأمًّا كما تُذم النصرانية لعدّها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنها إياها، فعلى الإنسان أن يطوف في الشرق ليرى أن الأدب المنزلي فيه قوي متين وان المرأة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية ولا تحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا، ولم يكن العالم الإسلامي ليجهل الحب المنزليّ والحب الروحي، ولا يجهل الإسلام ما أخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذري)[3]

وهو يتحدث عن تأثير غياب الإسلام عن المجتمع الإسلامي، فيقول: (كان الانحطاط السياسي والاجتماعي موازيًا لنسيان مبادئ الإسلام الصحيح مع أنه لم ينشأ عنها، واليوم يظهر أن الأمم الإسلامية تنهض وهي تستطيع أن تمثل دورًا كبيرًا فتكون أداة وصل بين الغرب والشرق الأقصى وتكون ذخرًا من أذخار

---

(١) حياة محمد، ص ٣٦٩.
(٢) حياة محمد، ص ٣٢٩-٣٣١.
(٣) حياة محمد، ص ٣٣١.

العالم القديم)[1]

قلت: ما أصدق هذا الرجل.. وما أروع شهاداته.

ثم أضفت أقول: هذا مع تخلفنا عن ديننا.. فكيف لو عدنا إليه؟

قال: لو عدتم إليه كما طلب منكم لرأيتم العالم كله بين أيديكم يتتلمذ عليكم.

قلت: العالم الآن كله يحاربنا.

قال: لأنكم حلتم بينه وبين شمس الحقيقة.. فلذلك ترونه ينتقم منكم، وأنتم تتوهمون أنه ينتقم من الإسلام.

الكونت هنري دي كاستري:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الكونت هنري دي كاستري) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من من أكثر المستشرقين إنصافاً للاسلام، وله في هذا كتاب سماه (الاسلام خواطر وسوانح)، وقد ذكر في هذا الكتاب غايته من تأليفه، فقال:(إن غاية ما يرمى إليه هو إطلاع مواطنيه على صورة صحيحة للأسلام حتى يحاطوا بأصدق المعلومات عن العقيدة التي يعتنقها بعض رعاياهم في القارة الافريقية، مما يسهل لهم التفاهم معهم والسيطرة عليهم)

وقد ذكر في مقدمته الظروف التي دعته الى تأليفه، فقال: (ذات يوم عندما كنت ضابطاً في الجيش الفرنسي بالجزائر خرجت أجوب الصحراء في ولاية وهران وخلفي ثلاثون من الفرسان العرب.. وعندما حان وقت الصلاة، ترجلوا عن جيادهم واصطفوا لأداء صلاة العصر جماعة.. وجعلتُ أشاهد حركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله أكبر، الله أكبر، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذًا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين.. وكنت أشعر بأنهم في صلاتهم تلك أرفع مني مقامًا وأعزّ نفسًا.. وهم يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقًا وإيمانًا.. فأحسست أنني منجذب بحلاوة الإسلام كأنني أول مرة شاهدت في الصحراء قومًا يعبدون خالق الأكوان)[3]

وقد وصف شعوره ــ عندما أضطر أن يتنحى جانباً حتى يفرغوا من أداء صلاتهم ــ فقال:(كنت أود لو أن الارض انشقت فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع (الله أكبر.. الله أكبر) فكان لهذا الاسم الإلهي أثر عجيب في نفسي، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه بسبب الحياء والانفعال.. كنت أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً وأعز نفساً)

---

(١) حياة محمد، ص ٣٧١ ٣٧٢.

(٢) الكونت هنري دي كاستري (١٨٥٠-١٩٢٧)، مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولنـــدي إلى المغـــرب) (١٩٢٦)، وغيرهما.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢ – ٣.

ثم ذكر كيف دفعته تلك الخواطر الى الاستزادة من التعرف على مبادئ الإسلام ، فكان من أهم ما لفت نظره الأسلوب الذي أنتشر به الاسلام.. وكيف قاومه العرب في البداية ، ثم استجابوا له فرادى وأفواجا، فقال:(لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء الفتوحات الاسلامية مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع ارجاء العالم)

ثم ضرب مثلا على ذلك بوجود عدة ملايين من المسلمين في الصين، مع أن الفتوحات الاسلامية لم تبلغ تلك البلاد، كما ضرب المثل بانتشاره بين الملايين من سكان القارة الافريقية !

ثم قال: (وهكذا جلب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس)

وتحدث كاستري عن تعذر إخراج المسلمين عن دينهم عندما تناول الصعوبات العديدة التي اعترضت سبيل المبشرين الفرنسيين في مستعمراتهم الإفريقية ومنها الجزائر ــ لحمل المسلمين على نبذ دينهم ــ فقال:(إن الإسلام ليس في أهله من يمرق عنه إلى غيره ، وبعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر ، حتى أنهم لا يجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتيه، كما أنهم تحيروا في وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية ، لأن فيها معنى من معاني الردة)

بعدها قارن (كاستري) بين العجز عن حل المسلمين على ترك دينهم، ومايلقاه المسلمون – في الوقت نفسه – من يسر في أقناع غيرهم باعتناق دينهم.

ثم اختتم كاستري كتابه بقوله: (لو لم يكن للإسلام من فائدة إلا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين إلى موحدين ، وترقية أخلاقهم ومكانتهم، لكفى بذلك داعيا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال ، جريا على قاعدة العمل بأخف الضررين)

سكت الباب قليلا، ثم قال: هذا عرض مختصر لما جاء في كتابه، وسأذكر لك الآن بعض شهاداته التي أهلته لأن يصادق الإسلام:

فمنها شهادته عن الإعجاز القرآني، والتي يقول فيها: (إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى.. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدًا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب.. لخر ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم

العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)[1]

ويقول: (أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرًّا من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله)[2]

ويتحدث عن مواضع الاتفاق بين القرآن والكتاب المقدس، ويفسره التفسير الصحيح[3]، فيقول: (قد نرى تشابهًا بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة.. إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين)[4]

وفي موضع آخر يعلل ذلك الاتفاق بقوله: (إن دين الأنبياء كان كله واحدًا فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلى التوراة كالتوراة بالنسبة إلى الزبور وإن محمدًا بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى، ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي يتزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً. إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله.. على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبدوه فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرّعات وتجانست أصوات الدعاء)[5]

ويتحدث عن العقيدة الإسلامية ومدى انسجامها مع العقل، واستحالة أن يكون مصدرها يهوديا أو نصرانيا، فيقول: (لا إله إلا الله) ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد متره عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقًا هم المؤمنون.. ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته)[6]

ويتحدث عن انسجام الإسلام مع الفطرة، فبينما نرى تشدده في نواحي العقيدة نرى تساهله فيما يرتبط بالغرائز التي تقتضيها الفطرة، فيقول: (لقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها، ولكنه تسامح للناس كثيرًا في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله، ولكن لا يجب عليه أن

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٨ – ٢٠.
(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٠.
(٣) انظر الأدلة على هذا في رسالة (كلمات مقدسة) من هذه السلسلة.
(٤) الإسلام: خواطر وسوانح ص ٢٢ – ٢٣.
(٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٣ – ٢٤.
(٦) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٧ – ١٨.

يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها.. ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه. فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي، فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الإسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أممًا كثيرة من المسيحيين، وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الإنساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الإسلامية. هكذا جذب الإسلام قسمًا عظيمًا من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس مرات في كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئًا مما يشتهون)[1]

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام بين المسلمين، فيقول: (إن الرابط عند المسلمين هي أشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التي تدين بدين واحد، لأن القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي)[2]

ويتحدث عن الأخلاق التي كانت تحكم الفتوحات الإسلامية، فيقول: (إن [أتباع] محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة هي التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة إذا أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق إلى أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي ولم يتركوا أثرًا للتعسف في طريقهم إلا ما كان لابد منه في كل حرب وقتال، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.. فكلما التقى المسلمون بأمة خيروها بين واحد من ثلاثة الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها. هكذا كانت الأوامر التي زود بها أبو بكر الصديق خالد بن الوليد من أنفذه إلى الشام)[3]

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (إذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقرارًا منظمًا رأيناه أكثر محاسنة وأنعم ملمسًا بين مسيحيي الشرق على الإطلاق. فما عرض العرب أبدًا شعائر الدين المسيحي بل بقيت روما نفسها حرّة في المراسلات مع الأساقفة الذين ما زالوا يرعون الأمة الخالية.. وكان الوئام مستحكمًا بين المسلمين والمسيحيين.. ومع هذه المسالمة العظيمة من جانب المنتصر مع المغلوب، ضعفت الديانة النصرانية جدًا ثم زالت بالمرة من شمال أفريقيا.. ولم يكره أحد على الإسلام بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب. نعم قد اعتنق الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح.. وصار من اللازم أن يثبت الإسلام لمن أراده على يد القاضي ويحرر بذلك محضر يذكر فيه أن المسيحي اعتنق الإسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره، إذ لا يجوز أن يكره أحد على تغيير دينه)[1]

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٣.
(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٥ – ١٠٦.
(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٣٥ – ٣٦.
(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٣٩ – ٤٠.

ويقول: (قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسايرة ولطف مجاملة وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين آنذاك)[1]

ويرد على خرافة انتشار الإسلام بالسيف، فيقول: (إن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال أن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سببًا في سقوط المملكة العربية. ومن المظنون أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالأمم الساكسونية، لأخلدت إلى الإسلام واستقرت عليه، لأنها مع تمتعها بحرية دينها المسيحي كانت كثيرة الانشقاق والأحزاب. وما لنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغي الوقوف عنده وهو أن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية في أفريقيا الشمالية وفي قسم عظيم من آسيا حتى إنه وجد في بلاد الأندلس من المسيحيين المتنورين من تركوا دينهم حبًا في الإسلام كل هذا بغير إكراه، إلا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون أن يكون للإسلام دعاة وقوّام مخصصون وهو ما يقنعنا بأن للإسلام جاذبية وقوة انتشار.. لأنه لا يزال ينتشر حتى الآن)[2]

ويقول: (إننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقي أثرًا لما زعموه من أنه إنما انتشر بحدّ الحسام. ولو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة)[3]

ويرد على الشبه الكثيرة المثارة حول موقف الإسلام من تعدد الزوجات، فيقول: (إن الناس بالغوا كثيرًا في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين إن لم نقل أن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح. فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول انه من شأنه تلطيفها، على أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السّواح الذين يرون أمرًا في فرد فيجعلونه عامًّا من غير تثبيت فيه لولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئًا يملأون به مؤلفاتهم والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحث في الشرق بأجمعه لأن النبي بالغ في تحريمها و لم يعدها من الذنوب الخفيفة)[4]

ويقول: (لم يقتصر القرآن في التضييق على تعدد الزوجات على عددهن، بل حرم ما كان معروفًا عند العرب قبله من الزواج لزمن محدد وفي ذلك شبه تحريم للطلاق لكونه لا يتأتى إلا بشروط مخصوصة)[5]

ورد على الشبهات التي يثيرها المغرضون حول عقد الزواج في الإسلام، فيقول: (من الخطأ الفاضح والغلو الفادح قولهم أن عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئًا مملوكًا لزوجها لأن ذلك

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٤٤.
(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٦.
(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٤٨ — ٥٠.
(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٦.
(٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٧ – ٥٨.

العقد يخول للمرأة حقوقًا أدبية وحقوقًا مادية من شانها إعلاء مترلتها في الهيئة الاجتماعية)[1]

ويتحدث عن قيم العفاف التي اهتمت التشريعات الإسلامية بنشرها، فيقول: (إننا لو رجعنا إلى زمن النبي ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه فهن مدينات لنبيّهن بأمور كثيرة وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن على الرجال.. ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم.. ولقد أصبحت للمسلمين أخلاق مخصوصة، عملاً بما جاء في القرآن أو في الحديث، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار، وجاء هذا مغايرًا لآداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم ومزيلاً لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين إلى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض. والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والأرض)[2]

ويتحدث عن استمرار نشر الإسلام في العالم رغم المكايد الكثيرة التي يتعرض لها، فيقول: (إن للمسلمين في الصين مترلة علية.. ويخمّن (وازيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالإسلام في تلك النواحي أن مصيره القيام مقام مذهب (بوذا) وأن لمسلمي الصين اعتقادًا جازمًا بأن الإسلام لابدّ أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البوذية، وهي مسألة من أهم المسائل، إذ الصين آهلة بثلث العالم أو تزيد، فلو صاروا كلهم مسلمين لأوجب ذلك تغييرًا عظيمًا في حالة تلك البلاد بأجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادي ويخشى على الدين المسيحي مرة أخرى ومعلوم أن أمة الصين أمة عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الإسلامي ذو البأس القوي لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها وقال (مسيو مونتيه) لقد صار من المحقق أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية)[3]

ويقول: (قال (مسيو مونتيه): أن أكثر انتشار الإسلام في أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدمًا سريعًا وينجح نجاحًا كليًا لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة في الجهة الشمالية.. فلا ينازع الدين الإسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام)[4]

ويقول: (إن الإسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين في أواسط أفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن. وله كذلك في الشمال الشرقي من بلاد الزنج وفي السودان ما يدل على قوته الغريبة وسيره المدهش. إذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدي ومملكة إمام جغبون [السنوسية] منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية التي أرادها النبي الإسلامي كذلك توجد في الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة في شمال أفريقيا وهي على نسقها ولا تزال تقاوم هجمات الديانات المسيحية ظافرة عليها ونعني بها مملكة

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص٥٧.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٨ — ٥٩.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٧ — ٨٨ (عن مسيو دابري: الديانة المحمدية في الصين وتركستان الشرقية، باريس ١٨٧٨).

(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٨ — ٨٩.

مراكش)[1]

ويتحدث عن الصمود الذي يبديه المسلمون تجاه حملات التنصير، فيقول: (إن استعصاء المسلمين على التنصّر بواسطة المرسلين واستحالة إخضاعهم بالقوة، هما السببان اللذان يعترضان تنصّرهم. والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعرفين بوجوب العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملوا من الجهاد في سبيلها أمام صلابة الإسلام.. ولكنهم لم يحوموا حول مسألة الدين مطلقًا، وهم إنما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الأحبار، وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا في إدخال الإنجيل بين العرب فقد كانوا من أحسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنساوية)[2]

(مضى على الإسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال الفرنساوي، بسبب مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد، ولو أن تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتدارًا على قذفنا في البحر لتقيم بعدنا مملكة إسلامية جامعة (بين السلطتين الدينية والسياسية) لاقتحمت الأخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيدًا لذلك هم يقصرون مساعيهم على إحياء روح البغضاء في نفوس تابعيهم.. وأكبر الطوائف وأشدها تمسكًا بمبدئها هي طائفة السنوسية وهي التي يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الإسلام، وهو رجل رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنساوية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام، وعلم سيدي السنوسي ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين.. فناداهم أن اخرجوا من دياركم إن أرض الله واسعة.. وانتقل إلى صحراء ليبيا الشاسعة حيث لحق به الواردون من كل مكان رغم جفاء الصحراء)[3]

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وما كان يتحلى به من الصدق والأمانة معتبرا ذلك محل اتفاق، فيقول: (إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علّني أجد في هذا البحث دليلاً جديدًا على صدقه وأمانته المتفق تقريبًا عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي)[4]

ويتحدق عن أصالة رسالة النبي ﷺ، فيقول: (ثبت إذن أن محمدًا لم يقرأ كتابًا مقدسًا ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)[5]

ويقول: (لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة ولم يقبل المتكلمون من المسيحيين لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين.. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليه السلام.. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل في كل

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٠.
(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٤.
(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١١٣ – ١١٤.
(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٦.
(٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٦.

حال)[1]

ويقول: (لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلن يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني الدور المدني وما أُوتيه من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغًا لا محل للزيادة فيه.. وما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحًا.. وكان قنوعًا خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.. تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيرًا ولا حشما، وقد احتقر المال)[2]

ويتحدث عن الآلام الكثيرة التي تحملها رسول الله ﷺ في سبيل تعليم الناس حقائق الإسلام، فيقول: (ولقد نعلم أن محمدًا مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلامًا نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنًا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك.. إلا أن يقول مرارًا ويعيد تكرارًا هذه الكلمات (الله أحد الله أحد). كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد)[3]

قلت: هذه شهادات صادقة تحيل أن يكون صاحبها مجرد متحدث عن الإسلام.

قال: صدقت.. عسى الله أن ينفعه بما قال.. فالله لا يضيع عنده شيء.

جاك. س. ريسلر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جاك. س. ريسلر)[4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسي.. بحث في الإسلام.. وصدق فيما بحث.. فلذلك أنطقه الله بشهادات كثيرة، سأذكر لك بعضها:

منها شهادته عن لغة القرآن وجمالها، بحيث يستحيل ترجمتها، فيقول: (لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢١.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٤.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٦ – ١٧.

(٤) جاك. س. ريسلر J. S. Restler باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا كان ملهمًا بجلال الله وعظمته)[1]

ويتحدث عن معارف القرآن، وتأثيرها الممتد، فيقول: (كان في القرآن فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف.. وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن في نصه الأصلي)[2]

ويتحدث عن النظام الذي جاء به القرآن، والذي يحل جميع الإشكالات التي قد تعرض للفرد والمجتمع، فيقول: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ..)[3]

ويتحدث عن امتداد الشريعة التي جاء بها القرآن ورسوخها، فيقول: (حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم و لم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ولا لتبديلات بعيدة الغور)[4]

ويتحدث عن امتداد التأثير القرآني في الحياة، فيقول: (يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية فهو يضم بين طرافة الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر)[5]

وبجانب القرآن وتأثيره تحدث عن السنة النبوية المطهرة، وتأثيرها في حياة المسلمين، فيقول: (القرآن يكمله الحديث الذي يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبي وإرشاداته. وفي الحديث يجد المرء ما كان يدور بخلد النبي، العنصر الأساسي من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة في الحياة، هذه الأقوال، أو هذه الأحاديث التي يشكل مجموعها السنة دونت مما روي عن الصحابة رضي الله عنهم أو نقل عنهم مع التمحيص الشديد في اختيارها وهكذا جمع عدد كبير من الأحاديث.. والسنة هي المبينة للقرآن التي لا غنى عنها للقرآن)[6]

ويتحدث عن بعض ثمار النبوة، فيقول: (كان لزامًا على محمد أن يبرز في أقصر وقت ممكن تفوّق الشعب

---

(١) الحضارة العربية، ص ٣٠ – ٣١.
(٢) الحضارة العربية، ص ٤٥.
(٣) الحضارة العربية، ص ٥١.
(٤) الحضارة العربية، ص ٧٥.
(٥) الحضارة العربية، ص ٢١٢.
(٦) الحضارة العربية، ص ٣٢.

العربي[1] عندما أنعم الله عليه بدين سام في بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية. وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمدًا يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان)[2]

وهو يتحدث عن صعوبة فهم الغرب للروح الإسلامية، باعتبار الاختلاف في طريقة التفكير، فيقول: (إن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور. لقد وقف الرجل الغربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سرّ غامض، فلم يكن مألوفًا له أي رد فعل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كل نهج في وجود هذه الروح وفي الإحسان بها وفي قوتها الدافقة)[3]

ويقارن بين القرآن والمسيحية، فيقول: (في سعي الإسلام إلى (المطلق) نبذ – لشدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته – عقيدة الثالوث المقدس مبتعدًا في ذلك عن المسيحية التي كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها في ألوهية ثلاثة أشخاص. ولقد احترم الإسلام احترامًا نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى مترلة قبل أن يمسها التحريف.. وقد أشار النبي للدلالة على صدق رسالته إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق وحَثّ بكل تسامح وقوة إدراك في الوقت نفسه، اليهود على إطاعة شريعتهم، والمسيحيين على إطاعة أناجيلهم، وعلى أن يرتضوا القرآن، خاتم الكتب المقدسة والدين الإسلامي خاتم الأديان المترلة)[4]

ويتحدث عن عدم وجود كهنوت في الإسلام مثلما هو الحال في المسيحية، وهذا انسجاما مع عقيدته التوحيدية، فيقول: (الدين الإسلامي ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين.. وفي المسجد ينبض قلب الإسلام.. وفي أرجائه يحس المرء إحساسًا حيًا أنه بحضرة الله. الحق أنه لا شيء في المسجد إلا البساطة.. والجمال والتجانس)[5]

ويتحدث عن قيمة الزكاة، ودورها في التكافل الاجتماعي، فيقول: (كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونيًا حرًا وإداريًا ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى. وفي تنظيم جماعة (المدينة) اعتد النبي هذا العمل الخير كضريبة شرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين. وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين وبيت مال.. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت هذا العمل الخيّر مصدرًا لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظل — بفضل القرآن — فضيلة مارسها المسلمون تلقائيًا بوصفه واجبًا دينيًا. وينبغي أن نزجي الثناء لمحمد فقد كان أول من

---

(١) من المعلوم أن رسول الله ﷺ خاطب البشر جميعا، ولم يخاطب العرب وحدهم، ولكن العرب هم الواسطة التي توجه من خلالها الخطاب لسائر البشر.

(٢) الحضارة العربية، ص ٣٧.

(٣) الحضارة العربية، ص ١ (مقدمة الكتاب).

(٤) الحضارة العربية، ص ٧ — ٨.

(٥) الحضارة العربية، ص ٣٦.

شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية)[1]

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام، فانطبع بها المجتمع الإسلامي في فترات طويلة من تاريخه، فيقول: (على الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التي تشكل الإسلام، كان المسلمون يبينون سلفًا عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرّق بين حضر وبدو، أغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريبًا مسلكاً واحدًا. ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة. وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوي للحياة، حتى تغلغل شيئًا فشيئًا في الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق. كما كان تأثير الدين عظيمًا بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعي معمّم)[2]

ويتحدث عن النظام الشمولي الذي جاء به الإسلام، فيقول: (إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة: المعنى الأول دين، والثاني دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة)[3]

ويتحدث عن أسرار انتشار الإسلام، وأخلاقية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها في الخلق السامي الذي كان قد تشرّبه العرب عن الدين الجديد، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة واحتقار للموت، جعلهم لا يغلبون)[4]

ويقول: (كان الفتح العربي يملك الرضا الضمني من السكان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الديني والسياسي، ونظام ضرائبهم الفادحة ولم يعد الوطنيون قادرين على أن يتحملوا أخيرًا هذا الاستبداد المتغطرس من حكام أصبح تفوقهم ضربًا من الذكريات. تلك هي الأسباب التي من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتاخمة جيرانها ذوي التاريخ الطويل كأنهم ذوو قربى قد أقبلوا لتحريرهم من ظلم الغاصبين الأجانب الممقوت)[5]

ويقول: (لا نزاع في أن اللغة والدين اللذين انتشرا معًا قاما بدور خطير في هذا العمر الضخم لتقريب هذه الإمبراطورية الشاسعة وتحويل أبنائها إلى الإسلام. وحطمت هاتان القوتان الحواجز التي كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الأجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما في العصر القديم في هذا الميدان والأنجلوساكسون في الفترة المعاصرة. فالذي كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة، يسمح له أن يعد عربيًا، وهذا حدث خطير في تاريخ الحضارة الإسلامية. ولقد ألغت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية، ومنحت بنحو ما شكلاً موحدًا لبلاد مترامية الأطراف في ثلاث قارات وأصبحت فيما بعد خالية من القيود. وكان المسلم يجد في كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات، ونفس الشرائع)[6]

---

(١) الحضارة العربية، ص ٣٤.
(٢) الحضارة العربية، ص ٥٠.
(٣) الحضارة العربية، ص ٦٧.
(٤) الحضارة العربية، ص ٣٩.
(٥) الحضارة العربية، ص ٣٩ – ٤٠.
(٦) الحضارة العربية، ص ٢٤١.

ويتحدث عن قدرة الإسلام على التغلغل في النفوس والشعوب، بحيث يحول الغالبين إلى دين المغلوبين، فيقول: (أن المنتصرين سيعتنقون دين المغلوبين الذين هكوهم، وسوف يجعل من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين. وتثير هذه الظاهرة العجب، لكنها ليست من الندرة في تاريخ العالم الإسلامي. لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين ثم بالنسبة لأبناء عمومتهم المغول بعد ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي وأخيرًا بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر، وسيظفر الدين الإسلامي بألمع انتصار طيلة الأزمنة الممعنة في ظلال الفشل والغزو)[1]

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها، وكان اليهود المطارد لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ووصلوا أحيانًا إلى مراكز سامية، واختلط المسيحيون مع المسلمين.. ونحدث أنهم احتفلوا بأعيادهم معًا في المسجد وفي الكنيسة، ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة)

ويتحدث عن سر تفوق الحضارة الإسلامية في عهودها الطويلة، فيقول: (سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠م على العالم بالقوة وبالعلم، وبتفوق حضارته)[2]

ويتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة، فيقول: (لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم، ثم بعد أن نمّاها، نقلها إلى أوروبا الغربية. كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكري للعصر الوسيط وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين)[3]

ويتحدث عن الحضارة التي كانت تمتلئ بها المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى مقارنة بمثيلاتها في أوروبا وغيرها (إن ما يشاهده المرء من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر [4] لم يكن له مثيل قبل ذلك. ففي كل مكان كلف لا حدّ له بالكتب. وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء ومائة بلاط رائع تدوي بمباريات شعرية أو فلسفية، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافية، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة. وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي)[5]

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب، فيقول: (عندما بهرت الحضارة الإسلامية المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها، أخذوا يزحفون، حبًا في الحرية التي تميزت بها هذه الحضارة إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية، لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها)[6]

ويقول: (لكي نقيم حسابًا كاملاً لإسهامات الشرق الفكرية تجاه الغرب، كان يجدر بنا أيضًا أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجمت عن المعرفة الإسلامية.. ويكفي أن يتصور المرء القارة

---

(١) الحضارة العربية، ص ١٥٤.
(٢) الحضارة العربية، ص ٨٢.
(٣) الحضارة العربية، ص ٨٣.
(٤) يقصد التأريخ الميلادي، وذلك في العصور الزاهرة من الحضارة الإسلامية.
(٥) الحضارة العربية، ص ١٠٠.
(٦) الحضارة العربية، ص ١٥٤.

الأوروبية في فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفها هذه الهبات الثلاث: البارود، والبوصلة، والكتاب، رمز المعاونة الإسلامية في بناء الإنسانية)[1]

ويتحدث عن حقوق المرأة في الإسلام، فيقول: (لقد وُضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجال في القضايا الخاصة بالمصلحة فأصبح في استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة لكن مكانها الصحيح هو البيت. كما أن مهمتها الأساسية هي أن تنجب أطفالاً.. وعلى ذلك رسم النبي واجبها (أيما امرأة مات زوجها، وهو راضٍ عنها، دخلت الجنة)[2].. وفي الحق أن تعدد الزوجات، بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني)[3]

ويتحدث عن الأسرة في الإسلام، فيقول: (كانت الأسرة الإسلامية ترعى دائمًا الطفل، وصحته، وتربيته، رعاية كبيرة. وترضع الأم هذا الطفل زمنًا طويلاً، وأحيانًا لمدة أكثر من سنتين، وتقوم على تنشئته بحنان وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة. وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة، وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تبنّيهم)[4]

ويقول: (يقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قويمة، وعلى تعويدهن على الصلاة، وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية. وبعد سنوات أيضًا يعلمن قرض الشعر والفنون)[5]

نظر البابا إلي، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيه.. لقد قال كلاما كثيرا قد لا نجد من قومنا من يجرؤ على قوله.

قال: من رزقه الله الصدق فتح عليه من الجرأة ما يتناسب مع ذلك الصدق..

قلت: صدقت.. فبقدر الصدق تكون الجرأة.

لويس سيديو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لويس سيديو) [6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي.. له شهادات كثيرة تبين مدى صدق بحثه في الإسلام، وفي مصادر الإسلام، وسأسرد لك ــــ

---

(١) الحضارة العربية، ص ١٩١ – ١٩٢.

(٢) نص الحديث هو (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)

(٣) الحضارة العربية، ص ٥٢.

(٤) الحضارة العربية، ص ٥٣.

(٥) الحضارة العربية، ص ٥٤.

(٦) لويس سيديو (١٨٠٨ – ١٨٧٦) L. Sedillot مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو الذي توفي عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويس أمينًا لمدرسة اللغات الشرقية (١٩٣١) وصنف كتابًا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلاً عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجلات المعروفة.

باختصار ــ بعضه هذه الشهادات:

فمنها شهادته التي يتحدث فيها عن كون القرآن مدرسة روحية وتربوية متكاملة، فيقول: (لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن.. إنه أبصر كلّ شيء)[1]

ويتحدث عن النواحي البلاغية للقرآن، فيقول: (صلح القرآن ليكون نموذجًا للأسلوب وقواعد النحو.. فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف في كلّ منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغة الأخرى)[2]

ويتحدث عن تأثير القرآن في التوحيد بين شعوب وأعراق مختلفة، فيقول: (مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي أفريقية حتى السودان، كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر)[3]

ويتحدث عن معجزة تأسيس الأمة الإسلامية.. ويرجع الفضل في تأسيسها إلى محمد ﷺ، فيقول: (لقد حلّ الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون. ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد)[4]

ويتحدث عن عبودية محمد ﷺ مقارنة بما ينسبه المسيحيون للمسيح، فيقول: (لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله عليهم السلام وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة في الاتيان بالمعجزات، مع أن محمدًا لم يعط مثل هذه الموهبة[5]، وما أكثر ما كان يعترض محتجًا على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!)[6]

ويتحدث عن القيم التي تحملها عقيدة اليوم الآخر التي جاء بها الإسلام، فيقول: (إن محمدًا أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قويًا أكثر مما أظهره أي مشرّع آخر)[1]

---

(١) تاريخ العرب العام، ص ٨٩، ٩٨ – ٩٩، ١٠٠، ١١٧.
(٢) تاريخ العرب العام، ص ٤٥٨
(٣) تاريخ العرب العام، ص ٤٥٨.
(٤) تاريخ العرب العام، ص ١٥.
(٥) ذكرنا الرد على هذه الشبهة بالأدلة المفصلة في رسالة (معجزات حسية)
(٦) تاريخ العرب العام، ص ٩٠
(١) تاريخ العرب العام، ص ٩٣.

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وكونه قدوة صالحة جعلته يحقق كل الأهداف التي وكلت له، فيقول: (ما أكثر ما عرض محمد حياته للخطر انتصارًا لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه.. وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يحيي قوة إرادته ومتانة خلقه.. وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان حليمًا معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودّون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضج من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينمّ ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحي في كل مرة باحترام القوم له.. ودلّ على أنه سياسي محنّك)[1]

ويتحدث عن تأثير محمد ﷺ في البيئة التي ولد فيها، فيقول: (بدت في بلاد العرب أيام محمد حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرى على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة)[2]

ويتحدث عن قيمة التوحيد وأهميته في الإسلام، فيقول: (من شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذي نشر بين قوم وثنيين، أن يضرم الحمية في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمد هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجع سبب سموّه على جميع الأديان. ويبدو هذا التوحيد المحض جازمًا تجاه علم اللاهوت الذي تورّط في الفرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مراء في أن عظمة الله العلي وقدرته وحكمته وعدله وحمله أمور تستوقف أنظار ذوي النفوس المثقلة بالأباطيل، و(أحد، أحد) كان وعي المسلمين ببدر، ولا تخلو سورة في القرآن من قول:.. بالتوحيد)[3]

ويتحدث عن عقيدة القضاء والقدر، ودورها الإيجابي في الحياة، فيقول: (إن المبدأ الذي يحتويه القرآن لم يكن من نوع قضاء القدماء، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة، فليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدي إلى فتور همته، فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس وتضع حدًا لأعمالنا.. وهنالك من المبادئ ما يؤدي إلى أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرق بين تأثير مبدأ القضاء والقدر في قوم حطهم الاستعباد وتأثيره في قوم حمس مقاديم لا يبتغون غير الحرب والفتوح)[4]

ويتحدث عن الصلاة في الإسلام، وعدم حاجتها إلى وسطاء، فيقول:(الصلاة تمسك الإسلام بغير هياكل وتضمن دوامه بغير كهّان)[1]

---

(١) تاريخ العرب العام، ص ١٠٢ — ١٠٣.
(٢) تاريخ العرب العام، ص ١٢٣.
(٣) تاريخ العرب العام، ص ٨٨.
(٤) تاريخ العرب العام، ص ٩٢.
(١) تاريخ العرب العام، ص ١٠٤.

ويقول: (لا ترى في الإسلام سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات)[1]

ويتحدث عن النظام السياسي الإسلامي في فترته الراشدة، فيقول: (اختار المسلمون بعد وفاة محمد زعيمًا ليحمل الناس على احترام الشريعة فأبدعوا سلطانًا ساميًا خضع له العرب بلا جدال. ولا يعني هذا أن العرب أحدثوا نظامًا استبداديًا يقوم به فرد، وإنما أقاموا حكومة شعبية مستندة إلى شريعة إلهية يديرها ولي أمر منتخب مقيد في سلطته، فحُصر عمل ولي الأمر هذا في وضع نظم للأمن ولوظائف الدولة وواجباتها ولشؤون الحرب دون سنّ القوانين ما دام القرآن قد قيد أمراء المسلمين بربطه النظام الاجتماعي بالدين)[2]

ويتحدث عن تأثير الإسلام في أوروبا، ومن ثم في الحضارة الغربية، فيقول: (إن مغازي العرب وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين بجنوب فرنسة أسفرت، لا ريب، عن آثار لا تزول من لغتنا، وأن نفوذ العرب كان باديًا في مختلف أدوار تاريخنا، لا فرق في ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحرب الصليبية.. وأن لهجات هذه الولايات مملوءة بالكلمات العربية وأن أسماء الأعلام فيها تبدي شكلاً عربيًا في كل خطوة كما تبديه اصطلاحاتنا العلمية أيضًا، وما يأتيه علماء اللغة المعاصرون عندنا من اشتقاقات يقف لها شعر الرأس!.. ولا ينكر فضلاً عن ذلك، أن الخلفاء كانوا في القرن التاسع من الميلاد سادة إمبراطورية واسعة رائعة لامعة مدهشة، وأن خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودًا وهدايا إلى الإمبراطور شارلمان وإلى عاهل الصين وأنهم كانوا مثال العظمة الحقيقة بنظمهم الصالحة وعنايتهم بالآداب والعلوم، وأن ما شيد من المدارس في أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصى وعمد هركول على الساحل الأطلسي ناشرًا آثار الفن العربي الرائعة في كل مكان، عاملاً على تجديد الدم في عروق العالم الهرم)[3]

ويقول: (لم يكن هيّنًا، في تقدم العلوم، تأثير مدرسة بغداد التي كانت متوسطة بين مدرسة الإسكندرية والمدرسة الحديثة، فهيأت لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها ونحن مدينون للعرب في الحقل العلمي، ونعترف، مع ذلك، بأن مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهًا غريبًا فينمّ ما اتخذ من الاصطلاحات على الجهل والارتباك)[4]

ويقول: (وظاهرة مدرسة بغداد في بدء أمرها هي الروح العلمية التي كانت سائدة لأعمالها، فكانت مبادئ أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلولات إلى العلل، وعلى عدم التسليم بما لا يستند إلى التجربة، وكان العرب في القرن التاسع الميلادي أصحابًا لهذا المنهاج الخصيب فأضحى، بعد زمن طويل، أداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول إلى أجمل اكتشافاتهم)[1]

ويقول: (نحن إذ نرى شوق العرب إلى العلم قد حفزهم إلى النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية طلبًا

---

(١) تاريخ العرب العام، ص ١١٧.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ١٢٣ — ١٢٤.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ١٢ — ١٤.

(٤) تاريخ العرب العام، ص ١٤.

(١) تاريخ العرب العام، ص ٣٩٢.

للحقيقة وحدها لا يسعنا سوى الإعجاب المطلق بجهود الشعب العربي الذي أدى بمثاله النبيل إلى بعث الآداب والفنون في أوروبا)[1]

ويقول: (قدّر تأثير مدرسة بغداد البالغ في المشرق والمغرب، وكان عند العرب معظم الأفكار والمبادئ التي تباهي بها أوروبا الحديثة، والعرب، فضلاً عن ذلك، ربطوا دورين كبيرين أحدهما بالآخر: ربطوا عصر اليونان بعصر النهضة محافظين على تراث الدور الأول معدّين ظهور الدور الثاني، ووجد من حاولوا خفض منزلة العرب، بيد أن الحقيقة تبدو يومًا بعد يوم، ولابد من حلول الزمن العاجل أو الآجل الذي ينصفون فيه فيستردون حقهم)[2]

ويقول: (هكذا تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية الحديثة، وظهرت، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي، آداب تعد من أعظم ما عرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوروبا النصرانية فجاء هذا مسوّغًا للرأي القائل إن العرب كانوا أساتذة لنا، وما أتى به العرب من الموارد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاءوا به من صناعة منقطعة النظير ومن مبانٍ دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم، ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية)[3]

ويعجب بقدرة الإسلام على قهر همجية المغول التي سيطرت على العالم في فترة من الفترات، فيقول: (حقًا إنه لمنظر رائع أن نرى انتصار سلطان حضارة العرب على همجية المغول أولئك الذين انقضوا على آسيا الغربية والجنوبية)[4]

ويتحدث عن موقف القرآن من المرأة، وتكريمه لها، فيقول: (إن القرآن، وهو دستور المسلمين، رفع شأن المرأة بدلاً من خفضه.. فجعل حصة البنت في الميراث تعدل نصف حصة أخيها [5] مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية.. وهو وإن جعل الرجال قوّامين على النساء بيّن أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها. وأراد ألا تكون الأيامى جزءًا من ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبض مهورهن وأن ينلن نصيبًا من أموال المتوفى)[6]

ويتحدث عن احترام الإسلام لحقوق الطفل، فيقول: (لا شي أدعى إلى راحة النفس من عناية محمد بالأولاد. فهو قد حرم بأمر الله عادة الوأد، وشغل باله بحال اليتامى على الدوام.. وكان يجد في ملاحظة صغار الأولاد أعظم لذة. ومما حدث ذات يوم أن كان محمد يصلي فوثب الحسين بن علي رضي الله عنهما فوق

---

(١) تاريخ العرب العام، ص ٤٠٣.
(٢) تاريخ العرب العام، ص ٤٨٠.
(٣) تاريخ العرب العام، ص ٤٩٠ — ٤٩١.
(٤) تاريخ العرب العام، ص ٤٠٨.
(٥) سنرى العدالة التي يحملها هذا الحكم في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.
(٦) تاريخ العرب العام، ص ١١٠.

ظهره فلم يبال بنظرات الحضور فانتظر صابرًا إلى حين نزوله كما أراد. وما ألطف أقوال محمد عن حنان الأم وحبّ الوالدين، وما أجمل ما في كلمته (الجنة تحت أقدام الأمهات) من تكريم الأمهات! فيمكن أن يكتب فصل رائع من حياة محمد حول هذا الموضوع)[1]

ويتحدث عن التشريعات المرتبطة بالطلاق في الإسلام، وما يحويه من الحكمة، فيقول: (أُحِلّ الطلاق في الإسلام، ولكنه جعل تابعًا لبعض الشروط فيمكن الرجوع عنه عند الطيش والتهوّر. والطلاق، لكي يكون باتًّا، يجب أن يكرر ثلاث مرات.. والمرأة إذا ما طلقت الطلقة الثالثة لا تحل لزوجها الأول إلا بعد أن تنكح زوجًا آخر فيطلقها هذا الزوج، وهذا الحكم على جانب عظيم من الحكمة لما يؤدي إليه من تقليل عدد الطلاق ولا يحق للمرأة أن تطلب الطلاق إلا عند سوء المعاملة)[2]

ويتحدث عن تشريع العقوبات المرتبطة بالأعراض، وأثرها، فيقول: (جزاء الزنا صارم في الإسلام.. ولا بدّ من أربعة شهود لإثباته. و لم يقصّر محمد في منع انتشار الفجور، وله نصائح غالية بهذا الصدد وهو يأمر المؤمنين بالاحتشام، وينظم أمورهم نحو أُجرائهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، برفق أبوي ممزوج بلسان المشرّع الوقور الجليل)[3]

نظر إلي، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيها من شهادات.. وبورك هو من رجل، فقد أنطقه الله بالحكمة.

هنري سيرويا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هنري سيرويا) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين الذين وفقهم الله، فرأوا من معاني الصدق في الإسلام ما لم يلاحظه الكثير، ومن شهاداته التي لا أزال أحفظها وأقدرها قوله في في القرآن وما اشتمل عليه من حقائق، وما انتظم فيه من أسلوب: (القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه)، (ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف — لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة)، حيث لم يشعر الإسلام يومًا بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تمامًا خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين مليء بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد مع كون مبعوثًا ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية

(١) تاريخ العرب العام، ص ١١٠-١١١.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ١١١.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ١١١-١١٢.

(٤) هنري سيرويا H. Serouya مستشرق فرنسي. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (١٩٢١)، (الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامي).

منبهًا إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملاك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله)[1]

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وأثره في العقيدة والحياة، فيقول: (ومحمد لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب)[2]

ويتحدث عن بعض صفات النبي ﷺ وأخلاقه العالية، فيقول: (محمد شخصية تاريخية حقة، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل. وقبل مماته أراد أن يظهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطبًا: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحدًا فهاكم ظهري ليأخذ ثأره، أو سلبته مالاً فمالي ملكه. فوقف رجل معلنًا أنه يدينه بثلاثة دراهم، فردّ الرسول قائلاً: أن يشعر الإنسان بالخجل في دنياه خيرٌ من آخرته. ودفع للرجل دينه في التو. وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبي يرينا بأن (رينان) كان على غير حق في نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين براثين الجهل والخرافات)[3]

وهو يرجع الأمر إلى أهله حين ينسب الحضارة الإسلامية، وما تفتقت عنه من عبقرية إلى رسول الله ﷺ، فيقول: (إن المحاولة الإسلامية في التاريخ ذات أثر كبير، والعبقرية العربية تجد في محمد منشئًا لحضارة التوحيد التي تعتبر ذات أهمية كبيرة، إذا فكرنا في القيمة الفلسفية للتوحيد، وفي تفوقها الكبير الذي جعل كل الشعوب الآرية تمارس أفكار تلكم الفلسفة. وهذه الثروة الروحية الغزيرة في الأمة العربية، راجعة إلى الغريزة النبوية والتي تعد واضحة لدى الشعوب السامية، فاليهود الذين يستطيعون الفخر بأنبيائهم الكبار، يقرون بأن روح النبوة قد اختفت لديهم بعد هدم معبدهم الثاني، وهذا ما يفسر بمعنى أكيد العداوة العنيفة والكثيرة التكرار في القرآن بالنسبة إليهم)[4]

ويقول: (إن الحضارة الفكرية الذهنية الحقيقية لم تظهر وتوجد – لدى العرب – إلا لدى وصول محمد)[5]

نظر إلي البابا يتأمل تأثير هذه الشهادات في نفسي، فقلت: لقد أسلمت كلمات هذا الرجل..

قال: صدقت.. فمثل هذه الكلمات لا تصدر إلا في لحظات الصدق والإيمان والقرب.

إدوار بروي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إدوار بروي) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسي كان أستاذا في السربون، وقد سمعته يذكر شهادات للإسلام يستحق التقدير عليها:

---

(١) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٣٢ – ٣٣.
(٢) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٨.
(٣) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ١٧.
(٤) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٣١
(٥) دفاع عن الإسلام، ص ٢٤.
(١) إدوار بروي Edourd Perroy باحث فرنسي معاصر، وأستاذ في السربون.

منها قوله مختصرا رسالة رسول الله ﷺ، وما أحدثته في بدايتها من تأثير: (جاء محمد بن عبد الله، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة في دعوته لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضًا الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قبض النبي العربي، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيرًا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل)[1]

ويتحدث عن الانتصارات العسكرية المعجزة التي حققها المسلمون في فترة وجيزة من تاريخهم، فيقول: (بين أوروبا الغربية الآخذة مدنيتها بالقهقرى، وبين العالم الآسيوي الذي يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته.. ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحيّر بفتوحاته السريعة القاصمة، وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التي أنشأناها نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا به يتّحد ويتضامّ في بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية اكتسحت جيوشه ببضع سنوات الدولة الساسانية وهدت منها الأركان، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل على معظم إسبانيا وصقلية، وأن تقتطع لأمد من الزمن، يقصر أو يطول، بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وجنوبها ودقت جيوشه بعنف شديد أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربي وهددت فرنسا والقسطنطينية.. وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي كالأكر، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم وذابت الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام كما يذوب الشمع أمام النار بعد أن أطلّ على الدنيا دين جديد)[2]

ويتحدث عن السماحة التي صاحبت تلك الانتصارات العسكرية، فيقول: (قلما عرف التاريخ والحق يقال، فتوحات كان لها، في المدى القريب، على الأهلين، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الأقطار فمن لم يكن عربيًا من الأهلين لم يشعر بأي اضطهاد قط. فاليهود والنصارى الذين هم أيضًا من أهل الكتاب، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا. وكان لابدّ من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة.. وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة على أهل الذمة تأديتها.. وفي نطاق هذه التحفظات التي لم يكن لتؤثر كثيرًا على الحياة العادية، تمتع الزمن بكافة حرياتهم)[1]

ويقول متحدثا عن سماحة المسلمين التي غرسها فيهم الإسلام: (انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقًا لروح القانون المعمول به في البلاد.. وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها

---

(١) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ١١٢.
(٢) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١٠٩.
(١) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١١٦.

الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندها باستثناء ما كان منها تابعًا للحق العام.. ونلاحظ تطورًا ملحوظًا يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الأمم الخاصة.. وهكذا برز البطاركة والأساقفة، الرؤساء الأعلون لطوائف تعلو سلطتهم سلطة الموظفين الإداريين المحليين، حتى إن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأسًا في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربابنتهم وبحاخامهم الأكبر)[1]

ويتحدث عن الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، فيقول: (انتشرت، حوالي السنة ١٠٠٠م، عادة القيام بالحج، تزايد السفر إلى الأرض المقدسة لأنه اعتبر أعظم الممارسات النصرانية نفعًا للخلاص الأبدي، وقلما ضايقه العرب، الذين كانوا متساهلين جدًا، كما يبدو من جهة ثانية أن الغزو التركي لم يجعل الدخول إلى معابد فلسطين أكثر صعوبة إلا أن فرسان الغرب، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة، أخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، يؤدون فريضة الحج جماعات صغيرة مسلحة كما أخذوا بعد عودتهم يبسطون شعورهم بأن الفتح ليس أمرًا مستحيلاً.. وجاء الاندماج التركي أخيرًا يهدد بيزنطية آنذاك تهديدًا جديًا خطيرًا، ففكر الغرب بوجوب وقاية المسيحية من جهة الشرق)[2]

ويقارن بين سماحة سلاطين العثمانيين في العصور المتأخرة مقارنة بما تفعله دواوين التفتيش في أوروبا، فيقول: (ما لابدّ من التنويه به عاليًا أن هؤلاء السلاطين العثمانيين لم يظهروا أي تحرج أو تعصب تجاه المسيحيين، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشًا ويترل بهم الهلع.. وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون، دونما رحمة أو شفقة، من إسبانيا.. وبالرغم من إسكان عدد كبير من الجاليات الإسلامية في البلقان، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الإسلام فلم يأت العثمانيون شيئًا مهمًا ليمنعوا السواد الأكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم)[3]

ويتحدث عن عظمة الحضارة الإسلامية، وتميزها مقارنة بسائر الحضارات، فيقول: (انجلى غبار الفتح الإسلامي عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات من التراث الإنساني القديم روحًا جديدة عادت معه إلى الحياة، فنبض وشع وأثرى. ولهذه الأسباب، كان لابدّ أن يحتل تاريخ العالم الإسلامي محلاً مرموقًا في ثقافة رجل العصر، كما كان لابدّ لرجل العصر هذا من أن يفهم جيدًا أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيز في الزمان، وأن يعرف جيدًا أن قبل توما الإكويني الذي رأى النور في إيطاليا، طلع ابن سينا المولود في إحدى مقاطعات التركستان، وأن مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام في باريس بزمان، وألا ينتقص من شأن العالم الإسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنقشع بأسرع مما يظن، وألا ينظر إلى التاريخ الإسلامي من خلال مرئيات ألف ليلة وليلة.. بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الإنساني المتنوع بتنوع الأزمنة والأمكنة، والذي لا يزال، بالرغم من جزئياته وخصوصياته،

(١) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١١٦.
(٢) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ٣١٢.
(٣) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ٥٨٩ – ٥٩٠.

تاريخ هذه البشرية الواحدة الجمعاء)[1]

ويقول: (في هذا العالم الإسلامي القلق، الجيّاش بعظائم الأحداث.. ليس ما يلفت النظر ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب، والازدهار الذي آلت إليه الحركة الفكرية.. واتساع هذه الحركة التي عمت مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، فتحت الباب على مصراعيه أمام التنوع لظهور مجار فكرية عامة وتلقيح الأفكار والأذهان في كل مكان.. وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الإسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف به في فهارس علمية.. وقامت في بعض حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصّت بعشرات الألوف من الكتب جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين.. كل هذا كان يفترض عددًا كبيرًا من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين)[2]

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (أفضت الحملات الصليبية بسرعة أخيرًا، بإقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافيًا، إلى تهذيب أخلاق الفرسان، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغريبة وإدخال التقنيات الجديدة.. وإطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والآداب في العالمين العربي واليوناني: فجاءت هذه الأشكال والمفاهيم والطرائق والعادات، التي حصل عليها أحيانًا في إمارات فلسطين وإيطاليا الجنوبية، وشبه الجزيرة الإيبرية، وانتشرت بفضل العائدين من الحج، تنمي التراث الثقافي في أوروبا المسيحية)[3]

وفي موضع آخر يتحدث عن جسر صقلية الذي انطلقت منه الحضارة الإسلامية لأوروبا، فيقول: (امتدت الثقافة الإسبانية إلى ما وراء حدود السيطرة الإسلامية المنكمشة. ففي صقلية المخصصة للنورمنديين، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره، تألق مركز إشعاع ثان، دون إسبانيا شأنا، على أنه أعظم أهمية، على حد بعيد، من الشرق اللاتيني، انتقلت بواسطته الثقافة الإسلامية إلى الغرب)[4]

ويتحدث عكس هذا عن الأثر السلبي الذي فعله الأوروبيون بالمسلمين، فيقول: (بعد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان الأفريقية على أثر العبث الذريع الذي أحدثه في تلك الأرجاء تجار النخاسة والرق من الأوربيين هذه الحركة التطورية التي بعثها الإسلام في تلك البلاد، قبل أن تطأ أقدام البرتغاليين، بزمن طويل)[5]

نظر إلي البابا، وقال: حسبك بهذه الشهادات منه..

قلت: بورك فيه.. فما أصدقه.. لم يمنعه دينه ولا مركزه ولا قومه من أن ينسب الحق لأهله.

كلود كاهن:

---

(١) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ١٠٩ – ١١٠.
(٢) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٢٢٤ – ٢٢٥.
(٣) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٣١٥.
(٤) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٣٣٥.
(٥) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٥٦٤.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كلود كاهن) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقي فرنسا الكبار، وله شهادات صادقة جعلتني أضعه في هذا الدفتر.

قلت: فاذكر لي منها ما تراه.. فإن مثل هذه الشهادات تملأ النفس رضى، وتقرب إلينا عقولا كنا نظن أنفسنا أبعد الناس عنها.

قال: شهاداته مثل شهادات غيره ذات مناحي مختلفة.. منها ما يتعلق بالرسول ﷺ، ومنها ما يتعلق بالإسلام وشرائع الإسلام.. ومنها ما يتعلق بالحضارة الإسلامية، والمجتمع المسلم..

قلت: فحدثني عن شهاداته عن رسول الله ﷺ

قال: منها اعتباره رسول الله ﷺ أعظم الشخصيات العالمية، فقد قال: (اصطبغت شخصية محمد بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات الكبرى) [2]

ويذكر القيم النبيلة التي كان يتحلى بها رسول الله ﷺ، فيقول: (يبدو للمؤرخ المنصف أن محمدًا كان في عداد الشخصيات النبيلة السامية التي سعت في كثير من الحماس والإخلاص إلى النهوض بالبيئة التي عاش فيها أخلاقيًا وفكريًا، كما استطاع في الوقت نفسه أن يكيف رسالته حسب طباع الناس وتقاليدهم بمزيد من الفهم والتنظيم بحيث كفل البقاء والخلود للرسالة التي بشر بها.. وحتم علينا أن نلقى محمدًا بعواطف الإجلال والاحترام لما تحلى به من سمو الإلهام ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانية عامة والتغلب على مصاعبه الشخصية خاصة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئًا من الارتباك تبعًا لعقليتنا المعاصرة. فقد أكدت المهاترات على شهوات الرسول الدنيوية وألحت إلى زوجاته التسع اللائي اتخذهن بعد وفاة خديجة، لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسي، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف وبعض الأفخاذ [3].. ثم إن العقلية العربية تقرّ الإنسان إذا استخدم طبيعته على نحو ما خلقها الله) [4]

ويتكلم عن بعض المنجزات الكبرى لرسول الله ﷺ، فيقول: (نشأ الرسول في مجتمع بلا دولة، فكان، على نحو لا تتبينه إلا العقول العصرية مبشرًا بدين، ومنظمًا لمجتمع دنيوي. ونتج عن ذلك أن القانون الاجتماعي صار جزءًا متماسكًا مع القانون الديني، كما كان احترام القانون الاجتماعي جزءًا مكملاً لطاعة الله تعالى. كان الوحي بذاته — إذن — هو الأساس المشترك للعقيدة وللتنظيم الزمني. فكان المجتمع نفسه هو الدولة والدين، ولم يتسنّ لأحدهما أن يبقى وحده نظامًا قائمًا بذاته.. لقد كان هذا التوجيه حاسمًا، ولم تستطع العقول أن تتخلى

---

(١) كلود كاهن Cl. Cahen ولد عام ١٩٠٩، وتخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا، وعين محاضرًا في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (١٩٣٨)، وأستاذًا لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة ستراسبورغ (١٩٤٥)، وفي جامعة باريس.

من آثاره: عدد كبير من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة، وحقق العديد من النصوص التاريخية المهمة، كما أنجز عددًا من المؤلفات عن الحروب الصليبية.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٤.

(٣) سنرى التفاصيل المرتبطة بالرد على هذه الشبهة في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٨.

عنه إلى مدة غير قصيرة، وكان من نتائجه في العصور التالية أن الرجل المسلم أصبح يطلب من نظامه السياسي أن يكون على جانب من الكمال، فإن فقد ذلك فقد أيضًا مبدأ الطاعة المحتمة عليه إزاء هذا النظام)[1]

ويشيد بعلم الحديث، وقدرته التمحيصية، باعتباره العلم المصفي لكل ما ورد عن رسول الله ﷺ، فيقول: (الحق أننا نتجاوز النقد العلمي الصحيح إذا نحن أنكرنا على كل حديث صحته أو قدمه. ولقد باشر العلماء بمثل هذا التمحيص منذ عهد بعيد فوجدوا أن التحريف أو التلفيق قد لا يعمّان على نسق واحد واستندوا في ذلك إلى بعض الأحاديث التي يمكن اعتبارها سابقة أو حجة يعتد بها. بمعنى أن الموقف النقدي مفروض على الباحث المنصف. وفقهاء المسلمين أنفسهم هم قدوة لنا في هذا المضمار لأنهم – على طريقتهم – قد التزموا بذلك الموقف منذ العصر الوسيط)[2]

قلت: فحدثني عن شهاداته عن الإسلام.

قال: يتحدث كلود كاهن عن ميزة اجتماع الدين والدنيا في الشريعة الإسلامية، وهي الميزة التي تفتقدها سائر الأديان، فيقول (تملي شريعة الإسلام فرائض على الناس تجاه خالقهم، وتجاه أنفسهم فيما بينهم. فهي إذن – على حد تعبيرنا الحديث – شريعة دينية اجتماعية، والتمييز بين الدين والدنيا أمر غريب على الإسلام. على أن أهم فريضة تجاه الخالق هي الإيمان به والإذعان لمشيئته وذلك هو المقصود من كلمة (الإسلام). والمسلم هو من يدين بالإسلام. كذلك أوجب على الناس أعمالاً محددة لا قيمة لها إلا بالنية الحسنة)[3]

ويتحدث عن مبدأ (الحكم بالشريعة)، الذي يفرضه المجتمع المسلم على نفسه، وعلى السلطة التي تحكمه، فيقول: (من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامي إنشاء نظام اجتماعي يقوم على أساس مستمد من الشريعة الإلهية.. بمعنى أن الإسلام لم يعهد مبدئيًا ذلك المفهوم الروماني – الذي قبلت به المسيحية – قبولاً جزئيًا – والذي يعترف بشرعية دولة قائمة بحدّ ذاتها تملك القدرة على التشريع تشريعًا قيمًا مقبولاً – ولو تحت إشراف من الإله – دون اللجوء في كل حالة من الحالات إلى توجيه إلهي. فالقاعدة الثابتة – من حيث المبدأ – هي الشرع الحنيف الذي أوحي به للناس دفعة واحدة ولابد من وضعه موضع التنفيذ. بل إن الخليفة لا يملك سلطة معنوية إلا بقصد تطبيق هذا الشرع)[4]

ويتحدث عن خاصية (العقلانية) في العقيدة الإسلامية مقارنا لها بالعقيدة المسيحية، فيقول: (قد ندعو علماء الكلام المسلمين بعلماء الدين مع تحفظ واحد وهو أن ندرك أن الإيمان عند المسلم – ومن الناحية المبدئية – أمرٌ عقلي صرف، فلم يوجد إذن نظريًا انفصام يباعد بين الإيمان والعقل على نحو ما عهدته مثلاً الفلسفة المسيحية)[1]

ويتحدث عن المساواة التي فرضها الإسلام على المجتمع المسلم، فيقول: (إن الإسلام لا يعترف بأي تمييز

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كروناوم)، ص ٢٠٠ – ٢٠١.
(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٩٥.
(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٩.
(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٩١.
(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٠٤.

بين الأفراد. ولا يخص المدينة – بوصفها مجموعة – بأي خاصة نوعية، كما لا يقر أي نظام لسكانها (البورجوازيين)[1]

قلت: فحدثني عن شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية.

قال: تحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية التي تمكنت من أن تحتوي أكثر العالم في مدة قصيرة جدا، فقال: (يبدو لنا نشوء الإسلام مع فتوحاته الخاطفة وكأنها من الأمور الخارقة. ثمة شعب خامل الذكر – حتى تلك الفترة من الزمن – استطاع أن يجمع كلمته بدافع عقيدة جديدة. وما هي إلا سنوات حتى بسط سلطانه على الإمبراطورية الساسانية قاطبة وكذلك على جميع الأقاليم الآسيوية والأفريقية التابعة للدولة البيزنطية باستثناء غربي آسيا الصغرى، ثم لم يلبث أن ضمّ إليه الجزء الأكبر من إسبانيا بالإضافة إلى جزيرة صقلية، واستولى مؤقتًا على مواقع أخرى في قارة أوروبا. وهو في الوقت نفسه قد طرق أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربي وبلاد غالية ومدينة القسطنطينية. فتداعت أمامه أعرق الدول، وخضعت لهذا الدين الجديد جميع الديانات التي استقرت في البلاد المترامية الأطراف من نهر سيحون حتى السنغال)[2]

وتحدث عن السماحة التي تعامل بها المسلمون مع من فتحوا أراضيهم، فقال: (حافظت الأقوام المغلوبة على حرية إقامة شعائرها لا يحدّها في ذلك سوى الامتناع عن تلك التظاهرات العامة التي تؤذي المسلمين في المناطق الآهلة بهم. كما حافظت تلك الأقوام على شرائعها الخاصة.. ورأى المسلمون في أداء الضريبة لهم اعترافًا بالسيادة العليا للأمة الإسلامية ولقاء ذلك استبقى الأهالي ما يملكون من عقارات ونزل العرب خارج ممتلكاتهم.. وكان على المغلوبين أيضًا واجب الوفاء والإخلاص للفاتحين، وبخاصة في فترات الحروب كإيواء المسلمين وتزويدهم بالأخبار والامتناع عن إفشاء المعلومات للعدو)[3]

ويرد على بعض الشبهات المتعلقة بهذا الجانب، فيقول: (حقيق بنا أن نبدد بعض الأخطاء التي دامت قرونًا عديدة. فقد قاتل الصليبيون الأتراك في العهود اللاحقة ونظمت في الغرب الدعوة لمكافحتها فاستنتجوا من ذلك أن النظام السياسي السلجوقي الجديد قد وصم بتعصب من نوع خاص، وهذا أمر باطل.. لأن الاضطهاد الوحيد الذي سجله التاريخ وقتئذ هو ذلك الذي أمر به الخليفة (الحاكم) في مصر. وهو حادث شاذ تم خارج الإمبراطورية التركية وقبل قيامها. ولم يميّز المؤرخون الغربيون بين آسيا الصغرى (وفيها كان التركمان سببًا في قيام الاضطراب..) وبين كافة العالم السلجوقي. وبين أيدينا العديد من الشهادات والقرائن التي تنهض دليلاً على أن المسيحيين من أهل البلاد كانوا على العكس من ذلك قد هلّلوا فرحًا لحكومة السادة الجدد عقب عودة النظام بمجيء السلاجقة ولم يخطر لهم مطلقًا أن يستنجدوا بالغرب لينقذوهم)[1]

ويقول: (لا تعني السمة الإسلامية الواضحة للدول السلجوقية أنها تضم فقط الرعايا المسلمين، كما لا تعني

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٨٨.
(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٥ – ٦.
(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٢٨.
(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٥٥.

أن الذميين قد ضاقوا بها ذرعًا. وحقيق بنا – هنا أيضًا أن نبدد كثيرًا من الأخطاء الصادرة أحيانا عن نية حسنة. قلنا إن الفتح التركماني كان قاسيًا وإنه أدى في بعض الظروف إلى كوارث فاجعة. لكن الوضع القانوني للنصارى المحليين لم يختلف عما كان عليه في الدول الإسلامية العريقة بعد أن استقر النظام السياسي في البلاد، ولو أن المناوشات استمرت على الحدود بصورة متقطعة، بل غالبًا ما كان وضعهم في آسيا الصغرى أفضل من الناحية الفعلية بحكم غالبيتهم العددية الثابتة. وهكذا تقدم لنا الدولة السلجوقية تداخلاً لعناصر متباينة جدًا، ولا نرى فيها أناسًا متذمرين حقًا، أو أناسًا يعاودهم الحنين فعلاً إلى استرجاع الماضي أو استعادة السيادة البيزنطية مثلاً، وهي لم تترك في أذهان الناس ذكريات سعيدة فقط في مجال الفدائية والمنازعات الطائفية)[1]

ويتحدث عن الصمود الإسلامي، فيقول: (استطاع الإسلام أن يعوض عن الخسائر التي تكبدها في البحر المتوسط بمكاسب حصل عليها في أفريقيا السوداء وآسيا الجنوبية الشرقية. ففي السودان كانت القوافل المغربية قد نشرت الإسلام منذ زمن بعيد.. أما الزعماء الزنوج المحليون فقد وجدوا في الإسلام مبادئ وتعاليم تساعدهم على إنشاء مؤسسات سياسية أرسخ بنيانًا من تلك التي عهدوها قديمًا في بلادهم. وامتدت سيادة إمبراطورية (مالي) (القرن الرابع عشر) مع حاضرتها (تومبوكتو) في المركز، وكذلك سيادة إمبراطورية (غاوا) التي خلفتها في القرن الخامس عشر من الغابات العذراء حتى الواحات الصحراوية المغربية. وانتشرت الثقافة الإسلامية في تلك البقاع على يد العلماء المغاربة ومختلف النازحين (الأندلسيين). وفي بلاد (تشاد) التقت تأثيرات مغربية ومصرية. ثم لم يلبث أن قدم النخاسون الأوربيون فأوقفوا هذا التقدم الثقافي الذي أحدثه الإسلام – ولو من بعض الوجوه – قبل مجيء الغربيين بأمد بعيد)[2]

ويقول: (ثمة ظاهرة تستدعي الانتباه في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، ألا وهي قدرة المسلمين على النهوض من كبوتهم. ذلك لأن التاريخ الذي صنعه في بداية الأمر نفر قليل من أناس منعزلين قد أصبح العمل المشترك لمجموعة من الشعوب انتسبت للإسلام على مرّ الزمن وظلّت مخلصة له إخلاصًا مطلقًا ويعلم المبشرون المسيحيون أنهم لا يقدرون على تغيير عقيدة المسلم)[3]

ويتحدث بإعجاب شديد على الحضارة الإسلامية، فيقول: (أما الحضارة الجديدة التي انبثقت عن هذه الفتوح الإسلامية فقد كانت من أزهى الحضارات، فهي قد أفادت الغرب من علومها وفي شتى الميادين، بعد أن حضنت النصيب الأكبر من التراث القديم وأمدته بالحياة. ثم امتزج التاريخ الإسلامي منذ ثلاثة عشر قرنًا بالتاريخ الغربي امتزاجًا مستمرًا سواء في الحرب أم في السلم، ونهلت الحضارتان من معين واحد. ولئن تطورتا فيما بعد وتباعدتا تباعدًا عميقًا، فلا بد أن تعيننا الموازنة بينهما على الوصول إلى تفاهم أفضل. ولا يسع المرء في القرن العشرين أن يبقى بمعزل عن أي أسرة من الأسر التي يتألف منها المجتمع الإنساني.. لهذه الأسباب جميعًا كان خليقًا بتاريخ العالم الإسلامي أن يشغل مكانة مرموقة في ثقافتنا الغربية. وكان حقيقًا بنا أن نطرح جانبًا

---

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٦٧.
(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٤.
(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٥.

تلك الفكرة الخاطئة التي تجعل الحضارة ملكًا لبعض الشعوب وبعض الأقاليم المنفردة بمثل هذا الامتياز، حتى ندرك أن ابن سينا المولود في آسيا الصغرى قد وجد قبل القديس توما المولود في إيطاليا، وأن مساجد دمشق وقرطبة قد أنشئت قبل كاتدرائيات فرنسا وألمانيا. وبالتالي لا مناص لنا من التخلي عن هذا الازدراء الذي نبديه للشعوب الإسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاؤل شخصيتها تضاؤلاً قد يكون عابرًا أمام قارة أوروبية استطاعت أن تخطو خطوات حثيثة في مضمار الثقافة والسلطان)[1]

ويتحدث على تفتح المسلمين على تراث الأمم المختلفة والاستفادة منه، فيقول: (تقوم الأهمية التاريخية للعلوم العربية على احتضانها التراث القديم، مما أتاح للغرب أن يتقبل هذا التراث بدوره وفي عهد لاحق. لكنه من الحيف أن نقصر هذه الأهمية على مجرد دور الوسيط السلبي. ولعلنا لا نشاهد مطلقًا في التاريخ مثل ذلك الحماس الفكري الذي نشاهده عند العرب، ولم تتجمع قط المعلومات المتوفرة لأمة من الأمم بمثل ذلك الاتساع. فقد أضافوا إلى العلم الإغريقي كل ما أسهمت فيه المدنيات الشرقية الأخرى. وتيسر عرض ذلك في لغة ذات حضارة واحدة. وإن صحّ أنهم انطلقوا من النصوص القديمة، فإنهم قاموا بمقارنة هذه النصوص وانتقادها وضبطها، ولابد من أن ينجم عن ذلك كله تقدم على أقل تقدير في بعض الميادين. وإذا كان علماء المسلمين — رغم نزعتهم الفكرية — أقل قوة في التجريد من اليونان، لكنهم عوّضوا عن ذلك بميلهم الشديد إلى التجربة. ولقد بين التقدم العلمي اللاحق أهمية هذا الميل. فالعلم الذي خلفه العرب هو علم مارسوه في حياتهم اليومية، ولهذا السبب ظل على قيد الحياة وقدّر له البقاء. وكان الرازي (وهو أحد كبار العلماء) قد عبر تعبيرًا واضحًا جدًا عن إمكانية استمرار التقدم العلمي، وذلك مبدأ غريب على معظم مفكري العصر الوسيط الذين نأوا بعبء الحكمة القديمة)[2]

ويبين مدى الفاعلية التي تعامل بها المسلمون مع تراث الأمم المختلفة، بحيث لم يكونوا ناقلين فقط، فيقول: (كان العرب، بطبيعة الحال، ينظرون فيما يترجمون، بل كانوا يترجمون بغية النظر في هذه الكتب)[3]

ويقارن بين العلوم الإسلامية في العصور الوسيطة بالعلوم التي كانت تنتشر في أوروبا، فيقول: (لا بدّ لنا من القول بأن المؤلفات العربية، رغم ما نلحظ فيها من تكرار، تشهد على حيوية فكرية بالغة. وهي إذا قورنت بالمؤلفات الأوروبية الصادرة بعد العهد (الكارولنجي)، أو بالآثار التي وضعت إبان النهضة البيزنطية، أثارت في نفوسنا الدهشة والإعجاب)[1]

ويتحدث بحزن عما أصاب الحضارة الإسلامية من انحطاط، فيقول: (لا يسع المؤرخ أن ينفض يده من حضارة في حال انحطاطها دون أن تعتريه عاطفة من الكآبة التي لا تتنافى مع الموضوعية. فقد كانت هذه الحضارة مدة طويلة من الزمن ورغم اضطراباتها ونقاط الضعف فيها، إنجازًا رائعًا من منجزات الإنسان، وفترة

---

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٦.
(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٢٩ — ٣٣٠.
(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٦.
(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٣٦.

حاسمة من وجوده.. إن الحضارات جميعًا عرضة للفناء. ذلك أمرٌ لا ريب فيه. لكنها تنهض دليلاً على أن الشعوب التي أوجدت هذه الحضارات قادرة على إبداع غيرها أو بعثها من جديد. ومهما يكن من أمر، فإن الغرب لا يسعه أن يتجاهل بأنه أخذ العلم والتفكير عن ابن سينا وابن رشد، وأنه لولا مسجد قرطبة لما شيدت كاتدرائية (بوي) بالذات في قلب فرنسا على النحو الذي شيدت به)[1]

سكت البابا، فقلت: لقد أنطق الله هذا الرجل بما عجز كثير من الرجال عن قوله.

قال: لابد لكل باحث منصف صادق أن يقول ما قال.

مكسيم رودنسن:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مكسيم رودنسن) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من علماء فرنسا، وله شهادات عن رسول الله ﷺ، والحضارة الإسلامية، وجميعها تتعلق بما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون ــ بعد البحث والتمحيص ــ من أخطاء.

منها قوله، وهو يذكر ما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون من صفات رسول الله ﷺ: (بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تتكامل معالم صورة هي صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع)[3]

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها العالمي، فيقول: (هكذا أظهرت الترجمات اللاتينية لمؤلفات المسلمين تدريجيًا وانتشرت ثروة العرب العلمية بحيث وصلت إلى إنجلترا واللورين وساليرنو وخصوصًا إلى إسبانيا حيث كان الاتصال يجري بسهولة أكثر)[4]

ويقول: (في عام ١١٨٠م، اكتملت المجموعة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفية وأخذت تروج في أوروبا وكان تأثيرها بالغًا، وتبعها ترجمات لفلاسفة آخرين بتلاحق سريع.. وقد أخذت تتشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهدًا لفلاسفة عظام. وكان تلك صورة مضادة تمامًا للصورة السابقة، صورة الكيان السياسي الذي يسيطر عليه دين معاد ومغلوط، وهي الصورة التي خلقتها الخرافات السخيفة والكريهة في أذهان الناس.. واستطاع علماء اللاهوت الفلاسفة أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سيناء عن الحضارة الإسلامية.. بل لقد جاء وقت كان لفظ (الفيلسوف) يعني فعليًا (المسلم)[1]

ويقول: (من وجهة النظر الفكرية نجد أن كبار المؤلفين المسلمين الذين كان اكتشافهم قوة تجديدية أصبحوا يتمثلون (ويهضمون) بصورة تدريجية ويدمجون ضمن الثقافة العامة. وخلال عدة قرون نجد أن ابن سينا

---

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٥ — ٤٠٦.

(٢) مكسيم رودنسن، ولد عام ١٩١٥، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديرها.

من آثاره: (مباحث في فن الطبخ عند العرب) (١٩٤٩). ونشر عددًا من الدراسات في المجلات المعروفة مـــن مثـــل (دانـــتي والإسلام)، و(حياة محمد والمشكلة الاجتماعية المتعلقة بأصول الإسلام)، و(دراسة الصلات بين الإسلام والشيوعية).

(٣) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزوث)، ١ / ٦٧ — ٦٨.

(٤) تراث الإسلام:١ / ٣٦.

(١) تراث الإسلام، ١ / ٤٠ — ٤١.

وابن رشد والغزالي في الفلسفة، وابن سيناء وعلي بن العباس والرازي في الطب، ومؤلفين آخرين في العالم الإسلام نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس)[1]

ويتحدث عن انتشار مثل هذا الوعي بين العامة، فيقول: (أصبح الناس — في الوقت الذي نتكلم عنه — يستطيعون رؤية الدين الذي كان ينافس المسيحية، بنظرة محايدة بل بشيء من التعاطف، ولعلهم كانوا يبحثون فيه بصورة لا شعورية (ويجدون فيه بالطبع) نفس قيم الاتجاه العقلاني الجديد الذي كان مخالفًا للمسيحية. ففي القرن السابع عشر انبرى كثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذي ناله في العصور الوسطى وضد مجادلات المنتقصين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية.. وانتقل الجيل التالي من الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب.. فكان ينظر إلى الإسلام كدين عقلاني بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل.. ثم إنه وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة في المجتمع. وخلاصة القول فهو كدين كان قريبًا جدًا من الدين الطبيعي الذي كان يعتقد به معظم (رجال عصر التنوير)[2]

ويتحدث عن تراجع بعض اليساريين عن موقفهم من الإسلام، فيقول: (ظهر الإسلام لبعض أولئك اليساريين الأوربيين على أنه في جوهره عامل (تقدمي) بطبيعته، بل اعتنق بعضهم ذلك الدين الإسلامي)[3]

بل يتحدث عن تراجع الكنيسة نفسها عن بعض مواقفها الخاطئة من الإسلام، فيقول: (في أكتوبر ١٩٦٥ أشاد مجلس الفاتيكان المسكوني (بالحقائق) التي جاء بها الإسلام والتي تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين عليهم السلام.. ولقد أعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحية الدينية الإسلامية وأزعجتهم مواقف الظلم التاريخية التي وقفتها شعوبهم من الإسلام)[4]

سكت البابا، فقلت: لكأن هذا الرجل الفاضل يدعو إلى مراجعة جميع مواقف الغرب من الإسلام والمجتمعات الإسلامية.

قال: أجل.. ذلك ما يهدف إليه.. وما تلك الأمثلة إلا نماذج عن هذه الدعوة العظيمة.

قلت: لكأني بها ينادي بما نادى به قوله ﷺ:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ: من الآية٤٦)

قال: أجل.. فما نفع القلب مثل مراجعة تمحو ظلمات الوهم، لتستنير بنور العلم.

هنري ماسيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هنري ماسيه) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: من

(١) تراث الإسلام، ١ / ٥٢.
(٢) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث)، ١ / ٦٤ — ٦٦.
(٣) تراث الإسلام، ١ / ٩٤.
(٤) تراث الإسلام، ١ / ٩٥.

(١) هنري ماسيه H. Masse ولد عام ١٨٨٦، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذًا في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضوًا في مجمع الكتابات والآداب وفي المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين.

شهادات هذا الرجل التي جعلتني أضعه هنا حديثه عن منجزات رسول الله ﷺ الكبرى، فيقول: (بفضل إصلاحات محمد الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدّوا دخلوهم النهائي إلى تاريخ المدنية)[1]

ويتحدث عن بعض صفاته ﷺ، فيقول: (كان محمد هو المشرّع الملهم والمحرك الأول للوحدة الدينية بين جميع الأقوام،.. وكان بسيطًا وحازمًا)[2]

ويتحدث عن علاقة الإسلامية بالملة الحنيفية، فيقول: (في القرآن يظهر إبراهيم عدة مرات مع عنوان الحنيف، ويبدو أن هذه العبارة السابقة لعصر محمد كانت تدل على أناس لا يعتنقون المسيحية ولا اليهودية، ويتطلعون بغموض إلى دين أكثر تجردًا من العقائد والمذاهب، إلى توحيد كامل.. ولكن محمد سينتهي إلى التوحيد، إلى دين أساسي وفطري ليست الأديان الأخرى سوى دلالات عليه، توحيد يبلور نهائيًا أحلام الحنفاء الغامضين، بحيث يجب أن نرى هم مبشرين بمحمد[3])[4]

ويتحدث عن ربانية الإسلام، ورجوعه إلى مصادره الأصلية، فيقول: (تضاعفت فجأة أهمية النصوص المقدسة لأن دراستها لم تكن قضية تديّن فقط بل قضية تطبيق عملي. وبدأ الفقه ينتظم ولكن بوفاق تام مع القانون السماوي)[5]

الدو ميلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدو ميلي) [6]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقي فرنسا، متخصص في تاريخ العلوم، وقد رأيت له شهادات رائعة ترتبط بتخصصه، وترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله ــ وهو يتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية ــ: (في عصر الانحطاط العميق بالبلدان التي كانت من قبل تعد قسمًا من إمبراطورية دقلديانوس القديمة، نهض فجأة في قلب الصحاري العربية خصم من الخصوم تابع تلك الإمبراطورية العجوز المترنحة، كما هو من ألدّ خصوم الممالك الجديدة التي كانت ناشئة في الغرب. وظل هذا الخصم يزداد عظمة في مرأى العين، كما لو كانت عناية الله الدائمة هي التي

من آثاره: نشر كتابًا عن الشاعر (سعدي) (١٩١٩)، وصنف كتابًا بعنوان: (الإسلام) (١٩٥٧)، كما ترجم وحقق العديد من النصوص العربية، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.

(١) الإسلام، ص ٥٥.

(٢) الإسلام، ص ٥٩.

(٣) هذه الشهادة تحمل على وجوه مختلفة، وقد حملناها هنا على أحسن وجوهها، وهكذا سائر ما نذكره من شهادات.

(٤) الإسلام، ص ٣٩ – ٤٠.

(٥) الإسلام، ص ١٢٣.

(٦) الدو ميلي A. Mieli مستشرق فرنسي، تفرغ لتاريخ العلوم. تولى وكالة المجمع الدولي لتاريخ العلوم وأسس مجلة (آركيون) التي تسجل نشاطه.

من آثاره: (تاريخ العلوم) (باريس ١٩٣٥)، (العلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي) (١٩٣٨)، (علم الفلك في العالم الإسلامي) (١٩٤١)، (علم النبات عند العرب) (١٩٤١)، (علم الجغرافيين العرب) (١٩٤١)، (العلم الإسلامي) (١٩٤٢٩، (الرياضيات العربية) (١٩٤٢)، (التشريح العربي) (١٩٤٢). وغيرها.

تقود عساكره المخلصين إلى الجهاد والنصر المبين، حتى تلا فتح سورية ومصر بعد قليل تقوّض إمبراطورية الساسانيين، وأصبح أخلاء قسطنطين — الذين اقتطعت منهم فعلاً أقاليم كثيرة — مهددين بمثل ذلك المصير)[1]

ويتحدث عن دوافع الفتوحات الإسلامية، فيقول: (بباعث من تلك الدوافع القوية التي تشمل أحيانًا جميع الناس، وتكاد تبدو متعذرة الفهم للمراقب الخارج عن دائرتها أو الذي لم شهد مثلها من قبل، فاض أولئك العرب.. من شبه الجزيرة، التي هي موطنهم الأول فأسسوا الإسلام، أو أقاموا سلطان الإسلام على قسم عظيم من العالم المتحضر القديم، تحدوهم رغبة جدّ عنيفة في الدعوة الدينية)[2]

ويتحدث عن الدور التحرري الذي قام به المسلمون، فيقول: (إن السكان الساميين في سوريا ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهول — على الأخص بسبب الضرائب — من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا في العرب إلا محررين مخلصين، كما أن المسيحيين القائلين بوحدة الطبيعة (طبيعة المسيح) في الشرق استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامي، بعد أن كانوا يخشون الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية)[3]

ويتحدث عن تسامح المسلمين بإعجاب، فيقول: (كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور الحضارات القديمة عند طوائف كبيرة من الأهالي، الذين واصلوا التمتع بعاداتهم، وقوانينهم، ولغاتهم، على شريطة أن يعطوا بانتظام قيم الجزية المفروضة على من لا يدخل في جماعة المسلمين. وكان طبيعيًا مع ذلك أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مبكر، سواء أكان ذلك بسبب الجوار، أم بسبب اعتناق الأهالي كثيرًا وقليلاً للإسلام بوجه خاص)[4]

ويقول: (التسامح العظيم الذي تحلى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف.. لم يمتد لواؤه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من إفريقية والمشرق فحسب، بل انبسط ظله أيضًا على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقي العلوم في المدن المزدهرة التي لا تحصى، في ذلك القطر الساحر الأندلس الآخذ بمجامع الألباب)[1]

ويتحدث في مجال تخصصه عن الدور العظيم الذي قام المسملون من وصل التراث الإنساني القديم بالتراث الجديد: (إن مقام العلم العربي.. لهو بالمكانة الأولى من الأهمية في تاريخ العلوم، لأن هذا العلم العربي يكوّن حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد. وإذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربي و لم نتفهمه فسنجد فراغًا يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة. وإذن ينبغي أن نجتهد في دراسته بعناية)[2]

(١) العلم عند العرب، ص ٧٤.
(٢) العلم عند العرب، ص ٧٥.
(٣) العلم عند العرب، ص ٨١.
(٤) العلم عند العرب، ص ١٢٣.
(١) العلم عند العرب، ص ٤٥٤.
(٢) العلم عند العرب، ص ١٠ — ١١.

ويرد على شبهة انحصار دور علماء المسلمين في نقل التراث القديم، فيقول: (ينبغي ألا نظن أن العرب لم يضيفوا شيئًا جديدًا إلى العلم الذي كانوا أوصياء عليه. بل على النقيض من ذلك، وإذا كانت خطوات التنمية والإنتاج التي خطوها في هذا السبيل، كثيرًا ما ضاعت وتفرقت في الحشد الكبير من الكتب التي تركوها، فليست تلك الخطوات أقل أصالة وأبعد عن الواقع من أجل ذلك. وليس لأحد أن يقول — كما يقرر ذلك بعض المؤلفين — أن دور العرب ينحصر ببساطة في المزج والنقل لمعارف الأقدمين التي لولاها لذهبت أدراج الرياح (الأمر الذي هو في ذاته عنوان فخر عظيم، وشرف لا يستهان به)[1]

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، فيقول: (ترك كتاب (المناظير) لابن الهيثم تأثيرًا عميقًا، بل كان — فيما بعد — باعثًا إلى البحوث والأعمال التي قام بها روجير بيكون Roger Bacon.. ولعل الأثر الذي تركته مؤلفات هذا العالم العربي في البصريات والذي يبدو في أعمال بيكون.. هو السبب في أن كتب ابن الهيثم لم تنشر مبكرة في عصر النهضة، كما أنها بعد ذلك لم تنشر كثيرًا)[2]

ويتحدث عن جسور التواصل بين المسلمين والغرب، والتي يسرت للغرب الاستفادة من التراث الإنساني القديم، فقال: (على الرغم من أن البناء على أسس المعارف اليونانية واللاتينية القديمة لم يكن أمرًا مستحيلاً، وأنه قد حصلت في الغرب فعلاً محاولات في هذه النواحي فإن هذا البناء لم يتحقق مع ذلك، لأن العالم الغربي كان في ذلك العصر على اتصال بالعالم العربي بوساطة طرق كثيرة الاختلاف، وكان يستطيع أن يغترف منه المادة العلمية، ويستمد النواة الروحية التي سرعان ما حملت عجيب الثمار)[3]

ويتحدث عن جسر (الترجمة) باعتباره من أهم جسور تواصل الغرب مع الإسلام، فيقول: (إن ذلك العمل، أي الترجمة عن العربية الذي يعد بحقّ نتاجًا عظيمًا بالغ الأهمية من قبل المترجمين الأوروبيين جعل أصول العلم العربي تنفذ إلى أوساط العالم المسيحي في الغرب، كما لقح العلم الحديث الذي أخذ في التولد والنشوء)[4]

سكت الباب، فقلت: إن هذا الرجل يكن احتراما عظيما للحضارة الإسلامية.

قال: ولو وجد من يحدثه عن الإسلام بعمق وصفاء لشهد أعظم شهادة يمكن أن يشهدها إنسان.

قلت: تقصد إسلامه؟

قال: أجل.. فما أكثر ما حجب الناس عن الإسلام بسبب سلوك المسلمين، وتصويرهم الخاطئ للإسلام.

ليفي بروفنسال:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليفي بروفنسال) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

---

(١) العلم عند العرب، ص ١٤٤.

(٢) العلم عند العرب، ص ٢٠٦ — ٢٠٧.

(٣) العلم عند العرب، ص ٤٢٤.

(٤) العلم عند العرب، ص ٤٧٩.

(١) ليفي بروفنسال (١٨٩٤-١٩٥٦) F. Levi – Proven Cal ولد في الجزائر ونال الليسانس من كلية الآداب فيها (١٩١٣) واشترك في الحرب. وفي سنة ١٩١٩ انتدب للعمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط. وعين أستاذاً فيه (١٩٢٠)، ثم مديرًا له (١٩٢٦-١٩٣٥) وفي تلك الأثناء قدم رسالة دكتوراه. وفي سنة ١٩٢٨ انتدبته كلية الآداب بالجزائر

رجل من كبار المستشرقين الفرنسيين، أبرز اهتماماته تاريخ الأندلس، ومن خلال هذا الاهتمام شهد شهادات صدق عن الحضارة الإسلامية.

منها حديثه عن تسامح المجتمع المسلم وحبه للسلام، قال: (إن الهدف الذي نبتغيه هو إلقاء الضوء على تداخل Interpenetration الإسلام والمسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية وهو تداخل حقيقي مستمر في إسبانيا في العصور الوسيطة سواء في داخل الحدود الإسلامية أم في خارجها. وكذلك هو في أن نظهر الأندلس على أنها لم تكن حتى في ذات الوقت الذي تعرف بأنها لا تقهر، لتمتشق الحسام في وجه جيرانها، وإنما كانت هناك سنوات طويلة لهدنات حقيقية أعطت الأندلس خلالها أكثر مما أخذت، كما برهنت في أغلب الأحيان على عقل متسامح إزاء رعاياها المسيحيين لم يعد أحد يماري فيه اليوم)[1]

ويقول: (ما من مكان كانت العلاقات الدائمة ضرورية فيه بين الإسلام والمسيحية، أكثر منها في أسبانيا العربية، فإن معظم سكانها قد احتفظوا، على الأقل في القرن الأول من حكم الإسلام، بالديانة القديمة في دولة الفيزيقوت القوات الغربيون، وفيما بعد، حتى عقب اعتناق أعداد غفيرة من الرعايا النصارى أهل الذمة للإسلام، للاستفادة من نظام مالي أفضل، بقيت نسبة ضخمة من الرعايا المسيحيين تشكل في المدن الأندلسية وحدات مزدهرة، لها كنائسها وأديرتها ورئيسها المسؤول (Depensar) وجابيها الخاص (Censor) وقاضيها الذي يطبق في محكمته، تحت إشراف الإدارة الأموية، القانون القوطي القديم من Liber Judicrum أما الاضطهادات التي عانتها فقد كان يسببها دومًا مسيحيون متهوّسون يرفضون أن يتراجعوا عن القدح في معتقد سادة البلاد.. وكان أمراء الأندلس وخلفاؤها يقرون بصورة دائمة تقريبًا اختيار أصحاب الرتب الكهنوتية: مطران طليطلة وأسقف قرطبة. حتى إنهم كانوا يستعملون هؤلاء الأحبار في سفارات أومهمات سياسية سرية في الوقت المناسب. فلم تكن رؤية الإيكليريكيين الأسبان يتضلعون في معرفة اللغة العربية وآدابها من الأمور النادرة مطلقًا. وهذا ما يجعلنا نفترض وجود اختلاط ودّي، واثق ومتصل بين مختلف عناصر السكان. بل نملك على هذه الناحية شهادة معاصرة لا نستطيع الارتياب في قيمتها، ذلك لأنها صادرة عن واحد من أنشط أبطال المقاومة ضد الإسلام في شبه الجزيرة في القرن التاسع ألا وهو الفارو القرطبي Le Cardouan Alvaro. فبينما يحزن لفتور مسيحيي أسبانيا وجهلهم باللاتينية، نراه يمجد بفصاحة نادرة الثقافة الإسلامية الإسبانية التي كانت في طور التكوين)[1]

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية عبر جسر الأندلس، فيقول: (إن تعبير (الغرب

أستاذًا لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية. كما كان يحاضر في السوربون. وتقلب في الوظائف العلمية والإدارية والسياسية، وشارك في الحرب الثانية، وأنشأ مجلة أرابيكا Arabica للدراسات العربية عام ١٩٥٤. وقد عد المرجع الأول في الغرب لتاريخ الأندلس، وانتخب عضوًا في عدد من المجامع العلمية.

كتب المئات من الأبحاث والدراسات، نشر بعضها في مصنّفات مستقلة، ونشر بعضها الآخر في أشهر المجلات والحوليات الاستشراقية، وانصبّ معظمها على تاريخ وحضارة المغرب والأندلس.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٧٠ – ٧١.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٧١ – ٧٢.

الإسلامي) قد لا يجد خصومًا له من أجل تعريفه الخاص فحسب، بل إن له خصومًا آخرين، مازالوا كثيرين جدًا في أوروبا، حتى بين الأخصائيين المرموقين في دراسات العصور الوسطى. يرون أن أفريقيا الصغرى وإسبانيا، كليهما، لا يشكلان مطلقًا سوى امتدادات شاسعة وظلال شاحبة للشرق الإسلامي، هذا الشرق الذي يجب الاعتراف بأنهم لا يزالون يجهلونه تمام الجهل ولا يقدرون حق التقدير الدور الراجح الذي لعبه خلال العصور في اقتصاد حوض البحر الأبيض المتوسط منذ انهيار العالم القديم حتى الفترة التي شهدت غروب القرون الوسطى وأولى تباشير النزعة الإنسانية الناشئة. وترى أن الحكم السابق نفسه الذي كان يجعل مؤرخين كثيرين جدًا يقدرون بيزنطة (بالمقارنة بذكريات روما المظفرة) يدفع هؤلاء المؤرخين إلى أن لا يروا في المغرب والأندلس، في العصر الوسيط، سوى استمرار هزيل، في انحطاط سياسي عميق، لعصر الإسلام الذهبي في الشرق الذي دونت وقائعه في سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين. ولا يخطر لهؤلاء المؤرخين لحظة واحدة، لا سيما فيما يتعلق بإسبانيا، أن يحاولوا إظهار قسطها الهائل في تطور العالم الأوروبي الغربي، منذ القرن الحادي عشر، وفي تحسين بعض نواحي الحياة المادية، وبخاصة فيما فرضت عليه رويدًا رويدًا، من شعور بجمال للحياة جديد، هذه الحياة التي كانت تسيطر عليها حتى ذلك الحين، وفي رهبة المجهول، صوفية ثقيلة التشاؤم)[1]

ويتحدث عن بعض مظاهر تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، فيقول: (إن دراسة الاستعارات (اللغوية) التي تنفح القشتالية والبرتغالية والقطالونية وهي اللغات القومية الحالية في شبه الجزيرة عبيرًا من العربية جد نفاذ ومدعاة للبحث، هذه الدراسة لا تقدم لنا قيمة في فقه اللغة فحسب بل إنها تكتسي طابع الأهمية الخاصة حالما نتوسع فيها لتشمل وقائع الحضارة التي بردت هذه الاستعارات اللغوية، فهي تقدم الدليل الضمني، ولكن الذي لا جدال فيه، على الأثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الأندلسية على السكان المسيحيين في الكتلة الإيبيرية بكاملها.. لقد وجد هؤلاء أنفسهم مضطرين لأن يأخذوا عن العربية كل ما كان ينقصهم حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة. وهذا التحقق هو غني بالمعلومات بصورة فريدة)[1]

ويقول: (على الرغم من أن فرنسا كانت في العصور الوسطى في عزلة عميقة بسبب من وضعها الجغرافي، إلا أن هذا، مع ذلك، لم يحل دون معاناتها من بعض النواحي، عاقبة تلك المؤثرات التي أثرتها حضارة الإسلام في الأندلس على الممالك المسيحية في شمال إسبانيا.. وقد رأينا أن غالبية الكلمات المشتقة من العربية في اللغة الفرنسية قد دخلت إليها عن طريق الإسبانية. ومن المحتمل أن يكون هذا هو شأن كثير من المؤثرات التي قدرت فرنسا على تقبلها من الإسلام قبل زمن من الحملات الصليبية إلى الشرق أو حتى أثناء هذه الحملات.. وقد أخذ ذهاب الرهبان الفرنسيين وإيابهم المتواتر بين أديرتهم وبين طليطلة، يزيد أيضًا في تسهيل التبادل الثقافي بين

---

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨ – ٩.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨٠-٨١، وعن حشود المفردات العربية التي اقتبسها الإسبان في مجالات النظم العسكرية والمدنية، وأسماء الأمكنة، والأنشطة الزراعية والصناعية وغيرها، انظر المرجع نفسه، ص ٨١-٨٥.

البلدين)[1]

ويتحدث عن الفترة الزاهرة التي مرت بها الأندلس إبان حكم المسلمين لها، فيقول: (يجب أن نبادر في الحال إلى استبعاد بعض الإثباتات لأنها نفسها تستحق ذلك إذ أنها لا تعتمد فيما تزعم على مستندات خالية الغرض دائمًا، لا سيما وأن لهجتها الخشنة، الحاقدة معًا، تجعلها في محل شبهة إلى حد بعيد منذ البداية.. وهي تصدر من ناحية أخرى عن كتاب ليسوا من الأسبان كما أنهم ليسوا مؤرخين أو مختصين بإسبانيا، وأكثر من هذا كله فإنهم غير مختصين بالإسلام. فإنهم يلقون على المسلمين تبعة (إجداب) إسبانيا و(إخلائها) من السكان وأنهم جعلوها (صحراء مثل أفريقيا الشمالية). ويقسم المرء لدى قراءته ما كتبوا على أنهم لم يسمعوا أبدًا خرير نوافير الماء في قصر الحمراء و لم يستنشقوا أبدًا العبير الرقيق المعطر في الكزار إشبيلية. وهم يرون، وأنا أنقل هنا حرفيًا رأيهم، بأنه (أقل ما يمكن أن يقال هو أن السيطرة الإسلامية كانت مصابًا جسيمًا حل على إسبانيا). فما من أحد مثقف في إسبانيا اليوم يجرؤ على أن يكون حكمًا مفرطًا في المبالغة إلى هذا الحد.. ولكن إسبانيا قد عرفت أن تعيد إلى إسلام الأندلس ألقابه في مراتب الشرف وادعت وهي مرفوعة الرأس علنًا بأنه يعتبر زهرة في تراثها التاريخي والفكري)[2]

ويقول: (كان العالم السياسي الإسباني السيد Cl. Sanchez-Albornoz رئيسًا لجامعة مدريد فسفيرًا لبلاده ثم وزيرًا لشؤونها الخارجية، إلا أنه كان ويبقى، قبل كل شيء، مؤرخًا على مستوى عالٍ.. أنه يعرف، أكثر من أي شخص آخر، كيف أشرف الإسلام على هذه البلاد وماذا كان تراثه الرئيسي فيها: تأثير عميق على الفكر الإسباني لا يمكن إنكاره.. لنترك له الكلام ونردد معه كلمة هذا الاعتراف المؤثر العضوي: (المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى، ولكن علينا أن نرى مقابل أوروبا التي تنمو في التعاسة والانحطاط، حضارة إسبانيا المسلمة الرائعة. فإن أساتذة الدراسات العربية يفتحون لنا كل مرة آفاقًا جديدة عن مدى تألّق هذه الثقافة الإسبانية المغربية وعمقها. فقد ادعوا أن لها مقامًا حاسمًا في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوروبا المسيحية. وبرهنوا على أن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط. بلغ القديس توماس ودانتي. كثيرون ولا شك، في كل ناحية من ناحيتي جبال البيرنيه والبحر المتوسط الذين ينفرون حتى الآن من الإقرار لها بهذا التفوق وذلك الدور الموجه. ومع ذلك فإن براهين وافية للغاية تؤكد ذلك منذ الآن. ومن يوم على يوم تنبجس أخرى جديدة. وقد انقضت عدة قرون قبل أن تعمل النهضة من جديد على تفجير ينابيع كادت تنضب، كان نهر الحضارة الذي ينهمر في قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد)[1]

سكت البابا، فقلت: ليت بعض قومنا يقرؤون هذه الشهادات ليروا من تاريخهم وحضارتهم ما عميت أبصارهم عن رؤيته.

---

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨٧ — ٨٨.

(٢) حضارة العرب في الأندلس، ص ٩٩ — ١٠٠.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ١٠٢-١٠٣، وعن الدور الذي لعبته الترجمة إلى اللغات الإسبانية في نقل مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى المغرب، انظر: المرجع نفسه ص ٩٦ — ٩٧. وعن إنجازات المسلمين في الآداب والفنون انظر المرجع نفسه، ص ٨٨-٩٠، ٩٧-٩٨.

روبرت برنشفك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روبرت برنشفك) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقي فرنسا، له شهادات ترتبط بالإسلام، وبالحضارة الإسلامية، منها قوله في الميادين التي مارستها الحضارة الإسلامية: (إن تأثير الدين الإسلامي تتجلى قوته.. في عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية: في اللغة والفنون والأدب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون، بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الوضعية كلاً، أن نرفض ملاحظة مدنية مستقلة فيها، لا تتميز (بالعنصر الإسلامي) فحسب، بل (بالعامل) الإسلامي أيضًا) [2]

ويتحدث عن شمولية العقيدة الإسلامية لكل ميادين الحياة، فيقول: (أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين نظامًا نما بصورة واسعة في نواح مختلفة، وكان شديد الرغبة في إظهار تماسكه في كل مدرسة أو نزعة تتضح في نطاقه.. وهكذا أخذ الإسلام مكانه عملية قدرت له في عدة ميادين ثقافية، وهو دور المؤثر والمتأثر، وهو مظهر مزدوج لا يصح الفصل بين جزئيه غالبًا إلا بطريقة مصطنعة) [3]

ويتحدث عن أسلمة المسلمين للحياة بجميع ميادينها، فيقول: (من الأصحّ دون ريب أن نعتبر العقيدة الإسلامية عاملاً، لا في الحالات التي يحدث أن تستمد منها حلاً جديدًا من مواردها الخاصة بها فحسب، أو تأتي بحل جديد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولكن في كل حالة تستوعب فيها حلاً داخليًا أو أجنبيًا في نظامه ويلوّنه بطريقته الخاصة وبذلك تساعد على اقتباسه أو الاحتفاظ به. فكم من عمل لم تكن به من ناحية المبدأ صبغة إسلامية، طبعه الإسلام بطابعه إلى الحدّ الذي أصبح فيه عملاً مميزًا للإسلام، وذلك بفضل إسناد التربية الإسلامية المأثورة.. ومن الممكن أن الصفة الإسلامية الخاصة لعنصر ثقافي في أكثر من حالة واحدة، لا يدين بشيء إلى الأصل الذي نشأت عنه بل يعبر فقط عن الحقيقة أن الإسلام باقتباسه العنصر المذكور طبعه بطابعه أو أراد اقتباسه وتمثيله) [1]

البروفيسور فورغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور فورغ) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب فرنسي له اهتمام بتاريخ الطب، وله شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله ــ عن تأثير

---

(١) روبرت برنشفك R. Brunschvig ولد عام ١٩٠١، أستاذ اللغة والحضارة العربيتين بجامعة بوردو ثم في كلية الآداب بجامعة باريس (١٩٥٥)، وتولى مع شاخت الإشراف على مجلة الدراسات الإسلامية Studia Islamica.
نشر عدد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة، كما ألف (بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيين) في جزأين (باريس ١٩٤٠).

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ٧٤.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٧٩ – ٨٠.

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٨٠ – ٨١.

(٢) البروفيسور فورغ Prof. Forgue جراح فرنسي شهير، يعد من اشهر جراحي فرنسا في النصف الأول من هذا القرن، إن لم يكن أشهرهم. وله اهتمامات بتاريخ الطب.

الإسلام في الحالة النفسية عند الإسبانيين ـــ:(إن إسبانية.. أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها، وهي تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرها، وأن فيها قوة حيوية قومية غير معهودة لكثير من الأمم، وأن لتلك الأدمغة الحارة من سرعة الفكر.. ما يجعل هذه الأمة فريدة في بابها. ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الإسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهي استيلاء العرب على إسبانيا.. التي بقيت تحت حكمهم زهاء ثمانية قرون. وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الأمة الإسبانية بالمدنية الإسلامية هذه المدنية التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الإسلامي وأوروبة الغربية. قال ليبري Libri: احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون إلى الوراء)[1]

ويقول عن الحضارة الإسلامية في الأندلس: (كانت طليطلة قد عادت للإسبانيول سنة ١٠٨٥م فصارت مركز الاتصال بين المدنيتين الإسلامية والمسيحية. وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكمكتب للترجمة يحج إليه طلاب العلوم من كل فجّ.. وفي يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا.. من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيه القرون والحقب دهرًا طويلاً، كما أن طليطلة بقيت خزانة كتب تغذّي بترجمتها الفكرة البشرية عصورًا مديدة. لا جرم أن هناك تاريخًا نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة)[2]

وينظر بعجب إلى الرجال الذين أسسوا الحضارة الإسلامية في الأندلس، فيقول: (إنك ترى شعبًا من القبائل الرحل، رعاة الإبل، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد. ثم يكون أعظم همهم، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض، أن يضمّوا إلى عظمة الفتح عظمة العلم)[3]

البارون كارادي فو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البارون كارادي فو) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين الفرنسيين، من شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية قوله: (أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً. فعلمونا استعمال الصفر وجعلوا (الجبر) علمًا متقنًا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية وهم بلا منازع موجدو علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف كما أنهم عملوا في الفلك أرصادًا عديدة قيّمة، وحفظوا لنا بترجماتهم عددًا كبيرًا من كتب الإغريق التي ضاعت أصولها.. والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على

---

(١) مجلة المستشفيات الفرنسية Gazette des Hopilaux عدد ١٩ مارس، ١٩٣٢، عن (حاضر العالم الإسلامي ١/١٢٨-١٢٩).

(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٢٩.

(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٣٠.

(١) البارون كارادي فو (١٨٦٨ – ١٩٣٠) Baron Carra De Vaux مستشرق فرنسي معروف من المعهد الكاثوليكي بباريس، درس العربية ودرّسها في المعهد المذكور، وألف في الرياضيات والفلسفة كما حقق عددًا من المصادر. ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه عن ابن سينا (١٩٠٠) والغزالي (١٩٠٢) و(مفكرو الإسلام) في خمسة أجزاء (١٩٢١-١٩٢٦). كما ترجم كتبًا عديدة أخرى.

الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا كانت مراكش والشرق محط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه. في هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق. وهكذا كانوا همزة وصلٍ بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة، عندما عادت النفس الإنسانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاستقصاء ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية. فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم وصانت روح البحث العلمي حيّة تائقة للتحرر والحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة)[1]

هيلين كارير دانكوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هيلين كارير دانكوس) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكرت لك هذه المرأة الفاضلة من قبل.. ألا تذكره؟

قلت: بلى.. تلك المرأة الفاضلة.. صاحبة المزرعة العجيبة.. تلك التي كانت تبحث عن النظام الأمثل.. فلم تجده إلا في الإسلام[3].

قال: أجل.. فلها شهادات رائعة عن الإسلام بثتها في كتابها (القوميات والدولة السوفياتية)، وهي في مجملها تدل على مدى الصمود الإسلامي، ومدى استغناء المسلمين بالنظام الإسلامي عن كل نظام مستحدث.

منا قولها: (إن استمرار الشعور الديني في الاتحاد السوفيتي، أو تجدّده، حقيقة اجتماعية ثقافية، تُقرّ بها السلطات السوفيتية ويلحظها المراقبون الأجانب والسلطة تنظر إلى هذه الحقيقة من وجهتين، فهي تارة تعتبرها مدعاة للافتخار على أنها الدليل الملموس على موقفها المنفتح والديمقراطي تجاه جميع المعتقدات الخاصة، وطورًا تبدي تجاهها بعض القلق، وحينها تجنّد أجهزتها المختصة في الدعاية المعادية للدين، وتشتد الحملات الإلحادية، وتتضاعف في الصحف الدعوة إلى التيقظ والحذر، ويعاد إلى أذهان المربين أن المهمة الأولى للمدرسة هي في إنشاء شيوعيين، أي في إبعاد مواطني المستقبل السوفيتيين عن الأفكار الرجعية !! الخطرة والمعادية للشيوعية، التي تنقلها الديانات. وتؤكد النشرات المعادية للدين بصورة متزايدة، قابلية الديانات للاستمرار والتأقلم مع المجتمع الذي بدلته الاشتراكية، بعد أن كانت هذه النشرات تكتفي في الماضي القريب، بمهاجمة الديانات وتتنبأ بزوالها

(١) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس أرنولد)، ص ٥٦٣–٥٦٥. وعن إنجازات المسلمين في ميدان الفلك والرياضيات والعلوم التطبيقية، انظر: المرجع نفسه، ص٥٦٣–٥٦٥، ٥٦٩–٥٧١، ٥٧٣–٥٨٠، ٥٨٢، ٥٨٤–٥٩٢.

(٢) هيلين كارير دانكوس Helene Carrere d' Encansse باحثة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر كتابها (القوميات والدولة السوفياتية) في باريس عام ١٩٨٧ فأثار ضجة ما تزال مستمرة وترجم فورًا إلى عدد من اللغات الحية.

وقد سبق الحديث معها في الجزء السابق.

(٣) انظر الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل(نظام)

الحتمي !! وقد بدأت السلطة السوفيتية تدرك مدى جاذبية الطقوس الدينية في مجتمع تسود فيه الرتابة، وكيف بدأت الأخلاق الدينية تخطط لنفسها طريقًا إلى جانب الأخلاق الاشتراكية، لا بل في محلها في مجتمع ما زاده التحضير ميلاً إلى الجنوح)[1]

ومنها قولها: (إن جميع المعلومات السوفيتية الرسمية تتضافر لتوحي بأن الإسلام يحتضر ببطء في الاتحاد السوفيتي، مع احتضار الجيل الذي لم ينشأ على الإيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة في الاتحاد السوفيتي حول هذا الموضوع، تبين أن المجتمع الإسلامي لا يزال متعلقًا بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الذين جرى استجوابهم في الوسط الريفي صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقًا أجري عام ١٩٧٢ بجمهورية كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن ٢٣% من الرجال و٢٠% من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكون ٧٧% من الذكور و٨٠% من الإناث مؤمنين.. وفي شمال القوقاس أعلن ٢٠% فقط من السكان عن كونهم ملحدين (عام ١٩٧٤).. هذا رغم أن الباحثين في الأوساط الإسلامية يلحظون غالبًا تحفظًا من قبل السكان في الكشف عن حقيقة إيمانهم)[2]

ومنها، قولها: (هنالك خاصية ثانية للإسلام تزيد الوضع في الاتحاد السوفيتي تعقيدًا فهو، على نقيض المسيحية التي تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيدة الإسلامية، وهي ثمرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمنين وجود مؤسسات خاصة، مهمتها الإشراف على الحياة الاجتماعية. والدولة السوفيتية، في برنامجها التأحيدي الذي يستهدف فرض إيدلوجية واحدة لم يكن باستطاعتها أن توافق على وجود نظام خاص للطائفة الإسلامية، فألغت في أوائل سني استلامها السلطة، العناصر الأساسية فيه، أي النظام القانوني والمؤسسات الشرعية والأسس المالية المعتمدة. وبعد أن جعلت الديانة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل بقي لها وجود منظم أم هي أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل الإسلام كان يمكن القبول به في الماضي القريب، ولكنه اليوم لم يعد له من أساس، بل على العكس، فهذه الوقائع توحي بأن الإسلام يبعث من جديد، وفي ظروف جديدة، وأن هذا البعث المرتكز إلى وجود واع وإرادي لا إلى وجود استمراري، تدعمه وتوجهه المراجع الإسلامية العليا)[1]

ومنها قولها: (نجد في صحف الجمهوريات الإسلامية عدة إشارات.. يفهم منها أن التضامن الإسلامي في الاتحاد السوفيتي بات في ازدياد، وأن المؤمنين أضحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسين لدينهم)[2]

جورج مارسيه:

---

(١) القوميات والدولة السوفييتية، ص ١٤٣.
(٢) القوميات والدولة السوفييتية، ص ١٤٧.
(١) القوميات والدولة السوفييتية، ص ١٤٩.
(٢) القوميات والدولة السوفييتية، ص ١٥١.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جورج مارسيه) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي اهتم بمدى تغلغل الإسلام في الحياة، ومن شهاداته في هذا الباب قوله: (إن الحج المتوجب على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً أن يؤديه مرّة في حياته، لا يقل أهمية عن المبادلات التجارية في ترابط أبعد أجزاء العالم الإسلامي.. أما الصلاة، وهي فعل العبادة وخضوع الإنسان لخالقه، فيؤديها المؤمن خمس مرات يوميًا وفي ساعات معينة بعد أن يطهر نفسه بالوضوء، متوجهًا نحو مكة المكرمة، حيث الكعبة المشرفة، مرددًا الصيغ الدينية، وهو يقوم بحركات السجود والركوع المنتظمة بدقة. ويمكن تأدية الصلاة بصورة منفردة وفي أي مكان يجد المرء نفسه فيه، على أن تكون الأرض بعيدة عن كل نجاسة، على أن صلاة الجماعة هي المستحبة.. وتكون الصلاة المشتركة في المسجد، والمسجد أساسًا هو بيت الصلاة، ومخطط بنائه منسجم مع ممارسة العبادة، فمن أجل الصلاة يقف المسلمون جنبًا إلى جنب يؤلفون جبهة عريضة وتنتظم خلف هذا الصف صفوف أخرى بنفس النظام، ويقف الإمام الذي يؤم الصلاة في مقدمة المصلين، وقد أدار ظهره لهم ووجهته ووجهة المصلين، الذين يقومون بنفس الحركات التي يقوم بها ويرددون التلاوات نفسها، هي القبلة، أي اتجاه مكة، حيث الكعبة قطب الإسلام وبيت الله على الأرض)[2]

ومنها قوله: (على أية حال، يكاد لا يوجد في البلاد الإسلامية منشآت عامة أو خاصة لا تحمل طابع الدين. فلقد تغلغل الإسلام في الحياة البيتية كما دخل حياة المجتمع وصاغت الطبائع التي نشرها شكل البيوت والنفوس)[3]

ومنها قوله: (إن العقيدة الأساسية في الإسلام هي الوحدانية المطلقة، فلا إله إلا الله ولقد ظهرت تعاليم الرسول محمد كرد فعل قوي ضد تعدّد الأرباب والأنصاب التي كان يقدسها العالم العربي، وضد الوثنية الإغريقية الرومانية ولمجابهة الثالوث الذي يؤمن به المسيحيون ليس لله شريك و لم يلد و لم يولد، لا يمكن أن يشبه بأي مظهر إنساني، ولئن كان القرآن قد حرم عبادة الأصنام بجمال، فإن الحديث الشريف (السّنّة) فعّل ذلك وتوسّع فيه.. وليس من الممكن أن ننكر أن هذا المنع احتفظ بكل قوته في تزيينات العمارة الدينية ولوازم العبادة، وأنه أثر على تطور الفن الإسلامي بأسره.. وهكذا فإن الإسلام وضع طابعه على إطار الحياة اليومية. وحتى عندما يكون الفن مطبقًا في أمور دنيوية فإن من البلاد الإسلام يبقى فنًا مسلمًا)[1]

فولتير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فولتير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم الفيلسوف الفرنسي المعروف.

---

(١) جورج مارسيه (١٩٠٥-١٩٤٦) G. Marcy مستشرق فرنسي، كتب العديد من الدراسات والأبحاث في الشريعة واللغة، نشرها في عدد من المجلات الشهيرة مثل (المجلة الجزائرية)، و(المجلة الأفريقية)، و(حولية معهد الدراسات الشرقية)، وغيرها.

(٢) الفن الإسلامي، ص ١٢ — ١٣.

(٣) الفن الإسلامي، ص ١٥.

(١) الفن الإسلامي، ص ١٦ — ١٧.

قلت: لقد كنت أسمع بعداوته الشديدة للأديان، بما فيه الإسلام.

قال: ذلك صحيح.. ولكن المؤسف أن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة، والتي تراجع فيها عن أقواله السابقة، فتكاد لا تذكر.

قلت: هل تراجع عن تصريحاته المسيئة للإسلام؟

قلت: أجل.. لقد ذكر ذلك، فقال: (قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

ويقول في قاموسه الفلسفي:(أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء ٢,٥ % من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحياناً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات)[١]

ويقول متحدثا عن الصمود الإسلامي:(لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنســـــان أن يقوم به على الأرض ... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قـــــــــد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)[٢]

لامارتين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لامارتين)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم شاعر فرنسا الكبير، وقد قال في الإسلام:(الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن والروح معاً، دون أن يُعرِّض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمير... وهو الدين الوحيد الذي عباداته بلا صور، وهو أعلى ما وهبه الخالق لبني البشر)[٣]

أناتول فرانس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أناتول فرانس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتب الفرنسي.. قال في كتابه (الحياة الجميلة): (أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده و لم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي)

وقال:(حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة، وعمق ذلك التقدم، أمراً يدعو إلى الذهول حقاً، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمئة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولّ

---

(١) القاموس الفلسفي(٦/٤)

(٢) نقلاً عن (غوته والعالم العربي)كاتارينا مومزن (١٨١و٣٥٥)

(٣) السفر إلى الشرق: لامارتين (٤٧)

كل من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثاً على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية)[1]

(١) المستشرق روم لاندو في (الإسلام والعرب)، ص(٩-٢٤٦)

٣ ـــ أصدقاء من الإنجليز

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من الإنجليز)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: أفي الإنجليز أيضا أصدقاء لنا؟

قال: في كل بلاد الله أصدقاء للمسلمين.. العداوة ليست هي الأصل الذي يتحكم في البشرية.

قلت: ولكنهم يعمرون برنا وبحارنا وجونا بألوان العداوة؟

قال: فاعمروا قلوبهم بالإيمان والمحبة التي تحميهم من نزغات الشياطين التي توسوس لهم بحربكم.

قلت: أنى هذا.. وهم الغالبون، ونحن المغلوبون؟

قال: هذا ليس بعيدا.. ألم يتمكن المسلمون من تحويل دين الغالب إلى دين المغلوب؟

قلت: لقد حصل هذا.. وخير دليل على ذلك التتار.

قال: ما حصل من قبل يمكن أن يعاد في كل وقت..

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال: إنكم إن فعلتم ذلك انتصرتم عليهم.. لا بأرواح تزهق، ولا بدماء تسيل.

سير توماس أرنولد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سير توماس أرنولد)[1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين البريطانيين، وله شهادات علمية كبرى ترتبط بانتشار الإسلام، وقد سبق أن حدثتك عنه[2].

قلت: أجل.. فاذكر لي اليوم بعض شهاداته.

قال: من شهاداته المرتبطة بالقرآن وأسلوبه قوله: (إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar [الإسباني] الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به)[3]

وتحدث عن توفر خصائص القدوة في رسول الله ﷺ، فقال: (لعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت

---

(١) سير توماس أرنولد (١٨٦٤ – ١٩٣٠) Sir Thomas Amold، من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي. وقد أشرف آرنولد على تنسيقه وإخراجه. تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذاً للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية. وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه "عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات" (دراسات في حضارة الإسلام ص٢٤٤). ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى كثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

(٢) انظر الحوار الافتراضي معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص)

(٣) الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص ١٦٢.

حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجئ في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكر، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها. وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك وكيف كان النبي محمد يعد نموذجًا للداعي إلى الإسلام)[١]

ويتحدث عن استمرار الدعوة النبوية رغم التمكين الذي مكن الله به المسلمين في المدينة، وما بعدها: (من الخطأ أن نفترض أن محمدًا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين)[٢]

ويتحدث عن بعض أساليب الدعوة التي مارسها المسلمون، فيقول: (إن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين، كل ذلك جعل اسمه مألوفًا لديهم، كما جعل صيته ذائعًا في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدًا عظيمًا ورجلاً كريمًا. وكثيرًا ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعيًا إلى الإسلام جادًا في تحويل إخوانه إليه»[٣]

ويتحدث عن بعض أسباب الإقبال على الإسلام في المدينة المنورة، فيقول: (نرى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجًا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية)[٤]

ويتحدث عن الثورة التي كان يحملها الإسلام ضد أوضاع الجاهلية، فيقول: (لا يغرب عن البال كيف ظهر جليًا أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضًا تامًا. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.. وأصبح النبي بذلك رمزًا لأسلوب جديد)[٥]

ويتحدث عن خاصية العقلانية التي تتميز بها العقيدة الإسلامية، فيقول: (يعبر الشطر الأول من هذه العقيدة [لا إله إلا الله، محمد رسول الله] عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لابد منه، على حين

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٤.
(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٤.
(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٣.
(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص ٦١.

يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أي فرد أن يوضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور مونتيه في العبارات التالية: (الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق.. إن [للإسلام] كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد التي قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة، وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وأن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.. وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وأن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسّر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محدودة كل التحديد خالية كل الخلوّ من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك – وإنها لتمتلك فعلاً – قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس)[1]

ويتحدث عن الآثار السلوكية للشعائر الإسلامية، فيقول: (كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن منتسكيو في قوله: [في كتابه المعروف: روح القوانين]: (أن المرء الأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائمًا على تفكيره). إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته، وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.. فإذا استطاع رينان أن يقول: (ما دخلت مسجدًا قط،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٤ – ٤٥٦. أما عبارات مونتيه (Montet) فيستمد المؤلف من كتاب La propagande chretienne et ses adversaires musulmans, pp. ١٧-١٨ (Paris, ١٨٩٠)..

دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلمًا)[1]، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الأفريقي الوثني الذي وهب إدراكًا قويًا للقوى الخفية.. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال)[2]

ويتحدث عن علاقة الدين بالحياة، فيقول: (إن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع تعبيرًا ظاهرًا في حياة المؤمن، ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية، تشابكًا لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إمامًا ومعلمًا لعقيدته، أكثر إلى حد بعيد مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى. إن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سرّ السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس. (فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة في صورة حماسية، دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرئيّ محسن)[3]

ويتحدث عن الدوافع الحقيقة وراء انتشار المسلمين في الأرض، فيقول: (أن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا بين ما نسميه أديان الرسالة لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب: (الدعوة إلى الإسلام)، إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودواعي وألوان نشاطها. وأن انتشار مائتي مليون من المسلمين في الوقت الحاضر[4] لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التي تلت ظهور الإسلام)[5]

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام، فيقول: (يرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة)[6]

---

(١) Emest Renan: L'islamisme et la Science, p. ١٩ (Paris, ١٨٨٣)..

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٨ – ٤٦٠.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٦٠، والعبارة الأخيرة ينقلها عن: B. Kuenen: National Religions and universal Religions, p. ٢٥, (London, ١٨٨٢)..

(٤) كان ذلك زمن تأليف توماس آرنولد لكتابه (الدعوة إلى الإسلام) في أواخر القرن الماضي، أما الآن فقد زاد هذا العـــدد إلى أكثر من خمسة أضعافه.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧.

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية المعجزة في الإقبال على الإسلام، فيقول: (إن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، قد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن [الله] لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم)[1]

ويتحدث عن سماحة المسلمين مع الطوائف المختلفة، فيقول: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرود وإيزابلا دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متّبعوه في فرنسا أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًا عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف إلى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم)[2]

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية التي نقلها المسلمون إلى الأندلس، والتي امتد تأثيرها إلى جميع أوروبا، فيقول: (أدخل العرب الظافرون الإسلام في أسبانيا سنة ٧١١م وفي سنة ١٥٠٢م أصدر فردناند وإيزابيلا مرسومًا يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أنحاء البلاد. ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين، صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provance إلى الممالك الأوروبية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة)[3]

ويتحدث عن تاثير تسامح المسلمين في نشر الإسلام، فيقول: (إن عدم وجود التعصب الطائفي ليكوّن القوة الحقيقية للإسلام في الهند، ويمكن له أن يجذب إليه عددًا كبيرًا جدًا من الهندوكية)[4]

ويتحدث عن استمرار الإسلام في قوته وانتشاره رغم الظروف الخطيرة التي مر بها، فيقول: (في سنة ١٨٦٧ عبر كاتب روسي، في كتاب هام كتبه عن الإسلام في الصين[5] عن الفكرة التي تقول بأن الإسلام مهيأ

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٨ – ٩٩.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٤، وعن إنجازات المسلمين في ميدان الفنون انظر: تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٢٢٣ – ٢٢٦.

(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٢٧.

(٥) Vasiper(V.P.): Spread of Mohammedan Faith in China, PP. ٣, ٥, ١٤, ١٧ (Petesburg, ١٨٦٧)..

لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعًا لذلك الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأسًا على عقب)[1]

ويتحدث عن تأثير الحرية في انتشار الإسلام، فيقول: (كان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، أمرًا محرمًا في القانون الروسي، ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد، إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥. ومن النتائج التي ترتبت على صدور هذا المرسوم في بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا فترة طويلة يدينون بالمسيحية اسمًا فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين، في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي)[2]

سير هاملتون جب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سير هاملتون جب)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا (سير هاملتون الكساندر روسكين جب)[3] وهو من كبار المستشرقين الإنجليز، بل يمكنك أن تعتبره إمامهم.. وبالرغم من بعض سوء الفهم الذي عرض له، كما عرض لسائر المستشرقين نحو بعض القضايا الإسلام، إلا أن له بعض المواقف الطيبة والشهادات الصادقة، وقد قمت بتسجيل بعضها، وسأسردها عليك.

منها شهادته على ما يحويه القرآن من القيم النبيلة، قال: (إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة:﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله)[4]

ومنها شهادته حول التواصل بين الدين والدنيا في الإسلام، يقول: (هذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٢.

(٣) سير هاملتون الكساندر روسكين جب ١٨٩٥ – ١٩٦٧ يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (١٩٢٦)، (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤.

القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني)[١]

ومنها شهادته حول تميز الإسلام على غيره من الأديان، قال: (مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته[٢] فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا)[٣]

ويتحدث عن صمود عقائد الدين لدى العامة بالرغم من الجدل الذي مرت به بعض فترات التاريخ الإسلامي، فيقول: (على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم كلام إسلامي منهجي، يبقى صحيحًا ما ذكرناه سابقًا وهو: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثرًا أقوى وأسرع من كل اثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي أو من حذاقته وبراعته)[٤]

ويتحدث عن حيوية العقيدة الإسلامية وتأثيرها، فيقول: (إننا نخطئ خطأ فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي أتقن بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة. إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاص[٥]، حين يدرس النصّ المقدس. لقد عارض المذهب السني المتمسك بشكل عام ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى [٦] على الرغم من أن النص العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنًا بترجمة تركية أو فارسية أو أُردية وغيرها من اللغات. إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلاني مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤.

(٢) ذكرنا الرد على هذه الشبهة في مواضع مختلفة من هذه السلسلة، وبالنسبة لمصادر هذا الدين رددنا عليه في رسالة (الكلمات المقدسة)

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤ — ٢٥٥.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٥.

(٥) هذا ليس صحيحا، فالإسلام دين الشعوب جميعا، وكل الشعوب تأثرت به سواء كانوا عربا أو غير عرب.

(٦) وهذا ليس صحيحا، إنما الاعتراض على تسمية الترجمة قرآنا، بل هي ترجمة لمعاني القرآن، أو لبعض الفهوم حول القرآن.

قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقي إلى فخار)[1]

ويتحدث عن مدى الجهد الذي بذله العلماء في حفظ السنة، فيقول: (اقتضى الأمر نشوء علم جديد غايته جمع الحديث ونقده وتصنيفه وتنسيقه والحصول في النهاية – بقدر الإمكان – على مجموعة متفق عليها يتقبلها الجميع. وقد استأثرت هذه المهمة بالكثير من طاقات الفقهاء والعلماء في القرن الثالث، ولكن القائمين عليها أحرزوا نجاحًا حتى أصبح حديث الرسول يعتبر مرجعًا ثانيًا معتمدًا للفقه والعقيدة)[2]

ويقول: (إن بدايات التاريخ العلمي بالعربية تقترن بدراسة سيرة الرسول ودراسة أعماله. وعليه فإننا نجد مصدر هذه الدراسة في جمع الحديث النبوي وبخاصة الأحاديث المتعلقة بمغازي الرسول. وكان موطن هذه الدراسة هو المدينة.. ويفسر لنا ارتباط المغازي بالحديث، هذا الارتباط الذي ترك طابعًا لا يمحى في المنهج التاريخي باستخدام هذا المنهج للإسناد، ما طرأ من تغير هائل ظهر منذ هذه اللحظة في طبيعة الأخبار التاريخية عند العرب، ودقتها المؤسسة على النقد. ويمكننا أن نشعر لأول مرة بأننا نستند إلى أساس تاريخي قويم حتى وإن اعترفنا بوجود بعض العناصر المشكوك فيها في أخبار الفترتين، المدنية والمكية، من حياة الرسول)[3]

ويتحدث عن الانسجام التام بين القرآن والحديث النبوي الشريف مما يؤكد سلامة الحديث النبوي ودقة نقله، فيقول: (يكاد يكون من المؤكد أن الآراء التي تعبر عنها الأحاديث التي تم جمعها في القرن الثالث تمثل تعاليم القرآن ومبادئه الخلقية تمثيلاً صادقًا)[4]

ويتحدث عن الأهمية الكبرى التي تكتسيها أحاديث النبي ﷺ، فيقول: (لولا الحديث لأصبح لمحمد في أقل تقدير صورة معممة – إن لم نقل بعيدة – في أصولها التاريخية والدينية. أما الحديث فقد صور وجوده الإنساني في مجموعة وفيرة من التفصيلات الحية المحسوسة، وبذلك قدم للمسلمين حين ربط بين المسلمين وبين نبيهم بنفسه الروابط الذاتية الوثيقة التي كانت تصله بأصحابه الأولين، وهي روابط نمت على مر القرون وكانت أقوى من أن تصاب بالضعف. ولم يصبح شخص محمد أبدًا ذا صبغة مرسومة مقررة، ويكاد لا يكون من الغلو أن نقول إن حرارة ذلك الشعور الشخصي نحو الرسول الحبيب كانت أبدًا أقوى عنصر حيوي في دين الجماهير الإسلامية أو كانت كذلك بين أهل السنة، على الأقل)[5]

ويتحدث عن الاحترام العظيم الذي تكنه الأمة الإسلامية لنبيها من غير غلو، فيقول: (ومهما نقل في قوة النزعة الإسلامية نحو محمد وفي آثارها فإنا لا نوصف بالغلو. فقد كان إجلال الرسول شعورًا طبيعيًا محتومًا في عصره وفيما بعده، غير أن ما نومئ إليه شيء يتجاوز الإجلال. فإن العلاقات الشخصية من الإعجاب والحب

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٣٠ – ٣١.
(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٠.
(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٤٧.
(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢١.
(٥) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٧ – ٢٥٨.

اللذين بعثهما في نفوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرآن، والفضل في ذلك يعود إلى الوسائل التي أقرّها الأمة لتستثير بهما مجددين في كل جيل)[1]

ويتحدث عن حب الأمة في جميع أجيالها، وتقديرها لنبيها، فيقول: (ما تزال الاحتفالات العائلية تختم بأدعية وأناشيد في تمجيد الرسول وكل الأمة تراعيها وتشهدها بحماسة في ذلك اليوم المجيد، يوم مولد النبي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول. هنالك ترى المجددين والمقلدين والصوفية والسلفية والعلماء وأفراد الجمهور يلتقون جميعًا معًا على بقعة واحدة، وقد يكون بين نزعاتهم العقلية تنوع واسع متباين، ولكنهم جميعًا وحدة متآلفة في إخلاصهم وحبهم محمد)[2]

ويتحدث عن البناء الإسلامي للمجتمع، فيقول: (كانت التعاليم الاجتماعية التي جاء بها محمد في أساسها، إعادة لإحقاق المبادئ الأخلاقية التي تشترك فيها ديانات التوحيد، فازداد ترسيخ معنى الأخوة بين جميع أفراد الجماعة الإسلامية، وأنهم سواسية من حيث القيمة الشخصية الفطرية دون نظر إلى ما في مكانتهم الدنيوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف. وتعمقت جميع العلائق الواجبات المتبادلة التي تستتبعها هذه المبادئ. وقد تم ترسيخ ذلك كله وتعميقه حين وضعه الإسلام على أساس من الولاء الخفي والخضوع العلني لإله واحد.. وكانت لتعاليم الرسول نتائج اجتماعية ملموسة تحدّدت صيغتها كما هو الحال في جميع الحركات الدينية بما تركته من آثار في البيئة التاريخية الواقعية)[3]

ويتحدث عن استقلال الدين بنظمه المختلفة عن سلطة الساسة مما وقى الإسلام ما حصل للمسيحية من تدخل الساسة، فيقول: (ومنذ البداية نشأ تيار فقهي يعارض بعض مظاهر المفهوم الرسمي، ويعارض سيطرة الدولة على الأمور الدينية، كما تجلى إصرار الفقهاء على أن الفقيه مسؤول تجاه نفسه فقط. وقد وقع النزاع علنًا عندما قام المأمون وخلفاؤه يحاولون فرض المبادئ ذات الصبغة اليونانية التي نادى بها فريق المعتزلة (مذهبًا رسميًا)، ويضطهدون زعماء السنة المعارضين. وانتهى الصراع بانتصار السنة، وكان برهانًا قاطعًا على استقلال النظام الديني الإسلامي عن الخلافة وغيرها من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين لأنها ملك للجماعة ولا علاقة لأحد بها، وأن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان وأنها رمز سياسي له. وكانت هذه الأحداث ذات أهمية أساسية في مستقبل الإسلام كله، ذلك أنها حاولت دون أن يرتبط بأي نظام سياسي، وأمدت النظام الديني والجماعة معه بالحرية اللازمة للتطور على أسس ما يحويه الإسلام من طبيعة ومنطق ذاتيين)[4]

ويتحدث عن صمود الفكر الإسلامي، فيقول: (إن الفكر الإسلامي يأبى أن يقيد بقيود الصيغ الخارجية. ويظل هذا الفكر يحدث ضغطًا مستمرًا يظهر أثره في تجديد التشكيل للنظرية على نحو هادئ، وهذا التشكيل

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٧.
(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٩.
(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٦.
(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٥.

المتجدد، تحت ذلك الظاهر المتشدد، هو الذي يميز كل ضروب النشاط التأملي في الإسلام، حيث ظل الإسلام بناء دايناميًا حيًا)[1]

ويتحدث عن تعاون جميع أجيال الأمة، وجميع أهل الاختصاص فيها في خدمة الإسلام، واستنباط حقائقه ونظمه، فيقول: (ومظهر آخر بارز يميز التشريع الإسلامي، وهو أن مهمة التعريف والتصنيف استغرقت، خلال القرون الثلاثة الأولى، الطاقات الفكرية لدى الأمة الإسلامية، إلى حد لا نظير له. إذ لم يكن المسهمون في هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدثين والإداريين فحسب، بل إن علماء اللغة والمؤرخين والأدباء أسهموا بأنصبة في هذه المجموعة من المؤلفات التشريعية، وفي مناقشة القضايا التشريعية، وقلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل في الأدوار الأولى من المدنية الإسلامية)[2]

ويتحدث عن أعماق التوحيد التي نادى بها القرآن، والتي تنفي كل الوسائط، فيقول: (إن المبدأ المحوري في القرآن هو — يقينًا — مبدأ وحدة لا هوادة فيها، وهو يرفض فكرة وجود وسطاء بين الله والإنسان، على الأقل في هذا العالم. فالإسلام حين وضع الإنسان أمام الله دون عناصر وسائطية روحية كانت أول شخصية أكد بالضرورة مدى التباين بين الله والإنسان. وعلى الرغم من وجود آيات قرآنية ذات حدس روحي، فإن العنصر العقائدي المستمد من القرآن لا يستطيع إلا أن يصدر من افتراض التعارض بين الألوهية والإنسانية ومن تساوي الناس جميعًا (وهذه نتيجة ضرورية للموقف الأول) في علاقتهم بالله من حيث إنهم مخلوقات. وفي هذه المفارقة الكلية يقع التوتر الديني الذي يمثل — في الواقع — المظهر الأصيل المميز للإسلام)[3]

ويتحدث عن التسامح الإسلامي، فيقول: (جدير بالقول أن الإسلام.. يتمتع بخاصة جوهرية هامة، وهي تسامحه في وجود وجهات مختلفة ضمن الطائفة، بل إنه يستمد من ذلك مجده وفخره. وأبرز مثل على هذا التسامح هو وجود المدارس المذهبية باسم فقهاء القرنين الثاني والثالث الهجريين)[4]

ويتحدث عن الانتشار المعجز للإسلام، فيقول: (انبثق الإسلام انبثاقًا مفاجئًا في بلاد العرب، وأقام بسرعة تكاد تعزّ على التصديق، في أقل من قرن من الزمن، إمبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطئ البحر المتوسط الجنوبية والغربية)[5]

ويتحدث عن إنسانية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (لقد تمت الفتوحات الإسلامية دون أن تزعزع اقتصاديات البلاد المفتوحة، وعلى أثرها أقام الفاتحون توًا سلطة مركزية منظمة)[6]

ويقول: (في التاريخ أمثلة على توسّع الدول لا سبيل إلى تعليلها، لكن ليست هناك سوى أمثلة قليلة جدًا

---

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٩٥.
(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٦٣.
(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٧٠.
(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤٠.
(٥) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤.
(٦) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٨.

على دولة تكونت على هذا النحو واستطاعت أن تبلغ مابلغته الدولة الإسلامية من استمرار واستقرار نسبيين)[1]

ويتحدث عن الأسرار التي وقفت وراء الحيوية التي انتشر بها الإسلام، وتمت بها الفتوحات، فيقول: (لنأخذ بعين الاعتبار المظاهر الخارجية للحيوية التي برهن عليها الإسلام خلال الحقبة التالية من الزمن مثل قيام الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى وإمبراطورية المغول في الهند.. ازدهار إندونيسيا، ماليزيا، ازدياد عدد المسلمين في الصين، طرد الإسبانيين والبرتغاليين من مراكش، امتداد المنطقة الإسلامية في أفريقيا الغربية والشرقية. كان من السهل واليسير على المؤرخين القدامى أن ينظروا إلى جميع هذه الأحداث أو أغلبها نظرتهم إلى حركات عسكرية صرفة. ولا يمكن بالطبع أن يغيب عن الذهن هذا العنصر المتعلق بالقوة العسكرية الغازية التي وضعها الإسلام بتلك الفترة. ومع ذلك فإن أية عقيدة غازية تنمو وتمتد هي عقيدة حية. إنها تبين منذ ذلك الوقت أنها أكثر من مجموعة من المعتقدات والتطبيقات الجافة. نحن كذلك نعرف في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى الإيمان الذي تلعبه هذه العقيدة الحية التي مهدت الطريق بل كل شيء لهذه القوة العسكرية وساعدتها بعد ذلك على التشكل وتكييف التركيب الداخلي وتنظيم الإمبراطورية، كما ساعدت على ترميم التخريبات الناتجة عن الحروب، وإعادة تنظيم التركيب الاجتماعي)[2]

ويتحدث عن قدرة الإسلام على التماشي مع الطبائع والأعراق والعصور المختلفة، فيقول: (ظهرت للإسلام ملامح مختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة بتأثير العوامل المحلية الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه، وبقوة استجابته لها. ولنمثل على ذلك بما تم في الغرب. أعني في شمال غربي أفريقيا وفي إسبانيا أثناء العصور الوسطى. ففي تلك المناطق اتخذ الإسلام لنفسه خصائص فارقة على الرغم من الصلة الوثيقة بين تلك المناطق وقلب العالم الإسلامي في غرب آسيا، وعلى الرغم من أن الثقافة فيها كانت فرعًا من الثقافة السائدة في قلب العالم الإسلامي. وكان لبعض تلك الخصائص الفارقة أثرها في الإسلام نفسه في غربي آسيا. ومثل هذا نفسه تم أيضًا في مناطق أخرى جغرافية واسعة قليلة الاتصال بغيرها كشبه القارة الهندية وإندونيسيا وأراضي السهوب الممتدة في جنوبي روسيا إلى تخوم الصين. ففي تلك المناطق أنتجت العوامل المشابهة أشكالاً وصورًا مميزة فارقة. على أن هذه المناطق تحتفظ مجتمعة ومنفردة، بطابع إسلامي معين مشترك يمكن تبيّنه بسهولة)[3]

ويتحدث عن السبق الإسلامي للمنهج التجريبي، فيقول: (إن العرب والمسلمين بصورة عامة اضطروا إلى الحذر من المفاهيم العامة الشاملة المجردة مثل مفهوم (قانون الطبيعة) أو (العدالة) المثالي وقد اتهموا هذه المفاهيم (وهم في ذلك على صواب) بأنها مستمدة من (الفلسفة الازدواجية) أو من (المادية) التي ترتكز على طرائق مغلوطة في التفكير لا ينتج عنها سوى قليل من الخير وكثير من الشر.. وعلى الرغم من أن أنصار المدرسة الإسلامية اعتبروا بعض العلوم مساعدة مفيدة، كالمنطق والرياضيات، وتبنوا بهذا المقدار طريقة التفكير (العلمي) وشجعوه، فإنهم تمسكوا بإعطائها دورًا ثانويًا. وإذا أتيح لي أن أستطرد في القول فإني أقول بأن تمركز التفكير

---

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤٥.
(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٢٨ — ٢٩.
(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٣ — ٤.

العربي حول الأحداث الفردية حمل العلماء المسلمين إلى توسيع الطريقة التجريبية العلمية إلى أبعد مما فعل أسلافهم اليونان وعلماء الإسكندرية.. وأعتقد أن الجميع متفقون بصورة عامة على الاعتراف بأن الملحوظات التفصيلية للباحثين المسلمين أسهمت ماديًا في تقدم المعرفة العلمية، وأنهم أصحاب الفضل في إدخال أو إعادة اعتبار الطريقة التجريبية في أوروبا خلال القرون الوسطى)[1]

ويتحدث عن تكريم المصادر الأصلية للإسلام للمرأة، فيقول: (حين ننتهي من حذف الانحرافات الفقهية المتأخرة وشجبها، تعود تعاليم القرآن والرسول الأصلية إلى الظهور في كل نقائها ورفعتها وعدالتها المتساوية إزاء الرجل والمرأة معًا. عندئذ نجد أن هذه التعاليم تعود إلى المبادئ العامة وتحدد الفكرة التي يجب أن يوضع ويطبق القانون بمقتضاها أكثر من أن تعين صيغًا حقوقية حاسمة. وهذه الفكرة، فيما يخص المرأة، لا يمكنها إلا أن تكون نابضة بالودّ الإنساني وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة في محور الأضرار التي ألحقها بالمرأة سير المجتمع سيرًا قاسيًا وناقصًا فيما مضى. وبعدما ننتهي من استخلاص هذه الفكرة وهضمها، يمكننا أن نفهم التشريع الخاص بالقرآن فهمًا صحيحًا. حالما نتوصل إلى ذلك نرى أن الموقف الإسلامي تجاه المرأة، والطريقة الإسلامية في فهم شخصيتها ونظامها الاجتماعي، وطريقة حماية التشريع الإسلامي لها، تفوق كثيرًا ما هي عليه في الديانات الأخرى)[2]

ويتحدث عن النظام السياسي الإسلامي، وضرورته، فيقول: (إذن فإذا قام أحد ينكر الشريعة من حيث صلاحيتها كان عمله هذا كفرًا ومروقًا، وهذه حقيقة تفسر الهزة التي شعر بها المسلمون في جميع أرجاء العالم، عندما أقدمت الجمهورية التركية على إلغاء الشريعة جملة. ولعلني غير مخطئ في اعتقادي، وإن كان اعتقادي صادرًا عن التصور والحدس، أن احترام الشريعة لا يزال لب التفكير الاجتماعي الإسلامي، وأن الإبقاء على الشريعة يرتبط به بقاء الإسلام أو زواله من حيث هو نظام مؤصل. أما الاحترام الذي أتحدث عنه فليس من الضروري أن يعني التقدير لكل تفسير ومبنى من تفسيرات القرون الوسطى ومبانيها)[3]

ويتحدث عن اهتمام المسلمين بشريعتهم رغم تطاول العصور، فيقول: (ليس بين البلاد الإسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة في الاستغراب أو (التغرّب) باستثناء البلاد التركية، ولكن البلاد التركية أيضًا لا تعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التي أعربت عنها منذ عشرين سنة [4]، وفيما عدا هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينقمون على مساوئ العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساوئ ولا يعلّقوا آمالهم في الإصلاح بمشابهة الغرب والاقتداء بأممه في جملة أحوالها)[5]

برنارد لويس:

---

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٣٤-٣٥.

(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ١٢٣.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٦٥ – ٢٦٦.

(٤) ويوشك أن تلغي تركيا العلمانية، وتقبل على الإسلام كما كانت، وما ذلك ببعيد.

(٥) الشرق الأدنى الإسلامي (بإشراف جامعة تورنتو)، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٦١.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برنارد لويس) [1]، فصحت: كيف تضع هذا المستشرق الحاقد في هذا المحل.. ألا تعلم أنه يهودي، وأنه يعرض الإسلام بطريقة ترعب جمهوره الغربي، فيجعله يرفض أن يتنازل قدر بوصة للإسلام؟

قال: ربما تكون صادقا فيما ذكرت.. ولكني عندما جمعت هذا الدفتر لم يكن في عقلي إلا هدف واحد.

قلت: ما هو؟

قال: الهدف الذي ذكره لي معلم السلام في لقائي به في أول هذه الرحلة.. ألا تذكر ذلك؟

قلت: بلى.. لقد أوصاك بأن تبحث عن الكلمات الصادقة، ولا يهمك من أي وعاء خرجت.

قال: أجل.. فمن الحق ما شهدت به الأعداء.

قلت: ولكن.. هل يمكن أن يقول مثل هذا كلاما صادقا؟

قال: كل إنسان لابد أن يعود إلى فطرته في لحظة من اللحظات لينطق بالصدق.. ومن الخلق من يستمر على ذلك.. ومن الخلق من تأسره الشياطين.

قلت: صدقت.. فحدثني عن شهادات هذا الرجل.

قال: من ذلك حديثه عن نظام الإسلام الشامل في قوله: (لم تنشأ أمام محمد وأصحابه مشكلة الاختيار

---

(١) برنارد لويس B. Lewis ولد عام ١٩١٦، تلقى تعليمه الأول في كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية، ولا تذكر المراجع أية معلومات عن تلقيه تعليماً دينياً يهودياً خاصاً. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرسنا للحصول على دبلوم الدراسات السامية (١٩٣٧)متتلمذا على المستشرق الفرنسي ماسنيون وغيره. ثم عاد إلى جامعة لندن:مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٩ عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية.

استدعي في أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأعيرت خدماته لوزارة الخارجية من ١٩٤١حتى عام ١٩٤٥.عاد بعد الحرب إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتدريس التاريخ الإسلامي وأصبح أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي عام ١٩٤٩ثم أصبح رئيساً لقسم التاريخ عام ١٩٥٧، وظل رئيساً لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤.

دُعِي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية والأوربية منها جامعة كولمبيا وجامعة انديانا وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس وجامعة أكلاهوما وجامعة برنستون التي انتقل إليها والعمل فيها من ١٩٧٤حتى تقاعده عام ١٩٨٦. وهنا عيّن مديراً مشاركاً لمعهد أنانبرج اليهودي للدراسات اليهودية والشرق أوسطية في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا.

يعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجاً، وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي،إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة قبل تقاعده بقليل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية(الأصولية) وعن الإسلام والديموقراطية.

قدم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التي كلفته القيام برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والتلفازية عام ١٩٥٤، كما قدم استشارته للكونجرس الأمريكي أكثر من مرة. وفي إحدى المرات (٨مارس ١٩٧٤) ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها. (نقلاً عن رسالة الدكتوراه التي أعدها د.مازن مطبقاني، بعنوان (منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي)، ونشرت لدي مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض عام ١٤١٦بعنون (الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي)، ص ٦٩ وما بعدها)

بين الله وقيصر، أعني ذلك الفتح الذي لم يقع المسيح به وإن وقع في حبائله الكثير من المسيحيين. ففي الإسلام لا يوجد (قيصر) بل يوجد الله وحده، وكان محمد رسوله الذي يعلم ويحكم باسمه. فكانت السلطة نفسها، الصادرة عن المصدر نفسه، تدعم الرسول في كلتا المهمتين (مهمة الدين والدولة) وكان الوحي ذاته يقدم محتوى المهمة الأولى وأساس الثانية. وعندما توفي محمد كانت مهمته الروحية والنبوية – وهي نشر رسالة الله – قد تمت، وبقي عمله الديني، ومعه العمل السياسي. وكان قوام هذا العمل هو نشر شريعة الله بين البشر وذلك عن طريق توسيع عضوية وسلطة الجماعة التي تعترف بذلك القانون وتؤيده[1]، وكان لابد من وكيل أو خلف للرسول لقيادة هذه الجماعة. وتجمع الكلمة العربية (الخليفة) بين المعنيين)[2]

ويتحدث عن نظام الحكم في الإسلام ووظيفة الخليفة، فيقول: (أصبح من التجديدات الشائعة حديثًا التمييز بين (نظام الحكم) و(النظام الديني) في الإسلام. ولكن مهما كان مدى انطباق هذا التمييز على الإمبراطورية الإسلامية اللاحقة – وحتى هذا كان موضع تساؤل – فإنه لم يكن على الإطلاق منطبقًا على صدر الإسلام. ففي عهد الخلفاء الراشدين نجد أن الحكومة هي المؤسسة الدينية ولا يوجد غيرها.. والواقع أنه لم يكن يوجد في المفهوم الإسلامي مقابل حقيقي لمثل تلك الأضداد: ديني ودنيوي، روحي وزمني، كهنوتي وعلماني، وحتى المقدس المدنّس، ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جدًا، حيث استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة، أما في العهد الأول للإسلام فلم تكن الثنائية التي تدل عليها تلك الكلمات المعروفة لذا لم يكن هنالك من كلمات للتعبير عنها. ولقد قيل إن الخليفة يجمع في آن واحد بين شخصيتي الباب والإمبراطور، على أن التشبيه مضلّل. فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنوتية، ولم يكن يتلقى التعليم الرسمي لرجال الدين من العلماء. ولم يكن واجبه عرض الدين ولا تفسيره بل كان واجبه هو دعمه وحمايته، وإيجاد الظروف التي من شأنها أن تمكن الناس من العيش حياة إسلامية صالحة في هذه الدنيا وبذلك يعدون أنفسهم ضمن حدود الإسلام، وأن يدافع عن هذه الحدود ضد الهجمات الخارجية. وكان من واجبه – ما أمكنه ذلك – توسيع تلك الحدود، حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت، إلى اعتناق الإسلام)[3]

ويتحدث عن صمود الإسلام، فيقول: (رغم زوال الخلافة وتجزئة عالم الإسلام إلى عدد كبير من الكيانات السياسية المستقلة المنفصلة والمتحاربة في كثير الأحيان، فقد بقي الشعور بالهوية والتماسك، وبأن المسلمين (أمة واحدة من دون الناس) قويًا وفعالاً)[4]

ويتحدث عن قدرة الإسلام على الانتشار، والطرق التي انتشر بها، فيقول: (الواقع أن الذي غزا أتراك آسيا الوسطى، لم يكن المسلمين بل كان الإسلام ذاته. فقد كان المتصرفون والمبشرون المتجولون.. يتنقلون بين القبائل التي لم يتم إخضاعها فيما وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذي ازداد على الحدود بين

---

(١) والقصد من ذلك التحرير لا الاستعمار أو السيطرة والاستبداد، انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص)
(٢) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزورث) ١ / ٢٣٠.
(٣) تراث الإسلام: ١ / ٢٣٢ – ٢٣٣.
(٤) تراث الإسلام: ١ / ٢٥٢.

الإسلام والوثنية)[1]

ويتحدث عن سماحة المسلمين، فيقول: (هروب اليهود الإسبان إلى تركيا معروف للجميع، لكنه ليس الحالة الوحيدة على الإطلاق. وعندما انتهى الحكم العثماني في أوروبا، كانت الأمم المسيحية التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك، بلغاتها وثقافاتها ودياناتها — إلى حد ما — بمؤسساتها.. أما إسبانيا وصقلية فليس فيها اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية)[2]

ويقول: (لم يكن اللاجئون المسلمون واليهود، ولا المسيحيون من ذوي الآراء الدينية والسياسية المنشقة، هم الأوربيين الوحيدين الذين استفادوا من الحكم العثماني إذ أن الفلاحين في المناطق التي غزيت قد تمتعوا — بدورهم — بتحسّن كبير في أوضاعهم. فقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى.. وأصبح الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقولهم أكبر بكثير من ذي قبل، وكانت الضرائب التي يدفعونها تقدّر بصورة مخففة وتجمع بطريقة إنسانية، وذلك بالمقارنة بما كان يجري في أنظمة الحكم السابقة والمجاورة.. فحتى القرن التاسع عشر كان الأوربيون الذين يزورون البلقان يعلقون على أوضاع فلاحي البلقان الحسنة وعلى رضاهم عن هذه الأوضاع، وكانوا يجدونه أفضل من الأوضاع السائدة في بعض أنحاء أوروبا المسيحية. وكان الفرق أوضح بكثير في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في عصر حركات التمرد الكبيرة التي كان يقوم بها الفلاحون في أوروبا. وحتى عملية الداوشرمة Deushrime وهي عملية الجمع القسري للأولاد من بين الفلاحين المسيحيين من أجل تجنيدهم في الجيش العثماني وفي خدمة الدولة لم تخل من نواح إيجابية. فبهذه الوسيلة كان أقل القرويين شأنًا يستطيع أن يرتقي إلى أعلى المراكز وأكثرها نفوذًا وقد ارتقى الكثيرون بالفعل وأحضروا أسرهم معهم، وهو شكل من أشكال المرونة الاجتماعية كان مستحيلاً في المجتمعات الأرستقراطية للعالم المسيحي المعاصر للعثمانيين)[3]

ويتحدث عن صمود الإسلام، فيقول: (إن الإسلام التركي نفسه الذي أظهر حديثًا، برغم فترة من الخفوت قوة متجددة في تركية، لا يزال بوضوح عنصرًا رئيسًا، إن لم يكن الرئيس الوحيد في الوعي الجماعي لنسبة عظيمة من الأمة التركية)[4]

ويقول: (إن الأفكار التي يعبر عنها بالإنكليزية والفرنسية للأجانب ليست لها علاقة بالحياة الحقيقية للبلاد الإسلامية. ومن جهة أخرى حينما تتجه العواطف الشعبية لمكافحة الكفار، كما وقع في منطقة القنال ١٩٥١ — ١٩٥٢، تلاقي استجابة قوية)[5]

روم لاندو:

---

(١) تراث الإسلام: ١ / ٢٧٩.
(٢) تراث الإسلام: ١ / ٢٨٦ — ٢٨٧.
(٣) تراث الإسلام: ١ / ٢٨٧ — ٢٨٨.
(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ٤٦٥.
(٥) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٥٢٠.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روم لاندو) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق إنجليزي جمع بين الفن والاهتمام بالشرق، وقد كان له شهادات قيمة تمتلئ صدقا وإخلاصا، سأذكر لك بعضها.

منها شهادته عن جمال الأسلوب القرآني إلى درجة استحالة وجود ترجمة كاملة معبرة عن القرآن تعبيرا حقيقيا، قال: (بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحي المحمدي. والواقع أن كثيرًا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الآسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية) [2]

ومنها شهادته عن حفظ الله للقرآن، فلم يصبه أي تحريف، قال: (كلف كاتب الوحي، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب وكان أبو بكر قد أشرف على هذه المهمة. وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان اتخذ القرآن شكله التشريعي النهائي الذي وصل إلينا سليمًا لم يطرأ عليه أي تحريف [3]) [4]

ومنها شهادته عن التأثير الوجداني للقرآن، قال: (إن بين آيات قصار السور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجداني برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيرًا ما يخلف في نفس المرء تأثيرًا بليغًا. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير. ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكمًا عادلاً ويقدره حق قدره.. وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزًا لا سبيل إلى محاكاته، و لم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله) [5]

ومنها شهاداته عن رسول الله ﷺ وصفاته التي لا تدل إلا على نبوته، قال: (لم ينسب محمد في أيّما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية. على العكس، لقد كان حريصًا على النص على أنه مجرد

---

(١) روم لاندو R. Landau. نحّات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢-١٩٥٧)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي أفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرنسيسكو (١٩٥٣).

من آثاره: (الله ومغامراتي) (١٩٣٥)، (بحث عن الغد) (١٩٣٨)، (سلم الرسل) (١٩٣٩)، (دعوة إلى المغرب) (١٩٥٠)، (سلطان المغرب) (١٩٥١)، (فرنسا والعرب) (١٩٥٣٩، (الفن العربي) (١٩٥٥).. وغيرها.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٣٦ – ٣٧.

(٣) القرآن جمع في عهد رسول الله ﷺ كاملا، والجهد الذي قام به الخلفاء الراشدون هو جزء من الحفظ الذي قامت به الأمة طوال تاريخها، انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (الحفظ) من هذه السلسلة.

(٤) الإسلام والعرب، ص ٢٩٦.

(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس)[1]

وقال: (كان محمد تقيًّا بالفطرة، وكان من غير ريب مهيّأ لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها.. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في سرّه وجهره رجلاً عمليًا عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطًا وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معًا، على نحو تدريجي. وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيمانًا لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزمًا راسخًا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب)[2]

وقال: (كانت مهمة محمد هائلة. كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية (وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي، إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيّ ضرب من الخداع المتعمد. ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام، أتباعًا جددًا. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحدًا على محتال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً)[3]

وتحدث عن الثمار العظيمة التي حققها محمد ﷺ، فقال: (كانت مهمة محمد هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسؤولاً عن اندلاع نار الحرب، على نحو موصول تقريبًا، بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة. كان عليه أن يعطي الناس قانونًا كليًا يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والإذعان له، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش على العنف القبلي والثأر الدموي لضروب من المظالم بعضها واقعي وبعضها متوهم. كان عليه أن يحلّ الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محلة القوة الخالصة)[4]

وقال: (عندما توفي محمد عام ٦٣٢م كان في نجاح الإسلام ما زكى إيمان خديجة رضي الله عنها بالوحي الذي تلقاه زوجها، وكانت العقيدة التوحيدية الجديدة في سبيلها إلى القيام بفتح روحي ومادي لا يضارعه أي فتح في التاريخ البشري)[5]

وتحدث عن الثمار السلوكية لشعيرة الصيام، فقال: (حين يكون صيام رمضان في البلاد العربية الحارة صيفًا، يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحانًا حقيقيًا للإيمان.. أن الصوم

---

(١) الإسلام والعرب، ص ٣٢.
(٢) الإسلام والعرب، ص ٣٣.
(٣) الإسلام والعرب، ص ٣٣ – ٣٤.
(٤) الإسلام والعرب، ص ٣٤.
(٥) الإسلام والعرب، ص ٣٥.

ولّد ضبطًا ذاتيًا عند شعب كان بطبيعته انفعاليًا شديد العناد)[1]

وقارن بين السلوك الإسلامي المبني على مراعاة الفطرة، والسلوك المسيحي القائم على تعذيب الجسد، فقال: (أن التوكيد النصراني التاريخي على الألم وإماتة الجسد يكاد يكون مفقودًا بالكلية في الإسلام. والثنائية المسيحية، ثنائية الجسد والروح، هي في نظر المسلم شيء غير معقول، أو في أحسن الأحوال شيء غير واقعي)[2]

وتحدث عن مرونة الشريعة الإسلامية، فقال: (الإسلام في أساسه دين عملي. فالقواعد والأنظمة التي ينصّ عليها القرآن ليست جامدة، ولقد كيّفت وفقًا لما قضت به الأحوال والظروف. وهذه السياسة إنما يؤيدها كثير من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنية التي مفادها أن الله يريد أن ييسّر السبيل للناس. إن المسلم ليجد أن في ميسوره التزام أحكام دينه، وهكذا ينعم بالأمن وطمأنينة النفس.. أن هدف النصرانية الممعن في الروحية، ذلك الهدف الذي هو الانتصار على ضعف الجسد، يكاد يكون متعذر التحقيق في هذه الحياة، ولولا محبة الله إذن لكان خليقًا بحياة المسيحي أن تكون سلسلة من ضروب الإخفاق والخيبة التي لا سبيل إلى التغلب عليها. إن في إمكان المسلم أن يبلغ مثل دينه الأعلى هنا على سطح الأرض، ولكن النصراني يتطلع إلى الاتحاد بالمسيح في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية)[3]

وتحدث عن الموقف الإيجابي للإسلام من العلم، فقال: (في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثاني)[4]

وتحدث عن التكامل بين علوم الدين وعلوم الدنيا في الإسلام، فقال: (العلم الإسلامي لم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية) ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها.. إن المسلمين وفّقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائق وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط)[5]

وتحدث عن الفتوحات الإسلامية مقارنا لها بما كان يحصل في ذلك الزمن من أنواع الاستعمار، فقال: (في عصر كان (السلب والنهب) هو القاعدة التي يتبعها كل جيش منتصر لدى دخوله مدينة ما، يبدو العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق إنسانيًا إلى أبعد الحدود ومعتدلاً إلى أبعد الحدود. ويبدو جليًا، في الواقع، أن الكتائب العربية اعتبرت نفسها محررة للشعب المضطهد وحاملة رسالة الإسلام إليه في آن معًا. وقد اتخذ من شروط الاستسلام هذه نموذج احتذي في ما بعد عند فتح المدن السورية والفلسطينية الأخرى)[6]

وتحدث عن بشاعة الحروب الصليبية مقارنا لها بسماحة الإسلام، فقال: (إذا اعتبرت القرون الوسطى

---

(١) الإسلام والعرب، ص ٤٩.
(٢) الإسلام والعرب، ص ٥١.
(٣) الإسلام والعرب، ص ٥٢.
(٤) الإسلام والعرب، ص ٢٤٦.
(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٨٠ – ٢٨١.
(٦) الإسلام والعرب، ص ٦٠.

عصر إيمان وحرب فالحرب الصليبية هي أكمل تعبير عنها وأشنعه. والذي لا ريب فيه أن العقل الأوروبي الوسيطي Medieval قد اعتبر الحروب الصليبية حروبًا مقدسة من أجل قضية مقدسة. ففي الإسلام لم يعلن أي (جهاد) عام ضد الصليبيين، و لم يوجّه الخليفة، دفّة هذه الحروب. أما في الغرب فقد فني البابا في تلك القضية واعتبرها قضيته الذاتية. والواقع أن الحروب الصليبية، كحركة دينية كشفت – من طريق التعصب والتطرف الدينيين – عن أسوأ مظاهر النصرانية الوسيطية كلها. لقد نجحت الحروب المقدسة في خلق شقة واسعة تفصل ما بين الشرق والغرب بدلاً من أن يعيد تدعيم الجسر الرابط ما بين ثقافتين تجمع ما بينهما في نهاية المطاف مفاهيم إيمانية مشتركة، ومصالح ثقافية تمتنع على الإحصاء)[1]

وتحدث عن سماحة الإسلام مقارنا إياه بالمسيحية، قال: (على نقيض الإمبراطورية النصرانية التي حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضًا، اعترف العرب بالأقليات الدينية وقبلوا بوجودها. كان النصارى واليهود والزرادشتيون يعرفون عندهم بـــ (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتعة بالحماية. لقد ضمنت حرية العبادة لهم من طريق الجزية.. التي أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية. وكانت هذه الضريبة مضافًا إليها الخراج، اقل في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي. كانت كل فرقة من الفرق التي تعامل كملّة، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتيًا ضمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسها الديني)[2]

وقال: (كان الإسبان قد نعموا، في ظل الحكم الإسلامي، بمعاملة متسامحة تحررية، ولكنهم لم يكونوا الآن بعد انتصارهم النهائي في وضع نفسي يساعدهم على تبني السياسة المتدينة نفسها فراحوا يحنثون، في حرارة دينية متعصبة، بالعهود الغليظة التي أخذوا على أنفسهم باحترام الدين الإسلامي والممتلكات الإسلامية. فإذا هم يحرقون الكتب العربية ويلقون معظم الآثار التي كانت عنوان تفوق الثقافة الإسلامية. وفي عام ١٤٩٩م دشن الكاردينال كزميتر برنامجًا للتنصير الإجباري شعاره: إما المعمودية وإما الإخراج من البلاد. ونشطت محاكم التفتيش نشاطًا رهيبًا. وأكره كثير من المسلمين واليهود على مغادرة إسبانيا. وعام ١٥٥٦م أجبر الملك فيليب الثاني من بقي من المسلمين في البلاد على التخلي عن لغتهم ودينهم ومؤسساتهم. حتى إذا كانت سنة ١٦٠٩ أمضي مرسوم ملكي نهائي إلى ترحيلهم ترحيلاً كاملاً. ودوّن المؤرخون عدد المسلمين الذين أبعدوا أو قتلوا، ما بين سقوط غرناطة ومطلع القرن السابع عشر، بثلاثة ملايين ونيف)[3]

وتحدث عن الأحقاد الصليبية التي آثرت المغول على المسلمين، فقال: (من وجهة نظر منطقية وعقلانية نستطيع أن نفترض أنه كان خليقًا بالنصارى أن يتحالفوا مع المسلمين النّزاعين إلى الوفاء بالمعاهدات لكي يدفعوا عن الإنسانية بلاء المغول. والواقع أنه كان في ميسورهم أن ينهجوا هذا النهج ومع ذلك فنحن نجد أن ما حدث كان هو العكس تقريبًا. فقد وجه زعيم العالم المسيحي، البابا أنوسنت الرابع، بعثتين إلى منغوليا. وكان القديس لويس الورع، قد أبى على نحو موصول أن يتفاوض مع المسلمين بأية حال، ومع ذلك فإنه لم يجد

---

(١) الإسلام والعرب، ص ١١٥.
(٢) الإسلام والعرب، ص ١١٩.
(٣) الإسلام والعرب، ص ١٣٠.

أية غضاضة على معتقداته الدينية أن يوجه موفدين لمفاوضات المغول الوثني)[1]

وتحدث عن آثار الحضارة الإسلامية على العالم، فقال: (على الرغم من أن أثر الشرق الأدنى اليومي بعيد المدى إلى حد بالغ، فالواقع أن الإسلام على العموم، والحضارة الإسلامية (أو العربية) على الخصوص، يتمتعان بأهمية أعظم بكثير. أن الحضارة الغربية — ابتداءً من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة — مدينة لتلك الحضارة بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى (الغربية) إذا لم تتمّ لنا معرفة ما بالأخرى (الإسلامية أو العربية)[2]

وتحدث عن بعض مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس مقارنا لها بما كان عليه الحال في أوروبا، فقال: (بينما كانت سائر بلدان أوروبا تتمرغ في القذر والحطة نعمت إسبانيا بمدن نظيفة منظمة ذات شوارع معبدة ومضاءة. وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعتز بنصف مليون من السكان، وسبعمائة مسجد، وثلاثمائة حمام عمومي، وسبعين مكتبة عامة، وعدد كبير من دكاكين الورّاقين (المكتبات التجارية)[3]

ويتحدث بإعجاب عن السرعة التي تكاملت فيها الحضارة الإسلامية مقارنا لها بالحضارة الغربية، فيقول: (حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة انقضت على وفاة الرسول ليس غير، وعمق ذلك التقدم، أمرًا يدعو إلى الذهول حقًا. ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة (مسيحية)[4]، فما هي إذن الدوافع الرئيسية إلى منجزات العرب العلمية؟ إن في استطاعتنا أن نلخص هذه الدوافع فيما يلي: رغبة متقدة في اكتساب فهم أعمق للعالم كما خلقه الله، قبول للعالم المادي، لا بوصفه دون العالم الروحي شأنًا ومقامًا، ولكن بوصفه صنوًا له في الصحة والرسوخ؛ واقعية قوية تعكس في صدق وإخلاص طبيعة العقل العربي اللاعاطفي، وأخيرًا فضولهم النهم الذي لا يعرف الشبع. كان كل ما في الوجود صادرًا عن الله، ابتداء من الاستغراق في العبودية لله إلى حنان الأم وحبها، إلى انطلاق السهم والطاعون الذي يقضي على بلاد برمتها وقرصة البعوضة. إن كلاً من هذه ليكشف عن قدرة الله، ومن هنا فهو جدير بالتأمل والدرس. ففي الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة. لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثاني)[5]

ويقارن بين موقف الإسلام من العلم مع موقف الكنيسة، فيقول: (منذ عصر النهضة انفصل العلم في الغرب، انفصالاً أشد وضوحًا عن الدين، أو بتعبير آخر، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلا قليلاً إلى مطالب الأخلاق وعلم الأخلاق. ففيما كان الإنسان في الغرب يكتسب معرفة متنامية أبدًا بالكون الطبيعي وسيطرة

---

(١) الإسلام والعرب، ص ١٣٠.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٩.

(٣) الإسلام والعرب، ص ١٧٧.

(٤) الحضارة الحديثة ـــ طبعا ـــ ليست حضارة مسيحية، بل إن أوروبا لم تصل إليها إلا بعد أن رفضت المسيحية، انظـــر: رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٤٦.

متعاظمة عليه كان تقدمه الأخلاقي يتخلف متلكئًا. وبتحرير العلم في القرون الوسطى من سلطان الكنيسة، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضًا. أما العلم الإسلامي فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية)، ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيبًا أن يكون العلم الإسلامي لم يجرّد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية — كما حدث في الغرب — ولكنه كان دائمًا في خدمة الإنسان. وبينا أكره العلم الغربي في عهد مبكر نسبيًا على اتخاذ سبيل التخصص، بحيث أمسى كل فرع من فروعه يعمل — كثيرًا أو قليلاً — في عزلة، ظل العلم الإسلامي شموليًا، يجهد من أجل الوحدة، وهي وحدة يلعب فيها كل من الكون المادي والله والإنسان دوره الحاسم)[1]

ويتحدث عن تفوق المسلمين العلمي، فيقول: (والحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط)[2]

ويتحدث عن تكريم الإسلام للمرأة، فيقول: (يوم كانت النسوة يعتبرن، في العالم الغربي، مجرد متاع من الأمتعة، ويوم كان القوم هناك في ريب جدّي من أن لهن أرواحا، كان الشرع الإسلامي قد منحهن حق التملك. وتلقت الأرامل نصيبًا من ميراث أزواجهن، ولكن البنات كان عليهن أن يقنعن بنصف حصة الذكر.. إلا أن علينا أن لا ننسى أن الأبناء الذكور وحدهم كانوا، حتى فترة حديثة نسبيًّا، ينالون في الديار الغربية حصة من الإرث)[3]

سكت البابا، فقلت: إن هذا رجل فاضل حقا.. إنه يحمل تقديرا عظيما للإسلام يندر أن نجد مثله.

قال: صدقت.. ففي كلماته من نفحات الصدق ما يدل على أن علاقته بالإسلام أعمق من أن تنحصر في تلك الشهادات.

آرنولد توينبي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرنولد توينبي) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

---

(١) الإسلام والعرب، ص ٢٨٠ — ٢٨١.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٢٨١.

(٣) الإسلام والعرب، ص ٢٠٣.

(٤) آرنولد توينبي Arnold Toynbee المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها — ولا ريب — مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءاً عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل — تحت إشراف توينبي نفسه — مختصرًا في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدمًا عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسياق العام للكتاب، وهذا المختصر هو الذي ترجم إلى العربية في أربعة أجزاء، وهو المعتمد في هذه النقول.

رجل من عقلاء الغرب.. ولشهاداته قيمة عليا، باعتبارها تنبع من نظرة تاريخية عميقة، فالرجل لم يكن يسرد الأحداث فقط، أو يكتفي بتحليلها تحليلا سطحيا، وإنما يحاول سبر أغوارها.

قلت: أسمع بهذا الرجل كثيرا.. ولكني لم أكن أعلم أن له من الفهم في الإسلام ما يتيح له أن يتحدث عنه.

قال: كيف يكون لعالم بالحضارات أن لا يعرف أعمق الحضارات وأشملها وأكثرها إنسانية، وأطولها عمرا.

قلت: صدقت.. لقد بث فينا من الإحباط ما جعلنا نتزل من التواضع إلى الذلة.

قال: سأذكر لك بعض شهادات هذا الرجل.. وهي ــ كغيرها ــ يختلط فيها الحق بسوء الفهم..

فمن تلك الشهادات قوله في بيان كون النظام الإسلامي بما تميز به من شمولية هو السبب في انتشار الإسلام: (لقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية وهما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم. وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معًا.. فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطالسي إلى شواطئ السهب الأوراسي)[1]

وقد تحدث عن امتداد تاثير النبي ﷺ باعتباره قدوة محبوبا في الأجيال البعيدة للأمة الإسلامية، فقال: (لقد أخذت سيرة الرسول العربي بألباب أتباعه، وسمت شخصيته لديهم إلى أعلى علّيين، فآمنوا برسالته إيمانًا جعلهم يتقبلون ما أوحي به إليه وأفعاله كما سجّلتها السنة، مصدرًا للقانون، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين الذين كانوا في بداية الأمر يفوقونهم عددًا)[2]

وتحدث عن سر صمود الإسلام وانتشاره، فأرجع ذلك إلى المعاني التي ينتظمها، فقال: (ما هو سر قوة الإسلام على البقاء، بقاؤه بعد وفاة رسوله، ثم زوال بناة إمبراطوريته من العرب، وانهيار من حلوا محلهم من الإيرانيين وانهزام الخلافة العباسية، وتداعي الدول التي قامت فترة على أنقاض الخلافة العباسية، يكمن التفسير في التجربة الروحية التي مرّ بها المهتدون إلى الإسلام من رعايا الخلافة الأموية من غير العرب لقد تأصلت جذور الإسلام في قلوبهم فأولوه أهمية تفوق نظرة العرب إليه. وإن كان منهم من أقبل على اعتناقه في بداية الأمر، تحقيقًا لمنافع عاجلة. ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها، عقيدة لا يستند بناؤها (أو زوالها) على أهواء تلك النظم السياسية التي تنشد استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها، ليعتبر انتصارها الروحاني، أعجب مثال يبين أنه وإن حلّت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التي سمت إلى تحقيق غايات سياسية، إلا أن الإسلام – عكسها – لم يؤثر فيه هذا الاتجاه، وهذا ما

---

(١) مختصر دراسة للتاريخ: ١٠ / ٣٨١.
(٢) مختصر دراسة للتاريخ: ٣ / ٩٨.

يبديه استقراء اتجاهه السياسي منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه رضي الله عنهم من بعده. فإن هجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة، قد جعلت منه سياسيًا ناجحًا لامعًا، عوضًا عن بقائه بمكة.. قليل الحظ من الأتباع والأنصار)[1]

وتحدث عن صفاء التوحيد الإسلامي مقارنة بما حصل للمسيحية، فقال: (إن الإسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله، في مقابل الضعف البادي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية)[2]

وتحدث عن التنوير الإسلامي المرتبط بالتوحيد، فقال: (في غضون القرن السابع الميلادي، جدّ في النقاش عامل جديد، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومثير. فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النموّ. كان الإسلام يتعصب للتوحيد ويناهض التصوير مثلما يبتغي أي يهودي، وبفضل ما حققه أنصاره في الميدان الحربي من نجاح متوال — وبعد ذلك بقليل في المجال التبشيري كذلك — واجه المسيحيون أمرًا خطيرًا جديدًا يشغل تفكيرهم.. إن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقودًا جديدًا على المجادلات التي ظلت تدور أمدًا طويلاً حول (وثنية) المسيحية)[3]

وتحدث عن الدور التحريري الذي قام به الإسلام لحماية المستضعفين، فقال: (في القرن السابع الميلادي حرّر العرب المسلمون سلسلة من الدول الشرقية من سطوة إغريقية — رومانية مسيحية: من سوريا شرقًا إلى إسبانيا غربًا عبر شمال أفريقيا، وكانت هذه الدول تحت حكم يوناني أو روماني مدة ألف عام تقريبًا.. بعد ذلك، وبالتحديد ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين استمر الفتح الإسلامي متدرجًا فشمل تقريبًا جميع بلاد الهند وانتشر الإسلام بصورة سلمية في مناطق أبعد وأوسع، في إندونيسيا والصين شرقًا، وفي أفريقيا الإستوائية شرقًا وجنوبًا، وكذلك روسيا خضعت، وقتيًا، في أواخر القرون الوسطى، وكل ما تبقى من العالم المسيحي الأرثوذكسي الشرقي في آسيا الوسطى وجنوب شرقي أوروبا خضع في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين لحكم المسلمين العثمانيين، وحاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية في أواخر القرن السابع عشر (١٦٨٢-١٦٨٣م)، ورغمًا عن أن فشل هذا الحصار أرّخ بداية تحول في التيار لمصلحة الغرب ومواجهته للدولة العثمانية الغازية، فقد بقي علم (الهلال) يرفرف فوق السواحل الشرقية (لبحر الأدرياتيك) مقابل (كعب) إيطاليا حتى عام ١٩١٢م)[4]

وتحدث عن معجزة انتشار الإسلام مفسرا لها بأنها لا يمكن أن تكون من صنع بشر، فقال: (أصبحت يثرب بعد انقضاء ثلاثين سنة على الهجرة، عاصمة إمبراطورية شملت لا مجرد الممتلكات الرومانية في سوريا ومصر، بل ضمت كذلك أملاك الإمبراطورية الساسانية بأسرها.. وتستمد يثرب حقها في بقائها مقر الحكومة إلى كونها النواة التي انبثقت منها إمبراطورية العالم العربي في اندفاع جارف يوحي حقًا بأنه من الأفعال

---

(١) مختصر دراسة التاريخ: ٣ / ٥٤ — ٥٥.
(٢) مختصر دراسة التاريخ:٣ / ١٦٤.
(٣) مختصر دراسة التاريخ:٤ / ٦٤، وانظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (الخلاص)
(٤) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ١٦ — ١٧.

الربانية)[1]

وتحدث بإعجاب عن تسامح المسلمين مع المخالفين، فقال: (ثمة حالة.. ناهة الذكر لهذا التسامح المنشود، يفرضها نبي على أتباعه وهو في موضعه الجليل. فإن محمدًا قد أمر أتباعه بالتسامح الديني تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسيًا للحكم الإسلامي. فقدم محمد بذلك لقاعدة التسامح، تفسيرًا قوامه أن أفراد هاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمتين، هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ بدايته، من أن المسلمين قد طبقوا مبدأ التسامح الديني على أتباع زرادشت الذي خضعوا للحكم الإسلامي وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه)[2]

وقال: (لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الحرية وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها.. لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستندًا على مزاياه وفضائله الذاتية، وكان انتشارًا بطيئًا، لكنه كان مؤكدًا.. ويحتمل أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي — أو تصل نهايتها — حتى حلول فترة اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد، أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامي، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، و لم تنجم قط عن ضغط سياسي)[3]

وقال: (إن المسلمين قد سبقوا بناة الإمبراطورية من الإسبانيين والبرتغاليين في إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية. فإن المسلمين قد تزاوجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم، دون اعتبار لاختلاف الجنس. بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك. فإن المجتمع الإسلامي قد ورث عن نص وارد في القرآن، إقرارًا بطائفة من الأديان (عدا الإسلام) هي — رغم ما بها من قصور - أديان سماوية أصيلة، نزل بها الوحي، وهذا الإقرار، أسبغ على اليهود والمسيحيين أولاً، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشتيين والهندوس)[4]

وتحدث عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه أتاتورك عندما نادى بالعلمانية، فقال: (أما حركة التغريب المتطرفة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك، فإننا نشك فيما إذا كان بعد نظر أتاتورك الخيالي، وقدرته الشيطانية الموجهة قادرين وحدهما على زحزحة الأتراك من وضعهم المحافظ القديم، لو لم يواجه الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى اختيارًا صعبًا لا يمكن الهروب منه: إما تغريب بدون تحفظ، وإما فناء محقق! والحقيقة أن الهجوم الغربي المعاكس على العالم الإسلامي.. قد تأثر إلى حد كبير بالذكريات المرة التي كان يحملها الغربيون عن البسالة العسكرية المشهودة عند الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى)[5]

وتحدث عن المؤامرات التي قسمت العالم الإسلامي، والتي حرمته من وحدته التي استمرت قرونا طويلة، فقال: (الآن، بعد أن طويت المسافات بتقدم التقنية الغربية، وفي الوقت الذي تتنافس فيه طرق الحياة الغربية مع

---

(١) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٧٣ — ٧٤.
(٢) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٤٢.
(٣) مختصر دراسة التاريخ، ٢ / ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧.
(٤) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٤١٨.
(٥) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ١٨.

طريقة الحياة الروسية لكسب ولاء البشرية كلها، الآن يظهر أن التقليد الإسلامي في أخوة الإنسان للإنسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربي الذي أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السيادة. وفي الواقع الحاضر الذي يجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية، نرى أن تجزئته إلى أكثر من أربعين دولة مستقلة ذات سيادة يهدّد بانهيار البيت كله على من فيه، بسبب انقسامه هكذا على نفسه. ومن المأمول أن يستطيع العالم الإسلامي، على كل حال، إيقاف انتشار هذا الداء السياسي الغربي.. وذلك عن طريق الشعور الإسلامي القوي بالوحدة)[1]

ويقول في نفس الموضوع موجها نصحه للبلاد الإسلامية عموما، والعربية خصوصا: (ليس من الضروري للدول الإسلامية الأخرى أن تتبع تمامًا الطريق التي سلكها (الروّاد) الأتراك. هناك مثلاً الدول الإسلامية الناطقة بالعربية حيث اللغة المشتركة المتكلمة بلهجات مختلفة ولكنها تكتب بأسلوب أدبي لغوي واحد من شواطئ المحيط الأطلسي في مراكش إلى الحدود الغربية لإيران، ومن حلب والموصل في الشمال إلى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار في الجنوب.. لأن اللغة العربية هي لغة الدين حتى في البلاد الإسلامية التي لا تتكلم العربية كلغة أصلية. فهل من الضروري حقًا أن يتفتت العالم العربي كما تفتت الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا.. إلى عشرين دولة مستقلة عن بعضها تعيش في قوالب ضعيفة (غربية) النمط؟!.. هذا هو الوجه الثاني الكالح لحضارتنا الغربية، ومن المؤسف حقًا أن تقلده الشعوب الناطقة بالعربية تقليدًا تامًا)[2]

بل هو فوق هذا يتنبأ بأن العالم الإسلامي المفتت يمكنه في أي لحظة أن يستعيد وحدته، مستشهدا لذلك بالتاريخ، فيقول: (صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة، ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرّب ضد السيطرة الغربية، ونادت بزعامة معادية للغرب، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في إيقاظ الروح النضالية للإسلام، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام. وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سموّ المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي: ففي عهد الخلفاء الراشدين، بعد الرسول حرّر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريبًا. وفي عهد (نور الدين) و(صلاح الدين) و(المماليك) احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول. فإذا سبّبه الوضع الدولي الآن حربًا عنصرية، يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى)[3]

ويتحدث عن القيم الاجتماعية النبيلة التي يحملها الإسلام، والتي تجعل له الريادة في حل أعوص المشاكل الاجتماعية، فيقول: (إن باستطاعتنا أن نميز بعض مبادئ الإسلام التي إذا طبقت في الحياة الاجتماعية للبروليتاريا العالمية الحديثة، يمكن أن تأتي بنتائج حسنة مفيدة لهذا المجتمع الكبير في المستقبل القريب. هناك مصدران ظاهران من مصادر الخطر، الأول نفسي والثاني مادي في العلاقات الحاضرة بين البروليتاريا العالمية

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٢٨.
(٢) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٢٩ – ٣٠.
(٣) الإسلام والغرب والمستقبل ص ٧٣٩.

وبين الفئة الحاكمة في مجتمعنا الغربي، ومصدر الخطر هذان هما (١) التمييز العنصري، (٢) الخمر. وفي مجال الصراع ضد هذين الشّرين نجد للفكر الإسلامي دورًا يؤديه ويبرهن فيه — إذا سُمح له بتأدية هذا الدور — عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية. فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر في وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية.. إن قوى التسامح العنصري ذات أهمية ضخمة للإنسانية وهي الآن، على ما يظهر، تخوض معركة خاسرة على الصعيد الفكري إلا أنها قد تتمكن من الغلبة إذا ساندها ونزل إلى جانبها في المعركة رصيد من النفوذ القوي المناضل الذي لم يزل حتى الآن احتياطيًا. والذي أتصوره أن روح الإسلام ستكون التعزيز المناسب الذي سيقرر مصير هذه المعركة لمصلحة التسامح والسلام)[1]

وتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (لقد أسر الإسلام (المغلوب في الحروب الصليبية (غالبيه)، وأدخل فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحي، وقد كانت حياة (لاتينية) صدئة وفي بعض حقول النشاط الإنساني، كهندسة البناء مثلاً، تغلغل التأثير الإسلامي في العالم المسيحي كله طيلة قرونه الوسطى، أما في صقلية والأندلس، فقد كان تأثر الدولة الغربية الجديدة فيهما بالإمبراطورية العربية القديمة أوسع شمولاً وأبعد غورًا)[2]

وقال: (لعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التي أصبح كل من المتحاربين من الفريقين الإسلامي والمسيحي يكنها للآخر. كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافي الذي نشر به مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السوري.. حيث أصبحت فتوحات الصليبيين الموقتة في سوريا، وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس — على حساب دار الإسلام — محطات (إرسال) متعددة، أمكن عن طريقها نقل الكنوز الروحية إلى العالم المسيحي الغربي في العصور الوسطى. إن الجو النظيف القائم على التسامح الديني والتطلع الفكري الذي أسر — بعض الوقت — ألباب فاتحي بالرمو وطليطلة من مسيحيي الغرب، بمقارنته بروح التعصب التقليدية فيهم، هذا الجو النظيف، كان أصيلاً في الإسلام في عهده الأول.. لقد تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم علماء المسلمين، نتائج البحث الإسلامي)[3]

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب عبر جسر الأندلس، فقال: (ساهم علماء إسبانيا الإسلامية — عن غير قصد — في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية المدرسيون إبان العصور الوسطى. كما وصلت بعض مؤلفات الفيلسوف الهليني أرسطو، العالم المسيحي الغربي للمرة الأولى، عن طريق التراجم العربية. وصحيح كذلك أن كثيرًا من المؤثرات الشرقية على الثقافة الغربية.. إنما وفدت في الحقيقة من إيبريا الإسلامية)[1]

---

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٦٢، ٦٤.
(٢) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٣٤.
(٣) مختصر دراسة للتاريخ، ٣ / ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦.
(١) مختصر دراسة للتاريخ، ١ / ٢٦٦ — ٢٦٧.

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية، وتفتحها على الحضارات المختلفة، فقال: (وفّق الإسلام فيما فضل فيه سابقوه، لأنه استكمل عملية طرد الهلينية من العالم السوري. كما عاد فأدمج في الخلافة العربية، الدولة العالمية السورية التي اختزل الإسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبل أن تستكمل رسالتها.. وأخيرًا منح الإسلام المجتمع السوري بعد طول الانتظار، عقيدة دينية عالمية أصيلة. فعاود بذلك المجتمع السوري – بعد انقضاء قرون من توقف حيويته – على أن يسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يخلف عقبا. إذ غدت العقيدة الإسلامية اليرقة التي بزغت عنها في حينها الحضارتان العربية والإيرانية)[1]

ويتحدث عن اعتبار الحضارة الإسلامية ــ رغم تخلف المسلمين ــ منافسا خطيرا للحضارة الغربية، فيقول: (إننا لنجد للتقويم المسيحي وقت كتابة هذه السطور، السيادة على جميع العالم، ولا ينازعه مكانته سوى منافس خطير هو التقويم الهجري الإسلامي وما يزال اليهود بعنادهم المعروف يحسبون تقويمهم رسميًا على أساس تقديرهم بداية الخليقة)[2]

قلت: بورك في هذا الرجل.. فهذه الشهادات لا يمكن إلا أن تصدر من عارف بالإسلام صادق في البحث عنه.

قال: صدقت.. وعسى الله أن ينفعه بها.. فالله لا يضيع عنده شيء.

توماس كارلايل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (توماس كارلايل)[3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب إنجليزي.. وهو أشهر من نار على علم.. وقد كتب عن رسولنا ﷺ كلاما يستحق عليه كل الثناء.

فمن ذلك قوله في إثبات نبوة رسول الله ﷺ.. وهو منطق لا يقل عن منطق أي متكلم في العقيدة الإسلامية: (هل رأيتم قط.. أن رجلاً كاذبًا يستطيع أن يوجد دينًا عجبًا.. إنه لا يقدر أن يبني بيتًا من الطوب! فهو إذًا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرنًا يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن. وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته.. كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيّلوه حقًا.. ومحنة أن ينخدع الناس شعوبًا وأممًا بهذه الأضاليل)[4]

ويقول مؤكدا عدم وجود أي مصدر يمكن أن يستند إليه رسول الله ﷺ غير مصدر الوحي الإلهي: (إن محمدًا لم يتلق دروسًا على أستاذ أبدًا وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد آنذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن

---

(١) مختصر دراسة للتاريخ، ١ / ٢٤١.

(٢) مختصر دراسة للتاريخ، ٣ / ١٠٤.

(٣) توماس كارلايل (١٧٩٥ – ١٨٨١) Th. Carlyle الكاتب الإنجليزي المعروف، من آثاره: (الأبطال) (١٩٤٠)، وقد عقد فيه فصلاً رائعًا عن النبي، (الثورة الفرنسية) وغيرها.

(٤) الأبطال، ص ٤٣.

الحقيقة هي أن محمدًا لم يكن يعرف الخط والقراءة [1]، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية.. أنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسّر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره.. أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيًا عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء – أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور – من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء.. بين الطبيعة وبين أفكاره)[2]

ويتحدث عن أوصاف رسول الله ﷺ والتي تحيل أن يكون مدعيا أو كاذبا، فيقول: (لوحظ على محمد منذ صباه أنه كان شابًا مفكرًا وقد سمّاه رفقاؤه الأمين – رجل الصدق والوفاء – الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبّ.. وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريمًا برًّا رؤوفًا تقيًا فاضلاً حرًا، رجلاً شديد الجدّ مخلصًا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.. وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد.. عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غني عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء)[3]

ويتحدث عن دليل آخر لنبوة رسول الله ﷺ في غاية العمق، فيقول: (ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدًا لم يكن صادقًا في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة مع خديجة لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة.. ولم يكن إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعًا وثار يريد أمرًا جليلاً وشأنًا عظيمًا)[4]

ويتحدث عن إخلاص رسول الله ﷺ وعفافه وزهده، وهو من أكبر دلائل صدقه، فيقول: (لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفوات العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحجى ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون

---

(١) وهي حقيقة تدل عليها كل الأدلة، فالله ﷻ وصف النبي بالأمية، فقال:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(لأعراف:١٥٧)، وقال ﷻ:﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(لأعراف: من الآية١٥٨).. ولو لم يكن ﷺ أميا لواجهه الجميع مكذبين هذا الزعم، وهو لم يحصل.

(٢) الأبطال، ص ٥.

(٣) الأبطال، ص ٥٠ – ٥١.

(٤) الأبطال، ص ٥١.

طبق اعتبارات باطلة. إذ ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينيه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرّ يناجيه: هاآنذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية. وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء)[1]

وهو لا يكتفي بتلك الشهادات، بل يصرح بحبه لرسول الله ﷺ.. وهو يعتبر ذلك الحب ضروريا، فما في محمد ﷺ من صفات الكمال لا يحمل القلوب إلا على الحب، يقول: (إني لأحب محمدًا لبراءة طبعه من الرأي والتصنّع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبرًا ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها.. وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد)[2]

وهو يرد بشدة وصدق وإخلاص على الذين يتصورون كذب رسول الله ﷺ، فيقول: (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمدًا، وحاشاه خدّاع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتين مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء، كذبة وخدعة؟أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق)[3]

ويتحدث عن تصوره لحقيقة الإسلام، فتجد له من فهم حقيقة الإسلام ما يملؤك بالعجب، فيقول: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له) هو الحق، وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا.. إن الإسلام هو أن نسلم الأمر لله، ونذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته، والرضا بقسمته أيًا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو. ولقد قال شاعر الألمان (غيته): (إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون). نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو متخلق بأخلاق الإسلام، وإن لم يكن مسلمًا.. إن من السخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانًا للعالم وأحواله. بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونًا عادلاً، وإن غاب عن إدراكه، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود.. عليه أن يعرف ذلك

---

(١) الأبطال، ص ٥١ – ٥٢.
(٢) الأبطال، ص ٦٤.
(٣) الأبطال، ص ٤٢ – ٤٣.

ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى)[1]

ويتحدث عن إعجابه بالقيم التي جاء بها الإسلام، فيقول: (في الإسلام خلّة أراها من أشرف الخلال وأجلّها وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي. فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضًا حتمًا على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل.. جميل والله هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة)[2]

وهو يحث قومه وغيرهم ليعرفوا قيمة الإسلام، والمعاني النبيلة التي يحملها، فيقول: (هذا الدين الإسلام فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه. ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم الصراط المستقيم لخمس العالم. وما يزال فوق ذلك دينًا يؤمن به أهله من حبّات أفئدتهم. ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد.. وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترنّ آناء الليل وأطراف النهار في إرواء تلك الملايين الكثيفة. وأن الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي ماليزيا فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون)[3]

ويتحدث عن الثمار العظيمة التي حققها الإسلام في فترة وجيزة، فيقول: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة.. وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيًا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقًا، ووسع نوره الأنحاء.. وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبًا عديدة ودهورًا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة. وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة، ومازال للأمة رقي في درج الفضل.. مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان)[4]

أصابني انبهار شديد لما ذكره البابا عن هذا الرجل الفاضل من هذه الشهادات، فقلت: إن هذا ليس مجرد صديق.. إنه يكاد يكون أخا لنا في الدين.. بل لا أشك أنه كذلك.. ولعله تأثر بمؤمن آل فرعون، فراح يكتم إيمانه ليتمكن من نصرة الإسلام، كما تمكن مؤمن آل فرعون من نصرة موسى.

قال البابا: صدقت.. فهو في نصائحه لقومه يحمل أريج تلك النفحات التي تحدث بها مؤمن آل فرعون.

وقد أخبر مونتجومري وات عن تأثير تلك النصائح في الغرب، فقال: (منذ أن قام كارليل بدراسته عن

---

(١) الأبطال، ص ٥٣ – ٥٤.
(٢) الأبطال، ص ٦٥.
(٣)الأبطال، ص ٦٦.
(٤) الأبطال، ص ٦٦ – ٦٧.

محمد في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسبابًا وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ إن عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيرًا عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع. فاتهام محمد بأنه دجال Imposteur يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد. فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكنًا قبوله. ولا يكفي، مع ذلك، في ذكر فضائل محمد أن نكتفي بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلابة بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضًا أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكنًا وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه)[1]

لايتنر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لايتنر)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الباحثين الصادقين، وهو لا يقل عن صاحبنا السابق، فكلاهما انتدب ليدعو قومه إلى الإسلام.

وسأذكر لك من شهاداته ما يثبت لك ذلك:

لقد تحدث عن أصالة رسالة النبي ﷺ.. بل هو يصرح أن ما كان يتلقاه محمد ﷺ وحي يوحى، فقال: (بقدر ما أعرف من دينيْ اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباسًا بل قد (أوحي إليه به) ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلوب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحي إليه)[3]

وتحدث عن الدور التصحيحي الذي جاء به رسول الله ﷺ للأديان المحرفة، فقال: (إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح تخالف التعاليم السّرية التي أذاعها بولس والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى.. ولقد كانت آمال محمد وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعًا، ولقد صار دينه الواسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام)[1]

---

(١) محمد في مكة، ص ٩٤.

(٢) لايتنر Lightner باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها.

(٣) دين الإسلام، ص ٤ — ٥.

(١) دين الإسلام، ص ٥.

ويرد بصدق وإخلاص على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فيقول: (لما بلغ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها (أربعون عامًا)، وهذه تشابه امرأة عمرها خمسون عامًا في أوربا، وهي أول من آمن برسالته المقدسة.. وبقيت خديجة معه عشرين عامًا لم يتزوج عليها قط حتى ماتت. ولما بلغ من العمر خمسًا وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى. لكن ليس من الاستقامة والصدق أن ننسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذاك العمر بالطهارة والعفاف فلا ريب أن لزواجه بسن الكبر أسبابًا حقيقية غير التي يتشدق بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ولا ريب هي شفقته على نساء أصحابه الذين قتلوا)[1]

وتحدث عن دلائل صدق النبوة، فقال: (مرة، أوحى الله تعالى إلى النبي وحيًا شديد المؤاخذة لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعمى ليخاطب رجلاً غنيًا من ذوي النفوذ، وقد نشر ذاك الوحي، فلو كان كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذاك الوحي من وجود)[2]

وهو يدعو قومه لاحترام محمد ﷺ.. بل الإيمان به.. فيقول: (إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح احترامًا عظيمًا وذلك باحترامهم محمدًا، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق)[3]

وهو يتحدث عن عدم وجود الوسائط في الإسلام بين الله وعباده، فيقول: (كل مسلم قيم ومهيمن على دينه مباح له التكلم بخصوص الأمور الدينية فليس هو رقيقًا للمشايخ. يعبد الله وحده لا يحتاج إلى وسيط، وإنما كان متى أدركته أوقات الصلاة فهنالك محل لعبادته، ولعلماء المسلمين الحرية التامة للاحتراف والاشتغال ولكن أكثر علمائهم يتعاطون تعليم الدين للناس. وأي مسلم يستطيع أن يقول: (إني بتسليم نفسي لإرادة الله) نائب عن الدين الذي علمه محمد. والحق يقال بأن كافة المسلمين في الدنيا مرشدون بهذا الهدى الاجتماعي)[4]

ويتحدث عن مزايا الشعائر الإسلامية المختلفة، فيقول: (الصلاة عمادها الطهارة والنظافة، ومعلوم أن النظافة من الإيمان والوضوء والصلاة لهما أعمال دقيقة جدًا وليس بإمكان أحد القسيسين أن يقول بحق أحد النصارى بأننا نستطيع تعلمها من أي مسلم نصادفه. وأما الزكاة فيحق لها أن تدعى (الصلاة النقدية).. ولكي تكون مقبولة عند الله فمن الواجب على المزكين أن يبيّنوا ملكيتهم لما وهبوه شرعًا ولا يجوز أن يكون فيه ما حرم كسبه.. وكل من يعطي فوق فريضة الزكاة فأجره على الله. والحج إلى مكة (المشرفة) مهم جدًا لأنه يتكون منه اجتماع المسلمين من كافة أقطار العالم ويتأتى عنه التعارف والاتحاد، وهذا شيء ليس للنصارى فيه من نصيب. وفوق هذا فإنه من أقوى العوامل والأسباب على نشر العلم والآداب.. أما الصوم فهو تمرين يعتاده الإنسان وله نفع عظيم، كما أن الطهارة والنظافة معقولان، كذلك الصوم المتمّم للأحوال الصحية التي يطلبها

(١) دين الإسلام، ص ١٢ – ١٣، وسنرى تفاصيل الرد على هذه الشبهة في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.
(٢) دين الإسلام، ص ١٣٢ – ١٣٣.
(٣) دين الإسلام، ص ٦.
(٤) دين الإسلام، ص ٦.

الطبيب)[1]

ورد على شبهة (الاسترقاق)، فيقول: (إنا نرى الأغبياء من النصارى يؤاخذون دين الإسلام كأنه هو الذي قد سنّ الاسترقاق، مع أن محمدًا قد حضّ على عتق الرقاب وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة)[2]

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية المختلفة، فقال: (الحق يقال إن الامتناع عن أكل لحم الختزير وشرب المسكر واللحم الذي لم يحسن ذبحه، وإزالة كل مضرّ، وغير ذلك من الأشياء التي نهى عنها الإسلام، لمن أعظم الأمور النافعة للعاملين بها وليست لإتعابهم)[3]

وقال: (في المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأي إمام يمكنه أن يؤم المصلين. ولا يوجد منظر أبهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون)[4]

وقال:(إن الزواج عند المسلمين يجلّ عما رماهم به كُتّاب النصارى. والقول بأنه لا يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين فغير صحيح، والطلاق عندهم ليس هو بالأمر الهين، فعدا عن وجود المحكمين فعلى الرجل أن يدفع صداقها المسمى عند إجراء العقد وهذا غالبًا يكون فوق ما يقدر زوجها على إيفائه بسهولة، فمركز المرأة بالإسلام قوي مؤمّن من الطلاق. إن النصارى والبوذيين يرون الزواج أمرًا روحيًّا ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين أكثر مما هي محترمة في البلاد المسيحية.. ويسوءني أن أذكر ما ليس لي مناص من ذكره وهو أنني سكنت بين المسلمين أربعًا وخمسين عامًا ابتداءها سنة ١٨٤٨ فمع وجود التساهل في أمر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حوداث طلاق عند النصارى أكثر مما وقع عند المسلمين بكثير. وإني أقول الحق بأن الشفقة والإحسان عند المسلمين نحو عيالهم والغرباء والمسنّين والعلماء لمثال مجدٍ يجب على النصارى أن يقتدوا به)[5]

ويرد على شبهة تعدد الزوجات، فيقول: (أما تعدد الزوجات.. فإنّا بقطع النظر عن منافعه الحقيقية، لأنه يقلّل النساء الأماكن التي هن فيه أكثر من الرجال، وبقطع النظر عن أنه يقلل وجود المومسات وأضرارهن، ويمنع مواليد الزنا، فلا يمكننا أن ننكر بأن أكثر المسلمين ذو زوجة واحدة والسبب في ذلك هو تعليم دين الإسلام لقد أتى محمد بين أمة تعد ولادة الأنثى شرًّا عظيم عليهم وهكذا كانوا يئدونها، ولم يكن للرجال حد يقفون عنده من جهة الزواج وكانوا يعدون النساء من جملة المتاع ويرثونها من بعد موت بعلها. فجعل لهذه الحالة حدًّا فلا يقدر الرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء بشرط المساواة بينهن في كل شيء حتى بالمحبة والوداد، فإن لم يكن قادرًا على كل ذلك فلا يباح له بأن يتزوج غير واحدة. ومن يتدبر شريعته يرى أنه قد حضّ على الزواج بامرأة واحدة، ولقد رفع مقام المرأة ورقاها رقيًّا عظيمًا، فإنها بعد ما كانت تعد كمتاع مملوك

---

(١) دين الإسلام، ص ٧ — ٨.

(٢) دين الإسلام، ص ٧، وسنرى الرد المفصل على هذه الشبهة في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) دين الإسلام، ص ٨.

(٤) دين الإسلام، ص ٩.

(٥) دين الإسلام، ص ١٠ — ١١.

صارت مالكة، وحكمها مؤيد وحقوقها محفوظة)[1]

ويتحدث عن الآثار الصحية للشرائع المرتبطة بالزواج في الإسلام، فيقول: (أما بخصوص الرهبانية فليس لها وجود في الإسلام، وتكاد لا ترى امرأة غير متزوجة، وقصاص الزنا متساوٍ فيه الرجل والمرأة.. والشريعة الإسلامية لا تسمح بإهانة أولاد المملوكة، وهم يرثون أبناءهم مع أولاد السيدة.. وليس في الإسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات. ومسامرات المسلمين العمومية خير مما هي في أوروبا. ومسامرات شبان المسلمين في المدارس خير وأطهر من مسامرات شبابنا.. والحق أولى أن يقال فإن كثيرًا من كلام شبان الإنكليز لو قاله أحد في بلاد المسلمين لنال قائله القصاص الصارم. وللمرأة المسلمة مركز شرعي خير من مركز المرأة الإنكليزية بكثير)[2]

سكت البابا، فلم أملك إلا أن أقول: ما هذا إلا مؤمن آخر من آل الإنجليز يكتم إيمانه.

قال: صدقت.. فالحب الذي تمتلئ به هذه الشهادات يستحيل أن يكون منبعه اللسان المجرد.

هربرت جورج ولز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هربرت جورج ولز) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل لا يقل عن أخويه (كارلايل) و(لابتر) حماسة وصدقا، فقد مارس هو الآخر ما يمارسه كل متكلم مسلم من الدفاع عن نبيه وإسلامه.

فمن شهاداته قوله في بيان دليل عميق من أدلة نبوة رسول الله ﷺ: (هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقًا؟ ذلك أن من عرفوا محمدًا أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيمانًا به. وقد آمنت به خديجة كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر شاهد أفضل وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان يؤمن بالنبي ومن العسير على أي إنسان يقرأ تلك الأيام إلا يؤمن بأبي بكر، وكذلك علي فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه سوادًا)[4]

ومن شهاداته شهادته حول سمو القيم التي نادى بها رسول الله ﷺ: (حجّ محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إنّ أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها

---

(١) دين الإسلام، ص ١١.

(٢) دين الإسلام، ص ١٤ — ١٥.

(٣) هربرت جورج ولز (١٨٦٦ — ١٩٤٦) H. G. Wells الكاتب والأديب البريطاني المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذي يعتمد الخيال العلمي من مثل (آلة الزمن) و(الرجل الخفي)، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل (ميكا فيللي الجديد) و(الزواج). ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأنجز عام ١٩٢٠ (معالم تاريخ الإنسانية) وأعقبه بـ(موجز تاريخ العالم). وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل في أقصى تواتراته) (١٩٤٤). ولولز كتاب في السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة في كتابة السيرة الذاتية).

(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٣٩.

إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها)[1]

ومن شهاداته شهادته حول الثمار العظيمة التي حققها الإسلام على مستوى العالم أجمع: (لقد منح العرب العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي فهو محمد)[2]

ومن شهاداته شهادته حول عملية التصحيح التي قام بها الإسلام نحو غيره من الديانات: (ناهض الإسلام مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشت المنحلّة.. فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يتميز بصفات كثيرة نبيلة)[3]

ومن شهاداته شهادته حول مصادر قوة الإسلام مقارنا لها بغيرها من الديانات: (هذا الإلحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه. ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قوي المقاومة إلى حدّ بعيد لعمليات الصقل والتفاخر اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى وكان مصدر قوته الثالث في وصفه الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة وبيانه الصريح عن المغزى المحدود العرفي للأهمية المنسوبة إلى مكة. وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سم خياط مفتوحًا ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم إلى مسرح العقيدة الجديدة.. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة)[4]

ومن شهاداته شهادته حول تسامح الإسلام: (كان الإسلام مليئًا بروح الرفق والمساحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم.. وقد وقفت ضده اليهودية وهي التي أخذت من الرب كنزًا تكتنزه بيمينها، ثم المسيحية، وهي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثليث والمبادئ والهرطقات التي لم يكن ليستطيع أي رجل عادي أن يميز فيها الرأس من الذنب، كما حاربته المزدكية نحلة المجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام وتحديه، يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) سبحانه، الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب صلاح وبرّ وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه — في عالم تقلقل وخيانة وانقسامات لا تسامح فيها — على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة في الأرض.. وقد أوصل محمد مبادئه الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أي رمزية مبهمة ودون أي تعتيم للهياكل ولا ترتيل للقسوس)[5]

ومن شهاداته شهادته حول صفاء التوحيد في الإسلام، وخلوه من كل شوائب الشرك: (يحتوي الإسلام..

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية: ٣ / ٦٤٠ — ٦٤١.
(٢) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٠ — ٢٠١.
(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٠.
(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ص ٣ / ٦٤٢.
(٥) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٢.

الشيء الكثير من القوة والإلهام. فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه، وإيمانه البسيط المتحمّس بحكم الله للناس.. وخلوه من التعقيدات اللاهوتية. ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرابين ومعبدها، وهو بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرابين الدموية. والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للتراع في شأنها. كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته. وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعًا متساوون تمامًا أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم. هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشئون الإنسانية)[1]

ومن شهاداته شهادته حول أخلاقية الفتوحات الإسلامية: (أنشأ أبو بكر بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الجبال ينصب نفسه في بساطة وحسن تبصّر، لتنظيم إخضاع العالم بأسره لله، بجيوش صغيرة من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف عربي، بناء على تلك الرسائل التي بعث بها النبي من المدينة إلى ملوك العالم.. والحملات العسكرية التي بدأت عند ذاك، من ألمع ما خلد تاريخ العالم.. وكان المسلمون في كل مكان يخيرون الناس بين أشياء ثلاثة: فإما أن تدفع الجزية، وإما أن تسلم بالله الحق وتنضمّ إلينا، وإما أن تقاتل.. ولم يحدث في أي مكان شيء اسمه المقاومة الشعبية.. فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب، كان العرب – أعني عرب السنين العظيمة – أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر، وكانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق إذا استمر الجهاد الإسلامي لنشر الإسلام)[2]

ومن شهاداته شهادته حول الدور التحريري الذي قام به الإسلام: (استطاع الجنس السامي في بضع سنين باسم الله ورسوله أن يسترد تقريبًا كل الأملاك التي خسرها للفرس الآريين قبل ذلك بألف سنة، وسقط بيت المقدس مبكرًا.. وكان النصارى ينعمون بالتسامح في مقابل دفع الجزية فقط، وتركت الكنائس بأسرها والآثار المقدسة بأجمعها في حوزتهم)[3]

ومن شهاداته شهادته حول سر انتشار الإسلام، وتمكين الله له في الأرض: (لقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه. وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوبًا بليدة سياسيًا، تسلب وتظلم وتخوّف ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بني الإنسان نظامًا أفضل من أي نظام آخر. وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوروبا قد انحلت انحلالاً تامًا وانهارت قبل أن

(١) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٢.
(٢) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٣، ٦٤٤ — ٦٤٥.
(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٧.

ينشأ الإسلام)[1]

ومن شهاداته شهادته حول المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ في فترة وجيزة: (كان الذهن العربي قبل محمد ببضعة أجيال متّقدًا بنار تسري تحت الرماد، فكان يخرج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني، وما لبث ذلك العقل.. حتى تأجّج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق في أزهى عصورهم. فأحيا من جديد تأثر الإنسان للعلم. فلئن كان الإغريقي أبًا للطريقة العلمية، فقد كان العربي "شبينًا" لها وشريكًا له في أبوّتها. فمن العرب، وليس بوساطة الأرومة اللاتينية، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة)[2]

وقال: (جاء من الصحراء العقل العربي الغفل، متوقّدًا مستطلعًا، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعًا. تعلم كثيرًا واستوعب كثيرًا)[3]

وقال: (سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نورها تلك الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب)[4]

وقال: (لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت. لذا عظمت إلى أقصى حدّ الاستثارة الفكرية التي أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين، كما اشتدّ تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة.. وكان العلم يثب على قدميه وثبًا في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربي)[5]

وقال: (عثر علماء العرب من الكيميائيين على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطانًا لا حدّ له على العالم كله، بل وعلى مصائره هو نفسه)[6]

سكت البابا، فقلت: إن هذا الرجل لا تنقصه إلا شهادة واحدة ليصبح من المسلمين.

ابتسم البابا، وقال: ومن ذكر لك بأنه لم ينطقها.

قلت: هل أشهر إسلامه.. في أي بلد تم ذلك.. وأمام أي إمام؟

قال: قد يكون أشهر إسلامه في حقل من الحقول، أو جبل من الجبال، أو واد من الأدوية..

قلت: والإمام !؟

قال: الملائكة.. والجن الصالحون.. وكل ذرة في تراب الأرض، وفي جو السماء.. ألا يكفي هؤلاء جميعا شهودا على الإيمان؟

د. لويس يونغ:

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٩.
(٢) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٢.
(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٣.
(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٤.
(٥) معالم تاريخ الإنسانية، ص ٢٠٩.
(٦) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٦.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. لويس يونغ) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عني بثمرات النبوة ومنجزاتها، وله شهادات صادقة في ذلك:

منها شهادته حول التأثير العظيم الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب، وفي حياتهم.. قال: (لقد كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية خيرًا عظيمًا ساقه الله إلى العرب قاطبة. ولكنه لم يشكل انفصالاً عن ماضي هذه الجزيرة. لقد غير في ثقافة معاصريه بشكل فوري، ولكنه لم يطمس تمامًا تلك الثقافة)[2]

وقال: (فجر الإسلام في العرب طاقات حماس كامنة، وجدت متنفسها في إقامة إحدى الإمبراطوريات العظمى في العالم)[3]

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فقال: (بدأ القانون كتطبيق عملي للدين وللعلاقات الاجتماعية التي سنها النبي محمد، وهي لا تفرق بين موضوعي الدين والدنيا، ودراسة القانون عند المسلمين تعرف بالفقه (حرفيًا:الفهم). وتعتمد هذه الدراسة أساسًا على القرآن، ثم الحديث (كلام النبي محمد وأفعاله) ويصف السير هاملتون جب [4] بنيان هذا القانون بأنه (أحد الأبحاث الفذة للفكر البشر)[5]

وتحدث عن التسامح الإسلامي، فقال: (على الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمت الفكري واللاتسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلل من شأنه)[6]

وقال: (إن التسامح الديني الذي مارسه الإسلام في القرون الوسطى، يفوق التسامح الديني الذي مارسته المسيحية في القرون الوسطى، حيث كاد ألا يكون هناك أي تساهل ديني مع اليهود أو المسلمين والآخرين الذين خضعوا لسلطان المسيحية)[7]

وقال: (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين نشأ مظهر آخر للتمثيل الدبلوماسي بين العرب وأوروبا تجلى في منح الامتيازات وحق السكن للأجانب، وليس هذا بغريب على العرب. وكان هؤلاء الأجانب يستثنون من الأنظمة والقوانين المعمول بها محليًا. كما يسمح لهم بالعيش وفق أنظمتهم في بلادهم. يقولون إن القانون يطبق على الأفراد وليس بحسب وجودهم في الأرض الإسلامية وإنما بحسب انتمائهم القومي والديني. فالشريعة الإسلامية تطبق على المسلمين. وهذا ما يفسر التسامح الديني للمسلمين تجاه الأقلية المسيحية واليهودية التي سمح لها بممارسة حياتها الخاصة)[1]

---

(١) د. لويس يونغ Lewis Young باحث إنكليزي، معاصر، وأستاذ جامعي، له العديد من المؤلفات والأبحاث، أبرزها كتاب: (العرب وأوروبا).

(٢) العرب وأوروبا، ص ٢٩ – ٣٠.

(٣) العرب وأوروبا، ص ٣٢.

(٤) Mohammedanism, P. ٩٠ (London,, ١٩٥٣)

(٥) العرب وأوروبا، ص ٣٧ – ٣٨.

(٦) العرب وأوروبا، ص ٩.

(٧) العرب وأوروبا، ص ٥١.

(١) العرب وأوروبا، ص ١٦١.

وقال: (إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون)[1]

وتحدث عن تأثير الإسلام في نهضة أوروبا، فقال: (نحن حينما نسلم اليوم أن آسيا وأفريقيا تتمثلان أوروبا قدوة لهما، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية، وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بترولهم في القرن العشرين)[2]

وقال: (ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور.. وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل السمت Asimuth وسمت الرأس Senith. وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليها أسماء لبعض العلماء العرب كالزركلي والبستاني وأبي الفداء. إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية)[3]

وقال: (نفذ المسلمون بمعارفهم عن العالم القديم إلى الأوروبيين ونقلوا إليهم كشوفهم واختراعاتهم التي أضافوها إلى تلك المعارف)[4]

وقال: (إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم. وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. ويجب ألا تغيب عن ذهننا — إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية — تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من ذلك لونًا جديدًا سبّاقًا فريدًا)[5]

وقال: (هناك أدلة واضحة تشير إلى أن مؤسسة (الجامعة) هي من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية، وخلافًا لهذه الأدلة يحجم الكثير من المؤرخين الغربيين عن الإقرار بأن وجود الشبه بين الجامعات في البلاد العربية وأوروبا لم يكن مجرد صدفة. رغم أن أحدًا منهم لا يجادل في الحقيقة الثابتة القائلة بأن أكثر الكتب الجامعية التي كانت تدرس في جامعات أوروبا إنما هي كتب مترجمة عن العربية في القرون الوسطى. وإذا لم يكن هناك برهان آخر على التأثير الثقافي للحضارة الإسلامية في أوروبا المسيحية فيكفي أن ننوّه بالارتباط الوثيق جدًا بين الجامعات الأوروبية نفسها وبين الثقافة الإسلامية، تلك الثقافة التي أمدت الجامعات الأوروبية بالكتب الدراسية. وتدل بعض الحقائق على أن القرون الوسطى للإسلام مهّدت لنشوء الجامعات في أوروبا الوسطى. فقد نشأت الجامعات العربية وعملت قبل قيام الجامعات في أوروبا بأكثر من قرن.. وقد لعبت الأخيرة حين ظهورها دورًا مماثلاً لمثيلاتها في البلاد العربية.. ومازالت بقايا هذا النظام الجامعي متبعة في جامعات أوكسفورد ولينكن واستر وهارتفورد.. إلخ.. ووجه الشبه الآخر بين الجامعات العربية والأوروبية تمثل

(١) العرب وأوروبا، ص ١٠.
(٢) العرب وأوروبا، ص ٩.
(٣) العرب وأوروبا، ص ١٠.
(٤) العرب وأوروبا، ص ١٢.
(٥) العرب وأوروبا، ص ٣٦.

في التقليد القاضي بلباس أردية خاصة للأساتذة خلال المحاضرات، أو لبعض الأعمال الإدارية، وأن الرداء الجامعي المميز عادة متبعة في أهم مراكز التعليم في البلاد العربية قبل أن يصبح عادة في الجامعة الأوروبية)[1]

مونتجومري وات:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مونتجومري وات) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين.. وقد كتب كتبا كثيرة عن رسول الله ﷺ.. وهو ــ ككثير من المستشرقين ــ قد تغلب عليه نفحات الصدق، فينطق بالحكمة، وقد تغلب عليه رياح الأهواء.. فينطق بما يرضي قومه.

قلت: فاذكر لي من صدقه ما نقلته عنه.

قال: من ذلك شهادته حول القرآن وما في القرآن من الحكمة، لقد قال: (يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظرًا لنجاح محمد في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليغها)[3]

وقد تحدث عن استحالة المصدر البشري للقرآن، فقال: (يجب علينا في رأيي، مهما كان موقفنا الديني، أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقًا خلاقًا في الوضع المكي. ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحلّ، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمان إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي.. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلّها جميعًا دفعة واحدة وليس بصورة بديهية. ولربما قال مؤرخ دنيوي أن محمدًا وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمان ليس هذا ممكنًا. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفند لنا

---

(١) العرب وأوروبا، ص١٣٠.

(٢) مونتجومري وات Montgomery, Watt ولد في كريس فايف في١٩٠٩ درس في كل من أكاديمية لارخ ١٩١٤-١٩١٩ وفي كلية جورج واتسون بإدنبرة وجامعة أدنبره١٩٢٧-١٩٣٠وكلية باليول بأكسفورد ١٩٣٠-١٩٣١ ١٩٣٣ وجامعة جينا بألمانيا ١٩٣٣وبجامعة أكسفورد وجامعة أدنبرة في الفترة من ١٩٣٨-١٩٣٩و١٩٤٠-١٩٤٣ على التوالي.

عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي أدنبره ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس، وعمل رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبره في الفترة من ١٩٤٧-١٩٧٩. نال درجة الأستاذية عام ١٩٦٤. دعي للعمل أستاذاً زائراً في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو ١٩٦٣و١٩٧٨ وكلية فرنسا في باريس عام ١٩٧٠وجامعة جورجتاون بواشنطن عام ١٩٧٨-١٩٧٩.

أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها: (محمد في مكة) و(محمد في المدينة) و(محمد نبي ورجل دولة) و(الفلسفة الإسلامية والعقيدة) و(الفكر السياسي الإسلامي) و(تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى) و(الأصولية الإسلامية والتحديث) و(العلاقات الإسلامية النصرانية) ومن آخر كتبه (حقيقة الدين في عصرنا)(١٩٩٦) وكتاب (الفترة التكوينية للفكر الإسلامي)(١٩٩٨) و(موجز تاريخ الإسلام)(١٩٩٥)وغيرها كثير.

وقد ختم حياته بأن عمل راعياً لإحدى الكنائس في منطقة إدنبرة.

(٣) محمد في مكة، ص ١٣٥.

كما يجب رسالة القرآن)[1]

وتحدث عن قوة الدواعي المثبتة لصدق رسول الله ﷺ، فقال: (هناك – على العكس – أسباب قوية تؤكد صدق (محمد) ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين، لأن النقاش حول هذه المسألة.. يعتمد على وقائع ولا يمكن أن يتضمن خلافًا في التقدير حول الأخلاقية)[2]

وتحدث عن الصفات التي استطاع بها رسول الله ﷺ أن يحقق كل تلك المنجزات، فقال: (ليس توسع العرب شيئًا محتومًا أو آليًا وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة في غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أُوتيها محمد. وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد بأكمله. لقد أوتي أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربي بفضله، أو بفضل الوحي الذي يترل عليه حسب رأي المسلمين، أساس فكري (إيديولوجي) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكري يتطلب في نفسه الوقت حدسًا ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيالها.. وكان محمد ثانيًا رجل دولة حكيمًا. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية. ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالبًا على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية ولقد دلّ على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. وكان محمد ثالثًا رجل إدارة بارعًا، فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندبهم للمسائل الإدارية. إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئًا مترددًا. وكانت الدولة التي أسسها محمد عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعًا رائعًا)[3]

وقال: (كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام، تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل. ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصًا للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تمامًا. فلو لم يكن نبيًا ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهمًا في تاريخ الإنسانية. ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو أعظم رجال أبناء آدم)[1]

---

(١) محمد في مكة، ص ١٣٥ – ١٣٦.
(٢) محمد في مكة، ص ٤٩٧ – ٤٩٨.
(٣) محمد في مكة، ص ٥١٠ – ٥١١.
(١) محمد في مكة، ص ٥١٢.

وتحدث عن النظام التوحيدي للمجتمع الذي جاء به الإسلام، فقال: (إن فكرة (الأمة) كما جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها و لم تزل إلى هذا الزمن ينبوعًا لكل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى (الوحدة) في (أمة) واحدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة. وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، و لم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقّون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها و لمّ شملها ونفي الغرباء عنها)[1]

وتحدث عن التأثير الإيجابي للعقيدة الإسلامية، فقال: (إن عقيدة الإسلام تزوّد أبناءه في كل عصر (بالصورة المحركة) التي ينظرون إليها ويترسّمونها (Dynamic Image) أي الطيف أو المثال الذي يحفز السائر إلى الحركة والتقدم ويهوّن عليه مشقة الطريق.. وسرّ هذه القوّة في العقيدة الإسلامية أنها منحت الفرد مقياسًا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة، وأنها — مع هذا الاستقلال الفردي — لم تترك الجماعة بغير وجهة تصمد عليها، فأبدعت لها فكرة (الأمة) وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة، فأصبح معنى (الأمة) قابلاً للتطور مع الحوادث و(الظروف)[2]

وتحدث عن تسامح الإسلام، فقال: (يعني التأكيد — على إخضاع مشركي الجزيرة للإسلام — أن الإسلام قد انتشر بحدّ السيف. حقًا أن القبائل الوثنية في الجزيرة العربية كان عليها أن تختار الإسلام أو السيف[3]، إلا أن تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعًا من الحلفاء للمسلمين في معظم الأقطار التي فتحتها العرب. لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمنزلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامة فإنهم (أهل الذمة)، وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلي برعاية رئيس ديني كالبطريك أو الرابي، وكان على كل فرد من أفراد المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم، إضافة على مبالغ مختلفة أخرى تحدد استنادًا على شروط الاتفاقية مع المجموعة. وكانت تلك الضرائب أحيانًا أقل وطأة من الضرائب التي كانت تدفع للحكام السابقين. وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها ثم إن وضع أهل الذمة لم يكن سيئًا رغم بعض القيود المفروضة عليهم)[4]

وتحدث عن الأسباب الحقيقية وراء انتشار الإسلام، فقال: (كانت هناك مناطق مثل شرق أفريقيا وجنوب

---

(١) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص ١٨٣.
(٢) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص ١٨٤.
(٣) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذه الشبهة في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.
(٤) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣ — ١٤.

شرق آسيا انتشر الإسلام فيها نتيجة نشاط رجال الأعمال إذ لم يكن للمسلمين في تلك المناطق الوثنية أية سرية في ممارسة الصلاة خمس مرات يوميًا، وأن إخلاص هؤلاء المسلمين والتزامهم المتزن بالإسلام الحنيف أذهل الوثنيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المسلمين مما أدى إلى اعتناق الإسلام والاختلاط عن طريق الزواج إلى تكوين مجتمعات إسلامية صغيرة وسط المناطق الوثنية ونمت تلك المجتمعات بصورة تدريجية)[1]

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في العالم، فقال: (درس الباحثون مختلف الطرق التي أثر العالم الإسلامي من خلالها على أوروبا في العصور الوسطى، وقد نشرت نتائج دراساتهم هذه في العديد من المقالات والكتب العلمية، إلا أنه من النادر أن نجد محاولة للنظر في التأثير الإسلامي هذا بصورة إجمالية ولتقييم أهمية أثره على أوروبا ومدى استجابة أوروبا له. لذلك فإن الغرض من هذه السلسلة من المحاضرات هو إعطاء نظرة شاملة لهذه التأثيرات ولردود الفعل عليها.. إن وجهة نظري ستختلف عن وجهة نظر المؤرخ الأوروبي، فأنا لا أفكر في المسلمين كأجانب غزوا أوروبا بل سأنظر إليهم باعتبارهم أصحاب حضارة ذات إنجازات عظيمة عمت بفضلها جزءًا كبيرًا من العالم وامتدت فوائدها إلى الأقاليم المجاورة)[2]

وقال: (إنه لمن المناسب أن تصدر دراسة عن التأثيرات الإسلامية على أوروبا في هذا الوقت الذي يزداد فيه ترابط المسلمين والمسيحيين العرب مع الأوروبيين في هذا العالم الواحد. وقد لوحظ في وقت ما أن الكتاب المسيحيين في أوروبا خلال العصور الوسطى قد كونوا صورة مشوهة عن الإسلام من عدة جوانب إلا أنه بفضل محاولات الباحثين في القرن الماضي، بدأت تتكون صورة أكثر موضوعية في أذهان الغربيين إذ ليس لدينا نحن الأوربيين — على أية حال — القدرة على استيعاب فضل المسلمين على ثقافتنا، إذ أننا نقلّل أحيانًا من قيمة التأثيرات الإسلامية ومقدار أهميتها على تراثنا وأحيانًا نغض الطرف عنه كليًا. ومن أجل علاقات طيبة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بكامل فضل المسلمين علينا، أما محاولاتنا إنكار ذلك فما هو إلا علامة من علامات الغرور الكاذب)[3]

وتحدث عن الأسباب الحقيقية تشويه الإسلام في أوروبا في العصر الوسيط، فقال: (إن تشويه صورة الإسلام بين الأوروبيين كان ضروريًا لتعويضهم عن الشعور بالتّخلّف)[4]

وتحدث عن إيجابية تشريع (تعدد الزوجات)، فقال: (إن الفكرة الرائدة في القرآن، هي أنه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات، فان جميع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج يمكنهن الزواج بصورة حسنة)[5]

وقال: (كان تعدد الزوجات عادة غريبة على تفكير أهل المدينة. وقد عالج هذا التغيير المساوئ التي نتجت عن ازدياد النزعة الفردية. إذ أن تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات بالزواج الشريف، كما يضع حدًّا لاضطهاد الأرامل اللواتي تحت الوصاية، كما يخفف من إغراء الزواج المؤقت الذي يسمح به مجتمع عربي ذو

(١) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٠.
(٢) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥
(٣) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥ — ٦
(٤) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣١.
(٥) محمد في المدينة، ص ٤٢٢.

عوائد أمية. ويجب اعتبار هذا الإصلاح، بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك، تقدمًا مهمًا في تنظيم المجتمع)[1]

وتحدث عن مزايا النظم الإسلامية المرتبطة بالأسرة، فقال: (لقد قام محمد في ميدان الزواج والعلاقات العائلية، بتنظيم عميق وواسع للبناء الاجتماعي. وقد وجدت قبله نزعات جديدة فردية، ولكن أثرها كان هدامًا أكثر منه بناء. وكان عمل محمد بهذا الصدد يقوم على استخدام هذه الترعات الفردية لتكون بناء جديد. فقد انهارت عادات المجتمعات القبلية وتقاليدها، فأنقذ محمد منها ما يمكن إنقاذه وحوله إلى المجتمع الفردي الجديد. وهكذا استطاع توليد نظام عائلي ظهر مرضيًا ومغريًا في مجتمع ينتقل من مرحلة الجماعية إلى مرحلة الفردية)[2]

وتحدث عن أهداف أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية، فقال: (كانت التشريعات القرآنية تهدف إلى أن لا يتعدى الوصيّ على حقوق أي قاصر أو امرأة في الميراث الطبيعي)[3]

وتحدث ناصحا المسلمين أن يقدموا صورة حسنة عن الإسلام ترفع الشبهات الكثيرة التي ينشرها المغرضون حوله، فقال: (لا تزال — للمسلمين — إمكانية في تقديم دفاعهم بشكل أفضل وأكمل لسائر العالم. فهل بإمكانهم الالتفات إلى حياة محمد، واستخلاص القيم العامة بعد فصلها عن التأثيرات الخاصة، واكتشاف مبادئ أخلاقية تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم اليوم؟ أو هل يستطيعون، على الأقل، أن يظهروا أن نبيهم يقدم، بحياته، أحد النماذج الممكنة للإنسان المثالي الذي يعيش في عالم موحد القيم الأخلاقية؟ إذا قدم المسلمون دفاعًا بارعًا، فهناك مسيحيون على استعداد للاستماع إليهم والأخذ عنهم كل ما يمكن أخذه)[4]

ويتحدث عن قدرة المسلمين إذا ما رجعوا للإسلام على قيادة العالم في الجوانب القيمية، فقالك (لسوف ينجح المسلمون بصعوبة في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية. وربما أمكنهم، في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على إغناء العالم لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله، تلك الأفكار التي أهملت ونسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)[5]

قلت: بالرغم مما وقع الرجل فيه من أخطاء، فإن هذه الشهادات تنبئ عن صدق عظيم..

قال: ولو أن الرجل وجد تمثيلا صحيحا للإسلام، ودفاعا صادقا عنه ــ كما طلب ــ لما وقع فيما وقع فيه.

ج. ن. د. اندرسن:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ج. ن. د. اندرسن) [1]، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) محمد في المدينة، ص ٤٢٣ — ٤٢٤.
(٢) محمد في المدينة، ص ٤٤١.
(٣) محمد في المدينة، ص ٤٤٣.
(٤) محمد في المدينة، ص ٥٠٨ — ٥٠٩.
(٥) محمد في المدينة، ص ٥٠٩.

(١) ج. ن. د. اندرسن S. N. D. Anderson مستشرق بريطاني. من آثاره: (الشرع والفقه الإسلامي)، (صحيح القانون المقارن، ١٩٤٩)، و(جريمة القتل في الإسلام، ١٩٥١. وغيرها.

لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير الإسلام في الأفارقة، فقال: (لقد تكررت ملاحظة الآثار العميقة التي أحدثها مجيء الإسلام في حياة الزنوج في أفريقيا وفي ثقافتهم. وهكذا يذهب (ميك) إلى حد القول: أنه (يعني الإسلام) لم يؤدّ إلى تغييرات عميقة في التركيب الجنسي لهذه الشعوب فحسب، وإنما أتى معه بحضارة جديدة، أعطت الأجناس الزنجية المولدة الطابع الثقافي المميز الذي يحملونه اليوم ومازال مسيطرًا على حياتهم السياسية ومؤسساتهم الاجتماعية.. أن الإسلام جاء بالحضارة إلى القبائل البربرية (الهمجية) وحول جماعات منفصلة من الوثنيين إلى أمم أنه جعل الخطوة مع العالم الخارجي ممكنة، أنه وسع النظر، ورفع مستوى المعيشة بإنشائه جوًا اجتماعيًا راقيًا، وأسبغ على أتباعه الوقار، واحترام النفس، واحترام الناس. أن الإسلام أدخل فن القراءة والكتابة، وبفضله تم تحريم تعاطي المسكرات.. والثأر والعادات البربرية الأخرى وجعل من الزنجي السوداني مواطنًا عالميًا)[1]

وقال: (هناك مدارس في كل بلدة مسلمة في نيجيريا الشمالية يقوم بها المعلمون (المالام) خاصة فيرسل الوالدون أطفالهم في سن مبكرة جدًا.. وفي المراكز الكبرى يحضر الأطفال إلى الصف ساعة في الصباح وساعة في المساء. والإناث يتلقين التعليم أيضًا)[2]

ريشار وود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ريشار وود) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات صاقة عن سماحة الإسلام، منها قوله:(ميز صاحب الشريعة الإسلامية بين أهل الكتاب – وهم النصارى واليهود – وبين المشركين من العرب الذين تعرضوا لما أنزل الله على رسوله. ولقد وقع بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وبين بطريق بيت المقدس اتفاق يضمن حماية النصارى ومنحهم امتيازات، وفى بها. ثم تولى الأمر بعده خلفاؤه إلى زمن السلاطين الآن. وبهذا بقيت طوائف نصرانية متعددة آمنة نامية مترفهة تحت حكم المسلمين، بل كانت في بعض الأحيان تمتاز حالتها الاجتماعية على حالة مواطنيها من المسلمين)[4]

وقال: (إن الذي يبحث بحثًا دقيقًا عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو إصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد، و لم يكن أولئك المفسدون يحسبون أن هذه الفتن تجر إلى القتل والفظائع. ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة، وواقعة الصقالبة والبلغاريين، فقد تبين أن الاعتداء إنما كان يبتدئ من جانب النصارى)[1]

وقال: (إن القرآن قد سمح للذميين بحرية ممارسة شعائر دينهم، وأوجب مساواتهم في الحقوق المدنية

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٤٠٥ – ٤٠٦.

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٤٠٧ – ٤٠٨.

(٣) السير ريشار وود R. Wood قائد عسكري، ورجل دبلوماسي بريطاني، عمل قنصلاً لدولته في دمشق في ستينات القرن الماضي، ثم نقل إلى تونس لكي يكون وكيل بلاده السياسي هناك، كانت له صلات عديدة بعلماء المسلمين وشيوخهم.

(٤) الإسلام والإصلاح، ص ١٩ – ٢٠.

(١) الإسلام والإصلاح، ص ٢٠.

والجنائية مع سائر الأهالي، و لم يمنع من استشارتهم في مصالح الوطن)[1]

وقال: (إن النصارى في الدولة العثمانية متمتعون بالحرية التامة.. ونحن لم ننفرد بهذا القول فإن كثيرين من علماء الإنكليز والروس ألفوا كتبًا أكدوا فيها أن أرباب الفلاحة خارج البلاد العثمانية يحسدون البلغار العثمانية على حسن حالهم وأمنهم في منازلهم وبساتينهم الخصبة وما تحت يدهم من الأطيان والمواشي، وصوامع كنائسهم مشرفة على كل الجهات. بل يقول هؤلاء المؤلفون أن البلغار العثمانيين أحسن حظًا من المسلمين العثمانيين)[2]

وقال: (للرؤساء الروحيين والأساقفة في الدولة العثمانية أن يتوسطوا لدى رجال الحكومة في حماية أبناء طوائفهم، وهذا زيادة في الاحتياط لكيلا ينال غير المسلمين حيف أو ظلم.. وقد زالت تمامًا الموانع التي كانت موجودة في سبيل تشييد الكنائس والمجامع اليهودية، وأبيح لغير المسلمين من عثمانيين وأجانب إنشاء ما يشاءون من المعابد. والواقع أن الكنائس كثر عددها جدًا وقد اعترف بذلك القسس الأميركيون. ومما يبرهن على تساهل الحكومة العثمانية في ذلك إعفاؤها كل ما يجيء برسم الكنائس والأديار والمستشفيات وغيرها من الضريبة الجمركية.. وهذا أمر لا نعلم أنه يوجد في بلاد أخرى. وزيادة في عناية الدولة العثمانية بحماية غير المسلمين صدر أمر سلطاني ينذر بالعقاب كل من يصدّهم عن عبادتهم.. ولا ريب في أن الدولة العثمانية قد صرفت جهد الطاقة لإرضاء رعاياها النصارى واليهود، وإزالة الفروق التي كانت موجودة بينهم وبين المسلمين، ومشاركتهم في الإدارة العامة، وتقليدهم المناصب الرفيعة، وإعلاء شأنهم وإثبات حقوقهم. وفوق ذلك كله فهي قد أذنت لهم بعقد جمعيات تتفاوض فيما تراه صالحًا لدينهم ودنياهم.. حتى صار النصارى يتعلمون من دولة إسلامية ما يرمي إليه الدين من الحضّ على الرفق واللين والتساهل والصبر.. أما اعتراض المعترضين بأن المساواة بين الطوائف غير كاملة — ما دام النصارى لم يشتركوا في الجندية العثمانية — فجوابنا عليه أن الذنب في ذلك على النصارى أنفسهم لا على الباب العالي، إذ النصارى مع حرصهم على نوال كل الحقوق لم يقبلوا أن يدخلوا تحت ما يقابلها من الواجبات)[3]

آرثر ستانلي تريتون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر ستانلي تريتون)[4]، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) الإسلام والإصلاح، ص ٢١.

(٢) الإسلام والإصلاح، ص ٢٢.

(٣) الإسلام والإصلاح، ص ٢٥ — ٢٧.

(٤) آرثر ستانلي تريتون A. S. Tritton ولد عام ١٨٨١ وتعلم في عدد من الكليات البريطانية وعين مساعد أستاذ للعربية في أدنبرا (١٩١١) وكلاسكو (١٩١٩) وأستاذ في عليكرة في الهند (١٩٢١) ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (١٩٣١-٣٨-٤٧) وقد وجه جل اهتمامه إلى الفقه وطوّف في عدد من البلدان العربية.

من آثاره: (أئمة الزيدية بصنعاء واليمن) (١٩٢٥)، (الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين) (١٩٣٠)، (علم الكلام في الإسلام) (١٩٤٧)، (الإسلام إيمان وشعائر) (١٩٥٠)، (مواد في التربية الإسلامية) (١٩٥٧). كما نشر عددًا من الأبحاث في المجلات الاستشراقية وبخاصة (مجلة الجمعية الملكية الآسيوية).

لقد تحدث هذا الرجل بصدق عن تسامح المسلمين، فقال: (أما النواحي الشرقية القصوى من الدولة الإسلامية فإن الشعوب المحكومة كانت تعامل معاملة تنطوي على مثل هذا العطف الذي حظيت به في النواحي الأخرى)[1]

وقال: (ولما تدانى أجل (عمر بن الخطاب) أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم)[2] وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة (عيثويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ على ٦٥٧م إذ كتب يقول: (أن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، أنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملّتنا ويوقرون قسيسينا وقدّيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا). والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين (عيثويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى، فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعاداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجباة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهما، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها)[3]

وقال: (كان العرب في أيامهم الأولى يلتزمون جادة الصبر والأناة، إذ كثيرًا ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط، ثم ثارت وتمردت على العرب، ثم استسلمت مرة أخرى فأعادوا لها عهودها الأولى)[4]

وقال: (ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها الذميين ما جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في (المتحف البريطاني)، وعلى الرغم من فساد قسم منه فقد جاء في الباقي "خوفًا من الله، وحفظًا للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم.. ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل، وأخذ الشيء من كل منهم بقدر طاقته)[5]

سرارنست باركر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سرارنست باركر) [6]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، فقال: (وصلت حضارة المسلمين درجة متقدمة في

---

(١) أهل الذمة في الإسلام، ص ٤٣.
(٢) يحيى بن آدم: كتاب الخراج، ص ٥٤.
(٣) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٥٨ — ١٥٩.
(٤) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦٠.
(٥) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦٣ — ١٦٤.
(٦) سرارنست باركر (١٨٧٤-١٩٦٠) Prof. Sir Ernest Barker من كبار الباحثين، كان أستاذًا للعلوم السياسية في كمبردج ١٩٢٨-١٩٣٩، وأستاذًا لنفس المادة في جامعة كولون ١٩٢٧-١٩٢٨.
من آثاره: (الفكر السياسي لأفلاطون وأرسطو) (١٩٠٦)، (الفكر السياسي في إنكلترا منذ أيام هربرت سبنسر حتى الآن) (١٩١٥٩)، (نظرات في الحكم) (١٩٤٢)، (مبادئ النظرية الاجتماعية والسياسية) (١٩٥١)، (التراث الأوروبي).. إلخ.

إسبانيا وصقلية لا بل تسامت إلى الجوزاء، حتى انتقل تأثيرها منهما إلى فرنسا وإيطاليا. وامتدت فلسفة قرطبة وعلى رأسها معلمها الأعظم (ابن رشد) حتى دخلت جامعة باريس، وازّيّنت بالرموز بمعان: عربية وحفلت بجغرافيين وشعراء عرب إبان حكم ملوكهم النورمان.. قصد القائل أن ثمار الثقافة التي كسبها الغرب من العناصر الإسلامية التي لم تبق طويلاً كانت، على الأقل، تعادل بأهميتها التأثير الذي خلفه الشرق في الغرب أثناء الحروب الصليبية)[1]

وقال: (علينا أن نذكر ونعيد القول بأن الإسلام قد سبق فثبتت أصوله في الغرب واستطاع أن يخلف آثاره في إسبانية وصقلية.. وبالإمكان أن نرى أن تأثير الإسلام في الغرب المسيحي في قاعدتيه هاتين كان أشد مما هو في مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة)[2]

وقال: (الحق يقال إن الغرب ما زال يستخدم مصطلحات عربية في عالم التجارة.. وكذلك ثبتت مصطلحات بحرية ملاحية وأخرى مترلية.. هذه الكلمات مازالت تستعمل أو أنها كانت دارجة الاستعمال فيما مضى)[3]

وقال: (كان عرب إسبانيا.. هم الذين أهدوا إلى الغرب اللاتيني هباقم النفسية في ميادين العلم والفلسفة.. وكان الطب كالرياضيات ومن مفاخر العلوم العربية وأركانها الوطيدة)[4]

ستانلي لين – بول:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ستانلي لين – بول)[5]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم، فقال: (لم يحدث في تاريخ المدنية حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فكان كل مسلم، من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السفر وكان ذلك خير ما قدّمه الإسلام من جميع الجهات. وكان تهافت طلاب العلم على مركز مثل بغداد، ومن بعدها على المراكز الأخرى التي كانت مهدًا للآداب والعلوم، شبيهًا بذلك التيار الحديث من العلماء الأوروبيين الذين كانت تموج بهم الجامعات بحثًا وراء العلم الجديد بل لقد كان أكثر منه روعة!)[1]

وقال: (أما المساجد، وهي التي كانت – ومازال بعضها – جامعات الإسلام، فإنها عجّت بالطلبة الذين

---

(١) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٧٩.

(٢) تراث الإسلام، ص ٩١.

(٣) تراث الإسلام، ص ٩٧ – ٩٨.

(٤) تراث الإسلام، ص ١٠٥.

(٥) د. ستانلي لين – بول (١٨٣٢-١٨٩٥) Stanley Lane – Pool أستاذ اللغة العربية في كلية ترينتي بدبلن (١٨٩٨-١٩٠٤). عالم في الآثار المصرية. عين سنة ١٨٧٧ حافظًا للنقود في المتحف البريطاني حتى وفاته.

من آثاره: (فهرس النقود الشرقية في المتحف البريطاني) (١٨٧٥-١٨٩٠) في عشرة أجزاء، (الخلافة في الشرق)، (الأسر الصغيرة الحاكمة في الشرق)، (المغول)، (العثمانيون)، (صلاح الدين وسقوط مملكة القدس).. إلخ.

(١) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن) ٤/ ٦٠٧.

ملأتهم الرغبة في العلم وقد جاءوا للاستماع إلى محاضرات العلماء في علوم الدين والشريعة والفلسفة والطب والرياضة. وقد جاء العلماء أنفسهم من جميع أرجاء العالم الذي كان يتكلم باللغة العربية.. وكان يرحب بكل طالب مهما كانت جنسيّته)[1]

وتحدث عن تأثير العلوم الإسلامية في الغرب، فقال: (كان كل ما عرفته أوروبا في العصور الوسطى من فلسفة إغريقية ومن علوم رياضية وكيمياء وفلك وطب مأخوذًا في الأصل من المؤلفات والرسائل العربية المترجمة إلى اللغة اللاتينية وقد احتفظت هذه المؤلفات بمكانتها في المدارس الأوروبية حتى القرن السادس عشر بل والسابع عشر كذلك)[2]

وتحدث عن دور المسلمين في حفظ التراث الإنساني، فقال: (إن القوة الموحدة للغة واحدة وديانة واحدة قد جعلت من الممكن أن يحفظ العصر الذهبي لثقافة العرب تراث الإغريق والرومان وينقله إلى العالم الحديث. إن اللغة العربية أدها الهائل الخالد، إلا أن فضلها الكبير على العالم يتركز فيما قدمته له من خدمة جليلة في حفظ الحضارة العظيمة القديمة ونشرها في وقتٍ كانت فيه أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل والأمية. إن سحر اللغة العربية وحماسة طلابها هما اللذان مهدا الطريق لحركة إحياء العلوم)[3]

إدوارد كيبون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إدوارد كيبون) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن صمود الإسلام، فقال: (إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره، فإن نفس الطابع النقي الكامل، الذي كان له في مكة والمدينة، ما زالت تجيش به صدور المسلمين في الهند وأفريقيا وتركيا) [5]

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، فقال: (إن في عبقرية النبي العربي، وفي خلال أمته وفي روح دينه، أسباب انحلال الدولة الرومانية الشرقية وسقوطها، وأن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثورة من أعظم الثورات التي طبعت أمم الأرض بطابع خالد) [1]

برنارد شو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برنارد شو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل

---

(١) تاريخ العالم: ٤ / ٦٠٧ – ٦٠٨.

(٢) تاريخ العالم: ٤ / ٦٠٨ – ٦٠٩.

(٣) تاريخ العالم: ٤ / ٦١٨.

(٤) إدوارد كيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤) Edward Gilbbon ولد في بلدة بتني بجنوب إنكلترا، من أسرة غنية، كان أبوه عضوًا في البرلمان الإنكليزي، درس في جامعة أكسفورد، وفي لوزان بسويسرا سافر إلى أكثر من بلد، وفاز بمقعد في مجلس العموم البريطاني. يعد كتابه: (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) الذي صدر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، واحدًا من أهم الأسفار التاريخية. وقد أعيد طبعه مرارًا، وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية.

(٥) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، (عن محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١١)، وانظر الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١٢)

يتربع على قمة قمم الصادقين.. وهو لذلك يحظى باحترام كبير لدى جميع المسلمين:

فمن شهاداته حديثه عن حيوية الإسلام بقوله: (لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز على أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان، لقد صور (أكليروس القرون الوسطى) الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب)

وتحدث متأسفاً على الأباطيل التي تنتشر بين قومه عن الإسلام، فقال: (مضت على الغرب القرون وهو يقرأ كتباً ملأى بالأكاذيب على الإسلام)

وله أحاديث عذبة صادقة عن رسول الله ﷺ.. منها قوله: (لقد درست محمداً باعتباره رجلاً عظيماً فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى (منقذ البشرية)، وإنني لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما، وفي الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، لقد بدأت أوروبا الآن تعشق الإسلام، ولن يمضي القرن الحادي والعشرون حتى تكون أوروبا كله قد بدأت تستعين به في حل مشاكلها)

ومنها قوله: (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم)

ومنها قوله:(لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ)

وفي مقابل هذا تحدث عن المخاطر التي يحملها الكتاب المقدس على القيم، فقال بأسلوبه الساخر:(الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، فاحفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح، احفظوه بعيداً عن متناول الأطفال)

سكت البابا، فقلت: إني كلما قرأت كلمات هذا الرجل عن رسول الله ﷺ أشعر بأن له معه من الأحاديث ما لم تفطن لها الكتب، و لم يفطن لها المؤرخون.

قال: الأمر كذلك.. فما أكثر غفلة الكتب عن أحاديث القلوب.. وما أكثر غفلة المؤرخين عنها.

٤ ـــ أصدقاء من أمريكا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من أمريكا).. فقلت: أتكتب اسم أمريكا في كتاب يبحث عن القلوب التي تحب محمدا؟

قال: وما يمنعني من ذلك؟

قلت: إن أمريكا هي السيف الذي سلط على رقاب المسلمين، وهي القنبلة النووية التي يوشك أن تبيدهم.

قال: ألم تر في ثمار النبوة صمود شجرة الإسلام؟

قلت: بلى.. ولكن الحرب التي توجه له في هذا العصر أعتى من كل الحروب.. والوسائل التي تستخدم فيها لم تحلم بها الشياطين.

قال: ومع ذلك، فسيخرج الإسلام كشأنه كل مرة مرفوع الهامة، عالي الراية.

قلت: متى ذلك؟

قال: أنتم الذين تحددون ذلك.. عندما تصدقون مع الله لن تؤذيكم بعوضة.

قلت: إن من قومنا من يحملون أسلحة كثيرة.. وهي من أعظم دلائل الصدق.

قال: الصدق لا يحتاج إلى أسلحة.. الصدق لا يحتاج إلا للقلوب الطاهرة الممتلئة بألحان السلام..

قلت: فهل في أمريكا من يسمع للسلام؟

قال: في أمريكا من يسمع للسلام وللإسلام.. وهم كثيرون.. بل لا يكادون يحصون.

قلت: لقد ذكرتني، فقد قرأت قبل فترة، في مجلة (تايم) تحقيقاً بعنوان (الأمريكيون يولون وجوههم خمس مرات نحو مكة) قالت فيه: (إن المسلمين في أمريكا أصبح صوتهم مسموعاً، وأصبحت لهم كلمة أكثر من أي وقت مضى بعد أن كان اللوبي الصهيوني له اليد العليا، وكان الأمريكيون منذ أكثر من عشرين عاماً ينظرون إلى الإسلام على أنه من الديانات المتخلفة، ولكن بعد دخول عدد كبير من المسلمين المهاجرين إلى الإسلام سواء من السود أو البيض، بدأ الأمريكيون يغيّرون نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين في أمريكا)[1]

قال: لقد بدأت النبوءة تتحقق، فقد ذكرت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أن الإسلام ينتشر بسرعة فائقة وبصورة لافتة للنظر، وأضافت أن مدن نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وديترويت أصبحت مراكز كبرى للدين الإسلامي.

ول ديورانت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا المحل اسم (ول ديورانت) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

---

(١) انظر جريدة المسلمون، العدد ٢٧٩.

(٢) ول ديورانت W. Durant مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلدًا، واحدًا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام ١٩٣٥، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة).

الرجل هو مؤرخ الحضارات الأكبر..

قلت: أعلم ذلك.. ولكني أسألك عن شهاداته عن الإسلام.

قال: لهذا الرجل شهادات صادقة عن الإسلام، سأذكر لك منها ما تقر به عينك.

فقد تحدث عن القيم النبيلة التي يحملها القرآن الكريم، والتي ظل تأثيرها ممتدا في جميع العهود، فقال: (ظل القرآن أربعة عشر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضًا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحررًا من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرّضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض)[1]

وتحدث عن معجزة الأمية في رسول الله ﷺ، فقال: (يبدو أن أحدًا لم يعن بتعليم محمد القراءة والكتابة.. ولم يعرف عنه أنه كتب شيئًا بنفسه.. ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفًا قلّما يصل إليه أرقى الناس تعليمًا)[2]

وتحدث عن معجزة القيادة، فقال: (كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسيًا محنكًا، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم)[3]

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، والتي لم يدانيه في تحقيقها أحد من البشر، فقال: (إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانًا غيره حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العربي لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، دينًا سهلاً واضحًا قويًا، وصرحًا خلقيًا وقوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم)[1]

---

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٨ — ٦٩.

(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ٢١ — ٢٢.

(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ٣٨.

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ٤٧.

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ بالمستضعفين، فقال: (لسنا نجد في التاريخ كله مصلحًا فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء)[1]

وتحدث عن اهتمام النبي ﷺ بالعلم، فقال: (تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين)[2]

وتحدث عن قدرة العقيدة الإسلامية على توحيد الأمم المتباينة، فقال: (تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعبًا واحدًا، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام)[3]

وتحدث عن الأخلاق الإسلامية، وتميزها، فقال: (إن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية.. وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام)[4]

وقال: (كانت مبادئ المسلمين الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)[5]

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة البشرية، فقال: (أُحِلّ للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة، ولتصحّ به أجسامهم من جهة أخرى)[6]

وتحدث عن المعاني النبيلة التي ينتظمها الحج، فقال: (لفريضة الحج العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهي تقوي إيمان المسلمين واستمساكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين.. فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى والورع يجمع أبناء الشعوب الإسلامية كافة، يرتدون كلهم ثيابًا بسيطة واحدة، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام)[7]

وتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية، فقال: (الحق أن حادث الفتوحات الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى)[1]

---

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ٥٩.
(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ١٦٧.
(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٦.
(٤) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٧ – ٦٨.
(٥) قصة الحضارة: ١٣ / ١١٦.
(٦) قصة الحضارة: ١٣ / ١٢٣.
(٧) قصة الحضارة: ١٣ / ١٢٧ – ١٢٨.
(١) قصة الحضارة، ١٣ / ٧.

وتحدث عن تسامح المسلمين، فقال: (كان أهل الذمة المسيحيون، والزردشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيرًا لها في المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم.. وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم)[1]

وتحدث عن تأثير تسامح المسلمين في انتشار الإسلام، فقال: (على الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون أو بسبب هذه الخطة، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزردشتيون والوثنيين إلا عددًا قليلاً جدًا منهم، وكثيرون من اليهود.. وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، فإن هذه الأقاليم كلها انتشرت فيها العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصًا واستمساكًا أنسياهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وحتى الأندلس، وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام مئات الملايين من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية)[2]

وتحدث عن إقبال المسيحيين على الإسلام بمحض رغبتهم، فقال: (في وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكثيرًا ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين)[3]

وتحدث عن أخلاق المسلمين في الحروب، فقال: (إن المسلمين – كما يلوح – كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م)[4]

وتحدث عن النظم العادلة التي تمتعت بها الرعية في فترة طويلة من الحكم الإسلامي، فقال: (إن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله. ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء أو أن يخربوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوروبيين لكنهم لم يفعلوا هذا.. كانت العراق قبل الفتح

---

(١) قصة الحضارة، ٣ / ١٣٠ – ١٣١.
(٢) قصة الحضارة، ١٣ / ١٣٣.
(٣) قصة الحضارة، ١٣ / ٢٩٧.
(٤) قصة الحضارة، ١٣ / ٣٨٣.

الإسلامي صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جنانًا فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة، فأصبحت خصبة غنية عامرة بالسكان.. لقد أمن الخلفاء الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم، وهيأوا الفرص لذوي المواهب، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب، والفلسفة، والفنون ازدهارًا جعل آسيا الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة)[1]

وتحدث عن اهتمام المسلمين بالعلم، فقال: (في وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي إذا عرف أن الكتب التي ذكرها – ابن النديم في الفهرست – على ما نعلم لم يبق منها الآن واحد في الألف)[2]

وقال: (إن العلوم العربية نمّت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره. ولما أن أعلن روجر بيكون هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنا جابر ابن حيان بخمسمائة عام كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السبيل من عرب الأندلس وليس هذا الضياء نفسه إلا قبسًا من نور المسلمين في الشرق)[3]

وقال: (ليس هذا الجزء الباقي من تراث المسلمين إلا قسمًا ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم، وليس ما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم. وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسي فأكبر ظنّنا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشري)[4]

وتحدث عن تكريم الإسلام للمرأة، فقال: (رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب.. وقضى على عادة وأد البنات وسوّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن)[5]

وقال: (كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوروبية من ناحية هامة، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها)[6]

وقال: (كانت البنات يذهبن إلى المدارس سواء بسواء، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن)[7]

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة فيما يرتبط بالزواج، فقال: (المسلم لا يرى الامتناع عن إشباع الغريزة الجنسية حال طبيعة أو مثالية، وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء. وحدود الزواج أوسع في

---

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ١٧٠ – ١٧١.
(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ١٧٢.
(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ١٩٦.
(٤) قصة الحضارة: ١٣ / ٢١٣.
(٥) قصة الحضارة ، ١٣/٦٠.
(٦) قصة الحضارة: ١٣/١٤٠.
(٧) قصة الحضارة: ١٣/٣٠٦.

الإسلام منه في كثير من الأديان، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ولهذا قلّ البغاء في أيام النبي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم)[1]

سكت البابا، فقلت: ما أصدق شهادات هذا الرجل..

قال البابا: وهي تكتسب قيمتها من اطلاعه الواسع على الحضارات الإنسانية، فهو لا يتكلم من قوقعة ضيقة، بل يتكلم من رحاب واسعة.

واشنجتون ايرفنج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (واشنجتون ايرفنج) [2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق أمريكي، له آثار ترتبط بالإسلام والحضارة الإسلامية، وله فيها شهادات صدق يستحق عليها كل التقدير.

فقد تحدث عن شمولية القرآن وهيمنته على سائر الكتب المقدسة، فقال: (كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية)[3]

وتحدث عن القيم النبيلة التي جاء بها القرآن، فقال: (يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية)[4]

وتحدث عن رسول الله ﷺ.. بل اعتبره خاتم النبيين، فقال: (كان محمد خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله)[5]

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ ودلالتها على صدق نبوته، فقال: (كانت تصرفات الرسول في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو)[6]

وتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل دعوته، وهو من أعظم دلائل الصدق، فقال: (لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيرًا من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحًا كبيرًا، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلى عن كل متع الحياة

---

(١) قصة الحضارة: ١٣/١٣٥.

(٢) مستشرق أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة) (١٨٥٩)، وغيرها.

(٣)حياة محمد، ص ٧٢.

(٤) حياة محمد، ص ٣٠٤.

(٥) حياة محمد، ص ٧٢.

(٦) حياة محمد، ص ٧٢.

وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة)[1]

وتحدث عن خصال رسول الله ﷺ، والتي تحيل أن يكون مدعيا، فقال: (برغم انتصارات الرسول العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، و لم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثيًا لأسرته)[2]

وقال: (كان الرسول ينفق ما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيرًا ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه دينارًا أو درهمًا أو رقيقًا.. وقد خيره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة)[3]

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام، فقال: (ينهى الإسلام عن الوثنية تمامًا في جميع صورها. فقد نهى الإسلام عن جميع الطقوس الدينية في الجاهلية التي تتعلق بالوثنية، ودعا إلى توحيد الله، ولكنه احتفظ من بين هذه الطقوس بما هو بعيد عن الوثنية، مثل الحج إلى مكة والطواف بالكعبة)[4]

وتحدث عن بعض أسرار انتشار الإسلام، فقال: (عند قدوم محمد إلى المدينة اعتنق بعض أهلها من المسيحيين الإسلام. فقد وجدوا تشابهًا بين التعاليم الإنسانية في كل من الإسلام والمسيحية، و لم يلمسوا أي تعارض بين الدينين، وبخاصة أن الإسلام يضع المسيح في مقدمة الأنبياء.. أما باقي المسيحيين فلم يُبدوا أي عداء للإسلام فقد اعتبروه أفضل بكثير من الوثنية. ولا شك أن الخلافات العديدة التي كانت قد نشبت بين الطوائف المسيحية في الشرق قد مهدت الطريق أمام المسيحيين ليعتنقوا الإسلام)[5]

سكت البابا، فقلت: إن هذه شهادات مسلم.. لا مجرد شهادات صديق.

قال: صدقت.. فقد يسلم المرء من غير أن يشعر.. ولو أنه وجد من يأخذ بيده لكان اسمه غير اسمه.. ولكنت ذكرته في غير هذا الفصل.

لوثروب ستودارد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لوثروب ستودارد)[6]، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) حياة محمد، ص ٣٠٠.

(٢) حياة محمد، ص ٣٠٢ – ٣٠٣.

(٣) حياة محمد، ص ٣٠٣.

(٤) حياة محمد، ص ٧٥.

(٥) حياة محمد، ص ١٣٣ – ١٣٤.

(٦) لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: (حاضر العالم الإسلامي) من أهم المؤلفات الحديثة التي عالجت قضايا هذا العالم ومجريات أحداثه عبر النصف الأول من هذا القرن. وقد زادته قيمة علمية، التعليقات والإضافات الخصبة التي ألحقها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية.

هذا رجل ممتلئ صدقا، وقد تحدث بشهادات كثيرة كانت محل احترام جميع الصادقين، وسأذكر لك من شهاداته ما ينبئك عن فهمه العميق للإسلام، وحبه العظيم له.

لقد اعتبر الإسلام من أعجب حوادث التاريخ، فقال: (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان. ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منمطة الشأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقًا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادمًا أديانًا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال، ومغيرًا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيًا عالمًا حديثًا متراص الأركان، هو عالم الإسلام)[1]

وتحدث عن انتشار الإسلام من غير دعم أي سلطة غير سلطة الحق الذي يحمله، قال: (كلما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تقدم الإسلام وتعاليمه، زادنا ذلك العجب العجاب بهرًا فارتددنا عنه بأطراف حاسرة عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرًا بطيئًا ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه.. إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمترلة في التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض مجتازًا أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود. وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصرًا مبينًا عجيبًا، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتت راية الإسلام خفاقة من (البرانس) حتى (هملايا) ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط أفريقيا)[2]

وتحدث عن الوحدة الإسلامية التي عمقها الإسلام في نفوس المسلمين، فلم تزدها الأيام إلا قوة، قال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها في جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي. وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعصبة الإسلام لقتال المشركين. وقد أدرك محمد خطورة الجامعة وعلو مترلتها في المسلمين حق الإدراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن.. فغرس غرستها بيديه في نفوسهم، فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت أغصانها.. فقد كرّ عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني.. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ١.

(٢) حاضر العالم الإسلامي:١ / ١ – ٢.

بعروقها كدين الإسلام)[1]

وتحدث عما تميزت به العهود الأولى للإسلام ــ وهي العهود المتمسكة بالدين ــ من حرية وعدالة، فقال: (الإسلام في عهده الأول، إنما كانت شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينًا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدني بحاجب المنصف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة ليسبار: (إنما هي ديمقراطية شورية جوهرًا وأصلاً، وعدو شديد للاستبداد). وقد أجمل قامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: (ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم.. وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين.. وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرة العداء)[2]

وتحدث عن الأخوة العميقة التي ربط الإسلام بها بين شعوب مختلفة، فقال: (ليست الولادة في البلاد ولا التجنّس على الأصول الرسمية شرطًا لمن يريد أن يكون فردًا من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار، متمتعًا حق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية. فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال أي وقتًا شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمترلة بين ظهراني القوم. فالعبارة (مصر للمصريين) مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي نتصوره نحن في الجاري المعتاد. فإذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره (مصريًا وطنيًا حرًا) بصحيح معنى العبارة. والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين والوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية. فجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين (بدور الإسلام) وضدها (دار الحرب) وهي المواطن التي يقطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة، الذبّ عن سياجها والذود عن حياضها، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفًا من العالم الإسلامي، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد، على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك، كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء)[3]

وقال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي.. لقد كر أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت الجامعة شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني. ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديدًا، بيد أن هذا ليس له من الشأن أكثر مما ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام، إذ لا حقد في الإسلام، فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين، فيعملوا على

---

(١) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ٢٨٧ — ٢٨٨.
(٢) حاضر العالم الإسلامي: ٤ / ٤٣ — ٤٤.
(٣) حاضر العالم الإسلامي: ٤ / ١٢٢.

الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جموعًا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم وردّ الخطر الداهم. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكي كي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروقها كدين الإسلام)[1]

وقال: (أي شيء أدل على هياج الإسلام وغليان مراجل عقده من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليونًا من المسلمين في الهند احتجاجًا على تجزئة الدولة العثمانية، والأمر الأخطر أن هذا الثوران الإسلامي ليس مقصورًا على الهند فحسب، بل إنه شامل المعمور الإسلامي)[2]

وقال: (لا يغرب عن البال أن الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التي تجمع بين المسلم والمسلم ما انفكت تزيد في تواثق المسلمين وتآلفهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأنهم في المعمور الإسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر. دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم)[3]

وتحدث عن أسرار انتصار الإسلام، فقال: (كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه، أكبرها أخلاق العرب، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته والحالة العامة التي كان عليها الشرق المعاصر في ذلك العهد.. لقد استطاع محمد، وهو يبشر بالوحدانية تبشيرًا عاريًا عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية الكامنة.. وإذ هبوا لنصرة دعوة ابن عبد الله – من بعد ما ذهبت من صدورهم الأحقاد المزمنة والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم – وانضم بعضهم على بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسها نور للناس وهدى للعالمين، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الواحد)[4]

وقال: (لم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجًا، إيثارًا له.. على دينك الدينيين الذين صارا غاية في الانحطاط والتدنّي.. ولم يكن العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضدّ من ذلك، أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا)[5]

وقال: (عند اعتبار شأن انتشار الإسلام هذا الانتشار يجب أن تعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك أن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم.. بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج على

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٢٨٧ – ٢٨٨.
(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢٤.
(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢٧.
(٤) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ٢.
(٥) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣ – ٤.

اختلاف الأجناس. ولا يؤخذن من هذا أن لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلامية فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان.. وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي أفريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيب من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر. فقد قال أحد الإنكليز في هذه الصدد منذ عشرين سنة (إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزًا عظيمًا حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من حلول الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات). وقال مبشر بروتستنتي فرنسي (ما برح الإسلام يتقدم منذ نشوئه حتى اليوم فلم يعثر في سبيله إلا القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية مذللاً أشق المصاعب ومجتازًا أشد الصعاب، غير واهن العزم فالإسلام حقًا لا يرهب في سبيله شيئًا، وهو لا ينظر إلى النصرانية، منازعته الشديدة، نظرة المقت والازدراء، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح أفريقية في نومهم، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم)[1]

وقال: (العرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضدّ من ذلك، أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسّجايا توّاقة إلى ارتشاف العلوم، محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة. وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج وتلقيح الأفكار، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعًا وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية، وهي جماع متجدد للتهذيب اليوناني والروماني والفارسي، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحًا جديدة، فنضر وأزهر، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامية، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علوًا كبيرًا. وقد سارت الممالك الإسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠-١٠٠٠م) أحسن سير، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقيًا، وتقدمًا وعمرانًا، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن علومهم، يشعان إشعاعًا باهرًا. طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الإسلامي يضيء على الغرب النصراني نورًا)[2]

وتحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (كان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره، فلا ضيّقوا على النصارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من فجاج العالم النصراني)[3]

وتحدث عن صمود الإسلام عبر التاريخ، فقال: (لا شيء أدل على هذه النهضة الإسلامية الحديثة الكبرى من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الأخيرة ولا غرابة في ذلك فقد كان الإسلام على الدوام دين هداية للناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، هذا التاريخ شاهد

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٠١ — ٣٠٢.
(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣ — ٤.
(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٣ - ١٤.

حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الإسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين. ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام، على انحطاط الممالك الإسلامية وتدنيها. فلذلك ما انفك الإسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نائي تلك الأصقاع، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان، وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفيلبين فتحًا دينيًا مبينًا)[1]

وقال: (لقد تحرك (الشرق الجامد) أخيرًا حتى القرارة القصوى من أعماقه وهو اليوم في أشد ما يكون من الانفعال والهياج والفوران. وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يخال الخائل ويتصور المتصوّر. فالعالم الإسلامي الذي ظلت قواه العقلية والروحية هاجعة ما يقرب من ألف سنة، قد استيقظ مرة أخرى وطغت قواه تعمل عملها العجيب، وغدا المسلمون يعظمون شأنًا من جديد ويعلون منزلة في الأرض)

وتحدث عن الحضارة الإسلامية، فقال: (الإسلام، وهو هذا الدين البيّن الصريح، ما كان ليقيّد عقل العربي ويلقي عليه سجوفًا فوق سجوف. والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده واشتعلت غيرته، فبات توّاقًا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكيف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزمانًا في فيافي الصحراء.. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعّم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة. فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام. فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارًا كان فخر الحضارة العربية ودرة تاجها. وكان ردح من الزمن كانت فيه الحضارة مشرقة الشموس، يانعة الثمار، وارفة الظلال. فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول، واستنبطت الأحكام. بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلام يذوقون الأمرّين، ويسامون خسفًا شديدًا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البيزنطية والمجوسية الفارسية)[2]

وقال: (إن الشعوب الآسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين.. ذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي، حضارة هي نتاج إسلامي صرف، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم. ومتى أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الإسلامية من تشييد المعالي، وبلوغ ذروات المجد فيما مضى، أمنّا الخطل بقولنا الآن أننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الإسلامي تجددًا حقيقيًا، صحيحًا رائعًا، ولا غرابة في ذلك أن عاد الإسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاه السالف، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٠٠ – ٣٠١.
(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٨.

الحضارة والعمران)[1]

قلت: إن كلمات هذا الرجل تكاد تسلم.

قال: بل إنها أسلمت.. فهذه الكلمات لا يقولها إلا مسلم معتز بإسلامه.

هارولد ب. سمث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هارولد ب. سمث)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالنظم الإنسانية، وقد رأى في الإسلام من الصلاحية ما لم يره بعض المسلمين أنفسهم، وقد دعاه ذلك إلى أن يشهد شهادات صادقة تنم عن فهمه العميق للإسلام.

فقد تحدث بفهم عميق عن نظرة الإسلام لمسؤولية الإنسان عن تصرفاته، والتي تقوم على أساسها النظم الأخلاقية، فقال: (كل إنسان ذو أخلاقية حرة، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله.. والله يرشد الإنسان عن طريق الوحي إلى مبادئ أخلاقية عامة منبعثة عن إرادته الأبدية المقدسة. إلا أن في الإنسان قوة كامنة، إذ أن في استطاعته أن يتقبل هدى الله أو يتحول عنه. وهناك آية هامة:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:٧٢) لا يتحقق معناها إلا على أساس التسليم بالحرية الإنسانية، فقد عرض الله على جميع مخلوقاته مسؤولية المحافظة على الإيمان، وإدارة العالم باسم الله، فقبل الإنسان أن يحمل هذا العبء، على حين رفضته سائر المخلوقات خوفًا وإشفاقًا. ومع أن الإنسان لم يرع ذلك الإيمان، و لم يدر العالم إدارة ذات قيمة، وسلك مسلك الظلم والجهل، فإن في هذا سر عظمته وخطيئته جميعًا. فلو لم يكن الإنسان حرًا ما ارتكب الخطيئة، ولو لم يكن حرًا ما ساغ أن يحمل الأمانة)[3]

وتحدث عن أصل الإجماع، وعلاقته بالديمقراطية، فقال: (لما تطور التشريع، وجد مبدأ يمكن أن يكون له القدرة على إخماد النزعات الاستبدادية لبعض الحكام أو الفقهاء، ذلك هو مبدأ الإجماع الذي يعتبر مظهرًا للإرادة العامة. وعلى الرغم من أن الإجماع، في نظر الدقة الفقهية، مقصور على ذوي الدراية من الفقهاء، إنه يحمل في طواياه بذرة مبدأ ديمقراطي، وكان له أحيانًا عند التطبيق.. أثر كبير في التعبير عن إجماع أعم من إجماع صفوة قليلة. أما ما يقع من الأفراد من إساءة استعمال للقوانين، أو من عثرات أخلاقية، فإن الإرادة العامة تقومه، أو من شأنها أن تقومه مع مرور الزمن)[4]

ويتحدث عن جمع الإسلام بين الفردية والجماعية، فيقول: (يعد الفرد في الإسلام مهمًا لأنه وحدة من القوة الأخلاقية وفي العرف الإسلامي تصور آخر يتعلق بالفرد في الجماعة ويمنح الناس وسيلة للترابط،

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، ٤ / ٢.

(٢) د. هارولد ب. سمث Harold B. Smith أستاذ، ونائب رئيس قسم الديانات بكلية (ووستر)، بولايـــة أوهـــايو، وكان رئيسًا لقسم الفلسفة والأخلاق (بالجامعة الأمريكية) بالقاهرة.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٠ – ٦١.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٣.

وإحساسًا بالاتحاد لا يوجد أحيانًا في التصورات الغربية الحديثة للإنسان. هذه الشخصية المتحدة يعمل على تكوينها التصور الخاص (بدار الإسلام) أي تآخي المؤمنين. وليس هذا التصور مجرد تفكير نظري، إنه واقع غير محسوس يضفي على كل مسلم شعورًا بالترابط الوجداني في سمع كل مسلم آخر، كما يهبه إحساسًا بالأمن. فهو ينتمي إلى كل يعلو على فروق اللون، والطبقة، والجنسية (بالمعنى الغربي للكلمة)، ونظم الدولة. إنه يستطيع أن يحس بأنه في داره في أرض شاسعة متناثرة من الساحل الأطلنطي لأفريقيا إلى قلب المحيط الهادي، حيثما كان الإسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة. كل هذا يخلق، أو هو قادر على أن يخلق، روحًا جماعيًا، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة.. وينبغي أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامي، أو أي قسم من أقسامه، مصدر غير إسلامي.. إن هذه الرابطة قوة حقيقة وفي الإمكان أن تصبح عامل تقوية في العالم الإسلامي كله)[1]

ويقول: (إن في التصور الإسلامي للإنسان اتجاهًا جمعيًا. فإدراك الإنسان أنه ينتمي إلى كل أكبر، وارتباطه بغيره ممن ينتمون إلى نفس الجماعة التي تؤمن إيمانه، يهيئان للحياة الفردية وضعًا اجتماعيًا ليس له في الغالب وجود في الغرب الذي يترع إلى الفردية. فالأخوة في الإسلام تهب قوة، وأمنًا ومجالاً من الوعي المشترك قد ينتج عنها ذلك النوع من الترابط الذي يتجاوز حدود الأوطان والأجناس، والذي يعمل الناس متلهفين في سبيل تحقيقه في سائر بلاد العالم)[2]

وهو يعتبر رد الإسلام على الشيوعية بمفاهيمها الفلسفية ردا منطقيا، فيقول: (إن الإسلام لا يمكن إطلاقًا أن يتفق والجبرية الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ.. فالإنسان لا تتحكم فيه المادة أو القوى الاقتصادية، إذ إنه في جوهره موجود روحي، ذو صلة بالله، ومن ثم كان كائنًا أخلاقيًا حرًا. وأن الله — لا المادة — هو المتصرف في الحركات التاريخية)[3]

ولهذا يرى أن العالم الإسلامي يمكنه الاستغناء بنظامه عن الشيوعية، قال: (إن العالم الإسلامي في وضع يسمح له أن ينمّي فلسفته الخاصة المتميزة دون أن يدفعه التقليد الأعمى إلى اتباع الأشكال الشيوعية، أو النظرية السياسية الغربية التي تتجه إلى الفردية.. لقد رأينا أن الإسلام يعترف بالقيمة الذاتية للأفراد، باعتبارهم مدينين بوجودهم لله، ومسؤولين أمامه عن أعمالهم. وهذا يعني أنه لا يمكن لأي فرد أن يندمج اندماجًا كاملاً في بناء إجماعي قاهر مثل البناء الشيوعي. إن الشيوعية — من الوجهتين النظرية والعملية — تستغني عن الفرد إن لم يخدم غرض الدولة.. دون نقاش، وهذا لا يمكن أن يكون في مجتمع إسلامي)[4]

ويتحدث عن (تآلف المستضعفين) الذي نادى به القرآن [1]، فقال: (أنه لو أمكن إثارة التماسك الإسلامي

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٣ — ٦٤.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(١) وذلك في قوله ﷻ:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾(النساء:٧٥)، انظر في هذا رسالة (ثمار

في سبيل أغراض إيجابية، وتكتيل الأمم الإسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية، لأمكن أن تصير هذه الوحدة قوة إيجابية في العالم.. بل إن هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية إذا أدخلت في نطاقها من سواها، وإذا بلغ من سماحتها أن تشرد في وجدانها وفي أخوتها كل مخلوقات الله. ما أروع أن تحتج باكستان على مظالم حلّت بأمة أخرى، شديدة البعد عنها جغرافيًا، لأن تلك الأمة تنتمي إلى جماعة الأمم الإسلامية! وأروع منه وأجدر أن يضيء طرقًا جديدة في عالمنا الذي مزقته الحرب، أن تنهض أمة إسلامية — باسم المقاصد الحقّة التي يوجه إليها الله الواحد، وباسم الرابطة التي تربط بني الإنسان — محتجة على ظلم أصاب أي شعب ولو كان خارج الكتلة الإسلامية)[1]

ويقول: (من حيث العلاقات الدولية، فإن الأمم الإسلامية، أو الجماعة الإسلامية الكبرى، يجب أن تكون في طليعة المنتصرين لخلق نوع من المجتمع العالمي من الأمم، ومن العاملين على إيجاد مثل ذلك المجتمع الذي ينظمه ويسيطر عليه قانون دوليّ)[2]

قلت: لقد نصح المسلمين.. فليتهم سمعوا له.

قال: لقد انشغلوا بسماع كلمات الأعداء عن كلمات الأصدقاء.

سدني فيشر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سدني فيشر) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين له شهادات صادقة:

منها شهادته حول تأثير القرآن الكريم في النفوس والأسماع، قال: (إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتمادًا على أثره البليغ في قلوب قرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع)[4]

ومنها شهادته عن القيم التي جاء بها القرآن الكريم، قال: (إن القرآن كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلامًا عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره)[1]

من شجرة النبوة)، فصل(خلاص) من هذه السلسلة.

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥ — ٧٦.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٧.

(٣) الدكتور سدني فيشر Sydney Fisher أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعـددة في شؤون البلاد الشرقية التي يدين الأكثرون من أبنائها بالإسلام. مؤلف كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

(٤) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.

(١) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.

وتحدث عن الجمال والمصداقية التي تتسم بها العقيدة الإسلامية، فقال: (إن الوحدانية المترهة هي أجل مطالب الإيمان عند النبي ويوصف الإله مع الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران.. إن توكيد صفات البأس والجبروت في كتاب الإسلام إنما تقدم في أوائل الدعوة التي واجه بها النبي جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكي المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة، وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وأنه هو نور السماوات والأرض، وهي الصفة.. التي كان لها أبعد الأثر في اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية)[1]

ومنها شهادته عن الثمرات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، قال: (إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع في شؤون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية، لم يكن في وسع أحد إلا أن يحب محمدًا نبيًا مفلحًا جدًا ومصلحًا موفقًا لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة والفحشاء، ويعامل فيها الأرامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع. فإذا بمحمد وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبل الخلاص، وغيّر مقاييس الأخلاق والآداب في أرجاء البلاد العربية)[2]

قلت: إن شهادات هذا الرجل لا تقل عن الشهادة التي ينطق بها من أسلم.

قال: صدقت.. فمثل هذه الشهادات لا يمكن إلا أن تصدر من لحظة من لحظات الإيمان الصادق.

مايكل هارث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مايكل هارث) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب منصف أراد أن يصنف الأبطال، فوجد محمدا على رأسهم، وقد ذكر سر هذا التصنيف، فقال: (إن اختياري لمحمد ليكون رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيرًا من القراء.. ولكن في اعتقادي أن محمدًا كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي)[4]

وقال: (لقد أسس محمد ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قويًا وعارمًا)[5]

وقال: (من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمدًا كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح)[1]

---

(١) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.

(٢) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤ — ٥٥.

(٣) الدكتور مايكل هارث Michael Hart أمريكي، حصل على عدة شهادات في العلوم وعلى الدكتوراه في الفلك من جامعة برنستون، عام ١٩٧٢، عمل في مراكز الأبحاث والمراصد، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.

(٤) دراسة في المائة الأوائل، ص ١٩.

(٥) دراسة في المائة الأوائل، ص ١٩.

(١) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٣.

وقال: (إن محمدًا يختلف عن المسيح بأنه كان زعيمًا دنيويًا فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمدًا يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال)[1]

وقال: (إن هذا الاتحاد الفريد لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معًا يخول محمدًا أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية)[2]

جورج كمبل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جورج كمبل) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكر هذا الرجل الإسلام، فقال: (لا يقتصر نفور الأفريقي من السير على المنهاج الغربي، بل يتعداه إلى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الأفريقي والظروف الأفريقية، مع تفضيل الإسلام – لتسليمه بمواطن الضعف الإنساني وإغضائه عن فوارق الألوان – على المسيحية بما تدعو إليه من الدقة وتشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة، فضلاً عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة)[4]

د. ميلر بروز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. ميلر بروز) [5]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم ابتداء من مصادره الأصلية.

ومن شهاداته المرتبطة بهذا ذكره لتوجيه القرآن للاهتمام بالعلوم المختلفة، قال:(إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (يونس: ٥) وكثيرًا ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان:﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف: ١٣) ويذكر القرآن – لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب

---

(١) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٤.

(٢) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٥.

(٣) جورج كمبل G. Kimble رئيس قسم الجغرافية بجامعة إنديانا الأمريكية، مؤلف كتاب (أفريقيـــة الاســـتوائية) في مجلدين.

(٤) إفريقية الاستوائية، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ص ١١٢ – ١١٣.

(٥) د. ميلر بروز، هو رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (ييل). وعمل أســـتاذًا بجامعة براون، وأستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديرًا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس، ومن مؤلفاته:

.Founders of Great Religions, ١٩٣١

.What means these Stones, ١٩٤١

.Palestine our Business, ١٩٤١

– ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟»[1]

ومنها استنتاجه من القرآن الكريم ما يحمله العلم من نواحي النفع والضرر، قال: (إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم في أغراض هدمية أو بنائية. وربما كان هذا هو المقصود بما ورد في القرآن خاصًا باستخدام الحديد:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: ٢٥) وأظهر مثال من هذه الآية بالضرورة هو استخدام النشاط الذري – الذي نشطت بحوثه – لضرورة حربية)[2]

ومنها حديثه عن سبق المسلمين لأسس العلم الحديث، وحوارهم مع غيرهم من أهل الأديان، قال: (في العصر الذهبي للثقافة الإسلامية، حينما كان علماء المسلمين يفهمون أسس العلم الحديث، كان المفكرون من المسلمين والمسيحيين يبحثون معًا معضلاتهم الفلسفية واللاهوتية المشتركة، ويفيد بعضهم من بعض كثيرًا من ضروب المعرفة)[3]

ومنها حديثه عن اهتمام المسلمين بالطب، وخدمتهم له: (هل يستطيع العلم حقيقة أن يخدم أغراض الدين؟ صحيح أن العلم قد قام بنصيب كبير في إسعاد الإنسان، ويظهر هذا أكثر ما يظهر في ذلك العلم الذي خدمه علماء الإسلام خدمة ظاهرة، وهو علم الطب)[4]

فرانز روزنثال:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فرانز روزنثال) [5]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالمآثر الحضارية الإسلامية، وخاصة ما ارتبط منها بالتاريخ.

فقد أرجع اهتمام المسلمين بالتاريخ إلى توفر المادة التاريخية في القرآن، قال: (من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة[1]، وقد ذكر الرسول أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول.. وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي لأن الأحداث

---

(١) الثقافة الإسلامية، ص ٥١.

(٢) الثقافة الإسلامية، ص ٥٤.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٤٢.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٥١.

(٥) فرانز روزنثال F. Rosenthal من أساتذة جامعة ييل، من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة مثل (الثقافة الإسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية). كما ألف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين).

(١) انظر في هذا: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (ربانية) من هذه السلسلة.

التي أشارت إليه الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية)[1]

ومثل ذلك ما ورد في الأحاديث النبوية، فهي أيضا من دوافع الاهتمام بالتاريخ لدى المسلمين، قال: (إن أفكار الرسول التي تلقاها وحيًا أو التي أدى إليها اجتهاده نشّطت دراسة التاريخ نشاطًا لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضي وحوادث كافة شعوب الأرض أمورًا ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول كانت خطًا فاصلاً واضحًا في كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامي هذا الخط قط)[2]

بل هو ينسب تأسيس الاهتمام بالتاريخ للرسول ﷺ، فيقول: (تبقى حقيقة، هي أن الرسول نفسه وضع البذور التي نجني منها اهتمامًا واسعًا بالتاريخ.. لقد كان التاريخ يملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم في تقديم نمو التاريخ الإسلامي في المستقبل، رغم أن الرسول لم يتنبأ بالنمو الهائل للمعرفة والعلم الذي سيتم باسم دينه)[3]

وتحدث عن وضوح الإسلام مقارنة باليهودية والنصرانية، قال: (عندما ظهر الرسول كانت اليهودية والنصرانية منتشرين في الجزيرة ولهما آراء متشابهة في التفسير التاريخي للحياة الإنسانية غير أن الدين الإسلامي الذي بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدًا ومن غير تعسّف. والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جمودًا من ناحية العقيدة، ومن مفاهيم اليهود والنصارى الدينية)[4]

وتحدث عن إعجابه بالحضارة الإسلامية، فقال: (إن نمو المدنية الإسلامية من أروع الأحداث في تاريخ الفكر الإنساني وسيبقى مثار أعظم الإعجاب. ولكن لا يمكن اعتبار هذه المدنية أمرًا غامضًا أو معجزة، ولعلها كانت معجزة من حيث حدوثها بسرعة عجيبة لدرجة أنها كملت بعد بدئها بوقت قصير. وقد يمكن أن نعتبرها غامضة من حيث أن كل عمل من الإبداع الفكري، وكل ازدهار في أية مدنية هما أمران لا يحصرهما الإدراك الإنساني التام، أما في الإسلام فإننا نجد أن الأسباب والظروف التي أوجدت المدنية الإسلامية أشد وضوحًا من الأسباب والنتائج التي أوجدت معظم المدنيات الأخرى)[5]

وقال: (لقد استطاع الإسلام بفضل الله ثم بفضل أنظمته العسكرية والظروف التاريخية الملائمة أن يكتسح في زمن قصير بلادًا كانت تتمثل فيها جميع المنجزات الفكرية القائمة آنذاك، وسرعان ما أخذت حضارته تتبنى لنفسها هذه المنجزات بقيامها بحركة ترجمة واسعة واقتباس كبير. ونظرًا لأنها حركة روحية جديدة فقد اضطرت إلى عرض معتقداتها لخصومها، وإلى أن تدافع عن علّة وجودها وكان عليها باعتبارها طريقة جديدة في الحياة، أن تصلح المؤسسات الإدارية التي وجدتها في مختلف الأقاليم، وفوق كل هذا فبتقدم الإسلام تهاوت

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤١ – ٤٢.
(٢) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٠.
(٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٥.
(٤) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٩.
(٥) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٥ – ٤٦.

الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة وبروح من المنافسة الحرّة. وقد تمت في القرن التاسع الميلادي الفترة التكوينية لهذه العمليات وصار كل فرع من فروع المعرفة في الإسلام تتحكم فيه منذ ذلك الوقت قوانين وتقاليد المدنية الإسلامية المستقلة)[1]

وقال: (يقول فون كريمر عند وصفه النشاط العلمي عند المسلمين: (أن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليًا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم. فإنهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبين حين يلاحظون ويمحّصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيرًا عندما يكون في نطاق الرواية والوصف. ولذا يحتل التاريخ والجغرافيا المقام الأول في أدبهم وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة، وبصفتهم مفكرين مبدعين فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك. وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم)[2]

وهو يرد على تشويه بعض المستشرقين للمنهج العلمي الذي مارسه المسلمون، فيقول: (وكثيرًا ما يشوه آراء الغربيين في البحث العلمي عند المسلمين شعورهم بالتفوق والعلوّ شعورًا لا يرتكز على منطق. فمن العجيب حقًا أن نسمع عالمًا أوروبيًا يقول عن ياقوت الذي يرفض تصديق إحدى القصص: (يندر جدًا أن يبدو ياقوت بهذا التعقل وهذه الرصانة) في الوقت الذي نعلم فيه أن هذا المؤلف الغربي، بقطع النظر عن مؤهلاته العلمية، يبدو قزّمًا إذا ما قيس بياقوت الحموي)[3]

وهو يذكر اهتمام المسلمين بالكتب، فيقول: (كانت المكتبة الخاصة، بالنسبة للعالم المسلم، أعزّ ما يملكه، وكان فقدها كارثة تترك في نفسه ألمًا أشد من اللم الذي يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه)[4]

مارتن بلسنر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارتن بلسنر) [5]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات عن امتداد تأثير العلوم الإسلامية في الغرب، من قوله: (لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر)[1]

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٦.

(٢) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ١٥.

(٣) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ١٨ – ١٩.

(٤) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ٤٩.

(٥) مارتن بلسنر M. Plessner محاضر في معهد العلوم الشرقية بجامعة فرانكفورت. وقد وقف نشاطه على إحصاء ما عرّب من الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية لدى اليونان في العصور الوسطى.

من آثاره: كتب العديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة ومنها (المخطوطات العربية في استنبول وقونية ودمشق) و(ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية) كما كتب العديد من المفردات في دائرة المعارف الإسلامية.

(١) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزوث)، ٣ / ٧٩.

وقال: (أصبح تأثير العلوم عند المسلمين على الغرب ممكنًا في المقام الأول نتيجة للفتوح العربية في غرب البحر الأبيض المتوسط. فقد ترك وجود العرب حوالي ثمانمائة عام في شبه جزيرة إيبريا علامات لا تمحى على الأرض الإيبرية وعلى الفنون، واللغات التي يتكلمها الناس هناك.. وبالرغم من أن فترة حكم العرب في صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا كانت قصيرة، وأن استمرار التأثير الثقافي للعرب كان أقصر عمرًا، فإن هذا التأثير لم يكن في جملته، أقل شدة مما كان عليه في شبه جزيرة إيبريا)[1]

وقال: (لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التي عمّت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا. ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة. والأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقلّ للمسلمين أنفسهم)[2]

وقال: (أضحت اللغة العربية أداة العلم الإسلامي الرئيسية وقامت في المشرق بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في الغرب.. ولم تحتل اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها ولكن الموقع المركزي لها بوصفها لغة الدين الإسلامي والإدارة هو الذي أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية)[3]

---

(١) تراث الإسلام، ٣ / ٧٩.
(٢) تراث الإسلام، ٣ / ٨١.
(٣) تراث الإسلام، ٣ / ٨٢، وعن إنجازات المسلمين في ميدان الطب والصيدلية، انظر: المرجع نفسه ٣/١٠٠-١٠٢، ١١٨-١١٩، ١٢١-١٢٨، ١٤١-١٤٨.

٥ ــ أصدقاء من ألمانيا

قلبت بعض الصفحات، فرأيت عنوان (أصدقاء من ألمانيا)، فقلت: هذه بلدك ومسقط رأسك، وهي بلد الفلاسفة والعلوم.. وبلد القوة والبطش.. ألنا فيها أصدقاء؟

قال: أجل.. فيها أصدقاء كثيرون.. وإخوان كثيرون.. وفيها إلى جانبهم كثير من الذين ينتظرون عناوينكم ليبادلوكم الصداقة.

قلت: مرحبا بكل صديق..

قال: رحبوا بأفعالكم، لا بأقوالكم.. فقومي يؤمنون بالقوة ويدينون لها.

قلت: قوة السلاح.

قال: لا.. فتلك أضعف القوى.

قلت: فما القوة التي نحتاجها؟

قال: قوة الإيمان والصدق والإخلاص.. وقوة الحضارة والرقي.. وقوة السلوك والترفع.

قلت: هذه قوى عظيمة؟

قال: لن تنتصروا إلا بها.

زيغريد هونكه:

كان من أول الأسماء التي رأيتها في هذا المحل (زيغريد هونكه)[1]، فقلت: هذه هي المرأة التي حدثتني حديثها في رحلتك السابقة[2].

قال: أجل.. وهي صديقةطيبة، وأخت فاضلة..

قلت: أخت في الدين !؟

قال: يمكنك أن تقول ذلك [3].. وشهاداتها لا تنطق إلا بذلك.

---

(١) دكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke مستشرقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكه مع زوجها عامين اثنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (١٩٩٥)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة.وقد سبق الحديث معها في الجزء السابق.

(٢) أجريبا الحوار الافتراضي معها في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (علوم)

(٣) ذكرنا في هامش الرسالة الماضية أن هناك من أخبر عن إسلامها، ولا بأس من إعادة ما ذكرناه هنا.. فقد ورد في مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه ــ لم أجد اسمه ــ :« ويطيب لي هنا أن أُثَلِّثَ بثالثة الأثافي، قصة العالمة الألمانية زيغريد هونكة صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) والذي بينتْ فيه، كما هو معلوم، فضل حضارة المسلمين وتمدنهم على الغرب ونهضته الأخيرة بعد عصور الظلام التي غطتْ أوروبا في غطيطها قرونا طويلة.. زيغريد هونكة التي

قلت: فحدثني أحاديثها.. فما أعذب أحاديثها.

قال: إن معظم شهاداتها ترتبط بالثمرات العظيمة التي حققتها النبوة.. فهي من قوم يزنون النجاح والفشل بالمنجزات.

ومن ذلك مقارنتها بين دعوة الإسلام للعلم واهتمامه به، بالمسيحية التي احتقرت العلم، قالت: (لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان.. ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول Paulus مقرًا: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدّدا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها)[1]

وقالت: (لم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب، بل كانت منبرًا للعلوم والمعارف، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التديّن الأعمى. ألم يقل أقوالاً، كان يكفي لأن يقولها في روما حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة؟ أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟)[2]

وتحدثت عن الثراء الفكري للإسلام، والذي حصل بسبب مناقشته للأديان الأخرى، فالإسلام لم يستفد من مناظرته لمخالفيه إلا قوة، قالت: (لم تلبث الديانة الإسلامية الفتية السائرة في طريقها بعزم وثبات، أن

تَمَلّك حبُّ العرب وثقافتِهم ومجدِهم شَغاف قلبها بما لا يكاد أن يكون له مثيل بين الأوربيين وأحبتْ الإسلام لحبها لهم ولعلمها بأنه هو الذي أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثني بخبرها الدكتور علي الدفاّع عالم الرياضيات المعروف في جامعة البترول بالظهران بنفسه مشافهة قال: كنت في أحد المؤتمرات العلمية في أوربا وقد تحدثتُ إلى الدكتورة هونكة وكنت مطلعا على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا ورأيتُها وقد كبرتْ سِنُّها قلت لها: إن لي حلما جميلا أرجو له أن يتحقق!! فقالت لي: وما هذا الحلم.. قال فأجبتُها: بأن حياتك العلمية والثقافيةَ الطويلة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم أرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة وهذه السيرة العلمية المميزة تكملة جميلة وأن تختم بأحسن ختام وذاك بأن تدخلي في الإسلام!! قال محدثي: وقد رأيتُ عينيها اغرورقتا بالدموع ثم قالت لي بالعربية الفصيحة:« بيني وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى » قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة رحمها الله..

وعندما سُئلتْ في أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصيحتها للمرأة العربية التي تريد طي الماضي وخلع الحجاب، قالت زيغريد هونكة:«.. لا ينبغي لها أن تتخذ المرأة الأوربية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقدي مهما كان مصدره، لأن في ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغي عليها أن تستمسك بهدي الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فُطرنَ عليها، وأن تلتمس العربيةُ لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة الممثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه »

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٩.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٩٦.

اصطدمت بالديانات الأخرى في كل مكان. فهنا يقف رجال المذاهب المسيحية وجهًا لوجه أمام رجال المذاهب الإسلامية على أتم استعداد للمجادلة، وهنا تقسم هذه المجادلات واختلاف وجهات النظر المسلمين أنفهسم إلى مدارس ومذاهب، وكان من الممكن أن يؤدي هذا إلى نهاية النهضة العربية الإسلامية وهي في مهدها. ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك تمامًا، فإن إكراه الإسلام للفتى على أن يجرب قواه الفكرية مع ديانات وفلسفات أخرى في محاجات فكرية وفلسفية قد أفاده أكبر إفادة وأكسبه خبرة ومرانًا)[1]

وتحدثت بإعجاب عن صفاء التوحيد في الإسلام، وخلو العبودية فيه من الاستعباد للوسائط، قالت: (الإسلام لا يعرف وسيطًا بين العبد والرب.. ولم يكن لديه طبقة من الكهنة.. وعلى العموم فإن مجال حرية الرأي كان أوسع مما هو عليه الحال في الديانات الأخرى)[2]

وقارنت في هذا المجال بين المسجد والكنيسة، فقالت: (لم يكن المسجد تقليدًا للكنيسة بالمرة، حتى ولو ارتفعت سقوفه فوق عمد، كانت يومًا ما، تحمل سقف كنيسة. فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفيًا، وليس معنويًا، إلى مملكة السماء التي يحكمها المسيح وإلى البيت المقدس الذي هبط من السماء إلى الأرض. وظلت الكنيسة تحمل هذا المعنى على مر العصور.. أما المسجد فقد تحرر من تلك الأفكار، وكان هدفه بسيطًا واقعيًا. فالعالم كله مسجد كبير بني لله.. ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربّه، فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على أن يؤم المصلين في المسجد.. فالجامع هو الذي يجمع المسلمين. وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته، كالكنيسة، على بقية منازل الناس ومساكنهم. ولهذا لم يهتمّ المسلمون كثيرًا بمظهر المساجد الخارجي. والصلاة للجميع على قدم المساواة فيقف العالم بجوار السقاء وقائد الجيش بجوار الجندي، والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين.. فالكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيدًا من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات.. والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعيًا أو حسيًا فهو بيت الله، والله واحد لا شريك له ولم يكن له كفوًا أحد)[3]

وتحدثت عن سماحة المسلمين رغم قوتهم، واعتبرت ذلك من أهم عوامل الانتصار: (لعلّ من أهمّ عوامل انتصارات العرب ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عددًا ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٢، وهذا ما يدعو إلى الاستفادة من تراث المسلمين جميعا بمدارسهم جميعا، فلا يمكن أن يمثل الإسلام في وظيفته الدعوية مدرسة واحدة، فالعقول المختلفة تستدعي تنوعا في الطرح.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٣.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٧ — ٤٧٩.

والمخالفين لها في العقيدة بمثل ما فعل العرب. وكان لمسلكهم هذا أطيب الأثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية ببريقها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة)[1]

وقالت:(﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)(البقرة: من الآية٢٥٦) هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام. فالمسيحيون والزرادشتيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعًا دون أي عائق يمنعهم، بممارسة شعائر دينهم. وترك لهم المسلمون بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى. أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الإسبان واضطهادات اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع الميلادي لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: (أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف)[2]

وقالت: (إن الإنسانية والتسامح العربي هما اللذان دفعا الشعوب ذات الديانة المختلفة إلى أن تعيش في انسجام مدهش.. وأن تبدأ نموها وتوسعها وازدهارها ولأول مرة يتحرر أصحاب المذاهب المسيحية.. من اضطهاد كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر.. واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلقه الكريم وسلوكه الحميد. فكسب بذلك لدينه عددًا وفيرًا لم تكن أية دعاوى مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله)[3]

وقالت: (إن الأديرة المسيحية في سورية، التي كادت أن تنمحي في عصر الحكم المسيحي وصلت إلى ذروة عظمتها في الدولة الإسلامية، أو ليس هذا بغريب؟)[4]

وقالت: (أو ليس من العجيب أن نتساءل لماذا نفسر كما يحلو لنا، والعرب المسلمون قد فتحوا فعلاً جزءًا من أوروبا هو الأندلس، فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن شار مارتل قد حماها، و لم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود؟!)[5]

وتحدثت عن الإجحاف الذي قابل به الغرب الحضارة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، فقالت: (يخيّل إليّ أن الوقت قد حان للتحدث عن شعب قد أثّر بقوة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له الغرب، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير. وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مائة كتاب تاريخي، لا يجد اسمًا لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها)[6]

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٥٧ – ٣٥٨.
(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٤.
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٦.
(٤) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٨.
(٥) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٤٠.
(٦) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٠.

وتحدثت عن تأثير الحضارة الإسلامية في أوروبا، فقالت: (إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين — والتاريخ شاهد على ذلك — في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يومًا من الأيام قاتمًا كالحًا باهتًا وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيّبته بالعبير العابق، وأحيانًا باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة)[1]

وقالت: (إن أرقام العرب وآلاتهم التي بلغوا بها حدًا قريبًا من الكمال وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية، وبصرياتهم الدقيقة، كل ذلك أفضال عربية على الغرب ارتقت بأوروبة إلى مكانة، مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة، من أن تترعم العالم في ميادين العلوم التطبيقية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه)[2]

وقالت: (إن التأثير العربي في أوروبا ظل حتى القرن التاسع عشر وإن اختفى شكلاً، فتغلغل في أعماق الحياة الأوروبية، ورآه من يرغب في رؤيته، وأغفله من حجب بصره كره أرعن أو تعصب أعمى)[3]

وتحدثت عن تكريم الإسلام للمرأة، فقالت: (ظلت المرأة في الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية. ألم تكن خديجة رضي الله عنها زوجة النبي الأولى، التي عاش معها أربعة وعشرين عامًا، أرملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة في مجتمعها؟ لقد كانت نموذجًا لشريفات العرب، أجاز لها الرسول أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجال تمامًا؛ وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقين المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين. فكانت السيد تنتهي دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحًا لتدرّس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات، والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجًا على التقاليد)[4]

وقالت: (إن النساء في صدر الإسلام لم يكن مظلومات أو مقيدات، ولكن هل دام هذا طويلاً؟ لقد هبت على القصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال فغيرت الأوضاع، وقدم الحريم من الجاريات الفارسيات واليونانيات..وكان أن حرمت المرأة العربية من مكانتها الرفيعة في المجتمعوقيدت حرياتها حين سيطرت على المجتمع العادات الفارسية القديمة. والإسلام بريء من كل ما حدث، والرسول لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد أمر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء، بأن يغضوا الطرف وأن يحافظوا على أعراضهم وأمر النساء بألا يظهرن من أجسادهن إلا ما لا بد من ظهوره، وألا يظهرن محاسن أجسادهن إلا في حضرة أزواجهن)[5]

وقالت: (إن احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرى أنهم خصّوه بفيض من

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٠.
(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٦٣.
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٣٤.
(٤) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٠.
(٥) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٠ — ٤٧١.

العطور وبأنواع الزينة، التي وإن لم تكن غير مجهولة قبلهم، إلا أنها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية، وبالأساليب الفائقة في تحضيرها. كذلك فإن العثنون الذي كان يزين الوجوه الحليقة، منذ حملات الصليبيين، على طريقة النبي محمد قد أصبح نموذجًا يقلده الرجال)[1]

وقالت: (قاوم العرب كل التيارات المعادية للمرأة واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة، وجعلوا من منهجهم مثالاً احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكًا، وأصبح الاستمتاع بالجمال جزءًا من حياة الأوروبيين شاءوا أم أبوا)[2]

وقالت: (الإسلام قدّس الزواج وطالب بالعدل بين الزوجين أو الثلاث أو الأربع في المعاملة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾(النساء: من الآية٣) أليس هذا نصًّا صريحًا يطلب فيه من المؤمنين ألا يتزوجوا بأكثر من واحدة إلا إذا كان في استطاعتهم تحري العدل بين النساء؟ والمشكلة لم تكن اقتصادية فحسب، فمؤرخو العرب يذكرون أن العربي الأصيل المؤمن لم يكن يتخذ إلا زوجة واحدة يبقى مخلصًا لها وتبقى هي مخلصة له حتى يفرق بينهما الموت)[3]

إلس ليختنستادتر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إلس ليختنستادتر) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة فاضلة رأيت في كلماتها نفحة من نفحات الصدق، فسجلتها.

لقد تحدثت عن عقيدة المسلمين في القرآن الكريم، فقالت: (إن المسلم العصري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يوجب عليه، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه.. وإن مزية القرآن — في عقيدة المسلم — أنه متمم للكتب السماوية ويوافقها في أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان)[5]

وتحدثت عن دور القرآن في إشاعة القيم الفاضلة، فقالت: (إنه من الضروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسًا لإدراك الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث. فإن النبي يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الإلهي وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان. وإن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٣.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٦٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٢.

(٤) الدكتورة إلس ليختنستادتر Ilse Lictenstadter سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

(٥) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٩.

جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان. وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره)[1]

وردت على الشبه التي يثيرها الغرب من انتشار الإسلام بالسيف مبينة سماحة الإسلام، فقالت: (لقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة في إخضاع البلاد التي لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسلامية، إذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل في انتشار الفتوح حتى في إبان القرن الأول بعد الدعوة، وإنما تم معظم هذا الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح، ووردت في هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليس على الجملة بالمرهقة. فليست فكرة النار والمدن بالفكرة الصحيحة التي يؤيدها الواقع، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبي أن يسقط الدعوة التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوًا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخييرًا بين الإسلام والجزية وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة اليصابات)[2]

وتحدثت عن النظام السياسي الإسلامي، وما يحويه من قيم العدالة، فقالت: (إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصلح لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكري الإسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا)[3]

آدم متز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آدم متز) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من أهل بلدنا، وله شهادات طيبة ترتبط بالجانب الحضاري والأخلاقي في الإسلام رد بها على التشويه الذي يثيره بعض قومنا.

ومن ذلك شهادته بتكريم الإسلام للرقيق، قال: (جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بأن لا يسمى العبيد عبيدًا، بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة؛ وقد نسب هذا – كما نسب كثير غيره إلى أمر النبي. وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده، ويروى عن النبي أنه قال:« شر الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده »، وهذا الشعور نبيل عبر عنه أبو الليث السمرقندي (المتوفى سنة ٣٨٧هـ-٩٩٧م)

(١) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٩.

(٢) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٢٢ – ٢٣.

(٣) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٢٣ – ٢٤.

(٤) آدم متز (١٨٦٩-١٩١٧) A. Metz تخرج من جامعات ألمانيا، وعين أستاذاً للغات السامية، في جامعة بازل بسويسرا، وقد تخصص بالأدب العربي في العصر العباسي.

من آثاره: (أبو القاسم وتقاليد بغداد في عصره) (١٩٠٢)، (نهضة الإسلام في القرن الرابع الهجري) (١٩٢٢)، وقد ترجم إلى العربية بعنوان: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

بروايته هذا الحديث. وفي القرن الرابع الهجري اتخذ بعضهم من قوله ﷻ:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: من الآية١٠) نقدًا يوجهونه لمن يضرب عبده)[١]

وقال: (كان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده.. وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعتق بعض العبيد الذين يملكهم)[٢]

وتحدث عن الحرية التي كانت تسود الأقطار الإسلامية إبان الحكم الإسلامي، فقال: (كان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود المملكة (الإسلامية) في ظل دينه وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفًا واحدًا، وعادات واحدة. وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمنًا على حريته الشخصية أن يمسّها أحد، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقّه على أي صورة من الصور. وقد طوّف (الرحالة المعروف) ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر للميلاد)[٣]

وتحدث عن سماحة المسلمين مع أهل الديانات المختلفة، فقال: (إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين وأولئك هم (أهل الذمة) الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية.. واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين وقد كان وجودهم سببًا لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعًا من التسامح الذي لم يكن معروفًا في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم)[٤]

وقال: (ولم يكن في التشيع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخًا في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارًا وأصحاب ضياع وأطباء. بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً يهودًا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى. وكان رئيس النصارى في بغداد هو طبيب الخليفة، وكان رواد اليهود وجهابذتهم عنده)[٥]

وقال: (كانت حياة الذمي عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، ودية المسلم، وهي مسألة مهمة

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٢٨٨ — ٢٨٩.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٢٩٠، وسنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٤.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٥٧.

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٦٨ — ٦٩.

جدًا من حيث المبدأ.. و لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحض مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم.. وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء)[1]

وقال: (ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية)[2]

وقال: (كان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، سببًا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يمكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل)[3]

د. ج. كامبفماير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. ج. كامبفماير) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عاقل من أهل بلدنا عرف قوة المسلمين وسلامهم، فلذلك خاطب فراعنة قومنا بما خاطب به مؤمن آل فرعون فرعون وزبانيته، فقال:﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ (غافر: من الآية٢٨)

أما هذا الرجل الفاضل، فقال: (إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائدة.. ولن يرد المسلمين عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقوّيها)[5]

وقال: (إن في الشرق العربي الأدنى على وجه التأكيد نهضة إسلامية قوية خلقية ودينية واجتماعية، ستكون أساس الحياة القومية الجديدة، وإذا عرفنا هذا تجلت حقيقة مهمة هي أن تنصير المسلمين مستحيل الآن.. فهل سيعارض المبشرون في جعل الدين – ولو كان الإسلام – أساسًا للحياة القومية الصحيحة؟ وإذا كان تنصير المسلمين في الظروف الحاضرة مستحيلاً فلم يبق أمام هذه الشعوب الإسلامية إلا أحد أمرين: إما النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقي.. فأيّهما خير للشعوب الإسلامية؟)[6]

وتحدث عن بعض أسباب الوحدة الإسلامية التي تجعلها جدارا حصينا ضد كل محاولات الاختراق، فقال: (إن العربية، وهي لسان الإسلام غير مدافع، تدرس وتعرف حق المعرفة في العالم الإسلامي كله من المحيط الأطلسي إلى الهند وجاوة وبذلك تسهل انتشار الحركات الروحية انتشارًا يتجاوز بكثير حدود البلاد التي تنشأ فيها ويعين على انتشارها عوامل أخرى أكبرها الصحافة العربية.. ويلعب الحج دوره أيضًا في المزج الروحي بين

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٦٩ – ٧٠.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٨٧.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٣٦٦.

(٤) د. ج. كامبفماير (١٨٦٤ – ١٩٣٦) G. Kampfmayer تخرج باللغات الشرقية في ليبزغ، وتخصص في الإسلام الحديث والعربية المعاصرة من معهد اللغات الشرقية ببرلين (١٩٠٧)، ورأس تحرير مجلة (عالم الإسلام) التي نشر فيها دراسات عن المؤلفات الحديثة في الآداب المعاصرة.

من آثاره: (النصوص والأعمال في تاريخ الأمة العربية الحديثة) (١٩٢٤)، (دراسات في الأدب العربي المعاصر) (١٩٢٥-١٩٢٦) و(شعراء العرب في العصر الحاضر).. إلخ.

(٥) وجهة الإسلام، ص ١٠٣.

(٦) وجهة الإسلام، ص ١٠٢.

مختلف شعوب الإسلام، وأن تجاور البلاد في الشرق الأدنى الناطق بالضاد، وبوجه أدق في المساحة التي تشغلها مصر وجزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين ورقي وسائل المواصلات إلى جانب الصحافة تعمل بوجه خاص على إنماء العواطف والأماني الإسلامية العامة)[1]

وتنبأ بنهضة الإسلام، فقال: (أستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيّما مركزها العظيم الذي يتكون من الكتلة المتماسكة التي قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دورًا غاية في الأهمية وربما كان دورًا حاسمًا.. ونهضة الإسلام في هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى ردّه، ولن يحدث في البلاد العربية شيء يشبه ما حدث في تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسلامي والأدبي المجيد، بل إن ذكرى هذا الماضي من عوامل النهضة الوطنية والدينية ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية.. ولن ينبذوا هذه الوسيلة المدهشة التي تمكنهم من الاتصال بالعالم الإسلامي كله، ولن يقوى أحد على إيقاف حركة النهضة الإسلامية في هذه البلاد لأنها الأساس الذي يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية.. وستصير كل من القاهرة والقدس بالتدريج مركزًا عظيمًا للحياة الإسلامية بعد مكة وسيفد طلبة العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد في المغرب شطر مصر وفلسطين.. ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئًا فشيئًا وسيحدث مثل هذا الأثر في الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامي.. ولن يقوى الانحلال السياسي على تغيير شيء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة)[2]

رودي بارت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رودي بارت) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد أنطق الله هذا الرجل بشهادات صدق، كان منها شهادته عن موقف بعض ممثلي حركة التنوير من رسول الله ﷺ، قال: (كان من بين ممثلي حركة التنوير من رأوا في النبي العربي أدلة الله، ومشرعًا حكيمًا، ورسولاً للفضيلة، وناطقًا بكلمة الدين الطبيعي الفطري، مبشرًا به)[4]

وتحدث عن بعض ثمار النبوة، فقال: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيثون فيها فسادًا. حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد

---

(١) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص ٦٩.

(٢) وجهة الإسلام، ص ٩٩.

(٣)رودي بارت Rudi, Part عالم ألماني معاصر، ولد عام ١٩٠١، درس في جامعة توبنجن اللغات السامية والتركية والفارسية في الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٤وتخرج على يد المستشرق الألماني ليتمان.امضى سنتين في القاهرة (١٩٢٥-١٩٢٦)، كان اهتمامه في البداية بالأدب الشعبي ولكنه تحول إلى الاهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم.

تولى العديد من المناصب العلمية منها مدرّس في جامعة توبنجن وأستاذاً بجامعة هايدلبرج ثم عاد إلى توبنجن أستاذاً للغة العربية والإسلاميات من عام ١٩٥١-١٩٦٨.ومن أهم مؤلفاته (محمد والقرآن) وترجم معاني القرآن الكريم إلى الألمانية وله كتاب عن القرآن بعنوان(القرآن تعليق وفهرست)

(٤) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١٥.

متجانس)[1]

وقال: (إن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية، ويصبحوا بذلك ذوي أهمية إن صح هذا التعبير)[2]

وتحدث عن شمولية الإسلام، فقال: (إن الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم الشعائر كذلك، هي المضمون الحقيقي للروح الإسلامية الأصيلة، وهي التعبير الحاسم عن التفكير الإسلامي، إنها النواة الجوهرية للإسلام على الإطلاق)[3]

ج. ك. بيرغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ج. ك. بيرغ) [4]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من قومنا أراه الله بعض محاسن الإسلام، فراح يبشر بها.

فقد تحدث عما يختزنه النظام الإسلامية من حرية وعدالة ومساواة، فقال: (لا حاجة بنا إلى الإطناب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية.. إن نظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له في الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته على الدوام من حبّ الجماهير له حبًا حماسيًا. إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانًا وأن معتنقيه ليفخرون به.. وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية. وإن إجماع المسلمين على اختلاف الرأي رحمة من الله، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بلينه وتسامحه ويبرهن لنا برهانًا جديرًا بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغم الناس على رأيها)[5]

وتحدث عن أثر الحج في وحدة المسلمين، فقال: (إن الحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته إن استطاع إليه سبيلا.. وأثر اللغة العربية في العمل على الوحدة، وتشابه طرق التعليم في كل العالم الإسلامي، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقيةً في المكان الأول، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة)[6]

وتحدث عن الأثر العظيم الذي قام به الإسلام في التأليف بين الأمم المختلفة، فقال: (إن النزعة التي تصبغ كل شيء بصبغة الدين والتي امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرنًا دينًا متمكنًا في إمبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها.. لقد حاز الإسلام فضلاً

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٤٩، والعبارة المذكورة وردت في مقدمة كتاب جوتتهلف برحبشتر (المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية)، (برلين، ١٩٣٥م).

(٤) ج. ك. بيرغ J. K. Birge عمل أستاذًا في جامعة ليدن، وانصب اهتمامه على تاريخ الصوفية في الإسلام، وكتب أبحاثًا عديدة عن جلال الدين الرومي وغيره.

(٥) وجهة الإسلام (بإشراف كب). ص ١٦٠ – ١٦١.

(٦) وجهة الإسلام، ص ١٦١.

لا سبيل لإنكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يتبع دينًا آخر ويعتنق فكرة أخرى في الحياة)[1]

وقال: (مما يعني الباحثين في الإسلام في إندونيسيا عناية خاصة أن تأثير شعور الوحدة الإسلامية القديم يمكن أن يتجلى أيضًا في حركات كثيرة وأظهر ما يكون هذا في حركة شعبية مثل (شركة إسلام) التي زاد عدد أعضائها على مليونين في بعض الأحيان، وإن تاريخها ليبيّن أنها تكونت من عناصر غير متجانسة وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف)[2]

وتحدث عما جنته أفكار الغرب على العالم الإسلامي، فقال: (إن أفكارًا أوروبية مخالفة في جوهرها للأفكار التي كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكانًا خفيًا في مراكز العالم الإسلامي.. وأحدثت عملية انحلال انتهت في ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوروبية.. وأصبحت الأمة الإسلامية على وشك التمزق)[3]

وقال: (إن التعليم على الأسلوب الأوروبي الجديد – وهو غريب عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية – يضع وهو صامت بذور انحلال أكثر مما حدث)[4]

جوزيف شاخت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جوزيف شاخت) [5]، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) وجهة الإسلام، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص ١٤.

(٣) وجهة الإسلام، ص ٢٠٠.

(٤) وجهة الإسلام، ص ٢٠١.

(٥) جوزيف شاخت J. S. Schacht ولد عام ١٩٠٢، وتخرج من جامعتي برسلا وليبزج، وعين أستاذًا في عدد من الجامعات الألمانية (١٩٢٧-١٩٣٤)، وفي الجامعة المصرية (١٩٣٤)، ومحاضرًا للدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد (١٩٤٨)، وليدن (١٩٥٤)، وكولومبيا (١٩٥٧-١٩٥٨)، وانتخب عضوًا في عدد من المجامع والجمعيات العلمية. وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامي وبيان نشأته وتطوره.

من آثاره: حقق العديد من النصوص الفقهية، وألف عددًا من المصنفات مثل: (دين الإسلام) (١٩٣١)، و(نشأة الفقه في الإسلام) (١٩٥٠)، و(خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي) (١٩٥٢).

وقد حاول (جوزيف شاخت) أن يأتي بنظرية جديدة حول أسس الفقه الإسلامي، ونشر لبيانها عدة كتب ومقالات بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ووضع كتاب (المدخل إلى الفقه الإسلامي) لهذا الغرض.

وإن كان كتابه (أصول الشريعة المحمدية) يعد من أشهر مؤلفاته على الإطلاق، كما عبر عنه المستشرق جب بأنه (سيصبح أساساً في المستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام، وشريعته، على الأقل في العالم الغربي)

وقد أثرت نظريات (شاخت) تأثيراً بالغاً على جميع المستشرقين تقريباً، مثل (أندرسون) و(روبسون) و(فيزجرالد) و(كولسون) و(بوزورث) كما أن لهذه النظريات تأثيراً عميقاً على مَن تثقفوا بالثقافات الغربية من المسلمين.

وقد ذكر الدكتور الأعظمي في رده على شاخت في بحث بعنوان: (المستشرق شاخت والسنة النبوية) أن كتاب شاخت يحاول أن يقلع جذور الشريعة الإسلامية، ويقضي على تاريخ التشريع الإسلامي قضاءً تاماً.. فهو يزعم أنه (في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي ـــ في معناه الاصطلاحي ـــ وجود كما كان في عهد النبي، والقانون ـــ أي الشريعة ـــ من حيث هي هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي روحي على تعامل خاص في السلوك،

هذا رجل من قومنا اهتم بالشريعة والقانون، ولذلك فإن له بعض الشهادات المرتبطة بهذا الجانب.. وهي في عمومها شهادات صادقة، ولكن تخللها بعض سوء الفهم، وقد وجد من علماء المسلمين من يرد عليه.

فقد تحدث عن أهمية الشريعة الإسلامية وتميزها، فقال:(من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني الذي يسمى (بالشريعة) والشريعة الإسلامية تختلف اختلافًا واضحًا عن جميع أشكال القانون إلى حدّ أن دراستها أمر لا غنى عنه لكي نقدر المدى الكامل للأمور القانونية تقديرًا كافيًا.. إن الشريعة الإسلامية شيء فريد في بابه، وهي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشتمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية)[1]

وقال: (تعتبر الشريعة الإسلامية مثالاً له مغزاه على نحو خاص لما يمكن أن يسمى قانونًا دينيًا. بل إن التشريعين المقدسين الآخرين اللذين يعتبران نماذج من القانون الديني، وهما أقرب ما يكونان إلى الشريعة الإسلامية من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وهما الشريعة اليهودية والقانون الكنسي، يختلفان عن الشريعة الإسلامية اختلافًا ملموسًا. ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعًا في صورها مما في التشريعين المذكورين، لأنها جاءت نتيجة نظر وتدقيق من الناحية الدينية في موضوعات للقانون كانت بعيدة عن أن تتخذ صورة واحدة)[2]

وقال: (في منتصف القرن الثاني للهجرة تقريبًا أخذ القانون الديني الإسلامي شكله الجوهري وقد أصبح على ما هو عليه الآن ليس مجرد تلك الطريقة الآلية في إدخال اعتبارات مادية ذات صفة خلقية أو دينية في ميدان القانون ولكن بعدّه عملية أخرى ألطف وأدق، وهي تنظيم هذا الميدان وترتيبه بعدّه جزءاً من الواجبات الدينية للمسلمين. وتحوي الشريعة مبدءاً موحدًا فرض نظامًا تركيبيًا عقليًا على مختلف المواد الأولية التي بني منها، غير أن هذا المبدأ غير شكلي أو مستقل، أنه هو مادي إسلامي)[3]

(المسلمون لا يستطيعون أن يتخلصوا من السلطان الروحي والتأثير العميق المتأصل لقانونهم الديني. وأن فك القانون الديني — بمعنى أن القانون له شأن العلاقات الإنسانية الأخرى، يجب أن يخضع للدين أصبح جزءاً أساسيًا من النظرة الإسلامية. ولنذكر عرضًا أن هذا ينطبق أيضًا على السياسة وحتى على الاقتصاد)[4]

فقد كانت مسألة القانون تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين، حيث صرح شاخت بأنه (من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيح بالنسبة إلى النبي)

وقد أسهمت هذه الدعوى التي أطلقها شاخت، في تأسيس مقولات وأفكار، رددها عدد من الكتاب المتغربين في بلادنا، فتعرضت السنة الشريفة إلى اتهامات ظالمة، وهوجم الفقه الإسلامي هجوماً عنيفاً، وكأن الفقه لا علاقة له بالكتاب والسنة.

وقد سعى الدكتور الأعظمي في بحثه هذا، لدحض هذه الفرية، من خلال جداول إحصائية برهن فيها على أن تشريعات القرآن الكريم شملت عموم جوانب الحياة كلها، وأكد على أن الإسلام جاء بعقيدة في مجال التشريع، تنص على أن التحريم والتحليل من حق الله سبحانه وتعالى وأنه طلب من المسلمين الخضوع التام لأوامر الله سبحانه وتعالى، وانه أنزل لهم من أصول التشريع ما يكفي لسد حاجاتهم، وتمثيلاً لأوامر الله سبحانه وتعالى كان رسول الله ﷺ يقضي بين الناس.

(١) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ٩.

(٢) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ١٠.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونبادم)، ص ١٠٧.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونبللوم)، ص ١١٩.

وتحدث عن تأثير الشريعة الإسلامية على شرائع الديانات الأخرى، فقال: (في الطرف المقابل من البحر المتوسط نجد التشريع الإسلامي قد أثّر تأثيرًا عميقًا في جميع فروع القانون.. وهناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية.. وليس هناك شك في أن الفرعين الكبير للكنيسة المسيحية الشرقية وهما اليعاقبة والنسطوريون لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي وهذا الاقتباس كان في كل تلك الموضوعات التي يمكن أن يتصور المرء أنها تدخل في نظر القاضي المسلم)[1]

قلت: إن هذه كلمات طيبة من رجل مثله.. فما لا يدرك كله لا يترك كله.

ادوين كالفرلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ادوين كالفرلي)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من قومنا أنطقه الله بالصدق في بعض المحال.. فكان صدقه من شهادات الصدق التي يهتدى بها.

فقد تحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية للحياة بجميع تفاصيلها، فقال: (يفصل كثير من الناس، بتأثير ميراثهم الثقافي وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم، بين الدين والدولة، ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة. ولكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمر جديد في المسيحية ابتدعته فيها أقلية مذهبية، ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل)[3]

وتحدث عن القيم الروحية التي تميز بها الإسلام، فقال: (لنضرب مثلاً على الدراسة النزيهة بمقال كتبه الأستاذ آرثر جيفري –Arthur Jeffery في مجلة العالم الإسلامي، عدد يناير، سنة ١٩٤٠، يعرف فيه إحدى الترجمات الإنجليزية للقرآن.. فقد اعترف اعترافًا صريحًا بالقيم الروحية الممتازة في دين لا يدين هو به)[4]

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة العالمية، فقال: (لقد رأينا كيف أن الإسلام أمدّ أوروبا الجنوبية الغربية بالعلم والثقافة وكيف أن ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ودراسة اللغة العربية مكنتا دول أوروبا الغربية من الوصول إلى المعرفة الدقيقة بالدين الإسلامي ولكن المسيحيين قد أخذوا عن المسلمين أمورًا كثيرة أخرى.. فقد كانت الثقافة الإسلامية والعربية الغذاء الأول للعلماء المسيحيين في القرون الوسطى.. ولم يمضِ حين قليل على حركة الترجمة حتى ظهر علماء وأساتذة مسلمون تمثلوا الثقافة الإغريقية وجعلوها جزءًا لا ينفصل من ثقافة المسلمين وحضارتهم. وقد نقل كل ذلك فيما بعد إلى الغرب. ومما يعنينا في هذا الصدد عناية

---

(١) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ٢٧ – ٢٩.

(٢) ادوين كالفرلي E. Calverley ولد عام ١٨٨٢م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة برنستون، وعين عضوًا في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في الولايات المتحدة (١٩٠٩-١٩٣٠)، ومحاضرًا في مدرسة كنيدي للبعثات (١٩٣٠-١٩٣٢) وأستاذًا للعربية والإسلاميات فيها (١٩٣٢-١٩٥١) ومحررًا لمجلة عالم الإسلام، (١٩٤٧-١٩٥٢) وأستاذًا زائرًا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (١٩٤٤-١٩٤٥).

من آثاره: (القرآن) (١٩٢٤)، (العبادة في الإسلام) (١٩٢٥)، (محمد) (١٩٣٦٩، (الإسلام (١٩٣٨)..وغيرها.

(٣) الشرق الأدنى: مجتمعة وثقافية (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٧٣.

(٤) الشرق الأدنى، ص ١٨٦.

خاصة أن نذكر أن المسلمين قد هضموا العلم والفلسفة الهيلينية ثم حوروا فيهما ليلائموا بين معرفتهم الجديدة وبين روح العقيدة القرآنية)[1]

وقال: (أخذ المسلمون عقيدتهم معهم حيثما استقر بهم غزواتهم. وفي البلاد الجديدة التي استوطنوها علموا ما اكتسبوا من معارف وعلوم انتقلت فيما بعد إلى أوروبا الغربية وسواها من أقطار الأرض وكانت النتيجة أن أصبح علم العرب والإسلام لباب الثقافة في أوروبا)[2]

وقال: (من الطبيعي أن يحاول بعض علماء المسيحية اليوم، أن يقلل من أهمية تأثير التفكير الفلسفي الديني الإسلامي في علم اللاهوت المسيحي. والحق أن محاولتهم هذه هي في ذاتها دليل على وجود هذا التأثير وعلى أهمّيته)[3]

وتحدث عن سماحة المسلمين مع مخالفيهم، فقال: (لم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة أحدًا يجبر المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام. فقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية ممارسة شعائر دينهم بشرط دفع الجزية. وكل ما طالبهم به هو أن يسلموا للدين الجديد بالسيادة المدنية والسياسية التي تمثلت في الدولة الإسلامية)[4]

وقال: (احتفظ المسلمون للأقليات غير المسلمة في البلاد التي فتحوها بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية)[5]

وتحدث عن منطلق التسامح عند المسلمين بإعجاب، فقال: (في القرآن آية كريمة تفيض بالصدق والحكمة يعرفها المسلمون جميعًا ويجب أن يعرفها غيرهم، وهي تقول بأن:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦)[6]

كويلر يونغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كويلر يونغ) [7]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل صادق من قومنا.. وقد أنطقه الله بشهادات تمتلئ صدقا.. سأورد لك بعضها:

فمنها حديثه عن أثر الإسلام في تقدم المجتمعات البشرية، قال: (إن الإسلام قد أسهم بصفة فعالة في تقدم الجماعة الإنسانية، وقد استبدل بالنظام القبلي الذي ورثه – والذي يقوم على رابطة الدم – نظام الجماعة

---

(١) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) الشرق الأدنى، ص ١٧٥ – ١٧٦.

(٣) الشرق الأدنى، ص ١٧٦.

(٤) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٦٣ – ١٦٤.

(٥) الشرق الأدنى، ص ١٦٤.

(٦) الشرق الأدنى، ص ١٨٢.

(٧) كويلر يونغ Prof. T. Guyler Young أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بها، كان مساعد أستاذ اللغات السامية بجامعة تورنتو. من أهم مؤلفاته: Near Eastern Culture and Society, ١٩٥١.

المشتركة في العقيدة والتي يقوم ترابطها الاجتماعي على أساس من الأخوة والمساواة)[1]

وتحدث عن ربانية الشريعة الإسلامية، فقال: (إن النظرية القانونية الإسلامية وما جرى عليه العمل في صدر الإسلام يستمد قاعدة الوحدة والنظام من الله لا من (المدينة) ولا من الدولة والمسلم إلى اليوم يحسّ إحساسًا واضحًا بحكم الله في الحياة اليومية)[2]

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام مقارنة بالمسيحية، فقال:(الإسلام يختلف عن المسيحية الرومانية في أنه لا يتخذ لنفسه نظم الكنيسة والقسيسين والقرابين. ولقد تبدو البروتستانتية الخالصة دينًا كهنوتيًا إذا وازناها بالإسلام الذي يحرص على التوحيد الخالص والذي لا يحتمل أي تدخل بين الإنسان وخالقه)[3]

وتحدث عن العقلية العلمية التي تميز بها المسلم، فقال: (إن المسلم يملك المقدرة على استعمال طريقة التجربة في كل الأوضاع الممكنة لنموذج ما، ليأخذ من الحياة أقصى ما تستطيع أن تعطيه)[4]

وتحدث عن تأثير الإسلام في البناء الحضاري، فقال: (كلمة (الإسلام) ثقافيًا تستعمل بالمعنى الواسع لتدل على تلك المدنية المتجانسة – رغم تنوعها – والتي وجهها وسيطر عليها الدين الإسلامي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا)[5]

وتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة العالمية، فقال: (عندما انتقلت عاصمة الإسلام إلى بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ما جاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم من حدود الصين على أعمدة (هرقل). وفي خلال خمسمائة السنة التي حكم فيها العباسيون نمى الإسلام نظامه الفكري وثقافته المتجانسة على أساس من الإحياء البارع للمعارف الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر الميلادي وهو (الرنيسانس) الشرقي. هذا الإحياء الثقافي في ذنيك القرنين – وفي القرن الذي تلاهما حيث بلغت الثقافة الإسلامية قمة تطورها – هو الذي نقل إلى العالم اللاتيني.. وأصبح أساس (الرنيسانس) الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر)[6]

وقال: (كان الفارابي وابن سينا معروفين جيدًا في أوروبا، وكان (بيكون) يستشهد بأقوالهما)[7]

وقال: (ليس هناك من شك في أن روح البحث العلمي الجديد وطريقة الملاحظة والتجربة اللذين أخذت بهما أوروبا إنما جاءا من اتصال الطلاب الغربيين بالعالم الإسلامي)[8]

وقال: (عندما جاء محمد وظهر الإسلام تحول التيار الثقافي إلى عكس الاتجاه الذي كان يسير فيه. وقد بدأ

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ٢٤٢ – ٢٤٣.
(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٣.
(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٣.
(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٧.
(٥) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٣٢.
(٦) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٣٤.
(٧) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٢.
(٨) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٧.

هذا التحول مفاجئًا في مظهره بالرغم من أنه يمكن للمؤرخ أن يتعرف على الأسباب التي تجمعت رويدًا رويدًا حتى أنتجت هذا الانعكاس في اتجاه التيار الثقافي. ومن جزيرة العرب اندفعت حماسة هؤلاء الساميين بهم، ومعهم دينهم ولغتهم إلى حدود الصين في الشرق وإلى جبال البرانس في المغرب. وفي العصر الإسلامي الذهبي، عصر العباسيين، آتت البذور الثقافية التي جلبها العرب من الإغريق والفرس والهند أكلها، وخلقوا هم أنفسهم ثقافة حية، سيطرت وسادت في العصور الوسطى، وكان لها تأثيرها الواضح في أنحاء أوروبا المختلفة، فنهضت بها على مر الزمن.. وظل تيار الثقافة في العصور الوسطى مندفعًا من الشرق إلى الغرب فبلغ قمته في القرن الثالث عشر)[1]

وقال: (لقد قدم العلم الإسلامي للإنسانية خدمات عظيمة، وأضاف إلى تراثها الثقافي القديم والكلاسيكي الشيء الكثير، وظل يلعب دوره حتى تسلّم العلم الغربي منه القيادة)[2]

وقال: (ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام، يدين بها ثلاثمائة مليون من الأنفس[3]، ألا يكون لها تأثير – بالفعل أو بالقوة – في الحضارة العالمية التي أخذت في الظهور والتكامل في العصر الحديث)[4]

وتحدث عن تأثير الإسلام في الوحدة بين الشعوب الإسلامية، فقال: (إن الوحدة الإسلامية قد أصيبت بالعطل، والمسؤول عن ذلك هو الحضارة الغربية وعناصرها الدنيوية.. ومع ذلك فإن بين شعوب الإسلام المتعددة المختلفة مثالاً مشتركًا، وأصولاً عقدية تقوم عليها وحدة في الثقافة، ومن واجب المسيحية أن تقدر هذه الظاهرة وتقلدها. إن عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المتحاربة، والذي لا يعرف حكمًا أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به أن يتدبر تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة – في أحسن صورها – سيكون لها أثرها – بالقوة إن لم يكن بالفعل – في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة)[5]

وتحدث عن سماحة الإسلام مع غيره، فقال: (للإسلام نصيب آخر من الفضل متفرع عن سابقه، وهو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر.. أن الإسلام – في إطار الأخوة الإسلامية – يستطيع أن يرى المسيحية نجاحًا حقيقيًا فعليًا في ميادين التسامح البشري)[6]

وتحدث عن معاداة الإسلام للاستبداد، فقال: (الفضل الثالث من أفضال الإسلام ذلك الروح الحقيقي من الديمقراطية في عالم – لا شك – محتاج إلى أن يطابق فعله قوله في هذه الناحية)[7]

بارتولد شبولر:

---

(١) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ٧.
(٢) الشرق الأدنى، ص ١٠.
(٣) ذلك في عصره.. أما اليوم، فيدين بالإسلام أكثر من مليار نسمة.
(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٥.
(٥) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.
(٦) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.
(٧) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (بارتولد شبولر) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد نطق هذا الرجل بالصدق عندما قال ــ متحدثا عن سماحة الإسلام مقارنة بالمسيحية ــ: (إن المسيحية والإسلام يقفان موقفين مختلفين في موضوع الأقليات الدينية. أن المسيحية لم تسمح بوجود الأديان الغريبة في أراضيها (باستثناء الدين اليهودي) أما في الإسلام فكان يوجد تبادل ثقافي بين المسلمين وغير المسلمين.. وهذا الفرق الملحوظ يمكن تفسيره بأن المسيحية شهدت قيام دين منافس لها (وهو الإسلام الذي كان ظهوره، إذا تكلمنا من الناحية الواقعية مناقضًا لادعاء المسيحية بأنها آخر وحي مترل). أما الإسلام فقد اعترف نظامه الديني منذ البداية بالعقائد الأخرى التي كانت تعيش معه جنبًا إلى جنب.. وبهذه الطريقة أصبح من الممكن أن ينقل النساطرة الثقافة الكلاسسيكية وأن يقوم اليهود بدورهم في بلاد الأندلس الإسلامية) [2]

ارنست بانرث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ارنست بانرث) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية:

منها حديثه عن موقف المسلمين من العلم، وتواصلهم مع الثقافة العالمية، وتحليهم بالمنهج العلمي، قال: (إن العرب لم يخربوا ما وجدوه من عناصر ثقافية، بل اهتموا بها وبذلوا جهدهم لهضمها ومن ثم تطويرها. ونرى هنا أن العرب فتحوا باب التعرف على الحضارة اليونانية منذ عصر الأمويين والعباسيين بواسطة المترجمين، وعلى هذه الطريقة تطورت الثقافة تحت حماية الإسلام بالعربية التي هي واسطة ممتازة للتعبير عن الأفكار العليا والتي لا تفوقها في هذا لغة من لغات الدنيا. ولا أراني بحاجة إلى ذكر أسماء الفلاسفة الذين فتحوا آفاقًا جديدة لفهم أسرار الطبيعة والوجود، وما يهمنا هنا هو استعداد العرب لاستعمال الطرق العلمية التي تعلموها من أرسطو طاليس. والتي كانت أولاها: مراقبة الطبيعة والتجربة، وثانيتها: قواعد المنطق الشديدة. ولا شك أن الحضارة الإسلامية ارتفعت في القرون الوسطى إلى علوّ لم ينته إليه قوم آخرون. ولا يخفى أن هذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد في كل نواحي الثقافة وتطبيق الطرق العلمية. وأما الغرب الأوروبي فلم يستطع

---

(١) بارتولد شبولر b. Spuler تخرج من الجامعات الألمانية، وعين معيدًا للدراسات الإسلامية دفعة لغات الشرق الأدنى (١٩٣٩) في جامعة جوتنجن، وأستاذ كرسي في جامعة ميونخ (١٩٤٢) وعدد من الجامعات الأخرى كما عمل أستاذًا زائرًا في جامعتي أنقرة واستنبول (١٩٥٥-١٩٥٦) يجيد العديد من اللغات، وتخرج عليه عدد من المتخصصين من البلدان الإسلامية.

من آثاره: (مغول إيران) (١٩٣٩) و(المغول في روسيا) (١٩٤٣) و(تاريخ البلدان الإسلامية) (١٩٥٢-١٩٥٣).

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٢٣٩.

(٣) ارنست بانرث E. Baunerth. ولد في مدينة ليبزج، سنة ١٨٩٥، ودرس اللاتينية واليونانية ثم العربية، كما تعلم الفارسية والتركية، أسره الإنكليز في الجبهة سنة ١٩١٧، وانتقل إلى الهند فاستقر فيها حتى عام ١٩٢٥، وتعلم الأردية، ثم عاد إلى ألمانيا، فتابع دروسه ونال الدكتوراه في اللغات الإسلامية من جامعة فينا. وعين أستاذًا للفلسفة والتاريخ والآداب الألمانية. وقد تولى مناصب عديدة وطوف في عدد من البلدان.

من آثاره: (الإسلام اليوم وغدًا) (١٩٥٨)، (التفاهم بين الشرق والغرب) (بتكليف من اليونسكو)، وله دراسات عن الفلاسفة المسلمين، كما حقق العديد من النصوص، وكتب العديد من الأبحاث في المجلات المختلفة.

حينئذ فهم الثقافة وتطويرها. وكذلك دولة بيزنطية فقد تجمدت، والآن نرى كيف تعجبت الأقوام الأوروبية من جمال الثقافة العربية التي امتدت من حدود الصين والهند إلى جبال البرانس)[١]

ومنها حديثه عن سبق المسلمين للمنهج التجريبي، وتصديره إلى أوروبا، قال: (كان أول من قلد العرب في التجربة الراهب (روجر بيكون) في إنكلترا. وحتى الآن يشكر علماء الطبيعة في أوروبا العرب على إدخال طريقة التجربة العلمية التي دلّت على التطور الحديث في جميع الميادين)[٢]

ومنها حديثه عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، قال: (لم يزل العلماء يواصلون الكشف عن العناصر العربية المؤثرة في الفكر الأوروبي خلال القرون الوسطى، وفي كل سنة تظهر آثار منشورة تشهد بأننا لا نقدر الآن ما أخذه الأوروبيون من العرب)[٣]

وقال: (انتشرت في أوروبا الرغبة العظيمة لدراسة اللغة اليونانية منذ تعرفوا على الفلسفة اليونانية بواسطة العرب، وأدى هذا الاهتمام الجديد بالتدريج إلى تلك الحركة الثقافية في أوروبا في القرن الخامس عشر المسماة بحركة إحياء العلوم القديمة (Renaissance) ولم يزل الاهتمام في أوروبا بعلوم العرب خلال تلك الدورة، بل لقد أدى إلى الاشتغال بالعربية من جديد في القرن السابع عشر)[٤]

ماكس مايروهوف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماكس مايروهوف) [٥]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات طيبة ترتبط باهتمام المسلمين بالعلم، منها قوله عن حرية التعليم ومراكزه ومناهجه: (كانت حرية التعليم مكفولة مؤمنة للجميع في معاهد بغداد ومساجدها.. وكان لكل مسجد كبير وما يزال، مكتبته الخاصة لا في المواضيع الدينية وحدها بل في الأبحاث الفلسفية والعلمية أيضًا.. وكان الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم مما ساعد على انتشار العلم، إذ لا مفرّ للتلاميذ القادمين من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وأفريقية من المرور ببلاد مختلفة فتتاح لهم زيارة المسجد والمعاهد العلمية والاتصال بمشاهير العلماء.. وكانت الطريقة العملية في التدريس آنذاك شبيهة بالطريقة المتبعة اليوم)[٦]

وتحدث عن بعض مظاهر التقدم العلمي الذي وصل إليه المسلمون، فقال: (إن عظمة العلم الإسلامي تتجلى في ميدان البصريات. ها هنا نكشف مقدرة (ابن الهيثم وكمال الدين) الرياضية ضياء (بطليموس

---

(١) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ٨ — ٩.

(٢) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١٠ — ١١.

(٣) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١١.

(٤) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١١.

(٥) د. ماكس مايروهوف Dr. Max Meyerhof مستشرق ألماني وكحال شهير، مارس طبه في مصر زهاء ربع قرن، ثم ألم بجانب مهم من اللغات، واطلع خلال إقامته الطويلة في الشرق على كنوز المخطوطات، ونشر وأحيا عددًا من المصادر العربية، هذا علاوة على العديد من الرسائل بالفرنسية والإنكليزية في مواضيع تاريخ الطب العربي نشرها في مختلف المجلات العلمية المشهورة.

(٦) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص ٤٥٨، ٤٨٢ — ٤٨٣.

وإقليدس). أن هذا النوع من العلوم مدين للمسلمين بتقدم حقيق باق مقرون إلى اسمهم على مر الدهور)[1]

وتحدث عن استفادة الحضارة الغربية من العلوم الإسلامية، فقال: (في عام ١٠٨٥م سقطت طليطلة أعظم مركز للثقافة الإسلامية في الغرب بأيدي الإسبان المسيحيين وصار تلاميذ اللاتين يفدون إلى العاصمة الجديدة ليظهروا إعجابهم بما يرون من بقايا حضارة المغرب ولكي يدرسوا الفنون العربية)[2]

وقال: (ثمة تراجم عديدة عن العربي استخدمت بصورة واسعة في التدريس الجامعي على الأخص في فرنسا وشمالي إيطاليا. بهذا الطريق انتقلت مئات من تراجم التراث العربي — الإغريقي العلمي إلى تربة أوروبا المجدبة وكانت النتيجة زخات من المطر الوابل أحيا تلك الأرض الموات)[3]

وقال: (كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدّد غياهب الظلام الذي كان يلف أوروبا في القرون الوسطى.. ولما كان لتلك العلوم سهمها الأوفى في توجيه عهد (إحياء العلوم) وحث خطواته، فعلينا أن نقرّ مذعنين بأن التراث العربي الإسلامي مازال يعيش في علومنا حتى الآن)[4]

كولد تسيهر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كولد تسيهر) [5]، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد أثار شبها كثيرة ملأتنا عداوة له.

قال: لا ينبغي لقلب المؤمن أن يمتلئ عداوة.

قلت: ولكنه هرف بما لا يعرف، فوقع في شبه كثيرة أوقع فيها غيره.

قال: وهل صححتم أخطاءه؟

قلت: أجل.. لقد انتدب لذلك علماء فحول ردوا عليه أبلغ الردود.

---

(١) تراث الإسلام، ص ٤٩٤.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٩٦.

(٣) تراث الإسلام، ص ٥٠٢.

(٤) تراث الإسلام، ص ٥٠٦.

(٥) إجناز جولدزيهر.١٩٢١-١٨٥٠) Ignaz Goldziher)ولد لأسرة يهودية، درس في بوادبست ثم برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقية.

رحل إلى القاهرة وسوريا وحضر بعض الدروس في الأزهر. عمل في جامعة بودابست في مجال الدراسات العربية والإسلامية. أصبح أستاذاً للغات السامية عام ١٨٩٤.

كتب سيلاً من المقالات والأبحاث في المجلات الآسيوية والغربية بأكثر من لغة. وكتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) (باريس ١٩٢٠)، و(درس في الإسلام) في جزأين كبيرين. كما حقق العديد من النصوص القديمة.

وكان له تأثير في الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه في مختلف اللغات الأوروبية. وما تـزال جامعـة برنستون ـــ مثلاً ـــ تقرر كتابه دراسات إسلامية في مناهج قسم دراسات الشرق الأدنى حيث قامت الجامعة بنشر ترجمة جديدة لهذا الكتاب مع تعليقات المستشرق برنارد لويس.

وقد رد على بعض الشبه التي أثارها كثير من المسلمين ومن أبرزهم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنّة ومكانتـها في التشريع الإسلامي)

قال: فقد خدمكم إذن.

قلت: كيف يخدمنا، وقد عادانا.

قال: لولا أنه استفزكم ما تحركتم.. وما كتبتم.. وما توجهتم للعالم تعرفونه بدينكم.

قلت: صدقت في هذا.. فإن استفزازات هؤلاء تسيل حبرا كثيرا.

قال: إن شبه هؤلاء كالفيروسات التي تترل بفنادق الأجسام، فإن وجدت مناعة وقوة أكسبت هذه الأجسام مناعة وقوة، وإن وجدت ضعفا وهوانا أكسبتها ضعفا وهوانا.

قلت: صدقت في هذا.. ولكن هذا يهودي؟

قال: ما يضرك أن يكون يهوديا أو مسيحيا أو لادينيا.. أليس الكفر ملة واحدة؟

قلت: ولكن اليهود يستعمرون أرضنا.

قال: لا ينبغي أن تخلطوا الأمور.. فالحرب العسكرية لا ينبغي أن تدخل مجالس العلم والدعوة.. ألم يكن رسول الله ﷺ يتعامل مع كل قبيلة من قبائل اليهود بحسب ما تتطلبه، فيجلي هذه، ويناظر هذه، ويقاتل هذه.

قلت: صدقت.

قال: فهكذا افعلوا.. قابلوا العلماء بسلاح العلم.. وقابلوا العامة بسلاح الإيمان والدعوة والسلام.. وقابلوا الجيوش بسلاح الاستعداد.

قلت: فهل لهذا الرجل شهادات عن الإسلام؟

قال: أجل.. فالقلب مهما انحرف لابد أن يوجه وجهته يوما للحقيقة.

لقد تحدث هذا الرجل عن الصدق العظيم الذي أبداه رسول الله ﷺ في دعوته، فقال: (إن محمدًا قد بشر بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفترا ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة الخاصة، وقد كان في ذلك كله مظهرًا لإنكار الذات برغم سخرية الجمهور)[1]

واعتبر رسول الله ﷺ مصلحا.. بل أول مصلح عربي، فقال: (الحق، أن محمدًا كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية)[2]

وتحدث عن الحكمة التي تحلى بها رسول الله ﷺ في مواجهته لخصومه، فقال: (في هذا العصر نرى النبي يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالمي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده وغاياته في داخل موطنه وخارجه)[3]

وتحدث عن القيم الخلقية الرفيعة التي جاء بها الإسلام، فقال: (علينا إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى الإسلام، أن نوافق على أنه يوجد في تعاليمه قوة فعالة متجهة نحو الخير، وأن الحياة طبقًا لتعاليم هذه القوة يمكن أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية. هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله، والأمانة في

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢ – ١٣.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢١ – ٢٢.

علاقات الناس بعضهم ببعض، والمحبة والإخلاص، وقمع غرائز الأثرة، كما تتطلب سائر الفضائل التي أخذها الإسلام عن الأديان السابقة، والتي يعترف محمد بأنبيائها أساتذة له، ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يحيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق)[1]

وتحدث عن آداب الاختلاف التي كانت سائدة بين السلف من الفقهاء، فقال: (وقد اقتنع هؤلاء الرجال الفقهاء العمليون من أول الأمر بأنهم جميعًا على الحق، وأنهم يخدمون مبدءًا واحدًا، وعلى هذا الأساس كانوا يتبادلون الاحترام الواجب.. ولم يظهر التعصب المذهبي إلا عندما ازداد العجب عند الفقهاء، الأمر الذي كان موضع لوم أهل الجد منهم.. وقد بقي إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المخالفة للمذاهب الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة للتصديق على التساوي ما دامت ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم وحدها)[2]

وتحدث عن أصل (الإجماع) وما يحمله من معاني التحرر، فقال: (وسنلاحظ حقًا أن هذا المبدأ الفقهي وهو الإجماع بالنسبة للإسلام يحمل في طياته بذور التحرر والتطورات المستطاعة، فهو يقدم، ضد ديكتاتورية الجمود وقتل الشخصية، قوة للتعادل، وقد حقق على الأقل في الماضي كعامل مهم مطابقة الإسلام للعصر وقتئذ، فماذا عسى يمكن أن يكون باستعماله في المستقبل؟ وفي الحق أن هذا المبدأ المتبع ملحوظ عند مجددي الإسلام في عصرنا، فهو الباب الذي يجب بواسطته أن تنفذ إلى بناية الإسلام عوامل القوى الشابة)[3]

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فقال: (والحياة في الفقه ليست مقصورة على أمور العبادات وحدها، فالفقه الإسلامي ضمّ فروع الحياة والحقوق المدنية والسياسية والعقوبات. ولا يفلت فصل من فصول الفقه من أن يدخل تحت قاعدة مبنية على أساس ديني، وكل الأمور المتعلقة بالحياة الشخصية أو العامة داخلة في الواجبات الدينية وبواسطة هذا يعتقد الفقهاء أن كل حياة المؤمنين موافقة لطلبات الدين)[4]

وتحدث عن ثراء الفقه الإسلامي، فقال: (ومعرفة الأقوال المتفرعة الكثيرة في دائرة الفقه الإسلامي، من الأدلة التي يسوقها أصحاب المذهب لتأييد مذاهبهم عند الاختلاف في الرأي أو العمل في مذهب آخر، وكذلك نقد هذه الأدلة من وجهة نظر المذهب نفسه، كل ذلك يصور لنا فراغًا عاليًا من الفقه في الإسلام، ويقدم فرصة دائمة لمعرفة الذكاء العلمي في هذه الدائرة التي هي للإسلام في أوطانه ذات فائدة وأهمية خاصة، نظرًا لأهمية هذه الأبحاث، في هذه الدائرة، قد ظهرت فيها منذ العصور القديمة للمدارس الفقهية كتب كثيرة)[5]

وتحدث عن سماحة المسلمين، فقال:(إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي كانت قائمة على روح (التسامح) وعدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبه أن يكون تسامحًا دينيًا في علاقات الحكومات

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢٩.
(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٥٩.
(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٣.
(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٥.
(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٦.

الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر، يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية)[1]

وقال: (روح التسامح في الإسلام قديمًا، تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضًا، كان لها أصلها في القرآن:﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٦)، وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثل للتسامح الديني للخلفاء، إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيرًا ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحكيمة، ومن المثل لذلك عهد النبي مع نصارى نجران، الذي حوى احترام منشآت النصارى، ثم هذه القواعد التي أعطاها لمعاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن (لا يزعج يهودي في يهوديته). وفي هذه الدائرة العالية كانت أيضًا عهود الصلح التي أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام وبموجبها كانوا — في مقابل دفع الجزية — يستطيعون مباشرة شؤونهم الدينية من غير إزعاج لهم)[2]

وقال: (وكما أن مبدأ التسامح كان جاريًا في الأعمال الدينية، كذلك من جهة أخرى كان يراعى فقهيًا، فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب مبدأ الرعاية والتساهل، فظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة. ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب، فحكم عليه بما قاله الرسول: (من ظلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة). وفي عصر أحدث من هذا ما رواه بورتر Porter في كتابه (خمس سنين في دمشق) من أنه رأى بالقرب من بصرى (بيت اليهود) وحكى أنه كان في هذا الموضع مسجد هدمه عمر لأن الحاكم قد اغتصبه من يهودي ليبني عليه هذا المسجد)[3]

وتحدث عن تكامل الشخصية الإسلامية، بمزجها ــ مثلا ــ بين العلم والبطولة، فقال: (إن تاريخ الإسلام زاخر بالأمثلة الكثيرة التي تبين اجتماع مواهب العلم الديني بصفات البطولة الحربية، وذلك في شخصيات قوية قادرة على التوجيه والتنظيم.. وإليك البطل الإسلامي الحديث: الأمير عبد القادر الجزائري الذي قاوم الفرنسيين مقاومة حربية باسلة عندما أخذوا في إخضاع بلاده الجزائر ولما انتهى جهاده جمع حوله في منفاه بدمشق طلابه ومريديه الذين تابعوا في إصغاء واجتهاد دروسه في الفقه المالكي والعلوم الدينية الأخرى في الإسلام وممن يمثل هذه الظاهرة الفذة في تاريخ الإسلام الحديث (شامل) بطل الاستقلال القوقازي والمهديون الحربيون الذي ظهروا في السودان والصومال والذين سمعنا كثيرًا من أخبارهم في أيامنا هذه.. وقد برز هؤلاء المجاهدون أيضًا من صفوف طلاب العلوم الدينية الإسلامية)[4]

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٥.
(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٦.
(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٦ — ٤٧.
(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢٦٥ — ٢٦٦.

٦ ــ أصدقاء من دول شتى

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من دول شتى)، تحته أسماء دول كثيرة، فقلت: ما هذا؟.. إني أرى قاموسا لدول العالم في هذا المحل.

قال: لقد ذكرت في هذا المحل دولا كثيرة مررت بها.. وسمعت من أهلها بعض كلمات الصدق..

١ ـ إسبانيا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (إسبانيا)، فأصابني ألم شديد، فقلت: هذه الأندلس.. وقد ضاعت من أيدينا.

قال: عندما أسأتم تمثيل الإسلام فيها ضاعت من أيديكم.. وما كان لها أن تبقى.. لقد أراد الله بفتحها عليكم أن تملأوا الأرض إيمانا وصلاحا ومحبة وسلاما.. فلما انشغلتم بأودية الهوى، وزخارف الحياة الدنيا، وتصورتموها إقطاعا من إقطاعاتكم التي تتنازعون عليها سلبها منكم.

قلت: فهل يمكن أن تعود إلينا؟

قال: لتملكوها، أم لترشدوها؟

لم أجد ما أجيب به، فقال: أما إن قصدتم ملكها، ليحكمها سلاطين بني الأحمر، فلا أرجعها الله لكم.. وأما إن أردتم أن ترشدوها، فها هي بين أيديكم.. إن لم تملكوا أن ترحلوا إليها بأجسادكم فلترحلوا إليها بالدعوة الصادقة والقدوة الطيبة.

لم أجد ما أجيبه به، فقال: يخطئ قومك حين يربطون الفتوح بالسيوف.. الفتح فتح القلوب، لا فتح السيوف، فالسيوف أضعف من أن تمتد لما تمتد له القلوب.

قلت: صدقت فقد قال الله ﷻ:﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:١)، ثم عقب عليها مباشرة بقوله:﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ (النصر:٢)

جون براند ترند:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جون براند ترند) [1]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات صادقة ترتبط بتاريخ المسلمين وحضارتهم.

منها شهادته على تسامح المسلمين، قال: (في القرن العاشر الميلادي تردّى معظم أوروبا في همجية ووحشية مريعة، على حين أن المسلمين في إسبانيا ضربوا مثلاً رائعًا بما كفلوه لغيرهم من ذوي العقائد المخالفة

---

(١) جون براند ترند (١٨٨٧ – ١٩٥٨) J. Brand Trend رائد من رواد تاريخ إسبانيا. أستاذ في جامعة كمبردج. قام بعدة رحلات في إسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن.

من آثاره (صورة لإسبانيا الحديثة)(١٩٢١)، (موسيقى تاريخ إسبانيا) (١٩٢٥)، (لغة إسبانيا وتاريخها) (١٩٥٣)، وكثير من الكتب الأخرى في هذا المجال.

لمذهبهم من سعة العيش والتسامح)[1]

وقال: (آثر الغزاة المسلمون أن يشتروا من السكان المسيحيين بقرطبة جانبًا من الكاتدرائية القديمة. ورأوا أن ذلك خير لهم من أخذها عنوة واغتصابًا، وهذا شاهد ينطق بما اشتهروا به من التسامح مع أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم)[2]

وفي مقابل ذلك ما لقي العرب من غلظة وشدة من طرف المسيحيين بعد خروج المسلمين، قال: (إن العرب المتنصرين التعساء المعروفين بالموريسكو Moriscos لقوا من المسيحيين من المعاملة السيئة مالا يقابله إلا ما لقيه المسيحيون من المسلمين من التسامح في مرحلة سابقة من تاريخ إسبانيا الإسلامية والمسؤول عن كل ذلك الأمر من بدايته إلى نهايته هم رجال الكنيسة)[3]

ومنها شهادته التقدم الذي وصل إليه المسلمون في الأندلس، قال: (الشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب إسبانيا خلقوا مدنية زاهرة وأتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء أغلب أصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والأغلال مادية كانت أم روحية. أجل فقد لعب عرب إسبانيا دورًا خطيرًا في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قمم الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الأكويني ودانتي)[4]

وقال: (إن قرطبة فاقت كل حواضر أوروبا مدنية أثناء القرن العاشر، كانت في الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومي. فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتوجهون بمطلبهم إلا إلى قرطبة)[5]

ومنها شهادته عن تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس في الحضارة الأوروبية، قال: (ترينا أسماء الأمكنة والألفاظ الشائعة التي بقيت في اللغة الإسبانية حتى الآن مدى تأثيرها باللغة العربية في خير أوقات نموّها. إذ ما أهل القرن العشر، حتى كانت بسائط الحياة الإسبانية قد تأثرت بالإسلام أعمق تأثير. هذا التأثير امتد بسقوط طليطلة فشمل سائر أنحاء أوروبا.. ثم وإن كان بلاط الملك الفونسو بلاطًا مسيحيًا بالاسم « كما تأثر خطاه في هذا المضمار بلاط فردريك الثاني في بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتي عام تقريبًا) فقد كانت مسحة المدنية الإسلامية تغلب عليه.. ولقد كانت مدارس طليطلة تجتذب طلاب العلم من جميع أنحاء أوروبا، وبضمنها إنكلترا)[6]

وقال: (يذهب الناس أحيانًا إلى أن تراث العصور الوسطى ليس إلا تراثًا مسيحيًا خالصًا، وأن المسيحية..

---

(١) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، المجلد الخامس، ص ٢٩.
(٢) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، ٥ / ٧٣٧.
(٣) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، ٥ / ٧٥٥.
(٤) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص ٢٢.
(٥) تراث الإسلام، ص ٢٧.
(٦) تراث الإسلام، ص ٥٤ — ٥٥.

إنما هي السبيل الوحيد لتعرف تاريخ العصور الوسطى. على أن هذا القول ينطوي على إغفال أهم ما ظفرت به النهضة الأوروبية من أثر هام قام بالجانب الأكبر منه مسلمو إسبانيا، ولم يكن حظ مسلمي صقلية وبلاد البرتغال منه قليلاً)[1]

وقال: (اجتذبت مدارس طليطلة إليها الدارسين من سائر أنحاء أوروبا، واستطاع هؤلاء الدارسون بفضل ما تعلموه من اللغة العربية.. أن يتوفروا على ترجمة الكتب من العربية إلى اللاتينية فأسهموا بذلك في تقديم الحركة العلمية في العالم.. فمن مدارس سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة ومالقة تلقى العالم ثقافة المسلمين وعلومهم)[2]

جوان فيرنيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جوان فيرنيه) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، فقال: (في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، اكتسبت حركة الترجمة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وبخاصة في إسبانيا، يثير الإعجاب، وتدفق علم الإغريق والرومان على الأديرة الأوروبية من خلال العقول العربية، وأدمجت الكشوف التي توصل إلى العرب ضمن رصيد من الثقافة الغربية.. وتوافد على (طليطلة) عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين إلى الحصول على المعارف العلمية الشرقية.. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء لم يعملوا معًا كأصحاب مدرسة إلاّ أن إنتاجهم المكثف والغزير قد غيّر شكل المجتمع الأوروبي لكن أولئك العلماء وإن كانوا قد استطاعوا أن يتمثلوا بسهولة النصوص التي وصلت إليهم، أخفقوا في إدخال أي تطوير يذكر عليها)[4]

وقال: (في بداية القرن العشرين بدأت حقبة جديدة من الترجمات العلمية تقدم من العالم الغربي إلى عالم الإسلام، شأنها شأن تلك الحركة التي قدمت من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري (الثامن إلى العاشر الميلادي)[5]

٢ ـ إيطاليا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (إيطاليا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

---

(١) تاريخ العالم، (نشره السير جون. أ. هامرتن): ٥/ ٧٢٩

(٢) تاريخ العالم: ٥/٧٥٩، وعن إنجازات المسلمين في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية والإنسانية، انظر: المرجع نفسه، ٥/٧٣٠، ٧٤٥-٧٤٦، ٧٤٩-٧٥٢، ٧٥٨-٧٥٩.

(٣) جوان فيرنيه J. Gines Vernet تخرج من جامعة برشلونة، وسمي أستاذًا للعربية فيها عام ١٩٥٤م.
من آثاره: ترجم القرآن الكريم إلى الإسبانية (١٩٥٣)، و(الف ليلة وليلة)، وحقق عددًا من النصوص، كما كتب العديد من المقالات في الفلك والجغرافية.

(٤) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث) ٣ / ٢١٤ – ٢١٥.

(٥) تراث الإسلام، ٣/٢١٨، وعن إنجازات المسلمين في ميادين الرياضيات والفلك والبصريات، انظر: المرجع نفسه ٣/١٦٨، ١٧٠، ١٧٢-١٧٤، ١٧٦-١٨٣، ١٨٨-١٩٤، ١٩٦-٢١٣، ٢١٦-٢١٨.

لورا فيشيا فاغليري:

قلت: من هي (لورا فيشيا فاغليري) [1] ؟.. وما شهاداتها؟

قال: هذه امرأة إيطالية تمتلئ صدقا.. وتفيض محبة.. وقد دافعت عن الإسلام وكأنها أحد أبنائه.

قلت: شوقتني إليها، وإلى أحاديثها، فأخبرني عنها.

قال: لهذه المرأة الفاضلة شهادات كثيرة لا يمكنني ذكرها جميعا هنا.. ولكني سأذكر لك خمسة أنواع من الشهادات.

قلت: فما أولاها؟

قال: شهادتها المرتبطة بالقرآن الكريم.. فقد تحدثت عن القرآن الكريم بصدق عظيم، فاعتبرته معجزة بكل المقاييس، قالت: (إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نَفَسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا – وهما صفتان لا تجتمعان عادة – حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟)[2]

وهي تستدل بحفظه من التحريف على مصدره الإلهي، قالت: (لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصّه ظل صافيًا غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تتريله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، مادام الكون)[3]

وقالت: (من حسن الطالع أن الجمود مرض لابدّ أن يزول، بل إنه في الواقع شرع يزول في ما يبدو. فإلى الكتاب العزيز الذي لم يحرّفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع

---

(١) لورا فيشيا فاغليري L. Veccia Vaglieri باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها.

من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (١٩٣٧ – ١٩٤١)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢)، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ – ٥٧.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٥٨ – ٥٩.

عليهم السلام، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب. وثمة بيّنات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلاً)[1]

وهي تذكر ما يتميز به القرآن الكريم من الجاذبية، فقالت: (إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يومًا بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًا عميقًا من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها)[2]

وهي تذكر مدى انسجام ما ذكره القرآن من الكونيات مع البحث العلمي: (فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم.. لا يقيم أيما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد)[3]

قلت: فما الثانية؟

قال: شهاداتها حول رسول الله ﷺ.. فلها ثناء عطر على رسول الله ﷺ يعبر عما يحمله قلبها من محبة له.

قالت: (كان محمد المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا اعتقادًا منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيدًا أن الله لابد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري)[4]

وقالت: (حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمدًا كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك وحاشاه رجلاً كاذبًا؟كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثًا موصولاً؟كيف استطاع أن يستهل صراعًا كان يبدو يائسًا؟كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جدًا، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته؟كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين

---

(١) دفاع عن الإسلام، ص ١٣٣ — ١٣٤.
(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٥٩.
(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٦٠.
(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٧٣.

الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقًا وأكيدًا)[1]

وقالت: (دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرّفتين على أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى)[2]

وهي ترد بصدق وعلم على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فتقول: (إن محمدًا طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقودًا أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحدة ليس غير، هي خديجة التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير، وأنه ظل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج كرة ثانية، وأكثر من مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زواج من زواجاته هذه سبب اجتماعي أو سياسي، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام وباستثناء عائشة، ليس غير، تزوج محمد من نسوة لم يكنّ لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟لقد كان رجلاً لا إلهًا. وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته أيضًا إلى الزواج من جديد، لأن الأولاد الذين أنجبتهم خديجة له كانوا قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائمًا سبيل المساواة الكاملة نحوهن جميعًا، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفاوت مع أي منهن. لقد تصرف متأسّيًا بسنة الأنبياء القدامى، مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحدًا من الناس يعترض على زواجهم المتعدد. فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجهل تفاصيل حياتهم اليومية، على حين نعرف كل شيء عن حياة محمد العائلية؟)[3]

قلت: فما الثالثة؟

قال: شهاداتها عن الدعوة الإسلامية، وكيفية انتشار الإسلام، فقد قالت: (إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض)[4]

---

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٧ — ٣٨.
(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٤٣.
(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٩٩ — ١٠٠.
(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٥٩.

وقالت: (كانت حملة كبيرة على سوريا.. رهن الإعداد، عندما أسكت الموت إلى الأبد صوت النبي الذي كان قد أحدث هذه الهزة العميقة في تلك القلوب كلها، والذي كان مقدرًا له أن يستهوي عما قريب شعوبًا أخرى تقيم في مواطن أكثر إمعانًا في البعد. وكان في السنة الحادية عشرة من الهجرة)[1]

وقالت: (إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه ﴿ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الانبياء: من الآية١٠٧) هي نداء مباشر للعالم كله. وهذا دليل ساطع على أن الرسول شعر في يقين كلّي أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية وأن عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة)[2]

وقالت: (بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشكالها. لقد حرّر مفهوم الكون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسوخ التي كانت تحط من قدرها، وحررت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر، مكانته الرفيعة.. لقد حررت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقته موثقًا إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعونها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظة الألغاز المقدسة الزائفون، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والإنسان والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى خادم الله وحده، ولم تعد تشده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحرّ نحو الإنسان الحرّ. وبينما قاسى الناس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جُعل التفاضل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوف الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير)[3]

وقالت: (إن التاريخ لم يشهد، قط، ظاهرة مثل ظاهرة الفتوحات هذه من قبل ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الإسلام فتوحه، والتي تحوّل بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس. ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرّيّة التي مكنت جماعة من المحاربين.. من الانتصار على شعوب متفوقة عليه تفوقًا كبيرًا في الحضارة، والثروة، والخبرة، والقدرة على شن الحرب. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلها، وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرنًا بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها، وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا، وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد، وأن يفرغوا في عقول أتباعهم، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم إيمانًا متقدًا لا يحجم عن

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٣.
(٢) عن الإسلام، ص ٢٤ — ٢٥.
(٣) عن الإسلام، ص ٤٥ — ٤٧.

القيام بأيما تضحية مهما غلت)[1]

وقالت: (لقد تحرك الجيش الإسلامي في سرعة، وتتابعت المعارك، وبدا النجاح وكأنه قد جعل لأقدام الفاتحين أجنحة: فقد ترددت في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان أصداء الأنباء البهيجة الحاملة بشائر الانتصارات الرائعة. وقد اتبعت هذه الانتصارات بتنظيم البلدان المفتوحة وتوطيد أقدام العرب فيها. ولم يكن هذا الصنيع أقل إعجازًا من الفتوح نفسها. لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان، وإذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى. لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد، بسيط، سهل، يخاطب القلب والعقل جميعًا، وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حد بعيد — في خصائصه ومبادئه الأخلاقية — من تلك المعروفة في ذلك العصر. وبدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السراة ينتقل إلى أيدي الفقراء، مستهلاً نظامًا في التداول السليم كرة أخرى وفي ظل من حكومة تسيّرها مثل عليا ديمقراطية أمينة، وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعًا من النظام الجديد، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة. ومن الممكن القول، في اطمئنان، أن البلاد المفتوحة عرفت — على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة التي تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح — عهدًا من الرخاء والازدهار، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة. وإلى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة وحقوق المدنية وأموالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التي نعم بها المسلمون أنفسهم)[2]

وقالت: (أزعج التحول السياسي والديني العميق الذي أحدثته الفتوحات طائفة من الناس فراحوا يتساءلون ما الذي أدى إلى حدوثه، ولكن كثيرًا منهم كان عميًا، أو كانوا يغمضون أعينهم عمدًا هائمين طويلاً وعلى نحو يائس في متاهة التخمينات الخاطئة. إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن القوة الإلهية وحدها كان في ميسورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسعة. إنهم لم يريدوا أن يعتقدوا أن حكمة الله وحدها كانت مسؤولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع عليهم السلام والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد. أن مثل هذه الرسالة كان يتعين عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجنس البشري من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والأوطان والأعراق. لقد كان أولئك إما عميًا وإما غير راغبين في أن يروا)[3]

وقالت: (كان العرب المنتصرون مستعدين دائمًا — حتى وهم في أوج قوتهم وانتصارهم — لأن يقولوا لأعدائهم: (ألقوا السلاح وادفعوا جزية يسيرة نسبغ عليكم حماية كاملة. أو اتخذوا الإسلام دينًا وادخلوا في ملتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن). وإذا نظرنا إلى ما أوحي إلى محمد أو إلى الفتوح الإسلامية الأولى سهل علينا أن نرى مدى الخطأ الذي ينطوي عليه الاتهام القائل بأن الإسلام فرض بالسيف وأن انتشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره إلا بهذه الوسيلة)[4]

---

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٢٢.
(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٢٦ — ٢٨.
(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٢٨.
(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٣٢.

وقالت: (كان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول في الدين الجديد. والجيوش الإسلامية ما كانت تتبع بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم، وما كانت تضع المبشرين في مراكز محاطة بضروب الامتياز لكي ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها. ليس هذا فحسب. بل لقد فرض المسلمون، في فترة من الفترات، على كل راغب في الدخول في الإسلام، أن يسلك مسلكًا لا يساعد من غير ريب على تيسير انتشار الإسلام. ذلك أنهم طلبوا إلى الراغبين في اعتناق الدين الجديد أن يمثلوا أمام القاضي ويعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأي ضغط، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أي كسب دنيوي. والواقع أن اليهود والنصارى لم يمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب، بل عهد إليهم في تولّي المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين)[1]

قلت: فما الرابعة؟

قال: شهاداتها المرتبطة بالحضارة الإسلامية، ومن ذلك قولها: (كيف نستطيع أن نقول إن الإسلام عاق نموّ الثقافة في القرون السالفة ونحن نعلم أن بلاطات الإسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافة لأوروبا الغارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأن أفكار الفلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم، وأن هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، وأن المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كانت مشرعة الأبواب آنذاك في وجه العلماء والدارسين في طول العالم الإسلامي وعرضه؟ ألم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن بيكون ضرورتها بزمن طويل؟ وتطور الكيمياء، وعلم الفلك، ونشر العلم الإغريقي، وتعزيز دراسة الطب، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية، أليست هذه من مآثر العرب؟)[2]

وقالت: (نشأ الإسلام، مثل ينبوع من الماء الصافي النمير، وسط شعب همجي يحيا في بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الإنساني. وكان ذلك الينبوع غزيرًا إلى درجة جعلته يتحول، وشيكًا، إلى جدول، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد. وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية سويت المنازعات وجمع شمل الجماعات المتناحرة. وبدلاً من الثأر الذي كان هو القانون الأعلى والذي كان يشد العشائر المنحدرة من أصل واحد في رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشد بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين. وما إن أمسى هذا الينبوع نهرًا لا سبيل إلى مقاومته حتى طوق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة. وقبل أن توفق شعوب تلك الممالك إلى إدراك مغزى الحدث الحقيقي داهمها ذلك التيار، قاهرًا البلاد، محطمًا الحواجز، موقظًا بصخبه عقولاً وسنى، منشئاً من أكبر عدد من الشعوب المتباينة، مجتمعًا موحدًا)[3]

---

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٥ — ٣٦.
(٢) دفاع عن الإسلام، ص ١٣٠ — ١٣١.
(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٢١ — ٢٢.

قلت: فما الخامسة؟

قال: شهاداتها عن نظام الأسرة الذي شرعه الإسلام، فقد قالت: (في ما يتصل بالزواج لا تطالب السّنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكرًا الله من ناحية، ومحترمًا حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية)[1]

وقالت: (إنه لم يقم الدليل حتى الآن، بأي طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم. ولكنا نؤثر ألا نناقش المسألة على هذا الصعيد. وفي استطاعتنا أيضاً أن نصرّ على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائي في الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرًّا قبل الإسلام، مطلقًا من كل قيد. لقد شجب الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت التي كانت في الواقع أشكالاً مختلفة للتسرّي الشرعي (المعاشرة من غير الزواج). وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقًا لم تكن معروفة قط من قبل. وفي استطاعتنا، في كثير من اليسر، أن نحشر الشواهد المؤيدة لذلك)[2]

وقالت: (القرآن يبيح الطلاق. ومادام المجتمع الغربي قد ارتضى الطلاق أيضاً، واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه في مكان تقريبًا صفة شرعية كاملة ففي ميسورنا أن نغفل الدفاع عن اعتراف الإسلام به. ومع ذلك فإننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب في الجاهلية وبين الشريعة الإسلامية، نفوز بفرصة نظهر فيها أن القانون الإسلامي قد دشن في هذا المجال أيضاً إصلاحًا اجتماعيًّا. فقبل عهد الرسول كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة.. أما القانون الإلهي فقد سنّ بعض القواعد التي لا تجيز إبطال الطلاق فحسب بل التي توصى به في بعض الأحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء إلى القاضي، وفي إمكانها أن تفوز بذلك إذا كان لديها سبب وجيه يبرّره. والغرض من هذا التقيد لحق المرأة في المبادرة هو وضع حد لممارسة الطلاق، لأن الرجال يعتبرون أقل استهدفًا لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضي ضمانًا لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية الناشئة عن إنجاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الأخرى التي تنصّ على أنه في حال نشوب خلاف داخل الأسرة يتعين اللجوء إلى بعض الموفقين ابتغاء الوصول إلى تفاهم، تنهضان دليلاً كافيًا على أن الإسلام يعتبر الطلاق عملاً جديرًا باللوم والتعنيف. والآيات القرآنية تقرر ذلك في صراحة بالغة.. وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها)[3]

وقالت: (اجتنابًا للإغراء بسوء ودفعًا لنتائجه يتعيّن على المرأة المسلمة أن تتخذ حجابًا، وأن تستر جسدها كله، ماعدا تلك الأجزاء التي تعتبر حريتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئًا عن قلة احترام

---

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٨٨.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٩٧ — ٩٨.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ١٠١ — ١٠٣.

للنساء، أو ابتغاء كبت إرادقمن، ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلتا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تثمن للمجتمع الإسلامي)[1]

وقالت: (إذا كانت المرأة قد بلغت، من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا، مكانة رفيعة، فإن مركزها، شرعيًّا على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جدًّا، ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. إن المرأة المسلمة إلى جانب تمتعها بحق الوراثة مثل إخوتها، ولو بنسبة أصغر، وبحقها في أن لا تزف إلى أحد إلا بموافقتها الحرة، وفي أن لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع أيضاً بحق الحصول على مهر من الزوج، وبحق إعالته إياها، وتتمتع بأكمل الحرية، إذا كانت مؤهلة لذلك شرعيًّا، في إدارة ممتلكاتها الشخصية)[2]

سكت البابا، فقلت: لا أرى إلا أن هذه المرأة الصالحة امرأة مؤمنة تكتم إيمانها، فيستحيل على من يفيض قلبه بهذه الكلمات أن لا يكون قد امتلأ عشقا لهذا الدين، ولنبي هذا الدين.

قال: صدقت.. فقد يتكلف المرء كل شيء إلا في هذا.

دافيد دي سانتيلانا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (دافيد دي سانتيلانا) [3]، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل كتب له أن يعيش بين المسلمين.. وكتب لعينيه أن تكتحلا بجمال الشريعة.. ولذلك تجد في كلماته من الصدق ما يرفعه في عينك إلى مرتبة قد تخطئ في التعبير عنها.

قلت: فما شهاداته؟

قال: لقد تحدث عن قدرة رسول الله ﷺ على تحويل الولاء للقبيلة الذي يمثل العنصرية إلى الولاء للإسلام الذي يمثل الولاء للفكرة، فقال: (ما كان من محمد إلا أن تناول المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًا جديدًا.. هذا العمل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة. إن محمدًا هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية Gentes والموالاة والجماعات المتحالفة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته في

(١) دفاع عن الإسلام، ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ١٠٦.

(٣) دافيد دي سانتيلانا (١٨٤٥ – ١٩٣١) David de Santillana ولد في تونس، ودرس في روما، أحرز الدكتوراه في القانون، فدعاه المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانونين المدني والتجاري معتمدًا بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية ومنسقًا إياهما بحسب القوانين الأوروبية. كان على معرفة واسعة بالمذهبين المالكي والشافعي، وفي سنة ١٩١٠ عين أستاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية، وله محاضرات قيمة فيها. ثم استدعته جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامي.

من آثاره: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، كتاب (الفقه الإسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي).. وغيرها.

الإيمان). فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)[1]

وتحدث عن ثمرة ذلك، فقال: (ذلكم هو شكل النظام الجديد الذي دعا إليه محمد.. ونحن نجد في ظله أن قيمة الفرد بدأت تتضح وكينونته البشرية أخذت تبرز إلى عالم الوجود فصار يستمد حقوقه وواجباته من إيمانه ويستقيها من معين دينه لا من روابطه الاجتماعية والعرفية. فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الإسلامي)[2]

وتحدث عن الوجهة التي يتوجه إليها ولاء المؤمن، فقال: (إن أساس الوحدة الاجتماعية يمثله (الله) في الإسلام. فالله هو الاسم الذي يطلق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله)، والجند هم (جند الله)، حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقل قوة من ذلك ولا يوجد بين المؤمن وربه (وسيط)، وما دام الإسلام لا يقرّ بسلطان كنسي وكهنوتي ولا يعترف بأسرار كنيسة مقدسة، فأي فائدة ترتجى من الوسيط بين الإنسان وبين خالقه الذي كان يعرفه قبل أن يبدعه والذي هو ﴿ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)(قّ: من الآية١٦).. إن الله بعد أن أرسل إلى البشر خاتمة أنبيائه وكلمته النهائية، لم يعد ثم من ينطق بلسانه أو يعرف عن إرادته. الإنسان وحده ماثل أمام الله في حياته وموته وله أن يخاطبه رأسًا بلا وسيط، أو شفاعة أو (إجراءات).. والإنسان من فجر حياته حتى موته تحت أنظار الله وهو وحده يمثل أمام الله يوم الحشر.. إن اشد المذاهب البروتستانتية صرامة إنما تكاد تكون مذهبًا كهنوتيًا صرفًا إذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة التي لا تلين ولا تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق)[3]

وتحدث عن عالمية الرسالة، فقال: (كان محمد رسول الله إلى الشعوب الأخرى، كما كان رسول الله إلى العرب)[4]

وتحدث عن رعاية الشريعة للمصالح، فقال: (إن مبادئ الإسلام القانونية على تعدد أشكالها، تؤول إلى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون: الإلهي مصدرًا والبشري هدفًا، إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتبينها لأول وهلة. لأن الله لا يمكن أن يعمل شيئًا لا تتجلى فيه الحكمة والرأفة اللتان هما باعثاه الأساسيان. لما كان البشر من روح وجسد فلابد أن يكون للمرء اتجاهان في الحياة: اتجاه روحي واتجاه جسدي (مادي ومعنوي) وعلى هذا الأساس كانت القواعد (الحدود) الإلهية التي وضعها الله لتدبير البشر منقسمة إلى قسمين: ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها بالجسد. فالدين والقانون هما نظامان متباينان لكنهما متلاحمان يتم أحدهما الآخر باتحادهما في المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه)[5]

وقال: (لما كان الشرع الإسلامي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافًا

---

(١) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٤٠٥ — ٤٠٦.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٠٦

(٣) تراث الإسلام، ص ٤٠٩ — ٤١٠.

(٤) تراث الإسلام، ص ٤٠٦.

(٥) تراث الإسلام، ص ٤١٣ — ٤١٤.

لشريعتنا من بعض الوجوه. ثم إنها علم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلي.. وتستند إلى اللغة.. إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي. فيقول أتباع المذهب الحنفي أن القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير. إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق. ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة.. إن المنفعة هي مبدأ الفقهاء والمشرعين، ولقد أدرك العرب بوضوح تام سرّ هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب.. أن هذا التفاعل المستمر للفقه في الحياة يمكن تتبعه في مسالك التاريخ الإسلامي)[1]

ورد على من يدعي استمداد الشريعة من القانون الروماني، فقال: (عبثًا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك. إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً)[2]

فرانشيسكو كابرييلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فرانشيسكو كابرييلي) [3]، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد حدثتني حديثه في رحلتك السابقة[4].

قال: أجل.. وسأحدثك اليوم عن بعض شهاداته:

فقد تحدث عن قدرة الإسلام على الانسجام مع البيئات المختلفة، والتأثير فيها، فقال: (إنها القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نمت في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حدّ يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها)[5]

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، فقال: (إن الاتصالات بين العالم المسيحي، الذي كان مهلهلاً محصورًا، وبين الإسلام الغازي في منطقة البحر المتوسط، كانت على ما يبدو متكررة ومثمرة..

---

(١) تراث الإسلام، ص ٤٣٣ – ٤٣٤.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٣١، وسنرد على هذه الشبهة في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) فرانشيسكو كابرييلي Francesco, Gabrieli ولد عام ١٩٠٤، كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما، برز في دراسة الشعر العربي من الجاهلية حتى العصر الحديث وفي تحقيق التاريخ الإسلامي، وانتخب عضوًا في عدد من المجامع والجمعيات العلمية.

من آثاره: ألف العديد من الأبحاث والمصنفات منها: (تاريخ المسلمين للحروب الصليبية) (١٩٢٩)، و(العصبية لدى ابن خلدون) (١٩٣٠)، و(عمر الخيام) (١٩٣٠)، و(ابن المقفع)، و(العيد الألفي للمتنبي) (١٩٣٦)، و(أصل الخوارج) (١٩٤٢)، وغيرها.

(٤) انظر: رسالة(ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(٥) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث ١/١٠١).

لقد تسرّب (تراث) الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى إلى الغرب وتغلغل فيه)[1]

وقال: (إن ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية لإسبانيا في المجالات الثقافية والأدبية والفنية خلفته أيضًا لأوروبا بوصفه عنصرًا خصبًا من العناصر المكونة للحضارة الغربية)[2]

وتحدث عن إسلامية الحضارة الإسلامية، فقال: (من الواضح أننا نعني بالإسلام هنا كل (الحضارة الإسلامية) التي تطورت بما لها من مظهر خاص، من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي والتي قامت على الإيمان برسالة الرسول محمد.. ولا ريب أن العقيدة الدينية قد زودت هذه الحضارة ليس بعاملها المشترك فحسب، بل بمحورها ومظهرها الأساسي أيضًا. وأن كل مظاهر الحياة الأخرى من مادية وروحية ومن سياسية وأدبية واقتصادية واجتماعية، تحمل طابع هذا العنصر الديني يعكس عليها ألوانه، وتنمو وتتسع تحت تأثيره. وقد قال أحدهم إن الإسلام دين (عالمي شامل) أكثر من أي دين آخر، ويشمل تأثيره الإنسان بأكمله وليس شعوره الديني وحده)[3]

وتحدث عن تأثير الإسلام في كل مناحي الحياة، فقال: (إن الطابع الإسلامي إذا غلب على أمة من الأمم، لا يمكن محوه البتة وأن كبار الشعراء حتى حينما يعالجون موضوعات سابقة للإسلام وخارجة عنه يطبعونه بالطابع الإسلامي أيضًا)[4]

٣ - بلجيكا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بلجيكا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

جورج سارتون:

قلت: من هو جورج سارتون[5] ؟

قال: هذا رجل مهتم بتاريخ العلوم، وقد كان له من البحث الصادق ما جعله أوسع من أن ينحصر في مجال تخصصه، فلهذا عرف من الحقائق ما جعله يشهد لها.

---

(١) تراث الإسلام، ١ / ١٠٩.

(٢) تراث الإسلام، ١ / ١٤٣.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ١٢٣.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٤١.

(٥) جورج سارتون (١٨٨٤ – ١٩٥٦) G. Sarton ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١)، فلما نشبت الحرب رحل إلى إنكلترا، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسيتها فعين محاضرًا في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد (١٩١٧-١٩٤٩). وقد انكب على دراسة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩٣١-١٩٣٢) وألقى فيها وفي كلية المقاصد الإسلامية محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، زار عددًا من البلدان العربية، وتمرس بالعديد من اللغات، ومنح عدة شهادات دكتوراه كما انتخب عضوًا في عشرة مجامع علمية وفي عديد من الجمعيات العالمية، وأشرف على عدد من المجلات العلمية.

من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخير تصانيفه وأجمعها: (المدخل إلى تاريخ العلم) في خمسة مجلدات (١٩٢٧، ١٩٣١، ١٩٤٧).

لقد ذكر القرآن، وتأثيره في اللغة العربية، فقال: (إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة.. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد،.. وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة)[1]

وتحدث عن صفات رسول الله ﷺ وفضله، فقال: (صدع الرسول بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يوم ذاك أربعون سنة، وكان مثل إخوانه الأنبياء السابقين ولكن كان أفضل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهدًا وفقيهًا ومشرعًا ورجلاً عمليًا)[2]

بل إنه اعتبر انتصار رسول الله ﷺ أعظم انتصار حققه نبي من الأنبياء، فقال: (إنه لم يتح لنبي من قبل.. أن ينتصر انتصارًا تامًا كانتصار محمد)[3]

وقال: (كان النبي محمد أشمل في دعوته وأعمق من كل من سواه من الأنبياء)[4]

وذكر اثر النبي ﷺ في الحضارة الإسلامية، فقال: (لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية [5]، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم)[6]

واعتبر المنجزات التي حققها رسول الله ﷺ أعظم المنجزات في تاريخ البشرية، فقال: (ثمة حادثة واحدة من أخصب الحوادث نتائج في تاريخ الإنسانية ألا وهي ظهور الإسلام)[7]

وتحدث عن شمولية الإسلام للدين والدولة، فقال: (كانت الهجرة حدًا فاصلاً في حياة الرسول، وفي تاريخ الدين الجديد. إنها البدء الرسمي للإسلام كدين ودولة معًا)[8]

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية، ومراعاتها للفطرة، فقال: (ليس في أركان الإسلام الخمسة شيء ينفر منه غير المسلم وعلى الرغم من بساطة هذه الفروض وقلة عددها فإنه لم يكن بالإمكان إدخال إصلاح ما عليها يقود إلى أن تثبت العقيدة الإسلامية في نفسه كل مسلم أو تقوى بعد ثبوتها ثم يسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلاً. إن القيمة العملية للعقيدة الإسلامية لها دليل ذاتي من قوتها ورسوخها وانتشارها)[9]

وقال: (إن فرض الصيام في كل نهار من مطلع الفجر إلى غياب الشمس شهرًا كاملاً كان امتحانًا قاسيًا لكل مسلم.. ولكنه كان وسيلة بارعة لسبر غور الإيمان في صدر كل مسلم ولتثبيت ذلك الإيمان أيضًا.. ولقد أدرك الإسلام الحاجة إلى تنظيم شديد كيما يقوى إيمان المسلمين وتتطهر قلوبهم. من أجل ذلك كان شهر الصيام والحج من التمارين التي تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام، إن كثيرًا من كنائسنا نحن قد

---

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٧ — ٣٨.
(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٢٩ — ٣٠ — ٣١.
(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٣.
(٤) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته، ١٤٠.
(٥) الثقافة العربية في مجموعها ثقافة إسلامية.
(٦) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٣.
(٧) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٢٨.
(٨) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٠.
(٩) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٢.

ضعفت إلى درجة التفاهة لتساهلها ولفقدان التنظيم فيها ولقلة ما تفرضه على أتباعها. إن اتباع هذه الكنائس إذا دفعوا اشتراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) عدوا من المؤمنين حقًا. إن مثل هذه الكنائس قد تكون غنية، ومع ذلك فإنها، من حيث التأثير، في حكم المفقودة. فإذا كنتم تريدون أتباع كنائس ذوي إيمان فعليكم أن تفرضوا عليهم نظامًا شديدًا وأن تطلبوا منهم تضحيات حقيقية. ولقد عرف محمد ذلك جيدًا، وهذه علامة أخرى من علامات عبقرية النبوة فيه)[1]

وتحدث عن حكمة الإسلام من تحريم الخمر، فقال: (حرم الإسلام الخمر في مطلع دعوته، وها نحن اليوم بعد أن انتشرت الخمور وزادت نسبة الكحول فيها إلى درجة فتاكة ندرك حكمة الإسلام وبعد نظره)[2]

وتحدث عن سماحة الإسلام، فقال: (ما تميز به الإسلام من السماحة والبساطة والاعتدال، يسرّ لأي إنسان في أي موطن، أن يتقبله وينفذ إلى روحه وجوهره منذ اللحظة الأولى)[3]

وتحدث عن القيم التي كان يحملها الفاتحون، فقال: (إن الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين، ولكنهم كانوا موحدين تمامًا، وكان يعمر قلوبهم إيمان وطيد. وفي هذه أيضًا انتصر النبي انتصارًا بيّنًا. أن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون في سلّم المدنية، بل كان في الأكثر صراعًا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة في المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة في المحل الثاني)[4]

وقال: (إن تفاصيل تلك الجهود المدهشة في الفتح الإسلامي تهم المؤرخين السياسيين ولكن الحالة النفسية للأسس التي تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجانبين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هي ذات أهمية كبرى لمؤرخي العلم. لقد سبق للإيمان المسيحي أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدت قرونًا عديدة، والحرمانات المتبادلة، فقاد ذلك إلى أن استقبل النصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية ثم أن الإسلام.. كان لا يزال غضًا موحدًا، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبّهم آمال عظام.. وكان الإيمان في الإسلام بسيطًا، كريمًا ومعتدلاً، ومن ذلك فقد كان بالإمكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس على حد بعيد فينقلب المجاهدون حينئذ ذوي حمية إما أن يبلغوا بها الظفر أو أن يسقطوا دونه شهداء. لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم سِيَّين)[5]

وقال: (وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة، كان يشعر المسلم في كل مكان بأنه في بلده، سواء أكان في رحلاته خارج الحدود أم في معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية)[6]

وتحدث عن انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى، فقال: (إن إدراك الفاتحين لضرورة الأخذ عن ثقافات الشعوب المفتوحة قد فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربي، آتين بكلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما

---

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٠ — ٤٢.
(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٠.
(٣) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٤٠.
(٤) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٦.
(٥) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٧.
(٦) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٧.

بلغ إليه العرب في الثقافة والعلم مما يخرج تقريبًا عن نطاق التصديق وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث وللبراعة الفنية في أثناء العصر الميجي ١٨٦٨-١٩١٢م. إن هذه الموازنة مفيدة، لأن الموقف كان في الحالين واحدًا. إن قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة إلى العلم اليوناني بقدر ما أدرك اليابانيون في الجيلين السابقين حاجتهم إلى العلم الأوروبي الحديث. ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة، الحاجة الملحة. على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالإرادة وبنوع من النشاط الروحي الذي يتغلب على المصاعب الشاقة)[1]

وقال: (إن غرابة العلم العربي وخصبه معًا يرجعان في الحقيقة إلى أن ذلك العلم قد جمع العناصر اليونانية إلى العناصر الشرقية وخلق منها مركبًا جديدًا، أو أنه جعل خلق هذا المركب ممكنًا في المستقبل. ولقد كان بالإمكان أن ينتقل العلم اليوناني على يد أوروبا اللاتينية لو لم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تمامًا عن النصرانية الأرثوذكسية بجدار من التعصب وسوء الظن والبغض. وبما أن هذا الجدار كان لسوء الحظ موجودًا، فإنه لم يكن من سبيل إلى اتصال العلم اليوناني السابق بالمستقبل التالي إلا من طريق المنحنى العربي. وإذا نحن نظرنا إلى العلم العربي من وجهة نظر التطور الإنساني عمومًا، وجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات أهمية بالغة، ذلك لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا البوذية)[2]

وتحدث عن امتداد الثقافة الإسلامية، فقال: (إن الأهمية العظمى التي يتمتع بها الشرق الأوسط على أنه مهد للثقافة الغربية قد قام البرهان عليه.. ولكن حب الحقيقة يحملنا على أن نبدي تحفظًا.. أن الثقافة العربية التي كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون أخر (ولنذكر أن ستة قرون ليست شيئًا يسيرًا) قد درجت من ذلك المهد، لا شك في ذلك. ولكن الفتوح الإسلامية قد مدّتها شرقًا إلى الهند وأواسط آسيا حتى الصين ثم غربًا إلى إسبانيا ومراكش، أي إلى طرف العالم. فإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب فإننا نكون قد جئنا شيئًا غريبًا، إذ أن تلك الثقافة كانت قد امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى)[3]

وتحدث عن عظم المآثر التي خلفها المسلمون، فقال: (إن المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية — وذلك بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد- كانت عظيمة إلى درجة تخمل أفهامنا. على أن التأخر الذي أصاب المسلمين والعرب كان مستغربًا جدًا في سرعته واكتماله كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة جدًا أيضًا. وسيحاول العلماء الدارسون أبدًا تعليل ذلك، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جدًا، ولأن الإجابة عليها بالأساليب العادية تقع في نطاق

---

(١) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٩.
(٢) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٥٧.
(٣) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٥٧ — ٥٨.

المستحيل)[1]

وقال: (مرة أخرى نستعمل كلمة (معجزة) لأن ما تحقق على أيدي العرب في ميدان العلوم لا يكاد يصدّق. ولم يحدث قط في تاريخ الإنسانية أن تمكن قوم من العلم هذا التمكن السريع، إلا في حالة واحدة أخرى هي ما حققه عصر الإمبراطور موتسوهيتو Mutsuhito ١٨٦٨-١٩١٢ لليابان من علم وفن حديث. والحق أن بين هاتين الحالتين من النهضة الإنسانية شبهًا أساسيًا)[2]

وتنبأ عن نهضة جديدة للعالم الإسلامي تمكنه من قيادة العالم، فقال: (إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم في حقبتين طويلتين، طوال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان، ثم في العصور الوسطى مدى أربعة قرون على الأقل. من أجل ذلك ليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد)[3]

وقال: (ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تباري أسلافها وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى في قيادة العالم. ومع أن ذلك ليس سهلاً — ثم هو يصبح أشد صعوبة يومًا بعد يوم — فإنه ممكن)[4]

وهو ينتقد التقدم المادي المجرد عن الدين، ويدعو إلى الدين المبني على الحب، قال:(إن التقدم المادي الخالص مدمّر، وهو ليس تقدمًا على الإطلاق، بل تأخر أساسي. أن التقدم الصحيح — ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة — لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله، على العلم، العلم الخالص، على محبة الله، على محبة الحقيقة، وعلى حب الجمال وحب العدل. وهذا يبدو لنا جليًا حينما نلقي نظرة واحدة إلى الوراء. من هم أولئك الذين كانوا رجالاً عظامًا في التاريخ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها؟ لقد كانوا رجالاً أمثال أفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس في تاريخ اليونان. أما في أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالاً من أمثال الفارابي وابن سينا وابن الهيثم والبيروني والغزالي وابن رشد وموسى بن ميمون وأبي الفداء وابن خلدون.. إن ما نراه واضحًا حينما نلقي نظرة إلى الوراء يجب أن يكون واضحًا أيضًا حينما نمد نظرنا إلى الأمام فيهدي خطانا إلى المستقبل)[5]

(إن المدنية ليست مرضًا، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شرًا وفسادًا والمدنية ليست شرقية ولا غربية، وليس مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد. إنما يمكن أن تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها من غير أن يسيئوا استعمالها. والشرق الأوسط كان مهد الثقافة ومنه جاءت أسباب إنقاذ العالم في أثناء العصور الوسطى حينما بدأ الستار الحديدي في أوروبة يشطر العالم شطرين الأرثوذكسي والكاثوليكي. وها نحن اليوم ننظر إلى ماضي الشرق الأوسط بعين

---

(١) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٦١.
(٢) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلي يونغ)، ص ١٣٦.
(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٦٩.
(٤) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٠.
(٥) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٢ — ٧٣.

من عرفان الجميل ثم نرنو إلى مستقبله بعين من الأمل الحلو)[1]

قلت: إن شهادات هذا الرجل تنبئ عن فهم عميق للإسلام.

قال: لعل الأمر أعمق من أن يكون مجرد فهم.. فحديث هذا الرجل عن حب الله في هذا العصر لا يدل إلا على الأعماق التي جعلته يصرح بهذه التصريحات.

٤ ـ النمسا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (النمسا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

الكاردينال كوينج:

قلت: من هو الكاردينال كوينج[2]؟

قال: هذا رجل دين من النمسا.

قلت: كيف يكون رجل دين، ويشهد للإسلام؟

قال: ليس ذلك مستغربا.. فلابد أن يعيش الإنسان في حياته لحظة من لحظات الصدق.. وهذه اللحظات قد تنطقه بشهادة الحق التي ظل يبتعد عنها طول حياته.

قلت: فاذكر لي شهادات هذا الرجل.

قال: من شهاداته شهادته حول اهتمام القرآن بالفكر، مبينا اتفاقه مع الكتاب المقدس في هذا، قال: (يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان ومحاولته الوصول إلى خالقه في هذه الآيات البينات:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:١٦٤)، ويحدثنا الكتاب المقدس عن هذا المعنى في هذه العبارة: (أن قدرة الله الأزلية وألوهيته منذ خلق العالم، تتجلى في مخلوقاته بنور الفكر الإنساني)[3]

وذكر اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد، بل اعتباره الغاية الأسمى منه، فقال: (إن تاريخ الدين بوجه عام وتاريخ التوحيد على وجه خاص يظهرنا على أن الإيمان بالله وحده هو الجواب الشافي الوحيد عن كل سؤال عن أصل الكون والإنسانية والغاية من وجودهما فلا يمكن أن يكون للحياة الإنسانية من هدف إلا الله وحده وكل تديّن في الإنسان مرده في الأصل — عن إدراك أو بغير إدراك واع — إلى الإيمان بإله واحد، ولقد كان هناك توحيد حين ظهر الإسلام واتخذ الإسلام التوحيد سبيلاً لأتباعه المؤمنين. ولا شك أن الغزالي على حق يقرر أن الإيمان بالله وحده هو المقصد الأسمى للقرآن الكريم)[4]

---

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٤ — ٧٥.
(٢) الكاردينال كوينج Quenge رئيس أساقفة النمسا.
(٣) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص ١٠.
(٤) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص ١٥ — ١٦.

وقال: (لنقلها إذن في صراحة ووضوح: أن التوحيد عدو لكل من نصب نفسه معيارًا للحياة الإنسانية في هذه الأرض، وهذه الحقيقة هي التي ترسم لنا حدود مسؤولياتنا.. وليكن همنا في هذه الأيام العصيبة أن نعين الناس على أن يستجيبوا لأمر الله فيقيسوا حياتهم وفق أمره ومشيئته وفي هذه الاستجابة لنداء الفطرة (كما يدعوها المسلمون) المستكنة في قلب كل بشر، جوهر الإيمان بالله الحق المبين. ولعلنا بذلك نخطو الخطوة الحاسمة في إقرار التوحيد بين البشر)[1]

كوستاف فون كرونباوم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كوستاف فون كرونباوم)[2]، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها شهادته بتقبل الإسلام للحضارات المختلفة، وصهرها في بوتقته، قال: (كانت الحضارة التي جاء بها العرب الفاتحون من جزيرة العرب هي في حدّ ذاتها نتيجة الاندماج الأولى بين عناصر الثقافة المحلية للعرب وعناصر مستمدة من التقاليد اليهودية والمسيحية والتقاليد الهلينية.. وبين رسالة الإسلام التي كانت عنصرًا آخر وعاملاً من عوامل تبلور الحضارة الجديدة. وهذا التكامل الإسلامي الأول هو الذي فرض نفسه على نسبة كبيرة نوعًا ما من الشعوب المغلوبة في الوقت الذي كان يجري فيه كفاح شديد بينها وبين الحضارات القديمة المتأصلة في تلك البلاد. وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانيات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيّز الفعل)[3]

وقال: (التفكير الإداري والسياسي من فارس، والطرائق الهلنستية في التفلسف والعلم، والطب والرياضيات من الهند، كل ذلك قد تمثله المسلمون واستوعبوه بغير عناء. وأن التعريب اللغوي لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها. وحينما توضح وجهة النظر الأجنبية في داخل إطار إسلامي وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلاميًا صادقًا، ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجي بحقائق الدين الأولى ولما تشتمل عليه من ملابسات ثقافية، أخذ يساعد على توسيع الأساس الذي يقوم عليه التبادل بين الحضارات. وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين ٧٦٠-٨٤٠م إنما يمثل امتزاجًا ثانيًا للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد (المحلية) التي استمدوا جزءًا منها من الكتب، إلا أن معظمها دخل في التركيب الجديد على سبيل حقائق التعايش الفعلي)[4]

وقال: (إن ثقافة الإسلام العامة تملك تحت تصرفها وسائل متعددة تساعد على التوفيق بين الثقافات المحلية. ومن هذه الوسائل التي يتميز بها الإسلام في الأخص الإجماع. فهذا الإجماع الذي هو عنصر في

---

(١) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص١٧.

(٢) جوستاف فون جرونباوم١٩٧٢-١٩٠٩ (Gustav Von Grunbaum)، ولد في فينا في ١٩٠٩/٩/١، درس في جامعة فينا وفي جامعة برلين،هاجر إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة نيويورك عام ١٩٣٨ثم جامعة شيكاغو ثم استقر به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أطلق عليه اسمه فيما بعد.من أهم كتبه الإسلام في العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربي وله إنتاج غزير في هذا المجال.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ٣٨.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٣٨ — ٣٩.

Consensus Prudentium له سلطة الفصل في شرعية أي عمل أو عقيدة أخذتها الجماعة)[1]

وقال: (إن العصر العباسي الأول لم يستعر علم الفلك الهندي مثلاً أو حتى الإدارة الفارسية، لأنه رأى في تلك المنتجات الأجنبية الوسيلة الوحيدة لإعاقة التغلغل في السيطرة السياسية أو الاقتصادية. إن الإسلام لم يكن إذ ذاك في موقف دفاعي، ولكنه تبنى تلك الإمكانيات الأجنبية لمصلحته هو، وفعل ذلك في ريث وأناة، إذا كان قد وقع تحت تأثير ضغط فلم يكن ذلك من الخارج ولكن بدافع من مرحلة التطور التي كان يمرّ بها. وبالاختصار، أن الملابسات السياسية التي توجه النقل الثقافي في عصرنا الحاضر هي التي تجعله صعبًا من الوجهتين النفسية والاجتماعية، ومفككًا للجماعات التي تستقبل هذا النقل. فالاختيار، وتحديد الوقت، والتأثر الإيجابي، وردّ العدوان المعادي، كل أولئك لم يعد خاضعًا لحالة النموّ ولا للحاجات الذهنية والوجدانية للمستعير، ولكن يخضع للطموح الثقافي، ولسلسلة من الأحوال الاضطرارية التي ليس للمستعير عليها إلا تسلط محدود. ومن هنا نقول إن مقتضيات الموقف السياسي للعصر العباسي الأول – وقد كان مغايرًا تمامًا لموقفنا اليوم – هي التي مكنت العباسيين من أن يسيروا في طريق.. حمى عصرهم من الأخطار المصاحبة للاستمداد الثقافي في عصرنا الحاضر الذي يتحكم في التروع نحو الغرب)[2]

وانطلاقا من هذا لا يخاف هذا الرجل على الإسلام من الذوبان في الحضارة الغربية، بل يرى أنه يمكن أن يستمد منها من غير أن يذوب فيها، قال: (ومن حيث إنه لا خطر على الإسلام من أن ينمحي إنمحاءاً ماديًا كنتيجة لتأثير الغرب، فإنه يلوح أن سريان العناصر الغربية إليه سيظل مقصورًا على ما يمكن أن (يهاجر من قوم إلى آخرين كالفنون الصناعية والعمالية والتطبيقية وطرقها). فعملية طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي.. لن تشمل – على الراجح – المبادئ الأساسية المتضمنة في الدين والفلسفة والفن والنظرية العلمية. فالإسلام – باختصار – سوف لا يفقد نفسه في المدنية الغربية إلى درجة انمحاء شخصيته على الرغم من استعمالها للمنشط الخارجي حافزًا لبث روح الحياة فيه من جديد)[3]

وقال: (لا مفرّ لنا من أن نعترف.. أن بطء التغيير في موقف العالم الإسلامي يعطي نوعًا من الضمان ضد الاطراح الطائش للخصائص الأساسية لمدنيته التي لا ينبغي أن تطرح هكذا بسهولة. وفي عبارة أخرى، أن هذا البطء في تعديل الموقف – ولو أنه في بعض الأحيان يفسد التطبيق الناجح للاستمداد المرغوب فيه – يكون دفاعًا داخليًا قويًا، أو سدًا ملطّفًا لتأثير الأمواج الأجنبية التي سمح لها بالدخول في ميادين الأفكار والنظم)[4]

٥ ـ بولونيا

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بولونيا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

بوجينا غيانة ستشيجفسكا:

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٥٣.
(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ١٨٩.
(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٣.
(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٤.

قلت: من هي هذه المرأة التي تشرفت بأن يوضع اسمها في كتاب يبحث في القلوب التي صدقت مع محمد ﷺ.

قال: هذه بوجينا غيانة ستشيجفسكا[1]، وهي باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر الشريف، وقد مكنها ذلك من أن تعرف الإسلام عن كتب، ولهذا كان لها هذه الشهادات الصادقة.

منها شهادتها حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قالت: (إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة)[2]

ومنها شهادتها حول إيجابية الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام، قالت: (ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر أن يترك المسلم العمل لأن القرآن والنبي أمرا بالعمل والاجتهاد في كل شيء. وقال الله تعالى:﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥)[3]

ومنها شهادتها حول المقصد الشرعي من الصلاة، قالت: (فرض الله سبحانه وتعالى على المسلم خمس صلوات في اليوم ليكون دائم الاتصال بالله، وقبل أن يدخل المسلم الصلاة لابدّ أن يكون طاهرًا ونظيفًا فالإسلام دين النظافة)[4]

ومنها شهادتها حول الشورى في الإسلام، قالت: (كان تاريخ التشريع في عهد الخلفاء الراشدين يعتمد على الشورى، وأساسها قول الله تعالى:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكذلك فعل الرسول مع أصحابه، فقد كان يستشيرهم في الأمور التي لم يترل فيها عليه وحي)[5]

ومنها شهادتها حول أهمية الفقه، قالت: (كان الفقه مدار سياستهم وروح حياتهم وبه تدبير ملكهم. وكانت حركة الإسلام سريعة الانتشار حتى عمت المشارق والمغارب لأن الإسلام يأمر أهله بالوقوف عند حدود الشريعة وبصيانة حقوق الخلق أجمعين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. فكان للفقه (علم التشريع) زمان الخلفاء مكانة أعظم مما عليه علم الحقوق الآن عند الأمم المتمدنة، وكان الفقهاء هم أرباب الشريعة والشورى (نواب الأمة) وبيدهم تدبير كل الأمور ولا يصدر عمل عظيم أو حقير إلا وفاقًا للتشريع وعلى مقتضى الحق)[6]

ومنها شهادتها على عدالة نظام الحكم في الإسلام، قالت: (كان للأمة الحرية المطلقة والرقابة على أعمال

---

(١) بوجينا غيانة ستشيجفسكا Bozena – Gajane Stryzewska باحثة بولونية معاصرة، درست الإســلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، تمكنت خلالها من اللغــة العربيــة كــذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ١٧.

(٣) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ١٩.

(٤) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٢٠.

(٥) تاريخ الدول الإسلامية وتشريعها، ص ٣٩.

(٦) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٧.

الخلفاء الراشدين ومدى موافقتها لنصوص الشريعة وخضوعها لآراء الفقهاء، وسيرهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء. ولم ينقل أحد من المؤرخين سواء كانوا عربًا أم غيرهم انتقادًا للخلفاء بظلم أو سوء تصرف، بل اعترف الكل بأن عدلهم وحسن سلوكهم وصراحة طريقتهم قد حببت فيهم غيرهم من الشعوب، حتى أسقطوا عروش ملوكهم وخربوا دولهم وأسسوا بدلاً منها دولة الإسلام الذي عشقوه لعدل قوانينه، ونزاهة حكامه وعفتهم ورفقهم واتباعهم لشرعهم لا يتعدونه، وكانت نصوص الشريعة واضحة لم يدخلها تأويل ولا شبهات)[1]

قلت: إن هذه شهادات قيمة.. ليتها ختمتها بالشهادتين.

قال: كل أمرها إلى الله.. فقد ينطق الإنسان بما لا يسمعه غيره.

٦ ـ كندا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (كندا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

ولفريد كانتويل سميث:

قلت: من هو ولفريد كانتويل سميث[2] ؟

قال: هذا باحث من كندا.. له شهادات طيبة عن الإسلام تؤهله لاعتباره صديقا.

منها شهادته بالعزة التي يحملها المسلمون بسبب إسلامهم، قال: (إنه ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتديّن به شعورًا بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانًا.. ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلمًا باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين)[3]

ومنها شهادته على كون الإسلام نظاما شاملا لجميع مناحي الحياة، قال: (إن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرًا وباطنًا وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة، فليس التفكير بنافع شيئًا إن لم يكن مصحوبًا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الإسلامي)[4]

---

(١) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٨.

(٢) ويلفرد كانتويل سميث.Wilfred Cantwell Smith: ولد في كندا عام ١٩١٦، درس اللغات الشرقية في جامعة تورنتو.حصل على الماجستير والدكتوراه في مجال دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون. متخصص في دراسة الإسلام وأوضاع العالم الإسلامي المعاصرة وأشهر كتبه في هذا المجال(الإسلام في العصر الحديث) عمل أستاذاً في جامعة هارفرد وفي معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مقيل بكندا. قام بتدريس الدين الإسلامي بكلية نورمان المسيحية بمدينة لاهور بباكستان ١٩٤١-١٩٤٥. دعي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات. صدر له حديثا(١٩٩٨)عدة كتب منها (نماذج الإيمان حول العالم) وكتاب (الإيمان نظرة تاريخية) وكتاب (الإيمان والاعتقاد والفرق بينهما)

(٣) الإسلام في التاريخ الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٧٨.

(٤) ما يقال عن الإسلام، ص ٧٩.

٧ ـ الهند:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (الهند)، فقلت: كيف تثبت الهند في الأصدقاء.. وأنت تعلم ما فعلت بكشمير؟

قال: ألا زلت تذكر لي الأرض.. انشغل بالسماء لتنال الأرض والسماء.. فلا خير في الأرض التي تفصلك عن السماء.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان أسلافكم أعظم أحلاما.. فلم تشغلهم العداوة عن الصداقة.

قلت: لم أفهم..

قال: ألم تر سلوك الحكمة الذي سلكه المسلمون مع المغول؟

قلت: لقد حولوه إلى دينهم.

قال: فحولوا الهند إلى دينكم.. لتتوجهوا أنتم والهند وكشمير وأهل الأرض جميعا إلى الله.

قلت: فهل نكف عن طلب حقوقنا؟

قال: لا تنشغلوا بحقوقكم عن واجباتكم.. إن الله أوجب عليكم أن تكونوا دعاة لا قتلة، فارموا أسلحتكم ليعطكم الله من أسلحة السماء ما يحميكم من أسلحة الأرض.

جوار لال نهرو:

كان من الأسماء التي ذكرت في هذا المحل اسم (جوار لال نهرو)[1].. فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد كان رئيسا لوزراء الهند.

قال: وأنا أعرف هذا الرجل لأنه شهد بعض شهادات الصدق التي لا تزول مع زوال الأيام والدول:

لقد قال مخبرا عن رسول الله ﷺ، وما بثه في نفوس المسلمين من عزة قضت على الاستبداد: (لربما خامرت هؤلاء الملوك والحكام الذين تسلموا كتب الرسول الدهشة من هذا الرجل البسيط الذي يدعوهم إلى الطاعة. ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزّة والمنعة وحوّلهم من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم.. وقد توفي محمد بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماسًا)[2]

وتحدث ــ في الوقت الذي غلب فيه المد الشيوعي ــ عن القيم النبيلة التي جاء بها الإسلام، فقال: (إن الإسلام هو الباعث والفكرة لليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط.. ولقد كانت ثقة العرب وإيمانهم

---

(١) جوار لال نهرو J. Lal Nahro ولد في عام ١٨٨٩، في مدينة الله آباد، في الهند، والتقى بغاندي في أوائل عام ١٩١٩، اعتقل عدة مرات، وانتخب رئيسًا لحزب المؤتمر الهندي الوطني عدة مرات، دخل الوزارة، وتولى الشؤون الخارجية، وأصبح نائبًا لرئيس المجلس التنفيذي، أول من تولى رئاسة الوزراء الهندية بعد استقلال الهند، له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة والشؤون الهندية، توفي عام ١٩٦٤م.

(٢) لمحات من تاريخ العالم، ص ٢٥ — ٢٦.

عظيمين. وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين. وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد. وأية مقارنة بين رسالة الأخوة الإسلامية وحالة النصرانية المنحلّة تجعل المرء يدرك مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب!)[١]

وقال:(كان للدين الذي بشر به محمد، بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة، لأنهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين. لقد تعب الناس من النظام القديم وتاقوا إلى نظام جديد فكان الإسلام فرصتهم الذهبية لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم)[٢]

وتحدث عن معجزة الحاضرة الإسلامية، فقال: (المدهش حقًا أن نلاحظ هذا الشعب العربي الذي ظل منسيًا أجيالاً عديدة بعيدًا عما يجري حوله قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأسًا على عقب. وأن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا، والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدّموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ)[٣]

وقال: (سار العرب من فتح إلى فتح، وكثيرًا ما ربحوا الحروب بدون قتال. وفي غضون خمسة وعشرين عامًا من وفاة الرسول، فتح العرب جميع بلاد فارس وسوريا وأرمينية وجزءًا من أواسط آسيا الشرقية ومصر وجزءًا من شمال أفريقيا. وقد سلمت لهم مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست كثيرًا من استبداد الإمبراطورية الرومانية ومن الحروب الطائفية)[٤]

وقال: (إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدين حماسًا لعقيدتهم وأنهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح. وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس، أما مسلمو إسبانيا فإنهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة.. والواقع أن أبرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين العرب المسلمين وتعصب النصارى الأوربيين!)[٥]

وقال: (كانت حياة العرب في زمن محمد غريبة، وكانت عزيمتهم تختلف عن عزيمة الجنود والجيوش التي كان يعتمد عليها الملوك. لقد برز هؤلاء العرب بعقيدة متوقدة قهرت الجبال ونشرت الإسلام في الآفاق كما تنتشر النار في الهشيم.. برزوا شامخين في عالمهم فدانت أمام زحفهم المظفر الجيوش الجرارة كانت الشعوب الأخرى متململة من أمرائها، فلاح العرب كبارقة الأمل لهذه القوة التي كانت ترقب الفرج والثورة الاجتماعية)[٦]

وقال: (إذا عدت النظافة عيبًا في العرب، فقد أسند إليهم عيب آخر ألا وهو التسامح الديني ويكاد المرء لا

---

(١) لمحات من تاريخ العالم، ص ٢٤، ٢٦.
(٢) لمحات من تاريخ العالم، ص ٢٧.
(٣) لمحات، ص ٢٣.
(٤) لمحات، ص ٢٧.
(٥) لمحات، ص ٣١.
(٦) لمحات، ص ٣٣.

يصدق أن ذلك هي التهمة الرئيسية الموجهة للعرب في كتاب رئيس أساقفة فالنسيا الذي وضعه في عام ١٦٠٢ بعنوان (إلحاد العرب وخياناتهم) وطالب فيه بإقصاء العرب عن إسبانيا. وقد قال: (أن العرب يحبذون جدًا حرية الضمير في الشؤون المتعلقة بالدين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك والمسلمين الذين تركوا لأتباعهم الحرية الدينية). ولعمري ما أجمل هذا المدح الذي قصد به ذم مسلمي إسبانيا الذين يمتازون بتسامحهم الديني في الوقت الذي استرسل فيه المسيحيون الأوروبيون في التعصب والغلظة)[١]

وقال: (إننا لنجد أن الأسلوب العلمي لم يكن مطبقًا في بلدان العالم القديم مثل مصر والصين والهند، ونجد القليل منه في اليونان، ولا نجده في روما. ولكن العرب امتازوا بهذه الروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث.. لقد بنى العرب على الأساس العلمي الذي استقوه من غيرهم أبحاثًا عظيمة وتوصلوا إلى اكتشافات عظيمة. لقد صنعوا أول مكبر، وصنعوا أول بوصلة، وكان أول أطبائهم وجراحيهم ذوي شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا. وكانت بغداد مركز لهذا الإشعاع الفكري. وكانت قرطبة عاصمة إسبانيا العربية مثيلة بغداد في دنيا الغرب. وكانت في العالم العربي مراكز علمية أخرى ازدهرت فيها العلوم، ومنها القاهرة والبصرة والكوفة. ولكن بغداد.. فاقت هذه المراكز جميعًا. وكان عدد سكانها يربو على مليون نسمة، أي أكثر بكثير من سكان كلكتا أو بومبي في يومنا هذا)[٢]

وقال: (إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة ٧٠٠ سنة أمر يدعو إلى الإكبار، ويزيدنا إكبارًا لهم تلك المدنية الرفيعة والثقافة العربية الراقية التي وصفها أحد المؤرخين بقوله: (لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة التي كانت مفخرة العصور الوسطى والتي حملت نبارس العلوم والحضارة الزاهرة على العالم الغربي الذي كان مغمورًا في الجهل والوحشية). وكتب مؤرخ آخر يقول: (بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرأون ويكتبون، كان أهل أوروبا المسيحيون في جهل مطبق اللهم إلا رجال الدين منهم، ولم ينج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية).. لقد طارت شهرتها في أرجاء الدنيا حتى سماها الكتاب الألمان بزينة الدنيا، وقد أم جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوروبا الكبرى كجامعة باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا)[٣]

وقال: (اكتسب الصليبيون من عالم الإسلام الفنون والصناعة والترف والعلوم وحب الاستطلاع العلمي. وهذه هي الأشياء عينها التي كان بطرس الناسك داعية الحرب الصليبية وأمثاله أبعد الناس عن احترامها وتقديرها)[٤]

وقال: (لنذكر أن صلاح الدين الأيوبي نفسه لم تشغله مهام الحرب عن إنشاء المعابد والكليات والمستشفيات وغيرها من مظاهر الرقي والمدنية. غير أن القدر يشاء أن تتعرض هذه الحياة السامية إلى جحافل

---

(١) لمحات، ص ٤٨.
(٢) لمحات، ص ٣٥.
(٣) لمحات، ص ٤٥ – ٤٦.
(٤) لمحات، ص ٥٤.

المغول الزاحفين من الشرق)[1]

٨ ـ هولندا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (هولندا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

جي. م. ج كرامرز:

قلت: من هو جي. م. ج كرامرز[2]؟

قال: هذا رجل علم من هولندا له بعض الشهادات، منها شهادته حول الوحدة التي ربط بها الإسلام بين شعوب مختلفة، قال: (لو رسمنا خريطة تبين الأحوال السياسية الأوروبية والأفريقية وغربي آسيا في حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي لوجدنا أن القسم الأعظم من العالم المسكون كان مسكونًا بأمم تخضع للحكم الإسلامي وتسودها الحضارة الإسلامية. إنها لم تكن في ذلك الزمن وحدة سياسية متينة العرى، بل كانت مرتبطة فيما بينها برباط قوي من الدين والحضارة، حتى إن سكانها – مع أنهم لم يكونوا من المسلمين فقط – كانوا يشعرون بأنهم رعايا دولة إسلامية مترامية الأطراف مركزها الديني مكة ومحورها السياسي بغداد. هذه الإمبراطورية العظيمة نمت وبلغت أشدها في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، بسلسلة من الفتوحات ابتدأت بالمدينة المنورة، وكان ميدانها ومركز ثقلها شبه جزيرة العرب.. ومع أن الأقاليم التي فتحها الإسلام تختلف إذا قورنت بالبلاد التي يسكنها المسلمون الآن فضلاً عن أنها أوسع رقعة، فالحقيقة التي لا يمكن دحضها أنها كانت تؤلف كتلة دينية واحدة فضلاً عن وحدة سياسية متينة العرى متراصة البنيان جمعت بينها قوة السلاح وجعلت سكانها يقفون في العالم كأعظم قوة مركزية متحدة عرفها البشر)[3]

ومنها حديثه عن سماحة الإسلام، قال: (إن أورشليم القدس المركز الديني الأسمى لأوربا النصرانية دخلت منذ السنة ٦٣٨م في حوزة الإسلام. إلا أن الفتح الإسلامي لم يمنع من زيارة القبر المقدس أو يحول بين الأوربيين المسيحيين وبين إنجاز هذه الفريضة الدينية)[4]

ومنها حديثه عن انتشار الثقافة الإسلامية في العالم، وبالتالي تأثيرها فيه، قال: (إن اكتشاف النقود الإسلامية في بقعة عظيمة الرقعة من آسيا وأوروبا ينهض دليلاً على مدى انتشار الثقافة الإسلامية، ويقوم برهانًا على أن المسلمين كانوا يستبضعون مختلف السلع من الشعوب الشمالية الغربية)[1]

---

(١) لمحات، ص ٥٤.

(٢) البروفيسور جي. م. ج كرامرز Prof. J. M. Kramers ولد بهولندة، سنة ١٨٩١، وكان أستاذًا للتركية والفارسية في جامعة ليدن حتى سنة ١٩٣٩، اشتغل من ١٩١٥ حتى ١٩٢١ مترجمًا للسفارة الهولندية في الأستانة. كان أحد المساهمين في كتابة كثير من الموضوعات في دائرة المعارف الإسلامية، وألف كتاب: (فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين) (١٩٤٤).

(٣) تراث الإسلام، (إشراف سيرتوماس ارنولد)، ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٤) تراث الإسلام، ص ١٢٩.

(١) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص ١٥٦.

وقال: (إن الغنم الثقافي الذي نالته أوروبا من العالم الإسلامي في صعيدي الجغرافية والتجارة لم يكن ثمرة ساعة واحدة. إنما قام على العلاقات المتبادلة التي ظلت متواصلة منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي حتى الآن، فوصلت إلى ذروة مجدها أثناء حكم المغول في القرن الثالث عشر. كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة واحدة وهي أن الحضارة الإسلامية بنموها وازدهارها عن طريق الدول التي أعقبتها في الحكم كتركيا وإيران وشعوب الهند المسلمة وسكان جزر الهند الشرقية المسلمين، جعلت كثيرًا من الآراء والعادات الإسلامية معروفة مطبقة في البلاد الأوروبية. ولكن لم يبد من فترة تاريخية تفوق ساحق عظيم للشعوب الإسلامية على العالم المسيحي كفترة القرن العاشر، أعني عندما وصل الإسلام إلى أوج السؤدد والتقدم، وعندما كانت أوروبا المسيحية في ركود وظلام حالك)[1]

٩ ـ روسيا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (روسيا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

ف بارتولد:

قلت: من هو ف بارتولد[2]؟

قال: هذا رجل من روسيا..

قلت: تلك التي..

قاطعني، وقال: دعك من هذا.. فلا ينبغي أن يشغلكم تجار الأسلحة عن دينكم وعن رسالتكم وعن السلام العظيم الذي بعثكم الله به.

قلت: صدقت.. لقد انشغلنا عن ديننا بحروب كثيرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. فاذكر لي بعض شهادات هذا الصديق.

قال: لقد تحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (كانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم

---

(١) تراث الإسلام، ص ١٦٤. وعن إنجازات المسلمين في ميدان الجغرافية والتجارة، انظر: المرجع نفسه، ص ١٠٥-١٠٦، ١٣٠-١٣١، ١٤٢-١٤٣، ١٤٦-١٤٨، ١٥٢-١٥٣، ١٥٧-١٥٨، ١٦١-١٦٤.

(٢) ف بارتولد (١٨٧٩ – ١٩٣٠) V. Barghold تخرج من جامعة بطرسبرغ (١٨٩١)، وعين أستاذًا لتاريخ الشرق الإسلامي فيها (١٩٠١)، فكان أول من درس تاريخ آسيا الوسطى. وعني بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به وتخرج عليه عدد من المستشرقين. وقد انتخب عضوًا في مجمع العلوم الروسي (١٩١٢) ورئيسًا دائمًا للجنة المستشرقين فيه بعد الثورة البلشفية حتى وفاته.

تربو آثاره على الأربعمائة، أشهرها: (تركستان عند غزو المغول لها) في مجلدين (١٨٩٨-١٩٠٩)، (تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وآسيا) (١٩١١)، (حضارة الإسلام) (١٩١٨)، (تاريخ تركستان) (١٩٢٢)، (مغول الهند) (١٩٢٨)، (تاريخ أتراك آسيا الوسطى) (١٩٣٤٩). وغيرها.

الدينية وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠-٦٨١م مندوب من القدس أيضًا. ثم أن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطًا وثيقًا)[١]

وقال: (انتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين)[٢]

وتحدث عن تأليف الإسلام بين الشعوب المختلفة، فقال: (حضارة الإسلام، أو حضارة العرب، اسم لحضارة الشرق في القرون الوسطى ولم يكن العرب وحدهم مبتكري هذه الحضارة ولكن جميع سكان الشرق الأدنى، وقسم من أفريقية، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوروبية، آخى بينهم الإسلام، دين الدولة؛ واللغة العربية، لغة العلم والأدب)[٣]

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية واستفادتها من جميع التراث الإنساني، فقال: (مما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربي، يدعي بأن الحضارة الإسلامية نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامي، ويجعل الحضارة الإسلامية، وهو جد محق في هذا، فوق ما سبقتها من الحضارات)[٤]

ورد على اعتبار الغرب سبب نهوض المسلمين، فقال: (إن القول بأن العالم الإسلامي (كان في نوم عميق) قبل أن يأخذ في النهوض بتأثير أوروبا في القرن التاسع عشر، مبالغ فيه كثيرًا. وحق أن الظروف الملائمة التي أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق)[٥]

١٠ ـ سويسرا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (سويسرا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

مونته:

قلت: من هو (مونته)[٦]؟

قال: لهذا الرجل الفاضل شهادات طيبة عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام.

منها قوله في وصف رسول الله ﷺ: (إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقّق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحًا دينيًا ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيرًا وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشرك

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٥٤.
(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٢.
(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٥.
(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٤.
(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٥٢ – ١٥٣.
(٦) مونته (١٨٥٦ – ١٩٢٧) Montet أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، من كتبه (محمد والقرآن)، وترجمة جيدة للقرآن، و(حاضر الإسلام ومستقبله).

والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كبارًا جدًا في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمدًا وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها)

وقوله: (كان محمد كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يعمله ويقوله)[1]

وقوله: (لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسته الدينية التي تشبعت بها نفسه وفكره)[2]

بل إنه اعتبر ما قام به رسول الله ﷺ من أعظم المنجزات في التاريخ، قال: (ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد، وإن ما قام به من إصلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية)[3]

وتحدث عن المبادئ النبيلة التي جاء بها الإسلام، فقال: (إن الديانة الإسلامية كعقيدة توحيد، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الأخرى إلا أن ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعًا جديدًا باهرًا. وقد سميت الإسلام إشارة إلى تمام الانقياد لإرادة الله، وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية إلا أنها تتجلى في القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية.. ولقد منع القرآن الذبائح البشرية، ووأد البنات والخمر والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعدّ محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية. أن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة، ليكون دائمًا بعيدًا عن الشر، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الإنسان، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية. فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه، وثبت ولا يزال ثابتًا بإزاء عواصف الدهور)[4]

وانطلاقا من هذه الشهادات دعا إلى احترام الإسلام وعقد صلات الأخوة مع معتنقيه، قال: (لما كان الإسلام دينًا من الأديان أصبح قوة أدبية عظيمة جدًا جديرة بالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصِلات مع أهله على أساس الإخاء والحب، وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احترامًا مطلقًا. وأن هذا الدين بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجردين عن الأغراض، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات قد أصبح معروفًا في أوروبا معرفة تامة، وغدًا يقدر قدره أكثر من قبل)[5]

قلت: بورك في هذا الرجل الحكيم.. وبورك فيما دعا له.. ولا أحسب إلا أن أيدي جميع المسلمين الصادقين ممدودة له ولأمثاله.

---

(١) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٣٢)

(٢) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٦٧)

(٣) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٣٢)

(٤) محمد والقرآن، ص ٢٢، (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢ – ٣٣)

(٥) الإسلام، (عن محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية ١ / ٧٢).

عاشرا ـــ الأعداء

فتحت دفتر البابا على فصله العاشر، فوجدت عنوانه (الأعداء)، فقلت: ألا ترى من التناقض أن يوضع هذا العنوان في كتاب يبحث في القلوب التي تعلقت بمحمد ﷺ ؟

قال: لا.. ليس ذلك من التناقض.. فأكمل الناس من أجبر أعداءه على احترامه، ومحبته.. وقد كان محمد ﷺ أكمل من فعل ذلك.

قلت: لقد نطق القرآن بمثل هذا، فالله ۵ يقول:﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

قال: وقد كانت حياة رسول الله ﷺ نموذجا كاملا لهذا الخلق الرفيع.. فقد كان له صدر واسع يحول الأعداء أصدقاء.. والحاقدين محبين.. والهاجين مادحين.

قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بما رويته لي في رحلتك التي تعرفت فيها على معجزات النبي ﷺ الحسية من تحول المعادين إلى محبين مخلصين[1].

قال: وأولهم **عمر بن الخطاب** ـــ رضي الله عنه ـــ، فقد كان في جاهليته شديد العداوة للإسلام ولمحمد ﷺ، وقد ذكرت إحدى السابقات للإسلام، وهي أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة، كيف كان المسلمون الأوائل يستبعدون إسلامه قبل أن يسلم، فقالت: إنا نرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف علي.

وكنا نلقي منه البلاء أذى، وشدة فقال: أتنطلقون يا ام عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا.

قالت: فقال صحبكم الله، قالت: فلما عاد عامر أخبرته، وقلت له: لو رأيت عمر، ورقته، وحزنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟قلت: نعم، فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته، وشدته على المسلمين.

ولكن الله هداه فأسلم في موقف عدائي شديد لرسول الله ﷺ:

وقصة ذلك كما يرويها المؤرخون، وكما يحكيها هو نفسه، هي أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن يزيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرأها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد النبي ﷺ، والمسلمين وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلا، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا الذي فرق أمر قريش، وعاب دينها، فأقتله.

---

(١) انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (حماية) من هذه السلسلة.

فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمدا !؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟

فقال عمر: وأي أهلي !؟ قال: ختنك، وابن عمك سعيد بن زيد، واختك فاطمة، فقد أسلما.

فرجع عمر إليهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن.

فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب، وأخذت فاطمة الصحيفة، وألقتها تحت فخذيها،وقد سمع عمر قراءة خباب.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟! قالا: سمعت شيئا؟قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمدا.

وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له اخته: قد أسلمنا، وآمنا بالله، ورسوله، فاصنع ما شئت.

ولما رأى عمر ما باخته من الدم ندم، وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها.

ثم قالت له ــ وقد طمعت في إسلامه ــ: إنك نجس على شركك، ولا يمسها إلا المطهرون، فقام، واغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأ فيها: طه، وكان كاتبا فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمرو بن هشام.

فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.

فدله خباب فأخذ سيفه، وجاء إلى النبي ﷺ، وأصحابه فضرب عليهم الباب فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه، فأخبر النبي ﷺ بذلك.

فقال حمزة: إئذن له، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن أراد شرأ قتلناه بسيفه.

فأذن له فنهض إليه النبي ﷺ حتى لقيه، فأخذ بمجامع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك؟ما أراك تنتهي حتى يترل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يارسول الله جئت لأؤمن بالله، وبرسوله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمرا أسلم.

قال عمر: لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام، فضربت عليه بابه، فخرج إلي وقال: مرحبا يا بن أخي! ما جاء بك؟قلت: جئت لاخبرك أني قد أسلمت، وآمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به.

قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به [1].

وقد حدث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ نفسه عن سبب إسلامه، فقد خاطب مرة بعض الصحابة، فقال: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدو إسلامي؟قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا يوما في يوم شديد الحر بالهاجرة، في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش فقال: اين تذهب يابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الامر في بيتك قال: قلت: وما ذاك؟قال: اختك قد صبأت قال: فرجعت مغضبا.

وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل، والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين.

قال: فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا؟قلت: ابن الخطاب.

قال: وكان القوم جلوسا يقرؤن القرآن في صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا، واختفوا، وتركوا، أو نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي.

فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغني أنك صبوت، قال: فأرفع شيئا في يدي فأضربها به قال: فسال الدم: قال: فلما رأت المرأة الدم بكت، ثم قالت: يابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت.

قال: فدخلت، وأنا مغضب، فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟أعطينيه.

فقالت: لا اعطيك لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة:٧٩)

قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما مررت بالرحمن الرحيم، ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدي.

قال: ثم رجعت إلي نفسي، فإذا فيها:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد:١)

قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عزوجل ذعرت، ثم ترجع إلي نفسي حتى بلغت:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الحديد:٨)، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله[2].

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ: ٢ / ٨٤ – ٨٥ – ٨٦ – ٨٧، نور الابصار: ص ٥٤، الرياض النضرة: ١ / ٢٧٢ – ٢٧٦ ترجمة عمر.

(٢) اسد الغابة ٤ / ٥٤ – ٥٥، الرياض النضرة: ٢ / ٢٧٧.

ولما أسلم عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال: أي أهل مكة أنقل للحديث فقالوا: جميل بن معمر، فخرج عمر، حتى أتاه فقال: يا جميل هل علمت أني أسلمت؟ فو الله ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه، وخرج عمر يتبعه، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش إن عمر قد صبا.

ومنهم **أبو سفيان بن الحارث** أخو النبي ﷺ من الرضاع، فقد كان يألف النبي ﷺ أيام الصبا وكان له تربًا، فلما بُعث النبي ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعادها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه، ثم شاء الله أن يكفي رسوله ﷺ لسان أبي سفيان وهجاءه، لا بإهلاكه، وإنما بهدايته.

وحدث أبو سفيان عن نفسه، فقال: ثم إن الله ألقى في قلبي الإسلام، فسرت وزوجي وولدي حتى نزلنا بالأبواء، فتنكرت وخرجت حتى صرت تلقاء وجه النبي ﷺ، فلما ملأ عينيه مني أعرض عنّي بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى.

قالوا: فما زال أبو سفيان يتبعُهُ، لا يترلُ مترلاً إلا وهو على بابه ومع ابني جعفر وهو لا يكلمه، حتى قال أبو سفيان: والله ليأذنن لي رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه.

ومنهم **شيبة بن عثمان**، فقد خرج من بيته يريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يرجع إلا بحبه والإيمان به.

وقد حدث عن قصة ذلك، فقال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة، وغزا حنينا، قلت أسير مع قريش إلى هوازن، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة، وتذكرت أبي وقتله حمزة، وعمي وقتله علي بن أبي طالب، فقلت: اليوم أدرك ثاري من محمد، وأكون أنا الذي قمت بثار قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته أبدا، فكنت مرصدا لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة.

فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلت السيف، ودنوت منه، أريد ما أريد، فجئته من عن يمينه، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجئته من عن يساره، فإذا بابي سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله، فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف إذ رفع إلي فيما بيني وبينه شواظ من نار كانه برق، فخفت أن يتمحشني، فوضعت يدي على بصري، خوفا عليه، ومشيت القهقرى، وعملت أنه ممنوع.

فالتفت إلي، وقال: « يا شيب أدن مني »، فدنوت منه، فوضع يده على صدري وقال: « اللهم أذهب عنه الشيطان »، فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي، ثم قال: « يا شيبة قاتل الكفار »

فتقدمت بين يديه أحب ــ والله ــ أن أقيه بنفسي كل شئ، فلما انهزمت هوازن رجع إلى مترله ودخلت

عليه فقال:« الحمد لله الذي أراد بك خيرا مما أردت »، ثم حدثني بما هممت به ﷺ [1].

ومنهم **النضير بن الحارث**[2] الذي حدث عن نفسه، فقال: الحمد لله الذي أكرمنا بالاسلام ومن علينا بمحمد ﷺ، و لم نمت على ما مات عليه الآباء، فذكر حديثا طويلا، ثم قال: خرجت مع قوم من قريش، هم على دينهم بعد أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير، فلما تراءت الفئتان ونحن في حيز المشركين حملت هوازن حملة واحدة، ظننا أن المسلمين لا يجبروها أبدا، ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد.

وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه، فأقبلت عامدا إليه، فصاحوا بي: إليك، فأرعب فؤادي وأرعدت جوارحي، فقلت: هذا مثل يوم بدر، إن الرجل لعلي حق، وإنه لمعصوم، وأدخل الله تعالى في قلبي الاسلام وغيره عما كنت أهم به.

فما كان حلب ناقة حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة، وتنادت الانصار بينها: الكرة بعد الفرة: يا للخزرج، يا للخزرج، فحطمونا حطاما، فرقوا شملنا، وتشتت أمرنا، وهمة كل رجل نفسه.

فتنحيت في غبرات الناس حتى هبطت بعض أودية أوطاس فكمنت في خمر شجرة لا يهتدي إلي أحد إلا أن يدله الله ۵ علي، فمكثت فيه أياما وما يفارقني الرعب مما رأيت، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف، فاقام ما أقام، ثم رجع إلى الجعرانة، فقلت: لو صرت إلى الجعرانة، فقاربت رسول الله ﷺ ودخلت فيه المسلمون، فما بقي فقد رأيت عبرا، وقد ضرب الاسلام بجرانه، و لم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فعز محمد لنا عز، وشرفه لنا شرف.

فو الله إني لعلى ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقاني بالجعرانة كنة لكنة فقال:« النضير ؟» قلت: لبيك، فقال:« هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه »

فأقبلت إليه سريعا، فقال:« قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع »، قلت: قد أرى أن لو كان مع الله تعالى إلها غيره لقد أغنى شيئا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ:« اللهم زده ثباتا »، قال النضير: فو الله الذي بعثه بالحق لكأن قلبي حجر ثباتا في الدين وبصيرة في الحق، وذكر الحديث[3].

ومنهم **صفوان بن أمية الجمحي**، الذي حدث عن نفسه، فقال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد، وأبو القاسم البغوي، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عكرمة.

(٢) وهو غير النضر بن الحارث الذي مات على كفره.

(٣) رواه الواقدي في المغازي.

حنين، وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله ﷻ شيئا هو أحب إلي منه[1].

وقال محمد بن عمر: يقال إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلا مما أفاء الله به على رسوله ﷺ فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء، فاعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ:« أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟» قال: نعم، قال:« هو لك بما فيه »، فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله ﷺ ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي.

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هؤلاء هو السر في كل ذلك التحول الذي انتقلوا به من حربه وسبه إلى الإيمان به ومحبته.

وسأضرب لكم مثالا على هذا بصفوان بن أمية ـــ الذي حدثتكم حديثه ـــ فقد خرج بعد فتح مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومي، وقد خرج هاربا منك، ليقذف نفسه في البحر، فأمنه ﷺ قال:« هو آمن »

فخرج عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، وقال صفوان لغلامه يسار ـــ وليس معه غيره ـــ: ويح! أنظر من ترى؟ قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير بن وهب، والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر علي محمدا، فلحقه فقال: يا أبا وهب جعلت فداك، جئت من عند أبر الناس، وأوصل الناس، فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

فقال: ويحك، أغرب عني فلا تكلمني، فقال عمير: أي صفوان فداك أبي وأمي.. أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك وملكه ملكك.

فقال صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، قال: ولا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فقال: امكث مكانك حتى آتيك بها.

فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صفوان أبى أن يأنس لي حتى يرى منك أمارة يعرفها، فترع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه اياها، وهي البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ معتجرا به برد حبرة.

فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي بالمسلمين العصر في المسجد، فلما سلم رسول الله ﷺ صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فان رضيت أمرا وإلا سيرتني شهرين، فقال ﷺ:« انزل أبا وهب »، قال: لا والله حتى تبين لي قال:« بل لك تسيير أربعة أشهر »

فترل صفوان، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن وفرق غنائمها فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعما وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال:« يا أبا وهب يعجبك هذا

---

(١) رواه البخاري.

الشعب؟» قال: نعم قال:« هو لك وما فيه »

فقبض صفوان ما في الشعب، وقال عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه[1].

ومنهم **سهيل بن عمرو**، وقد كان سيدا من سادات قريش.. بل كان خطيبها المفوه، وكان يؤلب الناس على المسلمين ويحاربهم بكل ما أوتى من قوة، وكانت حرارة كلماته تصل إليهم، فتؤذيهم مما دفع عمر بن الخطاب ــ حين رأى سهيلا فى الأسر يوم بدر ــ يشير على النبى ﷺ قائلا:« دعنى أنزع ثَنِيَّتِي سهيل، فلا يقوم علينا خطيبًا »، فقال ﷺ:« دعها، فلعلها أن تسُرَّك يومًا »

وعاش سهيل يحارب بسلاحي السيف واللسان حتى كان دورةُ الأكبر يوم الحديبية إذ جاء سهيل بن عمرو رسولاً من قِبَلِ قريش، فقال النبي ﷺ متفائلاً:« لقد سهل لكم أمركم »، وقال:« قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل »

وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على الصحابى الجليل علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة، اعترض سهيل على كتابة كلمة (الرحمن) في البسملة، وأراد بدلاً عنها أن يكتب (باسمك اللهم)، لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺ وافق على اعتراض سهيل.

ثم اعترض سهيل على عبارة (محمد رسول الله)، وأراد بدلاً عنها عبارة: (محمد بن عبد الله)، فوافقه أيضًا على هذا الاعتراض.

وعندما قال الرسول ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به) اعترض سهيل قائلاً: لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة قهرًا، ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثًا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب. فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط.

ثم قال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله!كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟!

فبينما هو كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: (إنا لم نقض الكتاب بعد)، فقال سهيل: والله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا.

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستثني أبا جندل، فرفض وتمسك بذلك، و لم يجد الرسول ﷺ بدًا من إمضاء ذلك لسهيل.

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي: (على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف

---

(١) رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، والبيهقي عن الزهري.

بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة، فلا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه).

وظل سهيل على موقفه تجاه الإسلام إلى يوم فتح مكة، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت، ثم خرج فوضع يده على عضادتى الباب، فقال:« ماذا تقولون ؟»

فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرًا، ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقدرت.

فقال ﷺ: (أقول كما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم) [1]

ومع هذا الموقف العظيم من رسول الله ﷺ ظل سهيل على كفره.. فأرسل إلى ابنه عبد الله (أبي جندل) ليستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بمنطقة تسمى الجعرانة، فأعطاه رسول الله ﷺ يومئذٍ مائة من الإبل من غنائم حنين[2].

ولكنه ما إن لامس الإسلام شغاف قلبه حتى امتلأ به، وامتلأ بمحبة النبي ﷺ.. وقد شهد له الصحابة ومن بعدهم قائلين فى حقه:(لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة، أكثر صلاة ولا صومًا ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة، من سهيل بن عمرو، حتى إن كان لقد شحب لونه. وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن. لقد رُئى يختلف إلى معاذ بن جبل حتى يقرئه القرآن وهو بمكة، فقال له رجل: تذهب إلى معاذ ؟!

أفلا ذهبت الى رجل من أهل قريش يعلمك؟

فقال سهيل: هذا الذى صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق، أى لعمرى اختلف إليه لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُذكرون فى الجاهلية فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا)

وقد أمضى ما بقي من حياته في تعويض ما فاته من صحبة النبي ﷺ، وقد اشتهر عنه قوله: (والله لا أدع موقفًا وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقةً أنفقتها مع المشركين إلا أنفقتُ على المسلمين مثلها، لعل أمرى أن يتلو بعضه بعضًا)[3]

ولما مات النبى ﷺ وأخذت القبائل ترتد عن الإسلام، فأراد أهل مكة أن يحاكوا هذه البلاد المرتدة، قام سُهيل بن عمرو يثبت قومه وقال لهم: يا أهل مكة كنتم آخر الناس دخولا فى دين محمد، فلا تكونوا أول الناس خروجًا منه.. ثم قال لهم: (مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت)[4]

وظل سهيل على الخير والإيمان كثير الصلاة والصيام والصدقة حتى خرج بجماعته الى الشام مجاهدًا.

وظل مرابطًا بأرض الشام متذكرًا قوله ﷺ: (مقام أحدكم فى سبيل الله ساعة من عُمره خيرٌ من عمله عمره فى أهله) قال سهيل: فإنما أرابط حتى أموت، ولا أرجع إلى مكة، فلم يزل مقيمًا بالشام حتى مات فى

---

(١) رواه البيهقي.
(٢) واه ابن سعد.
(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر: ١٧٨/٣.
(٤) رواه البيهقي.

طاعون عمواس[1]، وقد قال ﷺ: (الطاعون شهادة لكل مسلم)[2]

ومنهم **الحارث بن هشام**.. والذي ظل محاربًا للمسلمين حتى يوم فتح مكة، إذ علم أنه من أوائل المطلوبين، فاستجار بأم هانئ بنت أبي طالب فأجارته فأراد أخوها قتله فذكرت ذلك للنبي قائلة: زعم فلان– تقصد أخاها – ألا إجارة لى، فقال ﷺ:« قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ »

وكانت دهشته لا تقدر إذ صعد بلال بن رباح فوق الكعبة قارعًا أذانهم بقوله: جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطل كان زهوقا.

وكان الحارث يقول: يا ليتني مت قبل هذا و لم أشهد هذا اليوم.

ولما قيل للحارث بن هشام: ألا ترى ما يصنع محمد من كسر الآلهة ونداء هذا العبد الأسود على الكعبة !؟

فقال الحارث: إن كان الله يكره هذا، فسيغيره..

وأخذت قلوب أئمة الكفر تفكر فى الإسلام خاصة، وأن النبى ﷺ عفا عنهم وأعطى الكثير منهم الأمان فى داره وفى المسجد.

وكان الحارث ممن أسلم يومذاك، ثم كانت غزوة حنين بعدها فتألف النبى ﷺ قلوب هؤلاء القوم فأعطاهم حتى رضوا.

وأعطى للحارث يومها مائة من الإبل، فكُسرت شوكة العداء والعناد فى قلبه، ثم أخذت تعاليم الإسلام تشق طريقها الى قلبه فنما زرع الإيمان فى قلبه فحسن إسلامه.

ثم هاجر إلى الشام فى عهد عمر، فلم يزل مجاهدا، حتى كان يوم اليرموك فقال عكرمة بن أبي جهل: من يبايع على الموت فبايعه مائتان من الرجال على الشهادة فى سبيل الله.

وكان من بين هؤلاء الحارث بن هشام الذي استشهد باليرموك.

وقد ذكر له الرواه موقفًا عظيمًا فى الإيثار قبل موته، إذ جاءه رجل يريد أن يسقيه ماءً ـــ وهو فى النزع الأخير ـــ فسمع أنين عكرمة، فآثره على نفسه، وقال: اذهبوا الى عكرمة. فذهبوا إلي عكرمة بالماء فسمع أنين عياش بن ربيعة، فأشار أن اذهبوا الى عياش، فذهبوا الى عياش فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا الى عكرمة فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا الى الحارث فوجدوه قد مات.

قلت: ولا زالت الأيام تلد أمثال هؤلاء الذين لم يملكوا إلا أن يسلموا لرسول الله ﷺ وللإسلام..

قال: ذلك صحيح.. ولكنه لن يتم إلا إذا حرص المسلمون على أن يكون لهم من الجاذبية ما يحول أخس المعادن إلى أكرمها.

قلت: وأول ذلك سعة الصدر.

قال: أجل.. فلا ينبغي للمؤمن الذي يحمل صدرا يسع المحيطات العميقة أن يستفزه جاهل، أو يغلبه على

---

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر: ١٧٨/٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

حلمه أحمق.

قلت: لقد ذكرتني بحديثي معك أول ما التقينا.. فقد ذكرت لي شيئا من هذا.

قال: أجل.. فلولا أني رأيت في حياتي ناسا ذوي عقول راجحة.. ولولا أني لاقيت معلم السلام الذي ملأ صدري بالصفاء الذي لا تحركه الأعاصير لما تعرضت لكل تلك الأشعة التي شرفني الله بالتعرض لها.

***

وجدت بعض الأسماء في هذا الفصل في دفتر البابا، فأردت أن أقرأها، فقال: حسبك بما ذكرت لك.. فلا ينبغي أن نسمي أحدا في هذا الفصل.

قلت: ومن سميناهم؟

قال: أولئك كرام طيبون.. وقد أخلدوا إلى ربهم.. ولا يشك أحد في فضلهم، وأخاف إن ذكرت بعض ما كتبته هنا أن يتأثر لذلك المتأثرون.. فينسخوا المحبة بالعداوة.

قلت: صدقت.. ففي قومنا من ينسخ جبال الحسنات بالسيئة الواحدة.

الخاتمة

أخذ البابا الدفتر من يدي، واحتضنه، ثم قبله، وقال: لقد كان هذا الدفتر أنيسي عند كل وحشة.. ورفيقي عند كل ضيق.. ودوائي عند كل داء.

قلت: فما الذي جعلك تحن إليه؟

قال: حنيني إلى الحبيب الذي لا يعرف القلب غيره.. ألا تعلم أن حبيب الحبيب حبيب؟

قلت: أجل.. أعلم ذلك..

قال: ولهذا تراني أمتلئ محبة وعشقا لكل من أحب رسول الله ﷺ.. بل إني أشعر، وكأني أتقوت بكلمات الصدق التي يتفوه بها المخلصون.

قلت: ألم تخش على نفسك، وأنت في ذلك المحل الرفيع من سلم الكنيسة أن يتجسس عليك أحدهم.. فيلحظه معك.. فيشي بك وشاية تهدم كل أحلامك في كرسي البابوية؟

قال: وهل نسيت أخي؟

قلت: ومن أخوك؟

قال: أخي التوأم.. ما بالك.. إنه حصني الذي كنت به أتحصن.. كما كان الحجاب الذي به احتجبت عن شمس محمد ﷺ كل تلك المدة.

قلت: وأخوك.. ألم يلحظ هذا الدفتر؟

قال: بلى.. لقد لحظه.. فيستحيل أن يرى ما لا أرى، أو يسمع ما لا أسمع.. لقد كان فخورا به غاية الفخر.. بل استعمله وسيلة يرتقي بها في معارج الكنيسة إلى الكرسي الذي ظللنا طول عمرنا نحلم به.

قلت: كيف هذا !؟.. هل أسلمت الكنيسة !؟.. إنك توقعني في حيرة لا تقل عن الحيرة التي أوقعتني فيها أول مرة.

قال: لقد كان أخي يأخذ هذا الدفتر، ويتدراسه مع رجال الكنيسة حرفا حرفا، وكلمة كلمة..

قلت: لم كل هذا الاهتمام؟

قال: لقد ذكرت لك بأن الكنيسة أرادت أن تدرس أسرار انتشار الإسلام، وأسرار تغلغله إلى العقول والقلوب..

قلت: أتفعل ذلك لتوفر لنفسها من الخصائص ما يجعلها مهوى للأفئدة؟

قال: إنها إن فعلت ذلك تكون كعجوز شمطاء سرقت مساحيق شابة جميلة لتنافسها في قلوب الرجال.. وذلك مستحيل.

قلت: فلم تبحث عن أسرار ذلك إذن؟

قال: أنت تعلم أن المنافس الأكبر للمسيحية هو الإسلام.. فلا يمكن للمسيحية أن تنتشر ما دام محمد يسكن العقول والقلوب.

قلت: أعلم هذا.. ويعلم الكل هذا.. فما فيه.

قال: لقد استخدمت الكنيسة.. أو رجال التدبير فيها.. وهم رجال اجتمعت لهم جميع حيل الشياطين على تحليل أسرار المحبة والإقبال لتقضي عليها واحدة.. فتحول من جمال الإسلام دمامة.. ومن حياته موتا.

قلت: ومتى تبدأ تنفيذ هذه الخطة؟

قال: الأمة الآن تقع تحت أسرها.

قلت: أنحن الآن أسارى لهذا الخطة؟

قال: أجل.. لقد استعانت الكنيسة بكل القوى التي ينافسها الإسلام في حلف ليس له من هدف إلى تفريغ الإسلام من قيم الجمال التي يتزين بها.

قلت: حلف.. !؟

قال: أجل.. حلف يضم ساسة واقتصاديين وإعلاميين.. وغيرهم.

قلت: ولكنهم سيصطدمون بعقول متحجرة ترفض ما يملون عليها من أفكار.

قال: خطتهم هذه المرة خطة محكمة.. لأن جنودها ليسوا صليبيين.. بل مسلمين.

قلت: أي مسلم يرضى لنفسه أن يمثل هذا الدور؟

قال: كثيرون هم.. بل أكثرهم أسرع إلى ثكنات هذا الحلف ليسجل نفسه جنديا.

قلت: فهم يعطونهم أجورا مغرية إذن !؟

قال: لا.. أولئك الحمقى يتطوعون بمحض رغبتهم لتنفيذ ما يحلم به ذلك الحلف.

قلت: أنا إلى الآن لا أكاد أفهم.. إن كلماتك لا تزيدني إلا حيرة.. فلست أفهم شيئا.. فانتقل من التلميح إلى التصريح.. ومن الألغاز إلى الكلام الذي تعودته منك.

قال: سأضرب لك أمثلة تعطيك صورة عن هذا الجند المتطوع.

دققت بصري في عينيه لأعرف سر هذا الجند الخفي الذي يريد أن يستل محمدا من القلوب، فقال: ألم تر في كل الذي استهواهم الإسلام، وامتلأت قلوبهم بحب محمد ﷺ حبهم للسلام؟

قلت: بلى.. لقد لاحظت ذلك في الأتباع والأصدقاء.

قال: فقد أراد هؤلاء أن يستلوا اسم السلام من الإسلام.. ليصبح دين السلام دين الإرهاب.. وقد تطوع لذلك بعض الأغبياء، فراحوا يقتلون الصغار والكبار.. والظالم والمظلوم.. والمستكبر والمستضعف.. ولسبب ولغير سبب.. وكأن الإسلام جاء ليقتل لا ليحيي.. فهم يستدركون على الله قوله:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (لأنفال: من الآية٢٤) لينسخوا لآية بأهوائهم وفهومهم السقيمة، فيحولوا الحياة موتا، والأمن خوفا.

قلت: أعرف هذا.. وقد ساءني كما ساء كل مسلم.. لقد ذكر لي بعض أصدقائي في بلاد الغرب أنه كان مقصدا لكل سائل وباحث عن الحقيقة.. وكان إذا سار إلى أي محل تجتمع عليه الجموع لتسأله عن دينه.. وعن نبيه.. وعن ربه.

لكنه اليوم.. ما إن يدخل محلا حتى تنفض الجموع فارة فزعة.. وكأنه قنبلة موقوتة، أو كأنه مجذوم يفرون منه فرارهم من الأسد.

قال: فقد نجحوا في تحقيق ما لم يستطع أساطين العالم أن تحققه.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر على هذه المخططات القذرة.

قال: ألم تر أن كل من أحبوا محمدا تحدثوا عن رحمته وحلمه وألفته ولطفه.. وغير ذلك من الخلال التي اجتمعت له، فاستحق بها شرف قوله ﷻ:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)!؟

قلت: بلى.. ومن لا يمتلئ إعجابا بتلك الخلال التي أعطت النموذج الأكمل للإنسان الأكمل.

قال: فقد قدر الكائدون ومكروا.. فراحوا يستغلون بعض الحمقى ليختصروا رسول الله ﷺ في لحية طويلة.. وجبة قصيرة.. وتقطيب جبين.. وغلظة دونها غلظة أكباد الإبل.

قلت: أعرف هذا.. وقد سمعت بعضهم يصف شيخا من هؤلاء يقول عنه: (رأيته وكأنه السنة تمشي) مع أنه لم ير منه إلا ما كان يراه الناس من أبي لهب وأبي جهل من لحية وقميص وسواك.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: ألم تر الجميع من الأصدقاء والأتباع يمتلئون إعجابا بحرية الفكر التي أتاحها الإسلام، فاجتذب أصحاب العقول والأذواق.. واجتمع في حبه الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء وأهل الدين وأهل الدنيا؟

قلت: بلى .. قد سمعت الكثير ممن يذكر ذلك، ويفخر به على الكنيسة التي طوقت العقول بأغلالها.

قال: فقد انتدب بعض الحمقى ليحولوا من المسجد كنيسة لا ترسل المحبة.. بل ترسل الحرمان والتضليل والتبديع والتكفير..

قلت: أعرف هذا.. وأتألم له.. فالحب الذي ربط قلوب الأمة أجيالا طويلة تحول إلى بغضاء.. والإسلام الذي اتسع للجميع ضاق على أتباعه، فصار ــ في منطق هؤلاء ــ يرفض كل من لم يلغ عقله وقلبه ومشاعره.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثالا آخر.

قال: ألم تر إلى أولئك الأدباء الذين لهجوا بحب محمد ﷺ.. فراحوا يتغنون به آناء الليل وأطراف النهار.. وراح كل عندليب يغرد أشعارهم.. ويملأ القلوب أشواقا تمحي كل ظلمة، وتنشر كل سعادة؟

قلت: بلى.. فقد مررنا على الأدباء، واستمتعنا بتلك المدائح العذبة.

قال: لكن هؤلاء حرموا الخلق من تلك المتعة، فراحوا يحكمون بالشرك على كل من مدح حبيبه.. بل راحوا يفرضون على الشعراء أن يحذفوا كل استعارة وكناية وتشبيه ومحسنات بديعية.. وراحوا يكتمون على أنفاس الحناجر الرقيقة الممتلئة أشواقا، فماذا جرى؟

قلت: لقد انصرف الناس عن البردة والهمزية وقصائد البرعي وشوقي والبارودي.

قال: ففي أي حفرة وقعوا؟

قلت: صاروا يلهثون وراء البوب والروك والراي والجاز والأغاني العصرية الممتلئ بالرقص والمجون.

قال: ونسوا حبيبهم ﷺ..

قلت: للأسف لقد حصل كثير من ذلك.. فإن أولئك يفضلون الجاز والروك على البردة والهمزية.. فالأولى عندهم فسق والثانية كفر وشرك.

قال: ألا ترى أنهم قد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: للأسف.. لقد نجحوا نجاحا دونه كل نجاح.. فاضرب لي مثلا آخر.

قال: سأكتفي بهذه الأمثلة ليعلم قومك مقدار الغفلة التي حاقت بهم، فجعلتهم ينفذون مخططات خصومهم من غير شعور.

قلت: إنك لم تزدني إلا ألما.. فهل من مخرج مما نحن فيه؟

قال: المخرج بأيديكم.. يمكنكم في أي لحظة أن تقفوا على أعتاب حبيبكم، وتقبلوا يديه وتعتذروا له.. وتعيشوا الإسلام الذي رباكم عليه.

قلت: أي إسلام؟

قال: إسلام السلام والمحبة والأشواق الرفيعة والحضارة الراقية والهمم العالية..

قلت: فكيف نصل إلى هذا السلام؟

قال: بالعودة إلى رسول السلام.. فقد شوهتم صورته ورسالته.

قلت: ومن أين نتعرف عليه؟

قال: من القرآن والسنة والسيرة..

قلت: نحن نقرأ كل ذلك.

قال: وتسيئون فهم ما تقرؤون.

قلت: فما المخرج؟

قال: تبحثون عمن عرفوا رسول الله ﷺ.. وصاحبوه.. وامتلأت قلوبهم بمحبتهم.. وامتلأت حياتهم بسنته.

قلت: فهل يمكن أن نجد هؤلاء؟

قال: لقد من الله علي، فوجدت كثيرا من هؤلاء..

قلت: فهل ستحدثني عنهم؟

قال: أجل.. سأحدثك عنهم في الرحلات الثلاث التالية.. فلم تكن الرحلات التي ذكرتها إلا فراشا أوصلنا لعتبات الحبيب.

قلت: ثلاث رحلات [1]..

قال: ثلاث رحلات إلى النبي ﷺ

قلت: فما الأولى؟

---

(١) الأجزاء الثلاث التالية لهذه الرسالة تحاول التعرف بقدر الإمكان على النبي ﷺ من خلال المصادر الأصلية.

قال: إلى النبي المعصوم.
قلت: والثانية؟
قال: إلى النبي الإنسان.
قلت: والثالثة؟
قال: إلى النبي الهادي.

الفهرس

هذه السلسلة

هذه السلسلة مدرسة متكاملة في براهين النبوة ودلائلها، وفي الحوار الإسلامي المسيحي، وفي رد الشبهات التي يبثها المبشرون والمستشرقون والمستغربون.

وهي تعتمد الحوار العقلي، وتخاطب المخالف باللغة التي يفهمها، وتنطلق من المصادر التي يرجع إليها.

وقد صيغت بشكل روائي مبسط مليء بالأحداث المشوقة، لتجعل من كل مسلم داعية إلى الله، وحاميا يحمي حمى رسوله، ومناظرا ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات..وهذه أجزاؤها:

١. أنبياء يبشرون بمحمد	٢. الكلمات المقدسة	٣. معجزات علمية
٤. معجزات حسية	٥. ثمار من شجرة النبوة	٦. قلوب مع محمد
٧. النبي المعصوم	٨. النبي الإنسان	٩. النبي الهادي
١٠. سلام للعالمين	١١. عدالة للعالمين	١٢. رحمة للعالمين
١٣. الله جل جلاله	١٤. الإنسان	١٥. الحياة